THE LIBRARIES

COLUMBIA UNIVERSITY

GENERAL LIBRARY

أسمى الرسالات

تأليف

السيد عبد الحميد الخطيب

الوزير المفوض والمندوب فوق العادة
للمملكة العربية السعودية بباكستان
والمدرس بالمسجد الحرام سابقا

أشرف على تصحيحه وعلق عليه بعض الحواشي فضيلة الشيخ

حسنين محمد مخلوف

مفتي الديار المصرية

مطابع
دار الكتاب العربي بمصر
محمد حلمي المنياوي

BP
161
.A2

الطبعة الأولى
١٣٧٣ هـ — ١٩٥٤ م

إهداء

إلى حضرة صاحب الجلالة مولاى الملك سعود الأول

ملك المملكة العربية السعودية المعظم

باسم الدين نهضتم وفى سبيل الله جاهدتم وعلى تصحيح العقائد عملتم وبكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم حكمتم.

يسعدنى أن أقدم بجلالتكم فى أول يوم من اعتلائكم عرش هذا الملك العتيد ما وعيته ودونته (من رسالة خاتم النبيين للناس أجمعين) التى تشمل السيرة والدعوة اللتين تقوم عليهما دعائم الشريعة الإسلامية مع بيان حكمة التشريع ومبادئ الإسلام وغاياته، راجيا أن ينال مؤلفى هذا شرف الرضا والقبول، ويسعد بسعودكم المأمول فيهدى به الله من شاء لنفسه الهداية. ويدرك العاقل منه سبيل الحق ومسالك الغواية. ليكون كل انسان على نفسه بصيرا وبأمور دنياه وآخرته عليما خبيرا. وما توفيقى إلا بالله.

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

الخادم الأمين
عبد الحميد الخطيب

يوم الاثنين ٢ ربيع الأول عام ١٣٧٣هـ
الموافق ٩ نوفمبر عام ١٩٥٣م

تقرّب

إلى مالك الملك ذى الجلال والإكرام

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على خير من اصطفى . أما بعد فقد ربانى والدى الشيخ أحمد بن عبد اللطيف الخطيب يرحمه الله منذ طفولتى تربية ربانية فكنت كلما طلبت منه شيئاً قال لى اطلب من الله يعطك فإذا سألته وأين هو الله أجابنى هو معك حيث تكون يراك من حيث لا تراه فاطلب من الله ذلك الشيء ثم يجيء والدى فيقول ها إن الله قد أرسل لك ما طلبت وتحت تأثير هذه العقيدة كنت أطلب من الله كل شيء حتى أنى وقد كنت مولعاً فى صباى بلعب الشطرنج اطلب من الله فى سرى أن ينصرنى على خصمى فى اللعب عند ما أرى نفسى مغلوباً فلا البث أن أرى نفسى غالباً بأعجوبة أما عن طريق غلطة اللاعب أمامى أو بلعبة تصدر منى عفوا وإذا هى تكون سبباً يؤدى إلى النصر فتتجلى لى قدرة الله على كل شيء .

وإذا فرض أنى دعوت الله فلم يستجب لى جئت إلى والدى أقص عليه الأمر فلم يكن جوابه لى إلا أن يقول هذا ما لا يمكن أن يكون فلا بد أن يكون السبب فى ذلك راجعا إليك فلعلك قصرت فى واجب طاعته أو لم تكن دعوتك صادقة أو كان فيها ضرر بغيرك من عباد الله فارجع إلى ربك فاستغفره مما بدر منك أولا ثم انتظر منه تحقيق مطالبك فإذا ما عدت إلى نفسى وجابهتها بما قال والدى اعترفت لى بالحقيقة إذ لم يكن الإنسان فى الواقع يخلو فى حياته اليومية من عدة سقطات ومخالفات دون أن يشعر .

هكذا غرست العقيدة فى نفسى وتمكن الإيمان فى قلبى وزادتنى التجارب رسوخاً وتمكيناً فلا أذكر أنى لجأت إلى الله قط فى شيء وخيب أملى فيه بل ربما أعطانى خيراً مما طلبت وفوق ما أملت حتى عظمت ثقتى به تعالى فوكلت إليه كل أمورى ورضيت بما يختاره لى فإذا سعيت إلى أمر ولم أنجح فيه أو إذا طلبت منه شيئاً فلم يحققه لى لم

أغضب ولم أيأس بل أسلم له الأمر وأقول فى سرى (يرضينى ما يرضيك) فإذا بالأيام تثبت لى أن ما سعيت إليه أو ما أردته لم يكن خيراً وإن الخير فيما اختاره الله وبوحى هذه العقيدة فى نفسى نظمت قصيدة فى مناجاة الخالق العظيم أذعتها من محطة الإذاعة للحكومة المصرية فى عام ١٣٥٠ على دفعتين وأعيد طبعها مرتين . ومما جاء فيها قولى :

ولقد بلوت الدهر فى حدثانه ... وأجلت فى طيافه نظراتى
وأطلت فى هذا الوجود تأملى ... وبحثته من سائر الوجهات
فإذا الحياة عقوبة بالسجن لا ... تقضى بغير الكد والمحنات
وإذا السرور قصيرة ساعاته ... وتتابع الأحزان فى لحظات
وإذا بنا لم ندر منشأ خلقنا ... والسر فيه ومنتهى الذرات
وإذا الوجود يشف عن بطلانه ... ويشير للخلاق بالآيات
فالحق موجود وغير وجوده ... وهم وهذا الكون « كالسِّنَات »
والله أخرجه ونظم سيره ... بمناظر شتى على لوحات
والكل فيه ممثل دوراً له ... طبقاً لما قد جاء فى « النوتات »
وهو الذى قسم المعيشة بينهم ... بمراده وكذاك فى الدرجات
وهو المصرف للشئون جميعها ... ومقدر الأنوار والظلمات
قصص يسجلها الشريط بدقة ... تطوى لتنشر بعد فى الميعاد
حيث الوجود الحق واليوم الذى ... فيه الحياة تفوق كل حياة
ولقد شعرت بقدرة الخلاق فى ... تصويره للخلق والخلقات
وشهدت دقة صنع من برأ الورى ... وكساه أثواباً من الزينات
ونظرت ما خلف الستار فبان لى ... سر الإله محرك السكنات
وفطنت للإلهام حين يبثه ... فى النفس ثم يذاع بالأصوات
وبصرت بالمدد العظيم يحف بى ... والفيض وافى منك كالنسمات
فجحدت تأثيراً لغيرك فى الورى ... يا من علمت الفعل والنيات
وخضعت إجلالاً لقدرتك التى ... دانت لها الأكوان بالطاعات

وهزأت بالدنيا وأهليها معا ومقت ما فى الكون من متعات
وطفقت أنشد لذة لا تنقضى وسعادة موصولة الحلقات
وازداد إيمانى بذاتك سيدى مما أرى فى الكون من آيات

لكل هذا فإنى أقرر أن كل ما أنا فيه من سعادة وهناء إنما هو من محض فضل الله ونتيجة طبيعية للإيمان بالله والثقة به ، ومن أجل هذا أخذت على عاتقى أن أعمل لنشر الدعوة إلى الله لاقياما بواجب شكره سبحانه وتعالى فحسب فسواء شكرته بلسانى وقلمى أم لم أشكره ففضله تعالى على وعلى الناس أجمعين ثابت وأياديه ناطقة بشكره وما من شىء إلا يسبح بحمده .

وإنما أريد أن أحض الناس على أحكام صلتهم بالله ويضعوا كل ثقتهم فيه ليستفيدوا من هذه الصلة وينالوا بثقتهم به أعظم الدرجات فى الحياة وبعد الممات . ومن أجل هذا وضعت هذا المؤلف لأبين لهم حقائق الرسالة التى جاء بها خاتم النبيين من رب العالمين لعل فيها هداية للمهتدين . ولما هممت بتأليف هذا الكتاب كانت أوقاتى كلها مشغولة بأعمال الدولة التى أتقاضى عليها الأجر ، فرأيت أن لا أخصص لهذا إلا وقت فراغى ما بين صلاة الفجر وموعد الإفطار ، ولم يكن لدى من المراجع ماأستمد منه غير كتاب الله وبعض كتب الحديث فأعاننى الله وبارك لى فى وقتى وفتح على من الفيوضات الإلهية فى كثير من المواضيع مالم أكن أعلم به أو سمعته من أحد وشهدته فى كتاب الله من قبل ، فلم أر بداً من الإذعان بأن كل ما يراه القارئ الكريم ماهو إلا من الله وإلى الله وفى سبيل الله ، ولا غاية لى إلا أن يتقبل الله عملى ويعم النفع به وفقاً لقوله عليه الصلاة والسلام : « لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من الدنيا وما فيها » إن الله على كل شىء قدير .

وعندما وقف عليه بعض أفاضل العلماء والعظماء تفضلوا بكتابة بعض كلمات تعبر عن تقديرهم لجهودى كان بودى أن أقابلها بمثلها من الشكر دون أن أعنى بنشرها خصوصاً ، وإنى لا أرى فى مديح الناس للشخص مايرفع من قدره إذا كانت أعماله سيئة ، بل إن عبارات الشكر قد أصبحت فى هذا العصر المادى لاتغنى فتيلا — لولا أنى وجدت فيها تمجيداً للنعمة التى أنعم الله بها علىّ والتى أتحدث عنها ، وتمجيد

النعمة تمجيد للمنعم فلابد إذاً من إثباتها بل وتصدير مؤلفى بها . خصوصاً وأن فيها شهادة قيمة بأن ما كتبته وأكتبه إنما هو مطابق لجوهر الدين الإسلامى الذى أدعو إليه وأدافع عنه كما وإنى رأيت من واجب الوفاء لمن هيأ لى هذه الفرصة للتأليف وشجعنى ولا يزال يشجعنى على الاستمرار فى نشر الدعوة للاسلام بمختلف الطرق .

مولاى صاحب الجلالة الملك سعود الأول أيده الله وأعانه إن أهدى إلى مقامه العالى مؤلفى هذا . خصوصا وقد كان الانتهاء من تأليفه فى أول يوم من اعتلاء جلالته عرش ملكه السعيد والله المسئول أن يجعل عملى خالصاً لوجهه ويجعل من أثره التوفيق وحسن القبول .

المؤلف

تصدير

لحضرة صاحب السماحة العلامة الشيخ محمد عبد العزيز بن مانع

مدير المعارف العامة بالمملكة العربية السعودية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

إن سير الأولين وأخبار الماضين فيها عبرة لمن أراد الاعتبار ، وموعظة حسنة لمن أراد الاتعاظ تهدى المسترشد وتدل الحائر إلى مافيه صلاحه وفلاحه إذا طلب ذلك بحسن قصد ونية خالصة ، ولم يجعل دراسة العلوم الدينية والحوادث التاريخية كأخبار السمار الذين يقصدون بها اللهو وتقطيع الزمان .

وأن السيرة التى يجب الاقتداء بها ويهتدى بهديها لهى سيرة أنبياء الله ورسله ، فهى كفيلة بالسعادة لمن اقتدى بها وسار على ضوء نبراسها .

وقد أرشد الله أفضل أنبيائه وخاتم رسله إلى ذلك بقوله : « فبهداهم اقتده » فدين الله الذى بعث به أنبياءه فى التوحيد واحد لا اختلاف فيه وإن اختلفت شرائعهم وتباينت طرقهم العلمية والعملية كما قال تعالى :« لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » .

فكل نبى كان يدعو قومه إلى إفراد الله بالعبادة وخلع الأنداد فيهتدى به من هداه الله ويضل عن الحق من أضله الله حتى آل الأمر إلى أن عم الشرك جميع الأقطار فكفر أهل الأرض عربا وعجما إلا بقايا من أهل الكتاب فصار الناس فى أشد الحاجة إلى من يبين لهم دين الله الذى ارتضاه لعباده ، فبعث الله نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم مجددا لدين الله وداعياً إلى التوحيد والإيمان بالبعث بعد الموت الذى يجد فيه المؤمن ثمرة إيمانه والكافر جزاء كفره .

فاستجاب لدعوته بعض الأكابر من أهل مكة وكثير من المستضعفين فيها فأوذوا فى الله أشد الأذى فهاجروا بإذن رسول الله إلى أرض الحبشة مرتين ثم أذن الله لرسوله وهاجر إلى المدينة .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه أريت دار هجرتكم فوقع فى وهلى أنها اليمامة أو هجر فإذا هى المدينة فلما قدم المدينة أسلم كثير من أهلها ممن تاخر إسلامه عن السابقين إلى الإسلام قبل مقدم النبى إليها وبقى فيها طائفة من المنافقين فكان يعرفهم وسماهم لبعض أصحابه ولم يعاقبهم على نفاقهم بل حملهم على ماظهر منهم وعاملهم معاملة المسلمين ، وفى هذا من حسن السياسة مالا يخفى على المتأمل البصير .

فأقبل عليه الصلاة والسلام على دعوة الناس إلى توحيد الله والعمل بما شرعه الله من الدين فعمت دعوته الجزيرة العربية واستقام الدين وصار الناس إخوانا ، فلما توفى النبى عليه السلام حدث ماحدث من الاختلاف بين أصحابه مما هو معروف ولكنه اختلاف لايمس العقيدة الصحيحة وجوهر الدين .

فلما كان فى آخر عهد الصحابة نجمت بدعة القدرية المنكرين لسبق علم الله بالحوادث قبل وقوعها فكفرهم ابن عمر وغيره من الصحابة ثم حدثت فى عصر التابعين بدعة المعتزلة القائلين بالمنزلة بين المنزلتين يريدون بذلك أن المسلم الفاسق قد خرج بفسقه من الإسلام ولم يدخل فى الكفر ولكنه يخلد فى النار .

ثم تتابعت البدع وكثرت الحوادث فى الدين فتصدى لردها جماعات من علماء المسلمين ولم يزالوا يوالون الرد عليهم ويوضحون عقائد المسلمين إلى هذا العصر الذى زادت فيه البدع وكثر الضلال وفشا بين الناس الزيغ والإلحاد ولكن الله تعالى لم يترك عباده هملا وطعمة للملحدين فقيض لنصر الحق رجالا اصطفاهم ورزقهم علما جما صحيحا وأفكاراً سليمة وعقولا مستقيمة وإخلاصاً فى العمل فنصروا الدين وبينوا للناس سنة سيد المرسلين ، وما كان عليه فى أول أمره من دعوة الناس وإرشادهم إلى الهدى وهدايتهم إلى التمسك بما شرعه الله وأوضحوا ذلك إيضاحاً كافياً شافياً من جميع النواحى العلمية تاريخية وعقادية وعلمية وعملية .

ولكننا لم نر فيما كتب وألف فى هذا الموضوع أتم وأوفى وأوضح مما كتبه العلامة المحقق العالم ابن العالم السيد عبد الحميد الخطيب المكى فى هذه الرسالة الجامعة المفيدة فلقد أحسن صنعا وأجاد وأفاد حيث شرح فى أواخر هذه الرسالة الجليلة كلمة الإخلاص شرحاً وافياً وأوضح بقية أركان الإسلام إيضاحاً شافياً وتكلم على جملة من الصفات

الإلهية التى يتلون الماهر الحرّيت فى تحقيقها فحقق ذلك تحقيقا لامزيد عليه سالـكا فى جميع ذلك طريقة أهل السنة والجماعة .

وقد ضمن هذه الرسالة جملة من أبيات منظومته التائية المشتملة على كثير من الآداب الشرعية التى يجب على كل مسلم الأحذ بها والتأدب بآدابها فجزاه الله خيراً وكثر فى المسلمين من أمثاله .

محمد بن عبد العزيز بن مانع

كلمـــة

حضرة صاحب الفضيلة العلامة الجليل الشيخ حسنين محمد مخلوف

مفتى الديار المصرية وعضو جماعة كبار العلماء

بسم الله الرحمن الرحيم :

حمداً لمفيض الخير ومولى النعم ، وصلاة وسلاما على سيد العرب والعجم وعلى آله وأصحابه وأتباعه خير الأمم . (وبعد) فإن من حق الإسلام على علمائه وأعلامه وقادة الفكر فيه . بل مما افترضه الله عليهم وجعله أمانة فى أعناقهم إلى يوم الدين أن ينشروا تعاليمه الحقة . ومبادئه السامية بين الأمم التى يجهل بعضها كل شىء عنه ، ويحاول آخرون غمط حقه ، وتشويه حقائقه ، وصد الناس عنه بباطل من القول وزور ، حسدا من عند أنفسهم وطعناً فى الدين — وأن يفقهوا بها الشباب الناشئ فى بلاد الإسلام لتكون لهم دروعاً واقية من تلكم السهام المسمومة التى لا يزال يصوبها الغرب وجمهرة المستشرقين إلى الإسلام ورسالته فى هذا العصر الذى طغت فيه المادة ، وفشا فيه الإلحاد ، وساد التعصب الممقوت ، وذر فيه قرن الشيطان بالآراء الهادمة . وضعف فيه وازع الدين فى نفوس كثير من الناشئة ، وقوى فيه النزوع إلى تقليد الغرب والغربيين فى الآراء والنزعات والتقاليد والعادات ، مهما كان فيها من مجافاة للإسلام ونظرياته السليمة ، وأصوله المستقيمة ، وأحكامه القويمة ، ومثله العليا الكريمة التى شرعها الحكيم الخبير لصالح عباده كافة فى كل عصر وجيل .

* * *

إن الإسلام كما هو دين عقيدة سليمة فطرية ، راسخة نقية من التعقيد والشوائب ، ترفع النفوس من حضيض التقليد ومذلة الخضوع للبشر إلى ذروة الكمال والعزة بعبادة الكبير المتعال الواحد الأحد ، الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد — هو دين مدنى رسم للناس كافة مناهج الحياة القوية العزيزة فى السياسة إبان السلم والحرب . وفى الاجتماع . وفى الاقتصاد . وفى العلم والتثقيف . وفى أسباب

الوقاية والعلاج . وفى علاقة الفرد بالفرد . وعلاقة الفرد بالجماعة ، وعلاقة الأمة بالفرد وسائر الأمم . وفى علاقة الحاكم بالمحكوم ، وفيما لكل من حقوق وواجبات . وفى الأسرة . وفى ضروب المعاملات التى تقتضيها طبيعة المدنية والعمران . وفى الحدود والعقوبات التى تردع الجناة وتحمى منهم النفوس والعقول والأموال والأعراض والأنساب .

وقد قام تشريعه على أساس من رعاية الطبائع البشرية والفطرة التى فطر الله الناس عليها ، ورعاية المصالح ، ودرء المفاسد ، والأخذ بما هو أيسر على الناس وأسهل دون مايشق ويرهق .

وأباح للفقهاء فى كل زمان أن يجتهدوا فى حدود أصوله وقواعده المقررة لاستنباط أحكام مايجد من الحوادث والشئون فى الوقت الذى حظر فيه على غير المتأهل للاجتهاد أن يقفو ما ليس له به علم . ليكون الدين بذلك تشريعاً قويما سليما من الشوائب . عالميا ينطبق على أحوال الأمم والشعوب فى كل زمان ومكان . وتكون الرسالة الإسلامية رسالة عامة للبشرية خاتمة لما سبقها من الرسالات الإلهية . « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » .

* * *

قام أعلام الإسلام وأئمته منذ وجد الإسلام بما وسعهم القيام به فى إبلاغ الرسالة ونشر أحكامها وتعاليمها ، وإقامة حدودها ومعالمها وهداية الأمم إليها وبها حتى امتد الإسلام شرقاً وغرباً إلى حدود المعمور من الأرض .

وهذه آثارهم الخالدة توارثها الخلف عن السلف حتى وصلت لأيدينا تشهد لهم بما بذلوا فى ذلك من جهد ، وذللوا من صعاب وتجشموا من مشاق فوق احتمال الطاقة فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خيراً ووفقنا لاقتفاء آثارهم فيما نحن بأشد الحاجة إليه إعزازاً للإسلام ورفعة لشأنه .

* * *

ومع أنه لابد أن تبقى طائفة من العلماء قائمة على هذا التراث الخالد تحفظه وتنميه وتدفع عنه أولئك العابثين الذين يدعون الآن إلى نبذ كل قديم فى الآراء والعلم والدين والأدب حتى تنقطع الصلة بين الحديث والقديم ، ويسلس فى أيديهم مقاد الشباب إلى الفتنة والإلحاد — فإن شباب هذا الجيل وقد انتحى التعليم الحديث بهم ناحية أخرى

باعدت بينهم وبين ذلك التراث العتيد فى أسلوبه العالى ، وتعبيره الدقيق ومناحيه وطرائقه قد أصبح من الضرورى الذى لامناص منه تعريفهم بالدين وأحكامه ، وبحكمه ومراميه ، وبخصائصه ومزاياه ، وبتاريخ الإسلام وأبطاله وسيرة الرسول الأعظم وماتم له من إحياء ملة وإقامة دولة وبناء عالم جديد — بأسلوب آخر لائم تعليمهم وما ألفوه فى غير هذه العلوم من طرائق البحث والتحليل .

كما أن الدعوة إلى الإسلام فى البلاد الأجنبية فى هذا العصر تختلف فى أسلوبها وطرائقها عن القديم ، وتقتضى اتجاهاً جديداً فى العرض والإقناع والجدل والبحث والتحليل والمقارنة بين ثقافات ونظريات وآراء وبحوث فلابد أن نجدد فيها تبعاً لتطور الأفكار وإن كان الجوهر واحدا والحق لا تعدد فيه .

ولن نستطيع أن نقوم بواجب الدعوة إلى الإسلام بغير ذلك . وقد أدرك الأعداء مواضع ضعفهم فأصلحوا من أمرهم وأخذوا فى طريق غير طريق أسلافهم احتيالا على أغراضهم . ونحن بذلك أحق إذ أنا على الحق ونرجو من الله مالا يرجون .

* * *

ذلك واجب العلماء المفكرين فى هذا العصر . فهؤلاء الشبان أبناؤنا وأعز علينا من نفوسنا ، وهم فى مسيس الحاجة إلى مايروى ظمأهم ويشبع جوعتهم ويسد حاجتهم فى هذه العلوم الدينية الاجتماعية التى لايسعهم جهلها ولا يخرجون عن عهدة التكليف إلا بعلمها والإحاطة بها ؛ فمن الجفوة بل ومن القسوة أن لانحقق آمالهم ونعبد طرائقهم وأن ندعهم فريسة لأولئك الذئاب الذين يتخطفونهم من كل صوب بمختلف الأساليب والوسائل .

وأولئك الذين هدتهم عقولهم إلى البحث من الأجانب ورغبوا استجلاء الحقائق من مظانها وأهل العلم بها كيف يكون حكمهم إذا عادوا بغير علم ولا أمل فيما قصدوا إليه .

* * *

وأهم مايجب أن يعنى به العلماء عرض سيرة الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه عرضاً سليما من الشوائب ، جذاباً فى أسلوبه ، قوياً فى بحوثه ، منطقياً فى استنتاجه ، جلياً فى الكشف عن عظمة الرسول وبلوغه أعلى مراتب الكمال

فيما اختصه الله تعالى به من كريم الخصال وجلائل الأعمال ، حتى أضحى المثل الأعلى للإنسان الكامل فى العالم منذ الخليقة إلى الآن وإلى يوم الدين .

وقد درج السالفون فى كتب السيرة على سرد الوقائع والغزوات وما يتعلق بالرسول صلى الله عليه وسلم منذ ولادته إلى انتقاله للرفيق الأعلى سرداً مجرداً لا يشبع الباحث المدقق الآن . ولكن الواقع أن سيرته عليه السلام كرسول من رب العالمين اختصه الله من بين الرسل بالبعثة العامة إلى الخلق كافة برسالة مثالية عامة شاملة وافية باقية ما بقى الدهر — إنما يظهر جلالها وتبدو روعتها إذا عرضت بأسلوب حديث بقلم رصين وأسلوب جذل وبحث عميق تعلل فيه الحوادث بعللها ، ويربط فيه بين النتائج ومقدماتها وتبين فيه المبادىء العالية التى جاء بها ، والحكم التى قصد إليها ، ويقارن فيه الباحث وقد امتلأ صدره بالإيمان ، وأحاط خبراً بالكتاب والسنة ، وعلم من دقائقهما ما لابد منه فى بحثه الخير — بين الشريعة التى جاء بها رسول الله عن ربه والمعالم التى أقامها بما وهبه الله من فطرة هى أسمى ما فطر عليه إنسان وبما أوحى الله به إليه ، وقد أوحى إليه القرآن ومثله معه — وبين تلك الشرائع الوضعية والآراء الدخيلة الغربية مقارنة نزيهة سليمة من الالتواء والشوائب كى يكشف الغطاء عن عظمة الإسلام وصاحب الرسالة وعما فى غير الإسلام من ضعف وتخاذل وبعد عن المثل العليا الفاضلة .

***

ولقد قام بهذا العبء الخطير ، وأدى هذه الرسالة للمسلمين فى هذا العصر ، وعرف الناس بصاحب الرسالة الخاتمة تعريفاً صادقا ، أخونا وصديقنا الأستاذ العلامة المحقق الناشر الشاعر السيد عبد الحميد الخطيب الوزير المفوض للمملكة العربية السعودية فى باكستان فى سفره الجليل الذى أسماه (أسمى الرسالات) فجاء وحيداً فى نسجه فريداً فى بابه ، كاشفاً عن نواح هامة من عظمة الإسلام وصاحب الرسالة العظمى صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين . أوفى فى بيانه على الغاية ، وأتى بما لم يسبق إليه فى كثير من بحوثه حتى دعانى جمال الرسالة فى أسلوبها وترتيبها وأبحاثها إلى مطالعتها قبل الطبع وتعليق بعض الكلمات بهامشها . فجزى الله السيد المؤلف خير الجزاء ، وأحسن إليه بقدر ما أحسن إلى المسلمين ، وأجاد فى خدمة سيرة سيد المرسلين وخاتم النبيين صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

كلمـــة

حضرة صاحب السماحة الزعيم الإسلامى الكبير السيد محمد أمين الحسينى

مفتى فلسطين

الحمد لله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون . والصلاة والسلام على رسوله الأمين الذى أرسله مبشراً ونذيرا ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فإن رسالة الإسلام الخالدة التى بعث الله بها رسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم ، إلى الناس كافة ، على اختلاف أقطارهم وألسنتهم وألوانهم ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، ومن الضلال إلى الهدى ، هى أسمى الرسالات ، وأكمل الشرائع والديانات التى تكفل للناس مصالحهم وسعادتهم فى دنياهم وأخراهم ، وهى الدين القيم ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، كما أنها السبيل الوحيد لإسعاد البشرية ، ورفع مستوى الإنسانية ، وإنقاذها من أخطار الماديّة التى تكاد تعصف بسكان الأرض أجمعين وتقوض كيانهم وتتبر بنيانهم ، بما أسرفوا فيه من عبادة المادة ، وما أفرطوا فيه من من حب المال والشهوات فى الحين الذى نأوا فيه بجانبهم عن القيم الروحية والمثل العليا الخُلُقية والمبادئ السامية ونبذوا الحق والعدل والرحمة والخير جانبا ، وأوغلوا فى الإثم والعدوان ومعصية الله فى السر والعلانية ، فجروا بذلك على أنفسهم أشد الأخطار المنذرة بسوء المصير والفناء والتدمير بالمخترعات الجهنمية من ذرية وهيدروجينية وغير ذلك من وسائل الهلاك . والله المستعان نعوذ به من سوء المنقلب ونسأله الوقاية من الأخطار ونضرع إليه وحده فى الملمات والشدائد فلا حول ولا قوة إلا به ونسأله الهداية والتوفيق ، « أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى ، أمّن يمشى سوياً على صراط مستقيم » .

وإنه لا سبيل إلى إنقاذ هذا العالم الرازح تحت طغيان المادة والإلحاد ، وانحلال الأخلاق والفساد ، من حالته القلقة المضطربة ، فى الصراع الخطير القائم اليوم بين

غلاة الرأسماليين فى الغرب ، ومتطرفى الاشتراكيين الشيوعيين فى الشرق ، إلا بالعودة إلى رسالة الإسلام الكافلة للسعادة فى الدنيا والآخرة ، والضامنة لصالح البشر أجمعين ، بعدلها واعتدالها وبعدها عن الغلو والتطرف « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » تلك الرسالة المحمدية التى هى ينبوع الخير ، ومستقر السعادة ، والشريعة الغراء ، والمحجة البيضاء ، ونور الله الوضاء « الله نور السموات والأرض » يهدى الله لنوره من يشاء .

فهذه الرسالة المحمدية هى الحاجة الملحة والضرورة القصوى والدواء الوحيد لمعالجة جميع هذه الأدواء التى حاقت بالإنسانية جمعاء ، فينبغى أن تبلغ للناس كافة كما أمر الله ، وأن تصل إلى عقولهم وأفهامهم بأيسر الأساليب وأسهل الطرق ، وذلك ما قام بعبئه وسعى إليه بكل وسائله المبرورة وبذل فى سبيله جميع جهوده المشكورة ، حضرة الأستاذ العلامة الأريب السيد عبد الحميد الخطيب الوزير المفوض للمملكة العربية السعودية فى باكستان ، فقام بتأليف رسالته الجليلة « أسمى الرسالات » رغبة منه فى تبليغ دعوة الإسلام إلى الخاص والعام من مسلمين وغيرهم من جميع الأنام ، وجعلها فى أسلوب سهل جديد ، وثوب بديع قشيب ، جزيل الفائدة ، وترجمها إلى عدة لغات حية ليزيد بها النفع والخير ، فجزاه الله خير ما يجزى به عباده الصالحين ، من المؤمنين المخلصين ، والعلماء العاملين ، والله لا يضيع أجر المحسنين ، والحمد لله رب العالمين ؟

محمد أمين الحسينى

مفتي فلسطين

كلمـــة

صاحب السماحة الشيخ عمر بن حسن آل الشيخ

رئيس جماعة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى الرياض

الحمد لله الذى وفق من شاء من عباده للسعى فى مرضاته ، وأنار قلوبهم بنور الإيمان والهدى فأدلجوا السير مخلصين فى طاعة ربهم وعباداته ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله استوى على عرشه وبان من خلقه وعلا فوق سمواته ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذى أطلع الله به شمس النبوة والرسالة ، وأنقذ هذه الأمة من حمأة الوثنية والضلالة وبصرها من العمى وعلمها من الجهالة ، أما بعد فقد سرحت طرفى فى كمية من صفحات هذا الكتاب الذى ألفه الأخ الفاضل الأديب السيد عبد الحميد الخطيب المسمى (أسمى الرسالات) فألفيته كتابا جم الفائدة عظيم المنفعة وضح فيه مؤلفه ما ينبغى اعتقاده من العقيدة الصالحة السلفية وكشف القناع عن حكم إيمانيه وأسرار بديعة خفية لا يدركها إلا من له المام بالعلوم الشرعية بعبارات سهلة حكيمة وألفاظ جزلة قويمة ، قد اتخذ مؤلفه القرآن الكريم عماده ، والسنة المطهرة دليله .. وإسناده ، وقد سبق لهذا المؤلف الكريم قبل كتابه هذا عدة مؤلفات قيمه انتفع بها من أراد الله توفيقه واهتدى بها من أراد الله هدايته وصار لها أثر ملموس ووقع صالح فى النفوس ولله در هذا المؤلف الذى لم يشغله ما هو فيه من الوظائف الحكومية والأعمال السياسية عن النظر فى المهمات الدينية والواجبات الإسلامية وبيان الحق الذى علمه من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم والحرص على هداية البرية ، وهكذا فليعمل العلماء العاملون وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، ومن مزايا المؤلف المذكور أنه إذا نبه على شىء زل فيه القلم عن غير قصد تلقاه بالقبول واطمأن له بقلب عقول ولا سيما فى هذا الكتاب المشار إليه فقد نبه فيه على شىء من الإطلاقات وتأويل نبا عنه الذهن فى بعض العبارات فأصلح وفقه الله شيئاً مما نبه عليه ووعد بإصلاح ما بقى مما وقعت الإشارة عليه وفق الله هذا المؤلف وكثر من أمثاله وجعلنا وإياه من عباده المخلصين وصلى الله وسلم على عبده ورسوله سيد الأولين والآخرين وأفضل الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين .

كلمـــة

صاحب السعادة الشيخ أحمد إبراهيم الغزاوى

النائب الثانى لمجلس الشورى فى المملكة العربية السعودية
وشاعر جلالة الملك المعظم

بسم الله الرحمن الرحيم .

« ومن أحسن قولا مما دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين » .

لم أكن لأجعل للعاطفة سبيلا على ولا لعين الرضا — كما يقولون — تأثيرا فى كلمتى هذه المتواضعة ذلك لأن الموضوع الذى أعالجه إنما يعنى الايمان فى أعماقه . والعقيدة فى صميمها . وهما أعز وأغلى من أن يساوم فيهما المؤمن بأى ثمن وهو يرجو الله واليوم الآخر .

ولست بحاجة إلى تقديم أخى وصديقى الأستاذ النابغة والشاعر الفحل والأديب الممتاز السيد عبد الحميد الخطيب الوزير المفوض بباكستان إلى قرائه فى الداخل وفى الخارج فهو شخصية معروفة فى جميع الأوساط قد ضربت بسهم وافر فى الإنتاج العلمى والأدبى منذ عهد بعيد وقد شغفه الإخلاص لدينه والنصيحة لأمته والشفقة على أبناء وطنه والإهابة إلى الأخذ بما كان عليه السلف الصالح والرجوع إلى المنبع الصافى من الشرعة المحمدية التى هى المحجة البيضاء والسبيل الأقوم والمنار الواضح لكل من أراد الاستمساك بالعروة الوثقى والوصول إلى الغاية القصوى من خير الحياتين وبلوغ الحسنيين .

أما سيرته وأخلاقه وما تحلى به من صفات تجعله فى الطراز الأول من أولئك الرجال الأفذاذ الذين لم تبهرهم مدنية العصر الحاضر وزخارفها ، وتسمو به عن التفريط والإفراط فى النظر إلى مشاكل البيئة والاجتماع وتكريس كثير من وقته لدرس الحلول الناجعة لها من أقرب الطرق وأوسعها بما يتفق مع مبادىء الدين الصحيح ومناهج الحكمة والتوفيق فإنها تبدو جلية واضحة فى أحاديثه وكتاباته ومحاضراته فى شتى المواضيع والظروف والمناسبات فهو شعلة موقدة ومصباح منير وكوثر فياض

يتدفق بيانا ويشع ضياء وينهمر حمية ولا يألو جهدا فى إعلان كل ما تتجاوب به أصداء قلبه من آلام وآمال لا تعدو أن تكون فى جميع مظاهرها ألوانا منعكسة عن روحه المنسكبة فى نظمه ونثره وسره وجهره حبا لأبناء جلدته ونصيحة لدينه وأمته وابتغاء لرضوان الله وثوابه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

لقد عرفناه نشئا وغلاما وعرفناه شابا وكهلا — فما كان إلا الخلق الكريم والأدب الحى والطاعة المحمودة والمروءة المجسمة — يغترف العلم من مناهله العذبة النقية ويتأثر خطى الصالحين فى تعبده واخباته وتدفعه غيرته إلى الصراحة بالحق والوقوف إلى جانبه ما وسعه أن يقف غير مداهن فيه ولا موارب عنه .

ولا شك أنه لا يرضى بأن يكال له الثناء على واجب يؤديه — فى كتابه هذا أو سواه فهو يريد به قبل كل شىء وجه الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

نعم : من الحق علينا ونحن مواطنوه أن لا نبخسه ما بذل ويبذل من جهد وسهر وما تحمله من مشقة وعنت فى انتاجه الكبير ولا سيما وهو ينظم هذا القدر العظيم من المعانى الحافلة والفصول المشرقة فى سيرة النبى الأعظم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، تلك السيرة التى هى نبراس يضىء ما بين السماء والأرض وقبس نورانى تتألق به جوانب الأفق فى كل بقعة تحت الشمس فهى مصدر قوى للألهام يستمد منه المؤمن أسمى ما يتمثله القلب والعقل من فضائل وأخلاق خص بها الله من أرسله رحمة للعالمين .

فلا غرو إذن — إذا اعتبرنا عمله هذا الأول من نوعه فى عرضه وتبسيطه وأسلوبه الجذاب وسهولته المغرية وتبويبة الاخاذ وهدفه المتوخى — فقد أضاف إلى المكتبة العربية كنزاً ثمينا لا ينفرد بالفخر به أنه صاحبه بقدر ما نشاطره هذا الفخر أنه « ابن زمزم » وأنه الإبن البار لهذا البلد الأمين الذى لا شأن له قديما ولا حديثا إلا بما أسبغه الله عليه من جلاله وتقديسه منذ أن جعله الله « مثابة للناس وأمنا » ومهبطا لوحيه ومهوى لأفئدة خلقه ومبعثا لرسالته ومشكاة لهديه ومأرزا لدينه وعصمة لأوليائه ومباة لموحديه من كل جنس وأمة فى مشارق الأرض ومغاربها .

لقد تمادى الزمن وتصرمت القرون وتباعدت الشقة بين الناس وبين ما كان السبب المباشر لتقدمهم وفلاحهم منذ انصرف الكثيرون منهم عن دراسة هذه «السيرة النبوية » — وما تبعثه فى قلوب الموحدين من حب التأسى بها والسير على منوالها

والدعوة إلى سبيلها وجاءت « الحضارة الفاتنة » من وراء هذه الغفلة « ضغثا على إبالة » فكادت تملك الأسماع والأبصار بزبرجها — وما هى فى الواقع إلا كمثل المرأة الحسناء — فى المنبت السوء تدك صروح الأخلاق من أساسها وتنشىء على انقاضها نفيعة اثرة « أنانية » لا تؤمن إلا بالمادة ولا تركن إلا إليها فطم البلاء وعم الوباء — وأشفق الناصحون على أنفسهم وأبنائهم وأوطانهم أن تنغمس فى هذه الحمأة المهلكة — وشايعتهم الأحداث — وأسعفتهم البراهين فوجدوا أن الشكوى ترتفع بها صيحات الشرق والغرب من ويلات الانهماك فى الشهوات والجرى وراء الموبقات وقامت الأدلة الساطعة على أنه ما من أمة أو شعب — مهما أوتى من كثرة العدد ونماء التربة ونعيم الترف وبلهينة العيش وأفانين الحضارة — إلا وهو صائر إلى لهواته الأخيرة ما لم يكن متمسكا بدين أو معتصما بخلق متين وهكذا شهد هذا الجيل ومن قبله مصارع الشعوب التى كانت إلى حين قريب تترنح بخمرة اللهو واللذة المطلقة وتتكل على ما هى فيه من متعة موهومة وكيان منهار .

وكذلك يقول أمير الشعراء وما أصدق ما قال :

وليس بعامر بنيان قوم إذا أخلاقهم كانت خرابا

ويقول :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

***

بعد هذا أرانى مضطرا أن أشير — كما كررت ذلك فى كل فرصة — إلى أنه لا بعث لنا ولا حياة ولا أمل فى الحياة مالم نلجأ إلى ديننا القويم وطريقنا المستقيم وإلى مراجعة ومدارسة سيرة نبينا الكريم وسيرة الخلفاء الراشدين من بعده وما لم نجعلها بعد الكتاب والسنة مثلنا الأعلى وهدفنا الأسمى .

إن بلادنا بلاد دينية مقدسة ، لا شرف لأهلها ولا اعتبار إلا إذا حافظوا على شريعتهم المطهرة ، واستمسكوا بها ، ودعوا إليها ، وساروا عليها ، وإلا فيالخيبة والإثم .

وأخيراً أضرع إلى الله جل شأنه أن يتغمد برحمته ورضوانه فقد العرب والإسلام صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود وأن يجزيه عن أمته خير ماجزى راعيا عن رعيته وأن يمد فى حياة خلفه صاحب الجلالة السعودية ، نصير السنة المحمدية ملك المملكة العربية جلالة سيدنا ومولانا الملك سعود الأول ، وأن يمكن له فى سلطانه ، ويغدق عليه من نعمه وفضله وتوفيقه وإحسانه ، وأن يتولاه بحفظه ونصره ، وأن يحرس سمو ولى عهده المعظم ، وسائر إخوانه و أنجاله الميامين . وأن يجعل عصره الزاهر عصر إنشاء وإحياء وغبطة ويسر وهناء .

وإن أنس فلا أنسى أن أختم كلمتى هذه بشكر لايبلغ بى البيان منه ما أريده لحضرة صاحب السعادة السيد عبد الحميد على ماتجشم من عناء التأليف وأعباء التكليف وأكل إلى الله سبحانه وتعالى حسن مثوبته وأن يجعلها عوناً له على استئناف مجهوده فيما هو بسبيله « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

أحمد ابراهيم الغزاوى

كلمـــة

صاحب السعادة الأستاذ محمد محمود الزبيرى

رئيس الاتحاد اليمنى بمصر ووزير معارف اليمن سابقا

فى هذا العصر المادى الذى تتفاخر فيه الأمم على المنافع والأغراض ويسوقها الطمع إلى مايشبه الانتحار ، فى هذا العصر نفسه تقوم القوة الروحية بالنضال عن نفسها وعن مصير الإنسانية جمعاء فتنبعث فى نفوس المؤمنين بها مشيئة مصممة على الزياد عن القضايا الروحية الخالدة .

وهناك فى باكستان البلد الإسلامى الكبير وزير مفوض من وزراء الدول العربية هوسعادة السيد عبد الحميد الخطيب تفيض روحه إيماناً برسالة الإسلام السامية ولقد عرفته وعشنا معه زمناً طويلا ولشد ماكان يعجبنى منه ويأخذ بلبى أن أراه يناضل عن الفكرة الإسلامية ويبثها فى كل مناسبة ويسخر لأجلها كل إمكانياته كوزير مفوض مما أوجد له مركزاً فذاً فى باكستان عند علماء الإسلام هناك .

ولكم كان يدهشنى أن أجده منشغلا بعمله كوزير مفوض وأجده فى الوقت نفسه يخرج للإسلام من روائعه مالا يتوفر إلا للباحث المنقطع لبحثه مما يدل على أن الإيمان يفجر ينابيع الفكر ويتغلب على الصعوبات ويأتى بالمعجزات .

وها هو الآن يخرج للأمة الإسلامية كتابه الجديد « أسمى الرسالات» ويتعرض فيه لمعضلات الفكرة الإسلامية التى حار فيها علماء الإسلام واصطرعوا فيها صراعاً مريراً ولكنه يأتى فى هذه الرسالة بما يقنع ويقطع الحجة على الناس يأتى بنصوص القرآن والسنة ويستنبط فيها الأدلة الواضحة التى يدين بها العقل ويقتنع ويسلم .

ومن المواضيع المثيرة الخطيرة موضوع القضاء والقدر لقد جاء فيه مؤلف « أسمى الرسالات » بآراء جزيئة عظيمة القيمة تدفع عن المسلمين تهمة الجبرية التى يعيرهم فيها كثير من المستشرقين .

الحق أن سيادة السيد عبد الحميد الخطيب قام بمجهود جبار سيكتبه الله فى سجل المناضلين عن دينه الغيورين على أمة الإسلام فليجزه الله خيراً .

كلمـــة

صاحب الفضيلة العلامة الشيخ حسن ابن شيخنا الشيخ سعيد اليمانى

المدرسين بالمسجد الحرام

بسم الله الرحمن الرحيم — بعد حمد الله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه أقول :

قد تجولت فى رياض مباحث هـذا السفر الجليل المسمى أسمى الرسالات لمؤلفه العلامة الشهير بطل المصنفات والتحقيق ، فألفيته جمع من مهمات سيرة خير البرية ، بطريقة لم ينسج على منوالها ناسج — فيما أعلم — وأهم مافيه — وكله نفيس مهم — ماحبره يراعه الكريم من بسط البحث وإيضاحه فى القدر المشترك بين أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام وهو عبادته وحده لاشريك له وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم ووصيته تعالى لهم بالإئتلاف والجماعة وعدم الافتراق والاختلاف وبيانه بأسلوبه العذب أن دعوى محبة الله ورسوله مع المخالفة فى الطريقة كفر والله لايحب من اتصف بذلك وإن زعم فى نفسه أنه محب لله ورسوله « قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لايحب الكافرين » أسأل الله له التوفيق إلى أمثال هذه الخدمات العاليه التى يقدمها للشريعة كل يوم بهمة وعزيمة صادقتين وأضرع إليه جل شأنه أن يقيض لهذه الأمة أمثاله الدعاة بالحكمة ليهتدى بهم من شرح الله صدره لمتابعة الشرع المحمدى والدين النبوى فى جميع الأقوال والأفعال أنه ولى الهداية والتوفيق .

حسن سعيد يمانى

كلمـــة

حضرة صاحب الفضيلة الشيخ سليمان الندوى

كبير علماء الهند وباكستان وصاحب التصانيف العديدة

العلامة الشيخ الأستاذ السيد عبد الحميد الخطيب المدرس بالحرم الشريف سابقاً والوزير المفوض للدولة العربية السعودية فى كراتشى عاصمة باكستان حاليا من العلماء الفحول الذى يهتم كثيرا بالمواضيع العلمية والدينية دائماً علاوة على أعماله السياسية الجليلة فهو يأتى للمسلمين فى كل عام بعدة بحوث علمية حديثة وهو بارك الله فيه مفسر ومحدث ومؤرخ ومتكلم وشاعر وأديب فى آن واحد وهو يشعر بمقتضيات الزمن الحاضر وأحواله وما ينبغى له ويعرف تماما كيف يعرض أصول الإسلام وعقائده عرضاً يلائم ذوق أهل العصر ، تأليفه الجديد باللغة العربية (أسمى الرسالات) تأليف مفيد جدا ومؤثر فى النفوس يتبين فيه المرء أهمية شخصية النبى المرسل ودعوته ورسالته بأسلوب بديع وطراز معجب ، ولقد دعا فيه أهل البصيرة إلى أن يفهموا هذه الدعوة الربانية على حقيقتها ، ومما لاجدال فيه أن المؤلفات القديمة فى موضوع السيرة النبوية إنما كتبت بأسلوب من البيان لا يتفق مع أساليب التعبير فى الوقت الحاضر فلا يحقق الغاية منها والمؤلفات الحديثة فى الموضوع جاءت خالية عن الإذعان القلبى ونور الإيمان ومحرومة من صوت فؤاد المؤمن ، أما (أسمى الرسالات) فإنها كتبت على طراز جديد من البيان من جهة ومن الأخرى فإنها مملوءة بنور الإيمان والإذعان لله فى كل شئ ، وقد اهتم المؤلف بترجمة التأليف وإذاعته باللغتين الأوروبية والإنجليزية أيضا تعميما للفائدة وتكثيراً للنفع كما اهتم بتحليل الدعوة النبوية العالية ومقاصدها السامية خاصة، وفى هذا التأليف أكثر من الحقائق التاريخية وبين فيه أن محبة الرسول الحقيقية لا تكون بالمبالغة فى مديحه والغلو فى مناقبه بالأناشيد والقصائد بل تكون بالقدوة الحسنة والعمل بأوامره واتباع سننه السنية وأساسه التوحيد الصافى والعبادات الخالصة والأخلاق الكريمة .

والنبى صلى الله عليه وسلم كان على أعلى مراتب الأخلاق الفاضلة وتلك فضيلته العظمى وأدعو الله أن يسبغ على المؤلف أجره الجزيل ويحيط المسلمين بخيره الكثير .

كلمـــة

صاحب الفضيلة الشيخ ابراهيم داود فطانى

من أكابر علماء الحجاز ووعاظها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله الأعظم سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه

وبعد : فقد اطلعت على هـذه الرسالة الموسومة . « أسمى الرسالات » لمؤلفها السيد عبد الحميد الخطيب الوزير السعودى المفوض لدى حكومة البا كستان . الذى جمع الله تعالى له بين العلم والسياسة فكان ناجحاً فيهما . وليس أدل على نجاحه فى السياسة من توثيقه روابط الصداقة والأخاء بين السعوديين والبا كستانيين حكومة وشعباً . ومن محبة البا كستانيين له والسعوديين على حد سواء . وليس أدل كذلك على نجاحه فى العلم من هذه المؤلفات القيمة النافعة التى يطالعنا بها فى كل سنة . وأن هذه الرسالة التى بين يدى الآن تشهد له بطول الباع وسعة العلم وغزارة المادة وبراءة القصد : يسطر فيها سيرته صلى الله عليه وسلم بأسلوب شيق جميل يغرى المطالع على متابعة القراءة . وإمعان الفكر . ويحثه على الاتباع والاقتداء بصاحب هذه السيرة الذى بعث لإتمام مكارم الأخلاق : مستنيراً فى كل ما يورده بالكتاب والسنة وتحكيم العقل فيما يرميان إليه من أعراض وأهداف : مع اجتناب للتعصب . وابتعاد عن الرجعية : اللذين كانا من أهم الأسباب فى تأخر المسلمين . وقد أعجبنى فيها وكل ما فيها معجب كشفه عن أسرار هـذه الدعوة المحمدية واتجاهاتها وطرقها ومناهجها فى عرض رتيب حميد . ولا غرابة فهو فى العصر عبد الحميد : أسأله تعالى أن يجزيه عن المسلمين خير الجزاء ، وأن يكثر من أمثاله من المسلمين . وأن يسددنا وإياه ويوفقنا إلى العمل الصالح الذى يرضاه . وأن ينفع برسالته ومؤلفاته . وأن يجعل عملنا وعمله خالصا لوجه الله ومرضاته ؟

كلمـــة

العلامة الشيخ محمد عادل القدوسى

مدير شعبة الشؤون الدينية بالمفوضية السعودية بكراتشى
وعضو مجلس دائرة المعارف بحيدر أباد دكن سابقاً

من المبادئ المقررة فى ميدان البحث العلمى عدم وضع حد نهائى للتأليف فى باب العلم والعرفان مهما كان ذلك الباب ضارباً فى القدم ، ومهما كان المؤلفون قد أشبعوه بحثاً وتنقيباً .

ونحسن إذا طبقنا هذا المبدأ على الكتابة فى السيرة النبوية الشريفة ، لرأينا أن الباب لا يزال مفتوحاً لكل من أراد أن يدلى بدلوه فى هذا الميدان ويأتى بشىء جديد من حيث الفكرة أو يتبع فى كتابته أسلوباً شائقاً تلذ قراءته لأهل العصر الحديث المجبولين على تبسيط الأفكار وتسهيل الأسلوب مع الاستناد إلى براهين مستمدة من علم الحديث ومع الابتعاد عن الشعوذة والتدجيل .

وسعادة السيد عبد الحميد الخطيب الذى يعرفه أكثر الناس وزيراً مفوضاً للمملكة العربية السعودية فى باكستان ، يضطلع اليوم بتأليف السيرة المحمدية ، بعد أن عقد العزم على أن يخرج للملأ كتابا قديماً فى موضوعه ، جديداً فى أسلوبه ومستنداته . فسعادته بالإضافة إلى ذلك عالم جليل من علماء الدين ، تشهد له بذلك مؤلفاته العديدة فى هذا الميدان . ومن نعم الله على الإسلام ألا ينسى بعض علمائنا التفكير فى طريقة نشر الدين الإسلامى ، بعد أن أنعم الله عليه بالمنصب العالى والعيش الرغد ، ولعل من مميزات هذا الكتاب :—

١ — استناد المؤلف إلى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، فإن وجد تعارضا بينهما وبين أقوال المؤرخين وتحقيقاتهم ضرب المؤلف صفحاً عن هذه الأقوال والتحقيقات ، واعتمد كلياً على المصدرين الأولين .

٢ — استنباط الوقائع التاريخية الصحيحة من القرآن والحديث ، عن طريق التعمق فى معانى هذين المصدرين .

٣ — استنباط الأصول الشرعية من مفاهيم القرآن والسنة ، ورفض التأويلات البعيدة أو القياسية .

٤ — الابتعاد عن علوم المنطق والفلسفة بقدر الإمكان ، وإن أدى الأمر إلى مخالفة ما جرى عليه الإتفاق بين جمهور المؤلفين .

٥ — رفع الحجاب عما غمض على الناس من مسائل التوحيد والغيب والقضاء والقدر وتسليط ضوء القرآن والحديث على هذه المسائل الهامة ، ثم الخروج بنتائج واضحة ترضى المسلمين وغير المسلمين .

٦ — ترجمة الكتاب إلى اللغتين الأردية والإنكليزية ، ليستفيد منه ويقف على محتوياته سكان باكستان والهند والناطقون باللغة الانكليزية فى جميع أنحاء العالم .

و بعد ؛ فلقد شرفنى سعادة السيد عبد الحميد الخطيب بأن طلب إلى ترجمة هذا الكتاب النفيس إلى اللغة الأردية ، فبذلت من أجل ذلك جهداً لا مزيد عليه والتزمت جانب الأمانة فى الترجمة مع الاحتفاظ إلى حد كبير بروعة الأسلوب العربى فى التأليف. كذلك قام حضرة الوجيه خان بهادر الحاج وجيه الدين رئيس جمعية إشاعة القرآن الكريم ، بطبع الترجمة الأردية ونشرها فى باكستان تعميما للفائدة . أسأل الله أن يجعل هذا المجهود خالصاً لوجهه الكريم ، ويهيئ له ما هو جدير به من الفائدة والانتشار .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى خلق الإنسان علّمهُ البيانَ ، وفضله بالعقل على سائر الحيوان واختار فريقاً من عباده الصالحين ليكونوا واسطة لتبليغ رسالته للعالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين ، وعلى آله وصحبه ومن اتبع طريقه إلى يوم الدين .

أما بعد .

فقد كتب الكثير من المسلمين عدة كتب فى سيرة النبى محمد صلى الله عليه وسلم باللغة العربية ، تناولها المستشرقون بالبحث والتعليق ، بحسب ما توحيه إليهم أفكارهم ، وتمليه عليهم نحو الإسلام عقائدهم ، فشوهوا سيرته النقية وطعنوا فى شريعته المحمدية .

ولما كان الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم إنما أرسل إلى الناس أجمعين ، وكان من حق كل إنسان أن يعلم حقيقة سيرته وأساس دعوته ، رأيت من واجبى أن أستعين بالله وأكتب رسالتى هذه عن رسالته التى تشمل السيرة والدعوة باللغة العربية ، وأعمل على ترجمتها باللغة الأوردية والإنجليزية المنتشرة الآن كل الانتشار ، ليعلم الناس بها ، وليكونوا على بينة من الأمر ، وأكون قد بلّغت والله يشهد ؛ عسى الله أن يَهدى بها إلى الحق من رام فى الحياة الصدق . وإنى على يقين تام بأن الناس اليوم — وقد ارتقت أفكارهم ، ونضجت عقولهم ، وأصبحوا لا يؤمنون بالخرافات ولا يسلمون بمجرد النظريات — هم فى أشد الحاجة إلى دراسة مثل هذه السيرة التى تفتح أعينهم ، وتنير بصائرهم وتحملهم على اتباع ذلك النبى الكريم ، وما جاء به من التعاليم التى تنقذ العالم من الكوارث والمحن التى حلت به ، وتأخذ بيده إلى الكمال الإنسانى ، وتذيقه طعم السلام والطمأنينة التى ينشدها ، إن الله على كل شىء قدير .

والكتابة عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ليست كالكتابة عن سيرة سائر

الناس ، فلقدتعود المؤرخون أن يكتبوا عن العظماء بما يتصل بهم من أخبارهم ولو كانت بعيدة عن الحقيقة ، أو مبالغاً فيها — بقصد التمجيد والإطراء — إذ الأمر لا يعدو تسجيل ماروى عنهم ولا يترتب على صحته وعدمها شيء يضر الجمهور . . والكلام عن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم يختلف عن ذلك كل الاختلاف ؛ ذلك لأن كل قول من أقواله وعمل من أعماله سنة تقتدى . فيها إصلاح للناس فى أمر دينهم ودنياهم ، وفى اتباعها رضاء الله وثوابه ، والزيادة فى ذلك واختلاق شيء عنه يؤدى إلى البدعة وشر المصير .

من أجل هذا كان الواجب على كل من يريد الكتابة عن سيرته عليه الصلاة والسلام أن يتحرى فيما يكتب ، فلا ينقل عنه إلا ماثبت ثبوتاً قاطعاً ، ولا يصفه بغير حقيقته التى كان عليها ، خصوصاً وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » وقال أيضاً : « لا تُطْرونى كما أطْرت النصارى ابنَ مريم ، فإنما أنا عبد الله فقولوا : عبد الله ورسوله » . وخوفاً من الله وتنفيذاً لأمر نبيه صلى الله عليه وسلم جعلت مستندى فيما أكتب القرآن أولا ، والصحيح من أحاديث الرسول ثانياً .

أما الأول : فلأنه أصح الكتب السماوية المقطوع بصحتها لعدة اعتبارات :

١ — من حيث صحة نقله : فقد لقنه النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه وحفظوه عنه ، وكانوا يرتلونه فى صلواتهم ويتدارسونه ويدونونه على أوراق الشجر والجلد والعظم ثم جمعه زيد بن ثابت كبيرُ كتاب وحى رسول الله بأمر من أبى بكر الصديق الخليفة الأول لرسول الله . وأتم الجمع مرتباً على النحو الذى كان زيدٌ يتلوه به فى حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وسلم النسخة إليه فأودعها عند ابنته حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم وترك ما كان فى أيدى الناس فى أيديهم ، ثم حدث فى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان اختلاف فى بعض الآيات وطريقة التلاوة ممن لم يرجعوا للمصحف الإمام ، فأمر بجمع ما بأيدى الناس من الآيات ، وأمر بالنسخة الأولى فأحضرت من عند حفصة ، ثم أمر زيد بن ثابت نفسه أن يقابلها مع تلك الأجزاء ويراجعها مع ثلاثة من أكابر القراء للمرة الأخيرة ، لكمال الدقة وضبط ماورد فى بعض الآيات من القراءات ، حيث إن الوحى نزل على سبع لهجات مختلفة من

لهجات العرب ففعلوا . وأمر الخليفة عثمان بإرسال نسخ من النسخة الأصلية إلى جميع الأمصار وأعاد الأصل إلى حيازة حفصة ، وأحرق ما كان فى أيدى الناس من أجزاء متناثرة . وظل المصحف على ذلك النص من عهد عثمان حتى الآن ولم يطعن فى صحته أو صحة شىء منه أحد من المسلمين ولا خلاف بينهم فى أنه هو الكتاب الوحيد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

٢ — من حيث جوهره : فقد أنزل على محمد بلغة عربية فصحى لم يستطع العرب وبلغاؤهم إذ ذاك مجاراتها ، فلم يسعهم إلا أن يعترفوا بأنه لم يكن من قول بشر . وقد ظل كذلك حتى يومنا هذا لم يجرؤ أحد على العيب فى شىء منه .

٣ — من حيث صلته بالله : فقد صح ما ورد فيه من قول الله تبارك وتعالى : « إنّا نحن نزّلنا الذكرَ وإنّا له لحافظون » فقد ضبط وعرفت آياته عند المسلمين أجمعين فحفظوه عن ظهر الغيب وصاروا يرددون تلاوته فى الصلوات والمساجد والنوادى والمجتمعات ،وهاهم أولاء يذيعونه اليوم من محطات الإذاعة فى كل مكان صباحاً ومساء .

٤ — من حيث أثره : فقد تجلى للملأ مبلغ هدايته للايين البشر من أول يوم نزل فيه حتى عصرنا هذا .

وأما الثانى :

فلأن الله جل جلاله قد أمرنا فى القرآن الكريم باتباع الرسول ومتابعته ، حيث قال : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » ومن أجل ذلك حرص أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين كل الحرص على تتبع خطواته وتناقل أخباره ورواية أحاديثه . وهى وإن لم تدون فى عهد الرسول وخلفائه إلا أن المسلمين لم يعدموا طرقاً توصلهم إلى صحة الأحاديث بصحة السند والثقة بالرواة ومع ذلك فسأحرص — بحول الله — على أن لا أعتمد فى مستندى من الأحاديث إلا على ما يقره العقل والعلم وتقوم الأدلة على صحته ، أو تتجلى حكمته ولا يتعارض مع كتاب الله الذى هو الأساس .

وسوف لا أضيع وقت القارىء فى سرد بعض القصص والروايات التى لا مصلحة له فى العلم بهما ، كما أنى سأتجاوز عن ذكر الكثير من أسماء الرجال الذين لا فائدة للقارىء من تعدادهم وسأكتفى بالقرآن عن ذكر . كثير من المعجزات التى أجراها الله

على يد نبيه . تصديقا له فى دعوى الرسالة وقد قال الفقهاء أن خوارق العادات التى جاءت على يد أحد الأنبياء بقصد التحدى لإثبات نبوته هى التى تسمى معجزات ، وإذا لم تكن بقصد التحدى فإنها لا تعدو أن تكون من باب إمداد الله لمن يريد من عباده المستنصرين به والمتوكلين عليه ، على حد قوله تعالى : « وذا النون[1] إذ ذهب مُغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين » .

والنبى صلى الله عليه وسلم وأن جرت على يديه معجزات كثيرة إلا أن أعظم معجزاته القرآن الكريم الذى لا معجزة له تساويه ، فلا حاجة لنا إذاً فى ذكر غيره على أنه عليه الصلاة والسلام بشخصه وتصرفاته معجزة من أعظم معجزات الله الخالدة .

وأرجو أن أوفق إلى تصحيح ما رآه بعض المؤرخين سبباً لبعض تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم بما يكون أقرب إلى الواقع ويتفق مع شرف الغاية التى كان يرمى إليها عليه الصلاة والسلام مع الحرص على ذكر الحوادث كما وردت من أوثق المصادر .

وسأفرد مواقفه مع اليهود على حدة ، ليعلم الناس مبتداها ومنتهاها .

إن عظمة الرجال لا تكون بجمال الوجه ووسامة الطلعة ولكن بحسن الخلق وصالح الأعمال وعلو الهمة ونبل المقصد وأثره فى المجتمع فالناس اليوم أحوج ما يكونون إلى فهم حقيقة رسالة هذا النبى الكريم وما كان عليه صلى الله عليه وسلم من أخلاق ، وما أدى للمجتمع من أعمال صالحات ، وما جاء به من مبادىء سامية وحكم غالية وشريعة سمحة كان لها أعظم الأثر فى إخراج الناس من الظلمات إلى النور ومن الضلال إلى الهدى ومن الذل والهوان إلى العظمة والسلطان ، ومن التباغض والأنقسام إلى الاتحاد والوئام .

وحسبنا أن نسجل أنه عليه الصلاة والسلام ما نال هذه المنزلة الرفيعة إلا باتصافه

---

(١) الأنبياء ٨٧

بصفات جده إبراهيم الخليل عليه السلام فى نقمته على ما كان عليه قومه من عبادة الأوثان ، ولتوجهه إلى الله واستلهام الهدى منه ، وما قاسى فى سبيل الدعوة إليه من مختلف المصائب والشدائد التى احتملها عن طيب نفس حتى صار أهلا لأن يخلف إبراهيم فيكون إماماً للناس من بعده وخاتماً للرسالات السماوية العليا .

هذا ما نتوخاه فى كتابنا لرسالة هذا النبى الكريم ولا مقصد لنا إلا أن يعلم الناس أجمعون حقيقتها لينالوا بذلك رضوان الله ورضوان رسوله صلى الله عليه وسلم . وفقنا الله إلى ما يحب ، وهدانا إلى سواء السبيل .

تمهيد

عرف النبى محمد صلى الله عليه وسلم بأنه نبى الإسلام ، والإسلام شريعة جاءت من عند الله كسائر الشرائع التى أنزلت لهداية البشر من أول عهدهم بالحياة ، فيحسن بمن أراد أن يكتب عن سيرة هذا الرسول الكريم أن يأتى بتاريخ هذه الشريعة (الإسلام) وأول من دعا إليها ، ليكون الناس على علم بحقيقة أمرها ، وما تنطوى عليه من فضائل ومكرمات .

ويرجع تاريخ هذه الشريعة إلى جد الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام . الذى ولد فى بابل من أب نجار ، يصنع الأصنام من الخشب ويبيعها لقومه يعبدونها . فلما شب إبراهيم رأى قومه يعبدون الأصنام التى يصنعها أبوه . فعجب من ذلك وسخر من عقولهم وتساءل كيف يكون لهذه الأصنام وهى صنع أيديهم تأثير فى نفوسهم يحملهم على عبادتها وتقديسها والخضوع ، لها ثم خلا بأبيه يرشده ويهديه فقال له كيف تتخذ أنت وقومك أصناماً آلهة تعبدونها من دون الله وأنت تصنعها لهم بيدك . فلم يحظ منه بجواب سديد فقال « إنى أراك وقومك فى ضلال مبين » ولقد هدى الله إبراهيم إلى طريق الحق فأراه ملكوت السموات والأرض وأطلعه على ما فيها من عجائب الصنعة وباهر القدرة ليكون على يقين من أن الإله الحقيق بالعبادة هو الإله الحى القادر القاهر السميع المجيب الذى لا يتغير ولا يتبدل ولا يعتريه ما يعترى المحدثات من التحول وذلك قوله تعالى : « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين » .

ورأى إبراهيم — وقد سطع نور الحق فى قلبه وعمر بالإيمان واليقين وأدرك ما عليه قومه من الضلال المبين — أن يسلك معهم سبيل المحاجة بالبراهين المحسوسة عسى أن يهتدوا « فلما جن عليه الليل رأى كوكباً » قيل أنه المشترى — يلمع نوره ويفوق سائر الكواكب وهو من أعظم الآلهة عندهم « قال » على سبيل الفرض وإرخاء العنان مجاراة لأبيه وقومه الذين يعبدون الأصنام والكواكب « هذا ربى » تمهيداً لإبطال ربوبية

الكواكب . انتظروا فإذا لم يتغير ربما كان لكم شبهة فى عبادته أما إذا تغير حاله فمن المحال أن يكون رباً « فلما أفل قال لا أحب الآفلين » أى الأرباب الذين تتغير أحوالهم وأمكنتهم . وإذًا بطل تأليه هذا الكوكب العظيم .

وبينما هو فى هذا الشأن وكانت الليلة إذ ذاك فى أواخر الشهر إذ سطع عليه نور أقوى « فلما رأى القمر بازغا قال » على النمط السابق « هذا ربى فلما أفل » أيضا مثل باقى الكواكب « قال » بعد أن أقام الحجة على قومه وأبطل ربوبية الكواكب وعبادتها إن ما أنتم عليه ضلال مبين وقد هدانى الله إلى الحق فاتبعونى « لئن لم يهدنى ربى » وهو الرب الحق لا كأربابكم الباطلة «لأكونن من القوم الضالين » مثلكم .

وجرى على هذا النمط مترقيا من دليل إلى دليل « فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى . هذا أكبر » فإذا بطلت ربوبيتها وهى أعظم بطلت ربوبيته الأدنى منها بالأولى « فلما أفلت » كما أفل غيرها ألزمهم الحجة واستقام الدليل على بطلان تأليه هذه الأجرام السماوية بأسرها وجابههم بالحق وتسفيه عقولهم والبراءة مما ارتكسوا فيه من الشرك فقال « يا قوم إنى برىء مما تشركون » من هذه المعبودات التى جعلتموها أربابا من دون الله وقد ثبت فى العقول أن لهذه السموات والأرض خالقاً يجب أن يتجه العباد إليه ويخلصوا له العبادة وأعلن ذلك على الملأ بقوله « إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين » .

فكبر هذا على الناس فجاءوا إليه ناقمين ، « وحاجّه قومه » بقولهم : إن اتخاذ الأصنام لا ينافى الإيمان بالله فاطر السموات والأرض ؛ لأنها وسائطه وشفعاء عنده . . ثم خوفوه بطش تلك الآلهة به ، فما كان جوابه إلا أن « قال : أتحاجّونى فى الله وقد هدانِ » إلى التوحيد الخالص من غير وسيط أو شفيع ؟ « ولا أخاف ما تشركون به » من الكواكب والأصنام أن تصيبنى بسوء ؛ فإنى أعلم علم اليقين أنها كسائر المخلوقات ، لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع ولا تقرب ولا تشفع . « إلا أن يشاء ربى شيئاً » بوقوع مكروه ، فإنه يقع لا محالة كما يشاء بقدرته تعالى ، لا بتأثير الأصنام والكواكب « وسع ربى كل شىء علما » . « أفلا تذكرون » وتدركون أن الأصنام غير قادره على شىء من نفع أو ضر أو شفاعة .

« وكيف أخاف ما أشركتم » بربكم من خلق جعلتموه نداً له ؟ وهو لا ينفع

ولا يضر ولا يسمع ولا يبصر ، « ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزّل به عليكم سلطاناً » وحجة فمن أين لكم أن هذه الأصنام أو الآلهة تضر وتنفع وتقرب وتشفع « فأىّ الفريقين أحقُّ بالأمن » ؟ الذين يعبدون الله وحده ويخافونه ويرجونه ، ولا يرجون غيره من دونه أم المشركون الذين اتخذوا لهم أصناماً صنعوها بأيديهم ، وزعموا أنها تقرب إلى ربهم ؟ دون أن يكون لديهم حجة تدل على قدسيتها عند الله ، أو على أن من حقها أن تشفع لأحد عنده « إن كنتم تعلمون » شيئاً من الحقائق ، أو كنتم من ذوى العلم والبصائر .

لاشك أن العقل السليم والمنطق الصحيح ، لا يتردد فى الحكم بأن « الذين آمنوا ولم يَلْبسوا إيمانهم بظلم » عظيم — وهو الشرك والافتراء على الله بما لم ينزل به سلطاناً — « أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » . . وكان هذا أول حجة ألهمها الله ابراهيم عند ما تبرأ مما كان عليه قومه من الشرك ، وسأل الله أن يهديه سواء السبيل ، ففتح الله عليه بهذا القول فى محاجة قومه ؛ قال تعالى فى كتابه الكريم : « وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومِه ، نرفعُ درجاتٍ مَن نشاء ، إن ربك حكيم عليم »[1] .

ولقد هدى الله ابراهيم قبل بلوغه إلى الحق والإيمان وشرح لهما صدره واطمأن بهما قلبه . فذهب إلى والده ينصحه ويدعوه إلى الهدى : « إذ قال لأبيه : يا أَبَتِ لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ، ولا يغنى عنك شيئاً . يا أبت إنى قد جاءنى مِن العلم ما لم يأتك فاتبعنى أَهْدِكَ صراطاً سوياً . يا أبت لا تعبد الشيطان ، إن الشيطان كان للرحمن عَصيًا . يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكونَ للشيطان ولياً . قال : أراغبٌ أنتَ عن آلهتى يا إبراهيم ؟ لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مَلِيًّا . قال : سلامٌ عليك ، سأستغفر لك ربى ، إنه كان بى حَفِيًّا . وَأعتزلكم وما تدعُون من دون الله وأدعو ربى ، عسَى ألّا أكونَ بدعاءِ ربى شقيًا »[2] . هنالك أخذ على عاتقه أن يقوم بواجب نشر الدعوة لربه مهما كلفه الأمر : « إذ قال لأبيه وقومه : ما تعبدون ؟ »[3] « قالوا : نعبد أصناماً فنظلُّ لها عاكفين . قال : هل يسمعونكم إذ تدعون ؟ أو ينفعونكم أو يضرون ؟ قالوا : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون .

---

(١) الأنعام : ٨٣ (٢) مريم ٤٢

(٣) الشعراء : ٧١

قال : أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون ؟ فإنهم عدوٌّ لى إلا رب العالمين . الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين . ربِّ هب لى حكماً وألحقنى بالصالحين . واجعل لى لسانَ صِدق فى الآخرين . واجعلنى من ورثة جنة النعيم . واغفر لأبى ، إنه كان من الضالين . ولا تُخزنى يوم يبعثون . يومَ لا ينفع مال ولا بنونَ إلا مَن أتى اللهَ بقلب سليم » .

ولم يكتف بهذا ، بل عاود دعوتهم إلى الحق مراراً فقال : « ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟ قالوا : وجدنا آباءنا لها عابدين . قال : لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين . قالوا : أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ؟ قال : بل ربكم رب السموات والأرض ، الذى فطرهُنَّ ، وأنا عَلَى ذلكم من الشاهِدين . وتالله لأكيدنَّ أصنامكم بعد أن تُوَلّوا مدبرين »[١] .

ثم ذهب إلى آلهتهم « فقال : ألا تأكلون ؟ مالكم لا تنطقون ؟ فراغ عليهم ضرباً باليمين »[٢] . . « فجعلهم جُذاذاً إلا كبيراً لهم ، لعلهم إليه يرجعون . قالوا : من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا : سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم . قالوا : فأْتُوا به عَلَى أعيُن الناس لعلهم يشهدون . قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ قال : بل فعَلَه كبيرهم هذا ، فاسْألوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا إلى أنفسِهم فقالوا : إنكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رؤسهم ، لقد علمْتَ ما هؤلاء ينطقون ؟ قال : أفتعبدون مِن دون الله ما لا ينفعُكم شيئاً ولا يضركم أُفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون ؟ قالوا : حَرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعِلين »[٣] « قالوا : ابنُوا له بنياناً فألْقُوه فى الجحيم »[٤] . . فلم يعبأ بذلك ، واقتحم النار وهو مؤمن بأنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له ، فقال الله تبارك وتعالى : « يا نار كونى برداً وسلاماً عَلَى إبراهيم ، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين »[٥] .

وعندما يئس إبراهيم من هداية قومه وخرج من النار سالماً فرّ مهاجراً بدينه

---

(١) الأنبياء : ٥٢
(٢) الصافات : ٩١
(٣) الأنبياء : ٥٨
(٤) الصافات : ٩٧
(٥) الأنبياء : ٦٩

الى فلسطين مع زوجته سارة « وقال : إنى ذاهبٌ إلى ربى سيهدين . رب هب من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم »[١] ولقد سرّ إبراهيم لهذه البشرى لأن زوجته سارة كانت عقيما لم تلد . وبعد أن قضى مدة فى فلسطين سافر بها إلى مصر ، وحصل فيها على جارية اسمها هاجَر . فدعته سارة إلى الدخول بها طمعاً فى الولد وكان كذلك فإنها لم تبطىء حتى ولدت له إسماعيل . ففرح به كثيرا ، إذ هو الغلام الذى بشر به .. وكان هذا سبباً فى توقد نار الغيرة فى قلب سارة ، فما وسعها إلا أن تركته وسافر إلى فلسطين . وسافر هو ووحيده إسماعيل مع أمه ميمماً شطر الجنوب .

فلما بلغ معه السعى إلى وادى منى بالقرب من مكة ، رأى فى المنام أن الله يأمره أن يذبح ابنه إسماعيل قرباناً ، فلم يجزع ولم يتردد فى تنفيذ ما أمر به . وكاشف بذلك ابنه إسماعيل « : قال يا بُنىَّ إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال : يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء اللهُ من الصابرين »[٢] « فلما أسلما » لله أمرهما عن طيب نفس « وَتَلّه للجبين » قال الله تعالى : « وناديناه أنْ يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين . إنّ هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه فى الآخرين . سلامٌ على إبراهيم . كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين . وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين »[٣] .

ولقد أنعم الله على إبراهيم بالنبوة ولقبه بالخليل بعد أن ابتلاه بأنواع المصائب ، واختبره بشتى الوسائل ، التى جعلت منه مثلاً أعلى للطاعة الكاملة ، والإيمان الصحيح الثابت ، والنفس القوية التى لا تهاب الموت فى سبيل الحق ، وتضحى بكل عزيز إرضاء لله رب العالمين . فقال الله تعالى : « إنى جاعِلُك للناس إماماً »[٤] أى قدوة صالحة للناس كافة ، ومثلا عالياً فى الثبات على الإيمان ، والصبر والتضحية والجهاد فى سبيل الله ، وفى جميع الأخلاق الفاضلة والأعمال المجيدة « قال » إبراهيم : « ومِن ذريتى » اجعل اللهم من يخلفنى ويكون القدوة الصالحة للناس من بعدى على مدى الأزمان ، « قَالَ » الله — جواباً على دعوته هذه — « لا ينالُ عهدى الظالمين » . أى أن هذا الأمر لا يناله من ذريتك إلا المؤمنون . فمن عمل بعملك

---

(١) الصافات : ٩٩ (٢) الصافات : ١٠٢
(٣) الصافات : ١٠٤ (٤) البقرة : ١٢٤

وسار على منهاجك كان أهلا لأن ينال ما نلت ، ومن حاد عن طريقك وكان من الظالمين فلا يمكن أن يتبوأ مركزك ويكون قدوة للناس فى هذه الحياة .

وبالنظر لما قاسى إبراهيم من شدة ، وما عانى من آلام فى سبيل الاتصال بربه تكرم عليه سبحانه فهداه إلى موضع قدسه ، وهو البيت العتيق الذى جعله الله « مثابة للناس وأمنا » يرجعون إليه كلما أرادوا النزول بساحة كرمه ، لقضاء الحوائج وتحقيق الرغبات ويلجأون إليه عائذين من كل شدة ومن كل ذنب . فمن جاءه ملتجئاً خاضعاً تائباً راجياً عفو ربه ، واثقاً بقدرته على إعطائه ما يريد وتأمينه مما يخاف بلغه الله مناه ، ويسر له من السبيل ما يجعل له من أمره فرجاً ومخرجاً .

فسر إبراهيم لهذه البشرى واتجه بأهله نحو تلك البقعة الطاهرة ، التى هى مكة المكرمة . وكانت وادياً قفرا لا ماء فيه ، فأعانهم الله على البقاء به حيث نبع لهم فيه ماء زمزم وأخذ يعمل هو وابنه إسماعيل على بناء قواعد بيت الله الحرام ، لئلا يختفى موضعه وتلتبس حدوده ، وتتلاشى آثاره . فسجل الله له هذا العمل الصالح حيث قال : « وإذ يرفع إبراهيمُ القواعدَ من البيت وإسماعيل »[1] . وكانا يدعوان الله فى أثناء البناء بثلاث دعوات :

الأولى : « ربنا تقبل منا » عملنا هذا وهو رفع القواعد من البيت ، بالنسبة لما نقصده من تعيينه للناس كى يتوجهوا له « إنك أنت السميع » لدعائنا « العليم » بأعمالنا ومقاصدنا .

الثانية : « ربنا واجعلنا مسلمين لك » أى مستسلمين منقادين لأوامرك دون غيرك ، راضين بما توجبه علينا .

« ومن ذريتنا » اجعل « أُمّة مسلمة لك » ، تصدق بكل ما يخبرها به رسلك من أسرار غيبك ، وتأتمر بما يأمرونها به ، وتنتهى عما ينهونها عنه ، « وأرنا مناسِكَنا » وما تفرضه علينا من العبادات التى ترضيك عنا ، « وتُبْ علينا » من كل ذنب اقترفناه ، « إنك أنت التوّابُ الرحيم » .

الدعوة الثالثة : « ربَّنا وابعث فيهم » أى فى ذريتنا عندما يكثرون « رسولا

---

(١) البقرة : ١٢٧

منهم يتلوا عليهم آياتك » الدالةَ على وحدانيتك وصدق رسلك ، « ويُعلمهم الكتاب » الذى يتلى عليهم ، « والحكمةَ » التى يعلمون بها أسرار الأحكام الدينية ومقاصدها ، « ويزكيهم » ويطهر نفوسهم من الأخلاق الذميمة والعادات السيئة ، بما يطبعه فيها من حسن الخلق ، وعلو النفس وحب الخير ، « إنَّك أنتَ العزيزُ الحكيم » .

ولما فرغ إبراهيم من عمله الجليل وأتم بناء الكعبة قصد صلة زوجه سارة فترك إسماعيل وأمه هاجر وسافر إلى فلسطين ، حيث اجتمع بسارة ، وكانت قد انقطع عنها الحيض ، حيث جاء فى سِفْر التكوين أن عمرها إذ ذاك تسعون سنة ، أما إبراهيم فكان قد بلغ مائة عام .

وهناك أرسل الله له الملائكة ، لتحقيق البشرى التى وعده الله بها إثر حادث الأمر بذبح إسماعيل بمولد إسحاق ، حيث قال تعالى : « ولقد جاءتْ رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلامٌ ، فما لبث أن جاء بعجل حنيذٍ . فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرِهم وأوجس منهم خيفةً ، قالوا : لا تخف إنَّا أُرسلنا إلى قوم لوط . وامرأته قائمةٌ فضحكت ، فبشرناها بإسحاق . ومن وراء إسحاقَ يعقوبُ . قالت يا ويلتى ، أألِدُ وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً ؟ إن هذا لشىءٌ عجيب . قالوا : أتعجَبينَ من أمر الله ؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد »[1] . . وكان كذلك ، فما هى إلا مدة الحمل حتى وضعت له إسحاق .

وصار يتردد بين مكة وفلسطين ، وكلما دخل مكة (قال) : « ربِّ اجْعَل هذا البلد آمنا ، واجنُبنى وبَنىَّ أن نعبد الأصنام . ربِّ إنهن أضْلَلْنَ كثيراً من الناس ، فمن تبعَنى فإنه منى ، ومن عصانى فإنك غفور رحيم . ربنا إنى أسكنت من ذريتى بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدةً من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون . ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن ، وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء . الحمد لله الذى وهب لى على الكبرِ إسماعيلَ وإسحاقَ ، إن ربى لسميع الدعاء . ربِّ اجعلنى مقيمَ الصلاةِ ومن ذريتى ربنا وتقبّل دعاء . ربنا اغفر لى ولوالدىّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب »[2] .

---

(١) هود : ٩٦ (٢) إبراهيم : ٥

لقد شجّع وجود زمزم فى ذلك الوادى القفر بعض القبائل على الإقامة حولها ، وفى مقدمتها قبيلة جرهم ، وتزوج إسماعيل بامرأة منهم ، ورزق منها باثنى عشر ولداً ، هم آباء العرب . وظل إسماعيل فى تلك البقعة المشرفة ، وهو يعمل على سدانة ذلك البيت الذى بناه مع أبيه ، ويعتكف عنده ويطوف حوله ، ويركع ويسجد ويعظم مولاه بمختلف الوسائل . وسار أبناؤه من بعده على منهاجه .

ثم تطوّر الحال حتى قدست الكعبة لذاتها ، وبلغ من إجلالها عند العرب أن كانوا يأخذون قطعاً منها يصلون إليها ، ويستأذنونها فى السفر والإقامة ، ويعبدونها كما تعبد النجوم . إلى أن تولى حجابة البيت عمرو بن لحى ، وكان يطعم الناس ويكسوهم فى الموسم وربما نحر فى الموسم عشرة آلاف بدنة وكسا عشرة آلاف حلة . ولذلك جعلته العرب رباً ، لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شِرعة . . . فغير دين إسماعيل ، وبحر البحيرة وسيب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وحمى الحامى ، ثم مرض مرضاً شديداً ، فقيل له : إن بالبلقاء عُيَينَةً حارة إن تأتها برأت ، فأتاها واغتسل فيها فبرأ ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : نستسق بها المطر فتمطرنا ، ونستنصر بها على العدو فتنصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطوننى منها صنما فأسير به إلى أرض العرب ليعبدوه ؟ فأعطوه صنما يقال له : هُبَل ، فقدم به مكة ونصبه فى الكعبة ، وأمر الناس بعبادته ، وتعظيمه ، وتبعه المشركون ، فكانوا ينقلون إليها الأصنام ويتركونها فيها — تبركا بها وتقديساً لحرمتها — متخذين منها مقراً لآلهتهم . . وعلى هذا النحو استقرت الوثنية وقدست التماثيل ، وقربت لها القرابين فى سائر بلاد العرب .

وقد أرسل الله للعرب أربعة رسل لصدّهم عن عبادة الأوثان ، والرجوع بهم إلى التوحيد الخالص ، وكان أولهم هودا ، وهو من قبيلة يقال لها الخلود ، وهو أبو قحطان أبى اليمن ، قيل إنه من قوم عاد ، وكانت منازلهم بالأحقاف فيما بين عمان إلى حضرموت ، بعثه الله إليهم حيث قال تعالى : « وإلى عاد أخاهم هوداً ، قال ياقوم اعبُدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون . قال الملأ الذين كفروا من قومه : إنّا لنراك فى سفاهة ، وإنّا لنظنُّك من الكاذبين . قال ياقوم ليس بى سفاهةٌ ولكنّى رسول من رب العالمين أُبلِّغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصحٌ أمينٌ أَوعجبتم أن جاءكم ذكر

من ربكم على رجل منكم ؟ لِيُنذِرَكم واذكروا إذ جعلكم خُلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخَلْق بَسطةً ، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون . قالوا أجئتنا لنعبدَ الله وحده ونذَرَ ما كان يعبد آباؤُنا ، فأْتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال : قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ، أتُجادلونَنى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل اللهُ بها من سلطان فانتظروا إنى معكم من المنتظرين . فأنْجَيناه والذين معه برحمة منا ، وقطعنا دابرَ الذين كذّبوا بآياتنا . وما كانوا مؤمنين »[1] .

وثانى أولئك الأنبياء (صالح) وقد أرسل إلى ثمود — وهى قبيلة من العرب ، مساكنهم بالحِجْر من أرض الحجاز مما يلى الشام بالقرب من خليج العقبة ، « قال يا قوم اعبُدوا الله ما لكم من إله غيرُه قد جاءتكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكلْ فى أرض الله ، ولا تمسوها بسوء فيأخذَكم عذاب أليم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبَوّأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصوراً ، وتنحتون الجبال بيوتا ، فاذكروا آلاء الله ولا تَعْثَوْا فى الأرض مفسدين . قال الملأُ الذين استكبروا من قومه — للذين استُضْعفوا لِمن آمن منهم — أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ؟ قالوا : إنّا بما أُرسِل به مؤمنون . قال الذين استكبروا إنّا بالذى آمنتم به كافرون . فعقروا الناقةَ وعَتَوْا عن أمر ربهم ، وقالوا : ياصالحُ ائْتِنا بما تعِدُنا إن كنت من المرسلين . فأخذتهم الرَّجْفةُ فأصبحوا فى دارهم جاثمين فتولى عنهم ، وقال : يا قوم لقد أبْلغتُكم رسالةَ ربى ونصَحتُ لكم ، ولكن لا تُحِبّون الناصحين »[2] .

وثالث أولئك الأنبياء (شعيب) . وقد أرسله الله إلى أصحاب مَدْيَنَ — وكانوا يقطنون بالحجاز — « قال : ياقوم اعبدوا لله ما لكم من إله غيرُه ولا تنقصوا المكيال والميزان ، إنى أراكم بخير ، وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تَعْثَوْا فى الأرض مفسدين ، بَقِيّةُ الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ . قالوا : يا شعيب أصلاتُكَ تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ، أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ؟ إنك لأنت

---

(١) الأعراف : ٦٤ (١) الأعراف : ٧٢

الحليمُ الرشيد . قال : ياقوم أرَأيتم إنْ كنتُ على بَيِّنةٍ من ربى ورزقنى منه رِزقاً حَسناً ، وما أُرِيدُ أن أُخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أُريدُ إلا الإصلاح ما استطعتُ ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أُنِيبُ . ويا قوم لا يَجْرِمَنَّكم شِقاقى أن يُصيبكم مثلُ ما أصاب قومَ نوح أو قومَ هود أو قوم صالح ، وما قومُ لوط منكم ببَعيد . واسْتَغْفروا ربَّكم ثم توبوا إليه ، إن ربى رحيم ودود . قالوا : ياشعيب ما نَفْقَهُ كثيراً مما تقول ، وإنَّا لنراك فينا ضعيفاً ، ولولا رَهْطك لرَجَمْناكَ ، وما أنت علينا بعزيز . قال : ياقومِ أرَهْطى أعزُّ عليكم من الله ؟ واتخذْتموه وراءكم ظِهْرِياً إنَّ ربى بما تعملون محيط ، ويا قومِ اعملوا على مكانتكم إنى عامل ، سوف تعلمون من يأتِيهِ عذاب يخزيه ومن هو كاذب ، وارتقبوا أنى معكم رقيب . ولما جاء أمرُنا نجَّينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحةُ فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لَمْ يَغْنَوْا فيها ، أَلَا بُعداً لمدْيَنَ كما بَعِدَت ثمود »[١] .

وكان آخر أولئك الرسل محمد بن عبد الله خاتم النبيين ، الذى امتاز عنهم بأنه أُرسل للناس كافة ، حيث قال تعالى : « وما أرسلناك إلا كافّة للناس بشيراً ونذيراً »[٢] ، وحقق الله به دعوة إبراهيم وإسماعيل اللذين طلبا من الله أن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة ، وأن يبعث فى هذه الأمة رسولا من نفسها — لا من ذرية إسحاق — يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، إنه هو العزيز الحكيم ، وأن يخلفه فى إمامة الناس كافة .

والإسلام هو ملة إبراهيم ، فقد قال تعالى : « إن إبراهيمَ كان أمّة قانتا لله حنيفا ولم يكُ من المشركين . شاكراً لِأَنْعُمِهِ ، اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم . وآتيناه فى الدنيا حسنة ، وإنه فى الآخرة لَمِن الصالحين . ثم أوحينا إليك أن اتَّبع ملة إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين »[٣] وقال أيضاً : « قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم . دينا قيما ملةَ إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين[٤] » .

وتعاليم الإسلام فى أصولها هى تعاليم إبراهيم ، وهو الذى سمى المسلمين بهذا الاسم ، قال

---

(١) هود : ٨٣ (٢) سبأ : ٢٨
(٣) النحل : ١٢٠ (٤) الأنعام : ١٦١

تعالى : «يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون . وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ، ليكون الرسول شهيداً عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير »[١] . « وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تُشْرِكْ بى شيئاً ، وطهّر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود . وأذّن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تَفَثَهم وليوفوا نذورهم وليطوّفوا بالبيت العتيق . ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه ، وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم ، فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق . ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب »[٢] . « ومن يرغبُ عن ملة إبراهيم إلا من سَفِه نفسَه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلِم قال أسلمت لرب العالمين . ووصّى بها إبراهيم بَنِيهِ ويعقوبُ يا بَنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوبَ الموتُ إذ قال لبَنِيهِ ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد الهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، إلهاً واحداً ونحن له مسلمون . تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تُسألون عما كانوا يعملون . وقالوا كونوا هُوداً أو نصارى تهتدوا ، قل بل ملةَ إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل واسحاق ويعقوبَ والأسباطِ ، وما أوتىَ موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تَوَلَّوْا فإنما هم فى شقاق ، فسيكفيكَهم الله وهو السميع العليم »[٣] .

(١، ٢) الحج : ٧٧، ٢٦ (٣) البقرة : ١٣٠

محمد بن عبد الله

يوجب الإسلام على المسلم أن يحب الله ورسوله حباً أعظم من حبه ماله وولده ونفسه التى بين جنبيه ، فلا غرو إذا ما أحب المسلمون أجمعون ذلك النبى الكريم محمداً ابن عبد الله هذا الحب ، ولا عجب إذا ما أخذ عليهم حبه — عليه الصلاة والسلام — كل مشاعرهم وجعلهم يلهجون بذكره والصلاة عليه فى كل وقت ، لا سيما وقد أخبرهم الله جل وعلا فى كتابه الكريم بأنه تعالى هو أول المصلين عليه ، وأن الملائكة تصلى عليه ، وأنه لذلك يجب أن يصلى عليه كل مؤمن[1] . ما أعظمها إذن من شخصية فذّة تلك التى يجلها رب العزة كل هذا الإجلال ، ويحوطها بأنواع من التقديس والاحترام ، وما أجله من نبى كريم أمره الله أن يأمر الناس بطاعة أوامره واجتناب نواهيه ، بل يدعوهم إلى ترسم خطاه والرضا بما يرضاه ، لا بل إنه تعالى أوجب على المسلم أن يقيم الدليل على حبه له تعالى باتباع ذلك النبى الكريم . الأمر الذى يحمل كل مسلم على إجلاله والتقرب إلى الله بحبه واتباع هديه .

ولقد بلغ من حب المسلمين لذلك النبى الكريم أن سيدنا عمر بن الخطاب — وهو من أكابر الصحابة وخيرة المؤمنين الصادقين — عند ما بلغه خبر موته عليه الصلاة والسلام ذُهِلَ فلم يصدق ذلك ، ولم يتمالك نفسه وهو مأخوذ بقوة حبه له ، فخرج إلى المسجد يقول بأعلى صوته : « إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى لله عليه وسلم قد توفى ، وإنه والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل إنه قد مات . ووالله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أنه مات » وحاول المغيرة أن ينهاه عن مقالته ويؤكد له موته فقال له : كذبت فلما سمع المسلمون هذا من عمر قالوا : لعل لديه علماً بشىء من هذا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وظلوا بين مصدق ومكذب ، لولا أن أقبل الصديق أبو بكر رضى الله عنه وأم بيت عائشة فاستأذن ، فقيل له : لا حاجة لأحد اليوم بإذن ، فدخل

---

(١) إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » .

فوجد محمداً عليه الصلاة والسلام مسجّى فى ناحية من البيت عليه برد حبرة فكشف عن وجهه وحدق فى ناظريه ، ثم قبله وقال : « ما أطيبك حياً وميتاً » بأبى أنت وأمى يا رسول الله . أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً » ثم خرج إلى المسجد وعمر لا يزال يخطب فى الناس ويقنعهم بعدم وفاة النبى ، فلما دنا من عمر قال له : على رسلك ياعمر أنصت ، فأبى عمر أن ينصت ، فالتفت أبو بكر إلى ذلك الجمع الغفير من الصحابة رضوان الله عليهم وقال : « أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت » ثم تلا قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلبْ على عقبيه فلن يضرَّ الله شيئاً ، وسيجزى الله الشاكرين »[1] وكان عمر قد أنصت حين رأى انصراف الناس عنه إلى أبى بكر ، فلما سمع أبا بكر يتلو هذه الآية خرَّ إلى الأرض موقناً أن رسول الله قد مات ، وكأنه ما سمع بالآية الشريفة إلا فى تلك اللحظة .

ومع أن الله تعالى أوجب محبة رسوله وجعلها علامة الإيمان وقال « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وعشيرتكم وأموال أقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتيكم الله بأمره » وقال عليه السلام « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده » فأنه قال تحديدا للمحبة : « لا تُطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » وقد أمره الله فى كتابه الكريم أن يبلغ الناس أجمعين بقوله : « قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملَك ، إن أتبع إلا ما يوحى إلىَّ »[2] .

وقد بلغ من حب بعض أتباعه صلى الله عليه وسلم له أنهم صاروا يرجون منه ما يرجون من الله من كشف الضر وقضاء الحاجات ، ويذكرونه قبل ذكر الله وهذا أمر منهى عنه شرعا فالرسول عليه السلام مهما عظمت محبته وجلت رتبته عند الله والناس بشر لم يتجاوز درجة العبودية لله تعالى وقد رد الله تعالى على المشركين الذين حسبوه قادراً على كل شئ فقالوا له : « لن نؤمن لك حتى

---

(١) آل عمران : ١٤٤ (٢) الأنعام : ٥٠

تفجُر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتُفجّر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تُسقِط السماء كما زعمت علينا كِسَفا أو تأتيَ بالله والملائكة قَبيلا . أو أن يكونَ لك بيت من زخرف ، أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيّك حتى تنزّل علينا كتاباً نقرؤه » بقوله لرسوله « قل سبحان ربى ، هل كنت إلا بشراً رسولا . وما منع الناسَ أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا »[1] .

إذاً فلنكتب عنه عليه الصلاة والسلام باعتباره بشراً رسولاً ، لم يجاوز حد العبودية التى أمرنا عليه الصلاة والسلام ألا نتجاوزها ، فحسبه شرف العبودية وشرف الرسالة . وإن القلم ليعجز عن وصفه عليه الصلاة والسلام بمثل ما وصفه به ربه فى كتابه ، وما عدده من فضائله ومميزاته ، وكفاه بهذا شرفاً وفخراً .

خاتم النبيّين

نعم إن محمداً لم يخرج عن كونه من البشر ، وإنه فى كل الأحوال كان يحاول أن يثبت للناس أنه واحد منهم يأكل كما يأكلون ، ويشرب كما يشربون ، وينكح كما ينكحون ، ويتأثر بعاطفته كما يتأثرون ، ويقاسى الشدائد كما يقاسون ، ويمرض كما يمرضون . وكان يمشى بين أصحابه ، ويكره أن يميزوه عنهم ، بل إنه حمل الأحجار والتراب معهم فى بناء المسجد ويوم الخندق . وعندما اشتركوا فى طهى الطعام قال لهم : علىّ جمع الحطب . وروى « أن أعرابياً دخل عليه فارتعد من هيبته ، فخفف عليه وقال : إنى ابن أنثى من قريش كانت تأكل القديد ، وحاول آخر تقبيل يده فنهاه عن ذلك وقال : هذا ما تفعله الأعاجم بملوكهم ، ولست بملِككم إنما أنا واحد منكم . وقال لأم سُلَيْم : أنا بشر ، أرضى كما يرضى البشر ، وأغضب كما يغضب » .

وبلغ من حرصه على عدم إطراء المسلمين له وإنزالهم إياه فوق منزلته أن جاءه رجل يوماً وقال : « ما شاء الله وشئت ، فكره ذلك وقال : أجعلتنى لله نِدّا ؟ قل : ما شاء وحده » ، بل ونهى صحبه عن تفضيله عن غيره من الأنبياء ، حيث قال : « لا تخيرونى على موسى » . وقال أيضاً : « لا تُطرونى كما أطرت النصارى ابنَ مريم » .

---

(١) الإسراء : ٩٠

لذلك فنحن لا نحاول إطراءه ولكنا نقرر الحقيقة فى أمره لا بقصد الإطراء فإن إطراء ناله لا يزيد من قدره ، ومديحنا له لا يبلغ ذرة من كماله وعظمته . حقاً إنه عليه الصلاة والسلام كان بشراً ، ولكن الله جل وعلا قد اختصه بفضيلة عظيمة تميزه عن سائر الأنبياء والمرسلين . فضيلة جمعت كل الفضائل وبزّ بها الرسل الأوائل . تلك هى أنه تعالى قد ختم بنبوته اصطناع الأنبياء ، وقفل باب النبوة فى وجوه الأدعياء ، فلم يعد يصطفى بعده لهذه المنزلة والمقام الرفيع إنساناً ، وسوف لا يؤتى غيره من البشر قرآناً ، وما النبوة إلا مكانة عالية عند الله لا تنال إلا بمحض كرمه ، لمن ارتضى من عباده المتقين ، ولا يجرؤ على انتحالها لنفسه بعده إلاّ كاذب أفاك مبين ، عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

فإذا تحدثنا عنه من هذه الناحية فإنما نتحدث عن عظيم فضل الله وحكمته تعالى فى هذا الاصطفاء وهذا التقدير ، وإذا أشدنا بذكره عليه الصلاة والسلام بهذا الاعتبار فإنما نتبع أوامر الله فى وجوب إجلاله وتقديسه ، باعتباره رسول رب العالمين وخاتم النبيين . وحاشا أن ننسب إليه شيئاً من التصرفات التى لا تتفق مع عبوديته لمولاه ، أو ما يشتم منه رائحة الشرك بالله ، كما فعلت النصارى ، حيث نهانا الرسول عن ذلك بصريح القول .

نحن لا نشك فى أن النبى محمداً صلى الله عليه وسلم بشر كسائر البشر ، ولد من أبوين كما يولد الناس ، ولكنا نقول : إن الله جل وعلا قد تفضل فعرفنا بمكانته عنده والمنزلة التى يجب أن ننزله فيها من نفوسنا . فلا بد أن نوفيها حقها من التعريف ، ولا بد أن نذكر عنه صلى الله عليه وسلم ما عرفنا من أخلاقه ومكارمه ، وما قام به من أعمال صالحات . وإذا قلنا : إنه بشر ، فالواجب أن نقدسه عن سائر البشر ، لأن الله جل وعلا يقول : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكنْ رسولَ الله وخاتم النبيين »[1] .. ويؤخذ من الآية أنه لا ينبغى أن ينظر إليه الناس كنظرهم إلى عظمائهم من الرجال فقط وينزلوه منازل الآباء فى الاحترام والإجلال فحسب ، ولكن يجب أن يلاحظوا مع ذلك أنه رسول الله ، والرسالة عن الله واجبة الإجلال والتقديس .

---

(١) الأحزاب : ٤٠

وأن يفهموا أنه عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين وآخر الصلة من البشر بين الخالق والمخلوقين . فحبه حب لمن أصطفاه ، وفى إرضائه إرضاء لمن اختاره واجتباه . وقد منَّ الله على خاتم رسله ، فشرح بالإيمان صدره ، ووضع عنه وزره ، ورفع فى الخافقين ذكره ، حيث قرن اسمه باسمه فى كلمة الشهادة ، فلا يذكر اسمه جل وعلا إلا ويذكر معه اسم رسوله وخاتم أنبيائه : « ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك »[١] . ولما كانت النبوة من مستلزمات الرسالة وبختام النبوة ستنتهى الرسالة من الله لعباده جعل الله تبارك وتعالى رسالته عليه الصلاة والسلام للناس كافة ، حيث قال تعالى : « قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً »[٢] . « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً »[٣] . وقال صلى الله عليه وسلم : « كان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » .

ولذلك أوحى الله إليه صلى الله عليه وسلم خلاصة سير أشهر أنبيائه ورسله الذين آتاهم الكتاب والحكم والنبوّة ، وفضّلهم على كثير من خلقه تفضيلا ، وفصل له فى القرآن الكريم مناقبهم وفضائلهم الكسبية والوهبية ، وأمره بالاقتداء بها حيث قال تعالى : « أُولئكَ الذينَ هدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهْ »[٤] وبهذا اجتمع له عليه الصلاة والسلام من الكمال فى شتى النواحى ما كان متفرقاً فيهم ، وقد شهد الله له عليه الصلاة والسلام بأنه لم يشذ عما كان عليه أولئك الرُّسل ، وأنه كان متبعا لكل مايوحى به إليه من القرآن ، وأنه كان مُصدقاً لما كان عليه سائر المرسلين من قبل ، حيث قال تعالى : « قُلْ ما كنتُ بدعاً مِنَ الرُّسل ، وما أدرى ما يُفعلُ بى ولا بكم إن أتَّبِعُ إلا ما يُوحى إلىّ وما أنا إلا نذيرٌ مبين[٥] » . « بل جاء بالحقّ وصدَّق المرسلين[٦] » . وكان فيما أتى به من أخبار الأمم السابقة حجة قائمة على أنه من علام الغيوب ، وإلا فمن أين له كل تلك الأخبار ، وهى لم تدوَّن فى كتاب من الكتب السابقة قبل كما وردت فى القرآن الكريم ؟ . ولهذا قال صلى الله عليه وسلم :

---

(١) الانشراح : ١
(٢) الأعراف : ١٥٨
(٣) سبأ : ٢٨
(٤) الأنعام : ٩٠
(٥) الأحقاف : ٩
(٦) الصافات : ٣٧

« مامن الأنبياء من نبيّ إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أُوتيته وحياً أوحاه الله إلىّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة »

ومن أجل هـــذا انقطع نزول الوحى بعده . وليس المراد بالوحى المعنى العام من الكشف عن بعض الأمور الخفية عن طريق الرؤيا الصادقة ، أو النفث فى الرّوع والإلهام لأقوم الطرق ، فذلك ما يحصل لكل من صفت نفسه ، وأنيرت بصيرته . وإنما يراد به التكليم الإلهى الوارد فى قوله تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمهُ اللهُ إلا وحيًا أَوْمِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِى بِإِذْنِهِ مايشاء إنَّهُ علىٌّ حكيم [1] » .

وقد وصفه الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم عند ما سأله الحارث بن هشام بقوله : كيف يأتيك الوحى يارسول الله ؟ فقال : « أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علىّ فيُفْصِم عنى وقد وعيتُ عنهُ ما قال . وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعى ما يقول » وهذا هو الناموس الذى كان ينزل على موسى وقد وقف الله تعالى نزوله بعد خاتم الرُّسل ، وحظر على الناس أن يزعموا نزوله عليهم لما فى ذلك من كذب عليه تعالى ، إذ الوحى بهذا الشكل حق لامرية فيه . أما غيره من أنواع الوحى كالرؤيا والإلهام ، فقد يكون حقاً من عند الله ، وقد يكون بتأثير نفسى ، أو توجيه من الشيطان . ومن أجل هذا حذر الله جلّ وعلا عباده من الكذب عليه ونسبة شىء إليه عن طريق الوحى الإلهى حيث يقول تعالى : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ [2] » . . ولهذا لما ادَّعى مُسيلمة ابن حبيب النبوّة وزعم أنه قدأوحى إليه فى آخر عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لَقَّبه الرسول بلقب الكذّاب وأمر بقتاله ، فقاتله أبو بكر الصدِّيق فى عهد خلافته ، وقتله وحشى قاتل حمزة رضى الله عنه . وكان يقول : قتلت فى جاهليتى خير الناس وفى إسلامى شر الناس ، كما سمى الرسول صلى الله عليه وسلم مُدَّعى النبوّة من بعده بالدَّجال حيث قال : « لاتقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون دجّالاً كلهم يَدَّعى النبوّة » .

---

(١) الشورى : ٥١ (٢) الأنعام : ٩٣

وإن فيما أتى به رسول الله من القرآن الجامع لأخبار الرُّسل والكتب السابقة التى لم يكن يعلمها هو ولا قومه ، والداعى إلى دين يضمن هداية الناس إلى ما يصلح دينهم ودنياهم على مرّ السنين والأيام دون أن يأتى أحد بعده بمثل ما أُوتى لدليلاً على أنه خاتم النبيين . وفيما أودعه الله من محبة له صلى الله عليه وسلم فى قلوب ملايين البشر فى مشارق الأرض ومغاربها على اختلاف لغاتهم ، وتباعد ديارهم ، من مبدأ دعوته حتى اليوم ، حُبًّا يتجدَّد ولا يخبو برغم تقادم العهد به ، وبرغم تقلص الإيمان من قلوب كثير من المسلمين لمعجزة لله خالدة لقوم يعقلون . أحيانا الله على سُنَّته ، وأماتنا على محبته ، ولا حرمنا شفاعته صلى الله عليه وسلم .

مقامُهُ وفضلُه

مَنْ مِن الناس لا يتطلب الحرية ويسعى إليها ؟ ومَنْ مِن الناس يرضى أن يوصف بصفة العبودية — وفيها منتهى الذلة لمولى يتصرف فيه كما يشاء ويسخره لما يريده ؟ فلا غرو إذا ما نفر منها كل من له شىء من الشعور بالذات والإحساس بالكرامة .

والواقع أن الناس جميعاً مستعبدون لشهواتهم ، مسخرون لتحقيق ما تمليه عليهم نفوسهم المطبوعة على الشر وهم لا يشعرون . أجل من الناس من هو مولع بحب المال حباً يأخذ عليه مشاعره فيجد فى طلبه ويعمل على جمعه بأى وسيلة مهما كلفه الأمر ، ومهما صادفه فى طريقه من مخاطر ، دون أن يسمح بدانق منه فى وجه بر أو عمل خير ، وهو فى النتيجة سيتركه إذا مات ولن يأخذ منه معه شيئاً . ولو عقل أمثال هؤلاء لأدركوا أنهم قد أضاعوا الوقت فى غير مصلحة وطلعوا من الحياة بغير كسب ، وهكذا كل من يصرف أوقاته فى اتباع هواه وما تمليه عليه نفسه من أنواع الملذات ، يمعنون فى السير وراء عواطفهم وإشباع شهواتهم التى لا تدعوهم إلا إلى لذة مؤقتة ونعيم قصير الأمد .

والناس كلهم عبيد لله الذى خلقهم ورزقهم ودعاهم إلى طاعته ووعدهم بجنته . ولكنهم لا يشعرون بهذه العبودية ولا يحسون بمبلغ نعم الله عليهم وحاجتهم إليه فلا يحاولون الاتصال به وأداء واجب طاعته ، بل ربما نفروا من الاتصاف بها .

والشعور بالعبودية لله وحده فى الواقع هو الحرية الذاتية التى يتطلبها كل عاقل كشف عن ناظره حجاب الغفلة فأدرك أنه لا نافع ولا ضار إلا الله ؛ فلا ينبغى أن يكون لأحد سلطان عليه سواه ، وأن النفس إنما تدعو إلى لذة فانية ، والله يدعو إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . وأن الناس كلهم سواء لا تفاضل بينهم فى الحياة إلا بمقدار ما يقدمونه من عمل صالح يبقى ذكره ويظل أثره ويدوم نفعه

هذه الحقيقة إذا تجلت للعاقل لا يسعه إلا أن يخلع عن كاهله نير الاستعباد لأى إنسان بل حتى لنفسه التى بين جنبيه ، ويتجه بكليته إلى الله ينفذ أوامره ويسعى لرضائه فلا يلبث أن يذوق طعم حبه ويجد أثر هدية ويحس بالعناية الإلهية وهى تؤيده فى كل عمل وتعينه على كل صعب .

وهذا ما حصل لخليل الله إبراهيم عند ما أنكر على قومه عبادة الأوثان التى لا تنفع ولا تشفع ولا تغنى من الله شيئاً وأخذ يبحث عن الله حتى عرفه ، فوجد عنده اليقين والاطمئنان فلم يعبأ بما سواه . وعندئذ وجد البرد والسلام فى ناره بدلا من الآلام ، وشعر بنعمة الراحة فى الهجرة والسياحة ، وأكرمه ربه وأجزل له العطاء . وهذا ما حصل أيضاً لخليفته من بعده محمد بن عبد الله فقد أبت عليه نفسه الكريمة أن تدين لغير إله واحد أحس به فى نفسه وعرفه بآلائه ، فتوجه إليه بفكره وبالغ فى حبه فهجر الناس من أجله وضحى بملذات الحياة فى سبيله وآثر الرضاء بما لاقاه من أذى قومه على ما عرضوا عليه من المال والجاه ، فأيده الله ونصره وأمده بتوفيقه ، فكان خاتم النبيين وإماما للناس أجمعين .

فلا غرو إذا فاخر عليه الصلاة والسلام بعبوديته لمولاه ؛ وعمل بما تقتضيه تلك العبودية من الطاعة . وأمر أصحابه ألا يتجاوزوها فى مديحهم له حيث قال : « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله » حقاً ما أعظم هذه الكلمة التى تدل على كمال المعرفة والاعتراف بمنتهى الذل والخضوع لله رب العالمين .

وكفاه فخراً بهذا ، وما عسانا أن نمدحه بأكثر من هذا ؟ اللهم إلا أنه رسول الله . والرسالة من الملوك تعطى للرسول قيمة المرسل وتفرض تقديره واحترامه .

فما بالك بالرسالة من قاهر الملوك ومالك السموات والأرض رب العالمين للناس أجمعين ؟ أبعد هذا من فخر وشرف ؟ عبودية صادقة خالصة لله ورسالة منه جل وعلا للناس كافة . ما أسعده عليه الصلاة والسلام بهذين الشرفين العظيمين والمقامين الرفيعين . ولا محل للزيادة على هذا ، غير أنا — ونحن بصدد ذكر مقامه وفضله — نرى من واجبنا أن نأتى بذكر بعض ما وصفه الله به ، أو ما وصف به نفسه من باب التحدث بنعمة الله على عبده ورسوله ، فالله يؤتى فضله من يشاء .

لم يكن عليه الصلاة والسلام رسولا من الله إلى الناس لمجرد التبليغ فحسب ، بل لقد عهد الله إليه بأمر هداية الناس إلى ما ينفعهم فى أمر دينهم ودنياهم . قال تعالى : « وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم »[١] وهداية الناس ليست بالأمر اليسير ، بل هى مهمة شاقة يعجز عنها فطاحل الرجال وأكابر الحكماء . ولقد خول الله رسوله أن يجاهد فى هذا السبيل بكل ما آتاه من مال وجاه وسلاح : « يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم »[٢] . . . ولقد صدع رسول الله بهذه المهمة بحكمة فائقة وشجاعة ناردة فجاهد فى الله حق جهاده ، مؤثراً فى ذلك الحسنى واللطف على الشدة والقوة ، ومتذرعاً بالصبر والحلم ومكارم الأخلاق حتى بلغ غايته وأدى مهمته ونشر دينه فى الخافقين ، ولم يلجأ إلى استعمال القوة فى فرض هدايته على الناس ، بل كان يقول عند إيذاء قومه له : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » ولم يلجأ إلى الحرب إلا دفاعاً عن دينه ورد الأذى عن قومه ، عملا بقول الله تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين »[٣] ولقد أطرى الله رسوله وأثنى عليه بذكر فضائله من عدة نواح نلخص منها ما يأتى :

أولا : من الناحية الخلقية ، إذ هى النقطة الأساسية فى مقومات الإنسان ، فقال له تعالى : « وإنك لعلى خلق عظيم »[٤] وهذه شهادة من الله لرسوله بأنه نال منتهى الكمال البشرى فى هذا الباب الذى شمل جميع الخلال الحميدة . وهى شهادة ما بعدها

---

(١) الشورى : ٥٢ .
(٢) التوبة : ٧٤ .
(٣) البقرة : ١٨٩ .
(٤) القلم : ٤ .

شهادة ، ولم يسبق أن تفضل الله بمثلها على أحد من رسله السابقين .

ثانياً : من الناحية العلمية ، حيث شهد له جل وعلا بأنه هو المعلم الذى منحه العلم بطريقة غير مكتسبة ولا مألوفة ، بل فضلا منه وكرما حيث قال : « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما[١] » ولم يكتف بهذا العلم الذى منحه لنبيه بل إنه صرح جل وعلا بأن رسوله قد بلغ فى هذا الشأن مكانة تؤهله لأن يربى النفوس ويثقف العقول ، ويملأها علماً لم تكن تعلم به حيث قال : « كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون »[٢] .

ثالثاً : من الناحية التهذيبية الروحية ، حيث شهد له تعالى بالقدرة على التأثير فى سامعيه وإنارة طريقهم فى الحياة حيث قال : « وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم »[٣] .

رابعاً : من الناحية الدينية ، حيث أخبر الله رسوله بعظمة المهمة الملقاة على عاتقه ، وهى انتشال الناس من ظلمات الجهل بحقائق الأمور وأصول الأشياء مما يؤدى إلى الكفر بالله تعالى وإشراك غيره معه ويبدد نور اليقين بخالق جميع الموجودات المهيمن على كافة القوى الباطنة ، وما فوق مستوى العقول البشرية حيث قال : « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد »[٤] .

خامساً : من الناحية العملية ، حيث أخبر الله رسوله بأنه لم يكن يريد من رسالته إلا مجرد إيصال الرحمة إلى عباده . ولذا فمن واجبه أن لا يضيق ذرعاً فى هدايتهم ولا يكل من دعوتهم فيتعجل الدعاء عليهم بالخراب والدمار إذا هم خالفوا أمره وأبوا اتباع هديه ، كما حصل ممن سبقه من الأنبياء بل عليه أن يعمل بكل الوسائل والطرق على إصلاح شأن العالم واستحقاق الجميع للرحمة والرضوان حيث قال تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »[٥] .

---

(١) النساء : ١١٢ .
(٢) البقرة : ١٥١ .
(٣) الشورى : ٥٢ .
(٤) إبراهيم : ١ .
(٥) الأنبياء : ١٠٧ .

سادساً : من الناحية الشخصية ، حيث امتن الله عليه بأنه تعالى هو الذى شرح صدره للإيمان فلا يغلق أبداً ، وأعانه على تحمل أعباء الرسالة فلا يفشل أبداً ، ورفع ذكره فى الخافقين فلم يزل عالياً تردده الألسن ، وتخفق له القلوب إلى أن تقوم الساعة .

وبلغ من سمو منزلة هذا الرسول عند الله أن اختصه جل وعلا بعدة مزايا جعلته بين الناس فى أعلى مقام ، وأهلته لأن يقول عليه الصلاة والسلام : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » وإذا كان هو سيدهم يوم القيامة فهو سيدهم فى الدنيا من باب أولى ... وكان من أهم تلك المزايا ما يأتى :

١ — أن الله تبارك وتعالى جعل أول أركان الإسلام شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، بحيث لا يعد مؤمناً بالله من لم يؤمن برسالته عن ربه فقال تعالى : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون »(١) وقال تعالى : « ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا اعتدنا للكافرين سعيرا »(٢) .

٢ — أن الله تبارك وتعالى قد اعتبر طاعة هذا الرسول طاعة له جل وعلا وبيعته بيعة لله حيث قال تعالى : « من يطع الرسول فقد أطاع اللهَ ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا » (٣) وقال تعالى : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم »(٤) .

٣ — أن الله تبارك وتعالى قد قرن بين طاعته وطاعة رسوله ، وأخبر العباد أنهما على حد سواء ثم أكد لهم أن طاعة هذا الرسول صلى الله عليه وسلم هى سبيل الهداية وسبيل الرحمة ، ومن موجبات دخول الجنة حيث قال تعالى : « قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن تولّوا فإنما عليه ماحُمّل وعليكم ما حُمّلتم ، وإن تطيعوه تهتدوا ، وماعلى الرسول إلا البلاغ المبين »(٥) وقال أيضا : « وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون »(٦) وقال : « ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومن يتولَّ

---

(١) الحجرات : ١٥ (٢) الفتح : ١٣
(٣) النساء : ٧٩ (٤) الفتح : ١٠
(٥) النور : ٥٤ (٦) النور : ٥٦

يعذبْه عذاباً أليماً »[١] بل إنه تعالى أوجب على العباد الخضوع لأحكامه والرضا بها سراً وجهرا ، وعدم التبرم منها حيث يقول تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما »[٢] .

٤ — أن الله تبارك وتعالى قد أوجب على الناس أجمعين أتباعه فى أعماله واقتفاء سيرته حيث قال : « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ، الذى له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت ، فآمِنوا بالله ورسوله النبي الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون »[٣] .

٥ — أن الله تبارك وتعالى قد جعل من أدلة محبة الناس له واستحقاقهم لمحبته وغفرانه تعالى لهم ، اتباعهم لرسوله حيث قال : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم »[٤] .

٦ — أن الله تبارك وتعالى أشار إلى مبلغ عظمته وعلو شأنه ، حيث أقسم بعمره عليه الصلاة والسلام دون باقى الأنبياء الكرام فقال : « لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون »[٥] .

٧ — أن الله تبارك وتعالى قد قضى بنبوته منذ خلق آدم كما ورد عنه صلى الله عليه وسلم : « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين » . . وأخذ الله الميثاق على جميع الأنبياء الذين سبقوه أن يوصوا أقوامهم بالإيمان به ونصرته ، حيث قال تعالى : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنّ به ولتنصرُنّه ، قال : أقررتم وأخذتم على ذلكم إصْرى ؟ قالوا : أقررنا ، قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين »[٦] وفعلا أيدت الرسل كلها هذا الميثاق بما أخبر الله به فى القرآن عن لسان عيسى فى قوله تعالى : « وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدىّ من التوراة ، ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد »[٧] وقوله تعالى أيضاً : « الذين يتبعون

---

(١) الفتح : ١٧
(٢) النساء : ٦٤
(٣) الأعراف : ١٥٧
(٤) آل عمران : ٣١
(٥) الحجر : ٧٢
(٦) آل عمران : ٨١
(٧) الصف : ٦

الرسول النبي الأمي الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون »[١] . بل وأخبر جل جلاله بأن النصارى واليهود لا يجحدون رسالته ، لأنهم يعرفون هذا من كتبهم ، غير أن كثيراً منهم يكفر به ويكتم هذا لمرض فى قلبه ، حيث قال : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون »[٢] .

٨ — أن الله تبارك وتعالى — الذى اختار أن يخاطب رسوله موسى فى الوادى المقدس من الأرض — قد تفضل فعبر عن عظمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم إذ أسرى بجسده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى بارك حوله ، ثم عرج به إلى السماء حيث عين موضع خطابه فوق السموات السبع « عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى » وهنا لك رأى الرسول الأعظم من آيات ربه الكبرى ما رأى ، وإذ ذاك فرض الله عليه الصلوات . فما أجله من مقام لم يبلغ إليه أحد من الناس ، وفيه دلالة عظمى على ما ناله النبى من مكانة سامية فاقت الأولين والآخرين .

٩ — أن الله تبارك وتعالى قد جعل دينه هو الدين الحق المعصوم من الكذب والذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه حيث قال تعالى : « إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً »[٣] وقال أيضاً : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[٤] وقال أيضاً : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »[٥] .

١٠ — أنه تبارك وتعالى قد أكمل بدينه شريعة إبراهيم وجعله ناسخاً لما سبقه من الديانات ، وهو المرجع الوحيد الذى يهتدى به ولا يعول على سواه حيث قال : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا »[٦] « إن الدين عند الله الإسلام »[٧] « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين »[٨] .

---

(١) الأعراف : ١٥٧ (٢) البقرة : ١٤٦
(٣) البقرة : ١١٩ (٤) الحجر : ٩
(٥) فصلت : ٤٢ (٦) المائدة : ٣
(٧) آل عمران : ١٩ (٨) آل عمران : ٨٥

وكان من عظيم تقديره تعالى لمكانة عبده ورسوله أن أحاطه بسياج من العظمة والجلال ، وأوجب له من مظاهر التبجيل والاحترام مايليق بمقامه كرسول من قِبَله للناس أجمعين وكان من أهم ذلك مايأتى :

١ — أنه تعالى أوجب على الناس أن يتأدبوا فى حضرته ولا يرفعوا أصواتهم فوق صوته عليه الصلاة والسلام ، وأنذرهم بأن ذلك يستدعى حرمانهم من ثواب أعمالهم ، حيث قال : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبَط أعمالكم وأنتم لاتشعرون ، إن الذين يغُضّون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم »(١) .

٢ — أنه تعالى أمر الناس بعدم ندائه باسمه مجرداً عن اللقب كباقى الناس ، مراعاة لواجب الإجلال والاحترام فى مخاطبته عليه الصلاة والسلام ، حيث قال : « لا تَجْعَلُوا دُعاء الرَّسول بينكم كدُعاء بعضكم بعضا »(٢) ، وكذلك لم يخاطبه ربه فى القرآن إلا بقوله : يأيها الرّسول ، يأيها النبىّ . وجرى على هذا الصحابة رضوان الله عليهم ، فلم يدعه أحد منهم إلا بمثل ذلك .

٣ — أنه تعالى أوجب على الناس استئذانه فى مهام الأمور وعدم الخروج عن طاعته ، والنزول عند إرادته ، حيث قال : « إنّما المؤمنونَ الذينَ آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامعٍ لم يذهبوا حتى يستأذنوهُ ، إنَّ الذين يستأذنونكَ أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فإذا استأذنوكَ لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله ، إن اللهَ غفورٌ رحيم »(٣)

٤ — إن الله تبارك وتعالى حكم بسلب عقول جماعة من الناس جاؤا لمقابلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن قد جلس فى مجلسه العام ، فعمدوا إلى استعجاله ونادوه من خارج الجدار ، فأنزل الله على نبيه ما يدعو إلى عدم الاكتراث بهم ، حيث قال له : « إن الذين ينادونك من وراء الحُجُرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم ، والله غفور رحيم »(٤) .

---

(١) الحجرات : ٢
(٢) النـــور : ٦٣
(٣) النـــور : ٦٢
(٤) الحجرات . ٤

٥ — أن الله تبارك وتعالى ندب لزائرى هذا النبي الكريم أن يطهروا نفوسهم ويزكوها من النقائص بأن يتقربوا إلى الله بالصدقات قبل الخطوة بالمثول بين يدى رسول الله ، حيث قال : « يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر ، فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم »(١) .

٦ — أن الله تبارك وتعالى قد انتزع الخوف من قلب رسوله عليه الصلاة والسلام وبشره فى كتابه العزيز أنه تعالى سيتولى حفظه وعصمته مما يدبره خصومه له من القتل ، حيث قال : « والله يعصمك من الناس » .

٧ — أن الله تبارك وتعالى بالغ فى تهديد خصومه وكل من يأتى بأمر أو يصدر منه فى حقه قولا يؤذيه ، أو يدبر له المكائد ، حيث قال : « إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً »(٢) .

٨ — أن الله تبارك وتعالى قد أنزل أشد غضبه على جماعة من الناس لغطوا فى حقه عليه الصلاة والسلام وقالوا عنه : إنه أُذُن ، أى سماع لكل ما يقال له ، فجعل الله جل جلاله هذا إيذاء لرسوله وقال فى كتابه : « ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون : هو أُذُن ، قل أُذُن خير لكم ، يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمةٌ للذين آمنوا منكم ، والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم »(٣) .

٩ — أن الله تبارك وتعالى قد بالغ فى إجلال نبيه حتى حرم على الناس التزوج بنسائه ، واعتبر هذا من إيذائه ، حيث قال : « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ، إن ذلكم كان عند الله عظيما »(٤) .

١٠ — أن الله تبارك وتعالى حض المسلمين على القيام بواجب نصرته وهدد المتقاعسين منهم عن مؤازرته وضرب لهم مثلا بنصر الله له بقوله : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى . وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم »(٥)

١١ — أن الله تبارك وتعالى أبى حتى على نسائه أن يسيطرن عليه بدلا لهن

---

(١) المجادلة : ١٢ (٢) الأحزاب : ٥٧
(٣) التوبة : ٦١ (٤) الأحزاب : ٥٣
(٥) التوبة : ٤٠

وكيدهن حيث قال : « إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ، وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير . عسى ربه إن طلقكن أن يبد له أزواجا خيراً منكن ، مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا »[١] .

١٢ — أن الله تبارك وتعالى قد حفظه من خداع أعدائه حيث قال : « وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين[٢] .

١٣ — أن الله تبارك وتعالى قد بشره بدوام رضائه عليه ، وعدم التخلى عنه فى الدنيا ، وأن آخرته خير من دنياه ، وأنه سيعطيه فيها ما يريد حتى يرضى حيث قال : « والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى »[٣] .

١٤ — أن الله تبارك وتعالى قد تفضل فوعده بمكرمتين لا غنى لأحد عنهما فى الآخرة — الأولى : الشفاعة فى يوم الحشر ، والثانية : سقى الماء للناس من حوض الكوثر .

أما الأولى فقد أخبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « أنا سيد الناس يوم القيامة ، وهل تدرون م ذلك ، يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، يسمعهم الداعى وينفذهم البصر ، وتدنو الشمس منهم . فيبلغ الناس من الغم والكرب مالا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول بعض الناس لبعض . ألا ترون ما قد بلغكم ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس : ائتوا آدم ، فيأتون آدم فيقولون : يا آدم أنت أبونا أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك أشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم آدم : إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإنه نهانى عن الشجرة فعصيته . نفسى نفسى . اذهبوا إلى غيرى . اذهبوا إلى نوح ، فيأتون نوحا فيقولون : يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وسماك الله عبدا شكورا . اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى مانحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا ؟

---

(١) التحريم : ٥ (٢) الأنفال : ٦٢

(٣) الضحى : ١

فيقول لهم نوح : إن ربى غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإنه كانت لى دعوة دعوت بها ربى على قومى . نفسى نفسى نفسى . اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى إبراهيم . فيأتون إبراهيم فيقولون : يا إبراهيم أنت نبى الله وخليله من أهل الأرض ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ، ألا ترى ما قد بلغنا ، فيقول لهم إبراهيم : إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب مثله قبله ولن يغضب بعده مثله ، وإنى قد كنت كذبت ثلاث كذبات . نفسى نفسى نفسى . اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى موسى فيأتون موسى فيقولون . يا موسى أنت رسول الله ، فضلك الله برسالته وكلامه على الناس ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ، ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم موسى . إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإنى قتلت نفساً لم أومر بقتلها . نفسى نفسى نفسى . اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى عيسى . فيأتون عيسى فيقولون : يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وكلمت الناس فى المهد صبياً ، اشفع لنا إلى ربك . ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم عيسى . إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله نفسى نفسى نفسى . اذهبوا إلى محمد . . فيأتونى فيقولون . يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء ، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فأنطلق فآتى تحت العرش فأقع ساجداً لربى ، ثم يفتح الله على ويلهمنى من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه لأحد قبلى . ثم يقال . يا محمد ارفع رأسك ، سل تعط واشفع تشفع فأرفع رأسى فأقول يارب أمتى أمتى فيقال . يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة ؛ وهم شركاء للناس فيما سوى ذلك من الأبواب ، والذى نفسى بيده إن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر ، أو كما بين مكة وبصرى » .

وأما الثانية . فلقوله عليه الصلاة والسلام . « إن حوضى أبعد من أيلة إلى عدن ولهو أشد بياضاً من الثلج ، وأحلى من العسل ولآنيته أكثر من عدد نجوم

السماء ، وإنى لأصد الناس عنه كما يصد الرجل إبل الناس عن حوضه ، قالوا أتعرفنا يومئذ ؟ قال نعم لكم سيما ليست لغيركم من الأمم ، تردون على غراً محجلين من أثر الوضوء » .

وأخيراً فحسبه عليه الصلاة والسلام فخراً وشرفا أن الله جل جلاله قد أعلن للملأ أنه تعالى قد صلى عليه هو وملائكته — والصلاة منه رحمة ورضا — وأمر المؤمنين أن يكثروا من الصلاة والسلام عليه ، فإن من صلى عليه صلاة صلى الله عليه بها عشراً حيث يقول تعالى : « إن الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنو صلوا عليه وسلموا تسليما »[1] .

أسماؤه

لقد كان من عادة العرب أن تطلق على عظمائها عدة أسماء تعبر عما اتصفوا به من خلال حميدة ، ويعتبرون كثرة الأسماء دليلا على شرف المسمى . ولذلك سمى عبد المطلب حفيده عند مولده « محمداً » وكان يدعى فى الكتب السماوية من قبلُ « أحمد » وأيد الله فى القرآن هذين الاسمين « أحمد ومحمد » . . . وسمى بعدة أسماء مشتقة من صفاته التى طبع عليها والتى نزل القرآن بها ، فكان مما يدعى به « الأمين والبشير والنذير والمقفى وحاشر الأقوام وعاقب الرسل وخاتم الأنبياء ، والمتوكل والمبشر والشاهد والضحوك والسراج والمنير ، والمرسل والأمى وفاتح الأبواب ، ونبى الله ونبى الرحمة ونبى الملحمة ؟ ونبى التوبة ، وقثم الخير وماحى الكفر . إلى غير ذلك من الأسماء والصفات التى تدل على نبله وعلو مكانته صلى الله عليه وسلم .

نسبه وأصوله

من أعظم مفاخر العرب ومميزاتهم حرصهم الشديد على حفظ أنسابهم بالتسلسل ، والاعتزاز بشرف آبائهم فلا غرو إذا مااحتفظوا بسلسلة نسب الرسول الكريم من والده إلى جده إبراهيم جد كثير من الأنبياء فهو « محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف بن قُصَىّ بن حكيم — الذى يدعى بكلاب — بن مُرَّة بن كَعْب

---

(١) الأحزاب : ٥٦

ابن لُؤَىّ بن غالب بن فِهْر بن مالك بن النَّضْر بن كِنانة بن خُزَيْمة بن مدركة ابن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان » وهو الجد الذى لم يتجاوزه النبى عند انتسابه وكان يقول : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم ، فأنا خيار من خيار من خيار » وقد أوصل ابن هشام نسبه الشريف إلى آدم حيث قال : إن عدنان ابن أُدَد ابن مُقَوِّم بن ناحور بن تَيْرَحَ بن يَعْرُبَ بن يَشْجُبَ بن نابت بن إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن بن تارح وهو آزر بن ناحور بن سارُوغ بن راعو بن فالخ بن عَيْبَرَ بن شالخ ابن أَرْفَخْشَذ بن سام بن نوح بن لَمَك بن مَتُوشَلَخ بن أخنوخ وهو إدريس النبى — فيما يزعمون — بن يَرْد بن مهْليل ابن قَيْنَنَ بن يانِشَ بن شيثَ بن آدم عليه السلام .

هذا نسبه الشريف من جهة أبيه ، أما من جهة أمه فإنها « آمنة بنت وهب » ابن عبد مناف بن زُهرة بن حكيم الذى كان يدعى كلابا . وبذلك تجتمع مع رسول الله فى الجد السادس ، وكلهم من نسل إسماعيل الذبيح بن إبراهيم خليل الرحمن .

وتعتبر قريش صاحبة السيادة فى العرب لاحتفاظها بجوار الكعبة المشرفة ، ولمكة عندهم قدسيتها من عهد إبراهيم ، يأمن الخائف فيها ويجار المستجير ، وكان لأبناء إسماعيل مناصب يحتفظون بها ويفاخرون ، وهم بها محل الإجلال والزعامة وهى :

١ — السدانة : أى حفظ مفاتيح الكعبة وتولى شئونها .

٢ — السقاية : أى سقيا الذين يأتون إلى الحرم من ماء زمزم .

٣ — الرفادة : أى تقديم الضيافة للوافدين وتقاضى قيمتها من قريش .

٤ — الندوة : أى رياسة دار الندوة التى بنوها إلى جوار الكعبة للاجتماع بها فى سائر أيام العام .

٥ — اللواء : أى رفع راية الحرب التى ينصبونها عند اللزوم .

٦ — القيادة : أى إمارة الجيش عند الخروج للحرب .

وقد جمع بعض هذه المناصب عبد المطلب بن هاشم ، وكان ذا مال وجاه فنال السيادة على قومه فى مكة وكان له من الأبناء عشرة ، أحبهم إليه أصغرهم عبد الله فعنى به عناية خاصة ، ولما بلغ من العمر أربعة وعشرين عاما زوجه بآمنة بنت وهب سيد

بنى زهرة ، وأنس بها وأنست به أياما قصيرة ثم سافر فى تجارة إلى الشام وتركها حاملا ، ثم عرج فى عودته على المدينة ، ومالبث أن مرض عند أخواله وتوفى عندهم ، وترك من بعده خمسة من الإبل وقطيعاً من الغنم وجارية هى أم أيمن .

وفى هذه الأثناء كان أَبْرَهَةُ عامل النجاشى فى اليمن قد بنى كنيسة فيها وحاول أن يصرف العرب عن زيارة البيت الحرام إلى كنيسته ، ولذلك سولت له نفسه هدم الكعبة وكتب إلى النجاشى بذلك فأمده بجيش عظيم من الأحباش ، سار به إلى مكة يتقدمه هو راكباً على فيل ضخم من فيلة الحبشة ؛ فلما سمعت قبائل العرب بذلك صاروا يتصدون له فى الطريق لمنعه ورده عن قصده ، ولكنه كان يهزمهم ويستمر فى مواصلة سيره حتى بلغ مكة واستولى على مواشى قريش ، ومن بينها مائتا بعير لعبد المطلب ابن هاشم — وكان هو إذ ذاك سيد مكة — وكانت عنده السقاية والرفادة فهبت قريش لحربه لولا أن أَبْرَهَةَ أرسل إليهم حِناطة الحميرى للتفاهم معهم ، فجاء إلى عبد المطلب وقال له : إن الملك يبلغك أنه ماجاء لحربكم وإنما جاء لهدم هذا البيت ، فإن لم تعارضوه فى ذلك فلا حاجة له بدمائكم ، فأجاب عبد المطلب : ونحن لانريد حربه ومالنا بذلك من طاقة ، وهذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، وأن يخل بينه وبينه فوالله ماعندنا دفع عنه ، فقال حناطة : انطلق إليه معى فإنه أمرنى أن آتيه بك ، ولما أقبل عليه أجلّه أبرهة ونزل عن سريره وجلس إلى جانبه وأكرم مثواه ، ثم سأله عن حاجته ليقضيها له ، فقال : أن ترد على ماأخذت من إبلى ، فقال أبرهة لترجمانه : قل له لقد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم زهدتك حين كلمتنى ، أتكلمنى فى مائتى بعير أخذتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لاتكلمنى فيه ؟ قال له عبد المطلب : أنا رب الإبل ، وإن للبيت رباً سيمنعه ، قال : ماكان ليمتنع منى ، قال عبد المطلب : أنت وذاك فرد عليه إبله . وعاد عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز فى رءوس الجبال والشعاب ، ثم جاء إلى البيت وأنشد يقول :

لاهُمَّ[1] إن العبد يمنـــع رحله فامنع رِحَالَكْ

---

(١) أى اللهم .

لا يغلبن صليبهـــم ومِحالهم غَدْواً مِحالك
إن كنت تاركهم وقِبـــلتنا فأمر مّابدا لك
وانصر على آل الصليـــب وعابديه اليوم آلك

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله وعبأ جيشه وسار نحو البيت يريد هدمه ، فأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف ترميهم بحصى صغير ، لايصيب أحداً إلا هلك ، وأصيب أبرهة فولوا هاربين .

فلما بعث محمد كان ممـا يعد الله على قريش من نعمه أن رد عنهم الحبشة حيث يقول تعالى « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعلْ كيدهم فى تضليل . وأرسل عليهم طيراً أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأ كول » .

مولدُه وَرضاعه

لقد لزم عبد المطلب داره بشعب بنى هاشم بعد أن فوض إلى الله أمر حراسة بيته وهو فى هم وغم ، وزاد فى حزنه أن حمل إليه نعى ولده عبد الله بالمدينة ، وبينما هو كذلك إذ جاءته البشرى بما أصاب أصحاب الفيل وارتدادهم عن البيت خائبين ، فحمد الله ورجع إلى منصبه من سدانة البيت . ثم جاءه البشير بولادة آمنة بنت وهب غلاماً يحيى ذكر ولده عبد الله فسر به غاية السرور وذهب إليها وأخذ طفلها بين يديه فرحاً ، وسار به نحو الكعبة وأدخله فيها وهو يقول : الحمد لله الذى أعطانى هذا الغلام الطيب الأردان ، وسماه محمد — اشتقاقاً من مادة الحمد — وقال : أرجو أن يكون محموداً فى السماء والأرض . ولذلك أرخ العرب مولد الرسول بعام الفيل .

واختلف المؤرخون فى اليوم والشهر الذى ولد فيه ، والأصح أنه فى يوم الإثنين اثنى عشر من شهر ربيع الأول الموافق ٢٠ أغسطس / ٥٧٠م . وفى سابع يوم لمولده نحر عبد المطلب جزوراً ودعا كبار قريش ، إشعاراً بسروره به وأملا فيما يرجوه من ورائه .

وتلقت رأسه الشريف ساعة ولادته أم أيمن جارية أبيه ، وتولت هى حضانته أول الأمر . وفى انتظار المراضع دفعت به أمه إلى ثويبة جارية عمه أبى لهب لتتولى

رضاعته موقتاً ، وما هى إلا فترة قصيرة حتى قدمت المراضع من بنى سعد يلتمسن الأطفال من الأشراف لإرضاعهم — كما هى عادة العرب — فكان من حظ حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية أن وقع اختيار أمه عليها مرضعاً لابنها .

وكان زوجها الحارث بن عبد العُزَّى فقير الحال فقال لزوجه : عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة وما أن انطلقت به حليمة إلى قومها فى البادية حتى أنست الخير يغدق عليها بسببه فقد سمنت غنمها وزاد لبنها وبارك الله لها فى كل ما كان عندها .

حضانته وكفالته

لقد ظل محمد الصبى بين أحضان مرضعته حليمة السعدية تحوطه هى وبنتها الشيماء برعاية فائقة وحنو زائد — لما كانوا يستشعرون به من بركة بسببه — وعند ما أتم السنتين أرجعته حليمة إلى أمه ، وأعربت لها عن استعدادها لرعايته مدة أطول وألحت فى الرجاء ، لما وجدته من خير بوجوده عندها ، ولم تر آمنة مانعاً من ذلك — خصوصاً لما ألفت به من صحة وكمال نمو — وظل عندها إلى أن بلغ عمره خمسين شهراً ، كان خلالها يسرح ويمرح مع أولاد البادية فى رعى الأغنام ، حتى إذا ما اشتدت قواه وانطلق لسانه وتفتق ذهنه عادت به حليمة إلى أحضان والدته وكفالة جده عبد المطلب الذى أحله من قبله أسمى مكان .

وعند ما بلغ من العمر سبع سنوات سافرت به أمه إلى المدينة وصحبت معها أم أيمن الجارية التى خلفها له أبوه عبد الله ، وهناك عرفت الغلام بأخوال جده من بنى النجار ، كما وقفت به على قبر والده وذكرت له طرفاً من محامده ، فتمنى أن يقيم إلى جواره ليكثر من زيارة قبره ، ولكنها أبت عليه ذلك وعادت به إلى مكة ليظل فى كنف جده سيد قريش . وفى أثناء سيرهم فى الطريق مرضت آمنة واشتد بها المرض فى الأبواء — وهى قرية تبعد عن المدينة ثلاثة وعشرين ميلا — فأسلمت الروح لباريها وتركت الطفل فى وديعة مربيته أم أيمن التى عادت به كئيباً حزيناً وما أن وصل إلى مكة حتى تلقاه جده عبد المطلب بصدر رحب وأحله فى قلبه أسمى مكان ، وبالغ فى إكرامه حتى أنساه بؤس اليتيم وحزن فقد الأم ، إذ أنه كان يبالغ فى إكرامه ويدنيه منه أكثر من أبنائه .

غير أن هذا لم يدم طويلا ، إذ توفى عبد المطلب فى الثمانين من عمره — ومحمد لا يزال فى الثامنة من عمره — فكان أثر الحادث فى نفسه أعظم من أثر موت أبيه وأمه حتى إنه لم يرقأ له دمع وهو يسير خلف نعشه إلى أن واروه التراب وظلت ذكريات الجد عالقة فى نفس الطفل يتحدث عنها طول مدة حياته .

وتنفيذاً لوصية عبد المطلب انتقلت كفالته إلى عمه أبى طالب الذى أحبه أكثر من أولاده ، وأنزله ، المنزلة التى كان ينزله فيها جده ، ووجد فيه من الذكاء والنجابة وطيب النفس ما يزيد فى إكباره له وتعلقه به ، حتى إنه صحبه معه فى تجارة إلى الشام — وكان محمد فى الثانية عشرة من عمره — ولما بلغ بصرى فى جنوب الشام التقى عمه بالراهب بحيرا ، الذى رأى فيه أمارات النبوة فنصح للعم ألا يتوغل به فى بلاد الشام خوفاً عليه من اليهود أن يعرفوا منه هذه الأمارات فيقصدوه بالأذى ، فأعاده إلى الحجاز مسرعاً . وأخذ على نفسه حمايته من كل من تراوده نفسه بالاعتداء عليه حتى النفس الأخير ، وثبت عند قوله ودامت حمايته له حتى فى أثناء قيامه بالدعوة الإسلامية التى زيف بها معتقدات قومه ، وقاسى العم فى سبيل هذه الحماية أنواع البلاء من قومه إلى أن مات .

حياته فى صباه

لم يكن أبو طالب عندما عهد إليه أبوه عبد المطلب بكفالة ابن أخيه محمد من ذوى اليسار ، فقد كان أخوه العباس أكثر إخوته مالا ، وإنما اختاره للكفالة لما كان عليه من النبل والشهامة وعظيم الكرم الذى جعله يسود قومه ، ويؤهله لحماية ذلك الطفل فى حاضره ومستقبله .

من أجل هذا لم يعتمد محمد فى أمر النفقة على عمه ، بل إنه — وقد تعلم رعى الغنم فى طفولته — لم يجد مانعاً من أن يرعى غنم أهله ، وأن يضم إليها غنم بعض أهل مكة مقابل أجر يتقاضاه منهم ، وكان يجد فى خروجه بالغنم إلى الصحراء والتأمل فى مناظر الطبيعة سلوة لنفسه ومجالا للتفكير فى عجائب المخلوقات وعظمة الخالق . غير أنه رأى أن هذه المهنة لا تدر عليه غير القليل من الرزق ، فأراد أن يرتقى إلى مزاولة التجارة .

ولما لم يكن خبيراً بهـا اشترك مع رجل يدعى سائبا ليتمرن على هذه الأعمال ، فمارسها معه واشتهر بين الناس بصدقه وأمانته فأطلقوا عليه لقب الأمين . وجاءه عمه أبو طالب يوماً وقال له : يا ابن أخى إن خديجة بنت خويلد امرأة ذات شرف ومال وخير ، وقد تزوجت مرتين من بنى مخزوم حصلت منهما على ما زاد فى ثروتها ، وقد زهدت الرجال وأصبحت لا تُعنى بغير تنمية أموالها ، وتستأجر الرجال من قريش للقيام بأعمال تجارتها ، وهى تريد أن تبعث بتجارة لها إلى الشام . فهل لك أن أكلمها لتذهب أنت بهذه التجارة ؟ فقال محمد : لا بأس ، فذهب عمه أبو طالب إليها وقال لها : هل لك ياخديجة أن تستأجرى محمدا للاتجار لك فيما تريدين إرساله إلى الشام — وقد علمت بأمانته — ؟ ولـكنا لا نرضى لمحمد دون أربعة بكار فأجابته خديجة بقولها : لو سألت ذلك لبعيد بغيض فعلنا ، فـكيف وقد سألته لحبيب قريب ؟ فعاد العم إلى ابن أخيه يحمل إليه البشرى ، ويقول له : هذا رزق ساقه الله إليك .

زواجه بخديجة

خرج محمد بالتجارة بأموال خديجة مع ميسرة غلام خديجة إلى الشام ماراً بوادى القرى وديار ثمود ومدين وسمع بأخبارهم وما أصابهم من نقم الله ، فملأ ذلك قلبه خوفاً من الله وجعله يبالغ فى الإخلاص فى عمله لينال رضاه ويسر الله له السبيل وأعانه على بيع بضائعه بأحسن الأثمان ، وعاد إلى خديجة بربح لم تألفه من قبل . وجاء ميسرة يحدثها بما شهده من رقة شمائله وسمو نفسه وكرم أخلاقه فشعرت خديجة بحب يتسرب إلى قلبها نحوه بعد أن زهدت فى الرجال ، وقالت فى نفسها ، ما أسعدنى لو تزوجت بهذا الشاب الوسيم الطلعة الـكريم الخلق الأمين على مالى ، والقدير على زيادة ثروتى وحسن إدارة تجارتى . ولـكن أنى لها ذلك وهى ثيب فى سن الأربعين وهو فتى فى الخامسة والعشرين من عمره ، والشباب عادة لا يرغبون من النساء إلا فى الفتيات الصغيرات الأبكار ولـكنها لم تيئس وكاشفت بذلك أختها ، واتفق الرأى على أن تبعث إليه صديقتها نفيسة بنت هنية دسيساً تجس نبضه وتتبين رأيه . فذهبت إليه وقالت له ما يمنعك أن تتزوج يا محمد وقد بلغت مبلغ الرجال ؟ ومثلك من خلف عدداً من الأولاد ؛ فأجابها : ما بيدى ما أتزوج به . قالت فإن كفيت ذلك ودعيت

إلى جمال ومال وشرف وكفاءة ألا تجيب ؟ قال فمن هى ؟ أجابت نفيسة : إنها خديجة فدهش محمد وقال : ابنة خويلد ؟ قالت نعم . قال وكيف لى بذلك ؟ وهو لا يكاد يصدق أنها تقبل الزواج بأجيرها بعد أن رفضت كبار القوم وأغنياءهم ، فأجابته نفيسة على ذلك ما عليك إلا أن تتقدم لخطبتها . . . وعادت نفيسة إلى خديجة تبشرها بتحقيق أملها فى الحياة وتدعوها إلى انتظار إعلان الخطبة .

وما هى إلا ساعات حتى كان أعمام محمد فى بيت عمرو بن أسد عم خديجة يخطبونها لابنهم محمد بن عبد الله — لأن أباها خويلداً لم يكن على قيد الحياة — فرحب عمرو بن أسد بمحمد بناء على رضاء خديجة وتم الزواج وقد أصدقها عشرين بكرة . وانتقل إلى بيتها فى بطن مكة بالقرب من الكعبة ، وقد ظل هذا البيت موضع احترام الناس حتى الآن ، واشتهر بمولد السيدة فاطمة إلا أن بعض الجهلة قد غلا فى تقديسه حتى صاروا يتمسحون بأحجاره ويتبركون بترابه ، إلى أن دخلت جيوش جلالة الملك عبد العزيز آل سعود مكة فمنعوا الناس من ارتياده ، كما فعلوا مثل ذلك ببيت عبد المطلب فى شعب بنى هاشم المشهور بمولد النبى — لأن الإسلام لا يقر التبرك بالأحجار والآثار التى لا تنفع ولا تضر — وقد وفق الله أحد أثرياء مكة الشيخ عباس قطان أحد المعروفين بالإحسان وحب الخير فاستأذن جلالة الملك وبنى فى الموضع الاول مدرسة لتعليم القرآن وبنى فى الموضع الثانى مكتبة ، على أن ينقل إليها مكتبة الشيخ محمد ماجد الكردى مؤسس المطبعة الماجدية : وبها من ذخائر الكتب الإسلامية الشىء الكثير ولكنه مات قبل أن ينفذ هذا ، ويعمل أولاده على تنفيذ ذلك رحمه الله رحمة واسعة .

ما بعد الزواج

لقد انتقل محمد بهذا الزواج الميمون الذى يسره الله له ، إلى مستوى الأثرياء ، ولكنه بدلا من أن يقوم بالمهمة التى أرادته لها خديجة من العمل فى التجارة والحرص على زيادة الثروة انصرف إلى التفكير فى آلاء الله ، والإكثار من حمده وشكره والتفرغ لعبادته ، فكان يذهب إلى غار حراء ناقماً مما عليه قومه من عبادة الأوثان مستلهماً من الله الهداية والصلاح . ثم يعود إلى مكة ويخالط أهلها ويأنس بزوجته وأولاده ، ورضيت خديجة منه بهذا وعاشت معه فى هناء . ولم يشعر الناس

بأى اختلاف طرأ على طبائعه وعاداته وما كان يعاملهم به من اللطف والدعة ومكارم الأخلاق . وقد اشتهر بينهم بالصدق والأمانة حتى أصبح يطلق عليه عندهم لقب (الأمين) . وحدث فى هذه الأثناء أن جاء مكة سيل عظيم هدم الكعبة ، فلم تر قريش بدًّا من إعادة بنائها ، فقسموها أقساماً ، بنت كل قبيلة قسما منها حتى انتهوا إلى نحو قامة الرجل ووصلوا إلى موضع الحجر الأسود من الجانب الشرقى ، وهنا اختلفوا فيمن يكون له فخار رده إلى مكانه ، واحتدم الخلاف بينهم حتى بلغ بهم الأمر إلى امتشاق الحسام . وهنا اقترح عليهم أبو أمية بن المغيرة المخزومى — وكان أسنهم وأصوبهم رأياً — أن يحكموا فى الأمر أول داخل من باب بنى شيبة فاتفقوا على ذلك ، وإذا بالداخل محمد بن عبد الله ، فزادهم هذا إجماعاً وقالوا رضينا بحكم الأمين وعرضوا عليه الأمر فقال هلم إلى بثوب ، فأتى به فنشره ، وأخذ الحجر ، فوضعه بيده فيه وقال : ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب فحملوه جميعاً إلى ما يحاذى موضع الحجر من البناء ، ثم تناوله محمد من الثوب ووضعه فى موضعه . وبذلك انحسم الخلاف وقضى على الشر فى مهده ، ثم عادوا يتلاومون فقال قائل منهم : لقد خدعكم محمد واستأثر بالشرف الأسمى ، إذ هو الذى وضع الحجر فى الثوب وهو الذى رده فى موضعه ، وما أنتم إلا أعوانه ، غير أنه لا ينفع اللوم ولا الندم وقد أراد الله لمحمد أن يكون داعية الإصلاح وصاحب القول الفصل والشرف الأسمى . وزاده هذا أجلالا فى نظر قومه وتقديراً لأصالة رأيه وعظيم حكمته . وإن كانوا ليولونه الأمر عليهم لولا إعراضه عن ذلك بما كان مشغولا به من التوجه إلى الله والتهيؤ للدعوة إليه .

علمه وشهادته

ولد محمد بن عبد الله يتيما ونشأ فى الصحراء حيث الجهل المطبق والبداوة الكاملة التى لا تعرف غير رعى الغنم والاستفادة من ألبانها وأصوافها . وتربى فى حضانة جده عبد المطلب وعمه أبى طالب . وعند ما شعر بالحياة لم يجد أمامه من عمل إلا أن يرجع إلى ما كان عليه فى طفولته من رعى الغنم لأهله ولبعض أهل مكة لقاء أجر يتقاضاه منهم ، فلم يجد أمامه متسعاً لطلب العلم ، بل إنه لم يكن يشعر بحاجة إليه ، لأنه نشأ وتربى وعاش بين قوم أميين يمقتون العلم ويهزؤن بالعلماء ، وتقد بلغ بهم

الجهل والضلال إلى حد ليس بعده من ضلال . فهم يصنعون الأوثان بأيديهم ويعبدونها ويتقربون إليها بالنذور ويستعينون بها فى النائبات ، وقد تعطلت فيهم ملكة العقل فهم لا يستطيعون التصرف به ، حتى إذا ما دعاهم داع إلى الهدى أعرضوا وقالوا : « إن نتبع إلا ما وجدنا عليه آباءنا وإنا على آثارهم مقتدون » هكذا كان العرب فى أول عهد محمد بن عبد الله : جهل مطبق وهم لا يشعرون بجهلهم ، وكفر بالله وهم يحسبون أنهم على حق ، ولهذا سمى العرب بالأميين ، ولهذا كانوا من أشد عباد الله كفراً به .

ومن الغريب أن يشذ رجل واحد من هذه الأمة ويطلق لتفكيره العنان ويسبح فى الملكوت الواسع والخلق العظيم ، ويقول فى نفسه : إن البعرة تدل على البعير أفلا تدلنا هذه الكواكب السيارة وهذه الموجودات الحية بحركاتها وسكناتها على إله خالق مدبر حكيم ؟ فيؤمن بوجوده عن عقيدة راسخة وبرهان قطعى لا يقبل الشك والارتياب ، ولا يتقلب مع اختلاف النظريات والمقدمات ، وتدور فى مخيلته تلك الأخبار التى سمعها أثناء رحلته الأخيرة إلى الشام عما أصاب قوم عاد وغيرهم من النقم والدمار نتيجة لمخالفة الملك الجبار ، فتملأ هذه الذكريات قلبه خوفاً وهلعاً فينكر بقلبه ما عليه قومه من عبادة الأوثان ويتجه بقلبه إلى مالك الأرض والسماء يستلهمه الهدى إلى الصراط السوى ، ويسأله الدلالة إلى ما يقربه إليه . وظل هذا الشاب المؤمن ثابتاً على عقيدته مثابراً فى تفكيره مغموراً بخوفه من ربه يرجو النجاة لنفسه ولا يدرى ماذا سيكون من أمره .

تزوج خديجة بنت خويلد التى وهبته قلبها ووضعت تحت أمره جميع ثروتها ، فلم يشغله حبها عن ربه ولم تلهه أموالها عما هو عازم عليه من العمل لما يقربه إليه . فأعرب لزوجته عن رغبته فى الانقطاع عن الناس وملازمة الخلوة فى غار حراء واتخاذها مدرسة يتطلب فيها الهدى من عند الله . فلم تعارضه فى ذلك بل إنها من فرط حبها له شجعته على المضى فى طريقه وصارت تعينه عليه . لقد شغل ذكر الله قلب محمد وهيمن التفكير فى آلائه على سائر حواسه وأخذ الخوف مشاعره وهو يرجو الله أن يلهمه ما يرضيه من العبادات .

ولم يكن يشعر بأن ما كان عليه هو أسمى العبادة وسبيل السعادة إلا عند ما أوحى إليه الله فيما أوحى قوله تعالى : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله

تطمئن القلوب»[١] وقوله تعالى : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى »[٢] وقوله تعالى : « إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار»[٣] وقوله صلى الله عليه وسلم : « تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة » (حديث صحيح) ولم يكن يدرى قبل ذلك بأن الله تبارك وتعالى قد تقبل عمله واختاره لأن يكون رسولا عنه بشيراً ونذيراً للناس أجمعين ، وأنه لذلك لابد أن ينتشله من مستوى الجهل ، وينفى عنه الأمية ليكون لائقاً لهذا المقام الرفيع ، وأهلا لأداء الرسالة على وجهها الصحيح . ويجعل منه مثلا قائما على قدرة الله وعظيم فضله الذى يختص به من يشاء من عباده ، بل ويصير مما يوحى به إليه من كتاب الله برهاناً قاطعاً على نبوته وصدقه فى رسالته .

لم يكن محمد بن عبد الله يعلم بشىء من هذا ، بل لم يكن يخطر بباله وهو ذلك الأمى ابن الأميين أن يصل إلى أقل درجة فى العلم — وقد بلغ عمره سن اليأس فى التعليم — ولم يعد ينتظر وهو فى سن الأربعين إلا حسن الختام على دين الأنبياء السابقين الذين لم تصل إليه دعوتهم حتى ذلك الحين . ذهب محمد كعادته إلى غار حراء يطيل الفكر فى خلق ماحوله من الأرض والسماوات وإذا هو يرى فى السماء شبحاً على غير صورة الإنسان يدنو منه رويداً رويداً حتى أصبح منه قاب قوسين أو أدنى ، فلم يتمالك نفسه من الذعر لولا أن فاجأه ذلك الشبح بقوله : « اقرأ » قال « ماأنا بقارئ » إذ لم أتعلم القراءة قط فكيف تدعونى إلى القراءة ؟ (فغطّه) حتى بلغ منه الجهد ، ثم أرسله وقال له : « اقرأ » قال « ماأنا بقارئ » مثل جوابه الأول فغطه الثانية حتى بلغ منه الجهد ، ثم أرسله وقال : « اقرأ » قال : « ماأنا بقارئ » فغطه الثالثة حتى بلغ منه الجهد ، ثم أرسله وقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم » . ومعنى هذا أنى آمرك بالقراءة باسم ربك الخالق ولا تتعجب من طلبى هذا فإن الذى لايعجزه أن يخلق الإنسان من علق لايعجزه أن يجعل من الأمى قارئاً فى أقل من لحظة ، وربك الأكرم

---

(١) الرعد : ٢٨ (٢) النازعات : ٤٠

(٣) آل عمران : ١٩١

الذى علم الناس القراءة عن طريق الكتابة بالقلم لا يعجزه أن يعلمك القراءة من غير كتابة ولا قلم ، والذى علم الإنسان مالم يعلم لا يعجزه أن يجعل منك عالما بكل شىء ومعلما لما يريد أن يعلمه لعباده من سائر العلوم بوضع أسسها وطرق استعمالها .

وما كاد الشبح يتوارى عن ناظر محمد حتى جمد فى مكانه ، وظل يحدث نفسه : أفى يقظة أنا أم فى منام ؟ وما هذا الذى أرى أملك أم شيطان ؟ وكيف أستطيع القراءة وماذا أقرأ ؟ ثم أخذ طريقه إلى مكة ودخل بيته وعلائم الإعياء بادية عليه ، أو كأنما هو يرجف من الحمى وهو يقول : « زملونى زملونى » فأقبلت عليه خديجة تزمله وتضمه إليها وهى تقول : مابالك ماذا دهاك ؟ فقص عليها الخبر وقال : لقد خشيت على نفسى ، قالت له : « كلا . أبشر يابن العم واثبت فالله لايخزيك أبدا ، إنك تصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق » قالت هذا وهى واثقة بأن مثل هذه الصفات لا تتوفر إلا لمن عمر قلبه بالإيمان ، والله لن يخيب عبده المؤمن ولا يمكن أن يسلمه للشيطان يتلاعب به ويسيطر على نفسه . وانطلقت به خديجة إلى ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن قصى ، وهو ابن عمها وكان رجلا صالحا لم تهضم نفسه ماعليه قومه من عبادة الأوثان فاعتنق دين المسيح — فقالت له يا ابن عمى اسمع من ابن أخيك ، فلما قص عليه ما رأى وما سمع قال له : « هذا هو الناموس الذى أنزله الله على موسى ، ياليتنى فيها جذعا ، ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك ، قال : أو مخرجىّ هم ؟ قال : نعم . لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به إلاعودى . وإن يدركنى يومك لأنصرنك نصراً مؤزرا» .

فخرج محمد من حضرة ورقة وقد تبدل ذعره طمأنينة وهمه استبشاراً وأصبح يفكر فى عظم المسئولية التى ستلقى على عاتقه ، والقوة التى يعتمد عليها فى رد أذى قومه عنه ، والوسيلة التى بها يقنعهم برسالته ، ويحملهم على ترك ما كانوا عليه من عقائد فاسدة وعبادات منكرة . ثم ما هى تلك العبادة التى سيدعوهم إليها لإرضاء رب العالمين وهو نفسه لم يعلم بها بعد ؟ وظل ينتظر الوحى يأتى إليه بما ينير سبيله ويضع حداً لحيرته ، ويترقب عودة ذلك الشبح الذى جاءه فى مدرسته التى كان يتطلب الهدى فيها بغار حراء وهو جبريل وقد أدرك أن الله قد اختاره لأن يكون معلما لنبيه ، إذ هو معلم ذو مرة فى التعليم ، وتلك الغطات التى كان يغط بها ما هى إلا وسائل

عملية يوحى بواسطتها إلى نفس محمد ما أوحى الله به إليه ، ليعلمه ما لم يكن يعلم . وقد أشار الله إلى ذلك بقوله فيما بعد : « إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى »[١] .

ولقد تفضل الله جل جلاله فمنح نبيه محمداً من لدنه علما حيث يقول : « وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما »[٢] ومن تلك اللحظة انتفى عنه الجهل وأصبح عالماً فى مقدمة العلماء العظام بشهادة رب العزة الذى قرر فى كتابه الكريم بأن جبريل ذلك المعلم القدير على التعليم إنما كان وحياً من قبله تعالى إلى عبده ، وأنه جل وعلا هو الذى منحه العلم بكل ما لم يكن يعلم من سائر العلوم ، بوسيلة غير القراءة والكتابة اللذين تتوقف عليهما معرفة سائر العلوم وبدونهما لا يحصل التعليم عادة .

ألا وهى وسيلة الحفظ لكل ما يلقيه إليه ربه ، حيث قال له تعالى : « سنقرئك فلا تنسى »[٣] . فكان صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن مئات المرات دون أن يغلط فيه أو تشتبه عليه آياته . وكان يصدر فى كل شىء عن علم لدنى غير مكتسب ، وهدى من ربه إلى سواء السبيل .

أجل من تلك اللحظة وبمقتضى شهادة الله انتقل محمد إلى مصاف العلماء فى كل شىء وعلا عليهم بجمعه بين الأمية والعلم . وهذا بحق معجزة من أعظم المعجزات التى اختص الله بها رسوله عليه الصلاة والسلام . وقد روى عنه أنه عند ما صعد إلى العرش ليلة الإسراء قرأ مكتوباً حول العرش : الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر أمثاله ، فسأل جبريل عن السر فى هذا فأجابه جبريل : لأن الصدقة تقع فى يد مستحقها وغير مستحقها ، وأما القرض فلا يقع إلا فى يد مستحقه . . كما روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه كان يعلم معاوية وهو يكتب بين يديه كيف يحسن خطه ، ولكنه لم يكتب بيده لأن جبريل عندما جاءه فى مدرسته بغار حراء أمره بالقراءة فقط ولم يأمره بالكتابة فلم يكتب . وإنما نزه الله نبيه عن الإلمام بعلم واحد فقط من

---

(١) النجم : ٤ (٢) النساء : ١١٣ (٣) الأعلى : ٦

سائر العلوم ، وهو علم الشعر لئلا يطعن ذلك فى رسالته ، حيث قال تعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغى له ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين »[١] .

ولقد خول الله رسوله حق تعليم قومه سائر العلوم التى علمها الله له ، حيث قال : « كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون »[٢] .

فلا غر وإذا ما كان محمد بن عبد الله من أعلم العلماء وأن جميع ما أخبر به عن أحوال الأمم السابقة والرسل والكتب المتقدمة حق لا مرية فيه ، لأنها عن رب العزة إله العالمين حيث يقول تعالى : « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر إن العاقبة للمتقين »[٣] .

أدبه وخلقه

لقد نشأ محمد بن عبد الله فى البادية وتربى بين قومه الجفاة الغلاظ المصابين بداء الغرور واعتداد كل منهم بسيفه وقوته ، واعتماده على قومه وعشيرته . وكان دأبهم الانغماس فى الشهوات واستباحة المنكرات . . وكان طبيعياً أن يقتبس محمد منهم هذه الطبائع وأن يتخلق — بحكم البيئة — بهذه الأخلاق . غير أنه على العكس من هذا نشأ نشأة هادئة صالحة يجاهد نفسه ويحارب هواه ويتجه بقلبه دائماً إلى الله ، حتى لينكره الجاهل ويعجب من صفاته العاقل . وهو فى سبيله منقطع عن الناس لا يخالطهم إلا بقدر الحاجة ، ولم يجد لأحد منهم فى قلبه هوى أو صبابة .

وكان من سليقة العربى قرض الشعر والتغزل فى الحسان وتمجيد بنت الحان ، حتى لقد اشتهروا من أجل هذا بالفصاحة والبلاغة والمبالغة فى الفخر والشجاعة ، لم يشذ منهم غير ذلك البائس اليتيم محمد بن عبد الله ، حتى ليحسبه غير العارف بأحواله أنه عىّ اللسان فاقد الشعور والإحساس وإلا فما الذى يمنعه من أن يلهو مع اللاهين ويخوض مع الخائضين ؟ . حقاً إنه لشاذ بين قومه وأعجوبة فى شباب عصره ، ولقد زادته الخلوة فى غار حراء عزلة عن الناس وأبعدتهم عنه وأبعدته عنهم فى الطبائع والعادات ، وطال الأمد حتى لم يعد أحد يحس وجوده أو يشعر بحياته . وتمر الأيام وإذا بهذا الشاب

---

(١) يس : ٦٩ (٢) البقرة : ١٥١ (٣) هود : ٤٩

المنزوى يظهر على مسرح الحياة يخالط الناس ويتقرب إليهم ويدعوهم إلى شيء جديد

وإذا بهم يرون أمامهم شخصية لا يعرفونها من قبل علما ومعرفة وخلقاً وأدبا . من يكون هذا الرجل ؟ ومن أين له هذا ؟ . إنه لم يتلق العلم عن أحد ولم تكن هناك مدارس للتربية ، فكيف حصل هذا التطور فى حياته وأخلاقه ؟ وإذا به يزيل هذا اللبس ويقول : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » وإذا به يعلن للملأ قوله : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وإذا برب العزة يمنحه شهادة لم تمنح لأحد سواه حيث يقول تعالى مخاطباً له : « وإنك لعلى خلق عظيم »[1] وإذا بالناس يتساءلون ما هو ذلك الخلق الذى منحه محمد بن عبد الله حتى استحق أن ينال من ربه هذه الشهادة العالية ؟ فلم يستطع أحد أن يجيب عليه ، فتوضح ذلك السيدة عائشة فيما بعد بقولها : كان خلقه القرآن أى أن أخلاقه كانت مطابقة تماماً لكل خلق كريم ورد فى القرآن مما دعت إليه سائر الرسل بأمر ربها ، فخلقه إذاً جمع أخلاق الرسل أجمعين . وفاق الجميع بما اختصه ربه به من مكرمات برزت فى أواخر عمره عندما عهد إليه بالرسالة ، وتجلت واضحة فى دعوته لقومه ، وذكرها القرآن فى مواضع كثيرة من آياته نقتبس منها ما يأتى :

قال تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين . وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم »[2] .

« فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين »[3] « فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم[4] « وآت[5] ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا . إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا . وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا .

---

(١) ن : ٤
(٢) الأعراف : ١٩٩
(٣) آل عمران : ١٥٩
(٤) الشورى : ١٥
(٥) الاسراء : ٢٦

ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا »[١] « ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا . ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا . كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها »[١] « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون »[٢] « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم »[٣] « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين »[٤] .

يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا»[٥] « ولا تُصَعِّرْ خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرَحا إن الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير »[٦] « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شُح نفسه فأولئك هم المفلحون »[٧] « قال : ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون »[٨] « ولا تيئسوا من روح الله إنه لا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون »[٩] « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون »[١٠] .

---

(١) الأسراء : ٢٦ (٢) النحل : ٩٠
(٣) فصلت : ٣٢ (٤) آل عمران : ١٣٣
(٥) الحجرات : ١٢ (٦) لقمان : ١٨
(٧) الحشر : ٢٩ (٨) الحجر : ٥٦
(٩) يوسف : ٨٧ (١٠) : النحل ٩١

« بمثل هذه الأخلاق الكريمة استطاع الرسول محمد أن يجمع حوله القلوب . ويتألف العباد وينشر الدعوة إلى دينه الحق .

وبمثل هذا الأدب الرفيع كان يعامل النبي الكريم الكبيرَ والصغير والغنى والفقير ، وينزل الناس منازلهم فلا غرو إذا ما كان القدوة الصالحة لقومه وللناس أجمعين .

ولا عجب إذا ما أضحى إماماً فى الخلق الكريم والدين القويم .

دعوته لربّه

لقد انقطع الوحى عن محمد بن عبد الله مدة حتى حزن حزناً شديداً وربما خشى أن يكون فيما أباح به من خبر حراء ما أوجب غضب الله عليه ، ثم رأى أخيراً أن يعتكف شهرا بغار حراء ، وعند ما أتمه أخذ طريقه إلى بيته كئيباً محزونا ، وبينما هو يمشى إذ سمع نداء فنظر أمامه وخلفه وعن يمينه وشماله فلم ير أحداً ، وإذا بالنداء يتكرر فرفع رأسه إلى السماء فأبصر الملك الذى جاءه فى حراء جالساً على كرسى بين السماء والأرض ، فأخذته رجفة شديدة وأسرع إلى خديجة وقال دثرونى دثرونى ، فأنزل الله عليه « يأيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر »[1] فسر لذلك وكانت هذه هى أول الآيات التى نزلت عليه بعد الأمر بالقراءة ، ثم تتابع الوحى عليه بعدها ، فأحيانا يسمع صوتاً يشبه صلصلة الجرس يتبين منه ما قال ، وطوراً يتمثل له الملك رجلا يكلمه فيعرف أنه جبريل ويعى ما يقوله . ولقد وضح الله لرسوله فى هذه الآيات الخطة التى يجب أن يتبعها للنجاح فى مهمته وهى تتلخص فيما يأتى :

أولا : القيام بواجب أداء الرسالة وعدم التوانى فى ذلك .

ثانياً : توجيه الإنذار إلى الناس أن يتركوا ما هم عليه من عبادة الأوثان .

ثالثاً : دعوتهم إلى الاعتراف بعظمة الله وأنه أكبر من كل شىء وأنه لا إله إلا هو ولا معبود سواه .

---

(١) المدثر : ١

رابعا : العمل على طهارة الظاهر من الأوساخ فى نظافة الجسم وحسن الهندام ما يروق للأنظار ويدعو إلى الاحترام .

خامساً : اجتناب الآثام وكل ما يغضب الله .

سادسا : التضحية بكل شىء فى الحياة فى سبيل الله .

سابعاً : توطين النفس على تحمل المصائب والصبر فى الشدائد من غير سآمة أو ضجر .

وصدع الرسول بالأمر وقام من فوره وشمر عن ساعد الجد واستعد لتبليغ الرسالة وبدأ بتبليغ من حوله فكان أول من آمن به من النساء زوجته خديجة ، ومن الرجال صديقه أبا بكر الصديق ابن أبى قحافة ، ومن الصبيان عليا ابن عمه أبى طالب وكان صبياً لما يبلغ الحلم ، ومن العبيد بلالا الحبشى ومن الموالى زيد بن ثابت . ثم أسلم عثمان ابن عفان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبى وقاص والزبير ابن العوام ، ثم أسلم من بعدهم أبو عبيدة بن الجراح . وعلم الله نبيه الصلاة فصلى وتابعه من آمن به وأخذوا عنه جميعهم العلم وتخلقوا بخلقه وشرعوا يعاونونه فى الدعوة إلى الله سراً ، وظلوا على ذلك ثلاثة أعوام والإسلام ينتشر رويداً رويدا ، وقريش لاتعبأ بهم ولا تخاف بأسهم ما داموا يتعبدون فى طى الخفاء ، إلى أن نزل عليه قول الله تعالى « وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعلمون »(١)

صعد على الصفا فجعل ينادى يا بنى فهر يا بنى عدى لبطون من قريش قد اجتمعوا فجعل الذى لا يستطيع أن يخرج يرسل رسولا لينظر ما هو فجاء أبو لهب وقريش فقال أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أ كنتم مصدق قالوا : ما جربنا عليك كذبا قال فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد فقال أبو لهب تباً لك ألهذا جمعتنا فنزلت « تبت يدا أبى لهب وتب إلى آخر السورة » وروى أنه قال فى إنذاره يامعشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئاً . يا بنى عبد المطلب لا أغنى عنكم من الله شيئا . يا عباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئاً . يا صفية عمة

---

(١) الشعراء : ٢١٤ ٢١٦

رسول الله لا أغنى عنكِ من الله شيئاً . يا فاطمة بنت رسول الله سلينى ما شئت من مالى لا أغنى عنك من الله شيئاً .

وقد ظل أبولهب بعد ذلك يناصبه العداء ، حتى أنه ذهب إلى ابنيه عتيبة وعتبة وقال لهما : رأسى من رأسكما حرام إن لم تطلقا بنتى محمد . وكان الأول زوجا لأم كلثوم ، والثانى زوجا لرقية بنتى النبى . فذهب عتيبة إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقال : كفرت بدينك وطلقت ابنتك .

يالها من صدمة عظيمة على نفس الرجل أن يعاديه أقرب الناس إليه — عمه — وأن تطلق بنتاه فى وقت واحد ، ولكن محمداً قبل كل ذلك بسرور عظيم فى سبيل الله ، ولم يترك المثابرة على الدعوة التى أمر بها . واستمر أبو لهب وأبو سفيان فى عنادهما وهما من أشراف قريش وملوك المال فيها فصارا يغريان الشعراء بهجوه والحط من قدره وتكذيبه فيما يدعيه ، حتى تألب الناس عليه يطالبونه بمعجزات كمعجزات موسى وعيسى وغيرهما من خوارق العادات ، وهو يأبى أن يجاريهم فى هذا الباب ويحاول أن يهديهم إلى الحق عن طريق الإقناع بالأدلة العقلية والآيات الكونية ، لأن شريعته لا تقوم إلا على هذا الأساس .

هو لا يريد أن يؤمن الناس بالله إيماناً مبيناً على مجرد التصديق برسالة الرسول واتباع ما يدعوهم إليه إيماناً تقليدياً بل يريدهم أن يؤمنوا بالله أولا وقبل كل شىء عن طريق الإذعان بخلقه تعالى لجميع الموجودات واستحقاقه وحده للطاعة وسائر العبادات ، ويؤمنوا بأنه رسول إليهم من الله كمن سبقه من الرسل ، فلابدَّ أن يحصل لهم الإيمان بالمرسل واليقين الكامل بانفراده وحده بالخلق والتكوين والنفع والضر ولكنهم لجوا فى العناد والإعنات . « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا . أوتكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أوتسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربى ، هل كنت إلا بشراً

رسولا»[١] ليس فى طاقتى ولا فى قدرتى الإتيان بما تقترحون وما أنا إلا بشر لا يقدر على شىء إلا بإذن الله ، ورسول كسائر الرسل لا أستطيع الإتيان بمعجزة إلا أن يشاء الله فما بالكم تطالبوننى بما ليس من شأن البشر أن يطالبوا به ، وما لكم تكفرون بدعوتى إذ كنت بشراً لا أملك لنفسى شيئاً وليس من شأنى خلق المعجزات إنما ذلك لله وحده خالق كل شىء وهو على كل شىء قدير .

وقد تكرر فى القرآن تأكيد هذه العقيدة لتقتلع من نفوسهم جذور الشرك وعبادة الأصنام والطواغيت . ولئن جاء الرسل السابقون بشىء من خوارق العادات معجزات لهم تحدوا أقوامهم بالإتيان بمثلها ، فإنه عليه الصلاة والسلام أتى بأعظم معجزة وهى القرآن الذى أنزله الله إليه بلسان عربى مبين وتحداهم أن يعارضوه فألقوا باليدين عجزاً وإفحاما قال تعالى : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين »[٢] . وقال تعالى : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بيناتٍ قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أوبدّله ، قل : ما يكون لى أن أبدّله من تلقاء نفسى ، إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم — قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله ، أفلا تعقلون »[٣] .

ولقد عجز الفصحاء والبلغاء فعلا عن محاكاته بالرغم عن ذلك التحدى وما زالوا عاجزين عن ذلك حتى الآن . وتأييداً لذلك أمر الله رسوله أن ينفى عن نفسه القدرة على كل ما ليس فى طاقة غيره من الناس ، حيث يقول : « قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملَك ، إن أتبع إلا ما يوحَى إلىّ ، قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون »[٤] .

ومع ذلك أمدّ الله رسوله فى مواقف كثيرة بكثير من خوارق العادات كغيره من الرسل إكراما له وتصديقاً فى دعوى الرسالة إلا أن المعجزة الباقية الدائمة إلى يوم

---

(١) الإسراء : ٩٠ (٢) البقرة : ٢٣
(٣) يونس : ١٥ (٤) الأنعام : ٥٠

القيامة هى القرآن الذى جاء داعياً إلى الإيمان بالله عن طريق التفكير فى آلائه ومخلوقاته ، وشاء الله أن يجعل من شخصية رسوله معجزة خالدة له يتحدى بها الناس أجمعين فى سائر العصور ، حيث رقى به فى لحظة واحدة من الأمية إلى أسمى درجات العلم ، وجعل منه رسولا كفئا للقيام بأعباء الرسالة وهداية الناس إلى الصراط السوى ، وقد استطاع أن يكوّن أمة كثيرة العدد وأن يبنى مجداً خالداً مدى الدهر وأن يأتى بشريعة تكفل سعادة الناس على ممر الزمن إلى يوم الدين .

ولقد كانت مهمة الرسل محصورة فى دعوة الناس إلى دين الله الحق بالحجة والدليل والحكمة والموعظة الحسنة لا بالإكراه والقوة ، حيث يقول تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين »(١) وقوله تعالى : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى »(٢) . وظل عليه الصلاة والسلام يتلو على قومه كل ما يوحيه الله إليه من الآيات الداعية إلى توحيده واجتناب الشرك وما يؤدى إليه كقوله تعالى : « قل من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله فقل أفلا تتقون فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال ، فأنى تصرفون »(٣) وقوله : « قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون ؟ قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق ؟ قل الله يهدى للحق ، أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يُتّبع أمّن لا يَهِدِّى إلا أن يُهدَى فما لكم كيف تحكمون »(٤) وقوله : « قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، آلله خير أمّا يشركون . أمّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تُنبتوا شجرها أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون . أم من جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع

---

(١) النحل : ١٢٥ (٢) البقرة : ٢٥٥
(٣) يونس : ٣١ (٤) يونس : ٣٤

الله قليلا ما تذكّرون . أمّن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »[١] .

وحاول الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجد من كبار قومه من يصغى إلى الحق ويتبع الهدى ولكنهم قوم أميون متعصبون للرأى لا تنفع فيهم الآيات والنذر ، ولا يسمع منهم بعد جهد جهيد إلا قولهم : « حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا »[٢] .

وعندما عجز كبار القوم عن مناظرته وحمله على العدول عن دعوته عمدوا إلى إيذائه بمختلف الوسائل ، فكانوا يضعون الأشواك والقاذورات فى طريقه وعند عتبة داره فينحيها ولم يزد عن قوله : « بئس الجوار هذا يا معشر قريش » بل إنهم جاءوا بفرث جذور مرة ووضعوه بين كتفيه وهو ساجد يصلى حول الكعبة ، وظلوا يتضاحكون عليه دون أن يجرأ أحد على تنحيته عنه حتى جاءت ابنته فاطمة فطرحته عن ظهره . وضربوه مرة حتى غشى عليه . وتجمعوا مرة حول الكعبة فوجدوه يصلى عند المقام فقام إليه عقبة بن أبى مُعَيْطٍ فجعل رداءه فى عنقه ثم جذبه وتصايح الناس وظنوا أنه قتل ، فأقبل أبو بكر وأنقذه وهو يقول : « أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله » ؟ وكان يوما يسير فى الأسواق وهو يقول : يأيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، وإذا بأبى جهل يلحق به ويحثو عليه التراب ويقول : يأيها الناس لا يغويكم هذا عن دينكم فإنما يريد أن تتركوا دينكم وتتركوا اللات والعزى . كل هذا والنبى صلى الله عليه وسلم لا ينثنى عن عزمه ويمضى فى سبيله ممتثلا أمر ربه القائل : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل »[٣] .

وعندما ضاقوا به ذرعاً ورأوا أنه لا يتأثر من إيذائهم له عقدوا اجتماعاً عاماً لهم وقالوا : أنظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر ، فليأت هذا الرجل الذى فرق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا فليكلمه ، قالوا : ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة واختاروه لهذه المهمة ، فأتاه عتبة وقال : يا محمد أنت خير أم والدك عبد الله ؟ فسكت ،

---

(١) النمل : ٥٩ — ٦٤ (٢) المائدة : ١٠٤

(٣) الأحقاف : ٣٥

فقال : أنت خير أم جدك عبد المطلب ؟ فسكت ، فقال : إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التى عبتها ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك ، أما والله ما رأينا شخصاً أشأم على قومك منك ، فرقت جماعتنا وشتتت أمرنا وعبت ديننا ، وفضحتنا فى العرب حتى طار فيهم أن فى قريش ساحراً كاهناً ، ما تنتظر إلا أن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف حتى نتفانى أيها الرجل إن كان ما بك حاجة جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أغنى قريش ، وإن كان ما بك الباءة فاختر أى نساء قريش فنزوجك عشراً . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفرغت ؟ فقال نعم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « حم تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فُصّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون . بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ، وفى آذاننا وَقْر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون . قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه ، وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون . قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها ، وقدّر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينّا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ، ذلك تقدير العزيز العليم . فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود »[1] .

وما إن بلغ هذه الآية حتى قاطعه عتبة قائلا : حسبك ، ما عندك غير هذا ؟ قال لا ، فرجع إلى قريش فقالوا : ما وراءك قال : ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمونه به إلا كلمته ، قالوا : هل أجابك ؟ قال نعم ، والذى يقيمها بينةً ما فهمت شيئاً مما قال غير أنه قال أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، قالوا : ويلك كلمك بالعربية فلا تدرى ما قال ، قال لا والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة . وأخيراً أنزل الله عليه قوله : « يأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته

---

(١) فصلت : ١٣

والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين»[1] عندئذ لم يجد محمد بداً من مهاجمة تلك الآلهة التى يعبدونها من دون الله ويطعن فيها دون خوف ولا وجل ، فتجمع القوم وذهبوا إلى عمه أبى طالب وقالوا له : إن ابن أخيك يأتينا فى أفنيتنا وفى نادينا فيسمعنا ما يؤذينا ، فإن رأيت أن تكفه عنا فافعل . فذهب إليه أبو طالب وبلغه ما قالوا له ، فأجابه النبى بقوله : « ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به يا عماه من أن يشتعل أحدكم من هذه الشمس شعلة من نار . فرجع أبو طالب إليهم وقال : ما كذب ابن أخى قط ارجعوا راشدين .

واستمر محمد فى محاربة الأصنام حتى ذهب يوماً إلى الكعبة ومعه على بن أبى طالب وقال له : اجلس وصعد على منكبه وأمره بالقيام ليدخل الكعبة فلم يستطع على القيام به فنزل وجلس وأمر عليا أن يصعد على منكبه فنهض به حتى صعد على البيت وكان عليه تمثال من صفر أو نحاس فأمره أن يلقى به فألقى به علىّ على الأرض فتكسر كما تتكسر القوارير .

ولما أصبح القوم ورأوا ما حل بأحد آلهتهم جاءوا إلى أبى طالب مرة ثانية وفى مقدمتهم أبو سفيان بن حرب فقالوا : ياأبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا وقد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا وإنا والله لا نصبر على هذا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين .

هنا أدرك أبو طالب أن الأمر قد بلغ الغاية وأنه بين عاملين لا ثالث لهما إما خذلانه ابن أخيه أوالموت دونه فأرسل إلى محمد وقص عليه ماقالته قريش ثم قال له فأبق على نفسك ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق ، فأجابه على ذلك بقوله : يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته .

فما أن سمع الشيخ من فم ابن أخيه تلك الكلمات الحازمة الدالة على إيمان قوى حتى أخذته النخوة الهاشمية والعزة العربيةوقال له : اذهب يا ابن أخى فافعل ماتريد وقل ماتشاء

---

(١) المائدة : ٦٧

فوالله لا أسلمك لشيء تكرهه أبدا . ودعا أبو طالب بنى هاشم وبنى المطلب وأفضى إليهم بما قال محمد وبعزمه على حمايته إلى النهاية وطلب منهم أن يمنعوا محمداً من قريش ، فاستجابوا له جميعاً ما عدا أبا لهب ، فإنه صارحهم الخصومة وانضم إلى أعدائهم وأخذ يشتم محمداً وينال منه ومن دينه ومحمد يعرض عنه ، الأمر الذى لم يرض بنى هاشم فأخذت الحمية حمزة عم النبي وأخاه من الرضاع ولم يكن آمن بعد بمحمد ، وكان رجلا قويا فجاء إلى أبى جهل ورفع القوس فضربه بها وشجه شجة منكرة وأعلن إسلامه ، وعاهد محمداً على نصرته والتضحية فى سبيله حتى النهاية . ولم يستطع أبو لهب أن يبدى حراكا .

وألقى الله الرعب فى قلوب أعداء محمد فلم يستطيعوا أن ينالوا منه منالا ، وإنما أخذوا ينكلون بمن تصل إليه أيديهم ممن آمن بمحمد ويعذبونهم أشد العذاب دون أن يظفروا بارتداد أحد منهم عن دينه الذى اعتنقه عن إيمان كامل ويقين بالله ثابت لا يصرفهم عنه مال ولا جاه ، ولا يثنيهم عنه أحد .

هذا الإيمان وهذا الثبات على المبدأ الذى كان عليه محمد وأتباعه وهذه التضحية العظمى التى بدت من أصحاب محمد وهذا الصبر العظيم الذى تجلى فى مواقف محمد وأصحابه مع قومه لا شك أنه يعد معجزة من معجزاته الخالدة على طول الزمن وإنها لمعجزة دونها معجزات خوارق العادات .

الهجرة إلى الحبشة

لقد نشأ محمد بن عبد الله من صباه كثير الخوف من الله ومن أجل هذا هجر نعيم الحياة وآثر العزلة فى غار حراء يتلمس الهدى ويرجو من خالقه الرضا . وعندما جاءه الوحى فزع منه خشية أن يكون شيطاناً يذهب بعقله ويصرفه عن عبادة ربه ولكنه عندما اطمأن إلى أنه وحى من عند الله وشعر بصلته بمولاه لم يعد يخشى أحداً فى الوجود .

وأدرك معنى الرسالة فقيد نفسه بعدم الإقدام على أى أمر إلا أن يكون فيه

مرضاة الله وسار فى تبليغ دعوته ورسالته بحكمة وروية ولم يحاول قط أن يستبق الحوادث ويتعجل الأمور ، أو أن يأمر الناس بما ليس فى حد الطاقة والميسور .

كان يعلم من نفسه أنه على الحق ، وكان يعلم من ربه أنه فى حمايته وهو الذى وعده بعصمته من الناس ، ومع ذلك لم يشأ أن يعرض نفسه للمخاطر ولم يشأ أن يرفض حماية عمه وعشيرته له ، ولكنه لم يكن يعتمد عليهم فى قرارة نفسه ، وقد أراد أن يعلم أتباعه أن الإسلام لا يدعو إلى التواكل قط حتى على قدرة الله ورحمته ، بل لا بد من الأخذ بالأسباب والعمل لما ينفع الإنسان وينجيه من المخاطر فى الدنيا والآخرة .

من أجل هذا أمر جماعة من أتباعه بالهجرة إلى الحبشة فى صدر الإسلام عندما خشى عليهم الفتنة أو التعرض للعذاب بأيدى المشركين وإنما اختار الحبشة لأن قومها أهل كتاب يشتركون فى الإيمان بوجود الله وسافرت الدفعة الأولى مكونة من أحد عشر رجلا وأربع نساء ، هم — الزبير بن العوام وسهيل بن بيضاء وعامر بن ربيعة وعبد الله بن مسعود وعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان مع زوجه رقية بنت الرسول وعثمان بن مظعون ومصعب بن عمير وأبو حذيفة بن عتبة مع زوجه سهلة بنت سهيل وأبو سبرة بن أبى رهم مع زوجته أم كلثوم بنت سهيل وأبو سلمة بن عبد الأسود مع زوجته أم سلمة .

وظلوا بها آمنين مطمئنين نحو ثلاثة أشهر إلى أن ترامى إلى أسماعهم إسلام عمر واشتداد شوكة المسلمين مما اضطر قريشاً إلى أن تهادنهم وألا تنال أحداً منهم بأذى ، فسارعوا بالعودة إلى مكة .

وما كادوا يدنون منها حتى علموا بمقاطعة قريش لبنى هاشم مقاطعه تامة أدت إلى حدوث اضطرابات أخرى بين الطرفين وأشار عليهم الرسول بالعودة فعادوا إلا نفراً منهم ، فى مقدمتهم عثمان بن عفان الذى أحب أن يكون مع الرسول يثاب على ما يلقاه من الأذى فى سبيل الله تعالى .

وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث معهم جعفر بن أبى طالب وعبد الله بن عُرفطة وغيره من الصحابة ليعملوا على نشر الإسلام فى تلك الجهات ولحق بهم من اليمن أبو موسى فى بضعة وخمسين رجلا من قومه آمنوا بمحمد بمجرد

السماع وهاجروا إليه ، إلا أن السفينة ألقت بهم إلى الحبشة ، وهنا لك لقوا جعفرا وصحبه فظلوا معهم .

لقد كان سفر جعفر بن أبى طالب مع المهاجرين فى هذه المرة موجباً لإثارة أفكار قريش وحسبت له حسابه ، وظنوهم موفدين من قبل محمد بن عبد الله إلى النجاشى طلباً لنجدته ومعُونته بجيش لقتالهم ، خصوصاً وهم يعرفون أن النجاشى عدو لآلهتهم وسبق له أن أرسل جيش الفيل لهدم الكعبة بما فيها من الأصنام .

إذاً لا بد من إفساد هذه الخطة ، ومن أجل هذا سارعت قريش بانتداب رجلين من خيرة رجالها لإحباط ذلك المسعى ، وهما عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد ، وقيل عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى ، وزودوهما بأنواع الهدايا الثمينة للنجاشى وقساوسته ، فلما بلغا الحبشة قصدا إلى مقر النجاشى واستأذنا فى الدخول عليه ؛ ولما مثلا أمامه سجدا له وقدما له الهدايا ، ثم قالا له : « إن نفراً من بنى عمنا نزلوا بأرضك ورغبوا عنا وعن ملتنا » ، قال أين هم ؟ — ولم يكن يعلم بهم من قبل — قالا : إنهم بأرضك وربما بثوا بين قومك سمومهم ، فأمر النجاشى بهم فأحضروا . فقال جعفر بن أبى طالب لصحبه : أترضون أن أتقدمكم وأكون خطيبكم اليوم ؟ قالوا بلى . فدخل وسلم على النجاشى ولم يسجد له ، فقال أتباع النجاشى : ما لك لا تسجد للملك ؟ قال إنا لا نسجد إلا لله تعالى ، فقال النجاشى : ما هذا الدين الذى فارقتم به قومكم ولم تدخلوا فى دينى ولا فى دين أحد من أتباعى ؟ فقال جعفر : « يأيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ويأكل القوى منا الضعيف ، حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله نوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دون الله من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بالصدق والأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والزنا والفواحش وشهادة الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا وشقوا علينا ، فخرجنا إلى بلدك واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك ورجونا ألا نظلم عندك . فقاطعه عمرو ابن العاص وقال : إنهم يخالفونك فى عيسى وأمه ، فقال النجاشى : ما تقولون

فى عيسى وأمه ؟ فقال جعفر : نقول فيه ما قاله الله فى كتابه : إنه هو كلمة الله وروحه ألقاها إلى العذراء البتول ، وتلا عليه قوله تعالى : « واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً . فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً . قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً . قال : إنما أنا رسول ربك لأهب لكِ غلاماً زكياً . قالت : أنَّى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أكُ بغياً ؟ قال كذلكِ . قال ربُّكِ هو علىّ هيِّن ، ولنجعله آية للناس ورحمةً منا ، وكان أمراً مقضيًّا . فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً . فأجاءها المخاضُ إلى جذع النخلة ، قالت : ياليتنى متّ قبل هذا وكنت نَسياً منسياً . فناداها من تحتها ألّا تحزنى ، قد جعل ربك تحتكِ سَرِيًّا . وهُزِّى إليكِ بجذع النخلة تُساقِطْ عليكِ رُطباً جَنِيًّا . فكلى واشربى وقرِّى عينا . فإمّا ترَينّ من البشر أحداً فقولى : إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليومَ إنسيا . فأتت به قومها تحمله ، قالوا : يامريم لقد جئت شيئاً فَرِيًّا . ياأخت هارون ما كان أبوكِ امرأ سَوْء وما كانت أمكِ بَغيا . فأشارت إليه . قالوا : كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ؟ قال : إنى عبد الله آتانِىَ الكتاب وجعلنى نبيا . وجعلنى مباركا أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً وبرًّا بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيا . والسلام علىَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أُبعث حيا . ذلك عيسى ابن مريم قولَ الحق الذى فيه يَمترون »[1] .

وما كاد ينتهى جعفر من تلاوته إلى هذا الحد حتى بكى النجاشى وبكى من حوله من الأساقفة ، وقالوا : هذه كلمات تصدر من النبع الذى صدرت منه كلمات سيدنا اليسوع المسيح ، وقال النجاشى : إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة . مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده ، أشهد أنه رسول الله وأنه الذى نجده فى الإنجيل ، وأنه الذى بشر به عيسى انزلوا حيث شئتم فوالله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أحمل نعليه وأوضئه وآمر بهديه الآخرين . اذهبوا فأنتم سيوم بأرضى . قالها ثلاثا . « والسيوم الآمنون من أن يمسهم غرم » وفى هذا أنزل قول الله تعالى « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن

---

(١) مريم : ٥١

أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين»(١)

ولم يكن تأثير هذا الكلام فى نفس النجاشى بأقل من تأثيره فى نفس عمرو ابن العاص سفير قريش إلى النجاشى . فإنه ما لبث أن قال : « لقد تفرقنا من عند النجاشى ولم يكن أحد أحب إلى أن ألقاه من جعفر ، حتى إنى لقيته مرة فى الطريق فنظرت خلفه وخلفى فلم أر أحداً ، فقلت له : أتعلم أنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ؟ فقال جعفر : لقد هداك الله فاثبت . ثم انطلق بى جعفر إلى النجاشى وقال له : إن عمرا تابعنى على دينى ، قال النجاشى : كلا ، قلت : بل نعم »

ولقد ظل أصحاب محمد فى دار الهجرة الأولى يقيمون فى أمن ودعة ، ويعملون على نشر دعوتهم على مرأى ومسمع من النجاشى ، ولم يعودوا إلى الحجاز إلا بعد هجرة النبى إلى المدينة المنورة وعند فتح خيبر . . . ثم أرسل النجاشى وفداً من خيار أصحابه إلى الرسول فأكرمهم رسول الله وأحسن وفادتهم وبالغ فى خدمتهم حتى إن أصحابه قالوا له : نكفيك هذا يارسول الله ، فقال : هؤلاء قد خدموا صحبى يوم كانوا فى الحبشة .

وعندما علم النبى صلى الله عليه وسلم بموت النجاشى حزن لموته وقال : إن أخاكم النجاشى قد مات ، وقام فصلى عليه .

وكان من أثر هذه الهجرة أن انتشر الإسلام فى تلك الديار انتشاراً عظيما بين الألوف منهم بمجرد الدعوة الخالصة التى قام جعفر بن أبى طالب ورفاقه بها خلال تلك الفترة البسيطة ، ولو أنهم ظلوا هنا لك مدة أطول لم يبق فى بلاد الأحباش من يعتنق غير دين محمد بن عبد الله .

وبهذا تجلت حكمة الرسول فى ابتعاث بعض أصحابه إلى الحبشة وهو فى حال ضعفه وهى أن تلك الهجرة لم تكن ناشئة عن خوف من الكفار ولكنها متابعة للسنن أولا باتخاذ الحيطة والحذر ، وليفتحوا ميدانا للعمل لنشر الدعوة ثانياً .

---

(١) المائدة : ٨٥

لم يكن يدور بخلد الرسول أن يستعين بجيش الحبشة للتنكيل بأعدائه كما كانوا يتصورون ، بل لأجل أن يغزو قلوبا جديدة للإسلام .

ولقد أراد أن يدعو بصحبه المهاجرين من أهل الكتاب نصارى الحبشة إلى تصحيح عقائدهم ، فى الوقت الذى يجاهد هو فيه كفار قريش لغرس روح التوحيد فى نفوسهم ، وتوجيههم إلى ما فيه سعادة الدارين وخير الحياتين .

إسلام عمر

لقد هاجر إلى الحبشة من هاجر وظل رسول الله يعمل على نشر دعوته بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويلاقى من عنت قومه وأذاهم ما يلاقى ، وليس لديه من الرجال الأشداء من يستطيع أن يجرؤ على الجهر بالحق ولا يبالى ، وكان من أشد الناس نقمة وحرباً عليه وعلى الإسلام رجلان : أبو جهل بن هشام وعمر بن الخطاب ، وكان الأخير رجلا مستكمل الفتوة بين الثلاثين والخامسة والثلاثين ، وكان مفتول العضل قوى الساعد شرس الطباع سريع الاندفاع معتزاً بنفسه متبعاً لهواه شديداً فى عصبيته متصلباً لرأيه ، محباً للهو ومعاقرة الخمر ، لا يبالى بأحد ولا يحترم غير تلك الآلهة التى تعود الخضوع لها منذ حداثة سنه .

ولذلك فقد كان محمد يتقى أذاه أكثر ممن سواه وكان يرجو المعجزة من الله بأن يجعل أشد خصومه من أعظم أنصاره حتى يعز الدين ويعم انتشاره بأيديهم حيث يقول : « اللهم أعز الدين بأحب الرجلين إليك عمر بن الخطاب وأبى جهل بن هشام » فلم يخيب الله أمله وتقبل دعوته وأسلم عمر . وكان إسلامه ضربة قاضية على قريش لأنه فى نظرهم رجل بألف رجل . أما كيف أسلم ؟ فلا شك أن ذلك لم يكن إلا بمحض هدى القرآن ومعجزة من معجزات الله التى أيد بها رسالته عليه أفضل الصلاة والسلام ولذلك فإنه يحسن بنا أن نروى فى هذا المقام حديثه عن نفسه ، ففيه تقرير للواقع ، وفيه آية عظمى من آيات الله المتصرف فى القلوب ، والذى يقدر فى لحظة واحدة أن يقلب العدو صديقاً والجاحد مؤمناً والفاسق صالحا ، وصدق الله العظيم إذ يقول لنبيه : « إنك لا تهدى من أحببت ولكنّ الله يهدى من يشاء »[1] .

---

(١) القصص : ٥٦

يقول عمر رضى الله عنه : كنت أشد الناس على النبى صلى الله عليه وسلم ، فبينما أنا فى بعض طرق مكة شاهراً سيفى إذ رآنى رجل من قريش فقال : أين تذهب يا ابن الخطاب ؟ قلت أريد هذا الرجل (يعنى محمدا) قال : تقول هذا وقد ذهبت إليه أختك ؟ فرجعت مغضباً حتى قرعت عليها الباب ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أسلم بعض من لا شىء له ضم الرجل والرجلين إلى الرجل ينفق عليه ، وكان ضم الرجلين إلى زوج أختى ، فقرعت الباب فقيل من هذا ؟ قلت عمر ، وقد كانوا يقرأون كتاباً فى أيديهم ، فلما سمعوا صوتى قاموا حتى اختبأوا فى مكان وتركوا الكتاب ، فلما فتحت لى أختى قلت : يا عدوة نفسها صبوت ، فأضرب رأسها فبكت وقالت : يا ابن الخطاب اصنع ما كنت صانعاً فقد أسلمت فذهبت فجلست على السرير فإذا الصحيفة ، فقلت : ماهذه الصحيفة ؟ فقالت دعها عنك فإنك لا تغتسل من الجنابة ولا تتطهر وهذا لا يمسه إلا المطهرون فما زلت بها حتى أعطتنيها ، فإذا فيها « بسم الله الرحمن الرحيم » فلما قرأت « الرحمن الرحيم » تذكرت من أين اشتق ، ثم رجعت إلى نفسى فقرأت « سبح لله مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير . هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم . هو الذى خلق السموات والأرضَ فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير . له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور . يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وهو عليم بذات الصدور . آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير[1] » . قلت أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فخرج القوم مبادرين فكبروا واستبشروا ، ثم قالوا : « أبشر يا ابن الخطاب فإن النبى صلى الله عليه وسلم دعا يوم الإثنين : اللهم أعز الدين بأحب الرجلين إليك عمر بن الخطاب وأبى جهل بن هشام ، وإنا نرجو أن تكون دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لك . فقلت دلونى على رسول الله صلى الله عليه وسلم أين هو ؟ فلما عرفوا الصدق دلونى عليه ، فجئت حتى قرعت

---

(١) الحديد : ١

الباب فقال من هذا ؟ قلت عمر — وقد علموا شدتى عليه ولم يعلموا بإسلامى — فما اجترأ أحد منهم أن يفتح لى حتى قال لهم افتحوا له فإن يرد الله به خيراً يهده ، ففتح لى ، فأخذ رجلان بعضدى حتى دنوت منه صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم : أرسلوه فجلست بين يديه فأخذ بمجامع قميصى ثم قال : أسلم يا ابن الخطاب اللهم اهده ، فقلت : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . فكبر المسلمون تكبيرة سمعت فى طريق مكة ، وقد كانوا سبعين قبل ذلك وكان الرجل إذا أسلم فعلم الناس به يضربونه ويضربهم ، فجئت إلى رجل فقرعت عليه الباب فخرج إلىّ فقلت أعلمت أنى صبوت ؟ فقال : لا تفعل ، ودخل البيت وأجاف[1] الباب دونى ، فذهبت إلى آخر فقلت له وقال مثل ذلك وأجاف الباب دونى ، فقلت : ما هـــذا بشىء ، فقال لى رجل أتحب أن يعلم إسلامك ؟ قلت نعم ، قال : إذا جلس الناس فى الحجر فأت فلاناً فقل له فيما بينك وبينه أشعرت أنى صبوت ؟ فإنه قلما يكتم شيئاً ، ففعلت ذلك فقام الرجل فنادى بأعلى صوته . ألا إن عمر قد صبأ . فثار إلىّ الناس فما زالوا يضربوننى وأضربهم حتى أتى خالى ، فقيل له . إن عمر قد صبأ فقام فى الحجر فنادى . ألا إنى قد أجرت ابن أختى فانكشفوا عنى ، فكنت لا أشاء أن أرى أحداً من المسلمين يضرب إلا رأيته ، فقلت . ما هذا بشىء إن الناس يضربون ولا أضرب ، فلما جلس الناس فى الحجر جئت إلى خالى فقلت . جوارك عليك رد فقال . لاتفعل فأبيت ، فما زلت أضرب وأضرب حتى أظهر الله تعالى الإسلام :

وحق لنا أن نقرر أن إسلام عمر وما طرأ على حياته بعد ذلك من تطور معجزة من أعظم المعجزات الخالدة على مرور الدهور وتداول الأيام . معجزة لا يمكن للبشر أن يأتوا بمثلها ولا يسع العقل إلا أن يسلم بأنها آية من آيات الله لإثبات قدرته وتأييد رسالته وتحقيق دعوة خاتم أنبيائه .

ولئن منَّ الله على محمد صلى الله عليه وسلم بالنبوة والرسالة فقد أكرم الله عمر بالإسلام رغم كرهه له وأعز الإسلام بعمر ، وهداه الله إليه بمجرد لفتة واحدة منه إلى بعض آيات من القرآن الكريم وفى الساعة التى خرج فيها من بيته ناقماً على محمد

---

(١) فى القاموس أجفت الباب رددته . ه

ورسالته وحاقداً على أصحابه . يالها من عظمة إلهية تجعل رجلا جاهلا شريراً فى جاهليته قاسى القلب كعمر لم يكن يخضع للقوة ولا يدين لذى سلطان يتحول من طور إلى طور ومن دين إلى دين من غير دعوة إليه ولا تبشير به ، بل بمجرد نظرة واحدة لبعض آيات من كتاب . الله ويتحمل فى سبيل ذلك أنواع البلاء دون أن يكون له من وراء ذلك منفعة دنيوية .

تنفق الجمعيات التبشيرية مئات الألوف من الجنيهات وتصرف معظم الأوقات فى سبيل اجتذاب البسطاء إلى المسيحية فلا يفلحون ، ونظرة واحدة من عمر — ذلك الرجل الناشىء فى الشرك وعبادة الأوثان إلى بعض آيات من كتاب الله تجعله يترك ما كان عليه آباؤه من معتقدات فاسدة ثم يكون حربا على قومه وعشيرته . ويعرض نفسه لكثير من الأخطار . يا لها من قوة غيبية هائلة تلك التى ملكت عليه حواسه ومشاعره وأثرت فيه كل هذا التأثير وقادته طائعاً مختاراً إلى محمد يسلم له نفسه ويخضع بين يديه ويشهد برسالته ويدين بدينه ويرضى أن يكون تبعاً له . ولم يكتف بذلك بل يعلن إسلامه ويكون حربا على أعدائه .

وما أجلها من قدرة ربانية تلك التى انتشلت عمر بسماعه لبعض آيات القرآن من حضيض العصبية الجاهلية إلى أرفع درجات الكمال الإنسانى وغيرت كل شىء فى سيرته وأخلاقه حتى أصبح مضرب الأمثال فى العدل ومكارم الأخلاق ، وصيرت منه قدوة صالحة للمسلمين وخليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم على سائر المؤمنين . كل هذا بتأثير القرآن الكريم وصدق الله تعالى إذ يقول « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد »[1] .

لقد استجاب الله دعوة رسوله محمد عليه الصلاة والسلام فأعز دينه بإسلام عمر لما كان له من الشجاعة والإقدام والجرأة والتضحية والثقة الكاملة بالله التى جعلته يرفض حماية خاله له ويؤثر أن يُضرب ويَضرب حتى أظهر الله الإسلام . قال عبد الله ابن مسعود : « إن إسلام عمر كان فتحاً وإن هجرته كانت نصراً وإن إمارته كانت رحمة ، وما زلنا أعزة منذ أسلم عمر » .

---

(١) ق : ٤٥ .

مقاطعة قريش

على إثر إسلام عمر وإشهاره السيف فى وجوه أعداء الإسلام شعرت قريش بأنها لن تستطيع الوقوف فى وجه الدعوة ، ولذلك رأى قادتها أن يعمدوا إلى مقاطعة محمد وأصحابه وأخذوا يقاومونهم مقاومة سلمية ويقاطعونهم مقاطعة كلية ، فلا ينكحون إليهم ولا ينكحونهم ولا يبيعونهم شيئاً ولا يبتاعون منهم ، وأجمعوا أمرهم على هذا وكتبوه فى صحيفة تعاهدوا عليها ثم علقوها فى جوف الكعبة . فلما فعلت قريش هذا انحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبى طالب بن عبد المطلب فى شعبه ما عدا أبا لهب وظلوا كذلك سنتين أو ثلاثا يعانون أشد حالات الجوع والمسغبة ، ومع ذلك فهم لا يبالون بهذه القطيعة حتى كانوا يأكلون الخبط وورق الشجر حتى إن أحدهم ليصنع كما تصنع الشاة ، وكان فيهم سعد بن أبى وقاص ، وروى أنه قال لقد جعت حتى وطئت ذات ليلة على شىء رطب فوضعته فى فمى وبلعته ولا أدرى ما هو حتى الآن . ومع ذلك فإنهم كانوا لا يشكون من وقع كل هذا عليهم حتى سئم بعض أشراف قريش من هذه المقاطعة فعمل هشام بن عمر بن ربيعة بن الحارث على تحريض بعض أصدقائه ومحبيه على أبطالها ، واجتمعوا بالحجون فى أعلى مكة ليلا وتعاقدوا على نقض الصحيفة ، وقال زهير بن أبى أمية بن المغيرة بن عمر بن مخزوم : أنا أبدؤكم بالكلام فى هذا الباب ، فلما أصبحوا ذهبوا إلى أنديتهم وجاء زهير إلى الكعبة فطاف بها سبعاً ، ثم أقبل على الناس فقال . يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباع ولا يبتاع منهم ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة فانبرى له أبو جهل وقال كذبت والله لا تشق ، قال زمعة بن الأسود أنت والله كذاب ما رضينا كتابتها حيث كتبت ، قال المطعم بن عدى صدقتما وكذب من قال غير ذلك نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها . فقال أبو جهل : هذا أمر قضى بليل تشوور فيه بغير هذا المكان وكادوا يقتتلون .

كل هذا وأبو طالب جالس فى ناحية من المسجد يستمع لما يقال ويشاهد ما قد حصل فقام بينهم وقال : يا معشر قريش إن ابن أخى محمد بن عبد الله أخبرنى أن الله قد سلط

الأرضة على صحيفة قريش فلم تدع فيها اسماً لله إلا أثبتته فيها ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان ، فهلم إلى صحيفتكم فإن كان كما قال ابن أخى فانتهوا عن قطيعتنا وانزلوا عما فيها ، وإن كان كذباً دفعت إليكم ابن أخى فقال القوم : رضينا . وتعاقدوا على ذلك ثم نظروا فإذا هى كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وبذلك رد الله سهام قريش فى نحورهم ونصر المؤمنين عليهم ، وكتب الله عليهم الخسران فما زادهم ذلك إلا شراً وتمادياً فى الضلال .

ذل أبى جهل

لقد دعا الرسول ربه أن يعز الإسلام بأحد الرجلين عمر بن الخطاب وأبى جهل ابن هشام وشاء الله أن يسلم عمر ويكون سيفاً قاطعاً على رقاب من حارب الرسول حتى ابتكرت قريش لحربه المقاومة السلمية فلم يجد عمر له ميداناً للحرب والضرب حتى جعل الله بأسهم بينهم وهيأ لهم من أنفسهم من نقض الصحيفة وأبطل المقاطعة وأذل الله أبا جهل فظل على عناده وإصراره على مقاومة الدعوة الإسلامية فى الخفاء والعلانية وعن طريق إذاعة السوء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم دون أن يستطيع مواجهته بالاعتداء عليه ، بل إن الله قد ألقى فى قلبه الرعب منه ، حتى إن رجلا من أراش ابن عمرو بن الغوث قدم مكة بإبل له ، فابتاعها منه أبو جهل وماطله بأثمانها فأقبل الرجل حتى وقف على ناد من قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى ناحية من المسجد ، فقال : يا معشر قريش من رجل يؤدينى[1] على أبى الحكم بن هشام فإنى رجل غريب ابن سبيل وقد غلبنى على حق ، فقال له أهل المجلس : أترى ذلك الرجل الجالس ؟ — يعنون رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهم يهزءون به لما يعلمون بينه وبين أبى جهل من العداوة — اذهب إليه فإنه يؤديك عليه . فأقبل الأراشى حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا عبد الله ، إن أبا الحكم بن هشام قد غلبنى على حق لى قبله وأنا رجل غريب ابن سبيل ، وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يؤدينى عليه يأخذ لى حقى منه ، فأشاروا على إليك فخذ لى حقى منه يرحمك الله . قال :

---

(١) يقضينى الذى عليه .

انطلق إليه ، وقام معه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوه قام معه قالوا لرجل ممن معه : اتبعه فانظر ماذا يصنع ؟ فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءه فضرب عليه بابه قال : من هذا ؟ قال محمد فاخرج إلى فخرج إليه وما فى وجهه من رائحة قد امتقع لونه ، فقال : اعط هذا الرجل حقه . قال نعم لا تبرح حتى أعطيه الذى له . فدخل فخرج إليه بحقه ، فدفعه إليه . ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال للأراشى : الحق بشأنك ، فأقبل الأراشى حتى وقف على ذلك المجلس . فقال : جزاه الله خيراً فقد والله أخذ لى حقى . وجاء الرجل الذى بعثوه معه . فقالوا : ويحك ماذا رأيت ؟ قال : عجباً من العجب والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه فخرج إليه وما معه روحه ، فقال له أعط هذا حقه ، فقال : نعم ، لاتبرح حتى أخرج إليه حقه ، فدخل فخرج إليه بحقه فأعطاه إياه . ثم لم يلبث أبو جهل أن جاء ، فقالوا له : ويلك مالك ؟ والله ما رأينا مثل ما صنعت قط أبداً قال ويحكم والله ما هو إلا أن ضرب على الباب وسمعت صوته فملئت رعباً ، ثم خرجت إليه ، وإن فوق رأسه لفحلا من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا قصرته ولا أنيابه لفحل قط والله لو أبيت لأكلنى .

طلب قريش الصلح

لقد شعرت قريش بالفشل فى مقاومة الرسول بكل الوسائل وأيقنت أنه لا سبيل لإخضاعه أو استمالته ولكنها كانت تزعم أنه لم يردّها عنه وعن التنكيل به والقضاء عليه إلا حماية عمه أبى طالب له . . ثم إنها علمت أن أبا طالب يعالج أنفاسه الأخيرة عندئذ خشيت من الفضيحة تلحقها بعد موت أبى طالب إذا هى لم تستطع أن تنال من محمد منالا فاجتمع رهط منهم قوامه عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل ابن هشام وأمية بن خلف وأبو سفيان بن حرب وغيرهم من أشراف قريش وتداولوا فى الأمر وقر رأيهم على أن يعقدوا صلحاً مع محمد بن عبد الله على أساس عدم الاعتداء ليأمن كل منهم جانب مواطنه . ثم مشوا إلى أبى طالب وقالوا يا أبا طالب إنك منا حيث علمت وقد حضرك ما ترى وتخوفنا عليك وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك فادعه فخذ له منا وخذ لنا منه ليكف ونكف عنه وليدعنا ودينا وندعه ودينه

فبعث إليه أبو طالب فجاءه فقال يا ابن أخى إن هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم كلمة واحدة تعطونيها تملكون العرب وتدين لكم بها العجم فقال أبو جهل وأبيك وعشر كلمات قال تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ماتعبدون من دونه ، فصفقوا بأيديهم تعجباً ثم قالوا أتريد يا محمد أن نجعل الآلهة ، إلها واحداً إن أمرك لعجيب ثم قال بعضهم لبعض أنه والله ماهذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه ثم انصرفوا فقال أبو طالب والله يا ابن أخى ما رأيتك سألتهم شططا . وماهى إلا ساعات حتى مات أبوطالب وأمعنت قريش فى إيذاء الرسول والتعريض به ولكنها لم تستطع أن تقضى عليه أو أن تصده عن دعوته وماتت فى ذلك العام السيدة خديجةفكان لموتها أسوأ الأثر فى قلب الرسول لأنها كانت تهون عليه مصائبه وتشجعه على الصبر والمثابرة على الدعوة ، وبموتها ضاقت عليه البلاد بما وسعت فخرج إلى الطائف ترويحا لنفسه ورجاء أن يهدى ثقيفاً إلى الإسلام ويكونوا له عوناً على تأييد دين الله فلم يجد منهم أذناً صاغيه فلم يسعه إلا أن يتجه بالدعاء إلى الله . حيث قال :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلنى إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك » .

وقفل رسول الله راجعاً إلى مكة ، وهو أشد قوة وتصميما على المضى فى سبيل نشر الدعوة عما كان عليه فى حياة أبى طالب دون أن يحسب لقريش حساباً ولا ينتظر منهم إمداداً ، فالله حسبه ونعم الوكيل .

بَدْءُ الدَّعوةِ العَامَّة

عشرة أعوام قضاها الرسول فى حياة عمه أبى طالب وهو يقتصر فى دعوته على أفراد عشيرته وقومه لأنه لم يشأ أن يكثر من خصومه وأعدائه ، وهو إن لم يصل إلى هدايتهم أجمعين قد استطاع أن يصطفى من بينهم نخبة طيبة غرس فى قلوبها حب الله وحب

رسوله وعلمها حقيقة الإيمان ، فأعتنقته عن عقيدة ثابتة ، ويقين لا يتزلزل وتجلى ذلك فى أقوالها وأعمالها فأصبحت تأتمر بأمره وتنتهى عن نهيه وتغار على الدين كغيرته عليه تؤمن بواحدانية الله وتضحى بأموالها وأنفسها فى سبيله لا تبتغى عرض الدنيا ، وإنما تخاف يوما تشخص فيه الأبصار ، ولقد حسب الناس أن محمداً سيرعوى عن قصده أو يخفف من غلوائه بعد وفاة عمه وحاميه فى عرفهم ، وظنوا أن سفره إلى الطائف إنما كان لطلب الحماية من ثقيف لشخصه الضعيف وما كان للرسول أن يضعف فى نفسه ، وهو يعلم أن الله ناصره ومؤيده وما كان له أن يطلب حماية لشخصه من أحد وهو واثق من وعد الله له بالعصمة من الناس ، وإنما ذهب بمفرده ليدعو الناس إلى الهدى ويحضهم على تأييد دين الله وعند ما يئس منهم كما يئس من زعماء قريش لم يفل هذا من عزمه ؛ بل رجع إلى مكة مطمئناً وعمد إلى ماهو أعظم من ذلك ، عمد إلى تعميم الدعوة بين سائر القادمين إلى مكة من جميع القبائل من مشركين ونصارى ويهود ، فكان يعرض نفسه فى المواسم عليهم يدعوهم إلى الله ويخبرهم أنه نبى مرسل ، ويسألهم أن يصدقوه وينصروه ، وهو لا يسمع بقادم يهبط مكة من أكابر القوم إلا قصده ، وعرض عليه الإسلام وبينما هو فى أحد المواسم بمنى عند العقبة ، إذ لقى ستة من الخزرج قدموا من المدينة ، فقال لهم رسول الله : من أنتم قالوا نفر من الخزرج ، قال أمن موالى يهود قالوا نعم ، قال أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا بلى وجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن فصدقوه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر مثل ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك فنقدم إليهم وندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك ثم رجعوا إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوه ، وكان هؤلاء القوم هم أعل من أسلم من الأنصار ، عما إن بلغوا المدينة وذكروا لقومهم رسول الله ، ودعوهم إلى الإسلام حتى شرح الله صدورهم له ، وانتشر الإسلام بينهم انتشاراً غريبا ، وفى العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا فقابلوا رسول الله عند العقبة الأولى ، وبايعوه على أن لا يشرك أحدهم بالله شيئاً ولا يسرق ولا يزنى ولا يقتل أولاده ولا يأتى ببهتان يفتريه بين يديه ولا من خلفه ولا يعصيه فى معروف وبعث رسول الله معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن

عبد مناف وأمره أن يقرءهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم فى الدين ففعل ، ولم يبق بيت فى المدينة من بيوت الأوس والخزرج إلا فيها ذكر محمد فلما آذنت الأشهر الحرم أن تعود ، عاد مصعب إلى النبى وأخبره بمبلغ انتشار الإسلام فى المدينة المنورة وما عليه المسلمون هناك من منعة وقوة ، وأنهم لا يجدون من أذى اليهود وأذى المشركين بالمدينة ما يجده الرسول وأتباعه بمكة من أذى قريش وأنهم سيرسلون إليه وفداً لدعوته إليهم فسر لذلك ، وأدرك أن المدينة تربة صالحة لنشر الدعوة فأهلها قوم ذوو عقول نيرة لا تكابر فى الحق ولا تتصلب للرأى والإسلام ما جاء إلا لإقناع أمثال هؤلاء ، وهم الذين يرجى أن يعزبهم الدين إذا نخير له أن يهاجر إليهم ، ولكنه يخشى أن تحقد قريش عليه فتؤلب عليه اليهود والمشركين بالمدينة فيخرجوه من أراضيهم فلا يستطيع العودة إلى بلاده .

وربما أيقن أن قريشا فى جهلها كمثل الطفل العنيد لا ينفع فيه الترغيب والترهيب والوعد والوعيد ولا يصلحه غير الشدة والتأديب فلا بد له من قوة صالحة تخضعها لأمر الله . وتلزمها اتباع ما فيه خيرها وفلاحها ، من أجل ذلك رأى أن يتثبت من إيمان من آمن به من أهل المدينة ويعجم عودهم فانتظر حتى جاء الموسم الثالث فحضر من الأنصار سبعون رجلا وامرأتان ووعدهم رسول الله بالاجتماع بهم عند العقبة الثانية ، وفى الساعة المقررة أقبل عليهم رسول الله ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له ، فلما جلس كان العباس أول المتكلمين ، فقال يامعشر الخزرج إن محمداً ابننا حيث علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده وأنه قد أبى إلا أن ينحاز إليكم واللحوقَ بكم فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه وما نعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم ، فمن الآن دعوه فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده .

فقال الوليد قد سمعنا ما قلت تكلم يارسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت فتلا رسول الله جانباً من القرآن ثم دعا إلى الله ورغب فى الإسلام ، ثم قال : « أبايعكم على أن تمنعونى بما تمنعون به نساءكم وأبناءكم فأخذ البراء بن مَعْرُورٍ بيده ، وقال

نعم والذى بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما نمنع منه أزرنا ، يعنى أنفسنا ثم قام الجميع فبايعوا الرسول بمثل ما بايع البراء ، فقام أبو الهيثم بن التيهان ، وقال يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال « يعنى اليهود » حبالا وإنا قاطعوها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم ، ثم قال : أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيباً ليكونوا على قومهم فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس فالتفت إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال إنكم النقباء على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيس ابن مريم وإنى كفيل على قومى يعنى المسلمين قالوا نعم ، ثم قال العباس بن عبادة بن فضلة الأنصارى والله الذى بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى بأسيافنا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم ثم انصرفوا إلى مضاجعهم فناموا ، وفى الصباح تسرب الخبر بالبيعة إلى كفار قريش فجاءوا إليهم وقالوا : يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم ، فأنكروا ذلك لأن الرسول لم يدعوهم إلى حرب بل إنهم عرضوا عليه ذلك فأبى ، وعاد الوفد إلى المدينة فى انتظار الرسول صلى الله عليه وسلم .

الإسراء والمعراج

فى هذه الفترة من الزمن أراد السميع العليم أن يمن على نبيه ورسوله محمد بن عبد الله برحلة جوية علوية يريه فيها الكثير من آياته وجليل قدرته وعظمة مخلوقاته ليزداد علما ويقينا بحقيقة ما وراء هذه الكائنات الموجودة فى عالم غير منظور هو أعظم بكثير مما تراه الناس بأبصارهم وتتصوره بعقولهم وليكون ملما بطرف مما أعده الله من عذاب للمذنبين حتى يكون لكلامه تأثير فى سامعيه ففرق بين من يتكلم من شىء أمر به ولم يعلم حقيقته ومن ينذر بأمر وقف عليه بنفسه وأدرك مبلغ خطره وأذاه وأراد الله أن يطلع

رسوله على عجائب ملكوته وأن يفرض عليه وعلى أمته أعلى مظاهر العبودية له سبحانه ففرض عليه الصلاة وهى عماد الدين وسنامه والصلة بين العبد وربه « إن الصلاة كانت على المومنين كتابا موقوتا » فكان الإسراء وكان المعراج فى هذه الليلة المباركة .

وقد أثبتهما الله فى كتابه الكريم وأشار إلى معجزة الإسراء بقوله : «سبحان» والعرب لاتستعمل هذه الكلمة إلا لإظهار تعجبها من الأمر الغريب وهو هنا ما أشار إليه بقوله : « الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله »[١] ، وذكر الله السبب فى هذا الإسراء بقوله : « لنريه من آياتنا إنه هوالسميع البصير »[٢]. كما أشار تعالى إلى المعراج فى سورة «والنجم» فى معرض الإخبار عن رؤية نبيه لجبريل على صورته الحقيقية مرة أخرى فى السماء كما رآه فى الأرض بغار حراء من قبل بقوله تعالى : « ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة مايغشى ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى »[٣] .

إذا فلا جدال فى صحة الإسراء والمعراج . أما كيف حصل ؟ فلا يسعنا إلا أن نسلم بما رواه الحسن بن على عن جده رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه حيث يقول « بينما أنا نائم فى الحجر إذ جاءنى جبريل فهمزنى بقدمه فجلست فلم أر شيئا فعدت إلى مضجعى فجاءنى الثانية فهمزنى بقدمه فجلست فلم أرشيئا فعدت إلى مضجعى فجاءنى الثالثة فهمزنى بقدمه فجلست فأخذ بعضدى فقمت معه فخرج بى إلى باب المسجد فإذا دابة أبيض بين البغل والحمار فى فخذيه جناحان يحفز بهما رجليه يضع يده فى منتهى طرفه فحملنى عليه ثم خرج معى لايفوتنى ولا أفوته » ثم قال الحسن بن على فمضى رسول الله ومضى جبريل حتى انتهى به إلى بيت المقدس فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى فى نفر من الأنبياء فأمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى بهم ثم أتى بإناءين فى إحدهما خمر وفى الآخر لبن قال فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إناء اللبن فشرب منه وترك إناء الخمر فقال له جبريل هديت للفطرة وهديت أمتك يا محمد وحرمت عليكم الخمر . ثم يقول أبو سعيد الخدرى إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لما فرغت مما كان فى بيت المقدس أتى بالمعراج ولم أر شيئا أحسن

---

(١) الإسراء : ١ (٢) الإسراء : ١ (٣) النجم : ١٨

منه وهو الذى يمد إليه ميتكم عينيه إذا حضر فأصعدنى صاحبى فيه حتى انتهى بى إلى باب من أبواب السماء يقال له باب الحفظة عليه ملك من الملائكة يقال له إسماعيل تحت يده اثنا عشر ألف ملك تحت يد كل ملك منهم اثنا عشر ألف ملك وكان رسول الله عند هذا الخبر يقول : « وما يعلم جنود ربك إلا هو »(١) . وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله أنه وصل إلى سدرة المنتهى وأنه رأى مصير الزناة وأكلة الربا وأكلة مال اليتامى إلى غير ذلك مما أعده الله لعقاب المذنبين وأنه حظى بخطاب رب العزة حيث أوحى إليه بفريضة الصلاة .

ولما أصبح رسول الله وأخبر قومه بما رأى قال أكثرهم هذا والله الأمر البين « يعنى الكذب الصراح » والله إن العير لتطرد شهرا من مكة إلى الشام مدبرة وشهرا مقبلة أفيذهب محمد ويرجع فى ليلة واحدة وكان هذا سببا فى تكذيبه وردة نفر من أصحابه وذهب الناس إلى أبى بكر فقالوا هل لك يا أبا بكر فى صاحبك يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة فقال لهم أبو بكر إنكم لتكذبون عليه فقالوا بلى ها هو ذاك فى المسجد يحدث الناس به فقال أبو بكر والله لئن كان قاله لقد صدق فما يعجبكم من ذلك فو الله أنه ليخبرنى أن الخبر ليأتى من الله من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أونهار فأصدقه فهذا أبعد مما تعجبون منه ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبى الله أحدثت هؤلاء القوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة قال : نعم : قال يا نبى الله صفه لى فإنى قد جئته فجعل رسول الله يصفه لأبى بكر ويقول أبو بكر صدقت أشهد أنك رسول الله كلما وصف له منه شيئا حتى انتهى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : وأنت يا أبا بكر « الصديق » ومن ذلك اليوم أطلق عليه الصديق . وأقبل الناس يناقشون الرسول ويسألونه عن آية ذلك فقال عليه الصلاة والسلام آية ذلك أنى مررت بعير بنى فلان بوادى كذا وكذا فأنفرهم حِسُّ الدابة فند لهم بعير فدلتهم عليه وأنا مُوجَه إلى الشام . ثم أقبلت حتى إذا كنت بضجنان « اسم مكان بينه وبين مكة خمسة وعشرون ميلا » مررت بعير بنى فلان فوجدت القوم نياما ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه

---

(١) المدثر : ٣١

بشيء فكشفت غطاءه وشربت ما فيه ثم غطيت عليه كما كان وآية ذلك أن عيرهم الآن تصوب[١] من البيضاء[٢] وثنية التنعيم[٣] يقدمها جمل أورق[٤] عليه غرارتان أحدهما سوداء والأخرى برقاء[٥] وما أن سمع الناس هذا حتى أسرعوا نحو ثنية التنعيم وظلوا فى انتظار القادمين وما كان أشد دهشتهم عند ما كان أول ما بدا لهم ذلك الجمل الذى وصفه لهم رسول الله ثم أقبل الرعاة فسألوهم عن الإناء فأخبروهم أنهم وضعوه مملوءا ماء ثم غطوه وأنهم هبوا فوجدوه مغطى كما غطوه ولم يجدوا فيه ماء وسألوا الآخرين وهم بمكة فقالوا : « صدق الله لقد أنفرنا فى الوادى الذى ذكر وندلنا بعير فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه حتى أخذناه » إذ ذاك أجمع الصحابة على صحة خبر الإسراء والمعراج فى ذلك الحين ثم جاء بعدهم جماعة أقروا بالإسراء والمعراج ولكنهم وقد صعب على أفكارهم أن تهضم أمر انتقاله عليه الصلاة والسلام إلى هذه المسافات الشاسعة فقالوا إن هذا الإسراء كان بالروح لا بالجسد مستدلين على ذلك بقول هند أم هانئ بنت أبى طالب زوج النبى أنه عليه الصلاة والسلام كان ليلة أسرى به عندها فى بيتها وأنه نام ونامت فلما كان قبل الفجر أيقظها وقال لها يا أم هانئ لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادى ، ثم جئت بيت المقدس ، فصليت فيه ، ثم قد صليت الغداة معكم الآن كما ترين ، ثم قام ليخرج فأخذت بطرف ردائه فتكشف عن بطنه كأنه قبطية مطوية ، فقالت له : يا نبى الله لا تحدث بهذا الناس فيكذبوك ويؤذوك قال : والله لأحدثنهموه » وأن المتدبر فى هذا الحديث لا يرى فيه ما يشير إلى أن الإسراء كان بروحه لا بجسده إذ هى تقول : إنه كان فى تلك الليلة عندها وفى بيتها ، وأنها ونامت ونام لم تقل إنه ظل معها طول الليل لم يبارح مضجعه ، وهذا لا يمنع أن يكون قد فارق منزلها إلى المسجد ، ونام بالحجر كما روى الحسن ورضى الله عنه ، ثم عاد إليها قبل والفجر أيقظها . ومن القواعد المقررة أن من حفظ حجة على من لم يحفظ .

بل إنا لنستنتج من حديثها هذا أنها فهمت هى أن الإسراء قد كان بالجسم لا بالروح لأنه قال لها إنه صلى هنالك والصلاة لا تكون إلا بالجسم لا أنه كان عبارة عن رؤيا صادقة ولولا ذلك لما كان لها أن ترجوه أن لا يحدث الناس به خشية

---

(١) تنزل من على .
(٢) عقبة قرب مكة من ذى طوى .
(٣) على بعد فرسخين من مكة .
(٤) لونه بين الغبرة والسواد .
(٥) مختلطة الألوان .

أن يكذبوه ويؤذوه فكثيرا ما كان عليه الصلاة والسلام يخبر قومه بما يراه فى منامه فلا تلبث تلك الرؤية أن تظهر كفلق الصبح وكثيراً ما كان عليه الصلاة والسلام يخبر قومه بخبر السماء ، ولا يجد منهم غير التصديق والإيمان القوى ولو كان ما حدث به عن الإسراء من هذا النوع لما أنكروا عليه ذلك ولما قالوا إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة أفيذهب محمد ويرجع فى ليلة واحدة . ولما قالوا لأبى بكر إن صاحبك يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة ، بل وفى حديث هند أم هانى ما يشير إلى أن الإسراء كان بالجسد لما لاحظته من أثر ذلك على جسده عندما أخذت بطرف ردائه ، فلاحظت جلد بطنه قد انطوى كالثوب من القماش القبطى من أثر انحنائه على البراق وأخذه بزمامه خشية السقوط . ومما يستدل به الذين يزعمون أن الإسراء كان بالروح دون الجسد ثلاثة أمور :

الأول قوله تعالى : — «وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس»[١] ولا دليل على أن المقصود بهذه الرؤيا الإسراء بل إن صدر الآية قد يشير إلى غير ذلك وهو قوله تعالى : « وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس »[٢] والمعنى وإذ بشرناك من قبل بأن الله تعالى قد أحاط بأهل مكة يعنى أنه سيغلبهم ويقهرهم . فلما كان يوم بدر أراه الله فى المنام مصارع كفار قريش ، فلما ورد ماء بدر قال : كأنى أنظر إلى مصارع القوم ثم أخذ يقول هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان فلما سمعت قريش ذلك جعلت رؤياه سخرية وكانوا يستعجلون بما وعد الله رسوله به فلما تزاحم الفريقان أخذ النبى صلى الله عليه وسلم يلجأ إلى الله داعياً بقوله : « اللهم إنى أسألك عهدك ووعدك لى » وخرج على الناس وهو يقول سيهزم الجمع ويولون الدبر ونزلت هذه الآية « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس »[٣] .

والثانى : — ما روى عن معاوية بن أبى سفيان أنه كان إذا سئل عن مسرى رسول الله كان يقول : إنها رؤيا من الله صادقة وهذا بمثابة رأى شخصى له إذ لم ينسبه إلى رسول الله فلا عبرة به أمام ما رواه الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) الإسراء : ٦٠ (٢) الإسراء : ٦٠ (٣) الإسراء : ٦٠

والثالث ما روى عن عائشة أنها قالت : أنه « ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولـكن الله أسرى بروحه ومعلوم أن عائشة وقت الإسراء كانت صغيرة ولم يكن رسول الله قد دخل بها فهى لا تعى عن هذا الأمر شيئاً إذ ذاك . وقد طعن الحفاظ فى هذا الحديث وقالوا إنه غير صحيح .

ولئن جاز للعرب فى بدء الإسلام أن ينكروا مثل هذه المعجزة ولا يتقبلوها إلا بعد أن يتثبتوا من صحتها بتأييد الرعاة لـما رواه صلى الله عليه وسلم عنها وقد كانوا فى عهد الأمية والأفـكار الضيقة فما يكون لذى بصيرة فى عصرنا هذا عصر العلم والاختراع أن يتردد فى التسليم بإمكان حصول الإسراء من بلد إلى بلد ثان على ما سماه الرسول بالبراق وقد اكتشف العلم الحديث إمكان التنقل الجوى على متن الطائرات التى تقطع المسافات الشاسعة فى أقصر الساعات وقد حدثنا الله فى كتابه بأن الذى عنده علم من الـكتاب قد نقل عرش بلقيس إلى نبى الله سليمان فى أقل من طرفة العين .

هذه القصة قد أخبر بها القرآن فلايسوغ لنـا أن نتناقش فى صحتها بل يجب أن يتقبلها المؤمنون الصادقون بالتسليم . . أجل لا يحق لمؤمن يؤمن بالله وعظيم قدرته أن يتردد فى التصديق بالأسراء ولا بصعود رسوله صلى الله عليه وسلم إلى السماء راكباً على المعراج مادام الأمر عائداً لقدرة الله وقد نجح المخترعون فى تقليده بالمصعد «الأسنسير» عن طريق استخدام قوة الـكهرباء . مع عجزهم عن إدراك حقيقة تلك الـكهرباء التى توصلوا إلى طرق توليدها وكيفية الاستفادة منها . وسلموا بأنها إحدى القوات الغيبية الموجودة فى كل شىء حتى فى ذرات الأثير .

وهى إن دلت على شىء فإنما تدل على عظيم خلق الله وقدرته على كل شىء وها هى ذى أمامنا الآن الأطباق الطائرة التى تظهر مضيئة فى السماء وقد شهدها الناس فى كثير من الجهات .

وقد نشرت جريدة الأهرام المصرية فى عددها الصادر فى ٢٠ يوليه ٥٢ لمراسلها فى واشنطن طلب سلاح الطيران الأمريكى من كبار العلماء أن يتوافروا على البحث ليـكشفوا عن كنه تلك « الأطباق الطائرة » التى تشاهد فى سماء العاصمة الأمريكية من حين إلى حين وأن إدارة الطيران المدنى قد سجلت هذه الأشياء الغامضة خلال

ست ساعات متتابعة فى صباح يوم ٣٩ يوليو سنة ٥٢ وأنها كانت تسير بسرعة مائة إلى مائة وعشرين ميلا فى الساعة فى قوس يبلغ عشرة أميال حول العاصمة بين هرندون وفرجينيا واندرور وأنه كلف أحد الطيارين أن ينطلق فى اتجاه هذه الأجسام المضيئة ليتحقق من أمرها إلا أنه عاد دون أن يشهد شيئاً مع وضوح الرؤية إلى مسافة ١٥ ميلا . وهم يؤكدون أن هذه الأجسام لا تؤذى أحداً وأنها من صنف لا يقوده الإنسان ا هـ — وفوق كل ذى علم عليم ومعجزات الأنبياء من صنع الله لا من صنع البشر والله على كل شىء قدير .

الهجرة إلى المدينة

لقد كان أبو سلمة بن عبد الأسود ممن هاجر إلى الحبشة فى المرة الأولى وعاد منها وقرر البقاء بمكة لينال ثوابه مع الصابرين على أذى قريش إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن له بالهجرة إلى المدينة المنورة فكان هو أول من هاجر إليها بعد أن أمر الله نبيه بتعميم نشر الدعوة ولعل هجرته هذه كانت لنشر الدعوة واستمالة القلوب إلى الإسلام إذ كان من أثرها قدوم ستة من الخزرج اجتمعوا برسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة وآمنوا به وعادوا يبثون الدعوة بين قومهم للإيمان حتى انتشر وجاء منهم فى العام الثانى اثنا عشر رجلا بايعوا رسول الله عند العقبة الأولى وأرسل معهم مصعب بن عمير ليقرئهم القرآن ويفقههم فى أمور دينهم . وعندما قوى الإسلام فى نفوس أهل المدينة انتدبوا إليه وفداً كبيراً منهم بايعوه عند العقبة الثانية على السمع والطاعة والتضحية بالمال والنفس فى سبيل نصرة الإسلام وإعلاء كلمة الله ودعوه إلى الهجرة إليهم فرفض ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وكأنه لم يشأ أن يبارح مكة إلا بعد أن يقيم لقريش من البراهين ما يثبت لهم صحة رسالته لو كانوا يعقلون . ذلك أنه عليه الصلاة والسلام كان قد أبلغهم أمر ربه بتبليغ الدعوة وأنه تعالى كتب على نفسه حمايته منهم فلم يستطيعوا الفتك به كما يشير إليه قوله : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل

فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس[١] » وكان يؤكد لهم أن الأنبياء لا يخافون بدليل قوله تعالى لموسى : « يا موسى أقبل ولا تخف إنى لا يخاف لدى المرسلون »[٢] . ولو لم يكن على حق لما تحداهم أن يقدموا على قتله إن كانوا قادرين . ومع ذلك فإنهم لم يجرؤا عليه ، وكانوا يعللون ذلك بخوفهم من عمه تارة ، ومن وفرة أصحابه تارة أخرى . ولما ضاق بهم ذرعاً أمر النبي أصحابه بالهجرة إلى المدينة ، فسافروا إليها أفراداً وجماعات حتى لم يبق معه بمكة غير على بن أبى طالب ورفيقه أبو بكر الصديق الأمر الذى حدى الصديق أن يخاف على نفسه ، ويستأذن الرسول بالهجرة مع من هاجر وهو مطمئن إلى أن قريشاً لن تستطيع أن تنال من رسول الله منالا وهو فى حماية ربه . ولكن رسول الله لم يأذن له ، وظل ثلاثتهم بمكة على مرأى ومسمع من قريش ، وكأنما هم يتحرشون بهم ، ويتحدونهم بالإقدام على فعل ما يستطيعون ، فلم يجرؤا على شىء بذلك وسجلوا على أنفسهم الضعف ، وأقام محمد لهم بذلك دليلا على قدرة الله على حماية عبيده المخلصين رغم أنوفهم .

أجل لم يكن بقاء الرسول بين خصومه وأعدائه المشركين فى تلك الساعات الرهيبة وهو مهدد بالقتل والتعذيب فى كل لحظة بأقل خطورة من بقاء جده ابراهيم فى ناره ، وكلاهما لا يعبأ بما أصابه ، أو يصيبه فى سبيل الله . وأخيراً أحس المشركون بجبنهم ، ومبلغ الخزى الذى سيلحقهم من الإبقاء على رسول الله ولا ناصر له بينهم ولا معين . ولذلك اجتمعوا فى دار الندوة وتشاوروا فى الأمر ، فقال أبو جهل بن هشام : والله إن لى فيه رأياً ما أراكم وقفتم عليه بعد . قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا إليه ، فيضربوه به ضربة راجل واحد ، فيقتلوه ونستريح منه . فإنا إن فعلنا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعاً فلم يقدر بنو هاشم على حرب قومهم جميعاً . فاستحسن الجميع هذا الرأى وأقروه وذهبوا إلى بيت النبى ، وأحاطوا به لتنفيذ ما أجمعوا عليه ، وكان فيهم أبو جهل بن هشام نفسه ، وعلم بهم رسول الله ، ولكنه لم يعبأ بذلك ، وذكر قول الله تعالى : « يس والقرآن الحكيم .

---

(١) المائدة : ٦٧ (٢) النمل : ١٠

إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون . لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون . إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مُقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون »[1] .

وخرج على القوم وهو يردد هذه الآيات ، فلم يشعروا بخروجه وأغشاهم الله فهم لا يبصرون ، وكانت هذه معجزة له تكفى لإيمانهم برسالته لو كانوا يعقلون . وترك الرسول علياً فى البيت ليرد ما لديه من ودائع لأصحابها ، وتوجه إلى بيت أبى بكر ، فطرق عليه الباب ودعاه إلى السفر معه ثم ركبا راحلتين كان قد أعدها أبو بكر لذلك وعمدا إلى غار بجبل ثور وهو جبل بأسفل مكة وظلا فيه ثلاثة أيام ليشرع لقومه سبيل الحيطة ووسائل الوقاية من شرور الأعداء وقد أنزل الله فى هذا قوله : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين »[2] . ولما انبلج الفجر لم تجد قريش محمداً فى بيته . وجعلت مائة ناقة لمن يرده عليهم وأخذت تبحث عنه فى كل مكان حتى مروا بالغار الذى اختبأ محمد وصاحبه فيه وسمعا حديثهم وأيقن أبو بكر بأنهم سيدخلونه عليهم فأحس بالجزع فى نفسه وأخذ النبى يهدئ روعه ويذكره بقدرة ربه على صرفهم عنهما ، ويقول له : ما ظنك باثنين الله ثالثهما . وقد ضرب الله بهذا مثلا لنصرته لرسوله حيث قال : « إلاَّ تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم[3] . وبعد ثلاثة أيام من اعتكاف محمد وصاحبه فى غار ثور جاءهما دليلهما عبد الله بن أرقط بالناقتين وسلك بهما طريقاً غير الطريق المعتاد حتى بلغوا قُباء أحد ضواحى المدينة فى يوم الاثنين اثنى عشر ربيع الأول عند منتصف النهار وكان عمره ثلاثاً وخمسين سنة ونزل على كلثوم ابن هدم بن امرئ القيس وكان شيخاً كبيراً فلبث فى ضيافته ولكنه كان يجلس إلى الناس فى بيت مسعد بن خيثمه وقد وصل على بن أبى طالب أثر وصوله ونزل فى دار

(١) يس : ٩ مقمحون : رافعون رؤسهم لا يستطيعون خفضها والمراد أنهم لا يذعنون للايمان ولا يخفضون رؤسهم له

(٢) الأنفال : ٣٠ (٣) التوبه : ٤٠

كلثوم بن هشام وكان أول عمل قام به رسول الله فى قُباء أن بنى فيها مسجداً وضع بنفسه أول حجر فيه ثم جاء أبو بكر بحجر فوضعه إلى حجر رسول الله وأخذ الناس فى البناء ثم أتم بناءه عمار بن ياسر فكان مسجد قباء أول مسجد بنى فى الإسلام وظل رسول الله فى قباء حتى صبح الجمعة فتركها إلى المدينة وركب ناقته ومعه أبو بكر وسار معهم جمع غفير وأدركتهم الجمعة فصلوها فى بطن وادى رانوناء فى بنى سالم ابن عوف وهى أول جمعة صلاها النبى فى المدينة . وأقبل الأنصار عليه من كل حدَب يرحبون بمقدمه ويدعونه للنزول عندهم قائلين هلُم إلينا إلى العدد والعدة والمنعة وهو يعتذر إليهم ويقول خلوا الناقة فى سبيلها فإنها مأمورة حتى إذا بلغت أرضاً ليتيمين من بنى النجار فى المدينة هما سهل وسهيل ابنا عامر فبركت هناك فنزل عنها رسول الله واحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رحله فوضعه فى بيته ونزل رسول الله فى ضيافته وأمر الرسول ببناء مسجده ومسكنه فى تلك البقعة من الأرض وبدء بنفسه العمل بالبناء وشاركه المهاجرون والأنصار حتى تم البناء وانتقل إليه رسول الله فى شهر صفر من السنة الثانية بعد أن أمضى فى ضيافة أبى أيوب نحواً من عشرة أشهر وقد أعجب بمساكنهم وقال لاعيش إلا عيش الآخرة اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة عليهم رضوان الله أجمعين .

تكوينه للأمة

لقد كان للاستقبال الرائع الذى صادفه رسول الله فى المدينة أثره الحسن فى نفسه إذ ذاك وقد أدرك منه استعداد الجميع لتقبل دعوته وشد أزره ، فها هم الأنصار يوفون له بعهدهم ، فيبالغون فى إكرامه وإكرام من هاجر معه من صحبه ، وها هم اليهود يتزلفونه ويحاولون اجتذابه إليهم ، وإدخاله فى حلفهم باللطف واللين . ولم يجد منهم شيئاً من تلك المقاومة للإسلام التى عهدها من قريش . فأخذ يفكر فى تكوين أمته الإسلامية ، ووضع الحجر الأول فى بنائها على أساس متين ، فأخذ يجيل النظر ويطيل الفكر فى ذلك ، فهداه الله إلى أنه لا يمكن أن تقوم للأمم قائمة إذا لم يتحد أبناؤها ، وتتفق فى غاياتها فما هو السبيل إلى توحيد هذه الأمة التى يريد تكوينها ؟ وما هى الوسائل التى تقضى على التباغض والانقسام من بين أفرادها ؟ نعم لقد وفق رسول الله

إلى جمع كلمة الأمة على الإيمان بالله ، والإقرار بوحدانيته ، والتصديق برسوله وما جاء به من ربه . ولكن ما هو السبيل العملى لغرس روح المحبة بين أفراد هذه الأمة ، والقضاء على كل ما من شأنه أن يقف فى طريق هذه المحبة ، أو يسبب تعكير صفوها ، أو يدعو إلى انقسامها .

لعل هذا ما كان يشغل باله عليه الصلاة والسلام منذ أن وطئت قدماه أرض المدينة ، ونزل فى ضيافة أبى أيوب ، ثم لم يلبث أن هدى إلى أن الإنسان مكون من جوهرين هما : النفس وهى الجوهر الشفاف الذى لا يرى ، وهى الأصل فى الإنسان ، وهى المهيمنة على جميع حركاته وسكناته ، والثانى : البدن وهو الهيكل الجثمانى ، والمظهر الخارجى لها ، الذى تصدر منه الأعمال الحسنة والسيئة . وأن النفس عادة إنما تندفع وراء لذة البدن التى قد تتعارض مع ما يرضى الله ، وما تقضى به الشرائع . وقد طبعت النفوس على حب المال ، والتغالى فى جمعه والإكثار منه باعتباره هو الوسيلة الوحيدة لهناء الجسم ، وتكامل لذته ، وفى سبيله تتقاتل الأفراد وتتطاحن الشعوب .

من أجل هذا رأى رسول الله أن يوجه دعوته إلى النفوس ، ويهيب بها أن تترفع عن شهوات الأبدان فى هذه الدنيا الفانية ، وتسمو إلى الكمال الإنسانى لتحظى بالسعادة الحقة فى الحياة الأخرى .

وسبيل ذلك أن لا تجعل منه غاية تركن إليها ، وتلتذ بها فى الحياة ، بل يجب أن تعده وسيلة للحصول على سعادة النفس وتلذذها بفعل كل ما يجلب لها رحمة الله ، ونيل نعيمه الدائم فى الحياة الأخرى . وهنا بادر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجمع الناس وخطب فيهم أول خطبة له بالمدينة ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : « أما بعد ، أيها الناس قدموا لأنفسكم . تعلمن والله ليصعقن أحدكم ، ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه ألم يأتك رسولى ، فبلغك ألم أوتك مالا وأفضلت عليك فما قدمت لنفسك . فلينظرن يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . والسلام عليكم ورحمة الله .

فما أن سمع الناس هذا من رسول الله حتى تبارى المسلمون فى بذل أموالهم حتى إن منهم من أراد أن ينزل عن كل أمواله وتجمعت لديه أموال وفيرة . يقدمونها له لينفقها فى أوجه الخير فى سبيل الله . وبهذا كان جهاد النفس بإنفاق المال لابتغاء مرضاة الله . مقدما عن الجهاد بالنفس فى سبيل الله . وعندما أيقن رسول الله أنه وفق إلى انتزاع حب المادة من قلوب المؤمنين خطا الخطوة الثانية حيث جمع المؤمنين ودعاهم إلى حب الله والتحابّ فيه ونبذ التباغض والشرور من بينهم والالتفاف حول كتاب الله .

وخطب فيهم خطبته الثانية فقال : (إن الحمد لله أحمده وأستعينه نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . إن أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى قد أفلح من زينه الله فى قلبه وأدخله فى الإسلام بعد الكفر واختاره على ما سواه من أحاديث الناس . إنه أحسن الحديث وأبلغه أجراً ما أحب الله ، أحبوا الله من كل قلوبكم . ولا تملوا كلام الله وذكره ولا تقس عنه قلوبكم فإنه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفى وقد سماه الله خيرته من الأعمال ومصطفاه من العباد والصالح من الحديث ومن كل ما أوتى الناس الحلال والحرام فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً واتقوه حق تقاته واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم وتحابوا بروح الله بينكم وإن الله يغضب أن ينكث عهده والسلام عليكم) وأخذ عليه الصلاة والسلام يؤاخى بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ليشد أزر بعضهم ببعض . وبدأ بنفسه فأخذ بيد على ابن أبى طالب وقال هذا أخى وآخا بين عمه حمزة ومولاه زيد بن حارثة . وآخى بين أبى بكر وخارجة بن زهير من الخزرج وآخى بين عمر بن الخطاب وعثمان بن مالك من الخزرج وآخى بين أبى عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ وآخى بين عبد الرحمن ابن عوف وسعد بن الربيع حتى عز الإسلام واجتمع الشمل وذهبت الوحشة والتفرقة من بين المسلمين فشرع لهم الأخوة العامة حيث يقول تعالى : (إنما المؤمنون إخوة) ويقول صلى الله عليه وسلم « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ومثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر .

وأصدر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلاغاً أعلن فيه تكوين هذه الأمة وبين فيه مالها وما عليها وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين — ثم ذكر كل بطن من بطون الأنصار وأهل كل دار . بني الحارث وبني مساعدة وبني جشم وبني النجار وبني عمرو بن عوف وبني النبيت إلى أن قال . وأن المؤمنين لا يتركون مفرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل . ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم . ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر ولا ينصر كافر على مؤمن وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس . وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم . وإن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم . وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً . وأن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله . وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه . وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن وأنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولى المقتول وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا ولا يؤويه . وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل . وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فمرده إلى الله وإلى محمد عليه الصلاة والسلام وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا

محاربين وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين . لليهود دينهم وللمسلمين دينهم . مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أوأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته . وأن ليهود بنى النجار ويهود بنى الحارث ويهود بنى ساعدة ويهود بنى جشم ويهود بنى الأوس ويهود بنى ثعلبة ولجفنة ولبنى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف وأن موالى ثعلبة كأنفسهم وأن بطانة يهود كأنفسهم وأنه لايخرج منهم أحد إلا بإذن محمد عليه الصلاة والسلام وأنه لايتحجز على ثأر جرح .وأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم . وأن الله على أبر هذا وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه وأن النصر للمظلوم وأن ينفقوا مع المؤمنين ماداموا محاربين وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة . وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم . وأنه لاتجار حرمة إلا بإذن أهلها وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأن الله على اتقى مافى هذه الصحيفة وأبره وأنه لاتجار قريش ولا من نصرها . وأن بينهم النصر على من دهم يثرب وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه . وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة وأن البر دون الإثم لايكسب كاسب إلا على نفسه وأن الله على أصدق مافى هذه الصحيفة وأبره وأنه لايحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم وأن من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم وإن الله جار لمن برّ واتقى « محمد رسول الله » صلى الله عليه وسلم .

وبهذا تمت الألفة وسادت الطمئنينة بين الناس وشعر المسلمون بالعزة والكرامة والسيادة والسلطان ومن أجل هذا اعتبرت هجرة الرسول إلى المدينة فاتحة عهد جديد للإسلام ومبدأ للتاريخ الإسلامى .

وفى هذه الأثناء فرضت الزكاة والصيام وإقامة الحدود وفرض الحلال والحرام .

وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بلالا أن يؤذن فى الناس ويقول . الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله حى على الصلاة حى على الصلاة حى على الفلاح حى على الفلاح الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله .

بطانته وعماله

لقد قضى محمد بن عبد الله ثلاثة عشر عاما فى مكة يدعو قومه إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وكانت السلطة فى البلاد للمشركين من قريش ولكنه ما كاد يصل إلى المدينة ويدين معظم أهلها للاسلام حتى أذعنوا له ودانوا بالحق الذى يدعو إليه ويحكم به فأقبلوا عليه يحكمونه فى شئونهم ويطالبونه بالفصل فى قضاياهم وقد أمره رب العزة بأن يتولى الحكم بينهم وفق الدستور الآلهى الحكيم حيث يقول تعالى : « وإن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم[1] » وفوق هذا كان يؤم أصحابه فى الصلاة ويتولى إدارة شئون البلاد الداخلية والخارجية والعسكرية لحفظ النظام وتنفيذ الأحكام وحماية المرافق ورفع شأن الأمة وإعلاء كلمة لا إله إلا الله .

وقد بنى له المسلمون دكة من اللبن فى مسجده لتميزه عن صحبه وليجلس عليها أثناء الحكم بين الناس . كما أقاموا له العريش فى بدر لهذه الغاية أيضاً .

وكان كلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جهة من الجهات استخلف من يتولى عنه الحكم فى البلاد والإمامة فى الصلاة . وممن استخلفهم لهذا الغرض « زيد بن حارثة » وأبو لبابة ، وسباع بن عرفطة الغفارى ، وعثمان بن عفان ، وابن أم مكتوم ، وأبو ذروغيلة بن عبد الله الليثى ، وعريف بن الأضبط ، وكلثوم ابن حصين ، ومحمد بن مسلمة الأنصارى ، وأبو دجانة الساعدى . كما استعمل لإمامة الناس فى الصلاة أثناء غيابه فى بعض الأسفار ابن أم مكتوم وأمر أثناء مرضه أبا بكر أن يصلى بالناس ، وخول لبعض الفقهاء من الصحابة حق الفتوى وتولى القضاء فى حياته ، وممن عهد إليهم بذلك أبو بكر وهو اول من لقب بشيخ الإسلام ؛

---

(١) سورة المائدة : آية ٤٩

وعمر بن الخطاب ، ومعاذ بن جبل ، وعبد الله بن مسعود ، وأبى بن كعب ، وزيد ابن ثابت ، وكان أفقههم فى علم الفرائض وعلى بن أبى طالب ، وكان صغير السن عندما بعثه إلى اليمن ليقضى بين الناس وقال له : « إذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء » .

وكان له عليه الصلاة والسلام وزيران هما : أبو بكر وعمر وكان يقول : « إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزيراً صالحاً ، فإن نسى ذكره ، وإن تنكر أعانه ، وإن أراد الله به غير ذلك جعل الله له وزير سوء إن نسى لم يذكره ، وإن ذكره لم يعنه » . وكان الصديق رضى الله عنه يقوم بعمل الأمين الأول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث كان يرسل إلى الوفود إذا قدموا على الرسول صلى الله عليه وسلم من يعلمهم كيف يسلمون عليه ، ويأمرهم بالسكينة والوقار فى حضرته عليه الصلاة والسلام . وكان حذيفة ابن اليمان كاتم سر رسول الله الذى لا يعلمه غيره . وكان زيد بن ثابت الأنصارى البخارى ترجمان رسول الله بالفارسية والرومية والحبشية ، وقد تعلم كل ذلك بالمدينة من أهل هذه الألسن ، وكانت ترد إلى رسول الله صلى الله عليه كتبٌ بالسريانية ، فأمر زيداً المذكور بتعلمها ، فتعلمها فى سبعة عشر يوماً ، وصار يقرأ له كتبهم ، ويكتب لهم الجواب عليها . وروى عن على بن أبى طالب أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنه لم يكن من نبى إلا أعطى سبعة نجباء ورفقاء وأنى أعطيت أربعة عشر وهم : على وابناه الحسن والحسين وحمزة وجعفر وأبو بكر وعمر وأبو ذر والمقداد وسلمان وحذيفة وابن مسعود وعمار بن ياسر وبلال بن رباح مولى أبى بكر » وكان يطلق على أبى بكر وعمر من عهد النبى صلى الله عليه وسلم لقب « الشيخين » كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم منح لقب « سيف الله » لخالد بن الوليد لحسن بلائه فى قتال المشركين ، كما منح لقب « أسد الله » لعمه حمزة بن عبد المطلب لتقدم قومه فى الحرب وشدة إقدامه على أعداء الله ، كما منح لقب « أمين الأمة » لأبى عبيدة ابن الجراح ، وكان يقول : « لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر ابن الجراح » ، وكان قيس بن ثابت يدعى « خطيب النبى وخطيب الأنصار » ، كما كان حسان بن ثابت يدعى « شاعر رسول الله » وكان من شعراء الرسول كعب بن مالك ،

وعبد الله بن رواحه ، وكان له ثلاثة حداة هم : أنجشة وعامر وابن الأكوع من أصحاب الأصوات الحسنة ، وكان له مؤذنان ملازمان هما : بلال وابن أم مكتوم ، أما فى مكة فقد أذن له أبو محذورة ، ورتبه لآذانه ، كما أذن له فى قباء سعد القرظ ثلاث مرات وكان أمينه على عائلته عبد الرحمن بن عوف . أما بلال المؤذن فكان مدير الأموال جميعها وقد تولى ذلك منذ بعثة الرسول ، وكان يتحدث عن مهمته تلك فيقول : إن النبى صلى الله عليه وسلم إذا رأى المسلم عارياً أمره أن يكسوه فينطلق فيقترض فيشترى له البردة فيكسوه ويطعمه وإن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول له : « أنفق بلال ولا تخش من رب العرش الإقلال » . ولما أسلم أبو بيزر والد النجاشى وجاء إليه ورغب فى صحبته عينه مديراً لمئونته الخاصة ، كما أنه لما أسلم باذان نائب كسرى ولاه النبى صلى الله عليه وسلم على جميع مخاليف اليمن وكان منزله بصنعاء مملكة التبايعة .

وكان أول من كتب وحى رسول الله فى مكة قبل الهجرة ابن أبى سريح إلا أنه ارتد بعد ذلك ثم أناب ورجع إلى الإيمان .

وبلغ عدد كتابه عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة اثنين وأربعين منهم من تخصص لكتابة الوحى وهم : عثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، وأبى بن أبى كعب ومعاوية بن أبى سفيان ، وزيد بن ثابت ، وامتاز عنهم على بن أبى طالب بكتابة وثائق الصلح والمعاهدات ، كما تخصص معاوية للكتابة إلى العرب من رجال البادية كما انفرد عبد الله بن الأرقم بالكتابة إلى الملوك ، وبلغ من أمانته وثقة الرسول به أنه كان يأمره أن يكتب إلى بعض الملوك فيكتب ويأمره أن يطبعه ويختمه ولا يقرؤه بعد ذلك . وكان شرحبيل بن حسنة يكتب التوقيعات إلى الملوك ، واثنان كانا يكتبان حوائج الرسول الخاصة من مداينات ومعاملات إلى غير ذلك وهما : الحصين بن النمير ، والمغيرة بن شعبة ، واثنان تخصصا لكتابة موارد الصدقات هما : الزبير بن العوام ، وجهم بن الصلت ، وكان حنظلة بن الربيع خليفة كل كاتب من كتابه عليه الصلاة والسلام إذا غاب عن عمله .

وكان لرسول الله خاتم من فضة نقش عليه ثلاثة أسطر محمد أولاً وفوقه رسول وفوقه الله يختم به كتبه ، وكان يحمله معيقب خيفة الضياع . وكان له عليه الصلاة والسلام أمراء فى جميع المقاطعات ، وكان أول من ولى الإمارة على الناس عتاب

ابن أُسَيْد سنة ثمان من الهجرة عام الفتح ، وأمر باذان عامل كسرى على اليمن سنة عشر من الهجرة ، كما ولى عمر بن الخطاب « محتسباً » على سوق المدينة لتفقد أحوال البيع والشراء ، فكان يستعمل الدِّرة فى معاقبة المعتدين ، وأقام على سوق مكة سعيد بن العاص ، وكان قيس بن سعد صاحب الشرطة ومنفذ الأحكام .

أما حرسه الخاص فإنه كان يتألف ممن يأتى :

١ — عبد الله بن مسعود مرافقه الخاص الذى لا يفارقه وينام عند بيته ويوقظه إذا نام ويستره إذا اغتسل ويحمل نعليه ويلبسهما له إذا قام ويمشى بالعصا أمامه حتى يدخل حجرته ويرحل راحلته إذا سافر .

٢ — جَبَلَةُ بن عامر كان مرافقه الذى يمشى خلفه فى معظم الأوقات .

٣ — الضحاك بن سفيان بن كعب كان أحد الأبطال وكان يقوم على رأس النبى متقلدا سيفه ولذلك كان يدعى سياف الرسول .

٤ — سعد بن أبى وقاص وسعد بن معاذ وأبو أيوب الأنصارى هؤلاء كانوا يحرسون بيوت الرسول ليلا .

٥ — رباح الأسود وأنس بن مالك .

٦ — ربيعة بن كعب الأسلمى كان يلازم بابه لحوائجه ويقدم له الماء لوضوئه ويلازمة فى السفر والحضر .

٧ — بريرة جاريته كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ استيقظ من الليل دعاها لتقدم له السواك .

٨ — أسلم بن شريك كان خادم راحلة النبى .

٩ — عقبة بن عامر الجُهنى كان خادم بغلة الرسول وكان يمشى تحته إذا مشى .

١٠ — سراج أبو البراء كان ينير له المسجد ساعة الصلوات .

١١ — أم محجن كانت تقوم على نظافة مسجد الرسول وتنقل الأقذار من طريقه

وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص على النظام وتوزيع الأعمال بين صحبه وخدمه وقد كانوا جميعا على جانب من الأدب والخلق الكريم . مما يفاخر به على طول الزمن وبمثل هذه البطانة الصالحة استطاع الرسول الأعظم أن يكون القدوة الصالحة لقومه . صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين . . .

مواقفه مع اليهود

لقد تم لمحمد ما يريد من تكوين أمة مسلمة توحد الله وتعمل لرضاه وأنزل الله عليه آيات الأحكام فعلمه الحلال والحرام وأمره أن يحكم بين الناس بما أنزل الله عليه ففرح واستبشر وحمد الله على خلاصه من كفار قريش الذين حاول أن يهديهم إلى الإسلام ثلاثة عشر عاما فلم يجد منهم إلا جمودا فى الرأى وضيقا فى الفكر وضلالا فى العقل وقد أبدله الله منهم فى المدينة عقولا نيرة تصغى للحق وتتبع الهدى ولعله أمل فى اليهود خيرا باعتبارهم من قوم موسى وقد جاءهم بما يؤيد كتابهم بشريعته وأنهم من أهل التوراة وما نزل القرآن إلا من عند الله الذى أنزل التوراة ومن أجل هذا بالغ الرسول صلى الله عليه وسلم فى العناية بهم واجتذابهم إليه ولم يشأ أن يدعوهم إلى الإسلام قسرا بل إنه ضمن لهم بمقتضى ذلك البلاغ الذى أصدره أو الصحيفة التى نشرها حرية العقيدة وحرية الرأى وحرمة المدينة وحرمة الحياة وحرمة المال وتحريم الجريمة . ولم يكن ينتظر بعد هذا أن يجد الرسول من اليهود غير الصدق والوفاء بالعهد وما كان يحسب أنهم سيكونون شرا عليه من مشركى قريش الذين خالفهم فى عقائدهم وحارب آلهتهم . أجل لقد كان يحسن الظن فيهم ويؤمل كثيرا فى هدايتهم ويطمع فى مناصرتهم له سيما وقد علم ممن أسلم على يديه منهم أنهم كانوا يتوقعون بعثته ويعدون باتباعه والقتال تحت لوائه حتى جاءه يوما الحصين بن سلام من أكابر أحبار اليهود وذوى المكانة السامية فيهم وصارحه بحقيقة أمرهم من أنهم قوم متقلبون متلونون لا يؤمنون بالحق ولا يحبونه عن عقيده ولا يركن إليهم ولا يوثق بهم أو بأقوالهم قال وإن شئت البرهان على هذا فإليك قصتى : « لقد كنا نتوقع بعثتك مما جاء فى التوراة عن صفتك واسمك وزمانك ولما سمعت الخبر بقدومك وأنا على رأس نخلة لى أعمل فيها كبرت فقالت لى عمتى خالدة بنت الحارث وكانت جالسة تحتى حين سمعت تكبيرى خيبك الله والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادما ما زدت على هذا فقلت لها أى عمه هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه بعث بما بعث به فقالت أى ابن أخى أهو النبى الذى كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة فقلت لها : نعم فقالت : فذاك

إذا ثم بادرت بالخروج إليك وأسلمت على يديك ثم رجعت إلى أهلي بيتي فأمرتهم فأسلموا ولكني كتمت إسلامي من اليهود لما أعلمه من أنهم قوم بهت (أى أهل باطل) وجئتك اليوم لأعلن إسلامي وإني أحب أن تدخلني فى بعض بيوتك وتخفيني عنهم ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف أنا منهم قبل أن يعلموا بإسلامي فإنهم أن علموا به بهتوني وعابوني وبذلك يتبين لك حقيقة أمرهم فأدخله رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أحد بيوته وجاء باليهود وتحدث إليهم ثم قال لهم : أى رجل الحصين بن سلام . قالوا سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا فلما فرغوا من كلامهم خرج إليهم الحصين بن سلام وقال لهم يامعشر اليهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به محمد فوالله أنكم لتعلمون أنه لرسول الله تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة باسمه وصفته فإني أشهد أنه رسول الله وأومن به وأصدقه وأعرفه فقالوا له كذبت ثم وقعوا فيه فالتفت إلى رسول الله وقال : ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بهت أهل غدر وكذب وفجور فهنأه الرسول على إسلامه وسماه عبد الله بن سلام وأسلم منهم ثعلبة بن سعيد وأسعد بن سعيد وأسد ابن عبيد وخرج الباقون من حضرته والحقد يغلي فى نفوسهم فبعد أن كانوا يؤملون فى استمالته إلى دينهم بمكرهم وخداعهم إذا هو يجتذب إليه حبرا كبيرا من أحبارهم وسيدا عظيما من ساداتهم يخشى أن يتبعه الكثير منهم ؛ إذا فلا بد لهم من مقاومته والكيد له ومحاربة دعوته بمختلف الطرق وأهمها ما عرفوا به من المكر والنفاق فأخذوا يدسون عليه بعض أحبارهم يتظاهر بالإسلام يجلس بين المسلمين ويظهر التقوى ويأتى إلى رسول الله يجادله مجادلة عنيفة يحاول أن يستخرج منه مايشكك به المؤمنين فى دينهم ويعمل على تفريق كلمة المسلمين والسعى بالوقيعة بينهم حتى وفقوا إلى ضم بعض الأنصار إليهم بعصبية الولاء التى كانت بينهم وبين الأوس والخزرج وكانوا يحضرون المسجد فيستمعون إلى أحاديث المسلمين ويسخرون ويستهزئون بدينهم حتى انفضح مكرهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وأطلعه الله على دخيلة أمرهم وخبر نفاقهم حيث نزل فيهم قول الله تعالى : « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون إلا أنهم

هم المفسدون ولكن لا يشعرون وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لايعلمون وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون[١] » .

ثم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة منهم يتحدثون بينهم خافضين أصواتهم فى المسجد وقد لصق بعضهم ببعض فأمر بإخراجهم من المسجد فأخرجوا إخراجا عنيفا وقيل لهم يا أعداء الله يا منافقون لاتقربن مسجد رسول الله بعد اليوم فإنكم نجس .

وكتب رسول الله كتابا إلى اليهود يدعوهم فيه إلى الإسلام هذا نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — صاحب موسى وأخيه والمصدق لما جاء به موسى ألا إن الله قد قال لكم يامعشر أهل التوراة إنكم لتجدون ذلك فى كتابكم (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم على وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما[٢] » .

وإنى أنشدكم الله وأنشدكم بما أنزل إليكم وأنشدكم بالذى أطعم من كان قبلكم من أسباطكم المن والسلوى وأنشدكم بالذى أيبس البحر لآبائكم حتى انجاهم من فرعون وعمله ألا أخبرتمونى هل تجدون فيما أنزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمد ؟ فإن كنتم لا تجدون ذلك فى كتابكم فلا كره عليكم « قد تبين الرشد من الغى[٣] » فأدعوكم إلى الله وإلى نبيه .

فلم يلبوا دعوته ولم يستطيعوا إنكار ماجاء فى التوراة عنه فلم يقطع الأمل منهم بل صار يذكرهم بكثير من أحكام التوراة ويدعوهم إلى اتباعه فلا يزيدهم هذا إلا إمعانا فى المجادلة حتى بلغ بهم الأمر إلى إنكارهم لكثير من أحكام التوراة وجحودهم بنبوة عيسى وتجهمهم على ذات الله حيث قالوا يامحمد هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله

---

(١) البقرة : ١٥١ (٢) الفتح : ٢٩ (٣) البقرة : ٢٥٦

فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى امتقع لونه غضباً لربه فأوحى الله إليه جوابهم بقوله « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » فقالوا صف لنا كيف خلقه كيف ذراعه كيف عضده فأنزل الله جوابا على قولهم . « وماقدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون[1] » وهكذا كلما يسألون سؤالا أنزل الله الجواب عليه . كل هذا ولايزال المسلمون يواصلون رجالا من اليهود ويظنون بهم خيراً . لما كان بينهم من الجوار والحلف حتى أمر الله نبيه بنهيهم عن ذلك حيث قال « يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وماتخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون . ها أنتم أولاء تحبونهم ولايحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلو عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور[2] » — وقال فيهم تعالى . « يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتو الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين[3] »

تأديب بنى قينقاع

وعلى أثر وقعة بدر الكبرى حدث حادث صغير فى ذاته ، ولكنه كبير فى معناه بين المسلمين واليهود ذلك أن امرأة عربية محجبة قدمت إلى سوق بنى قينقاع ومعها حلية جلست بها إلى صانع يهودى ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها وهى تأبى ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها وهى لا تشعر ، فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا منها ، فصاحت وافضيحتاه ، فوثب رجل من المسلمين مدافعاً عن العرض والشرف ، فوكز الصائغ فمات ، فتألب اليهود على المسلم فقتلوه ، فتجمع أهل الفريقين وكاد الشر يتفاقم لولا أن هدأ الرسول الأمر وطلب إلى اليهود أن يكفوا عن أذى المسلمين ، وأن يحفظوا عهد الموادعة أو ينزل بهم ما نزل بقريش فى بدر فأجابوه بقولهم :

---

(١) الزمر : ٦٧ (٢) آل عمران : ١٢٠ (٣) المائدة : ٥٧

يا محمد إنك ترى انا قومك لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرحة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحصارهم فحوصروا خمس عشرة ليلة من شهر جمادى الأولى فى السنة الثالثة من الهجرة سنة ٦٢٤ ميلادية حتى نزلوا على حكمه ، فقام إليه عبد الله بن أبى بن سلول وطلب أن يحسن إليهم ، فتركهم له وكأنهم شعروا بالذلة والهوان ، وأن يكونوا عتقاء لعبد الله بن أبى فآثروا الجلاء عن المدينة ، وسار بهم عبادة بن الصامت إلى وادى القرى ، وأقاموا هنالك مدة ، ثم ساروا صوب الشمال حتى بلغوا أذرعات على حدود الشام .

غدر بنى النضير

وحدث بعد ذلك أن خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لبنى النضير يستعينهم فى دية قتيلين من بنى عامر ، فلما أتاهم مع نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلى وطلب منهم ذلك قالوا : نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ، ثم خلا بعضهم ببعض ، فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ، فمن منكم يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه « وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً إلى جنب جدار ذلك البيت » ، فقال عمر بن جحاش ابن كعب أنا لذلك ، وصعد ليلقى عليه الصخرة ، فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراده القوم ، فقام وقفل راجعاً إلى المدينة ، ثم لحق به أصحابه وسألوه عن سبب عودته ، فذكر لهم ما علم به من محاولتهم الغدر به . وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتهيؤ لحربهم نكالا لما تآمروا عليه ، وفى ست من ربيع الأول من السنة الرابعة من الهجرة (يونيو سنة ٦٢٥) سار بالناس حتى أحاط بهم وحاصرهم ست ليال لم يحاولوا خلالها الاعتراف بالجرم وطلب العفو بل أنهم وقد أدركوا أن النبى قد اطلع على دخيلة أمرهم وما كانوا يبيتون لم يسعهم إلا أن يحكموا على أنفسهم ويسألوا النبى أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت إبلهم من الأموال ما عدا السلاح فأعطاهم العهد على هذا فاحتملوا من أموالهم ما استطاعته إبلهم وكان الرجل منهم يهدم بيته فيضع ما يمكن حمله على ظهر بعيره وينطلق به إلى خيبر ومنها إلى الشام واستوطن بعضهم خيبر .

الأحزاب والخندق

وقد أضمر اليهود الشر ورأوا أن خير وسيلة للقضاء على محمد وأصحابه أن يؤلبوا عليه القبائل من العرب ويحزبوا لحربه فأرسلوا وفدا من سادتهم إلى قريش قوامه حُيَىّ بن أخطب النضرى وسلاّم بن أبى الحقيق النضرى وكنانة ابن أبى الحقيق النضرى وهوذة بن قيس الوائلى وأبو عمار الوائلى وغيرهم . فلما قدموا مكة دعوا أهلها إلى حرب رسول الله وأكدوا لهم أنهم سيشتركون معهم فى حربه فقالت قريش يامعشر اليهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه فسرت قريش لهذا القول وصدقوهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركهم أولئك النفر من اليهود فى سبيل الاستعداد للحرب وذهبوا إلى بنى غطفان من قيس فدعوهم أيضا إلى الحرب وأخبروهم أنهم سيكونون معهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنهم قد تعاهدوا مع قريش على هذا فاتفقوا معهم أيضا عليه وخرجت قريش بقيادة أبى سفيان بن حرب وخرجت غطفان بقيادة عيينة بن حصن بن حذيفة ابن بدر من بنى فزازه والحارث بن عوف بن أبى حارثة المرى من بنى مرة ومسعود ابن رُخيلة بن نُويره بن طريف فيمن تابعه من قومه من أشجع . فلما سمع بهم رسول الله بادر باستشارة أصحابه فى أمر الحرب فأشار عليه سلمان الفارسى بحفر خندق حول المدينة والتحصن خلفه فى داخل المدينة ، فوافقه رسول الله على ذلك وسارع المسلمون إلى تنفيذ المشروع ، واشترك النبى فى العمل بنقل التراب حتى انتهى عمله فى أيام قلائل ، وعسكر بثلاثة آلاف مقاتل خلفه ، وأقبلت قريش ومن معها من الأحزاب إلى أحد ، وقد بلغوا عشرة آلاف مقاتل فلما لم يجدوا رسول الله فيها أقبلوا على المدينة يريدون سحق الرسول وصحبه فإذا هم يرتطمون بخندق لا عهد لهم به وقفوا دونه حيارى ماذا يصنعون ، وكان ذلك فى شوال سنة خمس (فبراير سنة ٦٢٧) .

نقض بنى قريظة العهد

ولقد فكر حُيي ابن اخطب رأس الفتنة ومحزب الأحزاب أن يضم بنى قريظة إلى الأحزاب فأتى كعب بن أسد القرظى وكان قد عاهد محمداً على الثبات معه ، فلما سمع كعب بمقدمه أغلق دونه باب الحصن وأبى أن يفتح له فأخذ يتوسل إليه حتى فتح له باب الحصن ولكنه قال له إنك امرؤ شؤم وإنى قد عاهدت محمدا فلست بناقض ما بينى وبينه ولم أر منه إلا الوفاء والصدق فلم يرعو عن مقالته وعاهده أن يدخل حصنه ويحارب معه وما زال به حتى اتفق معه على نقض العهد وبرىء كعب مما كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما انتهى هذا الخبر إلى رسول الله بعث سعد بن معاذ ابن النعمان وهو يومئذ سيد الأوس وسعد بن عبادة بن دُليم سيد الخزرج وبعض الصحابة إلى بنى قريظة للتأكد من حقيقة الخبر فلما أتوهم وجدوهم على أخبث مما بلغهم عنهم إذ نالوا من رسول الله وأنكروا معرفته وعهده فعادوا إلى رسول الله وقالوا له إنه لحق ما بلغك فدخل الرعب فى قلوب المسلمين وبدا النفاق فى بعض المنافقين غير أن رسول الله لم يتأثر بذلك وتلقى الخبر بسكينة وقال الله أكبر ابشروا يا معشر المسلمين .

وبات الناس يترقبون ماذا سيكون من أمر المشركين وحلفائهم من بنى قريظة بضعاً وعشرين ليلة فلم يبد منهم خلالها غير رمى النبال وتشديد الحصار والنبى لا يعبأ بذلك ولم يستطع بنو قريظة أن يعملوا شيئاً لأصحابهم ولما طال المطال بقبائل العرب ولم تكن تتوقع البقاء حول المدينة كل هذه المدة وقد نفذ زادها وذخيرتها لم يسع أبا سفيان إلا أن ينادى فى قومه فيقول : يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الحافر والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم ما نكره ولقينا من شدة الريح ما ترون ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فإنى مرتحل ثم قام إلى جمله وارتحل وارتحلت تلك الألوف من الناس فى أثره وعادوا أدراجهم . ولما علم رسول الله بالخبر انصرف عن الخندق راجعاً إلى المدينة فلما كانت الظهيرة جاء جبريل إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقال أوقد وضعت السلاح

يا رسول الله ؟ قال نعم فقال جبريل إن الله يأمرك يا محمد بالمسير إلى بنى قريظة فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم منادياً ينادى فى الناس : « من كان سامعاً ومطيعا فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة » فلما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى قريظة ضرب عليهم الحصار خمسا وعشرين ليلة فى ذى القعدة سنة خمس (أبريل سنة ٦٢٧ ميلادية) حتى جهدهم وقذف الله فى قلوبهم الرعب وكان حيي بن أخطب دخل مع بنى قريظة فى حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه فلما أيقنوا بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير منصرف عنهم حتى يناجزهم . قال كعب بن أسد لهم يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون وإنى عارض عليكم خلالا ثلاثا فخذوا أيها شئتم قالوا وما هى ؟ قال نتابع الرجل ونصدقه فوالله لقد تبين لكم أنه لنبى مرسل : وأنه الذى تجدونه فى كتابكم فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم . قالوا لا نفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره . قال فإذا أبيتم علىّ هذا فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين السيوف لم نترك وراءنا ثقلا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه وإن نظهر فلعمرى لنجدن النساء والأبناء . قالوا نقتل هؤلاء المساكين ؟ فما خير العيش بعدهم قال فإن أبيتم علىّ هذه فإن الليلة ليلة السبت وأنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد آمنونا فيها فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة قالوا نفسد سبتنا علينا ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا إلا ممن قد علمت فأصابه مالم يخف عليك من المسخ قال ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة من الدهر حازما . وأخيراً عندما أيقنوا بالهلكة بعثوا شأس بن قيس إلى رسول الله وطلبوا منه الأمان على أرواحهم وأن يجلوا عن البلاد بما حملت الإبل من الأموال ما عدا السلاح كما فعل بنو النضير من قبل فأبى رسول الله فعرضوا عليه الجلاء بأرواحهم فقط فأبى رسول الله إلا التسليم بغير قيد ولا شرط فما وسعهم غير التسليم والخضوع لأمره وظل الناس يرقبون ما عساه أن يكون حكم رسول الله فيهم بعد أن لاقى منهم ومن نفاقهم ومكرهم ما لاقى خلال خمس سنوات كاملات وها هم أخيرا يحزبون عليه قبائل العرب ويأتون بالعدد الوفير الذى لا قبل له به وجاءت الأوس يسألون رسول الله أن يهبهم لهم كما وهب بنى قينقاع لعبد الله بن أبى ابن سلول من

قبل فرد عليهم رسول الله بقوله : « ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم » ؟ قالوا بلى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فذاك إلى سعد بن معاذ فقالوا رضينا به وسارعوا إليه يقولون له يا أبا عمر أحسن فى مواليك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ولاك لتحسن فيهم فلما أكثروا عليه قال : لقد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم . فرجع بعض من كان معه من قومه ينعون بنى قريظة لأنهم كانوا يعرفون أن هذا هو الجزاء العدل لمن ينكث عهد الله وعهد رسوله .

ومضى سعد إلى رسول الله فلما أقبل قال صلى الله عليه وسلم لمن حضر من المهاجرين والأنصار قوموا لسيدكم فقاموا له وقالوا يا أبا عمر إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم فقال سعد بن معاذ عليكم بذلك عهد الله وميثاقه إن الحكم فيهم لما حكمت قالوا نعم قال وعلى من ها هنا وأشار إلى الناحية التى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم نعم يا سعد قال سعد : فإنى أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذرارى والنساء . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات) ولعله يشير بهذا إلى ماورد فى نص التوراة كتابهم الذى يزعمون التمسك به كما جاء فى التثنية إصحاح ١٠ إلى ١٥ من قوله . (حين تضرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى السلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون للتسخير ويستعبد لك وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كل غنيمة فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك) .

ولا قسوة فى هذا الحكم فإن الأحزاب ما جاءوا إلا لينفذوا رغبة اليهود فى القضاء على محمد وأتباعه واستئصال شأفتهم فجازاهم بمثل ما أرادوه للمسلمين وما عرضوهم له . وحكم فيهم بحكم التوراة .

ثم استنزل اليهود من ديارهم وحبسهم رسول الله بالمدينة فى دار كيسة بنت الحارث ثم خرج رسول الله إلى سوق المدينة التى هى سوقها اليوم فحفر بها خنادق ثم بعث إليهم وضربت أعناقهم وفى مقدمتهم كعب بن أسد وحيى بن أخطب رأس

الفتنة . الذى نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن ينفذ فيه حكم الإعدام وقال : أما والله ما لمت نفسى فى عداوتك ولكنه من يخذل الله يخذل . ثم أقبل على الناس وقال . يأيها الناس إنه لا بأس بأمر الله كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم أموال بنى قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين فكان من نصيبه عليه الصلاة والسلام من نسائهم ريحانة بنت عمر ابن خنافه إحدى نساء بنى عمر بن قريظة فعرض عليها رسول الله أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب فقالت له يا رسول الله بل اتركنى فى ملكك فإنه أخف على نفسى وعليك فتركها وامتنعت عن الإسلام وأبت إلا اليهودية فعزلها رسول الله عن أهله ووجد فى نفسه من ذلك ولكنها ما لبثت أن أسلمت من تلقاء نفسها .

وهكذا انتهت حياة بنى قريظة ونالوا جزاء غدرهم ونفاقهم وما ارتكبوه من الخيانة العظمى بمحاولتهم قلب نظام الحكم الإسلامى وكان فى ذلك خير للمسلمين عظيم . فمن السهل على المرء أن يعرف عدوه ويتقيه ولكنه لا يمكن أن يأمن شر المنافق الذى لا يدرك حقيقة أمره .

فتح خيبر

عندما أجلى اليهود عن المدينة ذهب الكثير منهم إلى خيبر — وهى تبعد عن المدينة ٩٦ ميلا وتقع فى الشمال الشرقى على طريق الشام — فاتخذوها موطناً لهم ومقراً لحبك الدسائس وتدبير المؤامرات والكيد لمن فى المدينة حتى لقد كان من زعمائهم ممن حزب الأحزاب على رسول الله حيى بن أخطب الذى قتل يوم قتل بنى قريظة وسلام بن أبى الحقيق وكنانة بن أبى الحقيق . وظلوا هنالك يتربصون الفرص ويعدون العدة للغدر بالمسلمين فأقاموا لهم هنالك ثلاث خطوط للدفاع .

١ — خط النطاة وهو مكون من أربعة حصون : « الناعم والصعب والكتيبة وبقله » .

٢ — خط الشق وهو مكون من حصنين : حصن أبى وحصن البرى .

٣ — خط الكتيبة وهو مكون من ثلاثة حصون : حصن القموص والوطيح وسلالم .

ولما تفاقم أمرهم واشتد ساعدهم وأخذوا يواصلون إخوانهم من أعداء الإسلام فى الخارج وظهرت منهم نوايا السوء وبوادر الشر ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية وقد وقع معاهدة الصلح مع قريش وأخذ يفكر فى توجيه دعوته إلى سائر أنحاء العالم رأى من الحزم أن يقضى على البقية الباقية منهم ويكسر شوكتهم ويخضعهم لأمره فدعا المسلمين إلى مقاتلتهم وسار بألف وستمائة من أصحابه فى أواخر المحرم سنة ٧ الموافق إبريل عام ٦٢٨ وبلغها بعد أربعة أيام .

وكان اليهود عند ما بلغهم سير الرسول إليهم أخذوا الأهبة لأنفسهم ونزل رسول الله بواد يقال له الرجيع وبدأ القتال بينهم سبعة أيام حول خط النطاة وفى نهاية الأسبوع أعطى رسول الله الراية إلى علىّ بن أبى طالب وقال له : « أنفذ حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم للإسلام فإن لم يطيعوا لك بذلك فقاتلهم فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم » فخرج علىّ ودعاهم للإسلام فأبوا فركز الراية تحت حصن الناعم ، وأخذ يعالج فتحه حتى فتحه ، وقتل قائده الحارث بن أبى زينب ، واستمر القتال ببسالة وشجاعة إلى أن فتح المسلمون حصن القموص من الخط الثالث وهو حصن بنى الحقيق وهنا قلت المؤنة فى جيش الرسول حتى أذن لهم فى أكل لحوم الخيل ، وما زالوا يقاتلون اليهود حتى تم لهم فتح حصن الصعب بن معاذ ، فوجدوا به طعاماً كثيراً ساعدهم على متابعة القتال وحصار اليهود فى سائر حصونهم . وقد فتحت كلها عنوة إلا حصن الوطيح وحصن السلالم بخط الكتيبة فلم يستطع جيش النبى فتحها ، بل ضرب عليها الحصار ٢٤ يوماً إلى أن استحوذ عليهم اليأس ، فطلبوا الصلح على أن يحقن دماء المقاتلة منهم وإجلاءهم عن خيبر ، فأعطاهم الرسول الأمان على ذلك ، وزاد فى تفضله ؛ فترك لهم حق الخيار فى البقاء فى البلاد على أن يتولوا زراعة أراضيهم ويعطوا للمسلمين نصف تمرها ، وأن يخرجهم منها إذا بدا منهم ما يعكر الصفو فظلوا بها إلى خلافة عمر حيث بدر منهم من الخيانة والغدر ما دعاه إلى إجلائهم إلى الشام ، ولم يتعرض النبى صلى الله عليه وسلم لكتبهم وسلمها إليهم وأبى أن يصنع مثل ما صنع الرومان حين فتحهم أورشليم من إحراق الكتب

المقدسة وامتهانها ، ولا مثل النصارى فى معاملتهم لليهود فى الأندلس حيث أحرقوا كتب التوراة فبرهن بذلك على منتهى التسامح فى احترام الأديان وحرية الاعتقاد .

وجىء بالسبايا من اليهود ، وكان من بينهن صفية بنت حيي بن أخطب سيد قومه ورأس فتنة الأحزاب الذى قتل مع بنى قريظة وزوجة كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق وأخرى معها ، فمر بهما بلال الذى جاء بهما على قتلى من قتلى اليهود ، فلما رأتهم التى مع صفية صاحت وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها ، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اغربوا عنى هذه الشيطانة ، وقال لبلال : أنزعت منك الرحمة يا بلال حتى تمر بامرأتين على قتلى رجالها وأدنى صفية منه ، وألقى عليها رداءه ، فعرف المسلمون أن الرسول قد اصطفاها لنفسه ، وكان عمرها سبعة عشر عاماً ، ثم أعتقها وتزوجها ليحفظ من كرامتها ويخفف من مصابها ، فأسلمت وأقامت على الوفاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان مما حدثت به أنها رأت فى المنام وهى عروس لكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق أن قمراً وقع فى حجرها ، فقصت رؤياها على زوجها . فقال : ما هذا إلا أنك تَمَنَّيْنَ ملك الحجاز محمداً ولطم وجهها لطمة خضر عينها بها ، وظل من أثر ذلك حتى دخل بها رسول الله ، فسألها ما هو فأخبرته الخبر .

وبعد انتهاء المعارك قدمت له زينب بنت الحارث زوجة سلام بن مشكم شاة مشوية ضيافة له فلم يرفضها وأخذ لقمة منها فلم يسغها وأوجس خيفة منها فلفظها . والتفت إليها وقال : إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم فاعترفت له فقال : وما حملك على هذا قالت : لقد بلغت من قومى ما لم يخف عليك فقلت إن كان ملكا استرحنا منه وإن كان نبياً فسيخبر عنه فتجاوز رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها ولم يوقع بها شيئاً من العذاب وكان ممن أكل من الشاة بشر بن البراء وأصيب بالسم فأخذوا فى معالجته فلم ينفع فيه العلاج ، فلما مات من أثر السم سلمها رسول الله لأوليائه فقتلوها قصاصاً .

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قسمة الغنائم أرسل إلى أهل فدك وهم فرقة من اليهود بالقرب من خيبر وخيرهم بين الإسلام والنزول على ما نزل عليه أهل خيبر فاختاروا النزول على ما نزل عليه أهل خيبر .

ولما انصرف النبى صلى الله عليه وسلم من خيبر عرج على وادى القرى ، وكان أهله من اليهود فدعاهم إلى الإسلام فامتنعوا فقاتلهم إلى أن ألقوا السلاح فصالحهم على ما صالح عليه أهل خيبر وترك الأرض والنخيل بأيديهم وعاملهم عليها .

ولما سمع أهل تيماء ، وهى بلدة على سبع مراحل من المدينة بما كان من أمر أهل خيبر وأهل وادى القُرى أرسلوا إلى النبى وصالحوه على دفع الجزية له وولى عليهم يزيد بن أبى سفيان وكان إسلامه يوم فتحها .

ثم رجع إلى المدينة بعد أن بسط نفوذه على جميع القبائل اليهودية شمالى المدينة وأصبح المسلمون فى أمن من شرهم وأذاهم ، ولا شك أن هؤلاء كانوا عضواً فاسداً فى جسم الأمة لا بد من بتره خصوصاً وقد شهد القرآن بعداونهم للمسلمين حيث يقول : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون[1] .

غزواته وسراياه

تحت هذا العنوان يقول كتاب السير أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج غازياً فى صفر على رأس اثنى عشر شهرا من مقدمه المدينة يريد قريشا ثم رجع ولم يلق كيداً وأنه بعث عبيدة بن الحارث فى ستين أو ثمانين را كباً من المهاجرين حتى بلغ ماء بالحجاز أسفل ثنية المرة فلقى بها جمعاً من قريش فلم يكن بينهم قتال ، وأنه بعث أيضاً حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر من ناحية العيصى فى ثلاثين را كباً من المهاجرين فلقى أبا جهل بن هشام فى ذلك الساحل فى ثلاث مئة را كب من أهل مكة فانصرف القوم ولم يكن بينهم قتال — ولى فى هذا بعض ملاحظات أدونها فيما يأتى :

أولاً : أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن من طبعه غزو الناس ، ولم يأمره الله بذلك .

---

(١) المائدة : ٨٢

ثانياً : أنه من غير المعقول أنه يقصد غزو قريش بمفرده إذا لم يذكر المؤرخون عدد من كان معه مع حرصهم على ذكر عدد من ذهب فى السرايا .

ثالثاً : وليس من بعد النظر أن يبعث الرسول مثل ذلك العدد البسيط فى السرايا لمهمة عظيمة هى حرب قريش .

رابعاً : أن القول بعودة السرايا دون القتال الذى بعثت من أجله قد يفسر بالفشل .

ولعل من الصواب أن يقال عن الأعمال التى بدرت من رسول الله فى أول الأمر أنها ليست بغزوات ، وإنما هى من باب الجولات التى يقوم بها الحكام عادة فى داخلية بلادهم ليتبينوا بها مبلغ رضاء الشعب عنهم ، وأما السرايا فمن باب المناورات الحربية التى يراد بها إقامة الدليل على اليقظة والمقدرة وإرهاب الناس فى الداخل والخارج .

ولعل هذا هو ماقصده رسول الله صلى الله عليه وسلم من رحلته إلى ودّان والأبواء على بعد ثلاثة وعشرين ميلا من المدينة حيث اتصل ببنى حمزة ووادعه مخمش ابن عمر الضمرى ، وكان سيد قومه ورجع إلى المدينة ظافراً مسروراً ، وكان هذا شأنه عليه الصلاة والسلام فيما سموه غزوة العشيرة ، وغزوة سفران أو بدر الأولى ، وغزوة بنى سُليم ، وغزوة ذى آمر ، وغزوة الفرع وذات الرقاع كلها لا يصح أن تسمى غزوات بل هى فى الواقع رحلات وتنقلات سياسية لها ما بعدها ، وكذلك الحال فى السرايا التى كان يبعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنها لم تكن بقصد الحرب والقتال وإنما كانت لمجرد استطلاع حالة القبائل وإظهار شأن المسلمين فى الخارج وإرهاب اليهود والمنافقين فى الداخل ، وقد أدت هذه السرايا مهمتها ورجعت موفقة فى رحلاتها ولولا ذلك لعاب عليها الناس فشلها فى مهمتها ، ومما يؤيد هذا أن النبى صلى الله عليه وسلم عند ما بعث عبد الله بن جحش فى سرية مكونة من ثمانية من المهاجرين كتب له كتاباً وأمره أن لاينظر فيه إلا بعد مسيرة يومين ، فلما انقضى الموعد وفضه وجد فيه مايأتى: « إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل « نخلة » بين مكه والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم » فلما نظر عبد الله بن جحش فى الكتاب قال : سمعاً وطاعة ، ثم قال لأصحابه : قد أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمضى إلى نخلة أرصد بها قريشاً حتى آتيه منهم بخبر ، وقد نهانى أن أستكره أحداً منكم ، فمن كان

يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ، ومن كره فليرجع وأما أنا فماض لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فمضى ومعه أصحابه ولم يتخلف عنه منهم أحد ، وسلك طريق الحجاز حتى إذا كان بمعدن فوق الفُرُع يقال له بحران أضل سعد بن أبى وقاص وعُتبة بن غَزْوان بعيراً لهما كانا يعتقبانه فتخلفا عنه فى طلبه ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة فمرت به عير لقريش تحمل زبيباً وأدما وتجارة من تجارة قريش فيها عمرو بن الحضرمى ، فلما رآهم القوم هابوا الأقدام عليهم ، ثم شجعوا أنفسهم عليهم فأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ مامعهم فرمى واقد بن عبد الله الليثى عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان وأفلت القوم نوفل بن عبد الله فأعجزهم وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة قال ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام فوقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً ، فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم سقط فى أيدى القوم وظنوا أنهم هلكوا وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا وقالت قريش قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال .

فلما أكثر الناس فى ذلك أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله »[1] أى إن كنتم قتلتم فى الشهر الحرام فقد صددتم عن سبيل الله مع الكفر به وعن المسجد الحرام ، وأخراجكم منه وأنتم أهله أكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم « والفتنة أكبر من القتل » أى قد كانوا يفتنون المسلمين عن دينهم حتى يردوهم إلى الكفر بعد إيمانهم ، فذلك أكبر عند الله من القتل « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » أى ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه غير تائبين ولا نادمين ، فلما نزل القرآن بهذا الأمر وفرج الله تعالى عن المسلمين ما كانوا فيه من الإشفاق ، قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم العير والأسيرين وبعثت إليه قريش فى فداء عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان ، فقال

---

(١) البقرة : ٢١٧

رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا نفديكموهما حتى يقدما صاحبانا — يعنى سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان — فإنا نخشا كم عليهما فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم فقدم سعد وعتبة فأفداهما رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأما الحكم بن كيسان فأسلم فحسن إسلامه ، وأقام عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قتل يوم بئر معونه شهيداً ، وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة فمات بها كافراً .

اتجاهه للكعبة

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتجه فى صلاته أول ما فرضت عليه الصلاة بمكة إلى الكعبة وهى البيت الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا . ولم يزل يصلى إليها طول مقامه بمكة على ما كانت عليه صلاة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام — فلما قدم المدينة فى يوم الإثنين لإثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول أوحى إليه أن يتجه فى صلاته شطر صخرة بيت المقدس فاستمر يصلى إليها ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً على ما فى صحيح البخارى .

وكان اليهود لجهلهم يقولون أليس من العجيب أمر هذا الرجل يخالف ديننا ثم هو يتبع فى صلاته قبلتنا ولولانا ما عرف أين يستقبل .

ثم نسخ الله تعالى ذلك وأمره أن يستقبل الكعبة كما كان بمكة وهى القبلة التى كان يحبها ويرضاها ويرجو أن ينزل الوحى باستقبالها فى الصلاة فى المدينة أيضاً . فنزل فى آخر شعبان وهو الشهر الثامن من العام الثانى من الهجرة قوله تعالى : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء » أى تقلب عينيك فى النظر إلى السماء انتظاراً لنزول الوحى بتحويل القبلة إلى الكعبة « فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام » .

وعندما حولت القبلة إلى الكعبة قال اليهود « ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها » سفاهة منهم وكراهية لمخالفة الرسول لهم فى القبلة . ومكروا قاصدين الفتنة فقالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم: ارجع إلى قبلتنا نتبعك ونؤمن بك والله يعلم إنهم

لكاذبون . وقال المشركون : إن محمدا رغب عن قبلة آبائه ثم رجع إليها وليرجعن إلى دينهم أيضاً — وخب المنافقون وأوضعوا فى الفتنة والتضليل فنسبوا للنبى الحيرة والتردد فى الأمر وكل ذلك سفه وضلال كما قال تعالى : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ، قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » وقال تعالى : « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله » .

وقعة بدر الكبرى

بعد أن كون الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة أمته ، وأسس حكومته ، وقام بجولاته ، وبعث سراياه الاستطلاعية ، وأناله الله ما يريد من ترك الاتجاه إلى صخرة بيت المقدس وأمره بالتوجه إلى المسجد الحرام وإلى البيت الذى بناه أبوه ابراهيم ليكون مثابة للناس وأمناً أخذ يفكر فى تطهير ذلك البيت من الأصنام التى نصبتها قريش به ، وأن يعيد إليه سيرته الأولى ، وليجعله قبلة للموحدين وملجأ للطائفين والعاكفين والركع السجود .

وأنى له ذلك وقريش قد استحوذت عليه ونشرت الوثنية به ولا سبيل إلى اقتلاعهم من تلك البقعة بالقوة ، فمكة بلد مقدس حرام لا يحل فيه سفك الدماء .

عندئذ رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستعمل سلاحاً جديداً للتأثير فى قريش وإرغامها على عدم الحيلولة بين المسلمين وبين قبلتهم . ذلك السلاح هو ضرب حصار واسع النطاق على مكة ومصادرة ما يأتى : قريشاً من الأموال من بلاد الشام ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه ثلاثمائة وتسعة عشر شخصاً من صحبه ثلاثة أرباعهم من الأنصار لتنفيذ هذه الخطة فى ثمان خلون من شهر رمضان فى السنة الثانية من الهجرة (يناير ٦٢٤ ميلادية) ولاهم لهم غير مصادرة ما يمر بهم من الأموال وهم لا يتوقعون حرباً ولا يرجون نزالا . وكان أبو سفيان قادماً إلى مكة فى تجارة عظيمة لقريش تقدر بخمسين ألفاً من الدنانير ، فلما علم بما دبره محمد من مصادرة أموالهم استأجر ضمضم بن عمر الغفارى وبعثه مسرعاً إلى مكة ليستنفر قريشاً

إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قرر مصادرتها ورحل ضمضم ووصل مكة وصاح بالناس ، يا معشر قريش ، اللطيمة اللطيمة ، أموالكم مع أبى سفيان بن حرب قد عرض لها محمد فى أصحابه لاأرى أن تدركوها ، الغوث الغوث ، وردد أبو جهل الصدى وصاح بالناس من عند الكعبة يستنفرهم وما هى إلا لحظة حتى خرجت قريش لنجدة أموالها . فلما علم محمد بأمر ذلك الحشد الهائل استشار أصحابه فيما يرون ، فأيده أبو بكر وعمر فى المضى فى سبيله ، وقال المقداد بن عمرو من المهاجرين : يارسول الله امضى لما أراك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى : « إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون » . ولكن نقول : إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد — مكان باليمن — لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . وقال سعد بن معاذ من الأنصار : لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا ، ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك ، فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا إنا لصبر فى الحرب صدق فى اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله ، فسر رسول الله بما سمع ، ثم قال سيروا وأبشروا فإنى قد وعدنى الله إحدى الطائفتين ، والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم ، ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه وركزوا فى طريق القافلة ، وعلم بهم أبو سفيان فعدل مسيره نحو ساحل البحر مسرعاً فى سيره ، حتى بعد ما بينه وبين محمد ونجا ، وأرسل إلى قريش يقول لهم : إنكم قد خرجتم لتمنعوا عيركم وأموالكم فقد نجت فارجعوا وهمَّ الكثير من قريش بالعودة ، ولكن الله تبارك وتعالى الذى أنجى أموالهم من السلب لم ينج أرواحهم من القتل ، فحمل أبا جهل أن يركب رأسه ويعتز بقوته ويقسم أن لا يرجع حتى يرى بدراً ويقيم فيها ثلاثاً ليسمع العرب بمسيرهم وجمعهم فيها بونهم وحتى يعلم محمد بأنه لم ينل منهم منالا . ومضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادى ، وتقدم محمد وأصحابه حتى جاء إلى أدنى ماء ببدر فنزل فجاءه الحباب بن المنذر وقال له : يارسول الله أرأيت هذا المنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ فقال رسول الله هو الرأى والحرب والمكيدة ،

فقال يارسول الله فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نفوز بما وراءه من القُلُب ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون ، فقال صلى الله عليه وسلم لقد أشرت بالرأى ، فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الناس ، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم فنزل عليه فملىء ماء ، ثم توفروا بقية الآنية . وقال سعد الانبنى لك عريشاً تكون فيه ونعد عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومك فقد تخلف عنك أقوام يا نبى الله ما نحن بأشد لك حباً منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك ، فأثنى عليه رسول الله خيراً . ثم بنى لرسول الله العريش ، وفى اليوم الثانى أصبحت قريش فى عدد يربو عن الألف ، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذى وعدتنى اللهم احنهم — أى اهلكهم — الغداة » ثم تزاحم الناس ودنا بعضهم من بعض ، وأخذ رسول الله يعدل صفوف أصحابه وأمرهم أن لايحملوا حتى يأمرهم وقال إن اكتنفكم القوم فارموهم بالنبل ثم رجع رسول الله إلى العريش فدخله ومعه أبو بكر وأخذ يناشد ربه ويقول اللهم أن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام اليوم لا تعبد فى الأرض فما زال يهتف بربه رافعاً يديه إلى السماء مستقبل القبلة حتى أنزل الله قوله : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين »[1] وعندها ، قال محمد : أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله ، ثم خرج رسول الله إلى الناس فحرضهم على القتال فاستبسلوا فكانت الهزيمة — وقتل من صناديد قريش من قتل وأسر من أشرافهم من أسر ، ثم أمر رسول الله بالقتلى أن يطرحوا فى القليب فلما ألقوا فيه وقف عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال يا أهل القليب يا عتبة بن ربيعة يا شيبة بن ربيعة يا أمية بن الصلت — يا أبا جهل بن هشام وعددا كثيرا منهم ، ثم قال هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ، فإنى قد وجدت ماوعدنى ربى حقاً ، فقال المسلمون يا رسول الله

---

(١) الأنفال : ٩ .

أتنادى قوما قد جيفوا ، قال ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى ، وجيء بالأسرى واستشار رسول الله صحبه فى أمرهم ، فقال أبو بكر قومك أهلك استفدهم ، ولعل الله أن يتوب عليهم ، وقال عمر أخرجوك وكذبوك نضرب أعناقهم ، وقال ابن رواحة ننظر وادياً كثير الحطب فندخلهم فيه ، ثم نضرم عليهم النار فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول أبى بكر وجعل فداء الرجل أربعمائة ، وكان من ضمن الأسرى أبو العاص بن الربيع زوج بنت الرسول ، فلما أرسلت أهل مكة فداء عن أسراهم بعثت زينب فى فداء أبى العاص بمال وبعثت فيه بقلاده لها كانت خديجة قد أدخلتها بها ، فلما رآها الرسول رق لها ، وقال إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا ، فقالوا نعم وأطلقوه وردوا عليها الذى لها ، وما إن رجع إلى مكة حتى أعاد إلى الرسول ابنته مكرمة معززة لأن الإسلام قد فرق بينها وبينه ، ثم حدث أن صادر المسلمون تجارة لأبى العاص فجاء إلى المدينة ، ولجأ إلى زينب فأجارته وأعيدت إليه أمواله ، فعاد بها إلى مكة وسدد ما عليه من ديون للناس ، ثم رجع إلى المدينة واعتنق الإسلام ورد زوجته إليه .

ولقد كانت هذه المعركة أول المعارك التى نشبت بين المسلمين وقريش عن غير قصد من الرسول وأصحابه وبغير سابق استعداد لها وكان نصر المسلمين فيها بأعجوبة بل بكرامة من الكرامات التى من الله بها على نبيه والمؤمنين نتيجة ثقتهم بالله وإقدامهم على الجهاد فى سبيله من غير خوف ولا وجل حتى لقد أخبر الله نبيه بعد ذلك بأن استجابته تعالى للدعاء بقوله .

(إنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين) لم يكن إلا لإزالة الخوف من النفوس فقط وإلا فإن الله تعالى إذا قدر النصر لفريق هيأ له أسبابه فما تستطيع قوة فى العالم أن تخذله حيث يقول تعالى : « وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم[1] » وإن فى هذه المعركة لأعظم مثل قائم يحمل المسلم على اليقين الثابت بأن النصر بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده المؤمنين بقدرته وقد ذكر الله عباده المؤمنين بهذا فى كتابه الكريم حيث قال . « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون[2] » .

---

(١) الأنفال : ١٠ (٢) آل عمران : ١٢٤

غزوة أحد

لقد استمر الحصار مضروبا على مكة من قبل المسلمين حتى أن قريشاً صارت تخاف أن تسلك طريق الشام فقررت أن تسير بتجارتها إلى العراق وخرج بعض تجارها ومنهم أبو سفيان بن حرب ومعه فضة كثيرة وهى معظم تجارتهم إذ ذاك واستأجروا رجلا من بنى بكر بن وائل يدعى فرات بن حيان ليدلهم فى ذلك الطريق فظفر بهم زيد بن حارثة على القردة « ماء من مياه نجد » ففر الرجال وأصاب العير وما عليها وساقها إلى رسول الله فضاقت قريش ذرعا من ذلك ورجع إليها أبو سفيان بن حرب يقول . يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا على حربه لعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا فاجتمعت قريش وأصحاب العير ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة وخرجت بحدها وجدها وحديدها بقيادة أبى سفيان وخرج النساء من خلفهم على هوادجهم يحضونهم على القتال ويحولون دونهم ودون الفرار حتى نزلوا بعينين بجبل ببطن السبخة من قناة على شفير الوادى مقابل المدينة فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم استشار المسلمين فى الأمر ، وكان بينهم عبد الله بن أبى بن سلول فاستشاره أيضاً مع أنه لم يكن يستشيره من قبل فقال عبد الله يارسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا ولا دخل علينا عدو إلا أصبنا منه ، فكيف وأنت فينا ! فدعهم فإن أقاموا أقاموا بشر موضع وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة وإن رجعوا رجعوا خائبين وأمن على رأيه كثير من الأنصار ، وقال المهاجرون وبعض الأنصار : اخرج بنا إلى هؤلاء لئلا يظنوا أنا قد خفناهم . فقال صلى الله عليه وسلم لقد رأيت فى منامى بقراً تذبح حولى فأولتها خيراً ورأيت فى ذباب سيفى ثلما فأولتها هزيمة ورأيت كأنى أدخلت يدى فى درع حصينة فأولتها المدينة . فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم . فقال المهاجرون : بل اخرج بنا إلى أعدائنا . وكأن النبى صلى الله عليه وسلم قد أدرك من كلام عبد الله بن أبى ابن سلول شيئاً من الوهن والتمسك بما كان لهم من العادات مما لا يتفق والثقة بالله والاعتماد على غيره سبحانه وتعالى ووجوب المبادرة إلى الجهاد

فى سبيله وربما أحس بما يداخل عبد الله بن أبى من النفاق فلم ير موافقته ودخل بيته ولبس لامته التى اعتاد أن يلبسها فى الحرب وخرج إليهم وقد اعتزم الخروج لمقاتلة المشركين فى أحد وسار من المدينة بأصحابه ومن بينهم عبد الله بن أبى وجماعته بعد صلاة الجمعة وأصبح بالشِّعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال فى العام الثالث من الهجرة « يناير سنة ٦٢٥ ميلادية » فمشى على رجليه وجعل يصفُّ أصحابه للقتال قائلا اثبتوا فى هذا المقام فإذا عاينوكم ولوكم الأدبار فلا تطلبوا المدبرين ولا تغادروا مكانكم « ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين »[1] وهنا أخذ الحقد يغلى فى قلب عبد الله ابن أبى وشق عليه لضعف إيمانه أن يعمل الرسول بغير مشورته ثم ينتصر . فقال لأصحابه إن محمداً إنما يظفر بعدوه بكم وقد وعد أصحابه أن أعداءهم إذا عاينوهم انهزموا فإذا رأيتم أعداءهم فانهزموا فيتبعونكم فيصير الأمر على خلاف ما قاله محمد . فلما التقى الفريقان انهزم عبد الله بن أبى بن سلول بالمنافقين وتجلى للنبى ما كان من نتيجة استشارته له فى الأمر — وكانوا ثلث جيش المسلمين — وثبت الباقون وعددهم نحو سبعمائة فى مواقفهم فهزموا المشركين . غير أنهم لما رأوا تقهقر العدو وكان الله قد بشرهم بذلك حسبوا لأنفسهم شيئاً من التأثير فى ذلك ونسوا ما أوصاهم به الرسول من عدم مطاردة المدبرين وأرادوا أن يجهزوا عليهم فتبعوهم وتركوا المواضع التى أمرهم الرسول بملازمتها ، فأراد الله سبحانه أن يشعرهم بأن ما نالوه من نصر لم يكن بتأثير منهم ، بل هو نتيجة اتباعهم لأوامر الرسول صلى الله عليه وسلم وخططه الحربية ولما أن خالفوها نزع الله ما كان فى قلوب المشركين من رعب فكروا عليهم وتفرق الجيش عن رسول الله وشج وجهه الشريف وكسرت رباعيته وشلت يد طلحة دونه ولم يبق معه غير أبى بكر وعلى والعباس وطلحة وسعد فصار يكثر من دعاء ربه بالنصر وقال الناس إن محمداً قد قتل فوقع ذلك فى نفوس الكثير من المسلمين فانهزموا وكسرت قلوبهم وفر بعضهم حتى بلغ المدينة ، ولكنه

---

(١) آل عمران : ٩٧

لم يدخلها ، وصاح أنس بن النضر فيمن بقى من الفلول المنهزمة « ماذا تصنعون بالحياة بعد محمد فقوموا وموتوا على ما مات عليه ، ثم استقبل الناس ، وقال : إنى لأجد ريح الجنة من دون أحد وكر يقاتل حتى قتل. وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أول من عرفه تحت المغفر كعب بن مالك ، فصاح بأعلى صوته يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمع المسلمون إليه ونهضوا معه إلى الشعب الذى نزل فيه وثبتوا هنالك وإذا بأبى سفيان يشرف على الجبل ويصرخ بأعلى صوته إن الحرب سجال يوم بيوم أعل هُبَل — أى أظهر دينك — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قم يا عمر فأجبه فقل : الله أعلى وأجل لا سواء قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار . فلما سمع أبو سفيان صوت عمر دعاه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ائته فانظر ما شأنه فجاءه فقال أبو سفيان أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمدا قال عمر اللهم لا وإنه ليسمع كلامك الآن فقال أنت أصدق عندى من ابن قمئة الذى أخبرنا بأنه قتل محمدا بيده.

ثم قال أبو سفيان لئن كان فى قتلاكم مثلة فوالله ما رضيت وما سخطت وما نهيت وما أمرت ثم نادى مرة أخرى إن موعدكم بدر العامّ القابل فقال رسول الله لأحد أصحابه قل نعم هو بيننا وبينكم موعد .

وكأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يصدق أن القوم سيتركونهم وهم على هذه الحالة ولا يتعقبونهم أو لا يهاجمون المدينة التى جاؤا من أجلها فقال لعلى بن أبى طالب انظر ما ذا يصنعون وما يريدون فإن جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة والذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزهم فخرج على فى أثرهم فوجدهم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل وتوجهوا نحو مكة فعلم أن الله قد صرف المشركين عما كانوا يريدونه من استئصال المسلمين فلم يتعقبوهم وعادوا أدراجهم وعندها نهض النبى وأصحابه إلى ميدان المعركة فجمعوا القتلى وتولوا أمر دفنهم ولم يغسلوهم ولم يصلوا عليهم وكان من ضمنهم حمزة عم النبى وقد وجدوه مقتولا وممثلا به وقد قتله عبد يقال له وحشى بن حرب مولى جبير بن مطعم وقد أخرجت هند بنت عتبة كبده ولاكتها من حنقها عليه فحزن عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم جدا وكان هذا مصداق رؤياه .

ثم ركب النبى صلى الله عليه وسلم وأمر المسلمين أن يصطفوا فاصطفوا خلفه واصطف

خلفهم النساء وقال استووا حتى أثنى على ربى فاستووا فحمد الله وأثنى عليه ودعاه بدعاء مستفيض ثم سار بهم عشية يوم السبت يوم المعركة إلى المدينة وبلغها سالماً وكان هذا من الله نصراً مبيناً حتى قال ابن عباس « ما نصر رسول الله فى موطن كنصره يوم أحد » فأنكروا عليه ذلك فقال بينى وبينكم كتاب الله إذ يقول « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه » ولا غرو فقد تجلت نصرة الله وتأييده لنبيه عليه الصلاة والسلام فى هذه الغزوة بشكل واضح وفى مواضع كثيرة منها :

١ — فى عدم أخذه عليه الصلاة والسلام برأى عبد الله بن أبى بن سلول وجماعته من المنافقين الذين لا يجوز أن يتخذوا بطانة ومحلا للاستشارة للمؤمنين .

٢ — فيما كشفه الله لنبيه من سوء نية المنافقين وما يدبرونه للمسلمين الصادقين . من مكايد وكان فى إقصائهم عن صفوف المجاهدين خير كثير .

٣ — فى هزيمة المشركين أمام من ثبت من المؤمنين رغم قلتهم .

٤ — فى حفظه تعالى لأرواح من بقى من المسلمين وعودتهم إلى المدينه سالمين وكانت حياته وحياة جيشه عليه الصلاة والسلام أعجوبة من أعاجيب الحرب فما الذى كان يرد جيش المشركين عن أن يتعقبوا المسلمين ويفنوهم عن آخرهم وهم على مرأى ومسمع منهم لولا قدرة الله التى أيدت رسوله بما ألقته فى نفوس المشركين من العدول عن تلك الفكرة التى جاءوا من أجلها وهى استئصال المسلمين دون أن يحول بينهم وبين ذلك سبب من الأسباب المعتادة .

وهذا مادعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحذر والاحتياط فقرر العودة إلى أحد مرة أخرى لهذا ولإرهاب العدو فنادى الناس وندبهم إلى السير إلى لقاء عدوهم . وقال لا يخرج معنا إلا من شهد القتال فاستجاب له المسلمون على ما بهم من الجرح الشديد والخوف وقالوا سمعاً وطاعة فسار بهم فى يوم الأحد ١٦ من شوال حتى بلغوا حمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة عن يسار الطريق إذا أردت ذا الحليفة وأقبل معبد الخزاعى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم فأمره الرسول أن يلحق بأبى سفيان فيخذله فلحقه بالروحاء على بعد أربعين ميلا من مكة فقال ما وراءك يا معبد فقال محمد وأصحابه قد تحرقوا عليكم وخرجوا فى جمع لم يخرجوا فى مثله وقد قدم من

تخلف عنهم من أصحابه . وكان المشركون قد تلاوموا فيما بينهم وقال بعضهم لبعض أنكم لم تصنعوا شيئاً أصبتم شوكتهم وحدهم ثم تركتموهم ولم تبيدوهم وبقى منهم رؤس يجمعون لكم فارجعوا حتى تستأصلوا شأفتهم ، فلما سمعوا قول معبد الخزاعى قالوا ما تقول ؟ قال ما أرى أن ترحلوا حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة فقال أبو سفيان والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم قال فلا تفعل فإنى لك ناصح فرجعوا على أعقابهم إلى مكة .

وأقام الرسول أياما ولما علم بعودتهم إلى مكة عاد ومعه أصحابه إلى المدينة يوم الجمعة وقد غاب عنها خمساً .

ولما قدمها جلس فى المسجد والتف الناس حوله وإذا بعبد الله بن أبى بن سلول الذى كان أول المنهزمين فى غزوة أحد قبل نشوب المعركة ينتصب خطيباً ويقول : أيها الناس هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهركم أكرمكم الله وأعزكم به فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوه فلم يطق المسلمون هذا النفاق وأخذوا بثيابه من نواحيه ، وقالوا اجلس أى عدو الله لست لذلك أهلا ، وقد صنعت فى أحد ما صنعت فما وسعه إلا أن يخرج وهو يتخطى رقاب الناس فلقيه رجل من الأنصار بباب المسجد قال مابك قال قمت أشدد أمره فوثب على رجال من أصحابه يجذبوننى ويسكتوننى ويعنفوننى لكأنما قلت هجرا فقال ويلك ارجع يستغفر لك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال والله ما أبتغى أن يستغفرلى . وقد اتضح أمر نفاقه لعموم المسلمين وسمى رأس المنافقين ، ولقد ألقى النبى لأمته بهذه الموقعة دروسا عملية يجب عليهم الاقتداء بها ، ارشدهم إلى أنه لابد للمسلم فى هذه الحياة من مزاولة الأسباب والاستعداد للحرب وخوض معاركها واتباع أوامر القائد على أن يكون ذلك مقرونا بالثقة الكاملة فى الله الذى بيده الحول والقوة يمد بمدده من يشاء بقوى غيبية تكسبه النصر على عدوه ، ومن هذه القوى إلقاء الرعب فى القلوب ومن أجل هذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاهد بسيفه مع قومه ويلح على الله فى الدعاء بطلب النصر .

مُناوشات وغزوات

على أثر عودة قريش من أحد وما أصابها من الرعب من محمد وأصحابه هال العرب فى جميع الأنحاء ما يرونه من انتشار دعوته ووفرة الدعاة إلى دينه فأخذوا يفكرون فى طرق توصلهم إلى مقاومة تلك الدعوة والتنكيل بأصحاب محمد من غير إراقة دماء. فهداهم الشيطان إلى مخادعة الرسول والكيد لأصحابه فجاءه رهط من (عَضَل والقارَة) فقالوا يا رسول الله إن فينا إسلاماً فابعث معنا نفراً من أصحابك ليفقهونا فى ديننا ويقرئونا القرآن ويعلمونا شرائع الإسلام فتلقى الرسول هذا الطلب بالانشراح وبادر بانتداب ستة من أصحابه للقيام بهذه المهمة المحبوبة إلى نفسه أمّر عليهم مرثد ابن أبى مرثد الغنوى فخرجوا معهم حتى بلغوا مكاناً يقال له الرجيع إلى جانب ماء لهذيل بناحية الحجاز ما بين عسفان ومكة وهنالك غدروا بهم وقتلوا بعضهم وأخذوا الباقين أسرى إلى مكة فباعوهم لبعض سادات قريش لينتقموا منهم وكان هذا فى أواخر العام الثالث من الهجرة (مارس سنة ٦٢٥).

وفى صفر سنة أربع — (مايو سنة ٦٢٥) قدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرض عليه الرسول الإسلام فلم يسلم ولم يَبْعُد بل قال يا محمد لو بعثت رجالا مِنْ أصحابك إلى أهل نجد فدعوتهم إلى أمرك لرجوت أن يستجيبوا لك فقال عليه السلام أنى أخشى عليهم أهل نجد فقال أنا جار لهم فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك فوافق رسول الله على هذا وبعث المنذر بن عمرو فى سبعين رجلا من أصحابه من خيار المسلمين فساروا حتى نزلوا ببئر معونة وهى بين أرض بنى عامر وحرة بنى سليم فبعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله إلى عدو الله عامر بن الطفيل العامرى زعيم القوم فلما أتاه الكتاب لم ينظر إليه حتى عدا على الرجل فقتله واستصرخ عليهم قبائل بنى سليم فلم يجيبوه فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سليم عُصَيَّة ورِعْلا وذكوانْ فأجابوه إلى ذلك وأحاطوا بهم فقتلوهم عن آخرهم إلا كعب بن زيد فإنه كان من بين القتلى ولكنه قدرت له الحياة فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيداً.

وقد حالت حوادث بنى النضير فى ذلك العام على نحو ما فصلناه فى مواقفه عليه الصلاة والسلام عن مواصلة دعوته لأهل نجد للإسلام.

وفى ربيع الآخر من العام المذكور خرج الرسول صلى الله عليه وسلم فى أربعمائة من أصحابه وقيل سبعمائة وسار إلى نجد يريد بنى محارب وبنى ثعلبة حتى نزلوا موضعاً يقال له (نخل) فى أراضى غطفان وقد كان بلغه أنهم جمعوا إليه الجموع فلقى جمعاً منهم فتقارب الناس وأخاف بعضهم بعضا ولم تقع بينهم حرب وفى هذه الغزوة صلى رسول الله ومن معه لأول مرة صلاة الخوف وقفل راجعاً إلى المدينة فبلغها فى جمادى الأولى وسميت هذه الرحلة بذات الرقاع وقد ظل الرسول بعدها فى المدينة حتى آخر رجب .

وفى أول شعبان من السنة الرابعة خرج بصحبه إلى بدر ينتظر لقاء أبى سفيان فى الموعد الذى ضربه له وظل بها ثمانى ليال كان خلالها أبو سفيان قد خرج من مكة بجمع من قومه ثم غير رأيه وقال يامعشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن وإن عامكم هذا عام جدب وإنى لراجع فارجعوا فرجع الناس فسماهم أهل مكة جيش السويق يقولون إنما خرجتم تشربون السويق ولما علم رسول الله بذلك رجع إلى المدينة .

وفى ربيع الأول سنة خمس (يوليو سنة ٦٢٦) قام برحلة نحو دومة الجندل من أعمال المدينة وتبعد عنها خمس عشرة ليلة[1] ورجع قبل أن يبلغها ولم يلق شراً .

وفى شوال من السنة المذكورة وقع ما وقع من أمر الخندق وبنى قريظة ونعم المسلمون براحة تامة عند ما تطهرت ديارهم من منافقى اليهود .

وكان عليه الصلاة والسلام شديد الحزن على أصحابه الذين قتلهم المشركون غدراً وخيانة فأظهر أنه يريد الشام وعسكر فى مائتى رجل وسلك فى جمادى الأولى سنة ست (أكتوبر سنة ٦٢٧) طريق الشام ثم استقام به الطريق على المحجة من طريق مكة فأخذ فى السير مسرعا حتى انتهى إلى (بطن غران) من منازل بنى لحيان حيث كان مصاب أصحابه أهل الرجيع الذين قتلوا وأصحابه الذين قتلوا ببئر معونة فترحم عليهم ودعا لهم فسمعت بنو لحيان فهربوا فى رؤس الجبال رعباً وأقام يوما أو يومين يبعث السرايا فى كل ناحية ثم خرج حتى أتى عسفان فبعث أبا بكر وعشرة فوارس لتسمع بهم قريش

---

(١) وسببها أنه بلغه صلى الله عليه وسلم أن بها جمعاً يظلمون من مر بهم ويريدون الدنو من المدينة فخرج فى ألف من أصحابه فكان يسير ليلا ويكمن نهاراً فلما دنا منهم لم يجد إلا الغنم والشاة ورعاتها فأصاب من أصاب وهرب من هرب وبلغ الخبر أهل دومة الجندل فتفرقوا ونزل الرسول بساحتهم فلم يلق بها أحداً وغاب فى هذه الغزوة خمسا وعشرين ليلة ١٠ هـ .

فيذعزهم فآتوا كراع الغميم ولم يلقوا كيدا فقفل الرسول راجعاً وهو يقول « آيبون تائبون إن شاء الله لربنا حامدون أعوذ بالله من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر فى الأهل والمال » .

وما كاد يصل المدينة ويقيم بها ليالى قلائل حتى أغار عيينة بن حصن الفزارى على لقاح رسول الله بالغابة فقتلوا الراعى وهو ابن أبى ذر الغفارى وأخذوا اللقاح وزوجة أبيه فأرسل النبى فى طلبهم جماعة من قومه وأمر عليهم سعد بن زيد حتى أدركوهم واستنقذوا بعض اللقاح وسار النبى صلى الله عليه وسلم فى أثرهم حتى نزل بجبل يقال له ذى قرد فى رجب سنة ست (نوفمبر سنة ٦٢٧) وأقبل سلمة بن الأكوع يستأذنه فى تعقب القوم لاستخلاص باقى الإبل فأبى وأقبلت امرأة أبى ذر على ناقة من إبل رسول الله وأخبرته الخبر ثم قالت يا رسول الله إنى قد نذرت لله أن أنحرها إن نجانى الله عليها فتبسم رسول الله وقال بئس ما جزيتيها أن حملك الله عليها ونجاك بها أن تنحريها ، إنه لانذر فى معصية الله ولا فيما لا تملكين إنما هى ناقة من إبلى فارحلى بها إلى أهلك على بركة الله وقسم رسول الله فى أصحابه فى كل مائة رجل جزوراً ثم قفل راجعاً . ثم أقام النبى صلى الله عليه وسلم بقية رجب سنة ست .

وفى شعبان سنة ست (ديسمبر ٦٢٧) اتصل به أن بنى المُصْطَلِقْ يتأهبون للثورة عليه بقيادة الحارث بن ضرار فأمر عليه الصلاة والسلام بالخروج إليهم لتأديبهم وإعادتهم لطاعته ، وما كاد يصل إلى ماء لهم حتى بدؤا فى مهاجمته واشتبك الفريقان فى حرب حتى انهزم بنو المصطلق فقسم أبناءهم ونساءهم وأموالهم .

وبينما هم على الماء إذ وقع خلاف بين أحد المهاجرين والأنصار أدى إلى القتال بين المتخاصمين ودعا كل فريق حزبه فاغتنمها فرصة عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين وكان عظيماً فى قومه ولكنه طبع على النفاق فحاول أن يسعى بالفساد وتوسيع دائرة الخلاف حيث قال أو قد فعلوها يعنى المهاجرين لقد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال الأوَل سمن كلبك يأكلك أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم . فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك عند فراغ رسول الله من عدوه فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب فقال مر به عَباد بن بشر فليقتله فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ، لا ولكن أَذِّنْ بالرحيل إطفاء للفتنة ، فلما استقل رسول الله صلى الله عليه وسلم دابته وسار لقيه أُسيد بن حُضير فحياه بتحية النبوة ، ثم قال يا نبى الله والله لقد رحت فى ساعة منكرة ما كنت تروح فى مثلها فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ما بلغك ما قال صاحبكم قال وأى صاحب يارسول الله ؟ قال عبد الله بن أبى قال وما قال قال زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل قال فأنت يا رسول الله والله تخرجه منها إن شئت هو والله الذليل وأنت العزيز ثم قال يا رسول الله أرفق به فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً وحاول عبد الله بن أبى بن سلول أن ينكر ما نسب إليه فأنزل الله ما يكذبه بقوله تعالى : « هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون[1] » .

ولما علم ابنه وكان من أجلاء الصحابة بذلك أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال يا رسول الله إنه بلغنى أنك تريد قتل والدى عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه فإن كنت لا بد فاعلاً فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه . فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل أبى عبد الله بن أبى يمشى فى الناس فأقتله فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل النار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا .

ولما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا بنى المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث فى السهم لثابت بن قيس بن شماس فكاتبته على نفسها وكانت امرأة حلوة

---

(١) المنافقون : ٨ .

ملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم تستعينه فى كتابتها قالت عائشة فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتى فكرهتها وعرفت أنه سيرى منها صلى الله عليه وسلم ما رأيت فدخلت عليه فقالت يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار سيد قومه وقد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك فوقعت فى السهم لثابت بن قيس بن الشماس فكاتبته على نفسى فجئتك أستعينك على كتابى فقال : فهل لك فى خير من ذلك ؟ قالت وما هو يا رسول الله ؟ قال أقضى عنك كتابك وأتزوجك قالت نعم يا رسول الله قال قد فعلت .

وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تزوج جويرية بنت الحارث ابن أبى ضرار فقال الناس أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرسلوا ما بأيديهم من بنى المصطلق قالت فقد أعتق بتزويجه إياها مائة من أهل بيت بنى المصطلق . فلما علم أبوها بذلك جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأسلم على يده وزوجه إياها وأصدقها النبى أربعمائة درهم .

حديث الإفك

لقد احتمل الرسول صلى الله عليه وسلم فى سبيل الله الشىء الكثير من أذى قومه المشركين من قريش كما قاسى ما قاسى من عنت اليهود بالمدينة مما يضيق به ذرعاً أوسع الناس صدراً واحتمل كل ذلك عن طيب نفس لتبليغ رسالة ربه ولأن ذلك أمر طبيعى فالمبطلون حرب دائماً على الحق ودعاته ولكن أمراً واحداً لم يكن فى حسابه فكان وقعه شديداً على نفسه ذلك أنه كان محبوباً عند الناس لكرم شمائله وكان أحب إلى المسلمين من أنفسهم وأموالهم وأبنائهم وكان فى حصانة من ألسنة الناس لما توعد الله من يؤذيه بالعذاب الأليم . لذلك فإنه لم يكن يتصور أن يجرأ أحد من محبيه على أن يعكر صفوه ويفجعه فيما يحب قلبه . ولقد أقدم بعضهم على تلفيق فرية على أعز محبوبة لديه زوجته عائشة . تلك الفتاة الطاهرة النقية وابنة أخلص الناس إليه أبى بكر الصديق ومن يكون أولئك الموتورن إنهم مسطح بن أثاثة ابن بنت خالة والدها أبى بكر الصديق والذى يعيش على نفقته ومن إحسانه وَمِنَّة

بنت جحش أخت زينب بنت جحش زوج الرسول وحسان بن ثابت شاعر الرسول والذى تولى كبره رأس المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول .

كل هؤلاء يعلمون بحب رسول الله لزوجته السيدة عائشة وأنه يود لو أنها تصاحبه فى جميع أسفاره غير أنه كان يحول دونه ودون ذلك واجب العدل فكان إذا أراد السفر اقترع بين نسائه وأخذ من وقعت عليه القرعة . وفى حملة التأديب لبنى المصطلق وقعت القرعة على عائشة فصحبها معه وعندما أمر الرسول بالعودة مسرعاً فى وقت الظهيرة على خلاف عادته أطفاء للفتنة ذهبت عائشة لقضاء حاجتها ورجعت وركبت فى هودجها استعداداً للرحيل وذلك بعد نزول آية الحجاب غير أنها افتقدت عقداً لها مكان قضاء الحاجة فأسرعت فى طلبه وبحثت عنه حتى وجدته وجاء القوم فحملوا الهودج وشدوه على البعير وساروا به ظناً منهم أنها به وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يغشهن اللحم إنما يأكلن العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه وعندما رجعت وجدت الركب قد سار فظلت فى حيرة من أمرها ولبثت مكانها لعلمها أنهم حين يفتقدونها يرجعون إليها ، وبينما هى كذلك إذ أقبل صفوان بن المعطل السلمى الموكول إليه أمر السفر فى ساقة الجيش يلتقط ما يسقط من متاع أحد فلما رآها عرفها وكان رآها قبل الحجاب فدنا منها واسترجع فخمرت وجهها بجلبابها وما كلمها ولا سمعت منه غير استرجاعه فلم ترد عليه فقرب البعير منها فركبت وأخذ برأس البعير وصار يعدو به حتى وصل المدينة بعد وصول النبى فى رابعة النهار فأذاع أولئك النفر عنها أنها لم تتأخر إلا لاتفاق سابق بينها وبين صفوان فكان لهذه الشائعة أسوأ الأثر فى نفس رسول الله فجع بها أعظم فجيعة وصار حديثها مضغة فى أفواه الناس فماذا يصنع ؟ وما السبيل لمحو هذا العار ؟ أيكاشف عائشة بالأمر لا شك أنها سوف لا تعترف فماذا يصنع هل يطلقها ؟ وماذا يفيده طلاقها وفى ذلك تلويث لشرف صديقه أبى بكر الصديق وهو عار لا يزول . يا له من موقف صعب وبلية عظمى ابتلى بها رسول الله فأخذت عليه مشاعره وهو لا يشك فى طهارة عائشة ولا يصدق أن يصدر منها منكر ولكنه أمام شائعة مصدرها جماعة من أصحابه .

ولقد زاد الأمر تعقيداً أن عائشة ما كادت تصل إلى المدينة حتى أخذت تشكو ألماً بها وجاءت أمها لتمريضها فلم تجد من رسول الله ذلك العطف والحنو الذى كان يحوطها

به خصوصاً فى ساعة المرض بل كان كلما دخل عليها اقتصر على السؤال عن صحتها بقوله : « كيف تيكم » ولا يزيد على ذلك . فزاد هذا فى مرضها وربما حسبت أنها فقدت حبه لزواجه بجويرية بنت الحارث فقالت له لو أذنت فانتقلت إلى بيت أمى فلم يتردد فى الجواب عليها بالموافقة ونقلت إلى بيت أبويها وهى لا تعلم شيئاً عما قيل عنها حتى شفيت بعد بضع وعشرين ليلة .

وفى ذات ليلة خرجت لقضاء حاجتها وخرجت معها أم مسطح فعثرت فى مِرْطها فقالت تعس مسطح فقالت لها عائشة بئس لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين شهد بدراً فقالت لها أم مسطح أو ما بلغك ما قالوا يا ابنة الصديق قالت لا فقصت عليها خبر أهل الإفك فعادت إلى دارها باكية وقالت لأمها يغفر الله لك تحدث الناس بما تحدثوا به عنى ولا تذكرين لى من ذلك شيئاً قالت لها أمها (أى بنية خفى عليك الشأن فوالله قلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها) فباتت عائشة لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم .

ولقد قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه المدة شديد الحزن ثم دعا يوماً علياً بن أبى طالب وأسامة بن زيد فاستشارهما فى فراق أهله فأما أسامة فأثنى خيراً على عائشة وقال يا رسول الله أهلك ولا نعلم منهم إلا خيراً وما هذا إلا كذب وباطل وأما على فإنه قال يا رسول الله إن النساء لكثير وإنك لقادر على أن تستخلف وسل الجارية فإنها ستصدقك . فدعا رسول الله بريرة ليسألها فقالت والله ما أعلم إلا خيراً وما كنت أعيب على عائشة إلا أنى كنت أعجن العجين وآمرها أن تحفظه فتنام عنه فتأتى الشاة فتأكله فقام على وضربها ضربا مبرحا وهو يقول اصدقى رسول الله الخبر فلم تزد عما قالت . وسأل زينب بنت جحش فقالت والله ما علمت عليها والله إلا خيراً وهى ضرتها .

ولما زاد الهرج والمرج بين الناس فى هذا الموضوع قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس يخطبهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس من يعذرنى من رجل بلغنى أذاه فى أهلى (يريد رأس المنافقين عبد الله بن أبى) فوالله ما علمت فى أهلى إلا خيراً وقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيراً . وفى رواية ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهم غير الحق والله ما علمت منهم إلا خيرا ويقولون ذلك لرجل

والله ما علمت منه إلا خيراً وما يدخل بيتاً من بيوتى إلا وهو معى فوقف سعد ابن معاذ وفى رواية أسيد بن حضير وقال يا رسول الله إن يكونوا من الأوس نكفكهم وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان قبل ذلك يُرى رجلا صالحاً ولكن احتملته الحمية القَبَلية فقال كذبت لعمر الله لا نضرب أعناقهم أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج ولو كانوا من قومك ما قلت هذا . فقال أُسَيْد كذبت لعمر الله ولكنك منافق تجادل عن المنافقين وتثاور الناس حتى كاد يكون بين هذين الحيين الأوس والخزرج شر ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم نخفضهم حتى سكتوا وسكت وفى اليوم الثانى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت أبى بكر الصديق فوجد عائشة تبكى وعندها أبواها فجلس وحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فياعائشة قد بلغنى عنك مابلغك من قول الناس فاتقى الله وإن كنت قد قارفت سوءا مما يقول الناس فتوبى إلى الله فإن الله يقبل التوبة عن عباده فقالت لأبويها ألا تجيبان عنى رسول الله فأجاباها بقولها والله ما ندرى بماذا نجيبه فاستجمعت قواها ثم قالت (والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبدا والله إنى أعلم لئن أقررت بما يقول الناس والله يعلم أنى بريئة منه لأقولن ما لم يكن ولئن أكذّبْ ما يقولون لا تصدقوننى ولكنه لا يسعنى إلا أن أقول كما قال أبو يوسف « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » وما كادت تنطق بهذه الآية الكريمة وتطلب من الله العون على ما وصفوها به حتى نزل الوحى ببرائتها وقد مكث رسول الله شهرا لا يوحى إليه فى أمرها شىء لحكمة بالغة عظيمة فقال رسول الله أبشرى يا عائشة فقد أنزل الله براءتك ثم خرج إلى الناس نخطبهم وتلا عليهم قوله تعالى « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم »[1] ثم أمر بمسطح ابن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش فأقيم عليهم الحد وحمدت عائشة الله وقالت وأيم الله إنى كنت أحقرُ فى نفسى وأصغر شأناً من أن ينزل الله فى قرآناً يقرأ به فى المساجد ويصلى به ولكنى كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) النور : ١١

فى نومه شيئاً يكذب به الله عنى لما يعلم من برائتى أو يخبر خبراً فأما قرآن ينزل فىّ فوالله لنفسى أحقر عندى من ذلك . ولكن أبت إرادة الله إلا أن يجعل برائتها خالدة يعلمها كل أحد ولا يطعن فيها مكابر نتيجة إخلاصها فى الاستعانة بالله وحده فلا يعلق بالأذهان شىء عن محمد وآل محمد وتظل سيرة أزواجه أمهات المؤمنين طاهرة نقية ورجعت عائشة إلى بيتها عالية الرأس موفورة الكرامة وباء بالخزى أولئك الذين أشاعوا عنها الفاحشة وقال أبو بكر وكان ينفق على مسطح لقرابته وفقره — والله لا أنفق على مسطح شيئاً ولا أنفعه بنفع بعد الذى قال فى عائشة وأدخل علينا فأنزل الله تعالى قوله « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم »[1] فقال أبو بكر بلى والله إنى أحب أن يغفر الله لى فأعاد إلى مسطح نفقته التى كان ينفق عليه وقال والله لا أنزعها منه أبداً .

ولقد تشجع صفوان بن المعطل عند ما نزل الوحى ببراءة عائشة فاعترض حسان ابن ثابت فلطمه بالسيف لما كان يعرض به فى شعره فوثب والده ثابت بن قيس بن شماس على صفوان فجمع يديه إلى عنقه بحبل وجاء به إلى رسول الله فذكر ذلك له وقال صفوان يارسول الله إنه آذانى وهجانى فاحتملنى الغضب فضربته فلم يغضب رسول الله على صفوان ولم يحقد على حسان وذكر أنه مستحق لذلك ولم يزد عن قوله لحسان أحسن يا حسان فى الذى أصابك وأعطاه عوضاً مما أصابه بيرحاء وفيها قصر بنى حديلة بالمدينة المنورة كما أعطاه أمة قبطية اسمها سيرين فولدت له عبد الرحمن بن حسان وقال حسان يعتذر عما قال فى شأن عائشة رضى الله عنها هذه الأبيات :

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ بِرِيبَةٍ ... وتُصْبِحُ غَرْثَى من لُحُومِ الغَوافِلِ
عَقِيلَةُ حى من لُؤَىّ بن غالبٍ ... كِرَامِ المساعى مَجْدُهُم غَيْرُ زَائِلِ
مُهذَّبَةٌ قد طَيَّبَ اللهُ خِيمَهَا ... وطهرها من كل سوء وباطل
فإن كنتُ قد قلتُ الذى قد زعمتمُ ... فَلَا رَفَعَتْ سَوْطى إلَىَّ أناملى
وكيف وَوُدِّى ما حييتُ ونصرتى ... لآل رسول الله زين المحافل
له رتَب عالٍ على الناس كُلهم ... تَقَاصَرُ عنه سَوْرَةُ المُتَطَاوِلِ
فإن الذى قد قيل لَيْسَ بلائطٍ ... ولكنه قول امرئٍ بى ما حل

(١) النور : ٢٢

بيعة الرضوان

ما كاد ينشرح صدر رسول الله صلى عليه وسلم بالنتيجة التى وصل إليها من براءة عائشة والقضاء على تلك الألسن التى كانت تتناوله بسوء حتى رأى فى المنام أنه سيدخل المسجد الحرام مع أصحابه آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين فأخذ يفكر فى أمر سفره إلى مكة وذكر ما كانت قريش قد عرضت عليه من صلح على يد عمه أبى طالب أساسه أن يكف عنهم ويكفوا عنه وأن يدعهم ودينهم ويدعوه ودينه فقام وأخبر قومه بأمر الرؤيا وحضهم على السفر إلى مكة زائرين معتمرين لا يريدون قتالا ولا ينوون محاربة قريش فى عقائدهم شأنهم فى ذلك كشأن سائر الزائرين من مختلف الجهات واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادى ليخرجوا معه لهذا الغرض ، وخرج عليه الصلاة والسلام بمن معه من المدينة فى ذى القعدة سنة ست من الهجرة الموافق فبراير ٦٢٨ م وساق معه سبعين بَدَنة هديا وأحرم بالعمرة ليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً للبيت معظماً له ومضى فى سبيله حتى بلغ عُسفان فألفى بها بشير بن سفيان الكعبى فقال يارسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا بنسائهم وأطفالهم قد لبسوا جلود النمور ونزلوا بوادى طوى يعاهدون الله أن لا تدخلها عليهم أبداً وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم فقال رسول الله ياويح قريش لقد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام داخرين وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة فما تظن قريش فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة (يعنى أن يموت) ثم مضى رسول الله وسلك طريقاً آخر فى سيره ونزل بوادى قفر فجاء الناس إليه يسألون عن غايته وهو يؤكد لهم أنه إنما جاء زائراً لاينوى شططا ولا يريد حربا ونقلت أخباره إلى قريش فأصروا على منعه من دخول مكة عنوة ولو لم يرد قتالا لأنهم يرون فى ذلك عاراً عليهم ، وأرسلوا من يتجسس لهم حول مُخيم رسول الله ، ولكنهم ما كادوا يدنون من المُخَيَّم حتى أحيط بهم وأتى بهم إلى رسول الله فعفا عنهم وخلى سبيلهم ، ثم أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم عثمان بن

عفان إلى مكة برسالة إلى أبى سفيان وعظماء قريش ، فلما فرغ من رسالته قالوا له إن شئت آن تطوف بالبيت فطف أما محمد فلا فقال لهم ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحتبسوه عندهم ولم يردوا جواب الرسالة حتى قيل إن عثمان قد قتل ، ولما اتصل خبر هذه الشائعة برسول الله قال لانبرح مكاننا حتى نناجز القوم ودعا الناس إلى بيعته على الموت دون بلوغ غايتهم وأن لايفروا أبداً فبايعوه تحت شجرة هناك على ذلك . لم يثنهم عن ذلك ماهم عليه من قلة فى الرجال والعتاد لأن إيمانهم بالله كان قويا وثقتهم به تعالى لاحد لها وقد تجردت نفوسهم من خوف الموت فلم يضعوه فى حسابهم بل إنهم نظروا إليه كباب يلجون منه إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . يجب أن يتسابقوا إليه ليظفروا بما وعدهم به ربهم الذى لايشكون فى صدق وعده ومن أجل هذا سميت هذه البيعة ببيعة الرضوان إذ أنهم لم يبايعوا الرسول فيها ولديهم شىء من الأمل فى النصر أو الحياة بل إنما بايعوه على تسليم نفوسهم للرسول يتصرف فيها كيف يشاء ويضحى بها فى سبيل الله وابتغاء مرضاته . وما كادت تصح منهم العزيمة حتى تقبل الله منهم هذه التضحية وأبقى على حياتهم الغالية فصرف قلوب زعماء قريش عن قتل عثمان بل وألقى فى قلوبهم الرعب وتوالت الأخبار على الرسول بأن ما بلغه عن قتل عثمان لاأساس له من الصحة وكانت لتلك البيعة ذكرى طيبة فى قلوب المسلمين تدعوهم إلى جمع الكلمة ومنتهى التضحية حتى أدى بهم الأمر إلى تقديس تلك الشجرة التى جعلت البيعة تحتها ، فرأى عمر فى خلافته أن هذا ليس من الإسلام فى شىء فأمر باقتلاع تلك الشجرة وفى مكانها الآن مسجد يصلى فيه .

معاهدة الحديبية

رجع عثمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بأن قريشا قد قنعت بحسن نيته وقصده من الزيارة وأنه ما جاء محاربا ولكنها مع هذا ترى فى مجيئه على رأس جيش كبير اعتداء على سلطانها وامتهانا لكرامتها ولذلك فإنها ترفض قدومه عليها فى هذا العام وإنها على استعداد لأن تسمح بزيارته البيت الحرام فى العام القادم : فأوجب جوابها هذا تفكيره عليه الصلاة والسلام إذ إنه حقاً لم يخرج

من المدينة هو وأصحابه إلا قاصدين العمرة فقط ولكنهم كانوا مصممين على مقاتلة قريش إذا هى حالت دونهم ودون ذلك بحيث تكون التبعة عليها لأنها منعتهم من زيارة البيت الذى لاحق لها فى منع أحد من زيارته خصوصاً فى الأشهر الحرم غير أن الأسباب التى أبدتها قريش والاقتراح الذى عرضته قد يضعف حجة الرسول فيما إذا صمم على دخول مكة فى الأشهر الحرم محارباً تنفيذاً لبيعة الرضوان التى عاهده الصحابة فيها على الموت فى سبيل الله فأخذ يشاور أصحابه فيما عساهم يجدونه لهذا من حل وبينما هم يتشاورون إذ أقبل عليهم رسول قريش سهيل بن عمرو جاء مفوضاً من قبلها فى عقد صلح معه على غرار ما عرضته عليه من قبل من أن يدعهم ودينهم ويدعونه ودينه لا يتعرض لهم ولا يتعرضون له وأن يسمحوا له بزيارة البيت الحرم فى العام القادم فاغتنمها النبى صلى الله عليه وسلم فرصة لعقد أول معاهدة سياسية فى الإسلام ذات مرام بعيدة توصله إلى غايته وتضمن له النصر المبين من أقرب الطرق ذلك أن الرسول الأعظم عندما عرضت عليه قريش من قبل الصلح معه على أساس أن أن يدعهم ودينهم ويدعوه ودينه كان يتشدد فى طلبه ويأبى إلا أن يعطوه كلمة واحدة هى أن يقولوا لا إله إلا الله وأن يتركوا ما يعبدونه من دون الله وقد منع من هذا بقوله تعالى « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم[١] » .

بل وعوتب من قبله تعالى على ذلك بقوله « ولوشاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين[٢] لذلك رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتخلى عن شفقته على عشيرته من قريش ويترك لهم الحرية الكاملة فيما يدينون به وعبادة ما يعبدون حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا ومع هذا استطاع بحكمته أن يحصل منهم على عدة أشياء هى فى مصلحة الإسلام أهمها ما يأتى :

١ — الاعتراف به كصاحب شرع لا حرج على من يتبعه من رجال العرب .

٢ — الاعتراف به كصاحب دولة له الحق فى إبرام المعاهدات .

٣ — الإذعان لعدم الاعتداء عليه خلال عشر سنوات .

٤ — التعهد بعدم معاداته والامتناع عن الغدر به وخيانته .

---

(١) البقرة : ٢٥٧ (٢) يونس : ٩٩

٥ — الاعتراف له لأصحابه بحق زيارة البيت الحرام والتعبد فيه .

٦ — تقديم الترضية له عن التجاوز عن زيارته للبيت الحرام فى هذا العام بإخلاء مكة له نهائياً فى العام القادم لمدة ثلاثة أيام .

٧ — عدم المعارضة فى دخول جيشه إلى مكة حاملا سلاحه .

واحتفظت قريش لنفسها بثلاثة شروط قد تبدو فى ظاهرها قاسية ولكنها فى الواقع لا تتعارض مع روح التشريع وهى لا تضر الإسلام فى شىء وهى :

(ا) أن يرد الرسول إلى قريش من جاءه مسلما من قريش بغير إذن وليه وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على منتهى التسامح وأن الإسلام لا يحتم على معتنقيه التظاهر به والتعرض للأذى فى حال الضعف والإكراه بل يكتفى منهم بمجرد اطمئنان القلب بالإيمان .

(ب) أن لا ترد قريش للنبى من لجأ إليها فإن هذا إنما يفعل ذلك عن ردة عن الإسلام وهذا لا خير فيه للإسلام والمسلمين بل هو شر محض يجب أن يبعد عن جماعة المسلمين .

(ج) أن لا يشهر جيش النبى السلاح فى الحرم — وهذا عندى أمر طبيعى إذ الإنسان لا يحتاج إلى شهر سلاحه ما دام آمنا على نفسه فإن الإسلام يدعو المؤمن إلى الخضوع عند دخوله أرض الحرم .

وما كاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتهى مع سفير قريش على الاتفاق على هذه الأسس ويذاع خبرها بين الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين حتى تلقاها بعضهم بشئ من الفتور لأنهم لم يجدوا فيها ما يحقق لهم تلك الأمنية التى كانوا يحلمون بها من زيارة البيت الحرام فى هذا العام — ولأنهم لاحظوا فيها شيئا من الاستسلام لقريش بحق تأباه كرامتهم . ولم يستطع عمر أن يتمالك نفسه وأخذته ثائرة العزة والشهامة فذهب عمر يتحدث مع أبى بكر فى أمرها وكيف يرضى رسول الله بالعودة دون بلوغ قصده وكيف يقبل أن يعاهد قريشاً وهم مشركون وكيف يرضى أن يرد إلى قريش من آمن به وهى لم تعطه مثل هذا الحق . وفى هذا ما فيه من إظهار المسلمين بمظهر العاجزين عن الذود عن كرامة المسلم فلم يجد من أبى بكر غير كلمة واحدة (يا عمر الزم غرزك فإنى أشهد أنه رسول الله) — أى قف عند حدك فما يكون لى أن أعترض على محمد وأنا أعلم أنه رسول الله وهو أكثر

غيرة على دين الله وكرامة المؤمن منى ومنك فلم يقتنع عمر بمثل هذا الجواب لما عوده رسول الله به من الشورى وحرية الرأى فذهب إلى الرسول وهو ممتلىء غيرة على دين الله فقال :

عمـــر : يارسول الله ألست برسول الله ؟

الرسول : بلى .

عمـــر : أو لسنا بالمسلمين ؟

الرسول : بلى .

عمـــر : أو ليسوا بالمشركين .

الرسول : بلى .

عمـــر : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟

الرسول : أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى .

وما كاد الرسول ينطق بهذه العبارة حتى أدرك عمر أن هذه المعاهدة كانت بأمر من الله لا نتيجة اجتهاد من الرسول فأحس بخطئه فيما تكلم عن حسن قصد وندم على ذلك وأخذ يصوم ويصلى ويتصدق ويعتق تكفيراً لما بدر منه يومئذ .

ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابن أبى طالب وقال له اكتب — بسم الله الرحمن الرحيم — فاعترض سهيل على هذه الجملة وقال لا أعرف هذا ولكن اكتب كما كنا نكتب سابقاً — باسمك اللهم — فقال رسول الله اكتب باسمك اللهم فكتبها ثم قال اكتب — هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو فقال سهيل لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فقال رسول الله اكتب — هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو . اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض على أن من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه وأن بيننا عيبه (أى صدوراً منطوية على ما فيها لاتبدى عداوة) مكفوفة وأنه لا أسلال — أى السرقة الخفية — ولا أغلال — أى الخيانة — وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه — وهنا وثبت خزاعة فقالوا نحن فى عقد محمد وعهده —

وتواثبت بنو بكر فقالوا نحن فى عقد قريش وعهدهم — وإنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة وإنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثة معك سلاح الراكب السيوف فى القرب لا تدخلها بغيرها — وما كاد ينتهى من كتابة هذه المعاهدة وقبل أن توقع إذ أقبل أبو جندل بن سهيل بن عمرو سفير قريش يرسف فى الحديد فاراً بدينه إلى الرسول وكان قد أسلم من قبل فنكلت قريش به وهو يقول — احمنى يا رسول الله — فلما أبصره أبوه صعق وقال يا محمد قد لجت القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا . قال النبى صدقت فقام إلى ابنه فضرب وجهه وأخذ بتلبيبه وصار يجذبه ويجره ليرده إلى قريش وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته ويقول يا معشر المسلمين أرَدُّ إلى المشركين يفتنونى فى دينى فأثر قوله على المسلمين ووددوا لو استنقذوه من يد أعداء الله فأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يهدئ من روعه ويقول (اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا أما قد عقد بيننا وبين القوم صلح وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم) فوثب عمر بن الخطاب ومشى إلى جانبه شاهراً سيفه وهو يدنى من أبى جندل قائم السيف وهو يقول اصبر يا أبا جندل فإنما هم المشركون لا دم لهم قال عمر — رجوت أن يأخذ أبوجندل السيف من يدى فيضرب به أباه غير أنه ضن بأبيه ونفذت القضية .

ولما تم استنساخ صورة أخرى للمعاهدة أشهد الرسول عليها رجالا من المسلمين ورجالا من المشركين . ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هديه فنحره ثم جلس فحلق فتواثب الصحابة ينحرون ويحلقون وقفل راجعا إلى المدينة وبينما هو فى أثناء الطريق راجعاً إلى المدينة إذا بالوحى يأتيه مهنئاً بذلك الفتح المبين الذى فتح به عليه فى إملاء تلك المعاهدة التى ستكون سبباً فى غفران الذنوب وإتمام النعم والهداية إلى الصراط المستقيم ومقدمة لنصر عزيز منه جل وعلا . حيث قال تعالى (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيما وينصرك الله نصراً عزيزا) [1] .

---

(١) الفتح : ١ — ٣

وكيف لا يكون إملاء هذه المعاهدة فتحاً عظيما وفيها من الفوز السياسى الباهر على قريش ما أوضحناه سابقاً وفيها من المزايا القيمة ما عددها عز وجل والتى كان فى مقدمتها غفران الذنوب لأنها كانت سبباً فى حقن دماء المسلمين وصيانتهم من انتهاك حرمة الأشهر الحرم وتجنيبهم سخط العرب أجمعين لو انتهكوا حرمتها .

ومن مزاياها إتمام نعم الله على عبده بإذعان قريش لإرادته وتسليمها بمطالبه من غير حرب وهى صاغرة .

ومن مزاياها هدايته إلى طرق سليمة لنشر دعوته عن طريق اختلاط صناديد قريش بالمسلمين والخلوة بأهلهم فى المدينة والإصغاء إلى الرسول حتى تتفتح قلوبهم للإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة حتى أسلم كثير منهم قبل فتح مكة ولولا تلك المعاهدة لما تسنى لسليمى النية من قريش أن يحضروا إلى المدينة ويسلكوا سبيل الرشد . ومن مزاياها أنها كانت مقدمة لنصر عزيز هو فتح مكة من غير إراقة دماء بل عن طريق ألد أعدائه حامل لواء العصيان فيها أبى سفيان كما سنأتى بذلك فيما بعد .

وما أن نزلت هذه الآية الكريمة حتى ثبت اليقين فى قلوب أصحاب الرسول أجمعين وأدركوا مبلغ خطئهم فى استعجال الحوادث وأصبحوا ينتظرون النصر العزيز الذى وعدوا به وبينما هم على ذلك إذ قدم أبوبصير عتبة بن أسيد بن عارية بن عوف ممن حبس بمكة فكتب فيه أزهر بن عوف والأخنس بن شريف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعثا رجلا من بنى عامر بن لؤى ومعه مولى لهم فقدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب الأزهر والأخنس فقال الرسول صلى الله عليه وسلم يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا فانطلق إلى قومك قال يا رسول الله أتردنى إلى المشركين يفتنونى فى دينى قال يا أبا بصير انطلق فإن الله تعالى سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا . . فانطلق معهما حتى إذا كان بذى الحليفة وهى قرية تبعد عن المدينة سبعة أميال جلس إلى جدار وجلس معه صاحباه فقال أبو بصير أصارم سيفك هذا يا أخابنى عامر فقال نعم قال انظر إليه إن شئت قال فاستله أبو بصير ثم علاه به حتى قتله وخرج المولى سريعاً حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم طالعا قال إن هذا الرجل قد رأى

فزعا فلما انتهى إلى رسول الله قال ويحك مالك قال قتل صاحبكم صاحبي وما برح حتى طلع أبو بصير متوشحاً بالسيف حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله وفت ذمتك وأدى الله عنك أسلمتنى بيد القوم وقد امتنعت بدينى أن أفتن فيه أو يعبث بى فقال رسول الله ويل أمه مسعر حرب (يعنى موقد حرب ومهيجا) — لو كان معه رجال — ثم خرج أبو بصير حتى نزل العيص من ناحية ذى المروة على ساحل البحر بطريق قريش التى كانوا يأخذون عليها إلى الشام وبلغ المسلمين الذين كانوا احتبسوا بمكة قول رسول الله لأبى بصير « ويل أمه مسعر حرب لو كان معه رجال » فخرجوا إلى أبى بصير بالعيص فاجتمع إليه منهم قريب سبعين رجلا فضيقوا على قريش ، لا يظفرون بأحد منهم إلاقتلوه ولا تمر بهم عير إلا اقتطعوها حتى كتبت قريش إلى رسول الله تسأله بأرحامها إلا أواهم . فلا حاجة لها بهم فدعاهم رسول الله وأواهم عنده وكفى قريشاً بأسهم .

وهكذا أقام الرسول الأعظم الدليل القاطع أنه لم يكن ينوى شراً من رحلته وأنه يحرص على السلم جهد طاقته ولو أدى به الأمر إلى التجاوز عن كثير مما تتطلبه النفوس من الأنفة والكبرياء أو مايقتضيه واجب الاحتفاظ بالعزة والكرامة فى سبيل الوصول إلى الغاية النبيلة من غير سفك دماء .

كما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى للوفاء بالعهد بمجرد رضائه به حتى قبل كتابته وتدوينه غير آبه لما يقوله الناس عن ذلك وما يرمونه به من ضعف واستسلام فأين هذا مما وصلت إليه حالة الناس فى العهد الحاضر الذى أصبحت فيه المعاهدات الدولية أشبه بقصاصات الورق تمزق عند اللزوم ولا حرج ولا تثريب .

ولقد برهن عليه الصلاة والسلام بهذه المعاهدة على أنه رجل سياسة كما هو رجل دين وأنه على جانب عظيم من الحنكة السياسية التى جعلته يحصل من قريش على كل ما يريد دون أن يعطيها شيئاً بالمرة .

أجل فلقد جاء إلى قريش معتمرا ولم يشهر عليها سيفاً ولم يهاجمها بعتاده فى ديارها ومع ذلك غلبها على أمرها واستخلص منها الاعتراف له بكل تلك الحقوق التى لا تنال عادة إلا بحد السيف وبعد نيل النصر ولم تحصل قريش منه مقابل ذلك على شىء اللهم إلا أن يكف عن دخوله عليها فى ذلك العام والإسلام لايحتم زيارة البيت الحرام فى عام

مخصوص بل إن الرسول أوشك أن يعود من تلقاء نفسه إثر ما اقترحته قريش عليه على لسان عثمان . أما أن يكف عن العدوان عليها، فالإسلام بمبادئه لا يسمح له بالعدوان حيث يقول تعالى : « ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين »[١] وأما عدم رد قريش لمن جاءها من المسلمين ، فالمسلم الذى يترك النبى باختياره ليلحق بالمشركين هم أولى به منه حيث يقول تعالى : « ومن يتولهم منكم فإنه منهم »[٢] .

وأما رد النبى لمن يجيئه من قريش بغير إذن وليه فإن ذلك من دواعى الفتنة التى لا يكمل إيمان المسلم إلا بها حيث يقول تعالى : « ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون »[٣] فمن رد إلى المشركين وأمكن لهم فتنته فلا خير فيه ومن كان قوى الإيمان فلا خوف عليه منهم .

هذه هى الحنكة السياسية التى أظهرها النبى صلى الله عليه وسلم لاما يتصورها رجال العصر الحاضر من المكر والخداع حيث يقولون إن السياسة لا مذهب لها ولا دين .

توثيق العلاقة بالحبشة

ما كاد رسول الله صلى الله عليه وسلم يعود من سفره إلى المدينة فى أوائل ذى الحجة سنة ست فاتحاً منصورا مؤملا فى العود إلى مكة فى العام القادم حتى ذكر أصحابه الذين فى دار الهجرة الأولى وعلى رأسهم جعفر بن أبى طالب سفيره إلى الحبشة وقد رجع من رجع من المهاجرين وظل هو إلى جانب النجاشى يعمل على تمكين الإسلام من قلبه ونشره بين قومه ولعله أدرك أن مهمته قد انتهت وأنه آن لأولئك المهاجرين أن يعودوا إلى بلادهم فكتب إلى النجاشى كتاباً يوثق الصلة به بينهما ويؤكد له فيه رأى الإسلام فى عيسى ابن مريم وأمه ليكون فى ذلك ما يساعده على إقناع قساوسته بإعتناق الإسلام وختم الكتاب ، وأرسله مع عمرو الضامرى وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم — من محمد رسول الله إلى النجاشى الأصحم ملك الحبشة سلم أنت فإنى أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن

---

(١) البقرة : ١٩١ (٢) مائدة : ٥١

(٣) العنكبوت : ١

عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى من روحه ونَفْخِهِ كما خلق آدم بيده ونَفْخِهِ ، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى فإنى رسول الله وقد بعثت إليك ابن عمى جعفرا ونفرا معه من المسلمين فإذا جاءوك فاقرهم ودع التجبر فإنى أدعوك وجنودك إلى الله فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحى والسلام على من اتبع الهدى » .

وختم الكتاب وأرسله إليه مع عمرو الضمرى ، ولما سلم له الكتاب بادر النجاشى فى الحال وكتب جوابه عليه كما يأتى .

« بسم الله الرحمن الرحيم — إلى محمد رسول الله من النجاشى الأصحم بن أبجر سلام عليك يانبى الله ورحمة الله وبركات الله الذى لا إله إلا هو الذى هدانى إلى الإسلام . أما بعد فقد بلغنى كتابك يارسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى فورب السماء والأرض أن عيسى ما يزيد على ما ذكرت . وقد عرفنا مابعثت به إلينا وقد قرينا ابن عمك وأصحابه فأشهد أنك رسول الله صادقا مصدقا وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين وأرسلت إليك بابنى أرها بن الأصحم بن أبجر فإنى لا أملك إلا نفسى وإن شئت آتيك فعلت يارسول الله » .

وكان فى الحبشة فى ذلك الوقت أم حبيبة بنت أبى سفيان وكانت قد ذهبت إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش فتنصر هو ومات على النصرانية وبقيت هى فى الحبشة على إسلامها فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقترن بها إما لجزائها على ثباتها على الإسلام أو ليأتلف بها أباها أو ليغيظه بذلك ولكنه بدلا من أن ينتظر عودتها مع المهاجرين لمكاشفتها بهذا الأمر اقتضت حكمته العالية أن يعود على نجاشى الحبشة فى إنهاء هذا الأمر ليكون هذا برهانا منه صلى الله عليه وسلم على عظيم شفقته ومودته له فأمر عمرا الضامرى أن يكاشف النجاشى به ففعل وما كاد النجاشى يعلم برغبة الرسول هذه حتى بادر بإرسال جاريته أبرهة إلى أم حبيبة تخبرها بخطبة رسول الله لها فسرت بذلك ورحبت به فدعاها أن توكل عنها من يزوجها فوكلت خالد بن سعيد بن العاص فزوجها ، وتولى صيغة القبول النجاشى عن رسول الله وأصدقها النجاشى من عنده أربعمائة دينار وأمر نساءه أن يبعثن لها ما عندهن من عنبر وعود ثم بعثها مع جعفر بن أبى طالب وسائر المهاجرين على سفينتين حتى نزلوا

الجار أحد سواحل بلاد العرب ، ومن هنالك ركبوا ظهور الإبل حتى بلغوا المدينة فى جمادى الأولى يوافق أغسطس ٦٢٨ م ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم لا يزال بخيبر فبقيت أم حبيبة بالمدينة والتحق جعفر مع بعض من صحبه برسول الله فقبله رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عينيه والتزمه وقال ما أدرى بأيهما أنا أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر ؟ ولما عاد رسول الله من خيبر دخل بأم حبيبة وسألها عن النجاشى فذكرته بخير .

كتبه السياسية

لقد بدا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكة رسالته إلى عشيرته وقومه داعياً إلى الله بالحسنى ومربياً رجالا أكفاء يدينون بدينه ويتحسسون بحسه فيغضبون لغضبه ويرضون لرضائه ثم انتقل إلى المدينة فتولى الحكم ومارس شئون القضاء فجمع بين الدين والدولة وأدى حقوق ربه من عبادة وتوحيد ووعظ وإرشاد وإقامة الناس فى الصلوات إلى جانب سهره على تأمين راحة الأمة وإسعادها بإقامة العدل ونشر الطمأنينة والأخذ قهر بأسباب القوة لنيل العز والسلطان فوحد الصفوف وقادا لجيوش إلى ساحات الشرف حتى أعداءه ونال من النصر ما ملأ القلوب رعباً وخشية من بأسه وسلطانه . ثم جاء دور السياسة فكان له الفتح المبين فى صلح الحديبية وما كاد يعود إلى المدينة ظافراً منصوراً وقد أمن عدوان قريش عليه خلال عشر سنوات وهو واثق من أنهم سوف لا يغدرون به أعاد النظر فى أمر اليهود أولئك الذين ظن فيهم الخير أول الأمر فأكرمهم وحاول استرضاءهم فناجزوه ثم تبين له مكرهم وخداعهم وثبت لديه بعد التجارب العديدة أنهم قوم منافقون لا عهد لهم ولا ذمة لا يؤمن شرهم ولا يتقى أذاهم ما داموا على مقربة منه فى خيبر وقد شيدوا هنالك الحصون وأقاموا القلاع وما زالوا يعدون العدة للتنكيل بالمسلمين وأخذ الثأر منهم ، لذلك رأى أن لابد من إخضاعهم له وإذعانهم لسيادة المسلمين عليهم فأمر فى الحال بتطويقهم وتحطيم حصونهم وإزالهم على حكمه ليأمن شرهم ، ورأى أن الوقت قد حان لأن يوجه دعوته إلى الناس أجمعين فى خارج جزيرة العرب باعتباره رسول الله لهم كافة ولأجل أن تكون الدعوة رسمية وجهها إلى الملوك والأمراء فى سائر الجهات والأنحاء إذ هم فى مقدمة أصحاب الرأى

الذين يمكن التفاهم معهم فمتى قنعوا برسالته وآمنوا بربه واعتنقوا دينه تبعهم أقوامهم وإلا فعليهم وزر جحودهم ووزر أتباعهم إلى يوم القيامة .

وهنا أملى على كتابه عدة رسائل إلى الملوك والأمراء مختلفة الصيغ والعبارات راعى فيها مخاطبة كل واحد منهم على قدر ما يتسع له عقله وتطمح إليه نفسه .

ولما كان عليه الصلاة والسلام لا يريد لنفسه حكما ولا سلطاناً على الناس وأنه إنما يريد تبليغهم رسالة ربه فقد جعل الركن الأساسى فى رسائله هو دعوة الجميع إلى الإسلام الذى يقول فيه تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام[١] » « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين[٢] » وبعثها برسل من قبله إليهم قبل قيامه إلى خيبر فى السادس من الهجرة الموافق — ٦٢٨ م .

كتابه إلى هرقل

وكان فى مقدمة الملوك الذين وجه الرسول إليهم دعوته (هرقل) امبراطور الروم باعتباره ملك دولة من أكبر الدول فى ذلك الحين وكان على جانب من التدين والصلة بالله على دين المسيح حتى إنه نذر فى حربه مع الفرس أن يحج إلى بيت المقدس ماشياً على قدميه شكراً لله إذا هو غلب الفرس وأخرجهم من بلاده ولذلك كتب له الرسول خطاباً اكتفى فيه بمجرد دعوته إلى الإسلام ووعده بثواب الله وحذره من تضاعف الإثم عليه فى حالة الرفض حيث قال : (بسم الله الرحمن الرحيم — من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى . أما بعد أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن تتول فإنما عليك إثم اليريسين — والمراد باليريسين العامة من رعاياه — ويأهل الكتاب تعالوا لى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون[٣]. وبعث هذه الرسالة مع دحية بن خليفة الكلبى إلى عامل هرقل فى بصرى الحارث بن أبى شمر الغسانى وعندما وصل إليه أرسله بخطابه إلى هرقل ليسلمه له بيده

---

(١) آل عمران : ١٩ .
(٢) آل عمران : ٨٦ .
(٣) آل عمران : ٦٤ .

وكان قد خرج من حمص فى طريقه إلى القدس فوافاه دحية فى مدينة — إيليا — (بيت المقدس) وسلم إليه الخطاب وترجم له فلم يجد فيه غير دعوة الله خالصة فأكرم الرسول ورد عليه رداً حسنا ثم أخذ يستقصى عن أمره ويسأل عن خصومه حتى هدى إلى أبى سفيان وكان إذ ذاك فى تلك المدينة فى تجارة له فجاء به وسأله أن يقول الصدق ثم وجه إليه الأسئلة الآتية : —

هرقل : أخبرنى عن هذا الرجل الذى خرج بين أظهركم يدعى ما يدعى ؟ .

أبوسفيان: أيها الملك ما يهمك من أمره ؟ إن شأنه دون ما يبلغك .

هرقل : أنبئنى عما أسألك من شأنه ولا تزد .

أبوسفيان: سل ما بدا لك .

هرقل : كيف كان نسبه فيكم ؟ .

أبوسفيان: هو فينا ذو نسب .

هرقل : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ .

أبوسفيان: لا .

هرقل : فهل كان من آبائه من ملك ؟

أبوسفيان: لا .

هرقل : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟

أبوسفيان: ضعفاؤهم .

هرقل : أيزيدون أم ينقصون ؟ .

أبوسفيان: بل يزيدون .

هرقل : هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟

أبوسفيان: لا .

هرقل : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

أبوسفيان: لا .

هرقل : هل يغدر .

أبوسفيان: لا ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها (قال أبو سفيان . ولم أتمكن من كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة) .

هرقـل : فهل قاتلتموه .

أبوسفيان: نعم .

هرقـل : فـكيف كان قتالـكم إياه .

أبوسفيان: الحرب بيننا سجال ينال منا وننال منه .

هرقـل : فماذا يأمركم به .

أبوسفيان: يقول اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .

هرقـل : للترجمان قل له سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب فـكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول فذكرت أن لا فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله ، وسألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالـكذب قبل أن يقول ما قال فذكرت أن لا فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الـكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل وسألتك أيزيدون أم ينقصون فذكرت أنهم يزيدون وكذلك أمر الإيمان حتى يتم ، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه فذكرت أن لا وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب ، وسألتك هل يغدر فذكرت أن لا وكذلك الرسل لا تغدر وسألتك بم يأمركم فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمى هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت قدميه انطلق لشأنك ، قال أبو سفيان فخرجت من عنده وأنا أضرب إحدى يدى بالأخرى وأقول لقد بلغ من أمر هذا الرجل حتى أصبح ملوك بنى الأصفر يهابونه فى سلطانهم بالشام وما زلت مرعوباً من محمد حتى أسلمت .

ثم كتب هرقل إلى صاحب له فى رومية وكان نظيره فى العلم يخبره بأمر الـكتاب الذى جاءه من محمد وسار هو إلى حمص وهناك وافاه الرد من صاحبه يوافقه فيه على رأيه

فجمع عظماء الروم فى مقصورة له وقال لهم يا معشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبى ففروا منه وهرعوا إلى الأبواب فدعاهم أن يفصحوا بالجواب فقالوا له أتدعونا أن نترك النصرانية ونصير عبيدا لأعرابى فلما رأى نفرتهم وأيس من إيمانهم قال إنى قلت مقالتى أختبر بها شدتكم على دينكم فسجدوا له ورضوا عنه . فبقى على دينه ولكنه لم يقف موقفا معاديا للإسلام إذ أنه عند ما كتب إليه الحارث بن أبى شمر الغسانى عامله بدمشق بعد ذلك يستأذنه بحرب رسول الله لم يأذن له بذلك وأمره أن يتغافل عنه .

وكذلك عند ما بلغه أن النجاشى قد أسلم ورفض أن يدفع له ما كان يدفعه له من الخراج لم يغضبه ذلك حتى قال له البتاق « أتدع عبدك لا يخرج لك خرجا ويدين بدين غيرك دينا محدثا » فأجابه هرقل بقوله « رجل رغب فى دين فاختاره لنفسه ما أصنع به والله لولا الضن بملكى لصنعت كما صنع » .

كتابه إلى الحارث الغسانى

لم يكتف رسول الله بالكتابة إلى قيصر الروم فحسب بل وجه دعوته فى نفس الوقت إلى الحارث الغسانى أمير قيصر على دمشق الشام إذ ذاك يدعوه فيه إلى الإيمان بالله ليدوم له ملكه لما علمه من عدم تدينه وأن همه فى الحياة لم يكن غير دوام ملكه وسلطانه على بنى قومه وهذا نص الخطاب .

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله فإنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبق ملكك » وختم الكتاب وأرسله مع شجاع بن وهب الأسدى فلما بلغه وسلمه الخطاب وقرأه ألقى به فى الأرض ثم قال من ينتزع ملكى منى أنا سائر إليه ولو كان باليمن جئته وكتب إلى قيصر يخبره بخبره ويستأذنه بالسفر إليه فأجابه بقوله لا تفعل وائته عنه وأتنى بأيلياء أى بيت المقدس ولما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم ما قاله الحارث قال (باد ملكه) .

كتابه إلى كسرى

لما كان الفرس ممن لا يؤمنون بالله ورسله ويزعمون أنه لم يرسل لهم نبي وكان كسرى ملكهم متغطرسا متألها كتب له رسول الله خطابا يدعوه فيه إلى الإيمان بالله ورسله وبرسالته عن ربه إليه وإلى قومه ويلقنه الشهادة ويلق عليه تبعة عدم إسلام قومه حيث قال :

« بسم الله الرحمن الرحيم — من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسله وشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيا أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس » أى أتباعه وختم الكتاب وبعثه مع عبد الله بن حذافة السهمى فلما وصل إليه الكتاب أصابه الغرور فمزق الخطاب وكتب إلى باذان أميره باليمن أن ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عندك جلدين يأتيانى به فأطاع الأمر وأرسل من قبله رجلين من خيرة رجاله هما بابويه وخوخسره فلما قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمه بابويه وقال (إن شاهنشاه ملك ملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان أن يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك وقد بعثنى إليك لتنطلق معى فإن فعلت كتب فيك إلى ملك الملوك يمنعك ويكفه عنك وإن أبيت فهو من قد علمت فهو مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك فأخبرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله قد سلط على ملكهم كسرى ابنه شيرويه فقتله فى ليلة كذا من شهر كذا بعد ما مضى من الليل كذا وكذا ساعة قال الواقدى وهو ما يوافق ليلة الثلاثاء ١٠ من جمادى الأولى فى سنة سبع فى الساعة السادسة بعد غروب الشمس . فقالا له هل تدرى ما تقول إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا أفنكتب عنك ونخبر باذان بهذا قال نعم أخبراه ذلك عنى وقولا له إن دينى وسلطانى سيبلغ ما بلغ ملك كسرى وينتهى إلى منتهى الخف والحافر وقولا له إنك إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك وملكتك على قومك من الأبقاع ، فعادا إلى باذان وأخبراه الخبر فقال سننظر ما قال فلئن كان حقا فلا شك إنه لنبي مرسل وإن لم يكن فسنرى رأينا فيه وما لبث غير قليل حتى جاءه

كتاب شيرويه وهذا نصه (أما بعد فإنى قد قتلت كسرى ولم أقتله إلا غضبا لفارس لما كان يستحل من قتل أشرافهم وتجميرهم فى ثغورهم فإذا جاءك كتابى هذا فخذ لى الطاعة ممن قبلك وانظر الرجل الذى كان كسرى كتب فيه إليك فلاتهجه حتى يأتيك أمرى فيه) وما انتهى باذان من تلاوة الكتاب حتى اعترف لمحمد بالرسالة وأسلم معه من الفرس ودعا بابويه وقال له هل اشترط محمد غير الإسلام فقال له لا نكتب إلى رسول الله بإسلامه فولاه مخاليف اليمن وكانت عاصمة ملكه صنعاء وبقى حتى مات بعد حجة الوداع فولى رسول الله ابنه شهر بن بازان بدله على صنعاء ثم حقق الله قول الرسول فملك الله المسلمين ملك كسرى وخزائنهم وأموالهم فى خلافة عمر .

كتابه إلى المقوقس

لقد كان من ضمن من وجه إليهم رسول الله الدعوة إلى الإسلام (المقوقس عظيم القبط فى مصر) واسمه (جريج بن ميناء) وبالنظر لما توسمه الرسول صلى الله عليه وسلم فى شعب مصر من الذكاء ونور البصيرة وعدم التعصب للرأى ولو كان على غير حق وأنهم لا شك نافرون من حكم الفرق لما قاسوه من عنت الأسر الفرعونية التى استعبدتهم أعواما طويلة لم يكتف بدعوة عظيمهم إلى الإسلام بل وجه الدعوة إلى قومه وفصل لهم الإسلام وجوهر الدين الذى يدعو إليه وأن لا تخالف بينه وبين سائر الأديان السماوية فى مبدأ التوحيد الخالص لله والنفور من تأليه غيره من البشر وهذا نص كتابه :

«بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله ورسوله محمد إلى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فعليك إثم كل القبط « يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »[1] . وبعد ختم الكتاب أرسله مع حاطب

(١) آل عمران : ٦٤

ابن أبى بلتعه فلما بلغ حاطب الإسكندرية وقابل المقوقس وسلمه الخطاب أكرمه وأحسن مثواه ولكنه لم يسلم بالرسالة ولم ينفها ولكنه عمد إلى استرضاء الرسول حيث كتب له جواباً يقول فيه : « لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك أما بعد : فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه وقد علمت أن نبياً قد بقى وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام » وسلم الجواب إلى حاطب وزوده بإكرامة خاصة له وهدية أخرى إلى رسول الله هى جاريتان من أجمل بنات مصر مارية وأختها سيرين وبغلة شهباء ومقدار من عسل النحل ولما عاد حاطب إلى رسول الله وأخبره الخبر وقدم له الهدية سر لأنه قد أدى واجبه من تبليغ الدعوة وكأنه أدرك من بعث الهدية ما يبشر بالنجاح فاختص بمارية لنفسه وأسلمت ودخل بها وولدت له إبراهيم وأعطى أختها سيرين إلى حسان بن ثابت فولدت له عبد الرحمن .

كتابه إلى صاحب اليمامة

وكان ممن كتب لهم رسول الله من الأمراء « هوذة بن على الحنفى » أمير اليمامة وهى بلدة على بعد ستة عشرة مرحلة من مكة وكان رجلا محباً لنفسه منكباً على الملك والسلطان فوجه إليه رسول الله الكتاب الآتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هوذة بن على : سلام على من اتبع الهدى فاعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر فأسلم تسلم وأجعل لك ما تحت يدك » وأرسله إليه بعد ختمه مع سليط بن عمرو العامرى فلما بلغه وقدمه إليه حسب النبى شاعراً أوسلطاناً فأخذ يساومه فى أمر إسلامه ويريد منه أن يشاركه معه فى النبوة أو الحكم فكتب إليه ما يأتى : « ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله وأنا شاعر قومى وخطيبهم والعرب تهاب مكانى فاجعل لى بعض الأمر أتبعك » فلما عاد سليط إلى الرسول وأبلغه الرد قال صلى الله عليه وسلم « باد وباد ما فى يده » وما لبث أن أن أباده الله وأسلم أهل اليمامة .

كتابه لأمير البحرين

وكان ممن وجه إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم الدعوة إلى الإسلام المنذر بن ساوى التميمى أمير البحرين فاستجاب لدعوته واعتنق الإسلام ولكنه كتب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يستفتيه فيما يصنعه بقومه وهم خليط من المجوس واليهود ويسأله الرحمة بهم فكتب إليه صلى الله عليه وسلم ما نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله أما بعد : فإنى أذكرك الله عز وجل فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه وإنه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ومن نصح لهم فقد نصح لى وأن رسلى قد أثنوا عليك خيراً وأنى قد شفعتك فى قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم وأنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية » وبعث بهذا الخطاب مع العلاء بن الحضرمى فلما سلمه إليه دعا قومه وعرض عليهم الإسلام فدخل فيه من أحب ومنهم من كرهه وبقى على دينه ولكنه دفع الجزية وقيل إن المنذر سار بعد ذلك على رأس وفد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كتابه إلى ملكى عُمان

وكان ممن كتب لهم رسول الله الدعوة إلى الإسلام بصورة حازمة وقوة متناهية جَيْفر وعبد ابنا الجُلُنْدى ملك بلاد عُمان فى الخليج الفارسى حيث كتب لهما كتاباً مغفلا من العنوان بعثه مع عمرو بن العاص هذا نصه :

« أما بعد فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام أسلما تسلما فإنى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما وخيلى تحل بساحتكما وتظهر نبوتى على ملككما فلما سلم عمرو بن العاص الكتاب إليهما لم يترددا فى قبول الإسلام وسألا عمراً أن يعلمهما الإسلام وأسلم معهما خلق كثير ووضعت الجزية على من لم يسلم .

زيارة البيت الحرام

عاد النبي من خيبر وقد أمن شر اليهود ووافاه رسله إلى الأمراء والملوك وسر بوصول دعوة الإسلام إليهم أجمعين وعلم بما كان ردهم على كتبه وفى بعضها ما يسر وفى بعضها ما يحزن وهذا لا يعنى الرسول فى شىء لأن مهمته إنما كانت محصورة فى التبليغ والإنذار وقد بلغ وأنذر ويفعل الله ما يشاء .

ولم يبق إلا أن يحين الوقت المحدد لزيارة البيت الحرام ليتملى من مشاهدته ويقضى العمرة التى تحلل منها فى العام الماضى وما أن حان اليوم المعين فى ذى القعدة سنة سبع توافق فبراير ٦٢٩ لسفره عليه الصلاة والسلام حتى تجمع المسلمون حوله وبلغ عددهم ألفين بعد أن كانوا فى العام الماضى ألفاً وأربعمائة وأخذوا معهم سلاحهم خوفاً من قريش وغدرها وعدم تنفيذها لبنود المعاهدة . وما أن بلغوا باجج وهو موضع على ثمانية أميال من مكة حتى علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قريشا قد وقت بوعدها وأخلت له مكة واعتصمت بجبالها فأمر بالسلاح أن يلقى فى ذلك الموضع وجعل عليه مائتين من أصحابه ودخل هو وأصحابه من غير سلاح وكان عبد الله بن رواحة آخذا بخطام ناقته حتى إذا أقبل على البيت الحرام ترجل واستلم الركن وصعد بلال على الكعبة وأذن بصوته الجهوري وكانت ملأى بالأصنام فلم يعترضها ثم طاف وسعى فى عز وشجاعة وقريش تنظر إلى محمد وأصحابه والحقد يأكل قلوبها وقد أخذ منها العجب غايته وهم لا يكادون يصدقون ما يرون هذا محمد بن عبد الله الذى حاربوه وأخرجوه من ديارهم وحيداً طريداً يرجع إليهم على رأس هذا الجمع الغفير من المسلمين الذين اعتنقوا دينه وأحبوه كل هذا الحب وساروا فى ركابه . كيف تم له هذا ؟ وهل من سبيل لهم لمحاربته والقضاء عليه أورده إلى دينهم بعد أن بلغ إلى هذه الرتبة من العزة والسلطان وقد استصغروا أنفسهم حياله ولكنه لا يسعهم إلا أن يظهروا الجلد ويصبروا على العناد .

وكأنما أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك منهم فأراد أن يشعرهم بمبلغ قوته فصار يرسل كل يوم مائتين من أصحابه إلى بطن ياجج ليظلوا على السلاح ويحضر من كان قائماً على حراسته كما أراد أن يلوح لهم بغصن الزيتون ويجدد معهم أواصر الرحم

بعد أن تزوج بأم حبيبة بنت أبى سفيان فأعرب عن رغبته فى زواج ميمونة بنت الحارث الهلالية خالة خالد بن الوليد البطل الشهير الذى حاربه فى غزوة أحد فوافقت هى على ذلك وزوجه عليها العباس بن عبد المطلب وأصدقها أربعمائة درهم وطلب من قريش أن يمدوا له فى مدة إقامته فى مكة عن ثلاثة أيام حتى يتم زواجه بها ويحضروا وليمة زفافه فرفضوا وقالوا له لا حاجة لنا فى طعامك اخرج عنا فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عند نهاية المدة وترك أبا رافع مولاه ليأتى له بميمونة فأدركه بها فى (سرَف) موضع من ضواحى مكة وبنى عليها هنالك .

واستمر فى سفره إلى المدينة وكان لزواج النبى بميمونة أثره الطيب فى نفس خالد بن الوليد فقد حمله ذلك على أن يفكر فى الإسلام وفى أمر محمد ودعوته وما كان لها من الأثر العظيم فى نفوس ذلك الجمع الذى جاء بهم إلى مكة فأخذ يتحدث إلى الناس عن عظمة محمد ومزاياه ويذكر بإعجاب ما سمعه من آيات القرآن التى يتلوها الرسول بأعلى صوته فى الصلاة أمام البيت الحرام وكان مما قاله (لقد استبان لكل ذى عقل أن محمداً ليس بساحر وشاعر وأن كلامه من كلام رب العالمين فحق لكل ذى لب أن يتبعه) فانبرى له عِكرمة بن أبى جهل قائلا .

عكرمة : لقد صبوت يا خالد .

خالد : لم أَصْبأْ ولكنى أسلمت .

عكرمة : والله إن كان أحق قريش ألا يتكلم بهذا الكلام إلا أنت .

خالد : ولم ؟

عكرمة : لأن محمداً وضع شرف أبيك حين جرح وقتل عمك وابن عمك ببدر فوالله ما كنت لأسلم ولا أتكلم بكلامك يا خالد . أما رأيت قريشاً يريدون قتاله .

خالد : هذا أمر الجاهلية لكنى والله أسلمت حين تبين لى الحق وبعث خالد إلى النبى أبا فراس وبعث إليه بإقراره بالإسلام وعرفانه وبلغ إسلام خالد أبا سفيان فبعث فى طلبه وسأله أحق ما بلغه عنه . ولما أجابه خالد أنه حق غضب وقال « واللات والعزى لو أعلم أن الذى تقول حق لبدأت بك قبل محمد » قال خالد « فوالله إنه لحق على رغم مَن رُغِم » فاندفع أبو سفيان فى غضبه نحوه فحجزه عنه عكرمة وكان حاضراً وقال « مهلا يا أبا سفيان فوالله خِفْتُ للذى خفتَ أن أقول مثل

ما قال خالد وأكون على دينه أنتم تقتلون خالداً على رأى رآه وهذه قريش كلها تبايعت عليه والله لقد خِفْتُ ألا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم » وخرج خالد من مكة إلى المدينة فانضم إلى صفوف المسلمين .

وأعلن عمرو بن العاص إسلامه وكان قد قنع بالإسلام منذ كان بالحبشة ولكنه كان يخفيه كما أسلم عثمان بن طلحة حارس الكعبة وأسلم بإسلام هؤلاء كثير من أهل مكة واتبعوا دين الحق وبذلك زادت شوكة الإسلام قوة وأصبح فتح مكة من الأمر اليسير .

إلى الشام

رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه من مكة إلى المدينة فى أوائل ذى الحجة سنة سبع بعد أن بلغ غايته من زيارة البيت الحرام وهو واثق من عدم أذى قريش له فلعله أخذ يستعرض ما جاء به الرسل من الملوك والأمراء وتذكر رد الحارث ابن شمر الغسانى عامل هرقل على الشام وما بدا من غروره حيث قال من ينتزع منى ملكى وما هدد به من أنه سيسير إليه ولو كان باليمن ولكنه لم يفعل شيئاً فكأنما هدأ روعه وذلت نفسه فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعيد الكرة ويرسل له من ينصحه إلى الدخول فى الإسلام فبعث إليه الحارث بن عمير الأزدى وما كاد يصل إلى مؤته ويعلم به شرحبيل بن عمرو الغسانى أحد أتباع الحارث بن شمر الغسانى حتى استدعاه وقال له : أين تريد لعلك من رسل محمد ؟ قال : نعم ، فأوقفه وضرب عنقه ولم يقتل لرسول الله رسول غيره . فلما اتصل بعلم رسول الله ذلك وكان قتل الرسول من الأمور المنكرة التى لا تقرها الشرائع السماوية ويأباها العرف والتقاليد الدولية فى سائر الأوقات ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإعداد العدة لتأديب ذلك الأمير الذى انتهك حرمة الشرائع والعوائد المتبعة فجهز جيشاً مكوناً من ثلاثة آلاف مقاتل ، وأوصاهم بقتل شرحبيل بن عمير وأمر على الجيش مولاه زيد ابن حارثة : فإن أصيب جعفر بن أبى طالب فأن أصيب فعبد الله بن راحة فإن قتل فليتربص المسلمون من بينهم من يجعلونه عليهم . فأدرك المسلمون من هذه الوصية

خطورة المعركة التى سيخوضونها وخطب فيهم رسول الله قائلا : أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً أغزو باسم الله فى سبيل الله من كفر بالله لا تغدروا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا كبيراً فانياً ولا منعزلا بصومعته ولا تقربوا نخلا ولا تقتطعوا شجراً ولا تهدموا بناء » .

وقد سار المسلمون فى جمادى الأولى سنة ثمان (سبتمبر ٦٢٩) بسلامة الله يحفزهم الأمل فى نيل الشهادة فى ميدان الجهاد المقدس حتى إذا بلغوا معان علموا أن هرقل قد أمد عدوهم بما يزيد عن مائتى ألف مقاتل كامل العدة فظلوا هنا لك يفكرون فى أمرهم وهموا أن يكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرونه بما اتصل بعلمهم عن عدد عدوهم ليمدهم بما لديه من رجال لولا أن صدهم عن ذلك عبد الله بن رواحة بقوله : « يا قوم والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون الشهادة ونحن لا نقاتل بعدد ولا قوة ولا كثرة ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة » . فقال الناس لقد صدق والله ابن رواحة ومضوا فى سبيلهم حتى بلغوا غايتهم مؤتة فهاجموها دون خوف ولا وجل وخاضوا بذلك معركة مستعرة يدفعهم إليها مجرد الرغبة فى تنفيذ إرادة الرسول والأمل فى نيل الشهادة هاجم فيها ألفان ستة أضعافهم وذلك من العجب العاجب ولو أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان معهم ربما لا يسمح بذلك بل ربما لو أخبر بما علموا عن عدد أعدائهم لأمرهم بالتراجع . ولكن هى قوة الإيمان فى النفوس تدفع الناس إلى الإقدام على عمل المستحيل . خاضوا المعركة التى ظلت سبعة أيام حاولوا فيها تنفيذ أمر الرسول بقتل شرحبيل بن عمير » فلم يستطيعوا وقتل القائد الأول زيد بن حارثة ثم تولى القيادة جعفر بن أبى طالب فقتل فتولى القيادة عبد الله ابن رواحه وكلهم يعلمون أنهم سيقتلون والجميع ينتظر النصر لهم فى النهاية فلما مات ثلاثتهم أخذ اللواء ثابت بن أقوم العجلانى وقال يامعشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم فاختاروا خالد بن الوليد وكان قائداً شجاعا قريب عهد بالإسلام حيث لم يمض على إسلامه غير ثلاثة أشهر وكانت هذه أول معركة يحارب فيها مع المسلمين ، فعند ماولى القيادة على الجيش استعمل مواهبه وحكم عقله ورأى أنه ليس من الحكمة أن يزج بجنده فى معركة دموية هائلة وليس لديه من العدد والعدد مايؤمل من ورائه النصر خصوصا أنه مهاجم لا مدافع وأن عدوه يفوقه بكثرة عدده وعدده ، فقرر الانسحاب

وجمع شمل ما تفرق من جيشه وسحبه بانتظام وأعمى الله بصيرة أعدائه فلم يتعقبوهم واتصل الخبر برسول الله فأتى إلى بيت جعفر بن أبى طالب فأبلغهم الخبر وواساهم وضم أبناءه وغمرهم بالقبل وعيناه تذرفان الدموع ثم خرج إلى أهله وقال لا تغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاما فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم .

وصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر وخطب فى الناس فقال : (يا أيها الناس باب خير باب خير أخبركم عن جيشكم هذا الغازى أنهم انطلقوا فلقوا العدو فقتل زيد شهيدا فاستغفروا له ثم أخذ الراية جعفر فشد على القوم حتى قتل شهيدا فاستغفروا له ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة وأثبت قدميه حتى قتل شهيدا فاستغفروا الله له ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد (ولم يكن من الأمراء المعينين من قبله عليه الصلاة والسلام) ثم قال وهو أمير نفسه ولكنه سيف من سيوف الله فآب بنصره ولعله قال هذا لأنه استعمل الحكمة وحكم العقل وجارى سنن الله فى القتال ولم يعتمد على مجرد نصره دون تذرع بالأسباب ومن ذلك اليوم أطلق عليه لقب سيف الله المسلول .

وعند ما أقبل الجيش راجعا إلى المدينة خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لاستقباله وخرج معه المسلمون بأطفالهم فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بحمل الأطفال وكان من مواساته لآل جعفر أن قال أعطونى ابن جعفر فأخذه فحمله بين يديه فلما أقبل الركب لم يستقبلهم الناس بالبشر والارتياح بل قالوا يا فرار فررتم فى سبيل الله فقاطعهم رسول الله قائلا ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله .

وكان من أثر عودة هذا الجيش مهزوما فى رأى قصار النظر أن طمع جماعة من قضاعة فى الإغارة على المدينة وإحداث شىء من الفوضى فلما علم بهم رسول الله جهز جيشا لتأديبهم قوامه ثلاثمائة مقاتل وثلاثون فارسا واستدعى عمرو بن العاص وولاه القيادة وكان ممن أعلن إسلامه أخيرا وقال له « يا عمرو إنى أريد أن أبعثك على جيش فيغنيك الله ويسلمك فأجابه بقوله إننى لم أسلم رغبة فى المال فأجاب الرسول بقوله (نعم المال الصالح للرجل الصالح) فسار بالجيش حتى دنا من أعدائه وعلم أنهم يفوقونه عددا فلم يشأ أن يقع فى غلطة مؤته بل أرسل رافع بن ليث الجهنى إلى الرسول يخبره بذلك ويطلب منه زيادة الإمداد فبعث إليه الرسول أبا عبيدة بن الجراح وبعث معه ٣٠٠ من أشداء أصحابه وفيهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما وأمره أن يلحق بعمرو وأن يكونا جميعا

على وفاق ولا يختلفا . فلما وصل أبو عبيدة أراد أن يتولى هو قيادة الجيش فقال عمرو إنما أرسلك رسول الله مدداً إلىّ وأنا الأمير فأجاب أبو عبيدة لا ولكن أنا على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه ومع ذلك فحيث أن رسول الله قد أوصانى بأن لا نختلف فإنك إن عصيتنى أطعتك ولذلك فإنى طوع أمرك وحملوا على العدو حتى أخضعوهم وفرقوا جمعهم وأرسل عمرو بن العاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره بخبر انتصاره فى أول غزوة له وأنه بذلك قد عزز نفوذ رسول الله على تخوم الشام ثم عاد إلى المدينة فرحا مسرورا لما أتم الله على يديه من أمر يرضى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

إلى مكة

لقد كانت بين خزاعة وبنى بكر حزازات ودماء قديمة منعوا عنها عند ما دخلت خزاعة فى عهد رسول الله ودخلت بنو بكر فى حلف قريش فلم يجرأ أحد منهما على الاعتداء على الآخر .

وما كاد ينتشر خبر انسحاب جيش النبى من مؤتة فى البادية بعد أن قتل ثلاثة من قواده حتى قيل لجماعة من بنى بكر أن محمدا قد ضعف سلطانه وأن الفرصة سانحة لهم للأخذ بثأرهم من خزاعة فأغاروا عليهم عند ماء يقال له (الوتير) فقتلوا منهم نحوا من عشرين شخصاً فهرعت خزاعة إلى رئيسها فى مكة بديل بن ورقاء يشكون إليه نقض بنى بكر عهدهم مع رسول الله وسارع عمرو بن سالم الخزاعى متوجها إلى المدينة وأقبل على رسول الله فى المسجد يقص عليه ما قد حصل فهدأ الرسول من روعه وقال له (نصرت يا عمرو بن سالم) وما لبث غير قليل حتى جاءه بُديل بن ورقاء من مكة على رأس وفد من خزاعة بالخبر اليقين وذلك أن قريشا هى المحرضة لبنى بكر فى الخفاء وقد حارب معهم من كبارها صفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزى وعكرمة ابن أبى جهل وشيبة بن عثمان وسهيل بن عمرو حتى أن الحارث بن هشام عند ما أخبر أبا سفيان بما فعل القوم قال (هذا أمر لم أشهده ولكننى لم أغب عنه وإنه لشر والله ليغزونا محمد ولقد حدثتنى زوجتى هند بنت عتبة أنها رأت رؤيا كرهتها رأت ما أقبل من الحجون يسيل حتى وقف بالخندمة فكره القوم ذلك) فغضب رسول الله للحادث أشد الغضب وأمرهم بالعودة إلى ديارهم وأيقن أن وفاء قريش بعهده لم يكن إلا عن

خوف منه فلما توهمت ضعفه أخذت تعبث بمعاهدته إذا فلابد من إذاقتها وبال أمرها ولا بد من مقابلة نقضها العهد بانتزاع حكم مكة من يدها . فقوم لا يعرفون قيمة للعهد ليسوا أهلا لأن يحكموا فى أشرف بقعة فى الأرض لذلك قرر فى نفسه السير إلى مكة وبعث إلى كل من آمن به فى الجزيرة يقول (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة) دون أن يعلم أحد بالقصد من هذا الاجتماع وسارت الأحوال فى المدينة فى مجراها الطبيعى والمسلمون لا يعلمون بمايبته رسول الله غير أن قريشاً وخصوصاً منها أبا سفيان أخذت تفكر فيما سيكون من محمد أزاء هذا الحادث وقد ملأ الرعب قلب أبا سفيان من جراء ما رأت زوجه فى المنام . فخرج من مكة قاصداً المدينة يتجسس الأخبار ويريد تهدئة الحال .

وما كاد يصل عسفان حتى رأى بديل بن ورقاء وأصحابه هنالك فأيقن بأنهم قد أوصلوا الخبر إلى رسول الله ولذلك فضل أن يقصد بيت ابنته أم حبيبة زوج رسول الله لعله يجد عندها نبأ عن الخبر . أو لعلها تستطيع أن تسوى الأمر مع الرسول فلما أقبل عليها بعد فراق طويل قابلته بالترحاب ولكنها أبت أن تجلسه على فراش النبى قائلة إن هذا فراش طاهر وأنت يا أبت رجل مشرك نجس فلا أحب أن تجلس عليه فغضب من مقالها وحَسب هذا دليلا على الشر وقصد محمدا وتحدث معه فى شأن العهد فلم يذكر له الرسول شيئاً عما كان من أمر خزاعة فشعر بمدى تأثره من الأمر ولكنه لم يجرأ أن يفاتحه فيه . فذهب إلى كثير من الصحابة فلم يجد منهم غير الإعراض عنه وعدم الاكتراث بما كان . ولم يعلم بشىء عما قرره الرسول فى الأمر فما وسعه غير الرجوع إلى مكة وأخبر القوم بأنه لا شىء يعكر الصفو ولكنه ظل فى خوف ووجل على نفسه ولعله رأى من المصلحة أن يستحث العباس عم النبى على السفر إلى المدينة ليسترضى رسول الله وقد ترفق فى ذلك مع أنه كان يأبى أن يترك سقاية الحاج ورسول الله عنه راض فخرج العباس مهاجراً بعياله قاصداً المدينة وكانت المدينة إذ ذاك تعج بالمؤمنين الذين تجمعوا فيها إجابة لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما تكامل جمعهم خرج بهم رسول الله قاصدا مكة فى العاشر من رمضان سنة ٨ (الموافق يناير سنة ٦٣٠) وكان عددهم إذ ذاك ما يقرب من ثمانية آلاف من المهاجرين والأنصار وبينما هو فى الطريق إذ التقى بعمه العباس بن عبد المطلب فسر به وأدناه منه فلما

أتوا (مرّ الظهران) قال العباس واصباح قريش والله لئن دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عنوة قبل أن يستأمنوه إنه لهلاك لقريش إلى آخر الدهر ولكنه لم يكاشف رسول الله بشيء من أمر أبي سفيان ، ثم انسل على بغلة رسول الله البيضاء وخرج عليها حتى جاء (الأراك) يريد أن يرسل أحد إلى أبي سفيان يدعوه للحضور لأخذ الأمان من رسول الله ولكنه لم يعلم أن أبا سفيان لم يغمض له جفن من القلق بعد سفر العباس حتى أنه أخذ حكيم بن حزام ابن أخي خديجة أعز الناس عند رسول الله وبديل بن ورقاء رئيس خزاعة الذي أبلغ خبرهم لرسول الله وخرج بهما من مكة يستشفع بهما لدى رسول الله ، وجمدوا عند ما رأوا نيران جيش رسول الله موقدة وظلوا يتحدثون وبينما هم كذلك إذا بالعباس يسمع حديثهم ويعرف أبا سفيان من صوته فيدعوه ويسر أبوسفيان بلقائه ويستغني عن شفاعة من جاء بهما معه ويقول ما الحيلة يا أبا الفضل ؟ فقال العباس : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ولكن اركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستأمنه لك فركب معه ورجع صاحبيه حتى دخل إلى مخيم رسول الله فلما رآه عمر دخل على رسول الله قائلا : يارسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد فدعني أضرب عنقه ، فقال العباس ولكني قد أجرته يارسول الله ، ثم أخذ العباس برأس النبي وقال : والله لا يناجيه الليلة دوني أحد وأسر إليه بما أسر إليه . ولعله أفضى إليه بمخاوفه على مكة من دخول جيش النبي لها فاتحا واقترح عليه أن يتخذ من أبي سفيان وسيلة لبث الرعب في قلوب بني قومه من قريش حتى يسلموا له البلاد من غير حرب وتظل مكة حراما كما كانت وكما يجب أن تكون ، ولابد أن هذا الاقتراح قد صادف هوى في نفس رسول الله فتلك أقصى أمانيه ولذلك قال له عليه الصلاة والسلام : اذهب به ياعباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به ، فذهب به إلى رحله وبات عنده فلما أصبح أحضره إلى رسول الله ، فقال عليه الصلاة والسلام ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟ فقال أبو سفيان : بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعده ، قال رسول الله : ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله . قال : بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، أما هذه والله فإن في النفس منها حتى

الآن شيئاً وهنا تدخل العباس فقال : ويحك أسلم وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك فشهد شهادة الحق فأسلم فقال العباس : يارسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا ، قال نعم من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ، فلما ذهب لينصرف أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يشعره بمبلغ قوته ليعلم عن يقين مدى الخراب الذى سيحل بمكة إذا دخلها الرسول فاتحا فأمر العباس أن يحبسه بمضيق الوادى ليشاهد الجيش أثناء مروره فطبق العباس الأمر وكان يخبره بأسماء القبائل التى انضمت تحت لواء النبى صلى الله عليه وسلم حتى بلغت الدهشة من أبى سفيان غايتها وقال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما فقال العباس إنها النبوة يا أبا سفيان قال أبوسفيان نعم . قال العباس النجاء إلى قومك (أسرع لإنجاء قومك) فأسرع أبو سفيان يستبق الريح إلى مكة وصرخ بأعلى صوته (يامعشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن فقامت زوجته هند بنت عتبة فى وجهه تهزأ به فقال ويلكم لا تغرنكم هذه فإنه والله قد جاءكم بما لا قبل لكم به فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن قالوا قاتلك الله وما تغنى عنا دارك قال ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد .

ولما وصل رسول الله ذا طوى ورأى ما أكرمه الله به من فتح مكة بغير إراقة دماء طأطأ رأسه تواضعاً لله وهو يكثر من حمد ربه وذكر آلائه ثم أمر بتوزيع الجيش إلى أربع فرق وحظر عليها أن تقاتل أحداً لا يقاتلها ولا تسفك دما إذا لم تكره عليه وجعل الزبير بن العوام على الجناح الأيسر من الجيش وأمره بدخول مكة من شمالها . وجعل خالد بن الوليد على الجناح الأيمن وأمره أن يدخل مكة من أسفلها وجعل سعد ابن عبادة على أهل المدينة وأمره أن يدخل مكة من جانبها الغربى وجعل أبا عبيدة ابن الجراح على المهاجرين وسار وإياهم ليدخلوا مكة من أعلاها ثم اتصل بعلمه أن سعد ابن عبادة يقول « اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل المحرمه » فخاف عليه الصلاة والسلام أن يدخلها متأثراً بهذه الفكرة وقال لعلى بن أبى طالب أدركه فخذ الراية منه فكن أنت الذى تدخل بها وقد دخلت جميع الجيوش مكة بدون أدنى مقاومة ما عدا

جيش خالد بن الوليد حيث مر عند دخوله من أسفل مكة بجماعة من بنى بكر ومن ناصرهم فى نقض عهد الحديبية بالغارة على خزاعة فخافوا على أنفسهم ولم يطمأنوا إلى أمن رسول الله فأبدوا بعض المقاومة حتى قتل بعضهم وفر آخرون يريدون ركوب البحر ونزل رسول الله بأعلا مكة حيث ضربت له هنالك قبة للاستراحة بها وظل بها يحمد الله ويشكره على ما أولاه واتصل به خبر مطاردة خالد لمن هاجمه فأسف وصاح مغضباً يذكر بأمره السابق أن لا يكون قتال . ولما علم بأنهم هم البادئون قال إن الخير فيما اختاره الله .

نصر عزيز

ليس فى الدنيا لذة أطيب للنفس من لذة النصر فالطفل من أول شعوره بالحياة يأتى لأبويه وهما فى نظره أقدر الناس على حمايته ويسألهما النصر وكلما زادت معارفه يطلب النصر ممن هو أعظم منهما . وجبلت النفوس على حب من ينصرها لأنها تجد عنده ما تصبوا إليه من أعظم اللذات .

ومن أجل هذا أخبر الله عباده فى مواضع كثير من القرآن بأنه تعالى وحده الذى يملك النصر ويمنحه لعباده بما يهبه لهم من الوسائل المؤدية إليه فى الظاهر كقوة الجسم وكثرة العدد وأصالة الرأى وملكة الاختراع وسائر المواد الأوليه وغيرها من القوى الخفية كالقاء الرعب فى النفوس وانتشار الأوبئة والأمراض فى صفوف الجند وبعث الملائكة واسقاط الصواعق وارسال الرياح والأمطار والزوابع إلى غير ذلك مما هو داخل تحت قدرة الله « ومايعلم جنود ربك إلا هو »[1] فلاغرو إذا ماقال تعالى فى كتابه الكريم : « ومانصر الامن عند الله العزيز الحكيم »[2] وقد أمرنا الله سبحانه بالتزود بكل وسائل القوة الظاهرة والاستعداد للحرب لالضمان النصر فإن ذلك أمره عائد لله وحده الذى يملك من وسائل النصر الخفية مما لم تصل إليه عقولنا بعد ولكن لاتقاء العدوان وارهاب الخصوم على حد قولهم الاستعداد للحرب يمنع الحرب فقال تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله

---

(١) المدثر : ٣١ (٢) آل عمران : ١٢٧

وعدوكم »[١] ولأجل أن يحض الله عباده على التعلق به ووضع الثقه فيه وحده أكدلهم أن النصر فى الواقع لا يكون إلامنه حيث قال تعالى : « إن ينصركم الله فلاغالب لكم وإن يخذ لكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون »[٢] .

فكان حقاً وكان لزاماً على كل ذى عقل سليم أن لايتطلب النصر إلا من عند الله وأن لا يركن إلى مجرد القوى الظاهرة التى لا تلبث أن تنهار أمام مايفتح الله به من علم على المخترعين من وسائل القوة أو مايؤيد به من يريد بقوى غيبية لم تكن فى الحسبان وهذا مايوجب على كل ذى عقل ناضج أن يحب الله تعالى ويتعلق به باعتباره هو المالك لجميع القوى الروحية الخفية المهيمنة على هذه الموجودات الظاهرة .

ولما كانت مهمة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم متجهة إلى السمو بمدارك قومه من محيط المادة الضيق إلى منتهى الكمال الروحى بربط صلتهم بالله جل وعلا وكان الناس فى أول عهدهم بالإسلام لا يعرفون من الحياة غير مايحيط بهم من الماديات ولا يتصورون ماوراءها فى العالم غير المنظور ولا يؤمنون بغير تلك الآلهة الزائفة التى كانوا يعكفون على عبادتها لينالوا ببركتها مايرجون من نصر وكان مثلهم فى ذلك كمثل الطفل الذى لا يعرف غير والديه بل أضل .

فقد أمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر عاما فى مكة من أول عهده بالرسالة وهو يلقى على الناس دروساً نظرية ومحاضرات علمية لإثبات دعوته وتأييد شريعته التى تقوم على أساس واحد هو الإيمان بإله واحد هو مصدر جميع القوى الغيبية وهو الفعال لما يريد « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير »[٣] .

وأنه تعالى قد أمر بالسعى ونهى عن التقاعس عن العمل وسن لهذا الكون سنناً لا تختلف أبداً وربط الأسباب بمسبباتها التى لا تخطىء عادة وجعل له تعالى بعد ذلك الأمر والنهى فلابد للناس من العمل فى الحياة ولا بد لهم من مزاولة الأسباب ومتابعة السنن دون الركون إليها لأن التقصير فى شىء من هذا إنما يأتى بعكس النتيجة .

ولا بد لهم من أن يضعوا نصب أعينهم أن رضاء الله يجب أن يكون غاية كل مؤمن

---

(١) الأنفال : ١٦ (٢) آل عمران : ١٦١

(٣) الأنعام : ١٠٣ .

والعمل لذلك يجب أن يكون فى مقدمة الأعمال التى يتعين على الإنسان مزاولتها فى الحياة لينال بذلك منه تعالى أعظم لذة فى الحياة وهى النصر .

بمثل هذا الأسلوب كان الرسول الأعظم يجتذب القلوب للإيمان ويتجه بالناس إلى الله عن طريق البحث عن أصول كل شىء من المـاديات التى حولهم ليدركوا أنها إنما تمت إلى أصل غيبى أو أنها بعبارة أخرى ليست سوى بعض آثار تدل على وجود خالق عظيم أوجدها وكونها وسيرها لتحقق ما تتعلق به إرادته وأن هذا الخالق العظيم هو الذى يهب الحياة ويمنح الرزق ويكسب النصر لمن يريد فهو الذى يستحق الحب وهو الذى يجب أن يعبد دون سواه فآمن به من آمن وجحد من جمد عند حد المـادة وقصر عقله عن تصور ما وراءها فلم يؤمن بذلك الإله الذى خلقه فسواه ولم يتصور إمكان نصره له فى حين بلواه .

وعندما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وتولى الحـكم فيها أخذ يطبق لأتباعه دروسه السابقة بدروس أخرى عملية يثبت لهم بها مدى قدرة الله على تـكييف الأمور وتدبير الخطط وفق مصلحة من يحب ويجعلهم يبصرون بأعينهم يد الله جل وعلا وهى تمتد لنصرة القلة من عباده المطيعين لأوامره والمتوكلين عليه بحفظه لرسوله من المخاطر وحمايته من الأعداء وبما أكسبه تعالى لأتباعه من نصر إثر نصر وكان فتح مكة من أعظم تلك الدروس التى زادت المؤمنين وثوقاً بالله واعتماداً عليه .

فلقد وعد الله نبيه عليه الصلاة والسلام بعد عودته من الحديبية بأنه تعالى سينصره نصراً عزيزاً فلم يحمله ذلك على التواكل ولم يطمع المؤمنون فى انتظار خوارق العادات لنصر يأتيهم به الله بل إنهم أخذوا يعدون أنفسهم ويمرنون أجسامهم على الجهاد والصبر على البلاء استعداداً لتلك المعركة الفاصلة التى تـكسبهم ذلك النصر المنتظر فما أن دعاهم رسول الله إلى السفر إلى مكة حتى ساروا فى ركابه لم يتخلف منهم أحد يريدون فتح مكة ويريدون إرغام قريش على الخضوع للاسلام . وقد أراد الله جل وعلا أن يضمن لنبيه تحقيق هاتين الغايتين من غير حاجة إلى تلك القوة التى أعدها بل بتدبير إلهى محض وبما ألقاه سبحانه من رعب فى قلب أبى سفيان كبير قومه وأعدى أعداء الرسول ذلك الرجل العاتى العنيد والقاسى العتيد الذى اضطر أن يهضم نفسه ويجازف بحياته ويتلمس الوسطاء للرسول ليعفوا عنه ويتعهد له مقابل ذلك بأن يحمل قومه على التسليم

له والإيمان به فتتجلى بذلك قدرة الله على منح النصر لمن يشاء من عباده ويصدق وعد الله لنبيه بنصر عزيز . لا مثيل له فى تاريخ الانتصارات .

بلاد تفتح وأمة تخضع وتقبل أن تغير عقيدتها وتترك شريعتها وتلقى بعاداتها المتوارثة فى لحظة واحدة ومن دون أن تراق فى سبيل ذلك قطرة من دم هذا لعمر الله معجزة من معجزاته وآية من آياته التى أيد بها رسوله والتى أتى بها سبحانه وتعالى كمثل لتأييده للناس فى جميع العصور إذا هم رجعوا إليه وآمنوا به إيمان أولئك الأمجاد فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم حيث يقول تعالى : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين »(١) .

ولذلك فإنه ما كاد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصل إلى أعالى مكة فى يوم الاثنين ٢٠ من رمضان الموافق ٨ يناير سنة ٦٣٠ ويستقر فى القبة التى أقامها له صحبه حتى شعر بالحافز يدفعه بالمبادرة إلى زيارة البيت الحرام فأمر عمر أن يأتى الكعبة فيمحو كل الصور التى فيها فذهب ونفذ أمره دون أن يلق أى مقاومة ، ثم امتطى ناقته القصواء مردفاً خلفه أسامة بن زيد وسار بها حتى بلغ الكعبة وهو يقول : « اللهم إن العيش عيش الأخرة » فطاف بها سبعاً على راحلته يستلم الركن بمحجن فى يده « وهو عصا منعطفة الرأس يقال لها مشعاب » فلما أتم طوافه دعا عثمان بن طلحة ففتح له الكعبة فدخلها ومعه بلال وأمره أن يؤذن فيها ثم وقف على بابها وخطب فى الناس فقال : « لا إله إلا الله وحده لاشريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قَدَمَىَّ هاتين إلا سَدَانَة البيت وسِقَاية الحاج ألا وقتلُ الخطأ شبهِ العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مغلظة مئة من الإبل أربعون فى بطونها أولادها . يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء الناس من آدم وآدم خلق من تراب ثم تلا قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ثم قال : يا معشر قريش ويا أهل مكة ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم قال اذهبوا فأنتم الطلقاء . ثم جلس

---

(١) الروم : ٤٧

فى المسجد فقام إليه على بن أبى طالب ومفاتيح الكعبة فى يده فقال : يا رسول الله اجعل لنا الحجابة مع السقاية فقال : اليوم يوم بر ووفاء ودعا عثمان ابن طلحة وردها له وقال : خذوها يا بنى عبد الدار خالدة تالدة لا ينزعها منكم أحد إلا ظالم . ثم ذهب إلى بئر زمزم وطلب إلى العباس بن عبد المطلب أن يسقيه وقال : لولا أن تغلب بنو عبد المطلب لنزعت منها دلواً بيدى فنزع له العباس دلواً فشرب منه . ثم أخذ عليه الصلاة والسلام يهدم ما حول الكعبة من الأصنام وهو يتلو قوله تعالى « قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا[1] » ثم اجتمع الناس لبيعة رسول الله فجلس لهم على الصفا وعمر بن الخطاب أسفل منه فبايعوه على السمع والطاعة لرسوله فيما استطاعوا فلما فرغ رسول الله من بيعة الرجال اجتمع إليه نساء من قريش فيهن هند بنت عتبة امرأة أبى سفيان أم هاوية وكان النبى قد أهدر دمها لما صدر منها من التمثيل بالمسلمين فى يوم أحد وأكلها كبدة عمه فلما أقبلن عليه قال لهن رسول الله صلى الله عليه وسلم تبايعننى على أن لا تشركن بالله شيئا فتقدمت إليه هند غير هيابة ولا وجلة وقالت والله إنك لتأخذ علينا أمراً ما تأخذه على الرجال وسنؤتيكه . قال ولا تسرقن قالت والله إنى كنت أصيب من مال أبى سفيان الهنة والهنة وما أدرى أكان ذلك حلالا أم لا ؟ فقال أبو سفيان وكان شاهداً لما تقول — أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه فى حل . فقال رسول الله وإنك لهند بنت عتبه ؟ فقالت أنا هند بنت عتبة ؟ فاعف عما سلف عفا الله عنك قال ولا تزنين قالت يا رسول الله هل تزنى الحرة ؟ قال ولا تقتلن أولادكن قالت قد ربيناهم صغاراً وقتلتهم يوم بدر كبارا فأنت وهم أعلم (فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتى استغرب) ثم قال ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن قالت والله إتيان البهتان لقبيح ولبعض التجاوز أمثل قال ولا تعصيننى فى معروف قالت ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك فى معروف فقال رسول الله لعمر بايعهن واستغفر لهن الله . وكان رسول الله لا يصافح النساء ولا يمس امرأة ولا تمسه إلا امرأة أحلها الله له أو ذات محرم منه . إنما كان رسول الله يبايع النساء بالكلام ولما أسلمت هند عمدت إلى صنم كان فى بيتها وجعلت تضربه بالقدوم وتقول (كنا منك فى غرور) .

---

(١) الإسراء : ٨١

ثم نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع فى بيته صنما إلا كسره» فكسروا الأصنام التى كانت فى بيوتهم ثم بعث رسول الله البعوث لكسر الأصنام التى حول مكة والتى كان العرب يهدون لها كما كانوا يهدون للكعبة ويطوفون حولها وينذرون لها وينحرون عندها . فبعث فى يوم ٢٤ رمضان خالد بن الوليد فى ثلاثين فارساً من أصحابه لهدم صنم «العزى» وبعث على ابن أبى طالب فى ٢٥ رمضان على عشرين فارساً لهدم صنم «مناة» وبعث عمرو بن العاص فى سرية فى نفس الوقت لتحطيم صنم سواع على بعد ثلاثة أميال من مكة فلما انتهى إليه وجد عنده سادنه فقال ماذا تريد قال عمرو أمرنى رسول الله أن أهدمه فقال السادن إنك لا تقدر عليه فقال له ؟ قال تمنع فقال عمرو ويحك حتى الآن وأنت فى الباطل ثم دنا منه وكسره ثم قال للسادن كيف رأيت قال السادن أسلمت لله رب العالمين .

وهكذا طهرت أم القرى وما حولها من عبادة الأوثان واعتنق الجميع الإسلام وانضموا تحت لواء رسول الله لنشر دينه وإعزاز كلمته وحرب أعدائه وقد تخلوا عن جميع معتقداتهم الفاسدة وما وجدوا عليه آباءهم من عادات الجاهلية وتساوى الناس فى الحقوق وقضى على الفسق والفجور وحرم وأد الأولاد واستعباد النساء وأمن الناس على أرواحهم وأموالهم وشعروا بلذة النصر العزيز وصدق الله الكريم إذ يقول « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم [1] » .

هوازن وثقيف

لقد سر المسلمون بما نالهم من نصر عزيز بفتح مكة وحسبوا أن لكثرتهم دخلا فى نيله فجزعوا لأنهم لم يظفروا بشىء من الغنائم لقاء هذا النصر فقد حرم عليهم رسول الله القتل ونيل الغنائم ولذلك فإنه ما كاد رسول الله يظهر لهم رغبته فى غزو قبيلة هوازن حتى سروا بذلك وأعرب أهل مكة عن رغبتهم فى السير معهم . وهوازن هذه قبيلة كبيرة من العرب كانت تنزل حول وادى حنين قريباً من الطائف

---

(١) محمد : ٧

على بعد ثلاث ليال من مكة وقد اتصل بعلم الرسول أنها تستعد لمقاتلته وقد وفقت إلى إقناع قبيلة ثقيف الضاربة فى الطائف للاشتراك معها فى حربه واستعدت لذلك كل الاستعداد وقررت أن لا تتراجع عن حربه حتى تفنى عن آخرها . غير أن رسول الله لم يتسرع فى الأمر بل أرسل إليهم عبد الله بن أبى حَدْرَدْ الأسلمى ليقيم بينهم ويأتيه بأخبارهم فذهب وعاد إليه يخبره بأن القوم مصممون على حربه وقد أسندوا قيادتهم إلى شاب أهوج متطرف هو مالك بن عوف النصرى وقد اشترط عليهم أن يأتوا المعركة بجميع نسائهم وأولادهم وأموالهم ومواشيهم حتى لقد عارضه فى ذلك دريد بن الصمّة من كبار قوادهم وقال له ما حاجتك إلى النساء والأولاد والأموال فقال أريد أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله حتى يقاتل عنهم ويموت دونهم فقال وهل يرد المنهزم شيء ؟ أعدل عن هذا إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك فأبى أن ينتصح وزيف رايه ثم التفت إلى من حوله وقال يا معشر هوازن لتطيعنني أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى فقالوا أطعناك وقد سمع عبد الله بن أبى حدرد مالك بن عوف يقول لأصحابه أن محمداً لم يقاتل قوماً قط قبل هذه المرة وإنما كان يلقى قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب فيظهر عليهم فإذا كان السَّحَر فضعوا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم من ورائكم ثم اصطفوا ولتكن الحملة منكم واكسروا أغماد سيوفكم فتلقونه بعشرين ألف سيف واحملوا حملة رجل واحد واعلموا أن الغلبة لمن حمل أولا .

فلما علم رسول الله من عبد الله بن أبى حدرد هذا دعا عمر بن الخطاب وقص عليه ماسمع لأخذ رأيه فى الأمر فأشار عليه بضرورة الخروج لمقاتلته وعدم الاكتراث به فأخذ الرسول بنصيحته وكانت هوازن قد نفذت خطتها وانحازوا عن بكرة أبيهم إلى قمم الجبال المطلة على وادى حنين ومن خلفهم جميع نسائهم وأولادهم وجميع مايملكون . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة فى يوم السبت ٦ شوال سنة ٨ (فبراير سنة ٦٣٠) ومعه أهل مكة ركباناً ومشاة حتى النساء ومن لم يكمل إسلامه بالإضافة إلى من جاء معه من المدينة لفتح مكة وبلغ مجموع جيشه إذ ذاك اثنى عشر ألفاً يريدون هوازن وقد أعجبتهم كثرتهم حتى تحدث بعضهم إلى بعض يقولون لن نغلب اليوم عن قلة فكره ذلك رسول الله منهم ومروا بشجرة عظيمة خضراء كان

المشركون يأتونها كل سنة ليعلقوا أسلحتهم عليها التماسا للبركة يقال لها ذات أنواط فلما رآها بعضهم حن إلى تلك المعتقدات القديمة السابقة فتنادوا من جنبات الطريق يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال رسول الله : «الله أكبر قلتم والذى نفس محمد بيده كما قال قوم موسى لموسى : « اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال : إنكم قوم تجهلون »[1] إنها السنن لتركبن سنن من كان قبلكم » ومضى بهم رسول الله حتى دنوا من حنين وكان الليل قد أرخى سدوله فناموا دونه وعندما طلع الفجر أقبلوا على الوادى معتزين بكثرتهم غير آبهين بخصومهم والنبى صلى الله عليه وسلم فى مؤخرتهم على بغلته البيضاء على حين سار خالد بن الوليد على رأس بنى سُليم فى المقدمة وما أن عبروا جانباً من وادى حنين حتى انقض الأعداء عليهم انقضاض الصاعقة دفعة واحدة وفقاً للخطة المرسومة وأصلوهم وابلا من النبال وهم لايزالون فى عماية الفجر وساروا وراءهم يتعقبونهم وهنا أراد الله أن يؤاخذهم على ما بأنفسهم من غرور إذ قالوا : لن نغلب اليوم من قله فانهزموا شر هزيمة ورجعوا على أعقابهم لايلون على شىء وربما كان لتقدم كثير ممن لا خبرة لهم بالحرب وغالبهم من شبان مكة ولوجود بعض حديثى العهد بالإيمان فى صفوفهم ممن قالوا لرسول الله اجعل لنا ذات أنواط دخلٌ فى هذه الهزيمة التى سر بها أبو سفيان بن حرب ووصفها بقوله : سوف لاتنتهى هزيمتهم دون البحر . وقال شيبة بن عثمان بن أبى طلحة اليوم أدرك ثارى من محمد وكان أبوه قد قتل فى غزوة أحد وقال جبلة بن حنبل ألا يطل السحر اليوم ؟ وقد علم الرسول بكل هذا فلم يجزهم على ما قالوه بعد ذلك . فلما رأى رسول الله القوم على هذه الحالة أخذته عزة الإسلام وصار يهتف بأعلا صوته : أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب وقال لعمه العباس وكان جهورى الصوت نادى يا أصحاب البيعة يوم الحديبية فأجابه كل من سمعه لبيك لبيك وهرعوا إليه حتى أن الرجل منهم يحاول أن يثنى بعيره فلا يقدر على ذلك فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلى سبيله فيؤم الصوت حتى ينتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تجمع حوله النذر القليل فكر بهم رسول الله على القوم وكانوا بوسط الوادى فأعملوا فيهم السيف حتى اضطروهم إلى الفرار تاركين وراءهم نساءهم وأبناءهم وأموالهم

---

(١) الأعراف : ١٣٧

التى جاؤا بها ليدافعوا عنها فأراد الله أن تكون هدية للمسلمين وقدقدرت أموال الغنيمة إذ ذاك باثنى عشر ألفاً من الإبل وأربعين ألفاً من الشاء وأربعة آلاف أوقية من الفضة أما الأسرى فقد بلغوا ستة آلاف أرسلوا جميعاً إلى الجعرانة فى انتظار عودة الرسول ورأى رسول الله فى المعركة أطفالا من المشركين قد قتلوا فغضب ونهى عن قتلهم فقال له بعض الصحابة إنهم أبناء المشركين أعدائنا فقال ولو كانوا كذلك ومر الرسول صلى الله عليه وسلم بامرأة مقتولة فأرسل إلى خالد ينهاه أن يقتل امرأة أو عسيفاً أى أجيراً وسار جيش الرسول يتعقب الأعداء ويطاردهم فولى بعضهم شطر نخلة فذهبت فصيلة من الجيش فأدركوهم وانهزم الآخرون برئاسة قائدهم مالك بن عوف حتى بلغوا الطائف واحتموا فيها بالحصون وأغلقوها عليهم واستعدوا للقتال من جديد فسار إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل بوادى العقيق ورمى حصونهم بالمنجنيق وأشار عليه بعض الصحابة باستعمال الدبابة فى حربهم وهى آلة كانت تعمل من الجلود يدخل فيها الرجال فيدبون بها الأسوار لينقبوها فاستعملها ولكنها لم تنجح فى دك تلك الحصون ولما مضى على حصارهم بضع وعشرون ليلة وكان جيش النبى قد سئم المقام وأصبح يود الرجوع لاقتسام الغنيمة التى كسبوها من حنين والحصار يحتاج إلى أمد طويل لذلك رأى رسول الله أن يرفع الحصار وأن يعود إلى مكة وهو واثق بأن هذه القبائل سوف تجد نفسها مضطرة إلى التسليم لأنها لا تستطيع أن تعيش بمعزل ومقاطعة مع سائر القبائل المحيطة بها . ورجع رسول الله بمن معه من المسلمين إلى مكة وعرجوا بالجعرانة حيث حفظت الغنائم والأسرى وهنالك وزع الغنائم بعد أن استأنى بهوازن أن يقدموا عليه مسلمين بضع عشرة ليلة فخص المؤلفة قلوبهم ممن تبعه وآمن به أخيراً من أشراف قريش أمثال أبى سفيان بن حرب وأبنائه وغيرهم الشىء الكثير الذى لم يكونوا يحلمون به ولم يعط الأنصار من ذلك شيئاً حتى أنهم قالوا فى أنفسهم لقد حن الرجل إلى أهله فلما علم بذلك رسول الله جمعهم ثم قال لهم يا معشر الأنصار ما قالَةٌ بلغت عنكم وَجِدَةٌ وَجَدْتموها عَلَىّ فى أنفسكم ألم آتكم ضُلاَّلاً فهداكم الله وعالةً فأغناكم الله وأعداء فألف بين قلوبكم قالوا بلى الله ورسوله أَمَنُّ وأَفْضَل ثم قال ألا تجيبونى يا معشر الأنصار ؟ قالوا بماذا نجيبك يا رسول الله ولِرسوله المَنُّ

والفَضْلُ قال رسول الله أما والله لو شِئْتُم لقلتم فَلصدقتم وَلصُدِّقْتُمْ أَتَيْتَنَا مكذَّبا فصدَّقْناك ومخذولاً فنَصرْنَاك وطريداً فأويناك وعائلاً فأسيناك أَوَجَدْتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لُعَاعةٍ من الدُّنيا تَأَلَّفْتُ بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار . فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم وقالوا رضينا برسول الله قسْما وحظاً ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرقوا .

وما لبث رسول الله أن جاءه وفد هوازن وأعلنوا الإسلام وقدموا الطاعة ثم قالوا يا رسول الله إنَّا أَصلٌ وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك فامنن علينا من الله عليك وقام رجل من هوازن ثم أحد بنى سعد بن بكر يقال له زهير يكنى أبا صُرَد فقال يا رسول الله إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك ولو أنَّا مَلَحْنَا للحارث بن أبى شِمْر أو للنعمان بن المنذر ثم نزل منا بمثل الذى نزلت به رجونا عطفه وعائدته علينا وأنت خير المكفولين وكان من بين السبايا الشيماء أخت الرسول من الرضاعة فتقدمت إليه وعرفته بنفسها حتى عرفها فقام إليها وبسط لها رداءه وقال لها سلى تعطى واشفعى تشفعى فاستوهبت جميع السبى فوهبهم لها وقال إذا أحببت البقاء عندى مكرمة محببة وإن أحببت أن ترجعى إلى قومك . فاختارت الأخيرة فأعطاها نعما وشاء وغلاما وجارية ثم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم هوازن عن مالك بن عوف ما فعل فقالوا هو بالطائف مع ثقيف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبروا مالكا أنه إن أتانى مسلما رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل فأتى مالك بذلك فخرج من الطائف وقد كان مالك خاف ثقيفا على نفسه أن يعلموا أن رسول الله قال له ما قال فيحبسوه فأمر براحلته فهيئت له وأمر بفرس له فأتى به إلى الطائف فخرج ليلا على فرسه فركضه حتى أتى راحلته حيث أمر بها أن تحبس فركبها فلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم بالجعرانة أو بمكة فرد عليه أهله وماله وأعطاه مئة من الإبل وأسلم فحسن إسلامه فاستعمله رسول الله على من أسلم من قومه وتلك القبائل ثمالة وسلمه وفهم فكان يقاتل بهم ثقيفا لا يخرج لهم سرح

الاغار عليه حتى ضيق عليهم . ولما أن أتم الرسول توزيع الغنائم ورد السبايا أحرم وخرج إلى مكة معتمرا ولما فرغ منها قفل راجعا إلى المدينة واستخلف عَتَّاب بن أسيد أميراً على مكة وجعل له فى كل يوم درهما وترك معه معاذ بن جبل يفقه الناس فى أمر دينهم وظل مالك بن عوف يضيق الخناق على ثقيف حتى أنه صار لا يأمن لهم سرب ولا يتطرف رجل منهم إلا قتل فأيقنوا أن لا سبيل لهم للحياة إلا بتقديم الطاعة للرسول فأرسلوا إليه وفدا من قبلهم قوامه خمسة أشخاص يرأسه كبير لهم اسمه « عبد ياليل » فقدم المدينة المنورة فى رمضان سنة ٩ (ديسمبر ٦٣٠) بعد وقعة تبوك فأكرم النبى مثواهم وضرب لهم قبة خاصة فى ناحية المسجد وعرضوا على النبى موافقتهم على اعتناق الإسلام على أن يدع لهم صنمهم « اللات » ثلاث سنين لا يهدمه وأن يعفيهم من الصلاة فأبى عليهم رسول الله ذلك وبعد جدال طويل قبلوا اعتناق الإسلام وإقامة الصلوات على أن يعفيهم الرسول من كسر أصنامهم بأيديهم بل يرسل هو من يكسرها فرضى رسول الله بذلك وأمر عليهم عثمان بن العاص على حداثة سنه إذ ذاك وعاد معهم إلى الطائف لاستلام زمام الأمر فيها وأوصاه عند سفره قائلا « تجاوز فى الصلاة وقدر الناس بأضعفهم فإن فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة » ثم أرسل بعده أبا سفيان والمغيرة بن شعبة لهدم صنم « اللات » وهو من أكبر أصنامهم فهدمه المغيرة ونساء ثقيف حسرا يبكين ولا يجرؤ أحد أن يقترب منه ، وبهدم اللات وإسلام أهل الطائف تم إسلام الحجاز كلها .

ولقد امتن الله على عباده المؤمنين بما منحه لهم من نصر فى مواضع كثيرة مشيرا إلى ما أصابهم من غرور بالكثرة أدّى إلى هزيمتهم يوم حنين وكيف أنه تعالى نصرهم فى النهاية بسر ثبات النبى وبعد انحلال تلك الكثرة التى كانوا معجبين بها ومنخدعين بتأثيرها حيث قال : « لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذاب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين » .

---

(١) التوبة : ٢٦

التصدى لحرب الروم

عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة فى أواخر ذى القعدة سنة ثمان وقد فرض الله على المسلمين زكاة العشر وعلى من أصر من العرب على شركه الخراج فعمل على تنفيذ هذه الفريضة وجبايتها وظل يرسل الحملات التأديبية لكل من تراوده نفسه بالامتناع عن أدائها وظل كذلك سبعة أشهر طرأت له خلالها بعض أحداث ومشاكل داخلية كوفاة ابنته زينب ومولد ابراهيم وخلافه مع زوجاته كان خلالها رسول الله صلى الله عليه وسلم يعانى ألما نفسياً عظيما هو التفكير فيما أصاب المسلمين من أثر الانسحاب من مؤتة فى نفوس قريش والعرب .

والرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم وإن قدر لخالد بن الوليد حسن تدبيره وأصالة رأيه فى الانسحاب بجيشه أمام الكثرة الساحقة التى لم يكن يعلم بها عليه الصلاة والسلام من قبل ولكنه لم يغرب عن باله ما فى هذا الانسحاب من مس لكرامة الإسلام فى نظر أعدائه من الروم فلمح للمسلمين بضرورة محو هذا الأثر بقوله عن خالد وجيشه « بل هم الكرارون » .

وكأن ما تم له عليه الصلاة والصلام من نصر عزيز لم يكن فى نظره كافياً لمحو هذا الاثر من نفوس الناس فلا يكفى أن يسود سلطانه على جزيرة العرب فهذا أمر لا يهمه بقدر ما يهمه أن تكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين وهذه العزة قد خُدشت فى نظر الروم بتقهقر جيش المسلمين أمامهم ولعل هذا ما كان يشغل فكر الرسول ويقض مضجعه منذ عودته إلى المدينة برغم ما توصل إليه من فتح مكة والانتصار على ألد أعدائه من قريش فأعلن رغبته فى غزو الروم على خلاف عادته ليتصل خبره بالعالم أجمع ويتقدم الروم لقتاله إن كانوا قادرين . وقد كان من عادته إذا أراد أن يخرج إلى جهة لا يصرح بها بل يكنى بجهة غير التى يقصدها لحرصه على التكتم أما فى هذه المرة فإنه صرح بعزمه وأمر المسلمين أن يتهيئوا له لبعد الشقة والخطر الذى سيعرضون له وقد علموا بما أصاب الجيش فى مؤتة من قبل .

وكان الوقت غير ملائم لهذه الحملة فالناس فى عسر والطقس شديد الحرارة

والبلاد مجدبة وموسم الثمار مقبل ولعله أراد عليه الصلاة والسلام بهذه المناسبة أن يمتحن قلوب بعض أتباعه فقال للجد بن قيس أحد بنى سَلِمه يا جد هل لك من العلم فى جلاد بنى الأصفر . ؟ — يعنى الروم — فقال يا رسول الله أو تأذن لى ولا تفتنى فو الله لقد عرف قومى أنه ما من رجل بأشد عجباً بالنساء منى وأنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر أن لا أصبر . فأعرض عنه رسول الله وقال لقد أذنت لك فنزلت هذه الآية « ومنهم من يقول أئذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين »[1] أى إن خشى الفتنة من بنى الأصفر وليس ذلك به فما سقط فيه من الفتنة أكبر بتخلفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والرغبة بنفسه عن نفسه ويقول تعالى وإن جهنم لمن ورائه لكفره .

وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض : لا تنفروا فى الحر زهادة فى الجهاد وشكا فى الحق وارجافا برسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم « وقالوا : لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون »[2] .

وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أناساً من المنافقين يجتمعون فى بيت سويلم اليهودى يثبطون الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك فبعث إليهم النبى صلى الله عليه وسلم طلحة بن عبيد الله فى نفر من أصحابه وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ففعل طلحة .

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإتمام العدة وحض أهل الغنى على النفقة وما يلزم لتجهيز الجيش فتبارى المسلمون فى هذا السبيل مع شده العسرة ومن هنا سميت هذه الغزوة غزوة العسرة وأنفق عثمان بن عفان من ماله ألف دينار بعد أن حمل فى هذا الجيش على ألف بعير وسبعين فرساً وأقبل المجاهدون بكثرة فائقة حتى أن سبعة نفر جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلبون منه أن يحملهم إلى الميدان فاعتذر لهم بعدم وجود ما يحملهم عليه فرجعوا وهم يبكون لحرمانهم من السير ضمن هذه الحملة . ولما أن أتم الرسول استعداده سافر من المدينة فى رجب سنة ٩ (أكتوبر عام ٦٣٠) فى أربعين ألف مقاتل بعد أن

---

(١) التوبة : ٥١ . (٢) التوبة : ٨٢ .

تخلف من تخلف عنه من المنافقين وعلى رأسهم عبد الله بن أبى بن سلول ومضى أربعة عشر مرحلة من المدينة حتى بلغ تبوك وعسكر فيها وظل بها مدة يتحدى أعداءه بمنازلته ويدعو النصارى إلى الإسلام أو تقديم الطاعة فأتاه يوحنا بن رؤبه صاحب أَيْلَه أحد أمراء النصارى المقيمين على الحدود وقدم له الطاعة ورضى بدفع الجزية كما جاءه أيضاً أهل جَرْبَاء وأهل أَذْرُح من أعمال عمان بالبلقاء من أرض الشام وقدموا له الطاعة وأعطوا الجزية وكتب لهم رسول الله كتب أمن هـذا نص أحدها وهو ما كتب ليوحنا — « بسم الله الرحمن الرحيم » — هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا ابن رؤبة وأهل إيلة . سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه وأنه طيب لمن أخذه من الناس وأنه لا يحل أن يُمْنَعُوا ماء يَرِدُونَه ولا طريقاً يريدونه . من بر أو بحر — اهـ » .

ثم أرسل خالد بن الوليد فى ٤٢٠ فارساً إلى اكيدر بن عبد الملك النصرانى وهو رجل من كِنْدة ملك قيصر على دومة الجندل وقال اتنى به فلما بلغه وجده مع أخ له اسمه حسان فى خارج حصنه فأحاط به وأخذه أسيرا ولـكنه عاد فصالحه وأتى به إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقدم الطاعة وأدى الجزية وكتب له رسول الله كتاباً يؤمنه وقومه كما كتبه لمن قبله .

وبالرغم من كل هذا التحدى من رسول الله فإن هرقل لم يتحرك لحرب رسول الله ولم يبد أى اعتراض على تصرفاته فما وسعه إلا أن يقرر العودة من تبوك خصوصاً وأنه لم يكن يقصد الاعتداء على الروم فى أماكنهم بل كل همه من الأساس لم يكن إلا رفع الدنية عن المسلمين وإثبات العزة لهم وقد حصل على ذلك بما فرض على أتباع هرقل من الجزية وتحديه له بالاستعداد لحربه وبقاءه فى تبوك أكثر من نصف شهر ثم قفل راجعاً إلى المدينة عالى الرأس موفور الـكرامة وكانت هذه خاتمة المعارك الحربية فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعلى أثرها أخذت الوفود تترى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلنون الإسلام ويعتنقونه عن طيب نفس وهو مغتبط جدا لما أفاء الله عليه من أداء الرسالة ونشر الدعوة لله رب العالمين .

موقفه مع المخلفين

لقد سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك وهو ممتلىء غبطة وسرورا من تسابق أصحابه إلى إجابة دعوته وتنفيذ أوامره بالرغم عما كانوا فيه من عسر وضيق وحر شديد وما كانوا يتوقعونه أمامهم من قتال عنيف حتى جاء ضعفاؤهم وهم يبكون لعدم قدرتهم على السفر فى تلك الحملة ، الأمر الذى يدل على مبلغ تمكن الإيمان فى القلوب وانتزاع خوف الموت من النفوس وكان هذا من أهم غاياته ولكنه إلى جانب هذا كان متألماً من موقف ذلك النفر الذين تقاعسوا عن السير فى ركابه واقتبسوا له من الأعذار ما لا يصلح أن يكون عذراً وإنما يدل على تزلزل فى العقيدة ونفاق فى الدين ولذلك سميت هذه الغزوة بالفاضحة لافتضاح أمر المنافقين فيها وكان من ضمنهم وفى مقدمتهم عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين فلم يشأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعاتب أحدا منهم ولكنه خلف على بن أبى طالب بالمدينة فأرجف به المنافقون وقالوا ما خلفه إلا استثقالا له وتخففاً منه فلما قال ذلك المنافقون أخذ على ابن أبى طالب سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله وهو نازل بالجوف فقال يا نبى الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتنى لأنك استثقلتنى وتخففت منى فقال كذبوا ولكننى خلفتك لما تركت ورائى فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك أفلا ترضى يا على أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى فرجع على إلى المدينة ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على سفره حتى إذا ما بلغ « ذا أوان » على مسيرة ساعة من المدينة فإذا بجماعة من أهلها بنوا هنالك مسجدا زعموا أنه لذى العلة والحاجة والليلة المطرة وطلبوا أن يأتيه ويصلى لهم فيه فقال صلى الله عليه وسلم إنى على جناح سفر وإذا قدمنا إن شاء الله صلينا فيه ومضى فى طريقه ولما أن أتم الغاية التى سافر من أجلها وعاد من تبوك قرير العين مرتاح الضمير مما أداه من عمل محى به أثر تقهقر جيشه فى مؤتة أخبره الله بحقيقة ذلك المسجد والأسباب التى بنى من أجلها حيث قال تعالى « والذين اتخذو مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً

لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين[1] » فمضى عائدا إلى المدينة وما كاد يبلغ « ذى أوان » حتى وجد أصحاب المسجد فى انتظاره ولكنه بدلا من أن يلبى دعوتهم للصلاة بمسجدهم إذا هو يأمر بهدمه وحرقه فجمد أصحابه فى مكانهم فكان هذا نصرا من الله لرسوله حيث فضحهم عنده وجعلهم يشعرون بأن الله قد كشف له عن حقيقة نواياهم وما كانوا يبيتون فارتعدت فرائصهم وتواروا من الخوف واستمر الرسول فى سفره حتى بلغ المدينة فأقبل عليه أولئك النفر من المنافقين الذين اعتذروا عن السفر معه وهم يتعثرون من خجلهم ولكنهم بدلا من أن يعترفوا بذنبهم ويتوبوا منه أخذوا يخترعون الأعذار ويقسمون له على صحتها محاولين خديعته بتلك الأيمان الفاجرة حتى اضطر الرسول إلى قبولها لما جبل عليه من الرحمة والعطف غير أن الله تعالى لم يقبل ذلك لأن أيمانهم كانت بمثابة استهتار بالله وجحود منهم بأنه تعالى يعلم سرهم وجهرهم حيث قال تعالى « يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ، سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون ، يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين[2] » ولقد ظل القوم على نفاقهم والرسول صلى الله عليه وسلم يجاملهم ويتركهم إلى ضمائرهم علها توبخهم ليقلعوا عن نفاقهم ويصلحوا قلوبهم ويتوبوا إلى الله مما بدر منهم حتى إذا ما مرض رأسهم عبد الله ابن أبى بن سلول ذهب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاده فى مرضه ففرح به وطلب من الرسول أن يصلى عليه بعد موته ويقف على قبره وأن يعطيه قميصه ليكفن فيه فأرسل له الرسول القميص الأعلى فرده وطلب أن يعطيه القميص الذى بلى جسده عليه الصلاة والسلام فلم يضن به عليه وعارضه فى هذا عمر رضى الله عنه قائلا لا تعط قميصك لهذا النجس فأجابه عليه الصلاة والسلام إن قميصى لا يغنى عنه من الله شيئاً

---

(١) التوبة : ١١٠

(٢) التوبة : ٩٨

فلعل الله يدخل به ألفاً فى الإسلام وكان المنافقون لا يفارقونه فلما رأوه يطلب هذا القميص ويرجو أن ينتفع به ورأوا الرسول لايضن عليه به عليه أيضاً تاب كثير منهم من النفاق .

ولما مات فى ذى القعدة سنة ٩ جاء ابنه عبد الله وطلب إلى النبى صلى الله عليه وسلم أن يصلى عليه وكان على غير عقيدة أبيه بل إنه ممن حسن إسلامهم فوقف عمر وأبى على رسول الله أن يصلى عليه أيضاً وأخذ يعدد له مواقفه السيئة ضد الإسلام ويقول كيف تصلى على عدو الله ورسول الله يبتسم ثم قام فصلى عليه وروى عنه أنه قال لعمر لقد خيرت فاخترت حيث قال تعالى « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم »[1] فلو أنى أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له لزدت وبعد أن صلى عليه مشى معه وقام على قبره وما أن فرغ من ذلك حتى منع من ذلك حيث قال تعالى : « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون »[2] . وكان هذا قولا فصلا فى موقف المؤمنين الصادقين من المنافقين وبموته انهار ركن النفاق وصفت القلوب وآمن الجميع بأن الله لا يخفى عليه شىء مما تكنه القلوب وتخفيه السرائر .

هكذا كان موقف رسول الله مع المنافقين تغاض وتسامح وترقب الهداية والتوسل إليها بمختلف الوسائل . أما موقفه مع المؤمنين الصادقين فغير ذلك أنه موقف صراحة وتأديب وتطهير ، ذلك أن ثلاثة نفر من الصحابة المخلصين تشاغلوا عن السير مع رسول الله إلى تبوك بشئون خاصة دنيوية دون أن يعتذروا منه ولم يعلم بتخلفهم إلا فى أثناء سفره ولم يكن ذلك عن سوء نية أو ضعف فى الإيمان وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أميه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه لا تكلمن أحدا من هؤلاء الثلاثة فلما رجع رسول الله إلى المدينة امتنع المسلمون من محادثتهم فجاءوا إلى رسول الله فتبسم لهم ابتسامة الغضب ثم قال لكعب تعال فلما مثل بين يديه قال ماخلفك فقال « يا رسول الله والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر فقد أعطيت جدلا ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به

---

(١) التوبة : ٨٢

(٢) التوبة : ٨٦

عنى ليوشكن الله أن يسخطك على ولئن حدثتك حديث صدق تجد فيه على وإنى لأرجو عفو الله لا والله ما كان لى عذر والله ما كنت أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما هذا فقد صدق فيه فقم حتى يقضى الله فيك فقام وقام معه صاحباه مرارة بن الربيع وهلال بن أميه وقام خلفه رجال من بنى سَلِمه فقالوا له لقد عجزت أن تعتذر كما اعتذر به المخلفون ويكفيك استغفار رسول الله لك . فقال إنى أردت غفران الله وظل هو وصاحباه موضع ازدراء الناس ومقاطعتهم وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم من شدة الحزن على ما صدر منهم وهم يستغفرون الله حتى إذا مضى على ذلك خمسون ليلة أرسل الرسول فى طلبهم فلما مثل كعب بين يديه قال له أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك فقال كعب أغفران من عندك أم من عند الله قال الرسول بل من عند الله وتلى قوله تعالى : « لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم أنه بهم رءوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم »[1] فقال كعب إن توبتى إلى الله عز وجل أن انخلع من مالى صدقة لله ولرسوله فقال رسول الله أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك فقال كعب يا رسول الله إن الله قد أنجانى بالصدق وأن من توبتى إلى الله أن لا أحدث إلا صدقا ما حييت » ثم كان يقول بعد ذلك والله ما أعلم أحدا من الناس أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أفضل مما أبلانى الله . والله ما تعمدت كذبة منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومى هذا وإنى أرجو أن يحفظنى الله فيما بقى وليس ما ذكره الله من تخليفنا لتخلفنا عن الغزوة ولكن لتخليفه إيانا وإرجائه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منهم من دوننا .

(١) التوبة : ١٢٠

حدث خطير

لقد تم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما يريد من تكوين دولة إسلامية مهابة الجانب موفورة الكرامة ومن تطهير البيت الحرام من الأوثان التى كانت منصوبة بداخله وعلى جوانبه والتى من أجلها كان يؤمه الناس من مختلف الجهات ليأدوا شعائر العبادة لتلك الآلهة التى يشركونها مع الله ويزعمون أنها تقربهم إلى الله زلفى وهى موجودة وقائمة هنالك . فلما هدمها الرسول ونهى المؤمنين عن عبادة غير الله لم ينته غيرهم من ارتياد تلك الأماكن لإقامة طقوسهم المعتادة فيها ، وفى هذا ما فيه من التحدى لرسول الله ودينه الحق فالله جل وعلا عند ما اتخذ له فى تلك البقعة المشرفة بيتا يتجه إليه من أراد عبادته وجعله مثابة لقاصديه وأمنا عهد إلى إبراهيم واسماعيل أن يطهرا ما حوله للطائفين والعاكفين والركع السجود ثم جاء المشركون فأقاموا لهم فى ذلك البيت أصناما عبدوها من دونه وكان هذا منهم شركا ينافى التوحيد فإذا هدمت ذلك الأصنام فلا معنى لبقاء عبادتها من دون الله فى ذلك المكان .

ولما كانت رسالة النبى الكريم إنما تقوم على أساس محاربة الوثنية وعبادة الله وحده فليس من المعقول أن يقر الشرك بالله بأى صورة من الصور وفى أى جهة من الجهات التى يبسط عليها سلطانه . فكيف تهضم نفسه أن يرى المشركين يحجون إلى مكة ويقيمون طقوسهم على مرأى ومسمع منه وما هو السبيل إلى منعهم من ذلك وقد أخذ على نفسه عهدا عاما أن لا يصد عن البيت أحدا جاءه وأن لا يجعل أحدا يخاف فى الشهر الحرام كما كان بينه وبين بعض القبائل من العرب عهود خاصة إلى آجال مسماة .

وغير هذا فإنه عليه الصلاة والسلام إنما أرسل للناس كافة ومن أهم مبادىء شريعته حرية الرأى وعدم التعرض للناس بالأذى فى عقائدهم وشعورهم فكيف يكره الناس على الإيمان به وهو إلى جانب هذا أيضا مأمور أن ينفذ ما أمر به جده إبراهيم عليه السلام مؤسس الشريعة الإسلامية . من تطهير بيته من كل ما لا يصح أن يكون بجواره من الرجس الحسى كالأصنام وقد حصل وأزيلت والرجس المعنوى كعبادة غير الله وهذا ما يجب أن يكون بتخصيص مكة لمن آمن به تعالى من الطائفين والعاكفين والركع السجود وله كامل الحق فى هذا من عدة وجوه يتلخص ما تتصوره منها فيما يأتى .

١ — لأن عبادة غير الله أمام بيت الله وعلى مرأى ومسمع من المؤمنين الذين لا يدينون لغيره يعد تحدياً لهم وجرحاً لإحساسهم ومضايقة لحريتهم وربما كان هذا سبباً لتشكيك المسلمين فى دينهم وتذكيرهم بدين آبائهم .

٢ — لأن النبى صلى الله عليه وسلم بصفته رسولا من مالك السماء والأرض التى نعيش فيها من حقه أن يخصص منها ما يشاء لمن يريد وفيما يراه .

٣ — لأن النبى صلى الله عليه وسلم بوصفه رسولاً من الله رب العالمين للناس أجمعين من واجبه أن يدافع عن شعور من آمن به ويحمى عقائدهم ويتخذ ما يراه من الوسائل لهداية غيرهم إلى ما فيه مصلحتهم من سعادة الدين وخير الحياتين .

٤ — لأن النبى صلى الله عليه وسلم لكونه رسولاً من قبل الله المربى لعباده من واجبه أن يستعمل جميع وسائل التربية لتقويم اعوجاج الناس وإخضاعهم لأحكام ربهم والعمل وفق ما أنزل الله عليه فى كتابه الكريم .

٥ — لأن شريعة النبى صلى الله عليه وسلم لا تقتصر على مجرد الشرائع الدينية بل إنها مجموعة من الأحكام الإلهية التى تنافى ما كان عليه المشركون من عادات وتقاليد يجب القضاء عليها كوأد البنات وارتكاب الموبقات .

كل هذه أفكار يغلب على الظن أنها لم تَعْزُب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تكون هى التى حالت دونه ودون أداء فريضة الحج فى ذلك العام عام تسع وقد كان من عادة أهل الجاهلية أن الحج لا يقع فى ذى الحجة إلا فى كل ست وثلاثين سنة مرة واحدة وقد وافق ذلك العام أيام الحج من ذى الحجة فسماه الله الحج الأكبر فما وسع الرسول صلى الله عليه وسلم إلا أن يبعث أبا بكر أميراً من قبله على المسلمين يقيم للمسلمين حجهم فخرج أبو بكر ومن معه من المسلمين من المدينة فى آخر شهر ذى القعدة يبتغى الحج الأكبر وأسره أن يذيع على الناس ما يأتى : أيها الناس إنه لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان له عند الرسول عهد فهو لمدته وإذا الوحى يأتيه بما يسر خاطره ويهدئ باله ويجعله فى حل مما كان بينه وبين المشركين عامة أو خاصة بعد موعد محدد ويأمره تعالى بمنع المشركين من دخول الحرم بعد ذلك العام حيث أنزلت عليه آيات من أوائل سورة التوبة هذا نصها :

« براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا فى الأرض

أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين ، وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برئ من المشركين ، ورسولُه فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ، إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ، فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ، وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ، كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين ، كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا[1] ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون ، اشتروا بآيات الله ثمناً قليلا فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون ، لا يرقبون فى مؤمن إلاً ولا ذمة وأولئك هم المعتدون ، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون ، وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ، ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ، قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوماً مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجه[2] والله خبير بما تعملون ، ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون ، إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ، أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين ، الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم

---

(١) إلا : حلفاً وقيل قرابة هـ .

(٢) وليجة : بطانة يوالونهم ويفضون إليهم بأسرارهم هـ .

أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون ، يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ، خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم ، يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ، قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها[١] وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين ، لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ، ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم ، يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نَجَسٌ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عَيْلَةً[٢] فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم ، قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يَدٍ وهم صاغرون، وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ، إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق

---

(١) اكتسبتموها .

(٢) فقرا بسبب منعهم من الحرم وانقطاع ما كان لكم من قدومهم من المكاسب والأرزاق .

السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين ، إنما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ماحرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدى القوم الكافرين ، يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل ، إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولاتضروه شيئا والله على كل شيء قدير ، إلاتنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم ، انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » .

وعند ما نزلت هذه الآيات بادر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعا على ابن أبى طالب وأمره أن يخرج إلى مكة ويتلوها على الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى فخرج على بن أبى طالب على ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم القصواء حتى أدرك أبا بكر بالطريق ، فلما رآه أبو بكر قال أأمير أم مأمور قال بل مأمور ثم مضيا فأقام أبو بكر للناس الحج وبلغ الرسالة وأذن فى الناس علىٌ بما أمره رسول الله وتلا عليهم ما أمر به من سورة التوبة ورجع أبو بكر وعلى إلى المدينة ولم يحج بعد ذلك العام مشرك ولم يطف بالبيت عريان .

براءة من الله

قلنا إن النبي صلى الله عليه وسلم قد امتنع عن الحج فى عام تسع لأن المشركين لا يزالون يؤمون تلك الأماكن ويقيمون فيها طقوسهم الباطلة المنافية لما جاء به من عبادة الله وحده ولا يستطيع أن يمنعهم من ذلك لما هو مرتبط به معهم من العهود العامة والخاصة فأنزل الله عليه أوائل سورة التوبة فبادر بإرسال على بن أبى طالب إلى مكة وأمره أن يعلن ذلك على الناس فى يوم النحر ، ولما كان القرآن فى جملته بلاغا للناس من رب العالمين لعباده وكانت تلك الآيات من سورة التوبة على الخصوص إنما

أنزلت فاتحة لعهد جديد من الدعوة الإسلامية التى بدأت فى مكة بالوعظ والإرشاد ثلاثة عشر عاما ثم تطورت فى المدينة إلى تنفيذ أوامر الله بالحكم بين الناس والدفاع عن كيان تلك الدولة الإسلامية الناشئة ومعالجة الأمور بالسياسة واللين تارة والحزم تارة والشدة تارة أخرى .

ولما آن الأوان لنشر الدعوة العامة على البشر كافة بعث الرسول الكتب وبلغ الرسالة إلى الملوك والأمراء الذين هم زعماء الأمم وقادتها ودعاهم إلى الإسلام وأنذرهم عذاب الله ومن أنذر فقد أعذر فما بقى إلا أن يتبع القول بالفعل ويضع حداً لجهل الجاهلين وجحود الجاحدين ويعلن قدسية بيت ربه ويصد المشركين عنه ويعلى راية التوحيد ويضرب بيد من حديد على من يأبى الانضواء تحت ظلها فالناس كلهم عبيد الله الذى خلقهم وسواهم ومنحهم نعمة العقل ليهتدوا بهدايته وأرسل لهم الرسل للدلالة عليه وأنزل لهم القرآن دستورا عالمياً كاملا جامعا لكل ما هم فى حاجة إليه فمن واجبهم أن ينصاعوا جميعاً إليه وينقادوا طواعية له ومن شذ منهم عن ذلك طبّق عليه حكم الله ومن واجب كل مسلم يؤمن بالله ورسوله أن يتلو كتابه ويتبع أحكامه ويجاهد بنفسه وماله فى سبيل إعلاء كلمته وإقامة شرعه وحماية دينه .

لقد صدع رسول الله بتبليغ الرسالة وانتقل بالهجرة إلى المدينة لقيادة الأمة العربية وسياسة الدولة الإسلامية ، وجاء دور إخضاع العالم أجمع إلى عبادة الله رب العالمين . فأوحى الله إليه بأوائل سورة التوبة . فهو إذ يعلنها على الناس لا يقصد بها إخضاعهم إلى دينه الخاص أو النزول على حكمه وإنما يأمرهم باستعمال مواهبهم فى تبين الحقائق والاتصال بالله خالقهم . والرجوع إليه جل شأنه ليصلح أمرهم ويحسن أحوالهم ، هو لا يريد أن يستعبد الناس أو يملى عليهم سلطانه وإنما يريد أن يخلصهم من ربقة العبودية لغير الله من تلك الآلهة التى لا تنفع ولا تشفع ولا تغنى من الله شيئاً يريد أن يحررهم من تلك القيود التى فرضها عليهم كبراؤهم ليملوا عليهم إرادتهم وليجعلوهم خاضعين لسلطانهم ورحمتهم فى جميع الأحوال .

وهو إلى جانب هذا لا يريد إلا أن يغرس روح المحبة بين كافة البشر ويجعلهم جميعاً أخوة لا تفاضل بينهم ولا تحاسد ولا تباغض وفى سبيل هذه الغاية النبيلة لا حرج ولا تثريب إن هو عمد إلى الشدة فى إكراه الناس على الإسلام وهو الحق والفطرة

وإخضاعهم إلى اتباعه واتباع أوامر الله وهذا لم يكن عن اجتهاد منه صلى الله عليه وسلم ولكن بمقتضى أمر إلهى كلف إبلاغه إلى الناس أجمعين .

حقاً إن الناس أحرار والإسلام قد كفل حرية الفرد إلى أقصى درجات الحرية المعقولة حيث يقول عمر متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ولكن ليس معنى الحرية الشخصية أن يذهب الفرد فيعتدى على حقوق الغير ويجرح إحساس الآخرين بل لابد أن تكون تلك الحرية ضمن حدود قانون خاص وإلا انقلبت الحرية الشخصية إلى فوضى عامة تؤدى إلى إهلاك الناس بعضهم بعضاً ومن أجل هذا أنزل الله القرآن دستوراً عاماً للبشر وجعل من أوائل سورة التوبة مواد أساسية لرجوع الناس إلى الله وقواعد إجمالية يبنى عليها طرق التعامل بين المؤمنين الموحدين وغيرهم من المشركين لهذا فإن من الواجب دراسة هذه المواد دراسة واسعة . لنكون على بينة من أمر ربنا وما جاء من عنده فى هذا الخصوص وهذا يقتضينا شرح هذه الآيات الكريمة من سورة التوبة التى افتتحت ببراءة الله ورسوله من العهد الذى تم بين الرسول والمشركين لنكث المشركين فيه إلا أناساً قليلين فأمر المسلمون بنبذه إلى الناكثين وقد نظم ذلك بتشريع حكيم تتلخص مواده فيما يأتى :

١ — « فسيحوا فى الأرض » أيها المشركون « أربعة أشهر » هى شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم آمنين على أنفسكم لا يتعرض لكم المؤمنون خلالها بقتال ولا أذى وأنتم فى خلال هذه المدة بالخيار بين الدخول فى الإسلام أو التعرض للقتل والتنكيل إذا أنتم أصررتم على الشرك والعدوان .

٢ — « واعلموا أنكم غير معجزى الله » فأنتم لا تستطيعون أن تنفدوا من بين أرضه وسمائه وهو سبحانه القادر على إرغامكم على الخضوع لأوامره إذا أراد من غير حاجة إلى كبير عناء ولكنه ترك لكم حرية الاختيار لتحكموا عقولكم وتبدوا رأيكم فى ترجيح الدخول فى السلم أم إيثار القتال فى الدنيا ودخول النار فى الآخرة نتيجة للشرك بالله « وأن الله مخزى الكافرين » فى الدنيا والآخرة .

٣ — « وآذان » نداء بصوت جهورى يخترق الآذان بما ينبغى أن يعلم « من الله ورسوله إلى الناس » أجمعين فى « يوم الحج الأكبر » الذى اجتمع فيه الناس إذ ذاك على اختلاف عقائدهم وديانتهم ليعلم الجميع « أن الله برئ من المشركين ورسولُه »

أى من عهودهم وكل ما ينافى التوحيد من أعمالهم ومعتقداتهم وسائر الخرافات والعادات الجاهلية والضلال وغير ذلك « فإن تبتم » عن ذلك واعتنقتم دين الإسلام الذى جاء به آخر الرسل من عند الله « فهو خير لكم » فى الدنيا والآخرة لأن هداية الإسلام هى سبيل السعادة « وإن توليتم » وأعرضتم عن التوبة « فاعلموا أنكم غير معجزى الله » فهو القادر على أن يبتليكم بالمصائب ويحل بكم من النقم فى هذه الحياة الدنيا مالا قبل لكم به سواء بأيدى المسلمين أم بتسليط بعضكم على بعض وإيقاع بأسكم بينكم « وبشر » يا محمد أى توعد « الذين كفروا بعذاب أليم » سينالهم منه عما قريب . « إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحدا » من أعدائكم فهؤلاء لا سبيل لكم عليهم ولا حق لكم فى قتالهم ما داموا على عهدهم معكم « فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم » التى أعطيتموهم العهد عليها « إن الله يحب المتقين » الذين يراقبون الله فى المحافظة على العهد وعدم إخفار الذمم ومراعاة النظام والعدل التام .

٤ — « فإذا انسلخ الأشهر الحرم » الأربع التى تركتم لهم فيها حرية الاختيار ولم يدخلوا فى الإسلام عن عقيدة واقتناع عنادا واستمساكا بالباطل ولم يرضوا باخوتكم فيه فهم إذاً عاتون متمردون لاسبيل إلى إخضاعهم لأوامر خالقهم إلا عن طريق القوة وأنتم فى حل من دمائهم ويجب أن تنفذوا ما أمر الرسول بتوعدهم به من العذاب الأليم « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » سواء فى الحل أم الحرم « وخذوهم » أسرى إذا رأيتم ذلك « واحصروهم » اضربوا عليهم نطاقاً من الحصار حتى ينزلوا على حكم الله ورسوله «واقعدوا لهم كل مرصد» وتتبعوا جميع حركاتهم لئلا ينبسطوا فى البلاد واستعملوا كل الوسائل لإرغامهم على اتباع دين الله « فإن تابوا » عن الشرك وذلك بالنطق بالشهادتين « وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة » اللذين هما من أهم فرائض الإسلام « فخلوا سبيلهم » واتركوا لهم حريتهم بالكف عن القتال والحصار وغير ذلك « إن الله غفور » لما سبق من الشرك « رحيم » لا يؤاخذ الناس بما كسبوا متى تابوا إليه وأنابوا .

٥ — « وإن أحد من المشركين استجارك » طلب منك أن تؤمنه على نفسه حتى يأتى إليك ويفهم منك حقيقة ما تدعو إليه لعله يقتنع بدينك « فأجره » واسمح له بالحضور آمنا على حياته « حتى » يحضر و « ويسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » ليتدبر

فى أمره ويختار ما يراه ولا تحاول أن تفرض عليه الإسلام فرضا أو تستخلص منه الاعتراف تحت تأثير الضغط والخوف وهو فى بلادك « ذلك » الأمر بإجارة المستجير من المشركين وتبليغهم مأمنهم « بأنهم قوم لا يعلمون » لا يدرون ما هو الإيمان ومن حقهم أن يعلموا حقيقته ليعتنقوه عن عقيدة ويقين إذ لا يكفى فيه مجرد التقليد والمجاملة ، وبعد أن أتم الله سرد هذه الأحكام شرع فى ذكر الأسباب الموجبة لها فقال :

(ا) « كيف يكون للمشركين عهد عند الله » ؟ « وعند رسوله » ولا ينكثونه مع وغرة صدورهم ، ولا وازع يحفزهم على الوفاء بالعهود وقد كانوا على الدوام حرباً على بعضهم والمعاهدات التى بينهم إنما تحترم تبعاً للقوة والضعف وقلما يفى القوى للضعيف كما حصل من يهود المدينة ومن نقض بنى بكر ومن ناصرهم من أكابر قريش لعهد الحديبية « إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام » بعهد خاص لم ينقضوه « فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم » إذ لا يجوز أن يكون الغدر ونقض العهد من قبلكم « إن الله يحب المتقين » الذين يراقبون الله فى حفظ عهودهم .

(ب) « كيف يكون للمشركين » غير هؤلاء الذين جربتم وفاءهم عهد مشروع عند الله وهو سبحانه يعلم ما فى نفوسهم (و) الحال المعروف من أخلاقهم وأعمالهم أنهم « إن يظهروا عليكم » بقوتهم « لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة » ولا تأخذهم فيكم شفقة ولا رحمة إذ لا رابطة ولا علاقة بينكم تحملهم على حبكم والعطف عليكم وكل ماهنالك أنهم « يرضونكم بأفواههم » مجاملة وخداعاً فى حال ضعفهم « وتأبى قلوبهم » أن تخلص لكم الود أو تحفظ لكم أى عهد « ويقولون بألسنتهم » ما يجعلكم ترضون به عنهم « ما ليس فى قلوبهم » فهم إذ يعطون لكم العهود لم يقصدوا البر بها « وأكثرهم فاسقون » لا يتورعون عن ارتكاب الموبقات واستحلال المحرمات علناً فكيف ينتظر منهم أن يراقبوا الله فى أنفسهم حتى يفوا بعهودهم « اشتروا بآيات الله » الدالة على وجوب توحيده « ثمناً قليلاً » من متاع هذه الدنيا الفانية فما عند أغنى هؤلاء قليل بالإضافة إلى ما وعد الله به عباده المؤمنين « فصدوا » غيرهم « عن سبيله » ولم يراعوا ماله عليهم من فضل عظيم بخلقهم وتكوينهم وما منحهم من سائر النعم التى يتقلبون فيها ولا يشعرون بها فهذه الموجودات جميعها حتى هذه المخترعات التى يصنعونها بأيديهم وينعمون بها لم تخرج عن خلقه لأنه الخالق لسائر

المواد الأولية فيها . « إنهم ساء ما كانوا يعملون » لأنه كفر بالنعم وجحود للإحسان وهذا مالا يليق أن يصدر من ذى عقل رشيد ومن أجل هذا تراهم « لا يرقبون فى مؤمن إلاً ولا ذمة » إذ لا قرابة تقتضى الود ولا ذمة توجب الوفاء وذنب المؤمن فى نظرهم كونه مؤمناً يخالف ما هم عليه من ضلال وإذا كان هذا شأنهم مع المؤمنين فلا شك أنهم إن يظهروا عليكم بالغلبة والسلطان لا يرقبون فيكم إلّا ولا ذمة ولا يتحاشون عن ظلمكم واضطهادكم والفتك بكم « وأولئك هم المعتدون » على حدود الله الخارجون عن النظام العام وما دامت العلة فى اعتدائهم وتجاوزهم عليكم هى رسوخهم فى الشرك وكراهتهم للإيمان وأهله فلا سبيل إلى اتقاء أذاهم إلا بإرجاعهم عن كفرهم وإدماجهم فيكم وحملهم على الاعتقاد معكم بضرورة الإيمان بوحدانية الله وإخلاص العبادة له فى السر والجهر « فإن تابوا » إلى الله عن شركهم وآمنوا بوحدانية الله « وأقاموا الصلاة » التى تعبر عن تمام الطاعة والخضوع لله والتى من شأنها أن تردع النفوس عن الفحشاء والمنكر « وآتوا الزكاة » ابتغاء مرضاة الله لأربابها من ذوى الحاجة « فإخوانكم فى الدين » أى فصدور هذين الأمرين وهما إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة منهم دليل قائم على أنهم حقاً أصبحوا إخوة لكم لاتحادهم معكم فى الخضوع وإخلاص العبادة لله التى تعبر عنها الصلاة وفى رقة القلب والبر بالفقراء التى تعبر عنها الزكاة فيجب أمام هذا أن تبادلوهم الحب والإخلاص « ونفصل الآيات » ونوردها « لقوم يعلمون » ما وراء ذلك من حكم وغايات « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم » بالتوبة التى دخلوا بها فى الإسلام « وطعنوا فى دينكم » إما بالاعتراض على شىء من أحكام الله التى وردت فى القرآن أو بذم الرسول أو الطعن فى رسالته وما شاكل ذلك « فقاتلوا أئمة الكفر » قادة أهله وحملة لوائه « أنهم لا أيمان لهم » ولا حرمة لعهودهم التى أبرموها على عزيمة النكث فيها وخص رؤساءهم بالذكر إذ هم بلا شك المروجون لمثل هذه الدعايات السيئة ضد الإسلام أما غيرهم من السذج والعوام فلا رأى لهم وهم فى الغالب يندفعون وراء كل صائح « لعلهم ينتهون » من دسائسهم وتحريضاتهم وحذار أن توجهوا جام غضبكم على مجرد العوام والغوغاء ممن طعن فى دينكم وتتركوا القادة والعظماء الذين يعملون من وراء الستار إما خوفاً منهم أو لأنكم ما سمعتم منهم شيئاً مع أنهم رأس الفساد الذين يجب قتالهم « ألا تقاتلون

قوماً » هم زعماء المشركين وقد كان من شأنهم وشأن أمثالهم أنهم « نكثوا إيمانهم » التى حلفوها مع الرسول والمؤمنين على أن لايعاونوا عليهم فعاونوا بنى بكر على خزاعة إذ كان من طبعهم نكث العهود « وهموا بإخراج الرسول » حين تشاوروا بمكة بدار الندوة فى أمره وقيل هم اليهود هموا بإخراجه من المدينة « وهم بدءوكم » بالقتال « أول مرة » فى بدر إذ قالوا بعد العلم بنجاة العير التى كانوا قد خرجوا لإنقاذها لا ننصرف حتى نستأصل محمداً وأصحابه ونقيم فى بدر أياماً نشرب الخمر وتعزف على رءوسنا القيان وكذلك الحال فى أحد والخندق وغيرها فكل هذه الحروب لم تكن إلا بفعل القادة والزعماء وفى كلها كانوا هم البادئين فيها بقتال المؤمنين فما يمنعكم أن تعارضوهم وتصادموهم « أتخشونهم » أتتحاشون قتال القادة خشية منهم لأنهم ذوو شوكة وقوة «فالله أحق أن تخشوه» إذ هو مصدر جميع القوى وصاحب الشوكة والسلطة الذى لا يغلب « إن كنتم مؤمنين » حقاً بقدرته تعالى على كل شىء وأنه سبحانه وحده الذى يمنح النصر لمن يشاء من عباده ويدافع بقوته عمن يريد فلتكونوا أشجع الناس فى لقاء أعداء الله وأقدرهم على نصرة دين الحق « قاتلوهم يعذبهم الله » يذيقهم العذاب الذى قدره عليهم جزاء كفرهم « بأيديكم » أنتم وقد كانوا يهزؤن بكم ويستضعفونكم وينزلون بكم أشد الأذى والعذاب « ويخزهم » بذل الأسر أو القهر لمن لم يقتل « وينصركم عليهم » بإخضاعهم للإيمان الذى لم تقاتلوا إلا من أجله « ويشف صدور قوم مؤمنين » بعز الإسلام وما نالوه من نصر شامل هو غاية أمانيهم فى الحياة « ويذهب غيظ قلوبهم » لما كان من أولئك من غدر وظلم أبان سلطانهم وعظمتهم . « ويتوب الله على من يشاء » التوبة منهم «والله عليم» بهم من قبل «حكيم» فى ترك الاختيار لإرادتهم « أم حسبتم أن تتركوا » أى وثم أمر آخر يجب أن تتدبروا فيه وتحسبوا له حسابه ذلك أنه من يضمن لكم عدم عودتهم إلى قتالكم ونكث عهودهم والطعن فى دينكم وصد الناس عنه كما هو دأبهم منذ ظهور الإسلام فلا بد أن تقاتلوا وتجاهدوا (و) أنتم لا تزالون فى وضع « لما يعلم الله » لم يثبت له بعد من أعمالكم « الذين جاهدوا منكم » فى الله حق جهاده « ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة » أى دون أن يكون لهم بطانه أو صلة قوية بالمشركين أعداء الله ورسوله والمؤمنين وهذا ما يجب أن تتجرد نفوسكم منه فمن الحكمة قول من قال :

إذا والى صديقك من تعادى فقد عاداك وانقطع الكلام

« والله خبير بما تعملون » أى بجميع أعمالكم الظاهرة والخفية فلا يغيب عنه شىء من اتصالاتكم بأعدائه حتى ولو كانت عن حسن نية وهو أدرى بما ينشأ عن تلك الصلة من أضرار .

(ج) « ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله » أى أن السبب الثالث لعدم احترام عهود المشركين هو أنه ليس من حقهم وهم على الشرك أن يتجمعوا فى المساجد التى خصصت لعبادة الله فضلا عن المسجد الحرام حال كونهم « شاهدين على أنفسهم بالكفر » بإشراك غيره معه وتكذيب الرسول فهذا تناقض بين لا مبرر له « أولئك » الذين يعبدون غير الله « حبطت أعمالهم » التى لم تكن خالصة لوجه الله فلا يجب أن يكونوا منها « و » قد حكم عليهم من الله بأنهم « فى النار هم فيها خالدون » جزاء على كفرهم وشركهم « إنما » الذى ينبغى أن « يعمر مساجد الله » من اتصف بخمس صفات الأولى هم « من آمن بالله » ولم يشرك به شيئاً فهو فى حاجة لأن يكثر دعاءه فى مساجده حيث قال تعالى « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » الصفة الثانية « واليوم الآخر » أى الذى آمن بصحة البعث وأن هنالك حياة أخرى فهم أحق بعمارة المساجد طلبا للنجاة فى ذلك اليوم ، الصفة الثالثة « وإقام الصلاة » فى أوقاتها المتكررة فلا يجوز أن يضايقهم أحد ممن لا يقيمها الصفة الرابعة « وآتى الزكاة » لمستحقيها فهناك يتعرف بهم ويوصلها إليهم الصفة الخامسة . « ولم يخش إلا الله » باعتقاده أنه وحده النافع والضار ولذلك يخلص له الحب ويحصر فيه الرجاء فمن حقه أن يعتكف فى مساجده ويديم صلته الروحية به « فعسى أولئك » الجامعون لهذه الصفات الخمس « أن يكونوا من المهتدين » بهدى القرآن المتبعين لسنة سيد الأنام « أجعلتم سقاية الحاج » بالماء « وعمارة المسجد الحرام » بالحراسة والأعمال الظاهرة أسبابا تخول لكم حق الإقامة إلى جوار بيته « كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله » عن خلوص نية وصفاء سريرة وتوجه إلى الله وحده فهذا خطأ منكم فى التصور فهم « لا يستوون عند الله » فتلك أعمال اخترعتموها لتفاخروا بها الناس وهذه أعمال أمر الله بها ووعد بتقبلها « والله لا يهدى » إلى الحق « القوم الظالمين » لأنفسهم بعدم تطلبهم له أو بإعراضهم عن الإصغاء إليه

لعدم رغبتهم فيه . ثم بين ذلك بقوله تعالى « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله » بما تكبدوا ابتغاء مرضاة الله من آلام الهجرة والتضحية بالمال والنفس « وأولئك هم الفائزون » عند الله بالثواب ونيل الحسنى دونكم « يبشرهم ربهم » منذ الآن « برحمة منه ورضوان » فى الدنيا عن أعمالهم « وجنات » فى الآخرة « لهم فيها نعيم مقيم » دائم لا يتبدل « خالدين فيها أبدا » غير مهددين بالزوال « إن الله عنده » لأمثال هؤلاء « أجر عظيم » لا يصل إليه تصور الناس بعد فهناك فى الآخرة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . بل إن هنالك من الأجر المعنوى ما يكون أعظم لذة للنفس عقد العقلاء من جميع الأجور التى يتمتع بها الناس بأجسامهم ذلك هو شرف القرب والرضا من مالك الملك الله رب العالمين ففى ذلك من اللذة العظمى مالا يتصوره فى الناس إلا من حظى بعطف الملوك والأمراء فى هذه الحياة فما بالك برضا الخالق العظيم فى الدار الآخرة يوم لا مال ينفع ولا ولد يشفع إلا من أتى الله بقلب سليم .

وبعد أن انتهى التشريع الإلهى المشتمل على الأوامر الخاصة بعدم احترام عهد المشركين وضرورة إخضاعهم للإيمان وذكر الأسباب الموجبة لذلك أخذ يملى على المؤمنين من النصائح ما يضمن لهم باتباعها العزة والسلطان وهى تتلخص فيما يأتى .

١ — عدم الثقة بالمشركين مطلقا ولو كانوا من أقرب المقربين لهم حيث قال تعالى « يأيها الذين آمنوا » بالله ورسوله « لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم » وهم بلا شك من أحب الناس إليكم « أولياء » تستنصرون بهم وتعتمدون عليهم فى الشدائد « إن استحبوا الكفر على الإيمان » أى ما داموا يخالفونكم فى الدين لأن روابط الود الشخصية مهما كانت قوية فإنها لا تحمل الإنسان على تغيير مبدئه الذى يدين به ولا تسوغ له أن ينصر مخالفاً له فى العقيدة على نفسه التى يعتز بها — « ومن يتولهم منكم » ويستنصر بهم بعد هذه الحقيقة الثابتة « فأولئك هم الظالمون » لأنفسهم بركونهم إلى من لا ينبغى الركون إليه فقد ينصر الرجل أباه على أخيه ولكنه لا يمكن أن ينصر أحداً على نفسه .

٢ — تجريد القلب عن محبة غير الله ورسوله وإيثار وجوب طاعتهما على كل شىء حيث قال تعالى « قل » يا محمد لمن آمن بك وصدق برسالتك عن ربك إذا كنتم

قد عرفتم الله حقاً وأيقنتم أنه وحده الذى خلقكم ورزقكم فمن واجبكم أن تشعروا نحوه بحب صادق لا يدانى وتخلصوا فى طاعة أوامره إخلاصاً لايقف فى طريقه أى عائق وقد أمرنى ربى أن أبلغكم بأنه « إن كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره » فيكم جزاء على عدم تقديركم لآلائه وجحودكم لإحسانه « والله لا يهدى » إلى معرفة مزايا إيثار حبه وحب رسوله والجهاد فى سبيله عن كل شىء وما يترتب على ذلك من التآخى والتناصر وقوة الاتحاد « القوم الفاسقين » المتمردين عن قبول هداية الله المتجاوزين حدود الشريعة .

٣ — الثقة الكاملة بالله وترقب النصر من عنده دون أن يداخلكم شىء من الغرور بقوتكم حيث قال تعالى « لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة » أى اذكروا أن ولاية الله للمؤمنين أعظم بكثير من ولاية غيره من الأقربين وتأييده تعالى لرسوله وللمؤمنين بالقوى المعنوية أعظم شأناً وأضمن للنصر من القوى المادية كالكثرة العددية وما شاكلها فهو كتب لكم النصر فى مواقع لم تكونوا تؤملون النصر فيها « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم » التى هى أعظم من نصرة الآباء والإخوان والأبناء التى تعلقون عليها بعض الأمل فى النصر إذ قلتم لن نغلب اليوم عن قلة انخذلتم وتقهقرتم « فلم تغن عنكم » تلك الكثرة « شيئا » لانتصاركم ولم تفدكم ولم ينفعكم إذ ذاك مال ولا ولد « وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين » لا تلوون على شىء « ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » فلم يخافوا من عدوهم بل ثبتوا ثبوت الراسيات « وأنزل » الله « جنودا »[1] روحانية « لم تروها » ولكنكم وجدتم أثرها فى نيل النصر فى الموقعة ، الأمر الذى يصور لكم كيف يؤيد الله بنصره من يشاء من عباده المتبعين لهديه الواثقين بنصره المتوكلين عليه . « وعذب » الله « الذين كفروا » فى تلك المعركة بالقتل والأسر والسبى « وذلك جزاء الكافرين » بالله المعتمدين على محض قوتهم من دون الله وكان من رحمة الله تعالى بخلقه

---

(١) قيل كان عدد الملائكة الذين أرسلهم الله لتأييد رسوله ودعوته والمؤمنين خمسة آلاف أو ثمانية أو ستة عشر وما يعلم جنود ربك إلا هو ه .

أنه بعد أن أمر نبيه بأن ينذرهم بالتربص إذا هم لم يؤثروا محبته ومحبة رسوله والجهاد فى سبيله على كل شىء وبعد أن ذكرهم بما كان من نصره لهم عند اعتمادهم عليه وخذلانهم عندما اعتمدوا على الكثرة أخبر رسوله بأنه تعالى قد يتجاوز عما يكون من تفاوت فى درجات الحب والتضحية فى سبيل الله والثقة به فقال « ثم يتوب الله من بعد ذلك » الإنذار « على من يشاء » من عباده الذين قصر استعدادهم الفطرى عن بلوغ مستوى الكمال النفسى والطاعة التامة « والله غفور » لما يصدر من الذنوب « رحيم » بعباده الذين يرجون رحمته ويخافون عذابه .

٤ — إقصاء كل من لا يؤمن بالله عن بيته الحرام ولو كان فى هذا الإقصاء أضرار مادية حيث قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا » بالله « إنما المشركون نجس » فى عقائدهم الباطلة وعبادتهم الفاسدة شأنهم كشأن سائر النجاسات من حيث إنها تؤذى برائحتها من يجاورها ويخشى أن تلوثهم بجراثيمها « فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » أى فلا تمكنوهم من دخول أرض الحرم سواء للعبادة أو لسبب آخر كالتجارة التى تعود بعضهم أن يأتيكم بها « وإن خفتم عيلة » لقلة مواد المعيشة التى كانوا يصحبونها لكم معهم « فسوف يغنيكم الله » فى المستقبل « من فضله » الواسع « إن شاء » وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . فمن واجبكم أن تحصروا أملكم فيه واتكالكم عليه دون مجرد الكسب والأسباب الظاهرة « إن الله عليم » بما أنتم فى حاجة إليه « حكيم » فيما افترضه عليكم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام فلو لم تكن فى ذلك مصلحة لما أمر الله بذلك وهو القادر على أن يوفر رزقكم من طريق آخر .

٥ — عدم إكراه أهل الكتاب من اليهود والنصارى على الإيمان والاكتفاء منهم فى حالة الرفض بدفع الجزية للمؤمنين حيث قال تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله » أى إيماناً خالصاً من الشرك وعبادة غيره معه « ولا باليوم الآخر » الذى يبعث الله فيه الناس بشراً بأجسامهم كما كانوا لينالوا ثوابهم وعقابهم « ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله » فى شرعتهم أى لا يلتزمون العمل بكل ما جاء به رسلهم وما ثبت فى كتبهم فإن الله حرم عليهم الشحوم فأذابوها وباعوها وأكلوا أثمانها إلى غير ذلك من التحريف والتأويل وتقليد الأحبار والرهبان الذين اتخذوهم أربابا من دون الله . « ولا يدينون

دين الحق » الكامل الأخير الذى جاء به خاتم النبيين مبينا لما اختلفوا فيه من قبل «من الذين أوتوا الكتاب » الإلهى وهو ما يشمل التوراة والإنجيل والزبور وغيرها « حتى يعطى الجزية» وهى نوع من الخراج يضرب على الأشخاص مقابل حقن دمائهم وحمايتهم والدفاع عنهم من غير تكليفهم بالتجند للقتال فى صفوف المؤمنين مشتق من جزى دينه إذا قضاه « عن يد » أى قدرة وسعة فلا يظلمون ولا يرهقون فيها « وهم صاغرون » أى خاضعون لسيادتكم وحكمكم ، وسمى هؤلاء أهل الذمة وهم يتساوون فى العدل وكافة الحقوق التى تكون لهم بمقتضى ذمة الله ورسوله إلى أن يسلموا فترفع عنهم هذه الجزية ويصبحوا لهم مالنا وعليهم ما علينا يتساوون معنا فى الحقوق والواجبات أما الذين بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق يعترف به كل منهم باستقلال الآخر فيسمون أهل العهد والمعاهدين فهؤلاء يجب احترام عهودهم وتحرم خيانتهم سرا وجهرا حتى إن الله تعالى لم يبح لنا أن ننصر إخواننا المسلمين غير الخاضعين لحكمنا على المعاهدين من الكفار حيث قال تعالى : « وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » وإنما اكتفى من أهل الذمة بأخذ الجزية فى حال رفضهم الإسلام دون المشركين لأنهم أهل كتاب من الله لو رجعوا إليه قبل تحريفه وتبديله وتدبروه وتجردوا عن العصبية لآمنوا بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم أقرب إلى الإيمان وأدنى أن ينصاعوا إليه إذ هم يعترفون بوجود الله وإنما يخالفون المسلمين فى مسألتين اثنتين لا ثالث لهما لا يقرها عليهما دينهم من الأساس وقد وضحها الله فيما يأتى :

الأولى : زعمهم أن لله ولدا حيث قال تعالى « وقالت اليهود عزير ابن الله » « وقالت النصارى المسيح ابن الله » استنادا إلى أن المسيح كان يدعو الله بقوله « أبى » ويفسرون هذه الأبوة بأنه من طبيعته وأنه ابنه الوحيد الأزلى فهو جزء منه والإسلام لا يقر هذا بل يقول إن الله تعالى واحد أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد وإن عزيزا عبدالله وإن عيسى بن مريم عبدالله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه خلقه الله من غير أب كما خلق آدم من غير أبوين بمجرد أمره على غير سنته فى البشر التى تقتضى التناسل والتوالد من اجتماع ماء الرجل والمرأة وفى هذا يقول القرآن « إن مثل عيسى

عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون »[١] وأنه لم يخرج عن كونه من طبقة البشر كما قال تعالى « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام »[٢] والمسلمون واليهود والنصارى متفقون جميعاً على أن الله هو المتصرف فى العالم وهو خالقه ومدبره وهو الذى أرسل الرسل ليعرفوا الناس بما يرضيه ومالا يرضيه من الأعمال ومما لا جدال فيه أن المسيح عليه السلام لم يدع لنفسه الألوهية وأنه كان يعترف بوحدانية الله ورسالته عنه حيث يقول فى إنجيل يوحنا . وهذه الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيق وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته . ولم يدع المسيح الناس إلى عبادته وعبادة أمه قط ولم ينكر أحد أنه كان يدعو إلى عبادة الله والإخلاص له بصريح القول . فالقول بأن مخاطبة عيسى لله بلفظ « أبى » تقتضى أن يكون من طبيعة الآلهة أمر لا يقره المنطق الصحيح أمام الواقع وأمام ما اعترف به نفسه من وحدانية الله ورسالته عنه . ولا ينبغى أن يقف فى طريق الاتحاد مع المسلمين على الإيمان بوحدانية الله الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . وأنه تعالى لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، بل يجب اعتقاد بطلان تلك الدعوة الزائفة التى لا يسلم بها العقل السليم إذ لو كان المسيح ابنا لله من طبيعته الإلهية كما يزعمون لما انتابته أحوال المخلوقين « ذلك قولهم » الذى قالوه فى عزير والمسيح « بأفواههم » فلا يمكن لهم أن يتنصلوا منه وهو قول مجرد عن البرهان أشبه بالمهمل الذى يمر فى الأفواه « يضاهئون » به « قول الذين كفروا » بالله « من قبل » من مشركى العرب الذين قالوا إن الملائكة بنات الله « قاتلهم الله أنى يؤفكون » أى كيف يصرفون الناس عن حقيقة التوحيد والتنزيه للخالق الذى جاء به سائر الرسل إلى الباطل الذى لا برهان عليه .

الثانية : اعتقادهم أن لغير الله سلطاناً مع الله وهذا أمر لم يأت فى إنجيلهم أيضاً والإسلام ما جاء إلا ليحرر الناس من رق العبودية لغير الله . ممن لا يضر ولا ينفع ولا يشفع ولا يغنى من الله شيئاً والحرية هى أقصى أمانى الإنسان فى الحياة فلو تدبر اليهود والنصارى القرآن وعرفوا حقيقة الإسلام لما ترددوا لحظة واحدة فى نبذ تلك

---

(١) آل عمران : ٥٩ .

(٢) النور : ٧٥ .

الخرافات التى يمليها عليهم قساوستهم ورهبانهم مما لا يقبله العقل ولا يقره المنطق السليم وقد أشار الله إلى هذه النقطة بقوله تعالى : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً » يعظمونهم كتعظيمه ويحبونهم كحبه وينسبون إليهم من التصرفات ما لا يقدر عليه غير الله ويطيعونهم فى كل ما يأمرونهم به « من دون الله فإذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه وإذا أمروهم بدعاء غير الله استجابوا لهم وأطاعوهم عاقين قول الله تعالى : « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » (والمسيح بن مريم) بأن جعلوه ابناً لله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، ولما كانت الربوبية تستلزم الألوهية بالذات إذ الرب هو الذى يجب أن يعبد وحده قال تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً » لا يطيعون فى الدين سواه إذ هو وحده الذى يملك حق التحليل والتحريم « لا إله إلا هو سبحانه » ننزهه ونقدسه « عما يشركون » معه أو من دونه من الأنبياء والأحبار والرهبان « يريدون » أى النصارى واليهود « أن يطفئوا نور الله » حجته الدالة على دعوة التوحيد التى جاءت بها جميع الأنبياء والمرسلين من عند الله وعلى أنه ليس كمثله شىء لا ولد له ولا والد « بأفواههم » بما يتقولون من أقوال من شأنها أن تبعدهم عن الله وتصدهم عن سبيله « ويأبى الله إلا أن يتم نوره » ويظهره بوضوح ببعثة خاتم النبيين محمد إلى الخلق أجمعين الذى فضح أمرهم وفند أقوالهم وبين حقيقة ما دعا إليه من سبقه من المرسلين من وجوب إخلاص العبادة لله رب العالمين ونبه الأفكار وخاطب الوجدان وجاء بشريعة مدعمة بالدليل والبرهان تمنع الإنسان من الخضوع للإنسان فضلا عن الأصنام والأوثان وعبادات تزكى النفوس وتطهرها وتفك قيدها وتحررها وتجعلها تدرك ما لها وما عليها وتطبع فيها ملكات الفضائل وتسمو بها عن كل عرض زائل « ولو كره الكافرون » ذلك لأنه أظهر كذبهم وقضى على سلطة أحبارهم ورهبانهم وحرمهم من منح العفو والمغفرة التى كانوا يمنحونها لهم ويتقبلونها منهم بأفكارهم الضيقة . ثم قال تعالى « هو الذى أرسل رسوله » محمدا « بالهدى » وهو القرآن « ودين الحق » وهو الإسلام « ليظهره على الدين كله » جميع الأديان المخالفة له بنسخه إياها « ولو كره المشركون » ذلك « يأيها الذين آمنوا » هل علمتم لماذا يريد أولئك القوم أن يطفئوا نور الله بأفواههم « إن كثيرا من الأحبار والرهبان » كانوا يزعمون لأنفسهم سلطة روحية يتحكمون بمقتضاها فى رقاب البسطاء

ويوهمونهم أن فى استطاعتهم قبول الاعترافات بالذنوب ومنح الشفاعة لمن يريدون مقابل أموال يبتزونها منهم وأنهم لذلك « ليأكلون أموال الناس بالباطل » بطريق غير مشروع فهم لايملكون الغفران حتى يمنوا به عليهم ولا نفوذ لهم فى الآخرة حتى يستطيعوا أن يمنحوا جنة أو نارا وهم بعملهم هذا يسلكون مسلكا غير شريف « ويصدون عن سبيل الله » واتباع شريعة خاتم النبيين بما يدخلونه فى روع من صدقهم بأنهم قد كفوه ما أهمه من قبل الله بما أخذوه منه من مال « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » أى فى حين أن كنز الذهب والفضة فى ذاته وعدم إنفاقها فى سبيله جريمة يستحق مرتكبها شدة العذاب فما بالك بمن يجمعها بغير طريق مشروع وينفقها فى الصَّدِّ عن سبيل الله « يوم يحمى عليها » على تلك الأموال التى كثرت ولم تنفق فى أوجه الخير والأموال التى جمعت من حرام وأنفقت فى الصد عن سبيل الله من باب أولى « فى نار جهنم » التى أعدت للعذاب الأليم « فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » ويقال لهم « هذا » المال « ما كنزتم لأنفسكم » وانفردتم بمتاعه فى الدنيا قد حمى عليه اليوم وأعد لعذابكم « فذوقوا » وبال « ما كنتم تكنزون » .

٦ — المحافظة على ما سنه الله للشهور من أحكام وعدم تجاوز ذلك بتبديل أو تغيير فى أحكامه حيث قال « إن عدة الشهور » التى تتألف منها السنة القمرية « اثنا عشر شهراً » يبدأ كل شهر بمولد هلاله الذى يمكن العلم به بالرؤية البصرية للأميين والمتعلمين فى البدو والحضر على السواء « فى كتاب الله » الذى أثبت فيه نظام سير القمر وتقديره منازل ليعلم بذلك عدد السنين والحساب « يوم خلق السموات والأرض » فلا يمكن أن تختلف الأشهر ولا تتغير أسماؤها ومواعيدها وقضى ربك أن يكون « منها أربعة » ثلاثة منها سرد وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم وواحد فرد وهو رجب « حرم » أى حرم الله القتال فيها على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ونقلت العرب عنهما ذلك بالتواتر القولى والعملى « ذلك » أى تقسيمها إلى حرم وغير حرم وعدد الحرم منها « هو الدين القيم » الذى يدان الله به « فلا تظلموا فيهن » أى فى الأشهر الحرم « أنفسكم » بتغيير أو تبديل فى أحكامها أو بانتهاك حرمتها .

« وقاتلوا المشركين » الذين لا يعترفون بحرمتها « كافة » أى جميعا فى جميع أشهر العام الاثنى عشر « كما يقاتلونكم كافة » أى كما يقاتلونكم جميعا فيها مقابلة بالمثل « واعلموا أن الله مع المتقين » الذين يخافون عواقب الخروج عن أحكام الله « إنما النسىء » أى تأخير حرمة بعض الأشهر الحرم إلى غيرها مما كانت تفعله العرب فى الجاهلية إذا جاءهم شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرموا مكانه شهرا آخر « زيادة » وإمعان « فى الكفر » لأنه تحريم ما أحله الله وتحليل ما حرمه الله فهو كفر آخر ضموه إلى شركهم وأيضا قد علم القوم أنهم لو رتبوا حسابهم على السنة القمرية لوقع حجهم تارة فى الصيف وتارة فى الشتاء وفى هذا مشقة عليهم وإخلال بمصالحهم الدنيوية لأنه يؤدى إلى إحجام الناس عن زيارتهم بالتجارة إذا كان الحج فى موسم الصيف فعمدوا إلى اعتبار السنة الشمسية . ولما كانت السنة الشمسية زائدة على السنة القمرية بمقدار معين احتاجوا إلى الكبيسة وحصل لهم بذلك أمران — أحدهما — أنهم كانوا يجعلون بعض السنين ثلاثة عشر شهرا بسبب اجتماع تلك الزيادات — والثانى — أنه كان ينتقل الحج فى بعض الشهور القمرية إلى غيره فكان الحج يقع فى بعض السنين فى ذى الحجة وبعده فى المحرم وبعده فى صفر وهكذا فى الدور حتى ينتهى بعد نحو ست وثلاثين سنة مرة أخرى إلى ذى الحجة وترتب عليه أمران الزيادة فى عدة الشهور وتأخير الحرمة الحاصلة لشهر إلى شهر آخر وفى هذا ما فيه من الافتئات على الله والعدوان على حقوق الربوبية إذ هم بعملهم هذا شرعوا فى الدين بأهوائهم ما لم يأذن به الله .

وهو وحده الذى يملك حق التحليل والتحريم وتحديد أوقات العبادات وهم فى بنائهم العبادات على الحساب الشمسى قد راعوا مصالحهم الدنيوية ولم يلاحظوا ما فى مراعاة الحساب القمرى من حكمة إلهية هى أن تدور جميع الفصول على ثلاث الأشهر الحرم فتؤدى العبادات بهذا الدوران فى كل أجزاء السنة فمن صام رمضان فى ثلاثين سنة يكون قد صام فى كل أجزاء السنة وكذلك الحال فى تكرار الحج ويترتب على هذا أن يجد المؤمن لذة الصوم فى الشتاء ويصبر على آلامه فى الصيف وينال الحاج من أجره على تحمله آلام البرد فى حال الإحرام فى الشتاء كما ينال الأجر على الصبر على حرارة الشمس فى الصيف وسوف يقدر الله له الأجر فى العبادات

على قدر المشقة (يضل به) أى بالعمل الذى يصير به النسىء زيادة فى الكفر (الذين كفروا) تابعيهم والآخذين بأقوالهم « يحلونه عاما ويحرمونه عاما » أى يجعلهم يتلاعبون فى مواعيد تحليل القتال وتحريمه بحسب تقديرهم « ليواطئوا عدة ماحرم الله » أى حتى يجعلوا عدد الأشهر الحرم أربعة مطابقة لما كان عليه الحال فى عهد إبراهيم « زين لهم سوء أعمالهم » هذه حيث ظنوها صوابا وحكمة « والله » من شأنه تعالى وأحكامه « لا يهدى » إلى الحق والخير الصحيح « القوم الكافرين » به ممن لا يستلهمون الهدى منه متأثرين بآرائهم متبعين شهواتهم .

٧ — التهيؤ للقتال دائما والاستعداد فى كل وقت لإجابة داعى الله وقد علم الله أن بعضهم فى غزوة تبوك كان غير ميال فى سيره إلى القتال متباطئا فى السير فأراد الله جل وعلا أن ينتزع من قلوبهم ذلك وأمرهم بعدم التردد لحظة فى إجابة الأمر حيث قال « يأيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض » أى اعلموا أنى لا أرضى بذلك منكم « أرضيتم بالحياة الدنيا » ولذتها الفانية الناقصة « من الآخرة » بدلا من سعادتها الكاملة الدائمة « فما متاع الحياة الدنيا » الذى تعجبون به « فى الآخرة إلا قليل » لا يرضى به عاقل يؤمن بالله واليوم الآخر وقد شبه رسول الله نعيم الدنيا بالإضافة إلى نعيم الآخرة فى قلته فى نفسه وزمنه بمن وضع أصبعه فى اليم ثم أخرجها منه وقال : فانظر بم ترجع : « إلا تنفروا » إذا دعاكم داعى الله إلى الجهاد فى سبيله « يعذبكم » الله « عذاباً أليماً » فى الآخرة وفى الدنيا حيث يجعلكم ضعفاء أذلاء مستعبدين لحكام مستبدين أو شعوب مستعمرين « ويستبدل » بكم « قوماً غيركم » خيراً منكم « ولا تضروه شيئاً » بتثاقلكم عن طاعته ونصرة دينه لأن الذى سيكوى بنار الذل إنما هو أنتم أما دينه فهو قادر على تأييده ونشره بمختلف الوسائل « والله على كل شىء قدير » فلا يعجزه أن يرسل عليكم من الوباء ما يقضى به عليكم عن آخركم متى أراد . « إلا تنصروه » أى الرسول الذى استنفركم فى سبيله « فقد نصره الله » كتب له تعالى النصر « إذ أخرجه الذين كفروا » تسببوا فى خروجه من مكة وألجؤه إليه لما بيتوا فى دار الندوة قتله أو حبسه أو نفيه فأذن الله له بالهجرة فهاجروا ولم يكن معه غير صديقه أبى بكر وكان هو « ثانى اثنين إذ هما فى الغار » ولم يكن معه شىء من الرجال والعتاد « إذ يقول » من عظم ثقته بربه وبنصره له « لصاحبه »

الذى هو ثانيه وهو أبو بكر حين رأى منه شيئاً من الخوف والفزع والقلق « لا تحزن أن الله معنا » بنصره ومعونته وتأييده وحفظه ومن كان الله معه بنصرته التى لا تغلب وقوته التى لا تقهر فما يكون له أن يستسلم للحزن والقلق « فأنزل الله سكينته عليه » أى على صاحبه أبى بكر الذى كان قلقاً « وأيده » أى الرسول فى كل موضع « بجنود لم تروها » أى بقوة غيبية غير ظاهرة لكم « وجعل » الله « كلمة الذين كفروا » التى اجتمعوا عليها واعتقدوا بضرورة تنفيذها « السفلى » الحقيرة التى لا قيمة لها « وكلمة الله » التى يريدها ويأمر بها « هى العليا » التى يجب أن تكون « والله عزيز » ذو سلطان واسع « حكيم » ذو تدبير عظيم .

٨ — إجابة داعى الله إلى الجهاد فى سبيله بالنفس والمال حيث قال تعالى «انفروا» عندما يعلن النفير العام « خفافا وثقالا » أى سواء كنتم على الصفة التى يخف عليكم الجهاد أو على الصفة التى يثقل عليكم الجهاد من الأسباب الشخصية والموانع فلا عذر لمن خف أو ثقل اللهم إلا أمراً قاهراً من الله كالمرض « وجاهدوا » أعداءكم الذين يقاتلونكم فى سبيل الطاغوت « بأموالكم وأنفسكم » عند القدرة عليها ومن قدر على أحدهما دون الآخر أوجب الله عليه ما كان فى قدرته منها « فى سبيل » غاية مشتركة هى إعلاء كلمة « الله » ونصر دينه وإقامة شرعه والعمل لما يرضيه « ذلكم » الاستجابة لما أمرتم به من النفر والجهاد « خير لكم » فى الدنيا والآخرة أما فى الدنيا فلأن ذلك مما يرهب أعداءكم ويحملهم على احترامكم ويجعلكم موضع المهابة والعزة فى جميع الأوقات وأما فى الآخرة فلأنكم نفذتم أوامر الله وأهلتم أنفسكم لنيل العزة التى كتبها الله لكم أو التى يريدكم أن تتلبسوا بها « إن كنتم تعلمون » حقائق الأمور وأن الله لا يفرض عليكم أمراً إلا إذا كان فيه خيركم وسعادتكم . والله سبحانه وتعالى أعلم .

تعليق على براءة

لئن كانت معاهدة الحديبية فتحاً مبيناً سياسياً من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم فإن ما أوحى به تعالى إليه من سورة براءة لينذر به المشركين يوم الحج الأكبر ليعد فضلا عظيما منه على عبده إذ وضع له الأسس التى يجب أن تقوم عليها دولته وتصان بها شريعته وتعلو فى الخافقين دعوته وتسود بين الأمم أمته . فالله سبحانه وتعالى

الخالق للسموات والأرض وما فيهن والمالك لجميع العوالم المنظورة وغير المنظورة قد أراد بالناس خيراً فاختار من بينهم رسلا يدلونهم عليه ويحببونهم فيه ويدعونهم لطاعته لينالوا حسن رضائه وعظيم ثوابه وكان آخر أولئك الرسل محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم الذى جاء بالحق بشيراً ونذيراً وأرسل لعباد الله أجمعين .

وكانت مهمة هذا الرسول متجهة إلى دعوة الناس إلى معرفة الله والاعتراف بوحدانيته والتصديق برسالته عنه للعمل بما يدعوهم إليه من طاعته وفق دستور خاص أوحى به إليه رب العزة وهو « القرآن » نظام كامل وضعه الله على وفق ما يعلمه أزلا من أحوال خلقه بما يصلح شئونهم ويضمن سعادتهم وهناءهم فى هذه الحياة الدنيا وفى الآخرة التى عميت عليهم أخبارها وهو تعالى أعلم بها وبما أعده فيها من نعيم مقيم للطائعين وعذاب أليم للمكذبين .

ولقد كان حجر الزاوية فيما يدعو إليه الرسول هو العقيدة بوجود الله والإيمان الكامل بما جاء من عنده عن طريق رسله من أمور محسوسة وغير محسوسة وأحكام واضحة الغاية أو غير واضحة ومن أجل هذا عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على تثبيت العقيدة فى قلوب كل من آمن به بمختلف الوسائل حتى أشربت بها نفوسهم واختلطت بدمائهم وأصبحوا ولا قوة فى العالم تستطيع أن تزحزحهم عنها .

لقد آمن المؤمنون بوجود الله فاتجهوا إليه وأدركوا مبلغ فضله وكرمه عليهم فأحبوه وصدقوا برسالة رسوله فاتبعوه ووجدوا الخير فى تعاليمه فرغبوا أن يعم الناس أجمعين والإسلام عقيدة ثابتة فى قلوب المؤمنين بأنهم على حق وأنهم قد اكتشفوا العلاج الوحيد لصلاح العالم وتنقيته من الشرور والآثام والسمو به إلى أرقى درجات الكمال فلابد لهم من أن يتمسكوا بهذه العقيدة وأن يدافعوا عنها وأن يعملوا على نشرها لا لمصلحتهم الشخصية بل ليعم النور وتسود الفضيلة ويعيش الناس فى هناء دائم وتمهيداً لذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يذيع على الناس ما يأتى :

١ — « لا يدخل الجنة كافر » ومعنى هذا أن يعلم الجميع أن رضاء الله لا ينال بعد اليوم إلا باتباع دين الإسلام فمن أراد أن ينال رضاءه الذى هو وسيلة لدخول الجنة فعليه باتباع رسوله محمد بن عبد الله .

٢ — « لا يحج بعد العام مشرك » ومعنى هذا أن مكة قد خلصت من الأوثان وخصصت للمؤمنين فيجب أن لا يدنو منها كل من يعبد غير الله .

٣ — « لا يطوف بالبيت عريان » ومعنى هذا القضاء على عادات الجاهلية وأن الفضيلة هى التى يجب أن تسود بعد اليوم فى تلك البقعة المقدسة .

٤ — « من كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلى مدته » ومعنى هذا أنه لا هوادة فى دين الله وإنما تحترم العهود إلى مدتها .

وأيد الله رسوله على هذه الأسس بإنزال سورة براءة فسارع بانتداب على لإعلانها على الناس أجمعين . ففيها يأمر الله عباده المؤمنين بأن يدافعوا عن عقيدتهم التى تقوم عليها دولتهم بكل ما أوتوا من قوة وأن يقاتلوا كل من يقف فى وجه تلك العقيدة بتزييفها أو الطعن فيها أو محاربتها من أولئك المشركين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر حتى يخضعوا للإسلام ويعتنقوا مبادئه ولا يقبل منهم غير ذلك لعدة أسباب نلخص منها ما يأتى :

١ — لأن الشرك الذى كان عليه الناس عند قيام رسول الله بالدعوة إلى الله كان يعبر عن منتهى الجهل والضلال ويتنافى مع كرامة الإنسانية وشرفها فلا ينبغى أن يترك أنصاره وشأنهم يعبدون من دون الله أحجاراً لا تعقل ولا تعى ولا تضر ولا تنفع .

٢ — لأنه كان إلى جانب الشرك مجموعة من العادات والتقاليد التى تنفر منها الإنسانية وتأباها النفوس وتقشعر منها الأبدان كالظهور أمام الناس عراة فى الطواف بالبيت وكوأد البنات وهضم حقوق المرأة ومساواتها بسقط المتاع وانتشار الموبقات والاستخفاف بالأرواح والاعتداء على الحريات وأكل الأموال بالباطل والغرور بالنفس والقبائل إلى غير ذلك من الأمور التى يجب على كل عاقل أن يحاربها ويزيل أثرها من الوجود .

٣ — لأن معارضة هؤلاء للإسلام إنما هى موجهة إلى جوهر العقيدة التى هى أغلى شىء عند المؤمن .

٤ — لأن وجودهم خطر يهدد الإسلام بفتنة الناس فيه وثورتهم عليه فى يوم من الأيام .

٥ — لأن الله تعالى العليم بالسرائر قد أخبر نبيه فى القرآن بأنهم قوم لا عهد لهم ولا ميثاق وأنهم لا يرقبون فى مؤمن إلا ولاذمة وقد بدا ذلك منهم فعلا فى معاملتهم للمؤمنين من قبل مرارا .

أما غير هؤلاء من أهل الكتاب الذين آمنوا بالله وكتبه المنزلة على موسى وعيسى ولم يعترفوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وأبوا أن يتقبلوا هداية الإسلام وما جاء به من تصحيح لما أدخل على كتبهم من تحريف وتبديل فقد أوجب الله قتالهم حتى يعترفوا بالإسلام ديناً من عند الله وعندئذ يسمح لهم بالإقامة بين المسلمين فى ديار الإسلام لأنهم أقرب للإسلام من غيرهم على أن يدفعوا للدولة الإسلامية الجزية المستطاعة لقاء إعفائهم من تكاليف الجهاد معهم فى سبيل الله . وقد أنزل الله تعالى فى شأنهم وفى مراعاة البر بهم والقسط معهم ومع أمثالهم من الكفار الذين لم يتعرضوا للإسلام بحرب ولا للمسلمين بأذى . قوله تعالى « عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم ، لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون[1] » .

وقفل الله باب الحرم فى وجوه كلا الفريقين احتراما لشعور المؤمنين وصيانة لهم من أذى تلك العقائد الفاسدة والعبادات المنكرة والعادات المستقبحة . فكانت تلك الآيات من براءة ثورة على المبادئ الهدامة والظلم والفساد وستاراً حديدياً وضع دون تسرب الفحش والضلال إلى أشرف البقاع فكان له أثره المحمود فى صدر الإسلام .

ولم يكد يذاع ذلك المنشور الإلهى على الناس حتى امتنع المشركون والكفار من ارتياد تلك البقعة الطاهرة من تلقاء أنفسهم ومن غير حاجة إلى صدهم عنها بالقوة وانتشر الخبر فى الآفاق فأقبلت الوفود على رسول الله من كل حدب يعلنون دخولهم فى الإسلام ويطلبون من يفقههم فى دين الله ومن بين أولئك وفود من المشركين ووفود من أهل الكتاب فلا يجدون من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا مايزيدهم

---

(١) الممتحنة : ٧ — ٩ .

إيماناً تاماً بالله وتصديقا برسالته . وقد أقر الرسول كل من جاءه من الأمراء فى إمارته على قومه ، وقد سمى ذلك العام عام الوفود لتهافتهم على الدخول فى دين الإسلام . وأوفد رسول الله معاذ بن جبل إلى أهل اليمن ليعلمهم الدين ويفقههم فيه وكانت وصيته له قوله عليه الصلاة والسلام : (يسر ولا تعسر ، بشر ولا تنفر ، وإنك ستقدم على قوم يسألونك مفتاح الجنة فقل شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له) .

كما أوفد عليه الصلاة والسلام خالد بن الوليد إلى قبائل نجران وهى مقاطعة من اليمن يدعوها إلى الإسلام فلما بلغهم دعاهم إلى الإسلام فأسلموا وبعثوا وفداً إلى رسول الله يعلنون إسلامهم وهكذا انتشر الإسلام فى جزيرة العرب وخضع المشركون للدين الحق من غير إراقة دماء دون أن يجد الرسول حاجة إلى تنفيذ ما توعدهم به من القتال فى سورة براءة . على أنه لو امتشق رسول الله الحسام وتعقب المشركين الضالين فى كل مكان يدعوهم إلى إطاعة أوامر الله خالقهم لم يكن فى ذلك أى عدوان فالناس كلهم عبيد الله وهذا القرآن إنما أنزل من عنده تعالى لجميع البشر فمن واجبهم الانقياد إليه ومن واجبه التنكيل بكل متمرد لا يخضع لأحكامه .

هذا هو العدل وهذا هو المنطق الصحيح ولا اعتراض على هذا فالأديان التى سبقت لم تأت بمثل هذا الحكم والرسل السابقون إنما جاء والشعوبهم فقط ولم يؤمروا من قبل الله بتعميم الدعوة إلى الناس كافة بخلاف دين الإسلام فقد جاء به خاتم الرسل للناس كافة وأمر باتباع ما جاء فى أول براءة فلم يتعد الرسول ذلك ولم يحاول قط أن يكره الناس على أن يكونوا مؤمنين .

ومن الغريب أن نسمع فى عصرنا هذا من يتهم الإسلام بالتعصب الأعمى ومصادرة الحرية الشخصية ويتخذ من هذه الآيات دليلا على القسوة وأنه فرض على الناس بالقوة . وهو كما قدمنا بعيد عن ذلك كل البعد إذ التعصب الذى عليه المسلمون ما هو إلا تعصب ذاتى فى العقيدة لما يرونه حقاً لا شك فيه ولا شر منه كالدين والفضائل الإنسانية ورغبة صادقة فى هداية الناس إليه بالحكمة والموعظة الحسنة وليس معنى هذا أن المسلم يكره غير المسلم لأنه على غير دينه بل إنه يرجو له الهداية ويتخذ كل الوسائل لإنارة طريقه فى الحياة لما يقربه إلى ربه وينفعه فى حياته الدنيا والآخرة وهذه سيرة الرسول كلها ناطقة بأنه عليه الصلاة والسلام لم يهاجم قوماً فى ديارهم بسلاحه لدعوتهم

إلى الإسلام بل إنه فرق فى المعاملة بين المشرك الذى لا يعترف بوجود الله خالق الأرض والسماء وبين الكافر من أهل الكتاب الذى يزعم أنه يؤمن بالله ويحمد فى اعتقاده عندما اتصل بعلمه من أحكام دينه عن طرق أولئك الذين نقلوه إليه بعد مئات السنين محرفا مشوشا وقد بدلوا فيه وغيروا وأدخلوا فيه ما ليس منه . وعندما جاءهم الرسول محمد من عند الله مصححاً لما ورد فى كتبهم وهادياً إلى الحق أعرضوا عنه وسدوا آذانهم عن سماع ما جاء به ولذلك سماهم كفاراً أى جاحدين معاندين لأنهم لا يبحثون عن الدليل فيما قدم إليهم ولا يذعنون للحجة إذا قامت عليهم مندفعين إلى هذا بمجرد التمسك بما كان عليه آباؤهم وتقليدهم فى ذلك تقليداً أعمى وحسبهم فى ذلك أن يقولوا إنا نؤمن بالله كما تؤمنون ونوحده كما توحدون ونصلى كما تصلون وكل ما هنالك أنا نقدس عيسى وأمه ونتخذهما شفعاء لنا لديه ونعظم أولياءه من رجال الدين ونتوسل إليهم ليتوسلوا إليه . وقد أمر الله رسوله أن يخاطب هؤلاء بقوله : « قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد » أى أن الإله الذى تزعمون أنكم تعبدونه ليس هو الذى أعبده لأنكم إنما تعبدون إلهاً له ولد وله شفعاء وأنا أعبد إلهاً منزهاً عن ذلك « ولا أنتم عابدون ما أعبد » أى ولستم بعابدين إلهى الحاكم العادل الذى لا يتقرب إليه إلا بإخلاص التوحيد والعمل الصالح أما إلهكم الذى تعبدونه فإنكم تعتقدون أنه يحابى ويجامل ويقبل فى حكمه الوسائط التى تتقربون إليه بتعظيمها « ولا أنا عابد ما عبدتم » أى وليست عبادتى كعبادتكم « ولا أنتم عابدون ما أعبد » أى لا عبادتكم كعبادتى فعبادتى خالصة لله وحده وعبادتكم مشوبة بالشرك مصحوبة بالغفلة عن الله « لكم دينكم ولى دين » أى لا مشاركة بين ما أدعو إليه وما أنتم عليه .

وما كان للأمم والشعوب التى تدعى الحرية والديمقراطية اليوم وتحارب الشيوعيين فى كل مكان باعتبارها مبادئ هدامة للنظام الاقتصادى القائم أن تنتقد الإسلام إذا هو عمل على محاربة مبادئ الشرك الهدامة وفى مقدمتها الشيوعية من قبل مئات السنين . وما يكون للدول التى تقيم الحضارة وتحمى الآداب وتحرم العراء على فريق من الناس فى أماكن خاصة أن تنتقد الإسلام الذى وضع أساس الحضارة وحرم على المشركين أن يطوفوا بالبيت الحرام عرايا منذ فجر الإسلام وما يكون لأمريكا تلك الدولة العظمى

التى آمنت بأضرار الخمر فحاربتها ولم تستطع القضاء عليها أن تنكر على الإسلام تحريمها قبل مئات السنين ونجاحه فى تنفير الناس منه وما يكون للدولة الإنجليزية والألمانية التى أدركت مضار البغاء العلنى فحاربته وأوصدت أبوابه أن تنكر على الإسلام تحريمه للزنا قبل مئات السنين ونجاحه فى تحريمه وأبادة جراثيمه وأخيراً فما يكون لدول العالم جميعها وهى تشكو من تطاحن الناس على المادة وما ترتب عليها من تنازع الرأسمالية مع غيرها نتيجة انتشار الربا بين الناس أن تعيب على الإسلام تحريمه للربا وصد الناس عنه وقد نجح فى ذلك بما غرسه فى القلوب من تعاطف وتعاون ورحمة الإنسان بأخيه الإنسان يوم كان المسلمون يتبعونه . وليس أمام البشر اليوم طريقاً يخلصون به مما يعانونه اليوم غير اتباع شريعة محمد بن عبد الله خاتم النبيين للناس أجمعين .

عام الوفود

ما كادت تذاع على الناس سورة براءة حتى بدأت الوفود تقدم على رسول الله يسألونه عن حقيقة دعوته ويعلنون الإسلام من غير حاجة إلى إراقة دماء حتى أنزل الله عليه قوله « إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا [1] » أى نزه ربك عن أن يخلف وعده فى تأييدك ونصر دينه واستغفره على ما أصابك من القلق والحزن لتأخر زمن النصر المبين . ومن أجل هذا سمى ذلك العام الذى نزلت فيه آيات القتال عام الوفود وكان من ضمن الوفود وفد بنى تميم وقد جاءوا إليه بعطارد بن حاجب من كبار الخطباء المشهورين بالفصاحة والبلاغة ، والزِّبرقان بن بدر من أكابر الشعراء المشهود لهم بالتلاعب بالألباب وقالوا له يا محمد جئناك نفاخرك فأذن لخطيبنا وشاعرنا فليقولا أمامك فأذن لهم بذلك فتكلم عطارد وعند ما انتهى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لثابت بن قيس قم فأجب الرجل فى خطبته فقام ثابت وأجاب ثم قام شاعرهم الزِّبرقان فألقى قصيدة فى الفخر فدعى الرسول حسان بن ثابت وأمره أن يجيب على ما قال

---

(١) النصر : ٣

ففعل ولما فرغ من قوله قال القوم إن هذا الرجل لمؤتى له أى موفق فخطيبه أخطب من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا ولأصواتهم أحلى من أصواتنا وأسلموا له وأجازهم رسول الله فأحسن جوائزهم .

وكان ممن قدم عليه وفد بنى عامر وفيهم عامر بن الطفيل وجبار بن سلمى وأربد ابن قيس وقد تآمروا على اغتيال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهد إلى الأخير بهذه المهمة وعند ما مثلوا فى حضرة الرسول أخذ عامر بن الطفيل يشرط لدخوله فى الإسلام أن يجعله خليلا وصاحباً له والرسول يأبى إلا أن يكون الإيمان بالله وحده مجرداً عن أى شرط وغرض دنيوى ثم انصرفوا من عنده وعامر يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأملأنها عليك خيلا ورجلا فقال رسول الله اللهم اكفنى أذاه فلما خرجوا من عنده قال عامر لأربد ويحك يا أربد أين ما كنت أمرتك به فأجابه أربد والله ما هممت بالذى أمرتنى به من قتله إلا رأيتك بينى وبينه حتى ما أرى غيرك أفأضربك بالسيف وما كادوا يمضون فى طريقهم إلى بلادهم حتى أصيب عامر بالطاعون فى عنقه فمات فى أثناء الطريق قبل أن يصل إلى بلده ونزلت صاعقة على أربد وهو على جمله فأحرقتهما وأنزل الله فيهما قوله (الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وكل شىء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ، سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ، له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ، إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وَال [1] » .

وبعثت بنو سعد بن بكر زعيمها ضمام بن ثعلبة فلما قدم على رسول الله وكان بين أصحابه فلم يميزه عنهم فقال أيكم ابن عبد المطلب فقال رسول الله أنا ابن عبد المطلب قال أمحمد قال نعم قال يابن عبد المطلب إنى سائلك ومغلظ عليك فى المسألة فلا تجدن علىّ فى نفسك قال لا أجد فى نفسى فسل عما بدالك . قال أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك آلله بعثك إلينا رسولا ؟ قال اللهم نعم قال فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده

---

(١) الرعد : ٩ — ١١

ولا نشرك به شيئا ؟ وأن نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدونها معه ؟ قال اللهم نعم قال فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك آلله أمرك أن نصلى هذه الصلوات الخمس ؟ قال نعم ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها ينشده عند كل فريضة منها كما ينشده فى التى قبلها حتى إذا فرغ قال فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله وسأؤدى هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتنى عنه ثم لا أزيد ولا أنقص ثم انصرف إلى بعيره راجعاً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن صدق دخل الجنة وحرج حتى أتى على قومه فاجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم به أن قال بئست اللات والعزى قالوا مه يا ضمام اتق البرص اتق الجذام اتق الجنون قال ويلكم إنهما والله لايضران ولا ينفعان إن الله قد بعث رسولا وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله عبده ورسوله وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه فوالله ما أمسى من ذلك اليوم فى حاضره رجل ولا امرأة إلا وقد أسلم .

وكان ممن قدم عليه وفد طيئ بزعامة زيد الخيل فلما انتهوا إليه عرض عليهم رسول الله الإسلام فأسلموا فخرج زيد إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام غير أنه مرض بالحمى أثناء الطريق ومات فعمدت امرأته إلى ما كان بحقيبته من كتب فأحرقتها فبعث رسول الله إلى طيئ ببعض قومه لهدايتهم فلما أقبلوا عليهم وسمع بهم عدى ابن حاتم الطائى وكان أشد الناس كراهة لرسول الله وكان نصرانيا ماوسعه إلا أن يهرب بأهله وولده إلى أهل دينه من النصارى بالشام وخلف أخته سفانة بنت حاتم الطائى فجئ بها إلى رسول الله فلما أقبلت عليه قالت يا رسول الله والله هلك الوالد وغاب الوافد فأمنن على منّ الله عليك فقال من وافدك قالت عدى بن حاتم الطائى فقال الفار من الله ورسوله فقالت يا محمد إن رأيت أن تخلى عنى ولا تشمت بى أحياء العرب فإنى بنت سيد قومى وإن أبى كان يحمى الذمار ويفك العانى ويشبع الجائع ويطعم الطعام ويفشى السلام ولم يرد صاحب حاجة قط . فقال يا جارية هذه صفة المؤمنين حقا خلوا سبيلها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق . ثم قال قد فعلت فلا تعجلى بخروج حتى تجدى من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك

ثم ائتينى ثم جاءت إلى رسول الله وقالت أريد أن آتى أخى بالشام وقد قدم رهط من قومى لى فيهم ثقة فهل تأذن بالسفر معهم فقال حسن وأمر رسول الله فهيأ لها ما يحملها وأكرمها وكساها وأعطاها النفقة اللازمة وأرسلها إلى الشام .

وهنا يحسن بنا أن نورد مقالة عدى إذ أقبلت عليه أخته حيث يقول فلما وقفت أخذت تلومنى وتقول القاطع الظالم احتملت بأهلك وولدك وتركت بقية والدتك عورتك قال قلت أى أخية لا تقولى إلا خيرا فوالله مالى من عذر لقد صنعت ما ذكرت قال ثم نزلت فأقامت عندى فقلت لها وكانت امرأة حازمة ماذا ترين فى أمر هذا الرجل قالت إى والله أن تلحق به سريعا فإن يكن الرجل نبيا فللسابق إليه فضله وإن يكن ملكا فلن تذل فى عز اليمن وأنت أنت قال قلت والله إن هذا الرأى فخرجت حتى أقدم على رسول الله بالمدينة فدخلت عليه وهو فى مسجده فسلمت عليه فقال من الرجل فقلت عدى بن حاتم فقام رسول الله فانطلق بى إلى بيته فوالله إنه لعامد بى إليه إذا لقيته امرأة ضعيفة فاستوقفته فوقف لها طويلا تكلمه فى حاجتها فقلت فى نفسى والله ما هذا بملك ثم مضى بى رسول الله حتى إذا دخل بى بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفا فقذفها إلى فقال اجلس على هذه قلت بل أنت فاجلس عليها فقال بل أنت فجلست عليها وجلس رسول الله بالأرض فقلت فى نفسى والله ما هذا بأمر ملك ثم قال رسول الله ياعدى بن حاتم ألم تك ركوسيا « وهم قوم لهم دين بين دين النصارى والصابئين » فقلت بلى « قال رسول الله أو لم تكن تسير فى قومك بالمرباع ؟ فقلت بلى : قال رسول الله فإن ذلك لم يكن يحل لك فى دينك قلت أجل والله ، قال عدى وعرفت أنه نبى مرسل يعلم ما يجهل ثم قال لعلك ياعدى إنما يمنعك من دخولك فى هذا الدين ما ترى من حاجتهم فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ولعلك إنما يمنعك من دخولك فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف ولعلك إنما يمنعك من دخولك فيه أنك ترى أن الملك والسلطان فى غيرهم وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم قال عدى فأسلمت وكان يقول قد مضت اثنتان وبقيت الثالثة ووالله لتكونن قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت وقد رأيت المرأة

تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحج هذا البيت وايم الله لتكونن الثالثة : ليفيضن المال حتى لا يوجد من يأخذه .

وكان ممن قدم عليه وفد كِنْده فى ثمانين شخصا يرأسه الأشعث بن قيس فدخلوا عليه وقد رجلوا شعورهم وتكحلوا ولبسوا جباب الحبرات عليها سجف من الحرير فلما رآهم عليه الصلاة والسلام قال أولم تسلموا قالوا بلى : قال فما بال هذا الحرير فى أعناقكم فشقوه فألقوه ثم قال الأشعث بن قيس يارسول الله نحن بنو (آكل المرار وأنت ابن آكل المرار) إشارة إلى مفاخر كانوا يفتخرون ويعتزون بها فى الجاهلية أى أنهم من بيوت ملك فتبسم رسول الله وقال ناسبوا بهذا النسب العباس بن عبد المطلب وربيعة بن الحارث فلما سمع الأشعث ذلك من رسول الله التفت إلى باقى الوفد وقال والله لا أسمع رجلا يقولها إلا ضربته ثمانين .

وكان ممن قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم رسول من ملوك بنى حمير الحارث ابن عبد كُلال ونعيم بن عبد كُلال والنعمان قيل ذى رُعين ومعافر وهمدان يشعرونه بإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله ، فكتب إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله النبى إلى الحارث بن عبد كلال وإلى نعيم بن عبد كلال وإلى النعمان قيل ذى رُعين ومَعافر وَهَمْدان ، أما بعد ذالكم فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد فإنه قد وقع بنا رسولكم مُنْقَلَبَنَا من أرض الروم فلقينا بالمدينة فبلَّغ ما أرسلتم به وخبَّر ماقبلكم وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين وأن الله قد هداكم بُهداه وأصلحتم وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وأتيتم الزكاة وأعطيتم من الغنائم خمس الله وسهم الرسول وصفيه وما كتب على المؤمنين من الصدقة من العقار عشر ما سقت العين وسقت السماء وعلى ما سقى الغرب نصف العشر وإن فى الأبل الأربعين ابنة لبون وفى ثلاثين من الإبل ابن لبون ذكر وفى كل خمس من الإبل شاة وفى كل عشر من الإبل شاتان وفى كل أربعين من البقر بقرة وفى كل ثلاثين من البقر تبيع جَذَعة أو جَذَع وفى كل أربعين من الغنم سائمة وحدها شاة ، وأنها فريضة الله التى فرض على المؤمنين فى الصدقة ؛ فمن زاد خيراً فهو خير له ومن أدى ذلك وأشهد على إسلامه وظاهر المؤمنين على المشركين فإنه من المؤمنين له مالهم وعليه ماعليهم وله ذمة الله وذمة رسوله ، وأنه من أسلم من يهودى أو نصرانى فإنه

من المؤمنين لهمالهم وعليه ماعليهم ، ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فلا يرد عنها وعليه الجزية على كل حالم ذكراً أو أنثى حراً أو عبداً دينار واف من قيمة المعافر أو عوضه ثياباً ، فمن أدى ذلك إلى رسول الله فإن له ذمة رسوله ، ومن منعه فإنه عدو لله ولرسوله .

وبعث ذرعة ذو يزن من ملوك حمير أيضاً مالك بن مر الرهاوى يشعر بإسلام قومه فكتب له يقول : أما بعد فإن رسول الله محمداً النبى أرسل إلى زرعة ذى يزن أن إذا أتاكم رسلى فأوصيكم بهم خيراً معاذ بن جبل وعبد الله بن زيد ومالك ابن عبادة وعقبة بن نمر ومالك بن مرة وأصحابهم وإن اجمعوا ماعندكم من الصدقة والجزية من مخالفيكم وأبلغوها رسلى وأن أميرهم معاذ بن جبل فلا ينقلبن إلا راضيا ، أما بعد فإن محمداً يشهد أن لاإله إلا الله وأنه عبده ورسوله ، ثم إن مالك بن مُرة الرَّهاوى قد حدَّثنى أنك أسلمتَ من أول حمير وقتلت المشركين فأبشر بخير وآمرك بحمير خيراً ولا تخوفوا ولا تخاذلوا فإن رسول الله هوولى غنيِّكم وفقيركم وأن الصدقة لاتحل لمحمد ولا لأهل بيته ، إنما هى زكاة يزكى بها على فقراء المسلمين وابن السبيل ، وأن مالكا قد بلغ الخبر وحفظ الغيب وآمركم به خيراً وإنى قد أرسلت إليكم من صالحى أهلى وأولى علمهم وآمرك بهم خيراً فإنهم منظور إليهم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وكان ممن قدم عليه وفد بنى الحارث بن كعب وكان قد أرسل إليهم الرسول خالد ابن الوليد يدعوهم للإسلام فأسلموا بمجرد الدعوة وحضر معه وفدهم ، فلما قدموا عليه صلى الله عليه وسلم ورآهم قال من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند ؟ قيل يارسول الله هؤلاء رجال بنى الحارث بن كعب ، فلما وقفوا على رسول الله سلموا عليه وقالوا : نشهد أنك رسول الله وأنه لاإله إلا الله ، قال رسول الله وأنا أشهد أن لاإله إلا الله وأنى رسول الله ثم قال رسول الله أنتم الذين إذا زجروا استقدموا فسكتوا فلم يراجعه أحد منهم ثم أعادها ثانية فلم يراجعه أحد منهم ثم أعادها الثالثة فلم يراجعه أحد منهم ثم أعادها الرابعة فقال يزيد بن عبد المُدَان نعم يارسول الله نحن الذين إذا زجروا استقدموا قالها أربع مرات ، فقال رسول الله لو أن خالداً لم يكتب لى أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رؤوسكم تحت أقدامكم ، فقال يزيد بن عبد المُدَان أما والله ماحمدناك ولا حمدنا خالداً ، قال فمن حمدتم ؟ قالوا حمدنا الله عز وجل الذى هدانا بك يارسول

الله فسر بهذا وقال صدقتم ، ثم قال رسول الله بم كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية ؟ قالوا كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله أنا كنا نجتمع ولا نفترق ولا نبدأ أحدا بظلم ، قال صدقتم وأمر رسول الله على بنى الحارث بن كعب واحداً منهم هو قيس بن الحصين ثم بعث لهم رسول الله عمرو بن حزم ليفقههم فى الدين ويعلمهم السنة ومعالم الإسلام ويأخذ منهم صدقاتهم وكتب له كتابا عهد إليه فيه عهده وأمره فيه بأمره .

« بسم الله الرحمن الرحيم — هذا بيان من الله ورسوله : يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود عهد من محمد النبى رسول الله لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن أمره بتقوى الله فى أمره كله فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وأمره أن يأخذ بالحق كما أمره الله وأن يبشر الناس بالخير ويأمرهم به ويعلم الناس القرآن ويفقههم فيه وينهى الناس فلا يمس القرآن إنسان إلا وهو طاهر ويخبر الناس بالذى لهم والذى عليهم ويلين للناس فى الحق ويشتد عليهم فى الظلم فإن الله كره الظلم ونهى عنه فقال « ألا لعنة الله على الظالمين » ويبشر الناس بالجنة وبعَمَلها وينذر الناس النارَ وعملها ويستأْلِف الناس حتى يُفَقَّهُوا فى الدين ويعلم الناس معالَم الحج وسنته وفريضته وما أمر الله به والحج الأكبر والحج الأصغر هو العمرة وينهى الناس أن يصلى أحد فى ثوب واحد صغير إلا أن يكون ثوبا يثنى طرفيه على عاتقيه وينهى الناس أن يحتبىء أحد فى ثوب واحد يُفْضى بفَرْجه إلى السماء وينهى أن يعقص أحد شعر رأسه فى قفاه وينهى إذا كان بين الناس هَيْع عن الدعاء إلى القبائل والعشائر وليكن دعواهم إلى الله عز وجل وحده لا شريك له ، فمن لم يدع إلى الله ودعا إلى القبائل والعشائر فليُقْطَفُوا بالسيف حتى تكون دعواهم إلى الله وحده لا شريك له ويأمر الناس بإسباغ الوضوء : وجوههم وأيديهم إلى المرافق وأرجلهم إلى الكعبين ويمسحون برؤوسهم كما أمرهم الله وأمر بالصلاة لوقتها وإتمام الركوع والسجود والخشوع ويُغَلِّسُ بالصبح ويُهَجِّرُ بالمهاجرة حين تميل الشمس وصلاة العصر والشمس فى الأرض مدبرة والمغرب حين يقبل الليل لا يؤخر حتى تبدو نجوم السماء والعشاء أول الليل وأمر بالسعى إلى الجمعة إذا نودى لها والغسل عند الرواح إليها وأمره أن يأخذ من الغنائم خمس الله وما كتب على المؤمنين فى الصدقة من العقار عشر ماسقت العين وسقت السماء وعلى ماسقى الغرب نصف العشر وفى كل عشر من الإبل شاتان وفى كل عشرين أربع شياه وفى كل أربعين من البقر بقرة ،

وفى كل ثلاثين من البقر تبيع جَذَعة أو جَذَع وفى كل أربعين من الغنم سائمةً وحدها شاة فإنها فريضة الله التى افترض على المؤمنين فى الصدقة ، فمن زاد خيراً فهو خير له وأنه من أسلم من يهودى أو نصرانى إسلاماً خالصاً من نفسه ودان بدين الإسلام فإنه من المؤمنين له مثل مالهم وعليه مثل ماعليهم ، ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يرد عنها وعلى كل حالم ذكرا أو أنثى حراً أو عبدا دينار واف أو عوضه ثيابا . فمن أدى ذلك فإن له ذمة الله وذمة رسوله ومن منع ذلك فإنه عدو لله ولرسوله وللمؤمنين جميعاً صلوات الله على محمد والسلام عليه ورحمة الله وبركاته .

حجة الوداع

لقد انقضت بقية العام التاسع ومعظم العام العاشر من الهجرة والنبى صلى الله عليه وسلم يستقبل الوفود القادمين إليه معلنين الإسلام وقد أعلن الرسول صلى الله عليه وسلم رغبته فى أداء فريضة الحج فما كادت تقبل الأشهر الحرم حتى اكتظت المدينة بالألوف من المسلمين من كل بقعة من سائر البلاد العربية المترامية الأطراف يبتغون الحج فى معيته عليه الصلاة والسلام . ولما كان العام التاسع من الهجرة هو العام الذى صادف فيه إقامة الحج فى شهر ذى الحجة بعد ما أحدثه المشركون من تلاعب فى مواعيده وجعله متمشياً مع الشهور الشمسية فقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن تظل إقامة الحج فى مواعيدها التى شرعها الله من عهد إبراهيم فى اليوم التاسع من ذى الحجة من كل عام وأخذ يتهيأ لذلك حتى إذا كان يوم الخامس والعشرين من شهر ذى القعدة سنة ١٠[1] خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة وصحب معه جميع نسائه وتبعه من المسلمين ما يربو عن مائة ألف يقصدون الحج والعمرة وساق معه الهدى ولما أن بلغ (سرِف) وهو موضع قريب من التنعيم أمر الناس أن يحلوا بعمرة إلا من ساق الهدى ولما بلغ مكة فى الرابع من ذى الحجة أمر نسائه أن يحللن بعمرة أيضاً فقلن له فما منعك يا رسول الله أن تحل معنا فقال أهديت ولبدت « أى وضعت على شعرى صمغاً لئلا يشعث » فلا أحل حتى أنحر الهدى وفى الثامن من ذى الحجة « ويسمى يوم التروية » سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منى فضرب بها خيامه

(١) فى زاد المعاد أنه عليه السلام خرج من المدينة نهارا بعد الظهر لست بقين من ذى القعدة هـ .

وصلى بها فروضه وقضى الليل حتى مطلع فجر اليوم التاسع فصلى الصبح ثم ركب ناقته حين بزغت الشمس متوجهاً إلى عرفات والناس خلفه حتى بلغها فحط رحاله فى مقدمتها فى مكان يقال له (نمرة) وضربت له هنالك قبة يستظل تحتها وانتشر الناس فى بطن الوادى وظل هو حتى حان وقت الزوال فركب ناقته وسار حتى بلغ جبل (عرفات) فقال : هذا الموقف وكل عرفة موقف وكانت قريش من قبل لا تقف إلا فى مزدلفة من دون باقى الناس ولما تكامل جمع الناس حول رسول الله صلى الله عليه وسلم حمد الله وأثنى عليه ثم ألقى خطبته التاريخية وهى :

« أيها الناس اسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً . أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا وأنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها . وإن كل ربا موضوع ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . قضى الله أنه لا ربا وأن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله . وأن كل دم فى الجاهلية موضوع وأن أول دماءكم أضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وكان مسترضعاً فى بنى ليث فقتلته هذيل . فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية . أما بعد أيها الناس فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً . ولكنه إن يُطعْ فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم . فاحذروه على دينكم . أيها الناس أن النسئ زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله . وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض . وإن عدة الشهور عند الله إثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاثة متوالية ورجب هو الذى بين جمادى وشعبان . أما بعد أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقاً ولهن عليكم حقاً . لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عَوَانٌ لا يملكن لأنفسهن شيئاً وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله فاعقلوا أيها

الناس قولى فإنى قد بلغت وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً أمراً بيّناً كتاب الله وسنة نبيه . أيها الناس اسمعوا قولى واعقلوه تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم اللهم هل بلغت ؟ » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كل جملة منها وربيعة بن أمية بن خلف يرددها على الناس جملة جملة ليتأكد من سماعهم لها ثم ينتقل إلى ما بعدها فلما بلغ خاتمة كلامه وقال : اللهم هل بلغت أجاب الناس من كل صوب (نعم) فقال النبى « اللهم اشهد » وروى بعضهم زيادة فى هذه الخطبة قوله صلى الله عليه وسلم « أيها الناس إن الله قد أدى إلى كل ذى حق حقه وأنه لا تجوز وصية لوارث والولد للفراش وللعاهر الحجر ومن ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً » .

وأنزل الله عليه فى ذلك الموقف قوله « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً[1] » . ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مزدلفة وصلى بها المغرب مع العشاء وقضى فيها ليلته ثم صلى الصبح ووقف بالمشعر الحرام على (قزح) جبل بمزدلفة وقال هذا موقف وكل المزدلفة موقف ثم سار إلى منى ونحر بالمنحر ٦٣ ناقة وقال هنا المنحر وكل منى منحر ثم حلق رأسه ثم مضى يرى للمؤمنين مناسكهم ويعلمهم ما فرض الله عليهم من رمى الجمار وطواف بالبيت وما أحل لهم من حجتهم وما حرم عليهم وأخذ عليه الصلاة والسلام يردد أمره بضرورة المحافظة على عدة الشهر وحرمة بعضها على حسب ما اختصها به الله خشية أن يعود الناس إلى ما أحدثه المشركون من النسئ فيها فجمع الناس وقال « الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاثة متوالية ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان أى شهر هذا قال الصحابة الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظنوا أنه سيسميه بغير اسمه قال أليس ذو الحجة قالوا بلى قال فأى بلد هذا قالوا الله ورسوله أعلم فسكت

---

(١) مائدة : ٤

حى ظنوا أنه سيسميه بغير اسمه قال أليس البلدة قالوا بلى قال فأى يوم هذا قالوا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظنوا أنه سيسميه بغير اسمه قال أليس يوم النحر قالوا بلى قال فإن دماءكم وأموالكم «قال محمد وأحسبه قال» «وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا وستلقون ربكم فسيسألكم عن أعمالكم فلا ترجعوا بعدى ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض ألا ليبلغ الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه أن يكون له أوعى من بعض من سمعه» — ثم قال ألا هل بلغت مرتين .

وكان هذا آخر عهده برؤية البيت الحرام وهذه الحجة التى أكمل الله بها للناس دينهم وأتم عليهم نعمته وكانت هى حجة البلاغ التى أشهد الناس فيها على أنه قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة وقفل بعدها راجعاً إلى المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام .

بعث أسامة

ما كاد رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجع من حجه فى آخر ذى الحجة ويظل بالمدينة المحرم وصفر حتى أمر الناس بتجهيز جيش يزمع تسييره إلى فلسطين وجعل فيه كثيراً من المهاجرين الأولين كأبى بكر وعمر وجاء بأسامة ابن مولاه زيد بن حارثة وأمره على هذا الجيش وكان أسامة يومئذ شاباً فى العشرين من عمره وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين على مقربة من مئوتة حيث قتل أبوه وأوصاه أن ينزل على أعداء الله وأعداءه فى عماية الصبح وأن يمعن فيهم قتلا وأن يحرق دورهم بالنار وأن يتم ذلك دراكا حتى لا تسبق إلى أعداءه أنباؤه فإذا أتم له الله النصر لم يطل بقاؤه بهم بل يعود غانما مظفرا . وإن فى تحديد الرسول هذه الغاية لقائد الجيش مايحملنا على التساؤل عن الغاية التى كان يتوخاها الرسول صلى الله عليه وسلم من مسير ذلك الجيش العرمرم .

ويقول المؤرخون إن عمر بن لحى — بن قمعة بن خندف أول من غير دين إسماعيل عليه السلام فنصب الأوثان وسيب السائبة ووصل الوصيلة وبحر البحيرة ثم إنه مرض

مرضاً شديداً فقيل له إن البلقاء عُيَيْنَة حارة يستشفى بها إن أتيتها برأت فأتاها فاستحم بها فبرأ ووجد أهلها يعبدون الأصنام فقال ما هذه فقالوا نستق بها المطر ونستنصر بها على العدو فقال لهم أفلا تعطونى منها صنما فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه فأعطوه صنما يقال له هُبَلْ فقدم إلى مكة ونصبه فى الكعبة وأمر الناس بعبادته وتعظيمه فكان أول صنم وضع بمكة هكذا يقول المؤرخون .

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال رفعت لى النار فرأيت عمرا (أى عمرو بن لحى) رجلا قصيرا أحمر أزرق يجر قصبه فى النار وقلت من هذا ؟ قيل هذا عمرو بن لحى أول من بحر البحيرة ووصل الوصيلة وسيب السائبة وحمى الحامى وغير دين إبراهيم ودعا العرب إلى عبادة الأوثان .

ولعل هذا مادعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يأمر بتسيير جيش أسامة ويأمره أن يمعن فى أهلها القتل ويحرق المدينة بالنار لأنها كانت هى منبت الشر ومصدره ومبعث عبادة الأوثان وتغيير دين إبراهيم وربما كان يرمى عليه الصلاة والسلام من وراء ذلك إلى تطهير القبلة الأولى من الأوثان وتحويل اتجاه الناس فيها إلى البيت الحرام فكل محتمل وقد صدع أسامة بالأمر وخرج بجيشه إلى الجُرْف (على مقربة من المدينة) يستعد للرحيل وتحدث بعض المنافقين فى تأمير أسامة على صغر سنه على جيش فيه من كبار الصحابة رضوان الله عليهم أبو بكر وعمر فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بدء مرضه إذ كان يشكو صداعا فعصب رأسه وصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم خطب فى الناس فقال « لقد بلغنى أن أقواماً يقولون فى إمارة أسامة ولعمرى لئن قالوا فى إمارته لقد قالوا فى إمارة أبيه من قبل وإنه لخليق بها فأنفذوا بعث أسامة وعندما علم أسامة بمرض رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع ورجع معه جيشه للمدينة وتريثوا فى السفر خصوصا وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يؤم الناس فى الصلاة بدله وكان هو من ضمن من أمر الرسول بسيره ضمن المجاهدين . ولذلك لم يغضب الرسول لتأخر سفر هذا الجيش بل إنه عندما أقبل عليه أسامة وهو فى مرضه جعل يضع يده عليه الصلاة والسلام عليه ويرفعها كأنما يدعو له وكان فى آخر ما أوصى به أن أخرجوا المشركين من جزيرة العرب وأجيزوا وفد أسامة بنحو ما كنت أجيزهم »

مرض الرسول وموته

لقد قضى النبى صلى الله عليه وسلم حياته محافظا على صحته مجانباً لكل ما يضرها فلا يأكل حتى يجوع وإذا أكل لا يشبع ويكره تعدد أنواع الطعام فى الوجبة الواحدة إذ المعدة فى نظره هى بيت الداء والحمية رأس الدواء وحسب المرء لقيمات يقومن صلبه ومن أجل هذا لم يشكو عليه الصلاة والسلام منذ بعثته مرضاً ألزمه الفراش ولذلك بدء مرضه شبه دعابة مع زوجته عائشة إذ مر بها يوم آخر خميس من صفر سنة ١١ هـ — (مايو عام ٦٣٢) فوجدها تشكو صداعا وتقول وارأساه فقال لها بل أناوالله ياعائشة وارأساه فكررت عائشة من شكواها فقال لها (وما ضرك لو مت قبلى فقمت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك) فأثرت هذه الدعابة فى نفسها وقالت له ليكن ذلك حظ غيرى والله لكأنى بك لو فعلت ذلك لرجعت إلى بيتى فأعرست فيه ببعض نسائك) فتبسم عليه الصلاة والسلام وظنت عائشة أن الأمر لم يعد حد الدعابة التى طالما تعودتها منه وخرج الرسول من عندها وذهب يطوف على نسائه كما هى عادته كل يوم بعد العصر وهو يشكو لهن الألم ويسأل كل واحدة منهن يقول أين أنا غدا ؟ يريد يوم عائشة فأذن له أن يكون حيث يشاء حتى إذا كان فى بيت ميمونة فاشتد به ألم الصداع مصحوبا بحمى ثقيلة فاجتمع إليه نساؤه وأذن له بأن يذهب إلى بيت عائشة لتقوم بتمريضه فخرج من بيتها متكأ على علىّ بن أبى طالب وعمه العباس ولما دخل بيتها قال اهريقوا على من سبع قرب فأجلسته عائشة فى مخضب لحفصة ثم طفقن يصببن عليه من تلك القرب حتى أشار إليهن أن قد فعلتن ثم خرج إلى الناس فصلى بهم المغرب وتلى فيها سورة والمرسلات عرفا . ورقى المنبر وخطب فيهم فى أمر ما تحدثوا به من الطعن فى إمارة أسامة على الجيش كما أسلفنا ثم تطرق إلى مواضع أخرى فأثنى على أصحاب أحد واستغفر لهم وأكثر الدعاء لهم ثم قال «إن عبدا من عباد الله خيّره الله بين الدنيا والآخرة وبين ما عنده فاختار ماعند الله» ثم نظر إلى الأبواب النافذة للمسجد فأمر بسدها إلا بيت أبى بكر ثم قال (إنى لا أعلم أحداً كان أفضل فى الصحبة عندى من أبى بكر وإنى لو كنت متخذاً من العباد خليلا

لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صحبة وإخاء وإيمان حتى يجمع الله بيننا عنده) .

ومما يروى عن تلك الخطبة التى هى آخر خطب رسول الله على المنبر قوله عليه الصلاة والسلام « يا أيها الناس بلغنى أنكم تخافون من موت نبيكم ، هل خلد نبى قبلى فيمن بعث إليه فأخلد فيكم ألا إنى لاحق بربى وإنكم لاحقون بى فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً وأوصى المهاجرين فيما بينهم فإن الله تعالى يقول « والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » وإن الأمور تجرى بإذن الله ولا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله فإن الله عز وجل لا يعجل بعجلة أحد ومن غالب الله غلبه ومن خادع الله خدعه فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم وأوصيكم بالأنصار خيرا فإنهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم ألم يشاطروكم فى الثمار ألم يوسعوا لكم فى الديار ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم ألا ولا تستأثروا عليهم ألا وإنى فرط لكم وأنتم لاحقون بى ألا فإن موعدكم الحوض ألا فمن أحب أن يرده على غدا فليكفف يده ولسانه » وبعد أن أتم الرسول خطبته قصد بيت عائشة وعندما حان وقت صلاة العشاء حاول العودة إلى المسجد فلم يستطع فقال مروا أبا بكر فليصل بالناس فقالت عائشة إن أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن فقال رسول الله مروه فليصل بالناس قالت فعدت بمثل قولى وما حملنى على مراجعته إلا أنه لم يقع فى قلبى أن يحب الناس بعده رجلا قام مقامه أبدا وإلا كنت أرى أن لن يقوم أحد مقامه إلا تشائم الناس فأردت أن يعدل عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أنه أجابنى بقوله « إنكن صواحبات يوسف مروه فليصل بالناس » فقام أبو بكر وصلى بالناس واستمر على ذلك وفى ذات يوم أذن بلال فلم يتقدم أبو بكر للصلاة لأنه كان غائباً فقال عبد الله بن زَمْعَة بن الأسود لعمر قم فصل بالناس فقام عمر فلما كبر سمع الرسول صوته فقال أين أبو بكر يأبى عبد الله ذلك والمسلمون فبعث إلى أبى بكر فجاءه بعد أن صلى عمر تلك الصلاة فصلى بالناس واستمر كذلك حتى أكمل سبعة عشر صلاة .

وفى يوم الإثنين من أوائل ربيع الأول وبينما كان أبو بكر يصلى بالناس الصبح إذ فوجئوا برسول الله صلى الله عليه وسلم يكشف ستر حجرته وينظر إليهم

فعندما رآه أبو بكر ظنه يريد الخروج إلى الصلاة فنكص على عقبه ليفسح له المكان للامامة بالناس وهم المسلمون أن يفتنوا فى صلاتهم فرحاً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأشار إليهم أن أتموا صلاتكم ثم دخل الحجرة وأرخى الستر واستبشر الناس خيراً ودخل عليه بعد الصلاة أسامة بن زيد فوجده فى أتم الصحة فاستأذنه فى مسيره بالجيش إلى فلسطين كما دخل عليه أبو بكر وقال يا نبى الله إنى أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما تحب واليوم يوم بنت خارجة أفآتيها ، فأذن له الرسول بذلك وانطلق أبو بكر إلى السيح بأطراف المدينة حيث تقيم زوجته ، كما زاره عمر واطمأن عليه ثم انصرف إلى شأنه ، ودخل عليه على بن أبى طالب ثم خرج فقال الناس يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله فقال أصبح بحمد الله بارئاً فانصرف كل إلى عمله مسروراً وأخذ العباس بن عبد المطلب بيد على وقال والله إنى لأرى رسول الله سوف يتوفى من وجعه هذا إنى لأعرف وجوه بنى عبد المطلب عند الموت اذهب بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلنسأله فيمن هذا الأمر (يعنى من سيكون خليفته من بعده) إن كان فينا علمنا ذلك ، وإن كان فى غيرنا علمناه فأوص بنا ؛ فقال على إنا والله لئن سألناها رسول الله فمنعناها لا يعطيناها الناس من بعده وإنى والله لا أسألها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما هى إلا لحظات حتى تغير حاله عليه الصلاة والسلام فأسرعت إليه ابنته فاطمة تقول وا كرب أباه فقال لها ليس على أبيك كرب بعد اليوم ثم أسر إليها حديثا فبكت فأسر إليها آخر فضحكت ولما أن سئلت عن ذلك بعد الوفاة قالت إنه أسر إلى أولا بأنه سيقبض فبكيت ثم أسر إلى بأنى أول من يتبعه من أهله . فضحكت . ولما اشتد به المرض جاؤا له بشىء من العود الهندى والزيت فلدوه به أى أدخلوه فى أحد جوانب فمه وهو يشير إليهم أن لا يلدوه ولكنهم قالوا إن هذا كراهية المريض للدواء ولما أن أفاق قال : « ألم أنهكم أن تلدونى . قالوا : قلنا كراهية المريض للدواء . فقال : لا يبقى أحد فى البيت إلا لدوه ، وأنا أنظر إلا العباس فإنه لم يشهدكم ودعا بالطست فأخرج ما كان فى فيه فأقبل عبد الرحمن بن أبى بكر وفى يده جريدة رطبة فنظر إليه النبى صلى الله عليه وسلم فعرفت عائشة أنه يريد السواك فقالت آخذها لك فأشار برأسه نعم فتناولتها من عبد الرحمن فمضغت رأسها ونفضتها فدفعتها إلى الرسول فاستاك بها كأحسن ما كان يستاك ثم أعادها إليها وسمعته يقول

لا إله إلا الله إن للموت سكرات ثم نصب يديه فجعل يقول الرفيق الأعلى فعرفت أنه اختار الموت على الحياة ، ثم قبض ومالت يده . فقالت فاطمة يا أبتاه أجاب رباً دعاه ، يا أبتاه مَنْ جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه ؛ فلما دفن قالت فاطمة عليها السلام يا أنَسُ أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان لعائشة أعظم الشرف الذى تفاخر به أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات فى بيتها وفى يومها وبين سحرها ونحرها وأن جمع الله بين ريقها وريقه فى آخر لحظة من أيام حياته ، وغير ذلك فقد دفن فى بيتها .

وما إن نعى خبر وفاته عليه الصلاة والسلام إلى عمر حتى جاء مسرعاً وهو لا يصدق الخبر فقد فارقه قبيل لحظات وهو على أحسن حال فلما دخل عليه وكشف عن وجهه فألفاه لا حراك به أخذته رعدة وخرج إلى الناس وهو يهذى كما يهذى المحموم بعبارات لا أساس لها من الصحة حيث يقول إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله قد توفى ؛ وإنه والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل إنه مات ، والله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أنه مات . واتصل الخبر بأبى بكر الصديق فى منزله بالسُّنْح من ضواحى المدينة فأقبل على فرسه رابط الجأش ثابت الجنان ونزل فدخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فيمم شطر رسول الله فإذا هو مُسجى وعليه بُرْد حَبرة فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله وبكى ثم قال بأبى وأمى والله لا يجمع الله عليك موتتين أما الموتة التى كتبت عليك فقدمتها ، ثم خرج وعمر لا يزال يخطب فى الناس يقنعهم بعدم موت النبى فقال اجلس يا عمر فأبى عمر أن يجلس فالتفت إلى الناس وقال : أيها الناس أما بعد فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ، وقال الله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين[1] » .

فما سمع الناس هذه الآية من أبى بكر إلا عادت إليهم الطمأنينة كأنهم ماسمعوا بها

---

(١) آل عمران : ١٤٤ .

من قبل فلم يبق أحد فى ذلك اليوم إلا رددها ؛ وهنا صحا عمر من أثر الصدمة وقال والله ما سمعت أبا بكر يتلو هذه الآية حتى عقرت فما تقلتنى رجلاى حتى هويت على الأرض لأنى أيقنت أن رسول الله قد مات .

وهكذا توارت من الوجود تلك الشخصية الفذة التى كانت تجذب النفوس إلى الله بسمو خلقها وقوة بيانها وعظيم حجتها ، وخفت ذلك الصوت الذى كان يجلجل فى العالم فيملأ الدنيا بالدعوة إلى الله ودينه الحق ، ومات محمد بشخصه ولكنه لم يمت بمآثره وحسناته وما خلفه من ذكر طيب وأعمال صالحة وما تركه للناس من شريعة واضحة قويمة تضمن للناس سعادتهم وهناءهم وترشدهم إلى ما فيه عزهم وسؤددهم إذا هم عملوا بها وساروا فى الحياة على منوالها ، ولذلك لم تخبو بموته تلك الشعلة التى كانت تتصاعد من ذلك القلب الطيب فتهدى الناس إلى الإيمان الكامل واليقين التام بوحدانية الله وتحضهم على محبته تعالى وطاعته فى السر والعلن .

لقد مات ذلك النبى الكريم وهو يقول لقد تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

لقد عاش الرسول صلى الله عليه وسلم عيشة الفقراء وكان يحب مجالسة الفقراء ، ويروى عنه قوله : « اللهم احينى مسكيناً وأمتنى مسكيناً واحشرنى فى زمرة المساكين » وكان عنده فى البيت قبل موته سبعة دنانير فأمر بتوزيعها على الفقراء ، وفارق الحياة وليس عنده شىء من عرضها الزائل يورثه لأهله حتى لقد قالت عائشة : « لقد مات وما فى بيتى شىء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير فى رف لى فأكلت منه حتى طال على فأكلته ففنى فياليتنى لم آكله » . وروى الترمذى عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه أنه قال : « توفى رسول الله ولم يشبع هو ولا أهل بيته من خبز الشعير وما ترك رسول الله إلا سلاحه وبغلته وأرضاً جعلها صدقة » .

وقد طالبت فاطمة بنت الرسول بهذه الأرض التى بفدك وخيبر فذكرها أبو بكر بقول أبيها : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » . ثم قال لها فأما إن كان أبوك قد وهبها لك فإنى أقبل كلمتك فى ذلك وأنفذ ما أمرت به فأجابت فاطمة بأن أباها لم يفض إليها بشىء من ذلك ، وإنما أخبرتها أم أيمن بأن ذلك كان قصده فلم يقتنع أبو بكر بهذا وأصر على استبقاء فدك وخيبر وردها إلى بيت مال المسلمين .

من يخلف الرسول

لقد أيقن المسلمون بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أول أمر تحدثوا فيه هو من يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمرهم .

لقد كان محمد نبياً ورسولا من الله لعباده وقد انتهت النبوة والرسالة فهو خاتم النبيين والمرسلين وكان حاكما ينفذ أحكام الله فمن عساه يصلح لأن يخلفه فى هذه المهمة هذا ما اختلفت حوله الآراء فأصحاب الرسول كلهم على جانب عظيم من التقوى والصلاح وكل منهم لا يرى فى نفسه القدرة على القيام بأعباء هذا الأمر بحيث يمكن أن يملأ ذلك المركز الذى خلا بموت النبى الكريم وما كان عليه من الصفات التى لا يمكن أن تجتمع فى رجل على وجه البسيطة .

ولقد انحاز حى من الأنصار إلى سعد بن عُبادة فى سقيفة بنى ساعدة واعتزل على ابن أبى طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله فى بيت فاطمة وانحاز المهاجرون ومعهم أسيدُ بن حُضَيْر بن بنى عبد الأشهل إلى أبى بكر وأخذ الجميع يفكرون فى هذا الأمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته مسجى ، وقد أغلق أهله دونه الباب فقال عمر لأبى بكر انطلق بنا إلى إخواننا الأنصار للنظر معهم فى الأمر فانطلقا وبينما هما فى الطريق إذ التقيا برجلين فحدثوهما بأن الأنصار يريدون الأمر فيهم وأنه خير للمهاجرين أن يبتوا فى الأمر من تلقاء أنفسهم فما رضيا بذلك وذهبا حتى بلغا سقيفة بنى ساعده فوجدا القوم قد تجمعوا وبينهم سعد بن عبادة مزمل يشكو المرض فسلما وجلسا بينهم فقام خطيب من الأنصار فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال « أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا وقد دفَّت دافَّة من قومكم وإذا هم يريدون أن يجتزونا من أصلنا ويغصبونا الأمر . وكانت هذه دف الأنصار أثناء حياة النبى » لذلك لم يكد عمر يسمع هذا الكلام حتى أراد أن يدفعه فأمسك به أبو بكر مخافة شدته وقال على رسلك يا عمر ثم قال موجها كلامه للأنصار « أيها الناس نحن المهاجرين أول الناس إسلاما وأكرمهم أحسابا وأوسطهم داراً وأحسنهم وجوها وأكثرهم ولادة فى العرب وأمسهم رحما برسول الله أسلمنا

قبلكم وقدمنا فى القرآن عليكم فقال تبارك وتعالى « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان » فنحن المهاجرون وانتم الأنصار إخواننا فى الدين وشركاؤنا فى الفىء وأنصارنا على العدو أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم أهل له وأنتم أجدر بالثناء من جميع أهل الأرض فأما العرب فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش فمنا الأمراء ومنكم الوزراء « وهنا استشاط أحد الأنصار غضبا وقام يفاخر بقومه ويقول بل منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش » قال أبو بكر بل منا الأمراء ومنكم الوزراء وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما إن شئتم وأخذ بيد عمر بن الخطاب وبيد أبى عبيدة بن عامر بن الجراح وهو جالس بينهما ، هنالك كثر اللغط وارتفعت الأصوات وخيف الاختلاف فنادى عمر بصوت جَهْوَرى أبسط يدك يا أبا بكر فبسط أبو بكر يده فبايعه عمر وهو يقول : « ألم يأمر النبى بأن تصلى بالناس أنت يا أبا بكر فأنت خليفته ونحن نبايعك فنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعا » ومست هذه الكلمات قلوب الحاضرين من المسلمين فقالوا إذا كان الرسول قد ارتضاك لديننا أفلا نرضاك لدنيانا ثم أقبلوا عليه يبايعونه .

وفى الغد من ذلك اليوم جلس أبو بكر على المنبر وتقدم ابن الخطاب فتكلم قبل أبى بكر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إنى قد قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت مما وجدتها فى كتاب الله ولا كانت عهدا عهده إلىَّ رسول الله ولكنى كنت أرى رسول الله سيُدَبِّر أمرنا ويبقى ليكون آخرنا وأن الله قد أبقى فيكم كتابه الذى به هدى رسوله فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وثانى اثنين إذ هما فى الغار فقوموا فبايعوه ، فبايع الناس أبا بكر البيعة العامة بعد بيعة السقيفة وقام أبو بكر بعد أن تمت البيعة فألقى فى الناس هذا الخطاب الذى يعتبر آية من آيات الحكمة وفصل الخطاب قال رضى الله عنه بعد أن حمد الله وأثنى عليه « أما بعد أيها الناس فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى ، الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندى حتى أرد إليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله لا يدع قوم الجهاد

فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله .

جهاز النبى ودفنه

قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الثلاثاء فى بيته وبعد أن تمت البيعة لأبى بكر الصديق فى الصباح كان أول عمل قام به هو الاستعداد لغسله صلى الله عليه وسلم حيث تولى ذلك أقرب الناس إليه وهم على بن أبى طالب والعباس بن عبد المطلب وولداه الفضل وقُثَم فأسنده على بن أبى طالب إلى صدره وتولى غسله والبقية يقلبونه معه ويغسلونه دون أن يجردوه من قميصه وكان أسامة بن زيد وشُقْران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصبان الماء فلما فرغوا من غسله كفنوه فى ثلاثة أثواب وبُرد حِبرة ادرج فيها ادراجا فلما فرغ من جهازه وضع على سريره فى بيته وقد كان المسلمون اختلفوا فى دفنه فقال قائل ندفنه فى مسجده وقال قائل بل ندفنه مع أصحابه فقال أبو بكر إنى سمعت رسول الله صلى عليه وسلم يقول « ماقبض نبى إلا دفن حيث يقبض » فرفع فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى توفى عليه فحفر له تحته لحد ثم دخل الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلون جماعات جماعات فدخل الرجال حتى إذا فرغوا ادخل النساء حتى إذا فرغ النساء ادخل الصبيان ولم يؤم الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد . ثم دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الأربعاء وكان الذين تولوا انزاله فى قبره على بن أبى طالب والفضل بن عباس وشُقْران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم سوى قبره الشريف وقالت عائشة إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول فى مرضه الذى لم يقم منه « لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ولولا ذلك لابرز قبره . يحذر من ذلك أمته .

وما أن فرغ أبو بكر من أمر الدفن حتى أمر بتنفيذ أمر النبى بإنفاذ جيش أسامة فسار الجيش بقيادة أسامة وبه كل من أمر النبى بسيرهم معه ما عدا أبا بكر لأنه ولى الخلافة ولكنه ذهب معه لتوديعه ماشيا وأسامة راكب فرسه وإذ ذاك استأذنه

أن يترك له عمر بن الخطاب ليجلس إلى جانبه ويعينه فى بعض المهام فأذن له أسامة ومضى فى سبيله تحوطه رعاية الله حتى أقبل على البلقاء ونفذ أمر الرسول من تدمير تلك القرية الظالم أهلها والتى كانت أول من أغرى بلاد العرب بالأصنام ومنها جىء بهبل إلى الكعبة والتى كان الروم قد تجمعوا فيها وحاربوا المسلمين فى مؤتة وقتلوا أباه زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحه وقد استطاع خلال عشرين يوماً أن ينتقم للاسلام ويثأر لأبيه وصحبه وقفل راجعا إلى المدينة كما أمره الرسول يحمل راية النصر والظفر وصدق الله حيث يقول وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم .

رثاء أبى بكر

لقد كان أبو بكر أشد الناس تأثرا بوفاة رسول الله فهو أول من آمن به وهو الصديق الذى لم يشك لحظة فى كل مايخبره به من خبر السماء ويوم الإسراء والمعراج وهو صديقه ورفيقه فى الغار وهو وزيره وعضده فى المهمات وقد رثاه بعد موته ببعض أبيات رأينا من الواجب تسجيلها للتاريخ[1] وهى .

لمـــا رأيت نبينا متجندلا ضاقت على بعرضهن الدور
وارتعتُ روعةَ مستهام واله والعظم منى واهن مكسور
أعتيق ويحك إن حبّكَ قد ثوى وبقيتَ منفردا وأنت حسير
ياليتنى من قبل مَهْلَكِ صاحبى غُيِّبتُ فى جدث علىَّ صخور
فلتَحدُثَنَّ بدائع من بعده تَعيى بهن جوانح وصدور

* * *

ياعين فابكى ولا تسأمى وحُقّ البكاء على السيد
على خير خندفَ عند البلاء امسى يُغيَّب فى الملحد
فصلى المليكَ ولىُّ العبـا د وربُ البلاد على أحمد
فكيف الحياة لفقد الحبيـ ب وزين المعاشِر فى المشهد
فليت المات لنـا كلنا وكنا جميعا مع المهتدى

(١) فى صدور هذا الرثاء عن أبى بكر شك كبير واغلب الظن أنه مصنوع .

رثاء حسّان بن ثابت

وقد أنشد حسان بن ثابت شاعر الرسول عدة قصائد فى رثائه عليه الصلاة والسلام نثبت منها هذه القصيدة العامرة .

بطيبة رسم للرسول ومعهد ... منير وقد تعفو الرسوم وتَهمُدُ
ولا تمتحى الآيات من دار حرمة ... بها مِنْبر الهادى الذى كان يصعد
وواضح آثار وباق معالم ... وربع له فيه مصلى ومسجد
بها حجرات كان ينزل وسطها ... من الله نور يستضاء ويوقد
معارف لم تطمس على العهد آيها ... عَدَاها البلى فالآى منها تجدد
عرفت بها رسمَ الرسولِ وعهدَه ... وقبرا بها واراه فى الترب مُلحَد
ظللت بها أبكى الرسول فأسعدت ... عيون ومثلاها من الجفن تُسعِد
يُذَكِّرن آلاء الرسل وما أرى ... لها محصيا نفسى فنفسى تُبلَّد
مفجعة قد شفها فقد أحمد ... فظلت لآلآء الرسول تعدد
وما بلغت من كل أمر عُثَيرُه ... ولكن لنفسى بعد ما قد توجَد
أطالت وقوفاً تذرف العين جُهدها ... على طَلَلِ القبر الذى فيه أحمد
فبورکت ياقبر الرسول وبورکت ... بلاد ثوى فيها الرشيد المُسَدد
وبورك لَحْدٌ منك ضمن طيبا ... عليه بناء من صفيح منضد
تهيل عليه الترب أيد وأعين ... عليه وقد غارت بذلك أسعُد
لقد غيبوا حلماً وعلماً ورحمة ... عشية عَلَوَّه الثرى لا يوسد
وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم ... وقد وهنت منهم ظهور واعضد
يُبَكُّون من تبكى السموات يومه ... ومن قد بكته الأرض فالناس أكْمَد
وهل عدلت يوما رزيةُ هالك ... رزيةَ يوم مات فيه محمد
تقطع فيه منزل الوحى عنهم ... وقد كان ذا نورٍ يغور وينْجِد
يدل على الرحمن من يقتدى به ... وينقذ من هول الخزايا ويرشد

إمام لهم يهديهم الحقَّ جاهدا ... معلم صدق إن يطيعوه يُسعد
عفو عن الزلات يقبل عذرهم ... وإن يُحسنوا فالله بالخير أجود
وإن ناب أمر لم يقوموا بحمله ... فمن عِنْدِه تيسير ما يتشـــدد
فبيناهمو فى نعمة الله بينهم ... دليل به نهج الطريقة يقصد
عزيز عليه أن يَجُوروا عن الهدى ... حريص على أن يستقيموا ويهتدوا
عطوف عليهم لا يُثَنَّى جناحه ... إلى كنف يحنو عليهم وَيَمْهَدُ
فبيناهمو فى ذلك النور إذ غدا ... إلى نورهم سهم من الموت مُقْصِد
فأصبح محمودا إلى الله راجعاً ... يبكيه حق المرسلات ويُحمد
وأمست بلاد الحُرم وحشا بقاعها ... لغيبة ما كانت من الوحى تَعْهَدُ
قفارا سوى معمورة اللحد ضافها ... فقيد يبكيه بَلاطٌ وفَرقَد
ومسـجده فالموحشات لفقده ... خلاء له فيـه مقـام ومقعد
وبالجمرة الـكبرى له ثم أوحشت ... ديار وعرصات وربع ومولد
فَبَـكِّى رسولَ الله يا عينُ عبرة ... ولا أعرفنك الدهر دمعُك يجمد
ومالك لا تبكين ذا النعمة التى ... على الناس منهـا سابغ يُتغمد
فجودى عليه بالدموع وأعولى ... لفقد الذى لا مثله الدهر يُوجد
وما فقد الماضون مثـل محمد ... ولا مثله حتى القيامةِ يُفقَد
أعفَّ وأوفى ذمة بعد ذمة ... وأقرب منه نائلا لا يُنَـكَّد
وأبذلَ منه للطريف وتالد ... إذا ضن معطاء بمـا كان يُتْـلِدُ
وأكرمَ صيتا فى البيوت إذا انتمى ... وأكرمَ جَدًّا أبطحياً يُسَوَّدُ
وأمنعَ ذِروات وأثبتَ فى العلا ... دعائم عز شاهقات تشـــيد
وأثبتَ فرعاً فى الفروع ومنبتاً ... وعودا غَذَاهُ المزنُ فالعود أغيد
رباه وليدا فاستتم تمـامه ... على أكرم الخيرات رب ممجد
تناهت وصَاةُ المسلمين بكفه ... فلا العلم محبوس ولا الرأى يُفند
أقول ولا يُلفى لقولى عائب ... من الناس إلا عازب العقل مبعد
وليس هواى نازعا عن ثنائه ... لعلى به فى جنة الخلد أُخلد
مع المصطفى أرجو بذاك جوارَه ... وفى نيل ذاك اليوم أسعى وأَجْهَدُ

أحوال النبي الشخصية

لقد انتهيت من سيرة هذا النبي الكريم وتطورات حياته وبقي أن أتحدث عن شئونه الخاصة ليلم بها من يهمه أن يعرف شيئاً من ذلك وبالنظر لما أعرفه من شغف كثير من محبيه صلى الله عليه وسلم بالإحاطة بذلك وتلقينه لأبنائهم رأيت أن أنقل لهم فى هذا الباب ما نظمته فى كتابى سيرة سيد ولد آدم بأسلوب مختصر واضح وفى قالب شعرى يسهل تعلقه بالأذهان وسيأتى بعده بحول الله ما ينبغى عرفانه عن أخلاقه وشمائله وما جاء به من التعاليم وما دعا إليه من المبادئ وما رمى إليه من حكم التشريع وغاياته . فهذا فى نظرى هو أهم ما يجب أن يعرفه الناس عنه ليتأكدوا من بعد نظره وسمو مقصده وأن الشريعة التى جاء بها لا يمكن إلا أن تكون من عند الله للناس كافة فلا غنى لهم عن اتباعها إن كانوا يريدون السعادة الكاملة والسلام العام وقد ورد فى الأثر أنه لا يصلح حال هذه الأمة إلا بما صلح به أولها والله الهادى إلى سواء السبيل ولنبدأ بشخصه الكريم فنذكر أوصافه عليه الصلاة والسلام .

أوصافه

ولقد حوت معنى الجمال بشكله ... حتى غدا هو أوسم الطلعات
إذ كان مربوع القوام ورأسه ... ضخم وكان مرجَّل الشعرات
هو أسود شعراً ومبسوط الجبـ ... ـين ملأ لأمن كثرة السجدات
عيناه واسعتان دُعْجٌ فى بيا ... ضهما ترى شيئاً من الحمرات
وعليهما الأهداب حالكة السوا ... د طويلة تستلفت النظرات
والأنف منه قد استوى فى دقة ... أسنانه بيضاء مع فلجات
ذو حاجبين منونين على اتصا ... ل سابغين أشبها الهالات
من بينها عرق يلوح بحال غضـ ... ـبته فتعرفه من السيمات
وكلامه دوماً بشدقيه إذا ... ما قال قال جوامع الكلمات
ذو لحية كثة وعنق طال فى ... حسن عريض الصدر فى رحبات

قد قص شاربه وأخبر أن إبرا هيم كان يحف من حافات
حيُّ الفؤاد كذاك نضاح المحيـ ـا فى الحياء يفوق عن فتيات
واللون منه أزهر والكف والأة مدام فى شىء من العظمات
ضخم العظام طويل زند بسط أء صاب كذلك واسع الراحات
متماسك بدن سواء البطن مع صدر له خط من الشعرات
ما بين سرته ولبتـــه وأء لى الصدر شعر يشبه الحليات
متكفىء فى مشيه وكأنمـــا ينحط من صبب لدى الخطوات
وإذا أراد تلفتاً فبجسمه وتراه دوماً يطرق النظرات
وإذا أشار فبالميمن جميعها وإذا تعجب قلب الراحات
وكذاك يضرب راحة اليمنى على إبهام يسراه لدى الكلمات
ولربما هو عض من شفة وحر ك رأسه فى تلكم اللحظات
وبحال غضبته يشيح بوجهه ويغض من طرف لدى البسمات
وله بكاهله وأعلى الظهر كا نت شامة كالختم فى الهيآت
هى للنبوة خاتم وبها تعر فه فريق حالة الرضعات

طباعه وعاداته

متواصل الأحزان دائم فكرة يزن الكلام بمقتضى الحالات
ما كان بالجافى ولا هو بالمهيـ ـن كثير شكر الله فى النعمات
للحق نصرته ولم يغضب لنفـ ـس أو لها يتطلب النصرات
ويريد من أصحابه تبليغ ما يوصى به من أوجه الخيرات
للغائبين ونقل ما يشكون منـ ـه وما له يرجون من حاجات
ويجل كل كريم قوم فى الأنا م ويصطفى ويخص بالسلطات
ويزيد فى تقدير من هو ناصح حقاً ومن هو مكثر الحسنات
وكذاك يعطى للجليس نصيبه من عطفه فى حالة الجلسات
حتى يظن الكل أن قد خص منـ ـه بذا وأمسى وافر الحظوات

لم ينصرف عن مقبل ويصد من ... سأم عن الراجين للطلبات
كلاً ولم يرجع بيأس قاصداً ... حتى يمكنه من الرغبات
وسع الأنام بجوده وبخلقه ... وبما له من رقة الكلمات
ما كان يفحش أو يعيب ولم يكن ... فظاً غليظ القلب ذا قسوات
بل كان دوماً هيناً متغافلا ... عما عليه الناس من عورات
وإذا تكلم أطرق الجلساء وعند ... كلامهم هو دائم الإنصات
وكذاك يضحك إن هم ضحكوا ويعـ ... ـجب من تعجبهم على الحالات
وكذاك لم يقطع على أحد حديـ ... ـثاً أو يجافى صاحب الجفوات
ما كان يسرد قوله بل إنه ... يزن الكلام بمقتضى الحكمات
ويوضح المطلوب ثم يعيد ما ... يحتاج للتكرار من قولات

خطابته

وغدا دليل علومه بين الورى ... ما قد بدا منه من الحالات
إذ كان يرتجل الخطابة بعد ذا ... ك وينشر الإسلام بالدعوات
بفصاحة وبلاغة تسبى القلو ... ب وتأخذ الألباب بالروعات
ويقيم حجته بأحسن منطق ... يضطر سامعه إلى الإنصات
وكذا يراعى الصدق فى أقواله ... ويهمه الإعجاز بالآيات
وتراه فى كل المواقف باحثاً ... فيما يناسبها من الكلمات
ما كان يخرج قط من صدد إلى ... ما ليس يعنيه من الحالات
وبكل موضوع يوفى البحث إن ... ما رام بحثا فيه عن خبرات
وأجل ما يعنى به إصلاح أحو ... ال الورى من سائر الوجهات
وسعادة الدارين أكبر همه ... وكذاك نصر الدين بالحجّات
وكذاك جذب الناس نحو إلههم ... بأداء ما يرضيه من طاعات
وبكل وقت كان يخطب حسبما ... قد تقتضيه مواقف الحاجات
ويطيل فيها ما عدا خطب الروا ... تب كالتى فى العيد والجمعات

والصوت يعلو منه والعينان تحـ ـمران عنـد تزايد الغضبات
فكأنما هو منـذر جيشا يحر ـضه على الإقـدام للحومات
وهو الذى قد كان يخطب قائما فى منبر أو راكبا ناقات
وعلى العصا والقوس حيناً قد توكـ ـأ لا على سيف بلا ريبـات
وكذاك كان إذا أتاه عارض قطع الخطابة تلكم الفترات
وأتمها من بعد ذاك ولم يجد فى القطع من حرج ولا سبات
بل إنه عن منبر نزل الرسو ل بذات يوم ساعة الخطبات
إذا أقبل الحسنان فى ثوبيهما يتعثران بحالة المشيات
من أجل حملهما وعاد يقول حقـ ـاً إنما الأولاد من فتنات
وكذاك خاطب من أتى فى حال خط بته وأهمل سـنة الجمعات
إذ قال قم واركع (سليك) وإنما بتجوز فى هـذه الركعات

كلامه وضحكه وبكاؤه

وكلامه عذب فصيح يأخذ الأ لبـاب يسبى الروح بالنبرات
وتراه دوماً يشرح الموضـوع لا جلساء بل ويعيـده مرات
كى يفهموا مقصوده أو ينقلوا للغير ما قد قال بالدقات
ولقد يطيل سكوته إذ لم يكن ليقول قولا دون ما حاجات
ما كان يبحث قط فيما ليس يه نيـه ولا فى فاقد الثمرات
والضحك منه تبسم وبقدر ما تبدو نواجـذه من البسمات
ما فيه قهقهة ولا صوت ولا شىء من الإغراق فى الضحكات
وبكاؤه ما كان أيضاً بالشهيـ ـق ولا برفع الصوت من شدات
بل إنما هو صدره ليئز من حزن فتهمى العين بالدمعات
ولقد بكى من خشية المولى وعنـ ـد سماعه شيئـاً من الآيات
وكذاك إشفاقا على أقوامه وعلى الذين قضوا من الرحمات

جِدّه ومزاحه

وهو الذى قد كان دوماً صادقاً ... فى قوله لم يألف الكذبات
بل إنه ما كان ينطق عن هوى ... فيما روى للناس من آيات
كلا وما كذب الفؤاد عليه فى ... ماقد رأى من خارق العادات
أو زاغ فى الدنيا وضل سبيله ... وغوى فمال بها إلى الفتنات
بل كان حتى فى صباه مصدقا ... فى كل ما يرويه من قولات
والصدق منجاة لديه وعنده ا ... لكذاب ملعون على الفريات
ولقد توعد فى الكتاب الكاذبي ... ن وكال فيهم أعظم السبات
وكذاك أطرى الصادقين وقال إن ... الصدق ينفعهم لدى الميقات
من أجل ذا ما كان حتى فى المزا ... ح يقول غير الحق من كلمات
فلقد أتاه ذات يوم طامع ... فى حمله كرما إلى القريات
فأجابه حسنا على ابن النوق قا ... ل عدمته مافيه من قوات
فأجاب ويحك هل تجيء لنا الجما ... ل جميعها إلا من الناقات
وكذاك جاءته عجوز ترتجيـ ... ـه دعوة لتفوز بالجنات
فأجابها لا تدخل الأنثى العجو ... ز بها فولت ترسل الدمعات
فحنا عليها ثم قال لها ستر ... جع شابة فى تلكم الساعات
وتلا عليها أمر مولاها بأن ... سيعيدهن بأحسن الهيئات

نومه

ومنامه قد كان طورا فى الحصـ ... ـير وتارة فى الأرض والرملات
وعلى الفراش أو السرير كذاعلى ... نطع وأحيانا على الكسوات
وفراشه ووساده كان الأدـ ... ـيم وحشوه إذ ذاك من ليفات
ولحافه قد كان ثمت من نسيـ ... ـج الشعر يرقد فيه فى ساعات

طعامه وشرابه

والمصطفى قد كان يأكل ما تيـ ... ـسر عنده من سائر الأقوات
لم يرفض الموجود قط ولا يكا ... ـف نفسه المفقود للذات
بل كان يأكل من جميع الطيبا ... ت ولم يحرم سائر الثمرات
وإذا اشتمأزت نفسه من أى شى ... ء لم يذق منه ولا لقمات
من غير ذم قد ينفر غيره ... منه فيعرض عنه للقدوات
وأحب شىء عنده الحلوى كذا ال ... عسل الذى قد جاء فى الآيات
والتمر بالزبد الشهى كذلك الـ ... ـدباء فهى عديدة الميزات
وكذاك معظم أكله قد كان فى ... سفر على أرض مع الحشمات
ما كان يشغل كل راحته بأخـ ... ـذ طعامه فى ساعة الأكلات
بل كان يختص الثلاث من الأصا ... بع دون باقى الخمس عن حكمات
هى أن فى استخدامها جمعا دلي ... ـل نهامة والحرص والخسات
وإذا أتم طعامه لعق الأصا ... بع كى يراعى واجب النعمات
وكذاك لم يأكل رسول الله متـ ... ـكئاً على جنب ولا راحات
وكذا يسمى الله عند البدء فى ... أكل ويحمده لدى الشبعات
وبمعظم الأوقات يشرب قاعداً ... ويذم ذاك بحالة الوقفات

لباسه

وأحب شىء كان يلبسه القميـ ... ـص وكمه للرسغ من حشمات
وكذلك الفرّوجُ ألبس والإزا ... ر مع الرداء فأكمل الحالات
وكذا القباء وجبة وخميصة ... برد يمان خط بالحمرات
بل ربما قد كان أفضلها لديـ ... ـه ما يسمى عندهم حِبرات
وكذاك قد لبس الفراء وكان فيـ ... ـها سندس من فوق كالحليات
من تحت ذلك للسراويل ارتضى ... وقد اشتراها المصطفى بالذات

وأحب لون كان يلبسه البيا ... ض وقال عنه لكم وللأموات
والقطن أغلب لبسه والصو ... ف والكتان يلبسه على فترات
وبرأسه لبس العمامة مرخياً ... منها الذؤابة ساعة الخطبات
حينا وحينا لا وربما التحى ... بعمامة لتقيه من لفحات
وكذا القلانس تارة معها وأخـ ... ـرى دونها جريا مع الصدفات
وبرجله لبس النعال كذلك الـ ... ـخفين حتى ساعة الصلوات
ومشى كثيراً حافياً وكذاك سا ... بق ماشيا من شدة القوات
وعلى العموم فإنه قد كان يلبس ... ما تيسر دون ما كلفات
أما التقيد فى اللباس بحالة ... وتخير الأوضاع والهيئات
فمخالف لطريقة المختار من ... لا يرتضى الإذعان للشهوات
ويحذر الأصحاب من جر الثيا ... ب وما يراد بلبسه الشهوات
وخاتم من فضة لبس النبي ... وكان منه الفص فى الراحات
ولقد تمنطق بالدروع وكان يلبـ ... ـس خوذة لتقيه من ضربات
والطيب كان أحب شيء عنده ... كمحبة الصلوات والزوجات
والمسك كان أحب طيب عنده ... وكذاك فاغية من الزهرات

أثاثه

وأثاث بيت محمد خير الورى ... طرا ومنقذه من الظلمات
ما ليس يذكر عند أرباب الغنى ... شيئاً وكان لديه فى الحجرات
هو كل شيء فيه قد وجد النبـ ... ـى سريره والسعد والراحات
وغدا به فرحا شكورا قانعا ... لا يبتغى كثرا ولا قلات
أولى الأوانى قصعة كبرى لها ... فى الرأس أربعة من الحلقات
ما كان يحملها ثلاث من رجا ... ل كاملى الأعضاء والقوات
وكذاك أقداح ثلاث واحد ... منها بسلسلة من الفضات
وكذاك رابع من قوارير وخا ... مسها من العيدان للحاجات

ثور من الأحجار خصص للوضو ء وركوة للماء كالقربات
صاع ومد مخضب وقطيفة والفرش من أدم حشى ليفات
وله سرير واحد للنوم أحيـ ـاناً قوائمه من الساجات
وله كذلك مغسل قد صيغ من صفر ومدهنة مع المرآة
مشط ومكحلة ومقراضان مسـ ـواك وهم فى واحد الربعات
وله القضيب ومحجن وكذ اك مخصرة وثمت واحد العنزات
هذا عدا ما كان من ملبوسه فى السلم أوفى الحرب للساحات

فسطاطه

وبيوته لبن لدور واحد قد قسمت من داخل حجرات
بجرائد كسيت بطين ثم جلـ ـد أو كساء أسود الشعرات
والسقف من عيدان نخل مع جر يد ليط من أعلاه بالطينات
ولكل واحدة من الزوجات كا نت حجرة لتؤمن الراحات

راياته

راياته سود ومنها راية قد خصصت للمصطفى بالذات
هى من قماش الصوف سماها العقـ ـاب كذاك ربعها من الجنبات
وله لواء أبيض قد خط فيـ ـه شهادة هى أفضل الكلمات
ولكل شىء عنده اسم كان يعر فه به مِنْ خشية الضيعات

سلاحه

أسيافه تسع وسبعة أدرع وثلاث أتراس كذا حربات
ومن الرماح لديه خمس ثم ست فى ومغفرتان للساحات
وكذاك منطقة وجعبته وجبا ت ثلاث هن للحرمات

دوابه

أما الخيول فإنها سبع وكا ... ن لديه أربع من البغلات
وحميره كانوا ثلاثا ثم كا ... ن لديه أربع من الناقات
غير اللقاح وغير ما قد كان يمـ ... ـلكه من الأنعام للثروات

صفة ركوبه

وبغالب الأحيان قد ركب النبي ... خيوله وبنادر بغلات
بالسرج أحياناً وأخرى عاريا ... تٍ ثم كان يُجدُّ فى السرعات
فى نادر حيث التأنى شأنه ... فى غالب الأوقات والحالات
وعلى البعير المصطفى قد كان ير ... كب مفرداً فى غالب الأوقات
وتراه يردف تارة من خلفه ... بعض الرجال كذاك والزوجات
وكذاك يركب من أمام ثالثا ... حينا ولكن ذا مع الندرات

ثروته

ولقد حبى المولى النبي بهذه الد ... نيا بأنواع من المتعات
وبكل أسباب السعادة والسرو ... ر وكل مافى الأرض من زينات
فالمال كان لديه موفورا وينـ ... ـفقه لوجه الله فى الخيرات
ويجود للزوار منه ولا يخا ... ف الفقر عند البذل للصدقات

أولاده

وبنوه كانوا سبعةً القاسم ... وأخوه عبد الله ذو الكنيات
وكذاك زينب أم كلثوم رقيـ ... ـة ثم فاطمة من الفتيات
وجميعهم جاؤوه من نحر النسا ... ء خديجة من أول الزوجات
من بعدهم وأجبهم قد كان إبر ... اهيم إذ هو آخر الفلذات

وهو ابن مارية التى جاءته من أقباط مصر بآخر الأوقات
والكل منهم ماعدا الزهراء فا طمة توفى وهو قيد حياة
وهى التى من بعد ستة أشهر من فقده ماتت من الحسرات
وبذاك بشرها النبى فأفعمت فرحا وكان يعالج السكرات

نِسَاؤُه

ونساؤه كُبْرٌ وأولاهن من بالنفس واسته وبالثروات
قبل الرسالة وهى أول من به قد آمنت وفدته بالمهجات
أعنى خديجةَ من لها قد أرسل المو لى السلام فنالت العزات
ووفى لها طه وقدَّر نُبلها واختصها بالحب والنظرات
إذ لم يفكر فى الزواج بغيرها حتى ثوت فى الترب بعد ممات
مع أنه قد كان فى شرخ الشبا ب وكان ثمة وافر القوات
وغدت محبتها تجيش بقلبه فتغار منها أصغر الزوجات
من بعدها قد كان سودة وابنة الصديق ذات النبل والحظوات
أعنى بها محبوبة المختار عا ئشة التى امتازت بخير صفات
إذ أكرم المولى النبى بها وأطلعه عليها قبل فى زينات
وبنى بها فى سن تسع ثم علـ ـها ففازت منه بالحكمات
وغدت بحق أعلم الزوجات بل هى مرجع الفُتْيَا وخيرُ رواة
وهى التى بالإفك قد رُميت فَبرَّ أها الإله بمحكم الآيات
وكذا ابنة الخطاب حفصة ثم بنـ ـت خُزيمة من عوجلت بوفاة
وكذاك هند أم سلمة ثم زيـ ـنب بنت عمة سيد السادات
هى بنت جحش من لها قد زوج المـ ـولى ونص عليه فى السورات
وكذا جويرة وأم حبيبه من قد أتت من أبعد الهجرات
حيث النجاشى كان أمهرها وقـ ـدمها له فى أحسن الحلات
من بعدهن صفية من نسلها رون وكانت أجمل الفتيات

ميمونة هى من بهـا ختم النبى زواجـــه فى أشرف البقعات
والكل كانوا ثيبات إذ تزو جهن طـه تلكم الأوقات
إلا ابنة الصديق عائشة فبكر وهى صغراهن فى السنوات
عن تسعة منهن مات المصطفى وظللن كالنبراس فى الظلمات
يرشدن من رام الهدى عما عليـ ـه المصطفى قد كان فى الخلوات
وهناك من طلب النبى زواجها لكنه قـــد غير الفكرات
وكذاك من لم يدخل الهادى بها نظراً لمـا فيها من العاهات
وكذا التى وهبته عصمتها فزو جها ســـواه وأمهر الآيات

سراريه

أما سراريه فـــارية التى حظيت بإبراهيم فى بهجات
ريحانة من بعـدها وكذاك جا ريتان واحـدة من الغزوات
وكذاك أخرى بنت جحش أوهبتـ ـها للنبى لغـــاية المتعات

عشرته لزوجاته

والمصطفى ما كان بين الناس أحسـ ـن عشرة منـه مع الزوجات
إذ كان يقسم بينهن مبيته معهن والإيواء والنفقـات
وبحالة الأسـفار يقرع بينهـ ـن لأخذ من فازت لدى القرعات
ويطوف حول نسائه مستقرئا مـا قـد يَعِنُّ لهن من حاجات
من بعد فرض العصر يوميا بلا مس ويقضى الليل بالنوبات
إذ لم يفضل بعضهن بمكثه فى بيتهـا عن سائر الضَّرات
ويقول ذا قسمى بمـا أسطيعه أما الذى هو داخل المهجات
فاصفح إلهى عنـه إذ أن القلو ب جميعها بيديك عالى الذات
إذ كان ميالا لعائشة وكا ن لهـا ينفـذ سائر الرغبات
إن لم يكن فى ذاك محظور ولا مـا قـد ينافى واجب النَّصَفَات

إذ كان يأتى بالبنات للعبها معهن حتى تدرك البهجات
وكذا يسابقها إذا هو قد خلا عن أعين النظار فى الفلوات
ويسرها بتفوق منها عليـ ـه لخفة فى الجسم والحركات
ويقول عنـد تفوّق منه عل يها ما يُطَيِّبُها من الكلمات
وكذا يسترها لكيما تنظر الأحـ ـاش إذ هم مثلوا اللعبات
فى العيد حتى تكتفى من نفسها من ثم يجلس سيد السادات
بل إنه فى العيد كان يسرها بالدف أو بأحاسن الأصوات
وكذاك كان المصطفى من حبها يختصها بالعطف والحظوات

رسالة

الأخلاق فى الأمة عماد نهضتها وسر عظمتها والأساس الذى تبنى عليه حياتها ويفخر به أبناؤها وكل أمة يتجرد أبناؤها عن الأخلاق الفاضلة أو تنحط أخلاقها لا تقوم لها قائمة ولا يرفع لها ذكر بين الأمم ذلك لأن الأخلاق هى الوازع النفسى فى الإنسان الذى يدعوه إلى الخير ويصده عن الشر وحركات الجوارح من تأثير ما فى الخاطر وأعمال الظاهر دليل على ما تكنه السرائر كما يقول الشاعر :

وما هذه الأفعال إلا مظاهر تترجم عما قد تكن الضمائر

ومن أفعال الإنسان يعرف كنهه وتتضح حقيقته وسر خُلقه .

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

فإذا حسنت أخلاق الناس حسنت أعمالهم وطابت عشرتهم وأنصفوا من أنفسهم فلم يتجاوزوا حدودهم ولم يعتدوا على غيرهم وإذا ساءت أخلاقهم ساءت تصرفاتهم وتعددت مساوئهم ونفر منهم أقرب الناس إليهم وفسد بذلك المجتمع الذى يعيشون فيه .

ومن أجل هذا أنزل الله الكتب وأرسل الرسل لهداية الناس تدريجياً إلى مكارم الأخلاق بعد أن كانوا يعيشون على الفطرة لا وازع لهم يدفعهم إلى الخير وينهاهم عن الشر فجاء كل رسول يهذب أخلاق أمته وفق مداركهم ويخاطبهم على قدر عقولهم

بحسب ما تقتضيه أطوار التربية التى أسسها الله تعالى لتربية عباده فعند ما كانوا كالأطفال بعقولهم القاصرة أرسل لهم رسلا تستدرجهم إلى عبادة الله بالأمور المادية وتخوفهم بخوارق العادات لردعهم عن الأمور الدنيئة ليستقيم أمرهم وتصلح أحوالهم .

حتى إذا بلغت السلالة البشرية رشدها وتكامل عقلها وارتقت مداركها أرسل الله خاتم الرسل والنبيين محمد بن عبد الله للأخذ بيد الإنسان إلى الكمال الخلقى عن طريق استخدام العقل لمعرفة حقائق الأشياء وأحوال سائر الموجودات التى تنتهى إلى الله خالقها وميسرها .

لعل فى هذه المعرفة ما يجذب النفوس إلى الله ويحملها على اتباع أوامره واجتناب نواهيه فتستقيم الأخلاق وتحسن الأعمال ويعيش الناس فى هناء دائم .

جاء الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم وأعلن على رؤوس الأشهاد قوله (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) فكانت الأخلاق الحسنة روح العبادات التى جاء بها وأفضل القربات التى دعا إليها وكانت هى من أجل صفاته البارزة التى وصفه الله بها فى كتابه الكريم حيث قال « وإنك لعلى خلق عظيم » .

ومن المعلوم أن المراد بالخُلُقِ الصورة الباطنة للإنسان كما أن المراد بالخَلْقِ الصورة الظاهرة له . فإذا قيل فلان حسن الخَلْقِ والخُلُقِ فمعناه أنه حسن الظاهر والباطن وقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان مركباً من جسد مدرك بالبصر ونفس مدركة بالبصيرة ولكل منهما هيئة وصورة إما قبيحة وإما جميلة ولا شك أن ما كان مدركاً بالبصيرة أعظم مما هو مدرك بالبصر ولذلك عظم الله أمره فأضافه إليه حيث قال « إنى خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين [1] » فأشار بذلك إلى أن الجسد منسوب إلى الطين والروح إلى رب العالمين .

فأما هيئة الجسم الظاهرة فيمكن الحكم بحسنها وجمالها بمجرد النظر إليها وأما هيئة النفس الباطنة فلا يمكن معرفتها وحسنها وقبحها إلا بما يبدو من أعمالها الظاهرة باعتبارها هى مصدر الفكرة وهى التى تهيمن على أعمال الجوارح . فما كان من الأفعال محموداً دل على نفس طيبة وخُلق حسن والعكس بالعكس . وليس كل

---

(١) س : ٧١، ٧٢

عمل الإنسان يدل على حقيقة نفسه بل إنما الذى يدل عليها هو العمل الذى يصدر بسهولة ويسر وعلى وتيرة واحدة ومن غير حاجة إلى تفكير وروية . وأما الأفعال التى تصدر بتكلف وعلى سبيل الشذوذ أو بعد تردد وتروٍ فلا يصح أن تكون دليلا على حقيقة نفس الإنسان فمن يصدر منه بذل المال مثلا على سبيل الشذوذ لظرف خاص لا يقال إن من خلقه السخاء لأنه قد يقصد الرياء أو تحت تأثير أمر آخر ومن يتكلف السكوت فى حالة الغضب لا يقال عنه إنه حليم الطبع لأنه قد يكون مكرها عليه .

وهذا قياسا على الصورة الظاهرة للإنسان فإنه لا يصح الحكم بجمال الخلقة إلا إذا تجلى ذلك فيها وهى فى حالتها الطبيعية دون أن تتطرق إليها يد التجميل والتحسين كذلك لا يشترط فى إثبات صفة النفس من حسن أو قبح وجود فعل لها فى الظاهر لأنه قد تستر الصفة فى النفس لعدم تهيئ أسبابها كأن يكون الرجل جواداً ولكنه لم يجد على أحد لعدم وجود ما يجود به .

ولا يكفى لإثبات صفة الجمال فى الصورة الظاهرة للإنسان وجود الحسن فى عضو دون آخر بل لا بد من وجود الحسن فى كل عضو من الأعضاء مع تناسب وتناسق فى الأجزء ليتم بذلك جمال الكل ولهذا قيل فى حقيقة الجمال إنه تناسب الأعضاء وكذلك الحال فى الصورة الباطنة فلا بد من توفر الحسن فى جميع القوى النفسية حتى يتم بذلك حسن الخلق وقد جعل الله فى الباطن أربع قوات وهى قوة العقل وقوة النفس وقوة الشهوة وقوة الإرادة أما قوة العقل فحسنها وصلاحها فى أن تصير بحيث يسهل معها إدراك الفرق بين الصدق والكذب فى الأقوال وبين الحق والباطل فى الاعتقادات وبين الجميل والقبيح فى الأفعال فإذا صلحت هذه القوة أثمرت الحكمة « والحكمة » أساس الأخلاق الحسنة وهى التى قال الله تعالى عنها « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » وقال ابن عباس فى تفسيره لقوله تعالى « ولقد آتينا لقمان الحكمة » يعنى العقل والفهم والفطنة من غير نبوة — وأما قوة النفس فحسنها فى إسلامها حتى يحصل كفها عن الخوف وقضاء وطر الغضب ويسمى ذلك بالشجاعة — وأما قوة الشهوة فحسنها أن تكون قابلة للضغط والانسجام وتسمى عندئذ بالعفة — وأما قوة الإرادة فحسنها أن تكون خاضعة للحكمة منفذة لأوامرها متمشية مع الشرع قادرة على ضبط قوتى النفس والشهوة وتسمى هذه الحال بالعدل — وحالة التناسب فى هذه القوى هى درجة

الاعتدال فى كل . فأى ما قوة من هذه القوى تجاوز فيها الحسن حد الاعتدال انقلبت إلى ضده من السوء على حد قولهم « إذا اشتد البياض صار برصا » وإذا زاد الشىء عن حده استحال إلى ضده فمثلا حالة الاعتدال فى قوة النفس الغاضبة تسمى شجاعة وحلماً فإن مالت عن حد الاعتدال إلى طرف الزيادة يسمى تهوراً وإن مالت إلى الضعف والنقصان يسمى جبناً وخوراً وحالة الاعتدال فى القوة الشهوانية يسمى فضيلة وعفة فإن مالت إلى الزيادة يسمى شرهاً وإن مالت إلى النقصان يسمى جموداً وبلادة والطرفان رذيلتان مذمومتان . كما قيل « كلا طرفى قصد الامور ذميم »

وأما الاعتدال فى قوة الإرادة فيسمى عدلاً وليس له طرفا زيادة أو نقصان وإنما يقابله شىء واحد هو الجور إلا أنه قد يكون للعدل طرفان متغايران باعتبار كماله ونقصانه وباعتبار ظهوره فى وصفه الحقيق وفى غير وصفه بأن يسمى عدلاً بالإضافة وهو جور فى الحقيقة وذلك كقولهم « المساواة فى الظلم عدل » .

كذلك الحال فى الحكمة التى هى ثمرة العقل ليس لها طرفا زيادة أو نقصان ولكنه إذا أفرط فى استعمالها للأغراض الفاسدة يسمى ذلك خبثاً وإن ضعفت قوة العقل اعتبر ذلك بلها وإذا اشتد الضعف كان قنوعاً .

وبالإجمال فإن من اعتدال هذه الأصول الأربعة الحكمة والشجاعة والعفة والعدل تصدر الأخلاق الجميلة كلها . فإن من اعتدال قوة العقل يحصل حسن التدبير وجودة الذهن وثقابة الرأى وإصابة الظن والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس ومن إفراطها يصدر المكر والخداع ومن تفريطها يصدر الجنون وأما خلق الشجاعة فيصدر عنه الكرم والنجدة والشهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتودد إلى الناس وأما إفراطها وهو التهور فيصدر منه الصلف والبذخ والتكبر والعجب وأما تفريطها فيصدر منه المهانة والذلة والجزع وصغر النفس وأما خلق العفة فيصدر عنه السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة والورع واللطافة والظرف وقلة الطمع وأما ميله إلى الإفراط أو التفريط فيحصل منه الحرص والشدة والوقاحة والرياء والتبذير والتقتير والعبث والملق والحسد والشحاتة والتذلل للأغنياء واحتقار الفقراء .

قد بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم حد الاعتدال فى كل شىء واتصف بجميع صفات الكمال ودعا إلى ذلك بأقواله وأعماله وما أنزل عليه من كتاب . وشريعته كلها

دائرة حول هذا الباب حتى لقد عرف الله المؤمنَ الصادق الإيمان بأنه هو ذلك الذى تتوفر فيه تلك القوات الأربع قوة العقل وقوة النفس وقوة الشهوة وقوة الإرادة حيث قال « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون[١] » — فالإيمان بالله ورسله لا يكون إلا بقوة العقل وعدم الارتياب هو نتيجة قوة الإرادة والمجاهدة بالنفس هى الشجاعة التى تؤدى إلى إسلام قوة النفس وكفها عن الخوف والمجاهدة بالمال هى العفة التى تخضع شهوة النفس وتجعلها قابلة للضغط والانسجام . وأشار القرآن إلى أن الخلق الحسن هو فى الاعتدال فى كل هذه القوى وأن الميل إلى أحد الجانبين مذموم . بما وصف به سبحانه السخاء أنه وسط بين طرفى التبذير والتقتير حيث قال (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما[٢] » وقال « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط[٣] » وماوصف به شهوة الطعام من الاعتدال دون الشره والجمود حيث قال « كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين[٤] » وما وصف به الغضب حيث قال « أشداء على الكفار رحماء بينهم[٥] » إشارة إلى أن للشدة موضعاً وللرحمة مثلها فليس الكمال فى الشدة بكل حال ولا فى الرحمة بكل حال .

وأمثال هذه التعاليم الإلهية فى التربية الأخلاقية كثيرة فى القرآن الكريم وأما فى السنة فحسبنا ما ثبت عن أخلاقه عليه الصلاة والسلام من أنه كان أحلم الناس وأشجعهم وأعدلهم وأعفهم وكان أسخى الناس وأبرهم وأكثرهم حياء وتواضعا وأنه كان يخدم أهله ويقطع اللحم معهن ولا يستكبر عن المشى مع الأرملة والمسكين ويغضب لربه ولا يغضب لنفسه وينفذ الحق ولو على أهله ويقبل معذرة المعتذر ولا يحقد على أحد ولا يجازى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح .

قال خادمه أنس رضى الله عنه والذى بعثه بالحق ماقال لى فى شىء قط كرهه لم فعلته ولا أمرنى بأمر فتوانيت فيه فعاتبنى عليه فإن عاتبنى أحد من أهله قال دعوه فلو قدر شىء كان وكان صلى الله عليه وسلم يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط ثوبه لمن

---

(١) الحجرات : ١٥ (٢) الفرقان : ٦٧
(٣) الإسراء : ٢٩ (٤) الأعراف : ٣١
(٥) الفتح : ٢٩

قرابة وكان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التى تحته فإن أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يفعل وما استضعاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عنده حتى يعطى كل من جلس إليه نصيبه من وجهه وكان أبعد الناس غضبا وأسرعهم رضا وأرأف الناس للناس وكان أكثر الناس تبسما وضحكا فى وجوه أصحابه وتعجباً مما يتعجبون منه .

قال له رجل يوماً « يا رسول الله آلله يحب مكارم الأخلاق » فقال صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لا يدخل الجنة إلا حسن الأخلاق وسأله رجل عن حسن الخلق فتلا قوله تعالى « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين[1] » ثم قال هو أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك وقال صلى الله عليه وسلم « أثقل ما يوضع فى الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق » وجاء رجل إليه صلى الله عليه وسلم من بين يديه فقال يا رسول الله ما الدين قال : « حسن الخلق » فأتاه من قبل يمينه فقال : يا رسول الله ما الدين ؟ فقال « حسن الخلق » ثم أتاه من قبل شماله فقال يا رسول الله ما الدين ؟ فقال « حسن الخلق » ثم أتاه من وراءه فقال يا رسول الله ما الدين ؟ فالتفت إليه وقال : أما تفقه هو أن لا تغضب « وقيل يا رسول الله ماالشؤم ؟ قال سوء الخلق وقال رجل لرسول الله أوصنى فقال اتق الله حيث كنت قال زدنى قال خالق الناس بخلق حسن وسئل عليه الصلاة والسلام أى الأعمال أفضل قال حسن الخلق وقيل يا رسول الله أى المؤمنين أفضل إيماناً قال أحسنهم خلقاً وقال صلى الله عليه وسلم إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق وقال أيضاً سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل وقال صلى الله عليه وسلم إن أحبكم إلى أحاسنكم أخلاقاً وقال أيضاً إن حسن الخلق ليذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد وقال أيضاً من سعادة المرء حسن الخلق إلى غير ذلك من الأحاديث التى لا تحصى فى هذا الباب . وقال معاذ بن جبل أوصانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا معاذ إنى أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث ووفاء العهد وأداء الأمانة وترك الخيانة ورحمة اليتيم وحفظ الجار وكظم الغيظ وخفض الجناح وبذل السلام ولين الكلام ولزوم الإيمان والتفقه فى القرآن وحب الآخرة والجزع من الحساب وقصر

---

(١) الأعراف : ١٩٩

ليست بينه وبينه الأمل وحسن العمل وعيادة المريض والإسراع فى حوائج الأرامل والضعفاء وقول الحق وأنهاك أن تشتم مسلما أو تكذب صادقاً أو تصدق كاذباً أو تعصى إماماً عادلاً .

وهذه كلها تحض على طب الأرواح ومعالجة أمراض النفوس لإصلاح حالة المجتمع ولما كان القرآن مشتملا على العقائد الصحيحة والآداب العالية وأصول التشريع الاجتماعى والمدنى فقد عالج به الرسول أمة عريقة فى الشقاق وحمية الجاهلية عريقة فى الجهل والأمية ورذائل الوثنية فشفيت واتحدت وتعلمت الكتاب والحكمة وسادت الأمم من بدو وحضر مع أنه كان أمياً لم يتعلم شيئاً من العلوم ولم يمارس سياسة الشعوب ومما ساعده على ذلك هو أن القرآن الكريم له أسلوب خاص فى الهداية لا يمكن إلا أن يسلم به كل ذى عقل سليم كبناء العقائد على البراهين العقلية والكونية وبناء الأحكام الأدبية والعلمية على قواعد المصالح وجلب المنافع ودفع المضار والمفاسد وكبيان أن للكون سنناً مضطردة تجرى عليها عوالمه العاقلة وغير العاقلة وكالحث على النظر فى الأكوان والتدبر فى أحوال بنى الإنسان لحصول العلم والمعرفة بما فى ذلك من الحكم والأسرار التى يرتقى بها العقل وتتفتح أمامه السبل لإدراك النافع والضار فقامت بذلك الحجة على من شاهد أو يشاهد تلك الآيات وجعل الله القرآن آية كبرى لإثبات رسالة خاتم النبيين دون أن يكون لشخصه أى دخل فى ذلك إلا مجرد التبليغ والتنبيه والإنذار والترغيب . كما صير آياته دعوة إلى الحق قائمة دائمة لا تنقطع لقوم يعقلون من عهده صلى الله عليه وسلم إلى يوم الدين .

وعلى أساس هذه التعاليم ربى الرسول أمته وجعلهم من أحسن الناس أخلاقا وأكرمهم شمائلا وأصفاهم نفوساً وأفضلهم عملا بعد أن كانوا من أسوأ الناس طباعاً وأسودهم صحيفة ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات وعنوا بالماديات ولم يراقبوا خالق الأرض والسموات فانحطت نفوسهم عن الكمال وأصابهم ما أصابهم من الذل والانحلال حتى غدوا مثلا سيئاً يصور الإسلام على غير حقيقته ويبعد به عن جوهره وغايته . وهكذا نرى العالم بأسره اليوم يقاسى أنواعاً من المشاكل الاقتصادية ويتطاحن مع بعضه فى سبيل الحصول على مطالبه

المادية دون أن يوفق إلى حل يضمن السعادة والسلام وإن فى تعاليم الإسلام التى أنزلت على محمد بن عبد الله للناس كافة والتى تدعو إلى حسن الخلق والكمال الإنسانى ما ينير لهم الطريق ويشخص لهم الداء ويرفع عنهم أسباب البلاء فهل من متعظ ؟؟.

تقويم الأخلاق

لقد كان من مهامّ رسالة النبى (محمد) صلى الله عليه وسلم إتمام مكارم الأخلاق وبعبارة أخرى تقويم اعوجاج النفوس حتى تصلح بذلك أعمال الناس وتستقيم أمورهم وأنىّ له ذلك والنفوس من المخلوقات الباطنة الخفية التى لا سلطان ولا رقيب عليها وما الأبدان إلا تابعة لها ومنقادة لأوامرها ، ولم تكن مهمة الرسول مقصورة على تهذيب أخلاق قومه فحسب كمن سبقه من الرسل ولكنه أرسل للناس كافة وعهد إليه بهداية ملايين البشر إلى التخلق بالأخلاق الحسنة واتباع تعاليم الله التى تخرجهم من الظلمات إلى النور .

وإنها لمهمة قد تبدو شاقة وصعبة التنفيذ لمن يرى أن إخضاع الناس للأحكام فى الظاهر متعذر فكيف يمكن كبح جماح نفوسهم المطبوعة على الشر وترويضها على التخلق بالأخلاق الحسنة والحقيقة غير ذلك ، فالله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان مكونا من ثلاثة عناصر :

١ — الجسم : وهو هذا الهيكل المادى الذى خلقه الله هيئة مخصوصة وسن له نظاما لتطوراته لايمكن أن يختلف عنه .

٢ — النفس : وهى مخلوق لطيف ذرى لا يرى أخبرنا الله فى القرآن أنها تحل بالبدن وتنفصل عنه وتصعد وتنزل وتذهب وتجىء فى العالم الغير منظور وتتحرك وتسكن دون أن ترى بالعين أو تدرك بالحواس الظاهرة وهذه النفس هى أصل الإنسان المسيطرة على أعضائه وقد جعلها الله على حالة قابلة للانقياد والتوجيه والإصلاح والتقويم ولذلك اختصها الله تعالى بالتكليف والسؤال والعقاب والثواب وبعث الله الرسل وأنزل الآيات لتهذيبها وترويضها على مكارم الأخلاق والهداية لأقوم السبل .

٣ — الروح : وهى أمر خارج عن تكوين الإنسان ولكنها قائمة به ومظهرها الخارجى الحياة وهى بعبارة أخرى إحدى القوى الإلهية التى خصصت لحركة المخلوقات ونموها فهى موجودة فى كل إنسان وحيوان وشجر تبعث فيهم الحياة والنشاط أشبه بقوة الكهرباء ووسائل توليدها ظاهرة ومظهرها فى الخارج واضح وحقيقتها سر لا يعرف فقوة الحياة واحدة فى جميع المخلوقات وسائر الأفراد لا تتجزأ يهبها الله لمن قدرت له الحياة وينزعها منه عند انتهاء الآجال . وهى منحة الرب وتسمى الروح وهى من أمر الله أوهى سر من أسراره الخفية أوهى روح من الله نفخها فى آدم بعد أن خلقه نفسا ثم صوره هيكلا فدبت فيه الحياة (انظر تفصيل ذلك فى الجزء الثالث من تفسير الخطيب المكى صفحة ٧٢) ومن أجل هذا جاء النبى صلى الله عليه وسلم بشريعة تسمو بالناس عن محيط المادة الضيق إلى ميدان الروحانية الفسيح وتربأ بهم عن الركون إلى شهوات النفس المادية إلى ملذاتها المعنوية ليذيقهم طعم السعادة الحقة والراحة والطمأنينة . فعمد إلى النفوس يغرس فيها روح الإيمان بالمغيبات ويستميلها بالحجة والآيات البينات ويدعوها إلى الاتصال ببارئ الأرض والسموات حتى تسلم له القياد وتخضع له فى متابعة الجهاد ولم يحاول قط أن يخضع الناس بالقوة لأن ما يدعو إليه متعلق بالقلب والقلوب لا تخضع للقوة وسلاح القوة لا يدوم وقد منع من ذلك بقوله تعالى « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين[1] » فإذا كان رب العزة الذى يستطيع أن يجعل الناس جميعاً مؤمنين بكلمة منه قد جعل لهم الحق فى اتباع ما يرون واختيار الطريق الذى يسلكون ليرتب على ذلك الثواب والعقاب فما يكون لرسوله أن يعمد إلى إكراههم على قبول دعوته بالقوة بل لابد له أن يستعمل طرقاً للدعاية يجذب النفوس بها إليه ويحملها على متابعته ولقد علّم الله رسوله كيف يدعو الناس إليه حيث قال تعالى « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن[2] » وصدع الرسول بما أمر به وظل ثلاثة عشر عاماً فى مكة يدعو الناس إلى الله فلم ينجح فى إقناع أكثرية قومه فى مكة بتصديقه

---

(١) يونس : ٩٩ (٢) النحل : ١٢٥

وأتباعه وقاسى فى ذلك من أنواع العنت والإيذاء ما يضيق به أوسع الناس صدراً على حد قول القائل . ولحمل الصخر على الأعناق خير من تفهيم من لا يفهم ولكن الرسول الأعظم بما آتاه الله من خلق عظيم لم ييأس ولم يغضب ولم يضق صدره من قومه فلم يدع عليهم بأنواع البلاء كما حدث ممن قبله من الأنبياء الذين دعوا على شعوبهم فدمرهم الله « وقال نوح رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا — إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا[1] » بل كان يقول « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » .

أركان الإيمان

لقد وجه عليه الصلاة والسلام كل عنايته إلى النفوس يبث فيها روح الإيمان ويؤهلها إلى تقبل الهداية والتصديق بالمغيبات ، ولما كان الإيمان هو التصديق الجازم المقترن بإذعان النفس وقبولها واستسلامها لما تراه حقاً لا شك فيه ، وقد فطرت على أن لا تؤمن إلا بالأمور المحسوسة أخذ يوقظ فى الناس ملكة الحس الباطن ويهيب بهم أن يستعملوا عقولهم ويمرنوا أفكارهم على التحليق فى سماء الخيال الواسع للبحث عن حقائق هذه الأشياء المادية لمعرفة كنهها ومصدرها والسر فى تطوراتها وما تنتهى إليه وكان فى معجزته التى جاء بها من عند الله وهى القرآن توجيه تام للعقول إلى الحقائق وإرشاد لها إلى ما خفى عليها أمره من الدقائق ونور يهدى به الله من ابتغى رضوانه وإيضاح للناس عما خفى عليهم من غيب أرضه وسمائه .

ولقد دعا الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان وقسم الإيمان إلى ستة أقسام وأخذ يقنع الناس بها تدريجياً وسميت هذه أركان الإيمان :

١ — الإيمان بالله .
٢ — الإيمان بالملائكة .
٣ — الإيمان بالكتب السماوية .
٤ — الإيمان بالرسل .

---

(١) نوح .

٥ — الإيمان باليوم الآخر .

٦ — الإيمان بالقدر .

وسنتكلم على ذلك تفصيلا فيما يلى .

الايمان بالله تعالى

يقول الله تعالى فى كتابه الكريم « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون [١] » فبالسمع والبصر يدرك الإنسان الأشياء المادية التى تقع تحت سمعه وبصره وبالأفئدة يمكنه أن يكتشف ما وراء هذه الموجودات المحسوسة من مخلوقات ذرية . وقوى روحية وأنظمة كونية غيبية وعوالم كثيرة متعددة ، ومن أجل هذا كان الناس بفطرتهم يحكمون العقل فى التمييز بين الحسن والقبيح والنافع والضار ، ولقد أدى بهم تفاوت العقول وتضارب الأفكار إلى الاختلاف فى العقائد والأعمال وكأنما شعروا بسلطان غيبى لم يعرفوا كنهه ولكنهم آمنوا أنه فوق جميع قوى العالم فراحوا يتخبطون فى معرفة حقيقته وشعروا بحاجتهم إلى من يدلهم عليه ويهديهم إليه كما يميز لهم الأحكام ويرشدهم إلى الصواب فأخذوا يتلمسون الإمداد من بعض المخلوقات الظاهرة فمنهم من عبد الشمس ومنهم من عبد القمر ومنهم من عبد النجوم ومنهم من اتخذ الأوثان معبوداً ومنهم من قصر تفكيره عند حد المادة فلم يتجاوزها وقال إن هذه الموجودات إنما خلقت بطبعها وعلى نظامها الخاص فلا حاجة إلى عبادة الله بالمرة ومضى الجميع يحرمون ويحللون بحسب ما توحيه إليهم أفكارهم المتباينة لا يتحدون فى شىء ولا يصدرون فى أحكامهم عن أساس صحيح أو مستند قوى حتى أرسل الله لهم الرسل لتقضى على تلك الاختلافات فى العقائد والأحكام وتهديهم إلى ما يرضى بارىء الأنام وإلى هذا يشير قوله تعالى « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه [٢] » .

---

(١) النحل : ٧٨ .

(٢) البقرة : ٢١٣ .

فى إبان تلك الحيرة التى كان عليها الناس أرسل الله الرسل لكل فريق من عباده يدعونهم إليه وأنزل معهم من الكتب السماوية مافيه خيرهم وأمدهم منه تعالى بالقدرة على خرق بعض العادات لإثبات رسالتهم عن الله القدير على كل شىء ، فآمن بهم من آمن وجحد من جحد ، ومات الرسل وانقضت على ذلك الأعوام وإذا ببعض الأتباع يجمع ماتناثر من تلك الكتب بعد عشرات السنين ويتناولها بالتغيير والتبديل والمسخ والحذف ، وكان من أهم ما أحدثوا فى تلك الكتب أن جعلوا للرسل نصيباً فى العبادة واتخذوا منهم شركاء فى الحكم والسيادة فخرجوا بالناس عما جاء به الرسل من غاية ، هى توحيده تعالى والرجوع إليه فى البداية والنهاية ، وإذ ذاك أرسل الله خاتم النبيين بطريقة غير طريقة الرسل السابقين حيث جعل الكتاب الذى أنزل عليه معجزة لإثبات رسالته ، والدلالة إليه ، وجعل منه هداية علمية وأدلة منطقية دائمة لا تنقطع على ممر الأيام والعصور . تدعو الناس إلى الإيمان بالله عن طريق التفكير فى عجائب المخلوقات والاعتراف بوحدانيته تعالى عن طريق التأمل فى جميع تصرفاته والإذعان بكمال صفاته عن طريق الشعور بآلائه وعظيم ألطافه .

ولقد بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى معرفة الله والإيمان بربوبيته وألوهيته واتصافه بجميع صفات الكمال من العلم والحكمة والمشيئة والقدرة وتدبير أمر العالم إيمانَ يقين لا شك فيه يلمسه الإنسان بحواسه ويدركه بتصوراته ويدافع عنه بكلياته فوجه الناس إلى التعرف بالله عن طريق التأمل فى مخلوقاته ومحكم تصرفاته ، ولا شك أن من يتأمل فى جميع المخلوقات الكائنة فى هذا الوجود لا يمكنه أن يعرف الأصل الأول المادى لها ولا يفهم السر فى تطور المخلوقات من حالة إلى حالة بل لا يستطيع العقل البشرى أن يتصور إمكان تكوين هذا الهيكل الجثمانى مثلا من نقطة ماء دافق بل لو قلنا بذلك لما أقرنا الواقع لأننا نجد فى نفس الوقت أن كثيراً من هذه النقط بما فيها من حوينات منوية لا تأتى من طبعها بهذه النتيجة ، إذن فلابد لنا أن نحكم بأن وجود هذه المخلوقات الظاهرة من هذا الأصل المادى المحسوس من غير تأثير آخر مجرد وهم باطل بل لابد أن يكون فى الأمر سر هو وجود يد خفية لها أثرها الفعال فى الخلق والتكوين غير هذا المظهر الخارجى وهذه اليد هى إرادة الله خالقها قال تعالى « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له

كن فيكون [١] » وهى إن دلت على شىء فإنما تدل على عظمة هذا الخالق ومبلغ قدرته وتأثيره الفعال فى جميع أدوارها وتقلباتها وتطوراتها قال تعالى « أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون [٢] » وقال تعالى « ونقر فى الأرحام ما نشاء [٣] » .

وأمامنا على سبيل المثال التقريبى الروايات السينمائية ففيها من المناظر والفصول ما يخيل للرائى أنها حقائق واقعة لأنها تمثل أشخاصاً حقيقيين وما هى فى الواقع إلا مناظر خيالية يراد بها العظة والعبرة وهى إن دلت على شىء فى نظر العارفين فإنما تدل على وجود المخرج وما اتصف به من قوة التفكير وعظمة الفن .

كذلك مناظر هذه الحياة ومن يشترك فى تمثيلها من المخلوقات تدل على قدرة الله وحسن تدبيره وعظيم خلقه وجميل صنعه ، وفوق هذا فإن مخرج الرواية لم يكن له من الأمر إلا سبك القصة وتنسيق المناظر وإرشاد الممثلين إلى وضعية أدوارهم والله سبحانه يسمو على ذلك بأنه الخالق الأعظم لهذه الدنيا وما فيها من مناظر ويمتاز البشر عن صور السينما بوجود شخصيات حية والحياة التى فينا من روح الله وأمره باقية ببقائه خالدة بخلوده وتعلقها بنا كتعلق القدر بالمقدور ونحن بدون الحياة لا نساوى شيئاً ولولا الحياة لما كان شىء فى هذا الوجود ووجودنا نحن وجود خيالى حادث بالنسبة لوجود الله الحق القديم الأزلى الذى خلق الخلق وأوجد أصوله وصرف شئونه والخلق وجميع المحسوسات العظيمة فى الظاهر ما هى بالنسبة للخلاق إلا تماثيل وأشباح أو خيالات زائلة توجد فى الحقيقة من لا شىء وتنتهى بلا شىء . و « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام [٤] » ، أو هى بعبارة أخرى ظلال لحقائق لا نصل إلى معرفة كنهها عن طريق الحواس وما التفرقة بين أجزاء الكون وتسمية كل جزء باسم خاص إلا من علمنا نحن .

وأما الحقيقة فوحدة لا تتجزأ تدل على قدرة الله الموجد لها سبحانه وتعالى أو هى مظهر من مظاهر عظمته ووجوده .

---

(١) يس : ٨٢ .
(٢) الواقعة : ٥٩ .
(٣) الحج : ٥ .
(٤) الرحمن : ٢٧ .

وما نحن فى يد القدرة الإلهية إلا أطوع من الآلة فى يد صانعها « قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله[١] » « وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين[٢] » .

لقد بدأ الرسول الدعوة إلى هذا الإيمان لأنه أساس كل بر ومبدأ كل خير والحجر الأساسى فى بناء مكارم الأخلاق فمن آمن بالله راقبه واتقاه وأحسن إلى الناس فى سبيل رضاه ولا يكون الإيمان باعثا على البر إلا إذا كان متمكناً من النفس بالبرهان مصحوبا بالخضوع والإذعان ، ولما كان وجود هذه المخلوقات المادية والأفلاك السماوية والمخلوقات الذرية كلها تدل على وجود خالق عظيم لها اختلفوا فى تعيينه دعا الرسول صلى الله عليه وسلم الناس إلى الإيمان بوحدانية ذلك الخالق لجميع المخلوقات سواء دعى « الله » أو الرب أو الرحمن أو غير ذلك من الأسماء الدالة على السمو والإجلال فلا يلزم من اختلاف الأسماء اختلاف المسمى حيث يقول تعالى : « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى[٣] » وهذا أمر لا يعارض فيه أحد ولا يمكن للعقل إلا أن يسلم به ، وإنما تطمع النفوس فى الاستزادة من معرفته فوصفه لهم الرسول بما وصف الله به نفسه من أنه متصف بخمس صفات :

(الصفة الأولى) : قوله « قل هو الله أحد » ومعنى الأحد الذى لا كثرة له فى ذاته فهو ليس بمركب من جواهر مختلفة مادية ، ولا هو من أصول متعددة غير مادية فلا يشبه سائر المخلوقات بل هو واجب الوجود ووجوب الوجود يستلزم ببداهة العقل وحدة الذات لأن التعدد فى الذات مستلزم لافتقار المجموع إلى الأجزاء فلا يكون المجموع المسمى بالله أو موجد العالم واجب الوجود وكذلك الأجزاء نفسها لا يكون كل واحد منها واجب الوجود لأنه يختلف عن الآخر بميزة وذلك المميز غير ما يشتركان فيه من الوجود فيكون كل منهما مركبا ، والمركب غير واجب الوجود فلم يبق إلا أن يكون واجب الوجود واحداً فالله أحد ثم إن جميع ما يصل إليه عقلنا وحواسنا من

---

(١) الأعراف : ١٨٧ .
(٢) التكوير : ٢٩ .
(٣) الإسراء : ١١٠ .

هذا العالم يدخل فى نظام واحد يرتبط بعضه ببعض تمام الارتباط ، وهذا يدل على أن موجده واحد .

(الصفة الثانية) : قوله « الله الصمد » ومعنى الصمد السيد الذى يصمد إليه ويقصد فى الحوائج فهو الذى يلجأ الناس إليه بفطرتهم ويدعونه فى سرهم وجهرهم إذ هو السميع للدعاء والمالك من القوى الخفية مايحقق به جميع المرادات .

(الصفة الثالثة) . قوله « لم يلد » أحداً إذ الولد إنما يحتاج إليه للمعونة ودوام النسل والله جلا وعلا الذى خلق جميع هذه المخلوقات ولم يعْىَ بخلقهن ليس فى حاجة إلى عون الولد ، وفى هذا إشارة إلى أنه هو الحى الباقى فليس فى حاجة إلى من يخلقه لدوام النسل ، وفى هذا ردٌّ على يزعم أن لله ولدا أزليا مثله يجب أن يعبد مع أبيه إذ أن العقل لا يمكن أن يسلم بموت من يزعمون أنه ولد الله الحى الذى لا يموت لأن هذا يتنافى مع الأزلية التى يصفونه بها على أن الإسلام الذى يقول بأن عيسى لم يمت وأنه رفع إلى السماء يقرر بأنه سيعود إلى الأرض فى آخر الزمن ثم يمكث فيها أربعين سنة يحكم فيها بالإسلام ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون كما أخبر بهذا الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد فند الله مزاعم القائلين بهذا فى القرآن الكريم حيث قال : « وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إداً تكاد السموات يتفطرون منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولداً وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً إن كل من السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً لقد أحصاهم وعدهم عداً وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً[1] » وقال : « وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون[2] » .

(الصفة الرابعة) : قوله « ولم يولد » من أحد إذ المولود حادث والحادث مصيره الفناء والله منزه عن كل ذلك كل التنزيه وفى هذا تعريض بمن يزعم أن عيسى ابن الله فتكون مريم زوجة الله وأما لعيسى الذى يزعمونه إلهاً مع الله وهذا فى منتهى السخف .

(الصفة الخامسة) : قوله « ولم يكن له كفواً أحد » ومعنى الكفو المكافىء والمماثل فى القدرة على الخلق والتكوين وجميع التصرفات فلا شبيه ولا عديل

---

(١) مريم : ٩٠ .
(٢) الأنبياء : ٢٦ .

ولا شريك ولا منازع له فى الحكم وهو صاحب السلطان المطلق على الأرض والسماء وما فيهن « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون[١] » لم يكتف الناس بهذا الوصف فأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يتلو عليهم من الآيات ما يقربه تعالى إلى أذهانهم حيث قال : « فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم[٢] » « بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ، ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير[٣] » « له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ، هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ، له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور ، يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وهو عليم بذات الصدور[٤] » . إلى غير ذلك من الآيات التى تدعو الناس إلى التفكر فى جميع المخلوقات والآيات الكونية الدالة على وجود الله كقوله تعالى « تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً[٥] » « الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها أن الإنسان لظلوم كفار[٦] »

---

(١) الأنبياء : ٢٢ .
(٢) الشورى : ١١ ، ١٢ .
(٣) الأنعام : ١٠١ .
(٤) الحديد : ٢ ، ٦ .
(٥) الفرقان : ٦١ ، ٦٢ .
(٦) إبراهيم : ٣٢ ، ٣٤ .

« وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجراً محجوراً ، وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً[١] » « الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وسخر لكم ما فى السموات والأرض جميعاً منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون[٢] » « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون[٣] » « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج[٤] » « وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون[٥] » ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ، ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ، ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ، ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون[٦] » « نحن خلقناكم فلولا تصدقون ، أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشأكم فى مالا تعلمون ، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون ، إنا لمغرمون بل نحن محرومون ، أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون ، أفرأيتم النار التى تورون

---

(١) الفرقان : ٥٣، ٥٤ .
(٢) الجاثية : ١٢، ١٣ .
(٣) يونس : ١٠١ .
(٤) ق : ٦ - ١١ .
(٥) الذاريات : ١١، ١٢ .
(٦) الروم : ٢٠، ٢٤ .

أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ، نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين فسبح باسم ربك العظيم[1] » وهكذا أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يتلو الآية إثر الآية ويسوق الدليل تلو الدليل على وجود الله وانفراده بالخلق والتكوين والأمر والتدبير لكل شيء ويناشد الناس أن يحكموا عقولهم ويستفتوا ضمائرهم لتقنع نفوسهم بهذه الحقيقة ويؤمنوا بالله الإيمان الكامل الذى لا يعتريه شك أو تردد .

وقد كان وآمن بذلك كل من أصغى لدعوته لم يشذ عن ذلك إلا من ران على قلبه وختم على سمعه وبصره ولقد تكلم الإمام الغزالى فى كتابه (إحياء علوم الدين) فى هذا الباب فقال « اعلم أن أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى وكان هذا يقتضى أن تكون معرفته أول المعارف وأسبقها إلى الأفهام وأسهلها على العقول وترى الأمر بالضد من ذلك فلا بد من بيان السبب فيه « وإنما قلنا : إنه أظهر الموجودات وأجلاها لمعنى لا نفهمه إلا بمثال وهو أنا إذا رأينا إنسانا يكتب أو يخيط مثلا كان كونه حياً عندنا من أظهر الموجودات فحياته وعلمه وقدرته وإرادته للخياطة أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة إذ صفاته الباطنة كشهوته وغضبه وخلقه وصحته ومرضه كل ذلك لا نعرفه وصفاته الظاهرة لانعرف بعضها وبعضها نشك فيه كمقدار طوله واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته . أما حياته وقدرته وإرادته وعلمه وكونه حيوانا فإنه جلى عندنا من غير أن يتعلق حس البصر بحياته وقدرته وإرادته فإن هذه الصفات لا تحس بشيء من الحواس الخمس ثم لا يمكن أن تعرف حياته وقدرته وإرادته إلا بخياطته وحركته ، فلو نظرنا إلى كل ما فى العالم سواه لم نعرف به صفته فما عليه إلا دليل واحد وهو مع ذلك جلى واضح .

« وجود الله تعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما نشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومطر ونبات وشجر وحيوان وسماء وأرض وكوكب وبر وبحر ونار وهواء وجوهر وعرض ، بل أول شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وأوصافنا وتقلب أحوالنا وتغير قلوبنا وجميع أطوارنا فى حركاتنا وسكناتنا وأظهر الأشياء فى علمنا أنفسنا ثم محسوساتنا بالحواس الخمس ، ثم مدركاتنا بالعقل

---

(١) الواقعة : ٥٧ — ٧٤

والبصيرة وكل واحد من هذه المدركات له مدرك واحد وشاهد واحد ودليل واحد وجميع ما فى العالم شواهد ناطقة وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته والموجودات المدركة لا حصر لها فإن كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا وليس يشهدلها إلا شاهدواحد وهو ما أحسسنا به من حركة يده فكيف لا يظهر عندنا مالا يتصور فى الوجود شىء داخل نفوسنا وخارجها إلا وهو شاهد عليه ؟ وعلى عظمته وجلاله ؟ إذ كل ذرة تنادى بلسان حالها أنه ليس وجودها بنفسها ولا حركتها بذاتها وأنها تحتاج إلى موجد ومحرك لها يشهد بذلك أولا تركيب أعضائنا وائتلاف عظامنا ولحومنا وأعصابنا ومنابت شعورنا وتشكل أطرافنا وسائر أجزاءنا الظاهرة والباطنة فإنا نعلم أنها لم تأتلف بأنفسها كما نعلم أن يد الكاتب لم تتحرك بنفسها ولكن لما لم يبق فى الوجود شىء مدرك ومحسوس ومعقول وحاضر وغائب إلا وهو شاهد ومعرف عظم ظهوره سبحانه فانبهرت العقول ودهشت عن إدراكه فإن ما تقصر عن فهمه عقولنا له سببان أحدهما خفاؤه فى نفسه وغموضه وذلك لايخفى مثاله والآخر ما يتناهى وضوحه .

« إن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار لا لخفاء النهار واستتاره لكن لشدة ظهوره فإن بصر الخفاش ضعيف يبهره نور الشمس إذا أشرقت فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سبباً لامتناع إبصاره فلا يرى شيئا إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره ، فكذلك عقولنا ضعيفة وجمال الحضرة الإلهية فى نهاية الإشراق والاستنارة وفى غاية الاستغراق والشمول حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والأرض فصار ظهوره سبب خفائه فسبحان من احتجب بإشراق نوره واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره » .

« ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور فإن الأشياء تستبان بأضدادها وما عم وجوده حتى أنه لا ضد له عسر إدراكه فلو اختفت الأشياء فدل بعضها دون بعض أدركت التفرقة على قرب ، ولما اشتركت فى الدلالة على نسق واحد أشكل الأمر ومثاله نور الشمس المشرق على الأرض فإنا نعلم أنه عرض من الأعراض يحدث فى الأرض ويزول عند غيبة الشمس فلو كانت الشمس دائمة الإشراق لا غروب لها لكنا نظن أنه لا هيئة فى الأجسام إلا ألوانها وهى السوداء والبيضاء وغيرها

فإنا لا نشاهد فى الأسود إلا السواد ، وفى الأبيض إلا البياض فأما الضوء فلا ندركه وحده ولكن لما غابت الشمس وأظلمت المواضع أدركنا تفرقة بين الحالين فعلمنا أن الأجسام كانت قد استضاءت بضوء واتصفت بصفة فارقتها عند الغروب فعرفنا وجود النور بعدمه وما كنا نطلع عليه لولا عدمه إلا بعسر شديد وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة فى الظلام والنور هذا مع أن النور أظهر المحسوسات إذ به تدرك سائر المحسوسات فما هو ظاهر فى نفسه وهو يظهر لغيره . انظر كيف تصور استبهام أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضده . فالله تعالى هو أظهر الأمور وبه ظهرت الأشياء كلها ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير لانهدت السموات والأرض وبطل الملك والملكوت ولأدرك بذلك التفرقة بين الحالين » .

« ولو كان بعض الأشياء موجوداً به وبعضها موجوداً بغيره لأدركت التفرقة بين الشيئين فى الدلالة ولكن دلالته عامة فى الأشياء على نسق واحد ووجوده دائم فى الأحوال يستحيل خلافه فلا جرم أن أورثت شدة الظهور خفاء فهذا هو السبب فى قصور الأفهام » انتهى ما جاء فى الأحياء .

أسماء الله تعالى

لما كانت العقول البشرية مخلوقة متفاوتة فى الفهم والإدراك وكانت جميعها قاصرة عن إدراك كثير من حقائق المخلوقات الغيبية كان طبيعياً أن لا تستطيع الوصول إلى إدراك حقيقة الله تعالى ولذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس عن التفكير فى ذات الله لأن ذلك مالا يمكن أن تصل إليه أفكارهم ويؤدى بهم إلى التردد والزلل وإنما ينبغى أن يوجهوا أفكارهم إلى التعمق فى بحث هذه المخلوقات القائمة وجليل خلقها ومحكم أنظمتها ليتبين لهم أنه لابد لها من خالق عظيم واحد وهو الله حيث قال صلى الله عليه وسلم « تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا » ، وليس فى هذا حجر على حرية الفكر ولا تضييق على العقل ولكنه إيقاف له عند حده وإشفاق عليه من الاستمرار فى بحث لاطائل تحته وليس فى مقدور العقل أن يصل إليه نظراً لطبيعة خلقه .

وفى هذا عصمة له من الضلال وتوجيه إلى ما يؤدى بالنفس إلى الكمال .

ومع هذا فإن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبر الناس ببعض أسماء الله الحسنى التى ندعوه بها والتى تدل على جليل قدرته وعظيم سلطانه حيث قال صلى الله عليه وسلم « لله تسعة وتسعون اسماً[1] مائة إلا واحد من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر . هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن . الرحيم . الملك القدوس . السلام . المؤمن . المهيمن . العزيز . الجبار . المتكبر . الخالق . البارئ . المصور . الغفار . القهار . الوهاب . الرزاق . الفتاح . العليم . القابض . الباسط . الخافض . الرافع . المعز . المذل . السميع . البصير . الحكم . العدل . اللطيف . الخبير . الحليم . العظيم . الغفور . الشكور . العلى . الكبير . الحفيظ . المقيت . الحسيب . الجليل . الكريم . الرقيب . المجيب . الواسع . الحكيم . الودود . المجيد . الباعث . الشهيد . الحق . الوكيل . القوى . المتين . الولى . الحميد . المحصى . المبدئ . المعيد . المحيي . المميت . الحى . القيوم . الواجد . الماجد . الواحد . الصمد . القادر . المقتدر . المقدم . المؤخر . الأول . الآخر . الظاهر . الباطن . الوالى . المتعالى . البر . التواب . المنتقم . العفو . الرؤوف . مالك الملك . ذو الجلال والإكرام . المقسط . الجامع . الغنى . المغنى . المانع . الضار . النافع . النور . الهادى . البديع . الباقى . الوارث . الرشيد . الصبور » . رواه الترمذى عن أبى هريرة .

ويحسن بنا أن نوضح معانى بعض هذه الأسماء الكريمة . « القدوس » المطهر من العيوب « السلام » الأمان لخلقه أو هو الذى يسلم على خلقه « المؤمن » المصدق وعده لخلقه والمؤمن لهم من عذابه « المهيمن » المسيطر المتصرف أو الشهيد الرقيب « العزيز » القاهر الغالب . « الجبار » الذى يجبر خلقه على ما يريده « المتكبر » المتعالى عن صفات الخلق المتفرد بصفات عظمته « البارئ » الخالق وهو فى خلق ذى الروح أظهر . يقال بارئ النسم وخالق السموات والأرض « المقيت » العالم العارف[2] « الحسيب »

---

(١) المراد بالاسم ما دل على مجرد الذات كلفظ الجلالة أو على الذات باعتبار الصفة كالخالق والوهاب والمختار أن إطلاق الأسماء عليه سبحانه يتوقف على إذن الشارع احتياطا فى مقام التنزيه اه

(٢) فسره بعضهم بخالق الأقوات للأجساد والأرواح اه مخلوف

الكافى لخلقه « المحصى » هو الذى أحصى كل شىء بعلمه فلا يفوته شىء من الأشياء « البر » المتعطف على عباده ببره وعطفه « المقسط » العادل فى حكمه . « الرشيد » الذى يرشد الخلق إلى مصالحهم . « الصبور » هو الذى لا يعاجل العصاة بالانتقام منهم : —

صفات الله تعالى

لقد جاء فى أسماء الله تعالى وصفاته التى وردت فى القرآن أو السنة كلمات لها معان ومدلولات يعرفها الناس فى حياتهم الخاصة كإثباته تعالى لذاته الحياة والعلم والسمع والبصر والكلام والاستواء والنزول والعلوّ والوجه واليد وما إلى ذلك من الصفات المتشابهة كقوله تعالى « يداه مبسوطتان » وقوله « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » وقوله « يد الله فوق أيديهم » وقوله « إنه هو السميع البصير » وقوله « ولتصنع على عينى » .

فتقبل المسلمون فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا بالقبول والتسليم على اعتبار أنها لا تعنى قط أن تكون كما نتصوره من صفات المخلوقين لقوله تعالى « ليس كمثله شىء » . وقد قامت الأدلة العقلية على تنزيهه تعالى عن سمات النقص والحدوث .

بل إنها صفات تدل على عظمة الله وكماله وتليق بقدسيته وجلاله ودرج على هذا سلف هذه الأمة إذ قالوا إن العقول مهما بلغت من الإدراك والتفكير فهى عاجزة كل العجز عن إدراك الأسرار الإلهية فى أصغر مخلوقاته كالبعوض وما هو فى عالم الخفاء كالملائكة والجن فكيف يمكن للبشر وقوة عاقليته محدودة أن يتصور صفات خالقه فإذاً لا بد من التسليم بإن كل ما يخطر بالبال عن صفات الله فالله غير ذلك مع التنزيه الكامل لله سبحانه .

ثم جاء بعض قصار العقول والنظر فتناسوا قوله تعالى « ليس كمثله شىء » وفهموا من هذه الصفات مشابهته لمخلوقاته ويسمى هؤلاء بـ « المجسمة والمشبهة » فانبرى لهم بعض علماء الخلف وقالوا إن مثل تلك الصفات التى اتصفت بها المخلوقات لايصح بحال

أن تنسب بحقيقتها إلى الخالق العظيم ولا بد من تأويلها بما يقربها إلى عقول البسطاء ولذلك قالوا إن المراد باليد فى قوله تعالى « يد الله فوق أيديهم » قدرته مجازا وإن المراد بالعين فى قوله « ولتصنع على عينى » علم الله وإن المراد « بالاستواء » فى قوله تعالى « الرحمن على العرش استوى » الاستيلاء وهكذا جميع الصفات المتشابهة وبذلك عطلوا ما وصف الله به نفسه وتحكموا فى مراد الله بمالا علم لهم به من الله ونزهوه عما وصف به نفسه ولو كان فى تلك الصفات مايتنافى مع عظمته تعالى لما وصف بذلك نفسه بل إنهم هم الذين لم يفهموا من صفات الرب إلا ما يليق بالمخلوقين وإلا فإنهم متفقون مع السلف على إثبات صفات الحياة والسمع والبصر والعلم والقدرة والإرادة والكلام ، ومن المسلم به أنا لانعقل من الحياة إلا هذا العرض الذى يقوم بأجسامنا ، وكذلك لا نعقل من السمع والبصر إلا أعراضاً تقوم بجوارحنا فكما أنهم يقولون إن حياة الله ليست عرضاً وعلمه وبصره كذلك بل هى صفات تليق به لا كما يليق بالمخلوقين فلماذا لا يقولون بما يقوله السلف من أن حياته تعالى معلومة ولكنها ليست مكيفة وكذلك سمعه وبصره ومثل ذلك عينه وفوقيته واستواؤه ونزوله ففوقيته معلومة أى ثابتة كثبوت حقيقة السمع والبصر غير مكيفة بل كما تليق به تعالى ومثل ذلك استواؤه ونزوله ثابتان غير مكيفين بحركة وانتقال يليق بالمخلوقات ، وصفاته معلومة من حيث الجملة والثبوت بحسب ما تدل عليه مخلوقاته وألاؤه وغير معقولة من حيث التكييف والتحديد لأن ذلك فوق مستوى العقول والعلم الإنسانى . وهذا هو مراد الله منا فى إبراز صفاته لنا لنعرفه بها ونؤمن بحقائقها وننفى عنها التشبيه ولا نعطلها بالتأويل لا فرق بين الاستواء والسمع ولا بين النزول والبصر لأن الكل قد ورد فى كلام الله[1] .

---

(١) ما ورد فى القرآن والسنة مما يوهم ظاهره إثبات الجهة والجسمية لله تعالى قد اتفق السلف والخلف على تأويله وصرفه عن ظاهره لوجوب تنزيهه تعالى عما يدل عليه ذلك الظاهر . وعلى الإيمان بأنه من عند الله تعالى جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم ولكنهم اختلفوا فى تعيين المحمل الذى يحمل عليه هذا الظاهر وعدم تعيينه . فذهب السلف إلى تفويض علم حقيقته على التفصيل إلى الله تعالى وذهب الخلف إلى تعيين المراد منه وتحديده حملا للكلام على التجوز بقرينة استحالة المعنى الحقيقى فى حقه تعالى . ومبنى هذا الخلاف الاختلاف فى الوقف فى قوله تعالى « ومايعلم تأويله =

الإيمان بالملائكة

لئن استطاع العقل البشرى أن يصل إلى معرفة الله والإيمان بوجوده بتوجيه من الله إلى التفكير فى حقائق هذه المخلوقات المحسوسة . فهناك من الأمور الغيبية ما لم يهتد العقل إلى فهم أسرارها ذلك أن الإنسان كثيراً ما يجد فى نفسه عوامل تدفعه إلى الخير وأخرى تحضه على الشر مما يجعله يؤمن بأن هناك قوى مؤثرة تتنازعه ويحاول كل منها اجتذابه إليها ، الأمر الذى أدى بفريق من الناس إلى الاعتقاد بأن هناك آلهة للخير وآلهة للشر فيعبدونها من دون الله . ولقد جاء الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ففسر للناس هذه الظاهرة بما أخبر به فى القرآن الكريم من أن وراء هذه الأشياء المنظورة فى عالم المادة مخلوقات أخرى خفية قد لا تدرك بالبصر ولكنها موجودة وقائمة ويمكن إدراكها والاتصال بها عن طريق نفس الإنسان الخفية أيضاً . وإذا كنا لا نستطيع أن نعرف حقيقة نفوسنا لأنها مخلوقات لطيفة غيبية كذلك لا يمكن لنا معرفة حقيقة تلك المخلوقات الكائنة فى العالم الكبير غير المنظور لأنها من عالم غير عالم الأبدان ، ومن واجب كل من آمن بالله وهو لم يره ولكنه اعتقد بوجوده عن طريق دلالة مخلوقاته أن يؤمن بأنه تعالى الخالق للمخلوقات المادية قد خلق إلى جانبها عدة مخلوقات من ذوات الروح

= إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به » هل هو على لفظ الجلالة وقوله تعالى « والراسخون فى العلم » استئناف وإليه ذهب السلف أو على قوله تعالى « فى العلم » والراسخون معطوف على لفظ الجلالة وجملة يقولون حالية أو استئناف لبيان سبب التماس التأويل وإليه ذهب الخلف .

وقال العلماء إن مذهب السلف أسلم ومذهب الخلف أحوط وأحكم بالنسبة للقاصرين والكل على هدى من ربهم خلافا للمشبهة والمجسمة تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

وفى تفسير الآلوسى إن الصفات النقلية من الاستواء واليد والقدم والنزول والضحك والتعجب وأمثالها من المتشابه ومذهب السلف ومنهم الأشعرى أنها صفات ثابتة وراء النقل لم يكلفنا الشارع إلا اعتقاد ثبوتها مع اعتقاد التنزيه عن التشبيه والجسمية لئلا يضاد النقل العقل . ومذهب الخلف أنها راجعة إلى الصفات الثمانية ويجب تأويلها وتعيين المراد منها ورجح الإمام الشعرانى مذهب السلف وقال إنه أسلم وأحكم وقال الآلوسى إنه مذهب الصوفية اهـ . مخلوف

منها مادق حتى لا يمكن أن نراه بالعين المجردة ومنها ما لطف وصفا حتى لا تكاد تصل العقول إلى معرفة حقيقة أمره وأن عليه أن يسلم بعالم الغيب ويصدق بما أخبر به الرسل عن ماهو موجود فى هذا العالم من مخلوقات لا تدرك بالحس ، ومن تلك المخلوقات خلق يقابل الإنسان يقال له « الجان » قال تعالى : « خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار »[١] وهما المعنيان بقوله تعالى : « سنفرغ لكم أيها الثقلان »[٢] وإنما سمى الجن جناً لاجتنانهم واختفائهم عن الأبصار . كما تسمى الجنة جنة لستر ما فيها ويسمى الجنين جنيناً لستره فى بطن أمه .

ومن هؤلاء الجن ما يسمى بالملائكة وهم قوم معصومون وصفهم الله بأنهم : « غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون »[٣] وأنهم جند من جنوده أصحاب قوى عظيمة وقد عهد إليهم بعدة وظائف منها تبليغ رسالة الله إلى أنبيائه وتثبيت اليقين وحب الخير فى قلوب عباده ومن شأنهم أن يتصلوا بالنفوس أثناء قيامها بالأجسام فيوحون إليها فعل الخيرات ويمدونها بمختلف الإمدادات . وقدجعل المشركون بين الله وبين هؤلاء الجنة نسباً إذ سموا الملائكة تسمية الأنثى وقالوا عنهم إنهم بنات الله وقالوا أصطفى البنات على البنين وقال تعالى : « أفاصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً إنكم لتقولون قولاً عظيما » .[٤]

ومن الجن المخلوق من مارج من نار إبليس وذريته قال تعالى : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا »[٥] ويسمون بالشياطين لما جبلوا عليه من الأذى ومن طبعهم أن يندسوا فى النفوس ويوسوسوا لها الشر ويحببوا إليها فعل السيئات ، وقد أوضح الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله : « إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشيطان فإيعاز بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فإيعاز بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله على ذلك ومن وجد

---

(١) الرحمن : ١٤ (٢) الرحمن : ٣١ (٣) التحريم: ٦
(٤) الإسراء : ٤١ (٥) الكهف : ٥١

الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ : « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء » وقال أيضاً : إن الشيطان ليجرى من الإنسان مجرى الدم . ومن أجل هذا يطلق على كل من يزين للإنسان فعل الشر من بنى الإنسان « شياطين الإنس » .

ومن الجن ماهو ليس بملك ولا هو من نسل إبليس فلا يكون شيطاناً وقد وصفهم الله بأنهم عالم كعالم الإنسان لهم نفوس كنفوس البشر وأنهم محل الطاعة والعصيان يسمعون أحاديث الناس ويأخذون بأقوالهم وأقوال أنبيائهم ويعملون بمواعظهم إذ يقول تعالى : « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا »[١] وقوله عن لسانهم : « إنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا »[٢] « وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا »[٣] .

ومن هؤلاء من هو شديد الدهاء والمكر ويسمون « العفاريت » إذ يقول تعالى فى كتابه : « قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين »[٤] والقرآن ملئ بذكر أخبار الملائكة والشياطين ونماذج من تصرفاتهما فى هذه الحياة ووسائل تأثيرهما على النفوس البشرية مما لا يستطيع العقل البشرى أن يجحد أثر كل ذلك فى حياته العملية فكلما يشعر بهذه العوامل النفوسية تتجاذبه لا يمكن أن ينكر وجودها ولكنه لا يعلم حقيقتها وقد يسميها البعض قوى طبيعية أو ناموساً فطرياً والمؤمن يسميها ملكا أو شيطاناً كما أخبره الله بذلك وليسمها من شاء كما شاء فالحقيقة واحدة والعاقل من لا تحجبه الأسماء عن التسليم بوجود المسميات .

لقد كان الناس إلى عهد قريب يعتقدون أن الذرة أو الجوهر الفرد هو قوام المادة لأنه أصغر أجزائها ثم أثبت العلم أن كل ذرة تتألف من وميضات كهربائية تسمى « الكيترونات » وهى الجزئيات الكهربائية السالبة التى تدور حول نواة تسمى « البروتون » كما تدور الأجرام العلوية التابعة للنظام الفلكى حول جرم الشمس بسرعة فوق حد التصور وهذه « البروتونات » هى الحاملة الكهربائية الموجبة

---

(١) الجن : ١ (٢) الجن : ١١
(٣) الجن : ١٤ (٤) النمل : ٣٩

وقد تمكن العلماء باستخدام تلك المويضات الكهربائية من اكتشاف القوى الكهربائية دون أن يهتدوا إلى حقيقتها .

واتضح أيضاً أن الجوهر الفرد فى جميع العناصر واحد ولا يختلف جوهر أى عنصر عن العنصر الآخر إلا بعدد الوميضات الكهربائية التى يتألف منها .

ولذلك وجه العلماء قوتهم فى بضع السنوات لأخيرة لاستنباط جهاز ذى قوة كهربائية هائلة لتحطيم الجوهر الفرد وتفكيكه بفصل الالكترونات ومعرفة الأسرار التى ينطوى عليها .

ثم أعلن أخيراً أن المستر جيمس شادويك اكتشف فى معمل كفنديش بجامعة كمبردج بلندن ما أطلق عليه اسم (النترون) وهو ذرة دقيقة لا كهرباء فيها ومع كونها ذرة فإن لها قوة خارقة على اختراق الأشياء وهذا (النترون) يتكون من بروتونه والكترونه متصلتين اتصالا تاماً . والمظنون أن (النترون) هذا قد يكون هو وحده المغناطيسية .

والعلماء الذين أثبتوا وجود هذه القوى الكهربائية والمغناطيسية فى كل ذرة من ذرات هذا الكون ما استطاعوا أن يعرفوا حقائقها ولا كيف ومن أين وجدت على أن مجرد هذا الثبوت العلمى يدلنا على وجود مصدر لتلك القوى ويحملنا على الإيمان بعالم الغيب وأن مصدر هذه القوى التى نبحث عنها إنما هى مخلوقات عاقلة سماها لنا الله بالملائكة والعفاريت التى هى فصيلة من فصائل الجن وأخبرنا بقدرتها على فعل المستحيل بما لها من قوى هائلة بحيث تستطيع أن تنقل القصور من أقصى البلاد فى مدد متفاوتة بدون أن يحصل فيها أى ارتجاج أو تفكك بماحكاه الله من قصة سيدنا سليمان عند ما غضب من بلقيس ملكة سبأ لأنها لم تؤمن به حيث (قال يأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ، قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين ، قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم ، قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لايهتدون فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ،

وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين ، قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال أنه صرح ممرد من قوارير ، قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين »[١]

كما أن في سيرة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما يشعر بأنه من فرط إيمانه بوجود الملائكة كان على صلة بهم حتى أنهم ليوجهونه إلى ما فيه خير الإسلام ويعتمد عليهم في تبليغ رسالته لمن يريد فقد ثبت أنه كان قد وجه جيشاً إلى جهات فُسا وبجرد بالقرب من بلاد الفرس وأمر على هذا الجيش سارية بن زُنيم ثم حدث أنه بينما كان يخطب في الناس ذات يوم بمسجده بالمدينة إذ صرخ بأعلى صوته (يا سارية الجبل) قالها ثلاثاً ثم قال « إن لله جنوداً ولعل بعضها يبلغهم) فدهش الناس من ذلك ولم يدر أحد ما يقول حتى قدم سارية ابن زنيم المدينة وأقبل على عمر يقص عليه ما كان من أمر جيشه فقال يا أمير المؤمنين كنا محاصرين العدو فكنا نقيم الأيام ولا يخرج علينا منهم أحد ونحن في خفض من الأرض وهم في حصن عال وفي يوم كذا وساعة كذا سمعنا صائحا ينادي يا سارية الجبل ثلاثاً فعلوت بأصحابي الجبل فما كان إلا ساعة حتى فتح الله علينا وهزم أعداءنا فقال الناس لعمر كنا نسمعك تصيح بهذا في ذلك اليوم فكيف ذلك فقال عمر (والله ما ألقيت له إلا بشيء ألقى على لساني) .

وها نحن ذا نرى اليوم أن العلم الحديث قد اكتشف القوى التي تحمل الطائرات وتذهب بأصوات الناس وصورهم إلى جميع الجهات دون أن يصل إلى معرفة مصدر تلك القوى أو يفهم السر في ذلك فما بالنا لا نؤمن بالحقيقة التي أخبرنا عنها القرآن وهي أنها من قوى الملائكة خصوصاً وقد أخبرنا الله جل جلاله عن الغاية من مفعول تلك القوى بما عهد إلى الملائكة من وظائف من ضمنها أن تتولى مراقبة أعمال العباد وأنها تعلم بكل ما يفعلون وتنسخ صوراً طبق الأصل لكل ما يقولون وما يعملون حيث قال تعالى « وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون »[٢] . ونبهنا سبحانه وتعالى إلى الغاية من كتابتهم هذه بقوله « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة

---

(١) النمل : ٣٨ — ٤٤

(٢) الانفطار : ١٠ — ١٢

كتاباً يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا »[١] . « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون »[٢] . وقد أوضحت لنا هذه الحقائق معنى قوله تعالى عن يوم الحساب « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون »[٣] .

هذه القوى التى نرى آثارها فى كل شىء يقع تحت حواسنا وقد خفيت حقائقها عنا ولم يصل الباحثون فى بحوثهم عنها إلا إلى معرفة آثارها .

أليست دليلا على وجودها وشعاعاً يهدى إليها ؟؟

ألا تُعدُّ نفسها من عالم الغيب وقد دلت عليها آثارها فى عالم المشاهدة ؟ !

أليس الوجود الإلهى الأعلى من عالم الغيب وقد آمنا به عن طريق آثاره فى خلقه فى عالم المشاهدة ؟ ! فلماذا لا نؤمن بوجود الملائكة وهى من الموجودات الغيبية ذات القوى العظيمة التى آمنا بها ولم نعرف كنهها إلا عن طريق ما نشاهده من آثارها وغيرها من القوى الغيبية فى هذه الحياة الدنيا والتى أخبرنا الله عنها وعن أعمالها وقواها التى كانت محجوبة عنا حتى كشفها لنا العلم الحديث . لقد أخبرنا الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم أن من الجن ما يكون سبباً لنشر وباء الطاعون حيث قال (الطاعون وخز أعدائكم من الجن وهو لكم شهادة) فلم تستطع العقول أن تهضم هذه الحقيقة وعدها البعض من باب الخرافات ثم أثبت العلم أن هناك أنواعاً كثيرة من المخلوقات الخفية التى لا يمكن أن يراها أحد بعينه هى فى الواقع السبب المباشر للأدواء والأمراض التى لا تحصى وقد أطلقوا عليها اسم (الميكروبات) وقالوا إنها السبب فى التغيرات والاختبارات التى نراها فى المائعات والفواكه وغيرها فَلِمَ يعد من الصعب على العقول أن تسلم أن الميكروبات المولدة للأوباء هى من أنواع الجن خصوصاً وقد ورد فى حديث الرسول (أن الجن أنواع منها ما هو من الحشرات وخشاش الأرض) وعدا هذا فإن هناك عدة أمور غيبية أخبر الله عنها فى القرآن

---

(١) الإسراء : ١٤
(٢) الجاثية : ٢٩
(٣) النور : ٢٤

ولم يتمكن العقل البشرى من تصورها والإلمام بها أو بحقائقها ثم جاء العلم با كتشاف كثير من القوى الغيبية التى لم تعرف حقائقها وإن فى سر خفائها ما يحمل العاقل على التصديق بما جاء فى تلك الآيات عنها بل ويقرب إلى الأذهان سبيل التعرف بها وقد نظمت فى هذا الباب بعض أبيات أثبتها فيما يلى :

القوى الخفية وكلام الله تعالى

والله يسمع ما نقول كما يرى ... أعمالنا فى كافة الأوقات
إذ منه قوة سمعنا والنطق والـ ... إبصار بل الروح والحركات
وجميع ما فى جسمنا من قوة ... فمن الإله الواسع القدرات
إذ أنه هو خالق القوات حا ... كم سائر الحركات والسكنات
وهو القريب من العباد لأنه ... لم تخل منه صغيرة الذرات
فبكل شىء قوة منه تدل ... عليه من هو خالص النيات
قد صور (المذياع) كيف يكون فى ... كل الورى من كان فرد الذات
هذى القوى فى الجو تسمعنا كما ... هى تبصر الحركات والسكنات
إنا استرقنا السمع من موجاتها ... وأذيع ما فيها من الهتفات
ثم اتخذناها أداة بيننا ... لتخاطب وتناقل الصورات
لما تخف عنه صغيرة من أمرنا ... لا فرق بين الفعل والنيات
بالكيف لم يعرف وليس بجوهر ... لا يشبه المخلوق فى الهيئات
فالجاذبية والحرارة أثبتا ... لله ما يخفى عن الحدقات
وكذا الأثير ونحن من أجزائه ... قد جاء يثبت وحدة الذرات
ويدلنا أن الجواهر تنتهى ... بقوى تمت إليه بالنسبات
وطبائع الأشيا وسر خواصها ... مما يدل عليه بالآيات
لولا الإرادة منه فى تخصيصها ... لم تفقد التأثير فى حالات
فهناك إبراهيم نجى من لظى ... نار وإسماعيل من هلكات

ونرى الكثير يموت رغم علاجه ... ويطيب من قد عد من أموات
والعلم يخطىء تارة فيدل عن ... نقص بما نلناه عن خبرات
حيث التجارب فى الظواهر غير ما ... فى علم من قد كون الفطرات
فهناك سر كامن فى الغيب لا ... ندرى به ويلوح فى أوقات
هو قول كن فيكون ما يقضى به ... دون ارتباط منه بالعادات
والحس يخدعنا فنحسب ثابتا ... ما كان حقاً دائم الحركات
والروح تحكى الكهربا ودليلها ... ضوء الحياة لراغب الإثبات
ووسائل التوليد قد عرفت لنا ... أما حقائقها فمنه تواتى
وجميعها أثر له سبحانه ... رب القوى والأصل فى النشئات
وحقيقة القوات سر غامض ... وجلال ربى موجد القوات
من كان يطمع فى التماس بقوة ... فمصيره للحرق فى لحظات
وكذلك اندكت جبال عندما ... حصل التجلى منه للصخرات
وهناك خلق فى الخفاء يقودنا ... للخير وهو ملائك الرحمات
منه المبلغ للرسول الأمر من ... رب العباد بسائر الأوقات
وكذاك منه من ينفذ أمره ... فى الخلق فى الدنيا وفى الميقات
ويطيع أمر الله لايعصيه قط ... ويعلم الأشياء بالقوات
وبضده الشيطان فهو موسوس ... بالشر يلقى الناس فى الهلكات
ويسبب النسيان يغرى بالفسو ... ق يزين الممنوع من لذات
يجرى بجسم المرء مجرى دمه ... فيضله عن أقوم الطرقات
وكلاهما ذو قوة فعالة ... فى الكون شبه خوارق العادات
فالله أخبرنا بقدرتهم على ... نقل العروش بأسرع اللحظات
والجن أنواع ومنه ناشر الأ ... وباء كالجرثوم والحشرات
ولو بما قد كان منهم من دعا ... ه الطب فى ذا العصر (مكروبات)
إذ منه قال المصطفى يأتى لنا ... الطاعون وهو نتيجة الوخزات
وجميع ذا حق وكم لله من ... جند تغلغل داخل الذرات

ندعو الجميع قوى وسما الله مصد رها (الملائك) ساعة الخلقات
فعلى الذين بربهم قد آمنوا أن يؤمنوا بهم بلا ريبات
فهم الذين نجد بحثاً عنهم وهم جنود الله فى الخلوات
قواتهم معنا نسخرها لما نحتاج فى الدنيا من الرغبات
فتطيعنا بإرادة المولى وتنـ سخ كل ما نبدى من الحركات
ولربما قد كان منهم فى الفضا ء مسجل الأصوات والصورات
فهم الكرام الكاتبون وإنهم هم سر ما فى الكون من قوات
وهم الذين سيعرضون فعالنا يوم الحساب بكامل الصفحات
لنرى هناك شهادة الأ عضاء تثبت كافة الحالات
لا نستطيع لها جحوداً عند ذا كَ ونطلب الغفران والرحمات
والله يرحم من يشاء ويقبل الـ أعذار ممن أخلص النيات
والله نسأله الرشاد إلى الهدى والحق والغفران للزلات

الايمان بالكتب السماوية

لقد كان الإيمان بالله وملائكته من أهم ما عنى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرفع الناس عن مستوى المادة إلى التطلع لما وراء هذه العوالم الظاهرة والخفية من إله قدير يجب أن تتجه إليه النفوس بالحب والتعظيم وتتقرب إليه الأجسام بالخضوع والطاعة ، وكان مما دعا إليه عليه الصلاة والسلام الإيمان الجازم بأن الله جل وعلا بعث إلى الناس بكتب أنزلها فى أوقات متفرقة وعلى لسان رسل عديدين ترشد الناس إلى ما يهذب نفوسهم ويصلح شئونهم ويوجههم إلى ما يرضيه جل شأنه حيث قال تعالى لخاتم رسله « قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون »[1] .

---

(١) آل عمران : ٨٥

ولتقادم العهد على تلك الكتب اندثر بعضها وسطت على البعض الآخر بعض الأيدى بالتغيير والتبديل فجاء خاتم الرسل بكتاب من عند الله تضمن كل ما كان فى تلك الكتب السابقة من الإيمان بالله وإسلام القلوب له والعمل على ما يقرب إليه . فكان هذا الكتاب وهو القرآن بمثابة الأصل فى معرفة ما أنزل على الأنبياء السابقين والمثبت له حيث لا طريق لإثبات شىء منها سواه لانقطاع سندها وفقد بعضها وحصول الشك فيما بقى منها .

ومن أجل هذا أوجب علينا الرسول الإيمان بنزول تلك الكتب جميعها من عند الله والاعتراف بما أثبت فيها من آيات أقرها القرآن ولم تتعارض مع ما دعا إليه من توحيد الله والانقياد لأوامره إذ الأصول التى جاءت بها جميع الأنبياء واحدة . وقد أنزل الله القرآن وتكفل سبحانه بصيانته من كل تغير أو تبديل حيث قال : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » [1] وتحدى قومه بالإتيان بسورة من مثله فعجزوا عن ذلك كما قال تعالى « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعو شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين» [2] وأودع الله فى القرآن من المعانى ما يحمل كل عاقل فى الوجود على الاعتراف بعظمته وصحة رسالة من جاء به من عند الله فقد اشتمل القرآن الكريم على ما يأتى .

١ — دعوة إلى معرفة الله والإيمان بوجوده ووحدانيته وعظيم قدرته بأدلة ثابتة عقلية وحجج قاطعة منطقية .

٢ — توجيه للناس إلى ما وراء هذه الأشياء المادية من مخلوقات غيبية وقوى خفية لا تدرك بالأبصار وإنما يمكن التسليم بها عن طريق الفكر ونور البصيرة وكلها ناطقة بالدلالة على الله .

٣ — دستور عام شامل لعدة أحكام جاء بها الرسل السابقون من عند الله .

---

(١) الحجر : ٩

(٢) البقرة : ٢٤ ، ٢٥

وفيها إصلاح للناس فى دنياهم وآخرتهم منها ما يتعلق بالعباد وربهم ومنها ما يتعلق بالعباد وبعضهم .

٤ — تاريخ جامع لمن سبقوا من الأمم وما كان من أمرهم مع أنبيائهم وما انتهى إليه أمرهم للعبرة والذكرى .

٥ — تنبيه للناس إلى ما بعد الموت من حياة أخرى أبدية يكون فيها عذاب للعاصين وثواب للطائعين .

٦ — إرشاد للناس إلى طرق الاستفادة مما خلق لهم من أشياء تصلح لمنافعهم وتضمن سعادتهم وهناءهم وقد نظمت عن القرآن بعض أبيات أثبتها فيما يأتى : —

حقيقة القرآن ومعجزاته

والله ربى أنزل القـرآن منـ ... ـه وأنه خـير (موسوعات)
جمع الفضائل فى ثنـاياه وما ... تصل العقول إليه بالفِكْرات
هو (ندوة) علميـة رمزت إلى ... كل العلوم ومنتهى الحِكْمات
هو (آية) فيهـا المعانى والبيا ... ن تمثلا فى أخصر الـكلمات
وكذا البلاغة والبديع بحيث أعـ ... ـيت مدعى هـذين من نسمات
حتى أقروا أنهـا من ربهم ... إذ لم يجاروا أصغر السورات
هو (معجم) للغات يعرب كلها ... ولهـا أشار تعدد الصيغات
هو (خير تاريخ) لمن سبقوا من الـ ... ـأمم التى مرت مع الحقبات
مع ما هنالك من مواضع عِبرةٍ ... وإشـــارة لوسائل الخيرات
وخلاصةُ الأخبار تشريعٌ لنـا ... ودلالةٌ لله بالمثـــلات
هو (خير ما يدعو الفتى) لإلهه ... بأدلة لا تقبل الريبـــات
هو (حجة المولى) يقدمها لمن ... رام القناعة دون ما إعنات
هو (دعوة للناس) من رب الورى ... بتعطف وبمنتهى الرأفات
هو (خير إنذار) لـكل معاند ... قد صيغ فى شىء من الرحمات
هو (خير بشرى) نزلت للمتقـ ... ـين بمنتهى سعد وبالجنات

هو (خير هاد) للأنام لكلِّ ما ... فيه صلاحهم من الطاعات
هو (خير دستور) لأحكام العبا ... د وبعضهم ومع العلىِّ الذات
هو (خير معجزة) لأمّى أتت ... شهدت له بالعلم والحكمات
وبحسن أخلاق وعظم ثقافة ... وفصاحة فى النطق بالكلمات
ورجاحة فى العقل والتفكير مع ... حزم وإقدام وخير صفات
هو من حكيم ليس يعزب عنه من ... أمر الورى شىء من الحالات
الله أنزله فلا يأتى إليـ ... ـه باطل من أيما وجهات
والله ربى لم يفرط فيه من ... شىء تعالى واسع القُدْرات
والله نزله يبين كل شى ... ء كان أو سيكون للميقات
وقد احتوى مافى الزبور من العلو ... م وما بإنجيلٍ مع التوراة
إذ أنه هو آخر الكتب التى ... قد أنزلت من مالك الميقات
وأتى يصدق ما بها وجميعُ ما ... قد جاء فيه جوامع الحكمات

القرآن كلامُ اللهِ تعالى

لا غرو إن عجز الورى عن مثله ... نظما ومعنى أو هدى وعظات
هو من كلام الله يسره لنا ... بلساننا بالنص فى الآيات
وأتى به جبريل نقلا عنه لا ... بتصرف فى الوحى للسورات
عربية آياته قد فصِّلت ... نزل الأمين بها على دفعات
إذ أنما التكليم منه حقيقة ... ثبتت لموسى ساعة الميقات
ناداه موسى استمع لى إننى ... أنا ربك المعبود فرد الذات
فأجاب لبيك استمعت فهل أرا ... ك فقال كلا وانظر الصخرات
فإذا استقرت عند ما يبدو لها ... منى التجلى فارتقب رؤياتى
وبلحظة دكت وخر لهول ذا ... صَعِقاً ونادى تبت من رغماتى
ولقد غدا هذا دليلا قاطعاً ... بسماع موسى الحرف والأصوات
لكن بلا كيف فموسى لم يطق ... وصفا لما لا يشبه الهيئات

هو منه حاشا أن نقول بخلقه ... صفة الكلام لصاحب الكلمات
وتلاوة التالين تحكى ذاك لا ... مما تعبر عن كلام ذاتى

وسيلة النطق بكلام الله تعالى

فالله ربى قد تكلم بالكلا ... م ولم يكن من مخرج ولهات
كلا ولسنا قط ندرك كنهه ... ويجعل عن شبه بمخلوقات
ولقد حكاه أمينه لنبيه ... بالنص عنه بهذه الأبيات
لا أنه هو محض معنى صاغه ... من عنده جبريل فى السورات
أو ما نرى الآلات فى أيامنا ... نطقت كلاما ليس باللهوات
تحكى به نصا للفظ الناس لا ... هو لفظهم بالحرف والأصوات
كلا وليس مغايراً لحديثهم ... أبداً ولا يعزى إلى (المكنات)
وكذاك ما (بالأسطوانة) مثبت ... كالنقش ليس كحرفهم بالذات
وبنقلنا لكلام ربى إنما ... فى الخلق نشبه تلكم الآلات
لكن وسيلتنا إلى النطق المخا ... رج فهى تبدى الحرف والحركات
فإذا تلوناها تلونا آيهُ ... وكلامه نصاً بلا مريات
لكنما قد كان ذاك بصوتنا ... وحروفنا والخط فى الورقات
وإذا نسبناه إليه فإنما ... يعزى المقال لمنشىء القولات
وعليه فاللفوظ قول إلهنا ... واللفظ كسب حناجر ولهات
هو ما به أوحى الإله لعبده ... إنشاءه المسطور فى الصفحات
وهو الذى فى الصدر محفوظ وما ... يجب التدبر فيه بالإنصات
لا ينسبن لمن تلاه لأنه ... أصل وما التالون غير روات

العقيدة فى كلام الله تعالى

وهو الذى منه أخذنا ديننا ... وبه سنبلغ أرفع الدرجات
إن ما اتبعنا فى العقائد سنة الـ ... ـهادى من التسليم والطاعات

فنقول ربى لا إله سواك يه ... بد فى الوجود وأنت فرد الذات
إذ أنت موجد هذه الدنيا ومن ... دانت له الأكوان بالطاعات
لم تتخذ ولداً ولا من والد ... لك أنت وحدك مجزل النعمات
مامن شريك فى الوجود ولا شفـ ... ـيع دون إذنك ساعة الميقات
ندعوك وحدك فى البلاء ونستعيـ ... ـن ونرتجى الغفران والرحمات
وكذاك نؤمن بالنبى محمد ... عبداً رسولاً جاء بالحكمات
وكذاك نؤمن بالملائك إنهم ... لم يألفوا العصيان بالفطرات
ونقول آمنا إلهى بالذى ... أنزلته فى محكم الآيات
إيمان من يؤمن بغيبك مسلماً ... لك كلما استعصى على الفكرات
ومصدقا بالأنبياء وما به ... جاءوا من الإنجيل والتوراة
ويقيننا بالبعث لا ينتابه ... وهن فثبتنا لبعد ممات
وصلاتنا مع ميزة الإحسان وفـ ... ـقنا لها من واسع الرحمات

الاستواء فى كلام الله تعالى

أنت الذى قد كنت قبل ولم يكن ... شىء سواك وأنت فرد الذات
لا عرشَ لا كرسىٌّ لا ماء ولا ... جوٌّ وليس هناك من نسمات
ما كان من فوقية أو ضدها ... كلا ولا جهة ولا حالات
لكن بخلق الكون أصبح لازما ... تحديده فى حيز بجهات
أحدثته وجعلت فوق سمائه ... عرشاً لملكك فى ذرى الذروات
ولك استواء لائق بك فوقه ... لسنا نكيفه بمحسوسات

العلو فى كلام الله تعالى

ولقد سرى ليلا إليك محمد ... متخطيا سبعاً من الطبقات
حتى دنا من قاب قوسين وقد ... بلغ النهى من أرفع الدرجات
وهناك عند العرش كان خطابه ... حيث الملائك خشع الهامات

فلك العلو مؤكد لكنه ما كان مقصوراً على الرتبات
بل فوق ما يتصور الإنسان من معنى علو الذات والرفعات
أنت العلى وذاك وصفك ثابت وإليك يصعد طيب الكلمات
أما نزولك للسماء فأنت يا مولاى تعلمه بأى صفات
لكننا ندرى نزولا لائقاً بجلال قدسك يا عظيم الذات

الصفات فى كلام الله تعالى

وكما وصفت الذات منك نقول ذا حق ونجزم فيه بالإثبات
أو لست قد أثبت فى القرءآن ما يرضيك من وصف ومن حالات
ونفيت عنك من الصفات جميع ما يزرى برب مالك الميقات
قد قلت ليس كمثله شىء وقد قلت السميع ومبصر الحركات
أثبت أنك واحد لكنما حذرتنا من موضع الشبهات
والحى والقيوم قد أثبته لكن نفيت النوم والغفلات
أفهل لنا تنزيه ذاتك بعد ذا عما يراد بهذه الكلمات
كلا ولكنا نؤكد أنها ليست كما يبدو من الخطرات
إذ أنت رب وهى فيك قديمة جلت عن التكييف بالفكرات
والكون خلق والفناء مصيره وَصفاته معلومة الهيئات
فكما نقول السمع ليس كسمعنا فالوجه ليس كسائر الجبهات
بل ما يليق بذى الجلال إلهنا نلتذ من رؤياه فى العرصات
وكذا اليدان مع الحياة فإنها ليست كأيدينا ولا كحياة
حاشا نشبه أو نكيف أو نقو ل مقالة المرتاب ذى الغفلات
ونعطل الأوصاف ثم نحدها بتأول لظواهر الآيات
ونقول ثمَّ عن الصريح كناية إن لم نكفيه بمرئيات
ومن الجراءة أن نعين مقصدا ترمى إليه بما نراه يواتى
ونريد فهم الذات منك ولم نحط بدقيق صنعك خالق الذرات

إن كانت الأرواح بعد وفاتنا ليست تحاكى الجسم فى الحركات
وكذا الملائك لا نصور ذاتهم والجن نجهلها بأى صفات
فالله أقدس أن نشبهه بنا بجنيئه وملائك الرحمات
أو أن نؤول ذا لكى يبدو لنا وضحا فبئس الفهم من ثمرات

الرسول وكلام الله تعالى

وحبيبك المختار من بين الورى فخر الوجود وسيد السادات
المصطفى الهادى محمد من به دكت صروح الشرك والظلمات
هو من عليه تنزل القرآن من رب الأنام فكان خير هداة
وهو الرسول وليس ينطق عن هوى وهو البشير بخالد الجنات
هو صاحب الحوض الشهى مذاقه وشفيعنا فى الحشر بالميقات
وإذا تناكرت النفوس فإنه هو من يقول أنا لذى الأزمات
الكل يعرف فضله ويحبه يفديه بالأرواح والمهجات
من لم يقدم حبه عن نفسه فهو الشقى مؤبد اللعنات
صليت أنت عليه ثم فرضتها فعليه منا أفضل الصلوات

السنة وكلام الله تعالى

والله قد فرض اتباع المصطفى فيما إليه دعا من الطاعات
وقضى علينا حبه كمحبة الـ مولى وأن نفديه بالمهجات
وعليه صلى والملائك ثم قا ل فأكثروا التسليم والصلوات
فغدا علينا أن نتابع سنة الـ هادى التى صحت بخير رواة
إذ أنها كالشرح للقرآن تبـ ـدى ما اختفى وتوضح الغايات
وكذاك أعمال الرسول تعد من ما قد أشير إليه فى السورات
إذ قد أمرنا أن نُتابع فعلَه وكلامَه فى سائر الحالات
وكذا نكف وننتهى عن كل ما ينهى ويمنع منه من فعلات

هدى القرآن الكريم

ولقد تفرع عن كتاب الله مخ تلفُ العلوم و سائرُ المهنات
وبه أشير إلى الصنائع والفنو ن وكل ما يأتى عن الفكرات
حتى تبينا حقيقة قوله لو أن ما فى الأرض من شجرات
صارت بحول الله أقلاما وصا ر البحر للأقلام شبه دواة
ويمده من بَعْدُ سَبعةُ أبحر لم ينفد المسطور فى الصفحات
فمن المحال إذاً علينا أن نحيـ ـط بما حوى القرآن من غايات
فى كل يوم نهتدى لعجائب وغرائب من صنع عالى الذات
قد أوجب القرآن أن يتفكر الـ ـإنسان فيها فى مدى الأوقات
ويطيل فيها الدرس كى تتفتق الأ ذهان بالتفكير للحكمات
وغدا علينا واجباً بحث الحيا ة وما بها من كل موجودات
إذ أنه مهما اكتشفنا لم نحط علماً بما فى الكون من آيات
أو لم نصل لحقائق الأشياء بعـ ـد ولم نزل فى أول الدرجات
إذ فوق كل ذوى علوم عالم والله أعلمهم بلا مريات
وهو الذى لم يؤتنا من علمه غير القليل وموضع النظرات

دروس العلم فى كلام الله تعالى

والله علم آدم الأسماء ثـ ـم هداه كيف يتوب عن زلات
وكذاك جبريل بأمر إلهه قد كان علم أحمد الآيات
ولصحبه المختار كان معلماً بالقول والتطبيق والحكمات
والله أوحى للخلائق كل ما تحتاجه لضمان خير حياة
وكذاك سخر لابن آدم كل ما يهديه كيف يعيش فى غبطات
وهداهم للسعى فى الدنيا لنيـ ـل الرزق أو لتنوع المتعات
ولأجلهم خلق الكثير لكى ينبـ ـهم لما هم فيه من حاجات

ويسر الرزق الحلال لهم ويغـــمرهم بأنواع من اللذات
كيما يخفف عنهم عبء الحيا ة ومايصادفهم من الأزمات
وليستعيضوا جانباً من متعة كانت لهم فى ساحة الجنات
فالماء وهو حياتهم آتاهم منه الكثير ليجزل المنات
والحبُّ والأثمار أنبتها لهم أكُلاً ليقتدروا على الطاعات
وكذلك الأنعام أوجدها لهم منها الغذاء وسترة العورات
ومنافع شتى وفوق ظهورها يطوون أقصى لأرض بالسلعات
وسقاهم من بين فرث والدما لبنا يشـــير إليه بالآيات
وسقاهم من جوف نحل ضامر عسلاً شهياً طيب النكهات
وبوسط بحر قد أعد الحوت يقـ تاتون منه وهم على الموجات
ومن الحجارة قد أعد معادنا وجواهراً للرزق والحليات
حتى الغراب أتى فكان معلما قابيل كيف يوارى السوءات

الآيات الكونية فى كلام الله تعالى

وكذاك أوجد مرشدين لهم إلى سنن الوجود ومطلع الخيرات
فالشمس والقمر المضىء كلاهما خلقا لهدى الناس للأوقات
ولكى يكونا والنجوم وسيلة لهـــداية الضالين للطرقات
والليل سُخِّر والنهار لغاية هى فى هناء العيش خير أداة
هى أن تنظم للورى سبل الحيا ة وراحة الإنسان بالساعات
ومن اختلاف الوقت والأحوال ما فيه الهدى لمصالح الثمرات

المخترعون فى كلام الله تعالى

والله قال لنا (سليمان) الذى قد سخر الأرياح فى الرغبات
واستخدم الأطيار فى نقل البر يد وكشف ما بالناس من حالات

وبأمره وبقوة العلم استطا ع جليسه فى تلكم الأوقات
أن يستخفّ بعرش بلقيس وينـ ـقله إليه بطرفة الجفنات
وبهديه نقلوا الحديد على الريا ح اليوم فى شىء من الخيفات
لكنهم لم يستطيعوا أن يجا روه بسرعته ولا القوات
وله أسال الله عين القطر فا كتشف المعادن دون ما كلفات
من قبله (داود) مخترع الد روع من الحديد تقى من الطعنات
وكذلك (نوح) كان أول صانع للفلك حيث الناس فى غفلات
كى يأمن الطوفان أو ليسير فو ق الماء فى أمن من الويلات
وهناك فى أخبار آل الفيل إذ قذفتهم الأطيار بالحصوات
ما نبه الأفكار لاستخدامنا للطائرات لرمى مقذوفات
وهل القذائف غير نوع من صوا عق توجب التخريب والهلكات
وهل الذى سموه (غازات) سوى ذاك الوباء يسمم الذرات
أو لم تكن هذى الطيور بشكلها وبسيرها فى الجو بالسرعات
هى وحدها أوحت بصنع الطائرا ت لكل من قد تابع الفكرات
وأليست الأسماك فى جريانها وسط البحور ومعظم اللجات
قد علمتنا كيف نصطنع السفا ئن ثم نعقبها (بغواصات)
(عمر) بمسجده تمكن أن يشا هد جيشه فى أبعد الساحات
وعليه أصدر أمره أن يقصد الـ جبل المنيع ليكسب النصرات
ولقد وعى للصوت (سارية) ونف ذ أمره فى تلكم اللحظات
وبهديه اخترعوا لنا (المذياع) لـ كن بعد آلاف من الآلات
وكذا (التلافزيون) والتصوير عن بعد لما يجرى من الحالات
بل إنما العينان قد دلا على التـ صوير فى عكس وفى العدسات
والأذن قد دلت على التكبير للأ صوات فى شكل وفى الطبلات

التفكير فى آيات الله تعالى

ولقد نرى من بعد أن بوسعنا ... تحقيق ما هو خارق العادات
إن ما بحثنا فى الكتاب وفى بد ... يع الخلق والآلاء والمثلات
متتبعين لهديه راجين تنـ ... ـوير البصائر من علىٍّ الذات
فالله سخر لابن آدم كل ما ... فى الكون من جسم ومن قوات
ودعاهم أن يبحثوا وينقبوا ... لتفهم الأسرار والحكمات
ودعاهم أن يبحثوا فى ذاتهم ... من بدء خلقتهم من النطفات
وتطور التكوين فى الأرحام ثم ... خروجهم من داخل الظلمات
وحياتهم ونموهم فى هذه الد ... نيا وما هم فيه من حالات
وتفاوت الأفكار والآمال بل ... والعمر والأرزاق والدرجات
فلكل فرد آلة قد أوجدت ... ه مغايرا لأخيه فى الخلقات
وجميعها متشابهات فى النظا ... م وكلهم من واحد الذرات
وجميعهم من صنعه وفعالهم ... منه بسلطته على الحركات
وتعدد الأطوار يثبت قدرة ... لله خالق تلكم الآلات
فجميع ذا مما يعرفهم به ... وبقودهم للخير والطاعات
إذ لا سبيل إلى الوصول لكل ذا ... إلا من الخلاق عالى الذات
وكذاك حضهم على الأعمال كى ... ما يبلغوا الآمال والغايات
وأنالهم من فضله عزما ومقـ ... ـدرة على إبراز (مخترعات)
مستخدمين جميع ما فى الكون فى ... أغراضهم بالعلم والفكرات
ومسخرين قوى الوجود وما حوت ... (وأشعة) ودخائل (الذرات)
فيما ابتغوا فى هذه الدنيا من الـ ... ـلذات والتخريب والمهلكات
حتى لقد ظنوا بها لنفوسهم ... شيئاً من التأثير والقدرات
بينا تدل على الإله جميعها ... ولبأسه أضحت من الآيات
فمن المهم بأن نقر بأنه ... سبحانه هو مانح النعمات

القوى الفعالة فى كلام الله تعالى

وهو الذى وهب العباد جميع ما ... هم فيه من نور ومن ظلمات
ومن الهوا والماء بل كل القوى ... والعقل والحركات والسكنات
وهو المصرف للشئون جميعها ... فى الكون وهو مسير الدفات
وهو الذى هو دائماً معنا وأة ... رب ما يكون لمرتجى الرحمات
بل إنه أدنى لمن يرجوه من ... (حبل الوريد) وأقرب القوات
إذ منه نكتسب الحياة لجسمنا ... وبدونه لا نملك الحركات
بل إنه سرّ الحياة وموجد الأ ... آلاء وهو محرك السكنات
وقواه كامنة (بذرات الوجو ... د وفى الأثير) وموضع النبضات
وهو العليم بكل مافى الكون من ... خلق ومن أعمال او نيات
فإذا سعينا إنما نسعى بقـ ... ـوته وما أولاه من عضلات
بل بالحياة وقد حبانا الروح منـ ... ـه فكلنا فى الكون كالآلات
بل نحن من ضمن القوى وجميعنا ... جند يسير بمقتضى الحكمات

صلة العبد بالله تعالى

ومتى أردنا الاتصال به فليـ ... ـس هناك من تعب ولا كلفات
بل فى استطاعتنا اللجوء إليه جل ... جلاله فى كافة الأوقات
فنبثه آمالنا من قلبنا ... ونؤكد الرغبات بالدعوات
ونراقب الإلهام من نفس الطري ... ق لما سيوصلنا إلى الغايات
إذ أنه لا بدَّ أن يهدى الفؤا ... د إلى الصواب وأحسن الطرقات
فمن اتقى مولاه يهد القلب منـ ... ـه إليه بل ولمنتهى الخيرات
فالقلب (بيت الرب) وهو محل أنـ ... ـظار الإله وموضع النجوات
وهو (المحطة) لاتصال الروح بالـ ... ـمولى بها الأفكار (كالموجات)
تعطى وتأخذ بل وتملى ما ترى ... ولها يدين الجسم بالطاعات

وبقدر ما تصفو من الأغيار تشـ ـمل بالمجيب فتسمع الهمسات
وجميع ما يأتى إليها داعياً للخير فهو من العلىّ الذات
أو داعياً للشر فهو وساوس جاءت من الشيطان للشهوات
والله يعطى المرء ما يرجو بها منه إذ الأعمال بالنيـــات
والمرء يمسى ملهماً وموفقاً فى سعيه لا يعرف الخيبات
وهناك أعظم قوة فى الكون تد فعه إلى الإصلاح والحسنات
وتقوده من حيث لا يدرى إلى ما يبتغى من غير ما كلفات
والنفس منه طروبة والجسم يسـ ـعى وفق أمر الله فى الطاعات
ويظل فى الدنيا يعيش كزهرة لا تعرف الآلام بالهلكات
الله أنبتها وأرواها فلم تذكر سوى مَنْ مَنَّ بالإنبات
أو كاليعاسيب التى قد أخضع الـ ـمولى لها عدداً من النحلات
من غير سلطان لها أو ميزة إلا إرادة رافع الدرجات
فغدت تدين له تعالى وحده ولغيره لم تذكر المنات
والمرء فى الدنيا بما أوتى من الـ ـتمييز والتفكير والحكمات
أحرى بمعرفة الإله فلا يدي ـن لغيره فى كافة الحالات
وبأن يكون على اتصال دائم بفؤاده بالله عالى الذات

محبة العبد لله تعالى

ولمن أراد محبة المولى له فليخلص الأعمال والنيات
وليجتهد فى أن يراقب ربه فى كل ما يأتيه من فعلات
وليعبد المولى بما أوحى به سبحانه وليكثر الصلوات
وليتخذ وقتاً يفكر فيه فى آلائه وبديع مخلوقات
وعليه دوما أن يلقن نفسه حبَّ الإله ومالك الميقات
من منه قد نال الحياة وكل ما هو فيه من نعم ومن خيرات
وهو الذى فى الحشر سوف يثيبه برضائه من فضله الجنات

وبمثـل ذا يتعود المرء التقى وَالُحبَّ والإخلاصَ بالنيات
ومتى أحب العبدُ مولاه فسو ف يحبه ويزيده درجات
وإذا أحب الله عبـداً ودَّه من فى الوجود وفاز بالرغبات
ويكون ربى سمعه ويمينه ودليله فى ساعة الحيرات
وبه يكون مسدداً فى رأيه وموفقاً فى السعى والفـكرات
ولسوف يبلغ ما يريد من الحيـ ـاة بمـا حباه الله من قوات
ويعيش فى الدنيا سعيداً ناجحاً ومنعما بالخير والحسنات
ذا قوة جـذابة وإرادة بالله تهزم أعظم العقبات
وسكينة من ربها تستلهم الـ رضوان والعرفان والحـكمات
وهناك تصفو النفس من أدرانها وتظل تسبح فى هدى الآيات
وتعم فى الدنيا كرامات ويحـ ظى المؤمنون بفائق العزات
فالنفس إذ تصفو وتعرف ربها تسمو عن المحسوس من لذات
وتسير فى بحر المعارف والهدى دوما فلا تصبو إلى الشهوات
بل إنهـا تجد المَلَذة فى غذا ء الروح بالإحسان والصلوات
والإتصال بمـالك الدنيا وما فيها ومن هو موجد النعمات
وبذاك لا تخشى البلاء ولا تخا ف الناس فيما كان من طاعات
بل قد تغالب حزنها لتنال بالـ ـصّبر الرضى من مالك الميقات
لا بل لفرط صفائها ويقينها بالله تبصره مدى الأوقات
فى كل ما هو خَلْقُه أو فعله فتظل راضية على الحالات
وتظل تنعم فى الحياة بغير ما هو قد يسر الجسم من متعات
وترى الحياة لها كسجن مظلم وخلاصها للنـور إثر وفاة
هذا الـكمال حقيقة ولمثله فليعمل الراجون خير حياة
من قد أعدَّ لهم إله العرش فى الـ ـأخرى النعيم بخالد الجنات
وهم الذين دعاهمو مولاهمو بالمتقين وخالص النيات

الإيمان بالرسل

يخرج الطفل من بطن أمه وهو يجهل كل شيء فى الحياة حتى إذا ما كبر ونشأ وترعرع لجأ إلى والديه يسترشدهما لمعرفة ما حوله من المسببات وطرق الاستفادة منها ثم إذا ما بدا يعقل بعث إلى المدرسة لتعليمه وتنوير أفكاره وهكذا كلما ارتقت مداركه يشعر من نفسه بحاجته إلى زيادة العلم ويوقن أن من مصلحته أن يبحث عن ذلك المعلم الذى يوصله إلى الكمال فى كل شيء .

وهو إذ يُترك إلى مداركه الحسية ونظرياته العقلية يفكر فى حياته القصيرة وما يعتورها من آلام جسدية وحالات نفسية وما يقاسيه من صعاب ومتاعب فى سبيل أهله وقومه أو وطنه ودولته لا يسعه إلا أن يطلب لذاته الجسدية الراحة من أقرب الطرق وفى هذا السبيل يرى من الحمق أن يعرض نفسه للتعب والألم فى سبيل أهله وأولاده ومن الجنون أن يكلف نفسه تحمل أى عبء فى سبيل دولته أو وطنه فإذا ما نزلت به مصيبة أو تناوبته أمراض ربما فضل الموت على الحياة وقد يقدم على الانتحار تخلصاً من الحياة وطلباً للراحة التى ينشدها .

ومن أجل هذا شعر الناس بحاجتهم إلى من يهديهم إلى ما فى هذا الوجود من أسرار تحمل الرجل على أن يضحى براحته وهنائه فى سبيل أهله وبلاده فأخذوا يتلمسون ذلك من السماء .

وقد دلتهم التجارب على أن هداية العقل لا تكفى لحل هذه المشاكل النفسية ولا تضمن لهم حياة الاستقرار الهنية بل إنها قد أدت بهم إلى الاختلاف فى العقائد والأحكام والتباغض والانقسام فظلوا يتوقعون أن تصل إليهم الهداية إلى كل ذلك من الله عن طريق رؤيتهم له أو إرساله ملائكة من قبله لتنوير بصائرهم . .

ولما كان منشأ هذه الرغبة فيهم هو جمود مداركهم فى حدود الأشياء المحسوسة أرسل الله لهم رسلا منهم تفهمهم استحالة هذا وتدعوهم إلى الإيمان بإله غيبى يسمو عن جميع الكائنات المحسوسة وغير المحسوسة مما يمكن للعقل البشرى أن يتصورها فلم يجدوا فى أولئك الرسل أهلية لأن يكونوا رسلا بين الله وعباده فعتوا واستكبروا قال تعالى : « وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا

لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً »[١] وعلى هذا درج الناس فى جميع العصور قال تعالى : « ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة . ماسمعنا بهذا فى آبائنا الأولين إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين »[٢] ولقد كان من نتيجة هذا أن أغرقهم الله وأنجى نوحاً ومن آمن به ثم قال تعالى فى هود وقومه : « وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى هذه الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أإنكم لمخرجون »[٣] فدعا هود ربه : « قال رب انصرنى بما كذبون قال عما قليل ليصبحن نادمين فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ثم أرسلنا رسلنا تترا كل ما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون »[٤] وجاء الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم وأخبر قومه بأمر المَلَك الذى ينزل عليه فظنوا أن مساواتهم له فى البشرية تقتضى مساواتهم له فى الاستعداد لرؤية الملائكة وتلقى العلم عنهم مباشرة فأنكروا عليه الرسالة باعتباره بشراً وإن كان ولا بد فما الذى يمنع أن يظهر لهم ذلك المَلَك فيروه بأعينهم أيضاً « وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيراً »[٥] فرد الله على قولهم هذا بقوله : « وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون »[٦] والمعنى أن طلبهم هذا ما هو إلا محض تعنت منهم لا يمكن تحقيقه ولا فائدة منه لسببين اثنين :

الأول : أنه لو كان فى الإمكان إنزال المَلَك لمساعدة الرسول فى تبليغ الرسالة لقضى الأمر واكتفى به فى أداء الرسالة ولم تعد حاجة لإرسال الرسل من الناس ، ثم

---

(١) الفرقان : ٢١
(٢) المؤمنون : ٢٥
(٣) المؤمنون : ٣٤، ٣٥
(٤) المؤمنون : ٣٩ - ٤٤
(٥) الفرقان : ٧
(٦) الأنعام : ٨

هم بعد ذلك لا يمهلون لأجل أن يؤمنوا ولا يؤمنون ، فهذا يعد عنتاً جلياً منهم ، وهو سبحانه يعلم أنهم إن أعطوا هذا الطلب وأرسلت لهم ملائكة من السماء سوف لا يؤمنون من فرط عنادهم وإصرارهم على الكفر .

الثانى : أن المَلَك من المخلوقات الخفية التى لا ترى فإذا أرسل أحد منهم للبشر فمن الضرورى أن يكون متمثلا فى صورة بشر حتى يمكنهم مشاهدته وسماع كلامه الذى يبلغهم به عن ربه كما حصل عندما أرسل الله المَلَك لمريم « فتمثل لها بشراً سويا » فإذا ما أرسل الله الملك للناس وجعله فى صورة بشر لاريب أنه يداخلهم الشك فى أمره أيضاً لأنهم لا يدركون منه إلا صورته وصفاته البشرية المنظورة وحينئذ يقعون فى نفس اللبس والاشتباه ولا ينفكون عن المطالبة بجعله ملكا .

وهذا دليل قاطع على أن ما يتطلبه المشركون من أن تكون الرسالة من الله للخلق عن طريق أحد من غير البشر أمر مستحيل تحقيقه ولا ثمرة منه ومن أجل هذا أخذ الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم يؤكد لقومه أنه بشر وأن مهمته فى الحياة محصورة فى هدايتهم إلى الله وتبليغهم أحكامه التى فيها إصلاح للناس فى دينهم ودنياهم حيث قال : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا »[1] وخشى عليه الصلاة والسلام من تأليه أتباعه له كما فعلت النصارى بابن مريم فلم يكتف بتلقيب نفسه برسول الله حتى أمرهم بأن يقولوا « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله » وأوجب على المؤمن أن يؤمن بجميع رسل الله السابقين وعدم التفرقة بينهم فى الرسالة باعتبار أن وظيفتهم جميعا هى تبليغ الرسالة وإرشاد المكلفين إلى ماهم فى حاجة إلى معرفته من أمور الدين والدنيا ، فالإيمان بالبعض والكفر بالبعض الآخر كالكفر بهم جميعا ما داموا ينتسبون إلى إله واحد حيث قال تعالى « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله »[2] ذلك لأن الدين الذى أرسل به جميع الرسل لابد أن تكون مقاصده واحدة من هداية البشر وإصلاح أمرهم وإنما تختلف صور العبادات والشرائع المنزلة على الرسل بحسب إستعداد الناس لتقبل الهداية

---

(١) الكهف : ١١٠ .

(٢) البقرة : ٢٨٦ .

وما تقتضيه سنة التدرج والارتقاء وحالة البيئة والزمان والمكان فالإيمان ببعض الرسل دون الآخر فيه من معنى التحيز ومتابعة الهوى والعاطفة مالا يرضى الله ويدل على جهل بحقيقة الدين وجحود لسلطان رب العالمين وكفر بمرسل أولئك المرسلين .

لقد جبلت النفوس البشرية على الاعتداد بالنفس وحب العظمة وبسط النفوذ والسلطان على العباد وكانت آية جميع الرسل تجردهم عن كل ذلك ودعوة الناس إلى الله خالقهم دون أن يزعموا لأنفسهم شيئاً من دونه فكان حقاً وكان لزاماً على كل عاقل أن يتخذ من دعوتهم هذه حجة قائمة على صحة رسالتهم بما جاءوا به من عند الله لا أن يتخذوا منهم آلة تعبد معه جل وعلا ، ومن أجل هذا كان الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى إحكام الصلة بينهم وبين الله مباشرة ومن غير واسطة ويحرم عليهم اتخاذ الشفعاء إليه ، وقد أدى الأمانة وبلغ الرسالة ونصح الأمة وبسط الشريعة ونفذ الأحكام وربى الناس على مكارم الأخلاق والسمو بالنفس البشرية إلى أرقى درجات الفضل والنبل والكمال .

وحضهم القرآن الكريم على إطالة الفكر فى مخلوقات الله وتدبر ما فيها من أسرار وصدقهم الخبر عن كل ما وراء هذه الأشياء المنظورة من عوالم خفية وبسط حقائق ما استعصى عليهم فهمه من أسرار القوى الغيبية وأمر الله الرسول أن يقول « قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل[1] » .

ولقد نظمت فى هذا الباب بعض أبيات أثبتها فيما يأتى :

والله أرسل مرسلين لهدينا ... للصالحات وسلم الجنات
فأتوا لنا بالكتب فيها دعوة ... للدين والدنيا وللميقات
وختامهم قد كان سيد يعرب ... المصطفى من صفوة الصفوات
من جاء يوقظ فى ابن آدم عقله ... وينبه الأفكار بالآيات
ويحضه دوما على التحليق فى ... جو الخيال وعالم القوات
كيف يدرك الخلاق من آلائه ... فيطيعه فى السر والجهرات

---

(١) يونس : ١٠٨ .

ويسير فى الدنيا بضوء هداية منه فلا يتنكب الطرقات
ويظل يعمل للحياة بسر ما يأتى من الإلهام للفكرات
فالله صيرة أداة تقبل الإ رشاد هادى الجسم للخيرات
وأناله من قوة التفكير ما يهديه كيف يحقق الغايات
وحباه منه العلم لاستخراج ما فى الأرض من نعم ومن ثروات
وهداه لاستخدام معظم ما هنا لك من قوى فى الأرض والسموات
وبلوغ أقصى حالة فى الفن تس تهوى النفوس وتكمل الزينات
لعمار هذا الكون وفق إرادة الـ مولى الذى هو مصدر السلطات
حتى لقد علموا الذى لم يعلمو ه وأوجدوا عدداً من الآلات
وبها لقد بلغوا الكمال وأبدعوا بالفكر ما سموه (مخترعات)
صنعت كما أوحى فكانت آية لله مرشدهم إلى الخيرات
هى ضمن خلق الله أصلا بل وما آلت إليه بعلمهم الفكرات
وفقا لما قد جاء فى القرآن عن ه بخلق ما يخفى مع الأوقات
وهوالذى للعقل أخضع كل شىء فى الوجود بواسع الحكمات
فالحول منه وما لنا من قوة إلا بما يؤتيه من قوات

الإيمان باليوم الآخر

لقد أرسل الله الرسل لدعوة الناس إلى الإيمان بالله والعمل الصالح والانتهاء عن الشرور والآثام وإنذارهم بيوم مشهود يبعث فيه الناس من قبورهم ويحاسبون على أعمالهم ليفوز بالجنة المطيع ويصلى المسيء نار السعير . فلم تستطع العقول أن تهضم هذا الأمر وعارضت فيه بكل شدة بل لقد كان سبباً من الأسباب التى جعلتهم يسخرون بهم وبدعوتهم إذ يقولون : « أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً إنكم مخرجون . هيهات هيهات لما توعدون إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين »[1] « وأقسموا بالله جهد

(١) المؤمنون : ٣٥ — ٣٨ .

إيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[١] « زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبئن بما عملتم وذلك على الله يسير »[٢] « وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[٣] .

وجاء الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم فدعا الناس إلى إطالة النظر فى جميع ما فى الكون من مخلوقات ظاهرة وخفية والتفكير فى حقائقها وغاياتها والتأمل فى النظام الدقيق الذى وضع من أجلها ، فكل ذلك مما يدل دلالة قاطعة على وجود خالق عظيم لها اتصف بالقدرة الكاملة على الخلق والإبداع فلم يشك فى هذا عاقل من قومه تجرد عن العصبية والهوى وأيقن بحسن تدبيره ودقة نظامه ، وربما تطورت العقلية السليمة إلى غير ما كانت عليه العقلية الجامدة التى لا تثق إلا بالمحسوسات ذلك أن نظرة فاحصة فى هذه الأشجار والزروع ودقة مواعيد زرعها وحصادها وتساقط ورقها وعودتها فى الوقت المقرر تدل دلالة قاطعة على أن الخالق الأعظم لها إنما يعمل ذلك بحكمة ونظام عجيب ولغاية سامية ومرمى بعيد وأنه لا يعرف اللعب واللهو . إذاً فماذا يقصد من هذا الإنسان بشكله الراهن يبدأ من نطفة ثم يتحول إلى علقة ثم يتكون طفلا ويأخذ فى أسباب التدرج للعمل فيداهمه الموت قبل أن يبلغ غايته من الحياة والحياة فى حاجة إلى عمله ، إن العقل لا يسلم بأن رباً اتصف بتلك الصفات العالية والحكمة البالغة يمكن أن يقيم خلقاً عظيما كالإنسان ثم يأتى عليه من غير حكمة أو سبب وماهى الغاية من وراء ذلك ، وهنا أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يبين لهم أنه لا محل للعجب فهذه الحياة الدنيا ليست هى كل شىء وليست فى ذاتها هى غاية وإنما هى حياة بدائية لما بعدها من حياة أخرى سعيدة دائمة لا يدركها الفناء وأن هذه الحياة التى ننعم فيها ما خلقت إلا لتكون بمثابة مزرعة يغرس فيها الإنسان بعمله ما يجنى ثماره فى تلك الحياة الأخرى بنفس الطريقة والنظام المشاهد فى أمر هذه

---

(١) النحل : ٣٨ (٢) التغابن : ٧ (٣) الجاثية ٢٤ — ٢٦

الأشجار والزروع تماماً وأن الموت أمر لا بد منه وأن هذه الحياة الدنيا مما لا ينبغى الركون إليها لأنها إنما خلقت لتكون دار كدٍّ وجهاد وعمل متواصل لما ينفع الإنسان فى الحياة الأخرى وأن نعيمها ما هو إلا نعيم زائل ولذاتها محدودة لا تساوى شيئاً فى جانب الحياة الأخرى حيث يقول تعالى «كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور»(١) ويقول تعالى: «اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور»(٢) ويقول تعالى: «إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدراً»(٣) ويقول تعالى: «إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون»(٤).

وجاء القرآن مليئاً بالآيات التى تؤكد للناس أمر البعث فى يوم القيامة وتثبت لهم بأدلة منطقية أن الله الذى خلق الخلق وخلق الإنسان من ماء أحاله إلى عناصر أخرى وهى اللحم والدم والعظم ثم كونه إنسانا لا يعجزه أن يعيده كما هو بعد الموت أو الفناء وهذه الأرض التى نراها أمامنا هامدة إذا سقيت بالماء تنبت أشجاراً لا نعرف أصلها فهل يعجز مخرج هذه الأشجار من الأرض بمجرد سقياها بالماء أن يعيد خلق الإنسان بأمر منه ؟ وفى هذا يقول تعالى: «يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقنا كم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله

---

(١) آل عمران : ١٨٦
(٢) الحديد : ٢٠
(٣) الكهف .
(٤) هود .

هو الحق وأنه يحي الموتى وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور »[١] « أيحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى »[٢] « أفعينا بالخلق بل هم فى لبس من خلق جديد »[٣] .

فهذه التطورات فى حياة الإنسان وانتقاله فى درجات حياته الدنيا من طبيعة إلى طبيعة ومن حالة إلى حالة أخرى مغايرة لها تدل على تدرجه إلى الكمال وتثبت ماوراء هذه الحياة من حياة أخرى خالدة هى منتهى الكمال كما قال تعالى : « منها خلقنا كم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى[٤] » ومن ثم يعيد الله الناس إلى دار النعيم والهناء المقيم التى ينال المحسن بها جزاء إحسانه وثمرة عمله ويحرم من نعيمها من أهمل الغرس فى موعد الزرع وبعبارة أخرى من كفر بالله وأنكر بعثه ولم يطع أمره ولذلك فإنه سوف لا يجد الثمرة يوم الحصاد وسوف يخلد فى النار وينسى كما نسى أن يعمل لما ينفعه فى تلك الحياة ، وفى هذا يقول تعالى : « وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لاريب فيها قلتم ما ندرى ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين وبدا لهم سيئات ماعملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين[٥] » (ويقول) « الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون[٦] » .

وهناك فى فلسفة الحياة والموت على ضوء ما جاء فى القرآن عن قصة خلق آدم ما يجعلنا نوقن بأن هذه الحياة الدنيا حياة مؤقتة ما خلقت إلا لتأديب الإنسان وأنها قنطرة للعودة إلى الحياة السعيدة التى كان عليها آدم عليه السلام قبل الخطيئة حيث يقول تعالى « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين قال أنظرنى إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين

---

(١) الحج : ٥ — ٧ (٢) القيامة : ٣٦ — ٤٠ (٣) ق : ٣
(٤) طه : ٥٥ (٥) الجاثية : ٣١ ، ٣٤ (٦) الأعراف : ٥١

قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ، قال اخرج منها مذموماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ، ويا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وروى عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكم الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ، قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ، قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون [1] » . فإن من يتأمل فى هذه القصة كما تسلم بها كافة الديانات وكما أثبتها القرآن بهذا النص يرى أن الله جل وعلا إذ خلق الإنسان أول أمره لم يخلقه فى هذه الحياة المادية بل إنه خلق آدم وحواء فى تلك الحياة الدائمة السعيدة وكانا فى الجنة قبل الخطيئة عاريين ولكنهما لم يدركا حقيقة عريهما إلا بعد أن ذاقا الشجرة ومن هنا يستنتج أنهما كانا مخلوقين ذوى نفسية عجيبة خاصة لا يوجد لها أى شعور بالكيان المادى أو أنهما لم يكونا يستطيعا أن يريا أى شىء مادى فلم تكن لهما القدرة على الإحساس بالماديات ولو كان لهما هذه القدرة لاستطاعا أن يريا جسديهما . ولاستطاعا أن يعرفا أنهما عاريان من قبل وقد منعهما الله عن الأكل من الشجرة فلما ذاقاها بإغراء إبليس شعرا إذ ذاك بكيانهما المادى وأدركا أنهما كانا عاريين .

ولا شك أن الله سبحانه وتعالى عندما فتح عين الرجل والمرأة لتبدو لهما سوأتهما ويشعر ابكيانهما المادى لم يعمل ذلك ليعطى لهما الحياة بل فعل ذلك عقاباً لهما بالموت وما فيه من المتاعب الدنيوية على مخالفتهما لأمره وهذا الموت الذى هو الشعور بالكيان المادى وما كان أثره من الهبوط إلى الأرض هو ما نسميه نحن الحياة ، والخلاص من هذا الوجود المادى بما نسميه نحن بالموت ما هو فى الأمر الواقع إلا رجوع إلى الحياة

---

(١) الأعراف : ٢٥

الأولى والنفسية الخاصة وارتقاء فى الحياة الدنيا فعندما تغلق فى هذه الحياة الدنيا تلك العيون التى فتحت فى الجنة عقاباً على الخطيئة فى هذه اللحظة فقط يعود الإنسان إلى شىء مما كان عليه قبل الهبوط من حيث الحياة النفسية لا من حيث النعيم أو السعير قال : صلى الله عليه وسلم « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » فإذا ما فهمنا الحياة بهذا المعنى وعلى ضوء هذه الحقيقة أدركنا معنى قوله تعالى « ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين — أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون[1] » يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين[2] » .

وعلى ضوء هذه الحقيقة تنكشف لنا الدنيا على حقيقتها وقد نظمت فى هذا ما يأتى : —

الحياة الدنيا

وإذا تأملنا مليا فى أساس الخلق والتكوين للنسمات
نجد المهيمن قد أراد الخير بالإنسان بل أعلاه للذروات
إذ أصدر الأمر الكريم على الملائكة بالسجود له بلا أنفات
وكذاك صوره بأحسن صورة وبأحسن التقويم والحالات
واختار منه خليفة فى الأرض ثم حباه منه العلم والحكمات
بل زاده شرفاً وتكريماً بنفخ الروح فيه من العلى الذات
وله ارتضى سكنى الجنات منعما فيها بما يرجو من الخيرات
لكنه بالروح عاش ولم يكن يغريه ما للجسم من لذات
حتى أتى إبليس واستهواه عن أمر الإله وزين الشهوات
فتفتحت عيناه للاغيار لما إن أساء بأكله الحبات
وهناك أدرك ما عليه الجسم من حال العراء فيمم الشجرات

---

(١) المؤمنون : ١١٦ .
(٢) الأنبياء : ١٠٤ .

لينال من أوراقها مع زوجه حواء ما قد يستر العورات
وغدا انصراف الهم نحو الجسم أو خوف الفناء بداءة الزلات
وجزاء ذا قد كان فتح العين فى تلك الجنان لرؤية السوآت
وتلاه بعد العفو عما قد مضى إخراج ذاك الجسم من جنات
وهبوطه للأرض أسفل سافلي ن لكى يحاط بوافر الفتنات
ويظل فى دور اختبار والملائـ ـك تكتب الأعمال فى الصفحات
وغدت حياة المرء فى الدنيا شقا ء دائما كنتيجة السقطات
والصوم فيها مصلح للنفس والإ كثار من أكل من الآفات
وغدت تصاريف العباد متمما ت ما أتى الآباء من فعلات
وسعادة الإنسان فيها أن يعيـ ش لربه ويجانب الحرمات
وشقاؤه فيها الركون إلى ملا ذ الجسم دون النفس والطاعات
والموت خاتمة المآسى بل وفصـ ـل القول فى جرم وفى توبات
وبه تظل النفس باقية كما كانت ليوم العرض للحسنات
وهناك يستوفى الأنام جزاءهم ويفوز ذو الإحسان بالرحمات
ويفوز بالرضوان من قد تاب عن ما قد مضى كأبيه فى أخبات
ويبوء بالخذلان من هو قد أطا ع الجسم ثم استمرأ الشهوات
ويظل فى نار السعير من استمـ ـر على المعاصى دون ما خشيات
فإذا انجلت هذه الحقيقة لم يعـ ـد للموت فرق عن نعيم حياة
فى قلب من هو مؤمن بالله يعـ ـلم عن يقين صحة الميقات
بل قد يكون الموت خير سعادة للمتقين الله فى الخلوات
الحاكمين الجسم وفق مرادهم فيما يميل إليه من متعات
والضابطين النفس عن شهواتها طوعا لأمر الله فى الآيات
وهم الذين تذوقوا معنى السعا دة فى اصطناع الخير والطاعات
وزكت نفوسهم بفعل الصالحا ت فما رأو فيها سوى اللذات
وتبينوا أن الرذيلة فى الحيا ة تسبب الآلام والهلكات
فاستنكفوا عنها وراموا الزهد فى ما كان من عرض من الغايات

بل منهم من قال من طلب المتاع لجسمه عانى لظى حسرات
إذ لا دوام للذة الأجسام والـ فقدان مما يوجب الوحشات
والهم مجلبة الشقاء وما لهم من صالح فيه ولا رغبات
بل إنما يسعون فى الدنيا لرا حة نفسهم بالزهد والصلوات
وإطاعة الرحمن فى أحكامه وجميع ما يرضيه من حالات
بعزيمة وتوكل من شأنه أن يجعل الإنسان فى غبطات
بالرغم عن كل الذى ينتابه فى الكون من سقم ومن بلوات
حيث السعادة فى الرضا والنفس تط رب بالتقى والبر والحسنات

الحياة والموت

ثم إنه على ضوء ما جاء فى القرآن الكريم عن الحياة والموت والحساب والعقاب للنفس والبدن فى الدنيا والآخرة ، وما أثبته العلم أخيراً من أن هنالك عالماً آخر غير منظور فى عالمنا الذى نحن فيه ، وهو عالم النفوس وهو عالم أعظم من عالم الأبدان وأحكامه وآثاره أعجب من آثار الأبدان بل إن كل ما فى عالمنا من الآثار الإنسانية إنما هو من تأثير النفوس بواسطة الأبدان — لايسعنا إلا أن نؤمن باليوم الآخر ونجزم بأن النفوس والأبدان تتعاون على التأثير فى كل شىء فى هذه الحياة تعاون المشتركين فى الفعل وتنفرد النفس بآثار لا يشاركها فيها البدن ولا يكون للبدن تأثير لا تشاركه فيه النفس ، ولذلك يكون الجزاء والعقاب عليهما معاً فى الحياة الأخرى ، مستدلين على هذا بما استنتجه بعض العلماء المتقدمين من كلام الله حيث قالوا : إن العلاقة بين الروح والنفس والبدن على أنواع، فقد تجتمع الثلاثة فى حياتنا العادية، وقد تنفرد الروح بالبدن من غير النفس التى تكون سابحة فى العالم غير المنظور فى حالة النوم سواء كان طبيعياً أو بتأثير آخر — كالبنج أو التنويم المغناطيسى مثلا — وقد تتصل النفس بالبدن من غير روح وذلك بعد مفارقة الحياة للبدن فى حالة الموت المعروف وتظل النفس سابحة بمفردها فى العالم غير المنظور إلى نهاية هذه الحياة وذلك يوم النفخ فى الصور الذى قال عنه سبحانه وتعالى : « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات

وَمن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذاهم قيام ينظرون » ، وإذ ذاك تبدأ الحياة الأخرى خصوصاً وقد فصلوا الأمر بقولهم إن الله جعل الدور ثلاثاً دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار — ووضع لكل دار أحكاماً تختص بها وركب هذا الإنسان من بدن ونفس، وجعل أحكام الدنيا على الأبدان، والأنفس تبع لها ولذلك جعل أحكام الشريعة مرتبة على مايظهر من حركات اللسان والجوارح وإن أضمرت النفوس خلافها، وجعل أحكام البرزخ على الأنفس ، والأبدان تبع لها فكما تبعت النفوس الأبدان فى أحكام الدنيا فتألمت لألمها والتذت براحتها وكانت هى التى باشرت أسباب النعيم والعذاب . تبعت الأبدان النفوس فى البرزخ فى نعيمها وعذابها ، وكما كانت النفوس هنا خفية والأبدان ظاهرة فستكون النفوس هناك ظاهرة والأبدان خفية فى قبورها ، وتجرى أحكام البرزخ على النفوس التى تباشر أسباب النعيم والعذاب فتسرى منها للأبدان ، وضربوا لذلك مثلا بحال النائم فإن ماينعم به أو يعذب فى نومه يجرى على نفسه أصلا والبدن تبع لها وقد يقوى حتى يؤثر على البدن تأثيراً مشاهداً فتراه يقوم من نومه ويضرب ويبطش ويدافع كأنه يقظان وهو نائم لا شعور له بشىء من ذلك .

والسر فى هذا أن الحكم لما جرى على النفس استعانت بالبدن من خارجه ولو دخلت فيه لاستيقظ وأحس ، فإذا كانت النفس تتألم وتنعم ويصل ذلك إلى بدنها بطريق الاستتباع فهكذا فى البرزخ بل أعظم فإن تجرد النفس هناك أكمل وأقوى وهى متعلقة ببدنها لم تنقطع عنه كل الانقطاع ، فإذا كان يوم الحشر فى دار القرار تتحد النفوس مع أبدانها ويشتركان فى الشعور بالنعيم أو العذاب ويصير الحكم عليهما معا مباشرة ظاهرا باديا .

ومما استدلوا به على التمييز بين النفس والروح قوله تعالى « وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار »[1] وقوله تعالى « الله يتوفى الأنفس حين موتها » أى ينتزع النفوس من أبدانها التى فقدت الحياة « والتى لم تمت فى منامها » أى ينزع النفوس من أبدانها الحية فى منامها « فيمسك التى قضى عليها الموت » أى فلا يعيدها سيرتها الأولى « ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى »[2] أى ويعيد نفس النائم إلى بدنه الحى لتتبوأ مركزها فيه إلى موعد معين وإمساكه سبحانه وتعالى للنفس التى قضى عليها

---

(١) الأنعام : ٦٠ (٢) الزمر : ٤٢

الموت لا يمنع ردها إلى جسدها الميت فى وقت مارداً عارضاً لا يوجب له الحياة المعهودة فى الدنيا وكما أن النائم روحه فى جسده وهو حى وحياته غير حياة المستيقظ لأنها من غير نفس فلا يحس ولا يشعر مع أنه يتحرك وقد يمشى ويتكلم كذلك الميت إذا أعيدت نفسه إلى جسده كانت له حياة أخرى عكس حياة النائم فإنه يحس ويشعر ولكنه لا يتحرك لأنه من غير روح كما ورد فى الصحيحين قوله صلى الله عليه وسلم « أنه أمر بقتلى بدر فألقوا فى قليب ثم جاء حتى وقف عليهم وناداهم بأسمائهم يا فلان ابن فلان هل وجدتم ماوعدكم ربكم حقاً فإنى وجدت ماوعدنى ربى حقاً ، فقال له عمر : يارسول الله ما تخاطب من أقوام قد جيفوا ؟ فقال والذى بعثنى بالحق ماأنتم سمع بأمما أقول منهم ولكنهم لايستطيعون جوابا »

قال مقاتل بن سليمان «للإنسان حياة وروح ونفس فإذا نام خرجت نفسه التى يعقل بها الأشياء ولم تفارق الجسد ، بل تخرج كحبل ممتد له شعاع فيرى الرؤيا بالنفس التى خرجت منه وتبقى الروح فى الجسد فبها يتقلب وبها يتنفس فإذا حرك رجعت إليه أسرع من لمح البصر ، وفى حديث لعمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سئل مم تصدق الرؤيا ومم تكذب ؟ فقال إن الله عز وجل يقول : « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها » فمن دخل منها فى ملكوت السماء فهى التى تصدق وما كان منها دون ملكوت السماء فهى التى تكذب .

وقد كان الأقدمون يتصلون بالنفوس فى العالم غير المنظور بواسطة المنام ثم توصل العلم أخيراً إلى مخاطبة النفوس بواسطة التنويم المغناطيسى فثبت من كل هذا اتصال النفوس بعضها ببعض فى الحياة وبعد الوفاة، وقد وردت آيات كثيرة وأحاديث تدل على بقاء النفس وتعارفها بعد مفارقة أبدانها إلى أن يرجعها الله فى أجسادها يوم القيامة حيث الحياة الأخرى الدائمة. فقدقال تعالى «ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياءعند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم[1]» وفى الحديث قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم له «ماينبغى لنا أن نفارقك فى الدنيا فإذا مت رفعت فوقنا فلم نرك» فأنزل الله « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين

(١) آل عمران : ١٦٩ ، ١٧٠

وحسن أولئك رفيقا »[١] وثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له إذا انصرفوا عنه » وأنه قال « مامن رجل يزور قبر أخيه إلا استأنس به » .

الجنة والنار

لقد أثبت الرسول للناس أمر البعث بما دعا إليه من إطالة الفكر فى هذه الكائنات وبما جاء به من الآيات البينات فصدق به من صدق وجحد من جحد غير أن العقل البشرى مهما ارتقى فإنه لايستطيع أن يتصور ماهية الحياة الأخرى وملاذها أو آلامها ومن أجل هذا لم يترك الله عباده فى جهل وعمى من هذه الناحية فأنزل الكتب لتصفها وتقربها من مداركهم وتوضح لهم نوع الحياة فيها وما بها من جنات أعدت للمتقين ونار خصصت للجاحدين .

وأخبرهم بأن تلك الدار ليست بدار عمل بل هى دار راحة واستقرار وجزاء وإنما العمل فى هذه الحياة الدنيا فمن أراد السعادة فى الآخرة فعليه أن يعمل لها من الآن ليحجز مقعداً لراحته فيها بتقوى الله والعمل الصالح . ومن لم يرد السعادة فيها أو لم يصدق بما أخبره الله عنها فلم يطمع فى شىء من السعادة فلا يلومن إلا نفسه وسيكون مصيره أن يلقى فى نار جهنم وهى التى أعدت للجاحدين المكذبين الله فيما أخبر به عنها والعاصين لأوامره والمسيئين إلى عباده فى الدنيا . والقرآن ملىء بالآيات التى تشير إلى كل هذا فقد وصف الله نعيم الجنة بقوله « مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم »[٢] . « إن المتقين فى جنات ونعيم فاكهين[٣] بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين[٤] والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم[٥] من عملهم من شىء

---

(١) النساء : ٦٩ .

(٢) محمد : ١٥ « آسن » متغير من أسن كضرب أو أسِنَ كحذر بمعنى تغير .

(٣) ذوى فاكهة كثيرة كما يقال لابن وتامر .

(٤) عظام الأعين حسانها .

(٥) نقصناهم .

كل أمرىء بما كسب رهين وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون [١] » . « يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون [٢] » . « أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا [٣] » . « إن المتقين فى جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين لا يمسهم فيها نَصَبٌ وما هم منها بمخرجين [٤] » . « أولئك لهم رزق معلوم فواكه وهم مكرمون فى جنات النعيم على سرر متقابلين يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين لافيها غول ولا هم عنها يُنزَفُون وعندهم قاصرات الطرف عين كأنهن بيض مكنون [٥] » .

وأخبرنا الله عز وجل بأنه أعد كل هذا النعيم فى الحياة الأخرى لمن يصدق بها ويتمناها ويرجوها لنفسه ويعمل لها ويؤهل نفسه منذ الآن لتبوء أعلا الدرجات فيها وفقاً لوعد الله الذى لا يخلف الميعاد حيث قال تعالى « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم [٦] » . « الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار [٧] » . « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون نحن أولياؤكم

---

(١) الطور : ١٧ — ٢٤ . (مكنون) مصون فى اصدافه (٢) الزخرف : ٧١ .
(٣) الكهف : ١٣ . (السندس) ما رق من الحرير و (الاستبرق) ما غلظ منه .
(٤) الحجر : ٤٥ — ٤٨ . (نصب) تعب وإعياء .
(٥) الصافات : ٤١ — ٤٩ . (غول) صداع فى الرأس أو ما يفسد العقل (ينزفون) يسكرون
(٦) التوبة : ٧٢ . (٧) الرعد : ٢٠ — ٢٤ .

فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدّعُون نُزُلاً من غفور رحيم »[١] « وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود لهم ما يشاءون فيها ولدنيا مزيد[٢] » .

أما من لم يصدق بالحياة الأخرى ولم يعمل لنيل نعيمها بعد أن أكد الله له خبرها فلا شك أن مصيره الطبيعى هو أن يحرم من ذلك خصوصا وقد أنذره الله تعالى منذ الآن بما سيناله نتيجة الكفر والجحود بقوله « إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيما »[٣] « فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم يصهر به ما فى بطونهم والجلودُ ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق »[٤] « أذلك خير نُزُلا أم شجرة الزقوم إنا جعلناها فتنة للظالمين إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كأنه رءوس الشياطين فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم إنهم ألفوا أباءهم ضالين فهم على آثارهم يُهْرَعون »[٥] « لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده ياعباد فاتقون »[٦] « وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين »[٧] « وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى »[٨] « الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون »[٩] .

---

(١) فصلت : ٣٠، ٣٢ . (تدعون) تطلبون (نزلا) رزقا مهيأ ومعداً لهم .
(٢) ق : ٣١، ٣٢ . (أزلفت) قربت (٣) النساء : ٥٦ . (٤) الحج : ١٩، ٢٢ .
(٥) الصافات : ٦٢، ٧٠ . (يهرعون) يزعجون إلى أتباعهم مسرعين (٦) الزمر : ١٦ .
(٧) الزمر : ٣١، ٧٢ . (٨) الشورى : ٤٤، ٤٥ .
(٩) غافر : ٧٠، ٧٢ . (يسجرون) يوقدون .

وأمثال هذه الآيات كثيرة فى القرآن وكلها تدعو الناس إلى تقرير مصيرهم فى تلك الحياة الخالدة منذ الآن وتنذرهم نتيجة تجاهلهم أمر الحياة الأخرى وعدم التفكير فيما يصلح أمرهم فيها ومن أنذر فقد أعذر ولا يسعنا إلا أن نختم هذا البحث بهذا البلاغ من رب العالمين إلى الناس أجمعين إذ يقول تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون[١] » « يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور[٢] » ولم يدع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى انصراف الناس إلى الدنيا فقط بل دعا إلى الزهد فيها وأخبرهم بأن « الدنيا جنة الكافر » أى التى ينعم فيها هذه الفترة البسيطة ثم يكون مصيره إلى النار ولولا رحمة الله بالمؤمنين وارادته تعالى عدم افتتانهم جميعا بما يكون عليه الكفار من مختلف الملذات فى الدنيا لعجل لكل كافر فى هذه الحياة وافراً من النعم التى لا تعد شيئاً إلى جانب ما يسحرمون منه من نعيم الآخرة وإلى هذا أشار سبحانه وتعالى بقوله « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين[٣] » ونهى الله المؤمنين عن الافتتان بما ينعم به الكفار من أنواع اللذات فى هذه الحياة الدنيا بقوله « ولا تمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى[٤] » وقوله « لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله وما عند الله خير للأبرار[٥] » .

---

(١) التحريم : ٦، ٧ .
(٢) لقمان : ٣٣ .
(٣) الزخرف : ٣٣، ٣٥ .
(٤) طه : ١٣١ .
(٥) آل عمران : ١٩٦، ١٩٨ .

الحساب والعقاب

لقد كانت مهمة الرسل أجمعين دعوة الناس إلى معرفة الله والإيمان بوحدانيته وإحكام الصلة به فى هذه الحياة وإنذارهم بيوم يحاسبون فيه على جميع أعمالهم صغيرها وكبيرها حقيرها وجليلها هو يوم القيامة الذى هو أول يوم من أيام الحياة الأخرى الخالدة .

وعنى الرسول صلى الله عليه وسلم بإنذار الناس بهذا الأمر أعظم عناية بقوله تعالى « يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد[١] » « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شىء شهيد[٢] » .

وأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم المؤمنين أن أهم ما يؤاخذ عليه الله الانسان يوم القيامة إنما هو الكفر بالله أو إشراك غيره معه فى العبادة حيث قال تعالى « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً[٣] » ذلك لأن الشرك بالله معناه عدم الإذعان له وحده بالألوهية والسمع والطاعة وبذلك يكون غير مستحق للغفران وبعبارة أوضح إن الله قد أخذ على نفسه إجابة الدعاء فهو سبحانه وتعالى يغفر لمن يطلب المغفرة ويجد فى طلبها ويسعى لها سعيها أما من يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً إذ هو لم يعترف بالله الواحد الأحد أولا ولم يشعر بحاجته للغفران من الله ثانياً وإذا فرض أنه طلب الغفران بلسانه فإنه لم يكن جاداً فى طلبه بقلبه حيث أن إيمان القلب لا يكون إلا عن اعتراف بوحدانيته تعالى وقدرته على الغفران مما يوجب الطاعة وإخلاص العبادة فإذا لم يغفر الله أن يشرك به فما ذلك إلا لأن المشرك قد شذ عن ما سنه الله من سنن لابتغاء المغفرة ، أما غيره من مرتكبى المعاصى من المؤمنين الموحدين فهم محل المغفرة متى طلبوها من الله بقلوبهم وأعمالهم .

---

(١) الحج : ٢٠١ .
(٢) الحج : ١٧ .
(٣) النساء : ١١٥ .

ولأجل أن يحض الله عباده على الإيمان وتجنب الشرك به توعد الكفار والمشركين بأشد أنواع العذاب حيث يقول : « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم »(١) « إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيما »(٢) « إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم »(٣) « إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون »(٤) « والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم »(٥) « وجعلوا لله أنداد ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار »(٦) « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار »(٧) « قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون »(٨) .

وجاء القرآن مليئاً بوصف يوم القيامة وأهواله وطرق الحساب والعقاب فيه حيث يقول تعالى « إن يوم الفصل كان ميقاتاً يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً وفتحت السماء فكانت أبواباً وسيرت الجبال فكانت سراباً »(٩) « يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً إنا أنذرناكم عذاباً قريباً يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً »(١٠) « ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا بما

---

(١) المائدة : ٧٣ .
(٢) النساء : ٥٦ .
(٣) محمد : ٣٤ .
(٤) يونس : ٧،٨ .
(٥) العنكبوت : ٢٣ .
(٦) إبراهيم : ٣٠ .
(٧) المائدة : ٧٢ .
(٨) الأنعام : ٣١ .
(٩) النبأ : ١٧،٢٠ .
(١٠) الأنبياء : ٣٨،٤٠ .

كنتم تعملون إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون سلام قولا من رب رحيم وامتازوا اليوم أيها المجرمون ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ولقد أضل منكم جِبِلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون هذه جهنم التى كنتم توعدون اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون[1] » « اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون[2] » « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون[3] » « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين[4] » « فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون قال اخسئوا فيها ولاتكلمون إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون إنى جزيتهم اليوم بما صبروا إنهم هم الفائزون قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون فتعالى الله الملك الحق لاإله إلا هو رب العرش الكريم[5] » .

ووصف الله لنا طريقة التقاضى فى ذلك اليوم بأن كل إنسان سيأتى يوم القيامة ومعه كتاب قد سجل فيه جميع أقواله وأعماله « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا[6] » « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون[7] » ثم أخبر تعالى

---

(١) يس : ٥١، ٦٤ . (جبلا) خلقاً
(٢) الأنبياء : ١، ٢ .
(٣) الأنبياء : ٣٨، ٤٠ .
(٤) الأنبياء . ٤٧ .
(٥) المؤمنون : ١٠٢، ١١٦ .
(٦) الإسراء : ١٣، ١٤ .
(٧) الجاثية : ٢٩ .

إنه سيعرض على الناس كتابا عاما به تفصيلات وافية تثبت جميع أعمال العباد فى الحياة من خير وشر وحركة وسكون بطريقة رائعة لا يمكن للإنسان أن يجحدها إذ تكون أعضاؤه شاهدة عليه حيث يقول تعالى « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا مال هذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ماعملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً[١] » « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون[٢] » « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون[٣] » « يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيدا[٤] » .

ولقد آمن الناس فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم بكل هذا مذعنين لله بالعلم بكل شىء والقدرة التامة على إحصاء الأقوال والأعمال وإنطاق الجوارح بما كان منها إذا أراد ، وقد استطاع العلم الآن الوصول إلى قراءة الأفكار والكشف عن بعض الحوادث بواسطة التنويم المغناطيسى ثم أثبت تصاعد الأصوات فى الأثير وإمكان تسجيلها فى شريط ثم إعادة إذاعتها على الناس ثانياً فى الحياة الدنيا وكذلك جاء العلم باختراع شرائط السينما لتسجيل صور الحوادث وصور مناظر الحياة وإعادة عرضها، بل ونقل الصور عن طريق الأثير باللاسلكى ، ويتنبأ المخترعون إن فى الإمكان استرجاع الصور القديمة من الأثير فقرب العلم إلى الاذهان هذه العقائدا لإيمانية وما أخبر به الله من استنساخ كل ما كان يفعله الإنسان وما ينطق به فى الحياة وعرضه فى يوم العرض الأكبر ليكون صوراً طبق الأصل ناطقة بجميع الأقوال والأفعال لايمكن لأحد أن يجحدها مصداقا لقوله تعالى « ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودُهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون وما كنتم تسترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أردا كم فأصبحتم من الخاسرين »[٥]

---

(١) الكهف : ٤٩ .
(٢) النور : ٢٤
(٣) يس : ٦٥ .
(٤) آل عمران : ٣٠ .
(٥) حم السجدة : ١٩، ٢٢ . (يوزعون) يساقون

والمؤمنون الصادقون فى إيمانهم يعلمون أن القرآن تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فهم فى غنية عن هذا التعريف ولكنا ذكرناه تبصرة للقاصرين

عندئذ يصدر حكم الله فى الناس جزاء بما كانوا يعملون ويذهب أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار للنار ومع ذلك فإنهم لا يدخلونها إلا بعد أن تؤخذ اعترافاتهم باستحقاقهم لتلك الأحكام حيث يقول تعالى « ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاؤها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين — وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين »[1] .

ولقد آمن المؤمنون بهذه الآيات أصدق إيمان ورسخ فى قلوبهم الاعتقاد الجازم بصحة البعث وما ينتظر الكافرين والعصاة هنالك من حساب وعقاب حتى أصبحوا يتصورون ذلك ماثلا بين أعينهم ترتعد له فرائصهم فيخافون الله فى سرهم ويراقبونه فى جميع حركاتهم وسكناتهم فلا يجرؤون على إيذاء أحد أو يضمرون الشر لمخلوق خشية من الله العالم بالسرائر بل لقد بلغ بهم الأمر أن المرأة إذا غلبت عليها شهوتها وارتكبت جريمة الزنا فيما بينها وبين نفسها تأتى إلى الرسول وتطلب منه أن يقيم عليها الحد فى الدنيا تخلصاً من عذاب الله فى الآخرة فلم يسع النبى صلى الله عليه وسلم إلا أن يستجيب لرغبتها ويقيم عليها الحد حتى تموت فيصلى عليها ويستغفر لها . وكذلك كان حال الرجل فى صدر الإسلام فكثيراً ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحاول أن يصرف مرتكب جريمة الزنا عن الاعتراف بجرمه ويحيله إلى ربه يستغفره فيغفر له حيث يقول له لعلك فأخذت لعلك كذا فيأبى الجانى من فرط خوفه من الله إلا أن يذكر الحقيقة كما هى ويصر على أقراره ويطلب إقامة الحد عليه فى الدنيا تخلصاً من عذاب الآخرة .

وبمثل هذا الإيمان بحساب الله وعقابه فى الآخرة انتفى الظلم بين الناس وحاسبوا أنفسهم فعدلوا وتجنبوا الكذب والمكر والخداع والحسد والنفاق إلى غير ذلك من المساوئ

---

(١) الزمر : ٧٠، ٧٤ .

المؤدية إلى العداوة والبغضاء وحل محل ذلك الرحمة والود وحسن الإخاء وساد الأمن ورفرفت ألوية السلام وعاش المسلمون جميعا فى وفاق يخلصون جميع أعمالهم لله ويرجون منه حسن الثواب .

هذا شأن الرعيل الأول من المسلمين ثم خلف من بعدهم خلف ضعف إيمانهم واتبعوا شهواتهم كأنهم لا يؤمنون باليوم الآخر ولا يخافون حسابا ولا عقابا بعدت قلوبهم عن الله ولم يعد هناك أمر دينى يحضهم على الخير ولا رادع نفسى يخيفهم من العذاب والعقاب ويردعهم عن الشر والإثم وبهذا ساء حال المجتمع وعمت الفواحش وانتهكت الحرمات .

ألا أن الحساب والجزاء فى اليوم الآخر حق لا مرية فيه ولا مفر منه ولكن من الناس فى الأمم السابقة التى كانت تؤمن بالحياة بعد الموت والجزاء على الأعمال من أدخل فى دياناتهم عقيدة فاسدة هى أن هناك من يتحمل عن الناس سيئاتهم ويعبرون عنه بالفداء حيث يقول الهنود وأضرابهم من الوثنيين إنه (كرشنا) ويزعم النصارى إنه (المسيح) اليسوع الذى بصلبه قد خلص أتباعه من العذاب ويذهب اليهود إلى أبعد من هذا ويقولون إنهم أحباء الله فهو يجاملهم ويحابيهم دون سائر الشعوب ولذلك يسمونه « إله إسرائيل » كأنما هو ربهم وحدهم لا رب العالمين أجمعين . وبهذا ذهبت الفائدة المقصودة من الإيمان باليوم الآخر من إصلاح الناس عن طريق تخويفهم من العقاب فى ذلك اليوم ، وقد جاء القرآن بوجوب الإيمان بالحساب والعقاب ليعيد دين الله الذى جاء به سائر النبيين إلى أصله المعقول وهو أنه لا ينفع الإنسان إلا ما قدمت يداه من عمل يخلص فيه لله « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم [١] » . « يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا [٢] » وأن الله عز وجل لا يحابى ولا يظلم أحداً وأن الجزاء على الكفر والمعاصى يكون بعدل الله تعالى بين جميع خلقه وأما الجزاء على الأعمال الصالحة فهو بفضل الله الذى جعل الحسنة بعشر أمثالها وقد يضاعفها ويؤتى من لدنه أجراً عظيماً إلى أضعاف مضاعفة وفقاً لقوله تعالى « إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً [٣] » .

---

(١) الشعراء : ٨٩ .
(٢) طه : ١٠٩ .
(٣) النساء : ٤٠ .

وبهذا استقام أمر المسلمين فى الصدر الأول وسمت نفوسهم عن النقائص ثم خلف من بعدهم خلف أساءوا فهم بعض آيات الله فى هذا الباب مما جعل بعضهم كأنه يصف الله بصفة المستبد الظالم فى أحكامه وتصرفاته من غير أن يشعر إذ يقول إنه سبحانه وتعالى سوف يلقى فى النار يوم القيامة من شاء من عباده ولو كان مؤمناً صالحاً ويغفر سيئات العاصين اعتماداً على شفاعة الشافعين من أنبيائه وأوليائه . وتحت تأثير هذا الوهم الخاطئ تقاعس الكثير من المسلمين عن الواجبات ولم ينتهوا عن المحرمات وأخذوا يتلمسون الوسائط لله والشفعاء وفاتهم أن معنى مشيئته تعالى دستوره الإلهى ونظامه العام الذى لا يتبدل ولا يتغير فهو إذ يقول إنه سيعذب من يشاء أى من يستحق العذاب بحسب المشيئة التى هى دستوره الذى أملاه عدله وهو إذ يريد أن يتجاوز عن عباده فما ذلك إلا لما يعلمه تعالى من دخيلة أمرهم وما اتصفوا به من الإيمان الخالص من الشرك وعبادة غيره معه حيث قال تعالى « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون [١] » وقال صلى الله عليه وسلم « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان عليه من العمل » وأما من أشرك بالله فلن يدخل الجنة حيث قال تعالى « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم أنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ولئن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم [٢] » . ولم تتغير أحوال المسلمين وتنحط أخلاقهم إلا عند ما ابتدعوا بدعة الاعتماد على شفاعة الرسول والصالحين ففسد بذلك أمرهم وعظمت مساوئهم وخرجوا بالإسلام عن حقيقته واتبعوا سنن من قبلهم من النصارى شبراً بشبر وتسببوا فى تعطيل الغاية التى من أجلها فرض الله الإيمان باليوم الآخر وهى مراقبة الله فى كل حال والخوف من عذابه والتسابق إلى الأعمال الصالحات التى تستدعى ثوابه والابتعاد عن السيئات التى تقتضى عذابه .

---

(١) الأنعام : ٨٢ .

(٢) المائدة : ٧٢، ٧٣ .

والرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم عند ما تكلم عن موضوع الشفاعة فى اليوم الآخر أوضح لنا المقصود منها وأنها من رحمة الله بمن يريد من عباده وأنها لا تكون إلا بشرطين اثنين أحدهما أن يأذن الله بها للشفيع كما جاء فى قوله تعالى « ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون [١] » . والثانى أن يخبر الله الشفيع بمن يريد الشفاعة له كما جاء فى قوله تعالى عن النصارى والمسيح « وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون [٢] » .

أما الشفاعة على إطلاقها وبمعناها المعروف من التوسط فى إقناع الشفيع المشفوع عنده بما لم يكن يعلمه من أمر المشفوع له أو مايستحقه من عطف أو ما يستلزمه الأمر من عفو فهذا مالا يجرأ عليه أحد وقد نفاها الله تعالى بقوله « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء [٣] » أى من الأمر الذى يشاء الله إعلامهم به من تعلق إرادته بالعفو عمن يريد من عباده المخلصين لمحض الرحمة أو لسبب خفى سابق صادر منه كالتوبة وحسن النية وتوفر الثقة فيأذن الله لمن يشاء من المصطفين لديه بشفاعته لهم بطلب الرحمة .

وقد أمر الله رسوله عليه الصلاة والسلام أن يعلن الناس بأنه لايملك نفع نفسه وأنه نفسه يخاف من عذاب ربه ولن يستطيع أحد أن يجيره منه حيث قال تعالى « قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله [٤] » « قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم [٥] » « قل إنى لا أملك لكم ضراً ولا رشدا قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا [٦] » وقد قطع الرسول صلى الله عليه وسلم أمل الناس فى الاعتماد على شفاعته أو قربه منه حيث قال « يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغنى عنكم من الله شيئا يابنى عبد مناف اشتروا أنفسكم من الله لا أغنى عنكم من الله شيئاً ياعباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئاً يا صفية عمة رسول الله

---

(١) يونس : ٣ .
(٢) الأنبياء : ٢٦، ١٧ .
(٣) البقرة : ٢٢٥ .
(٤) الأعراف : ١٨٧ .
(٥) الأنعام : ١٥ .
(٦) الجن : ٢٠، ٢١ .

لا أغنى عنك من الله شيئاً يا فاطمة بنت محمد سلينى من مالى ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئاً .

بل إنه صلى الله عليه وسلم ذهب إلى أبعد من هذا فأبى أن يقبل شفاعة محبوبه أسامة فى امرأة سرقت وتلون وجهه الشريف وقال : « إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها فقال له أسامة استغفر لى يارسول الله .

وإذا كان هذا شأنه مع أحب الناس إليه فى أمر الشفاعة فلا يعقل أن يشفع هو لأحد من العصاة يوم القيامة إلا أن يشاء الله .

وقد حدث أن استغفر الرسول صلى الله عليه وسلم فى حياته للذين يلمزون المتطوعين من المؤمنين فى الصدقات فقال تعالى « استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لايهدى القوم الفاسقين[1] » .

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لعمه أبى طالب لما أصر على الكفر حيث قال تعالى « ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم[2] » .

الساعة

لقد شرح الله لعباده حقيقة الحياة الدنيا وأنها ليست سوى مقدمة لحياة أخرى سعيدة تعقبها وأثبت لهم أمر البعث فى اليوم الآخر وما فيه من نعيم الجنة وعذاب السعير فمن الطبيعى أن تتوق النفوس إلى الإحاطة بموعده ولقد شاء الله أن يكون هذا مجهولاً عن خلقه ليكون فى الوقت متسع لعمل الصالحات ولذلك قال تعالى « يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت فى السموات والأرض لاتأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفى عنها[3] قل إنما علمها عند

(١) التوبة : ٨١ .
(٢) التوبة : ١١٣، ١١٤ .
(٣) عن بمعنى الباء أى كأنك عالم بها ومتيقن لها.

الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون[١] » غير أن النبي صلى الله عليه وسلم بما آتاه الله من علم لم يضن على الناس ببيان أشراطها وهى كثيرة يحسن بنا أن ننقل منها شيئاً للذكرى فالذكرى تنفع المؤمنين ، عن أبى هريرة رفعه قال صلى الله عليه وسلم إذا اتخذ الفيء دولا والأمانة مغنما والزكاة مغرماً وتعلم العلم لغير الدين وأطاع الرجل امرأته وعق أمه وأدنى صديقه وأقصى أباه وظهرت الأصوات فى المسجد وساد القبيلة فاسقهم وكان زعيم القوم أرذلهم وأكرم الرجل مخافة شره وظهرت القيان والمعازف وشربت الخمر ولعن آخر هذه الأمة أولها فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء وزلزلة وخسفاً ومسخاً وقذفاً وآيات تتتابع كنظام بال انقطع سلكه فتتابع[٢] » وروى البخارى عن ابن عمرو ابن العاص « أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحًى وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريباً » كما أن من إمارات اقتراب الساعة ظهور الدجال وهو رجل مضلل يأتى بكثير من خوارق العادات ويدعى الربوبية وقد وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم وحذر الناس منه بقوله عنه « ما من نبى إلا وقد أنذر أمته الأعور الكذاب إلا أنه أعور وأن ربكم ليس بأعور مكتوب بين عينيه ك ف ر » وفى حديث آخر « الدجال أعور العين اليسرى جفال الشعر معه جنة ونار فناره جنة وجنته نار » وفى حديث آخر « يتبع الدجال من يهود أصفهان سبعون ألفاً عليهم الطيالس » وفى حديث آخر « لينزلن ابن مريم ليس بينى وبينه نبى وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه فإنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ينزل بين مهصرتين كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل فيقاتل الناس على الإسلام فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويهلك الله فى زمانه الملل كلها إلا الإسلام ويهلك المسيح الدجال ثم يمكث فى الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون » .

الإيمان بالقضاء والقدر

لقد كان مما دعا إليه الرسول صلى الله عليه وسلم الإيمان بالقضاء والقدر ، وأن الأمور كلها بيد الله ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، فآمن بهذا الكثير وأساء

---

(١) الأعراف : ١٨٦ .

(٢) رواه الترمذى .

الآخرون فهم المراد من ذلك فاتخذ منه البعض ذريعة للتفريط فى الواجبات كما قال المنافقون « لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلناها هنا[١] » بل ذهب البعض إلى أبعد من هذا حيث أسند إلى الله ما يصدر منه من مساوئ وكفر وإلحاد وقد تجاوز هؤلاء الحد فحكم الله بكفرهم وشركهم حيث قال « وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا فى ضلال مبين[٢] » وقال أيضاً « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ماأشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون[٣] » ولقد ارتطمت حول هذا الباب أفكار العباد وزلت عنده الأقدام ؛ فمن الناس من يقول إن الإنسان مسير فى جميع أعماله وفق ما قدره الله عليه فى الأزل وسبق به علمه وجرى به قلمه من طاعة وعصيان وسعادة وشقاء ولا خيار له ولا قدرة له البتة ، بل هو مجبور مقهور على كل شيء ويستدلون على هذا بظواهر آيات من القرآن كقوله تعالى « والله خلقكم وما تعلمون[٤] » تدل على أنه تعالى الخالق لجميع أعمال الإنسان وقوله تعالى « وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما[٥] » وقوله تعالى « وما تسقط من ورقة إلا يعلمها[٦] » ويسمى هذا الفريق (بالجبرية) .

ويعترض عليهم جماعة من المعتزلة تدعى (بالقدرية) حيث قالوا إذا كان الأمر كذلك يكون الحساب والعقاب على أمر أراده الله وقضى به فى الأزل ظلما والله سبحانه وتعالى منزه عن الظلم ومعنى ما قاله الجبرية أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يريد الخير والشر مع أن إرادة الشر قبيحة والله منزه عن إرادة القبائح ، ولأجل أن يخلص القدرية من هذا قالوا إن الإنسان يخلق جميع أعمال نفسه الاختيارية خيراً كانت أو شراً ، وبالغ الأولون منهم فى الأمر إلى درجة أنهم زعموا أن الله تعالى لم يقدر الأمور من الأزل وأن الأمر أنفٌ أى يستأنفه علما حال وقوعه ، ومن أجل هذا لقبوا بالقدرية لمبالغتهم فى نفى القدر الإلهى وإثباته لأنفسهم مع أن الإيمان بالقضاء والقدر ركن من أركان الإيمان . وقد انقرضت هذه الطائفة التى عرفت باسم القدرية الأولى .

(١) آل عمران : ١٥٥ .
(٢) يس : ٤٧ .
(٣) الأنعام : ١٤٨ .
(٤) الصافات : ٩٦ .
(٥) الدهر : ٣٠ .
(٦) الأنعام : ٥٩ .

وثم فريق آخر من(المعتزلة) يقولون إن إرادة الله لا تتعلق بالشرور والنقائص ولذلك فإن فعل المعاصى لم يكن بإرادة الله ولاقضائه وقدره ولذلك يعاقب عليها الإنسان .

ويقول جمهور أهل السنة إن الله قد منح الإنسان قوة محدودة ومشيئة تتوقف عليها أعماله الاختيارية على وجه يقطع حجته وعذره فى المخالفة والعصيان لقوله تعالى « من عمل صالحًا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد[1] » ويبدون منتهى التسليم لله إذ يقولون «لايسئل عما يفعل وهم يسئلون[2]» كما يقولون إن يعذبنا الله فبعدله وإن يثبنا فبمحض فضله . وقد أمرنى والدى رحمه الله أن لا أطالع كتب أهل الكلام التى قد تشكك الإنسان فى عقيدته وتزلزل إيمانه وأن أسير على طريقة السلف الصالح رضى الله عنهم فلا آخذ العقائد إلا من كتاب الله وما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنى إذ أريد أن أكتب فى موضوع القضاء والقدر يبد ولى أن السبب فيما كان من الخلاف حول هذا الباب راجع إلى أمرين اثنين :

الأول : خلطهم بين مشيئة الله وإرادته وقضائه وقدره وأمره وعلمه وعدم التفرقة بينها متأثرين فى ذلك بما جرى عليه واضعو كتب اللغة من دلالة الكلمات على عدة معان وترادف بعضها لبعض ، وإذا جاز لنا أن نأخذ بهذا فى استعمال تلك العبارات فى لغة التخاطب فيما بيننا فإنه يجب أن نلاحظ أنه بالنسبة لكلام الله وأحكامه جل وعلا لابد أن يكون هناك فارق ولو بسيط فى التمييز بين المعانى المقصودة من الكلمات فلكل كلمة فى القرآن مدلولها ومرماها البعيد وإن غم علينا شىء من ذلك فالله أعلم بمراده منها .

الثانى : اندفاعهم فى البحث فى هذا الأمر على ضوء نظريات فلسفية وافتراضات خيالية لا تصل بهم إلى الحقائق كما هى فى علم الله . محاولين بذلك تطبيق أفعال الله وتصرفاته على أفعالهم وتصرفاتهم ومن هنا ضلوا وتحيروا وتخبطوا فى الأمر خبطة شعواء .

وإذا رجعنا إلى كتاب الله وطبقنا ما جاء فيه من تلك الكلمات على المفهوم الحقيق لها بصرف النظر عما يجوز فيها من ترادف وضربنا صفحا عما جاء فى كتب الفلاسفة

---

(١) فصلت : ٤١ .

(٢) الأنبياء : ٣ .

وأهل الكلام — نجد الحقائق ماثلة أمامنا فنستخلص منها رأياً نرجو أن يكون صحيحا مادمنا قد علمنا السبب فى خطئهم وهو خلطهم بين تلك الكلمات وتأثرهم ببعض النظريات ورأينا ما ترتب على ذلك من أن كثيراً من المسلمين وخصوصا منهم العوام والسذج أصبح يعتقد أن الإنسان مسير فى هذه الحياة وفق ما قدر له فى الأزل من خير أو شر وسعادة أو شقاء ، الأمر الذى أدى إلى تزلزل العقيدة وفهمها فهما خاطأ يجعل المرء عرضة للميل إلى مذهب الجبرية أو القدرية من حيث لا يشعر وحمل المستشرقين وهم من أبعد الناس عن المعرفة بحقائق الإسلام على أن يطعنوا فى الإسلام وينسبوا إليه ما هو برئ منه ومن ذلك ما ترجمه الدكتور حسين هيكل فى كتابه حياة محمد من قول (إيرفنج) وهو من أعلام الكتاب الذين تفاخر بهم الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من الأمم فى القرن التاسع عشر الميلادى مايأتى :

« القاعدة السادسة والأخيرة من قواعد العقيدة الإسلامية هى الجبرية . وقد أقام محمد جل اعتماده على هذه القاعدة لنجاح شؤونه الحربية . فقد قرر أن كل حادث يقع فى الحياة قد سبق فى علم الله تقديره فكتب فى لوح الخلد قبل أن يبرأ الله العالم ، وأن كل إنسان وساعة أجله قد عينا تعييناً لا مرد له فلا يمكن أن يتقدما أو أن يتأخرا بأى مجهود من مجهودات الحكمة الإنسانية أو بعد النظر . بهذا الاقتناع كان المسلمون يخوضون غمار المعارك دون أن ينال منهم الخوف . فما دام الموت فى هذه المعارك هو عدل الاستشهاد الذى يسرع بصاحبه إلى الجنة فقد كانت لهم الثقة بالفوز فى حالى الاستشهاد أو الانتصار .

هذا المذهب الذى يقرر أن الناس غير قادرين بإرادتهم الحرة على اجتناب الخطيئة أو النجاة من العقاب يعتبره بعض المسلمين منافيا لعدل الله ورحمته . وقد تكونت عدة فرق جاهدت وما تزال تجاهد لتهوين هذا المذهب المجبِّر وإيضاحه . لكن عدد هؤلاء المتشككة قليل وهم لا يعتبرون من أهل السنة .

وقد ألهم محمد مذهب الجبرية من وحى الساعة فكان ذلك إلهاماً معجزاً لحدوثه فى أنسب أوقاته ؛ فقد حدث تواً بعد غزوة أحد المنكودة التى ذهبت بأرواح عدد غير قليل من أنصاره ومن بينهم عمه حمزة . عندئذ وفى ساعة وجوم وهلع تحطمت أثناءها

قلوب أصحابه المحيطين به أصدر هذا القانون ينبئهم أن لامفر لإنسان من أن يتوفى فى ساعة أجله فى فراشه كان أو فى ساحة الوغى .

أية عقيدة يمكن أن يصورها صاحبها أدق من هذا التصوير ليدفع بها للغزو طائفة من الجنود الجهلاء الأغرار[1] دفعاً وحشياً إذ يقنعهم عن يقين بالفٍ لمن يبق والجنة لمن يموت . ولقد جعلت هذه العقيدة جند المسلمين لا يكاد يغلبه غالب لكنها احتوت السم الذى يقضى على سلطانه . فمنذ اللحظة التى كف فيها خلفاء النبى عن أن يكونوا غزاة فاتحين ومنذ أغمدوا سيوفهم بصفة نهائية بدأت العقيدة الجبرية تعمل عملها الهدام . فقد أرهف السلم أعصاب المسلمين كما أرهفها المتاع المادى الذى أباحه القرآن والذى يفصل فصلا حاسماً بين مبادئه ودين المسيح دين الطهر والإيثار .

فصار المسلم ينظر إلى ما يصيبه من بأساء على أنها بعض ماقدر الله ومالا مفر منه وما يجب الإذعان له واحتماله مادام كل جهد وكل حكمة إنسانية عبثا لانفع له . ولم تكن قاعدة «أعن نفسك يعنك الله» مما يرى أتباع محمد تنفيذه بل كان عكسها نصيبهم من ثم محق الصليب الهلال . وبقاء الهلال إلى اليوم فى أوربا حيث كان يوماً ما بالغاً غاية القوة إنما يرجع إلى اختيار الدول المسيحية الكبرى أو يرجع بالأحرى إلى تنافسها . ولعل الهلال باق ليكون دليلا جديداً على أن من أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ »[2] .

وكان مما علق به الدكتور هيكل على هذا قوله والواقع أن هذه الآيات وما جرى مجراها تعود إلى حقيقة واحدة علمية قررتها كثرة فلاسفة الغرب وعلمائه وأطلقوا عليها مذهب الجبرية كذلك . ونسبوا الجبر فيها إلى سنة الكون ومجموع الحياة فيه بدل أن ينسبوها إلى الله وعلمه وقدرته . وهذا المذهب الذى تقره كثرة فلاسفة الغرب أقل سعة وتسامحا وانطباقا على خير الجماعة الإنسانية من المذهب الفلسفى الذى يستخلص من القرآن الكريم كما سنرى من بعد . وهذه الجبرية العلمية تذهب إلى أن مالنا من اختيار فى الحياة إنما هو اختيار نسبى ضئيل القدر وأن القول بهذا الاختيار النسبى يرجع إلى ضرورات الحياة الاجتماعية من ناحية عملية أكثر مما يرجع إلى حقيقة علمية أو فلسفية

---

(١) كلا بل هم العلماء الأخيار الذين عرفوا الحق وجاهدوا فى سبيله حق الجهاد وأطاعوا الله ورسوله عن يقين وإيمان صادق ولقد كذب الكاتب فى قوله لكنها احتوت السم الذى يقضى على سلطانه فلا ارتباط أصلا بين عقيدة الجبرية وترك الجهاد اه .

(٢) هذه أكاذيب ومفتريات من ضمن سموم المستشرقين .

فلولم يتقرر مذهب الاختيار لتعذر على الجماعة أن تجد أساساً تقيم عليه تشريعها وحدودها وتنظم بذلك حياتها وتفرض به على كل إنسان جزاء تصرفاته جزاء جنائياً أو مدنياً .

صحيح أن بين العلماء والفقهاء من لا يقيمون أساس الجزاء على الجبر ولا على الاختيار وإنما يقيمونه على مايحدث من ردالفعل الذى تقوم به الجماعة محافظة على كيانها كما يقوم الفرد بمثله محافظة على كيانه وسيان عند الجماعة إذ تقوم برد الفعل هذا أن يكون الفرد مختاراً وأن يكون غير مختار . على أن الاختيار فى التصرف مايزال الأساس للجزاء عند أكثر الفقهاء ودليلهم عليه أن مسلوب الحرية والاختيار كالمجنون والصغير والسفيه لايجزى عن عمله . إنما يجزى الرشيد الذى يميز بين الخير والشر فإذا نحن تخطينا هذه الاعتبارات العلمية فى الفقه والتشريع وأردنا أن نخلص إلى الحقيقة العلمية والفلسفية ألفينا الجبرية هى هذه الحقيقة فليس لأحد اختيار للعصر الذى يولد فيه ولا للأمة التى يولد من أبنائها ولا للبيئة التى ينشأ بينها ولا لأبويه وفقرهما وغناهما وفضلهما ونقصهما ولا لأنه ذكر أو أنثى[1] ولا لما يحيط به من أحداث لها أغلب الأثر الأكبر فى توجيه أعماله وحياته وقد عبر الفيلسوف الفرنسى (هيبر ليت تين) عن هذا المذهب بقوله (المرء ثمرة بيئته) وقد ذهب غير واحد من العلماء والفلاسفة فى تأييد ذلك إلى حد القول بأن علمنا لو استطاع أن يصل من معرفة سنن الحياة الإنسانية وأسرارها إلى مثل ما وصل إليه من معرفة سنن الأفلاك لاستطاع أن يحدد بالدقة مصير كل فرد كما يحدد الفلكيون بالدقة مواعيد كسوف الشمس وخسوف القمر ومع ذلك لم يقل أحد فى الغرب ولا فى الشرق بأن هذا المذهب الجبرى يحول بين المرء والسعى للنجاح فى الحياة أو يحول بين الأمم والوثوب إلى خير مكان ولم يقل أحد بأن هذا المذهب يؤدى إلى تدهور الأمم التى تأخذ به — هذا مع أن المذهب الجبرى فى الغرب لا تؤيده فى السعى والعمل آيات كالتى تلوت من آيات القرآن عن تبعة الإنسان عن عمله « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى » أفلا ينهض هذا وحده دليلا على تحامل المستشرقين الذين يزعمون أن جبرية الإسلام قد أدت إلى تدهور الأمم الآخذة به .

---

(١) الجبرية لا يعنون إلا أن الإنسان مجبور فى أفعاله . فما ذكر هنا من قوله فليس لأحد الخ ليس من محل النزاع بين الجبرية وغيرهم ولا مما يعنيه الجبرية بحال اه .

بل إن الجبرية الإسلامية لأكثر حضا على السعى إلى الخير والفضل وإلى ابتغاء الرزق من الجبرية الغربية فكلتاهما متفقة على أن للكون سننا لا تحويل لها ولا تبديل وأن مافى الكون جميعا خاضع لهذه السنن وأن الإنسان خاضع لها خضوع سائر مافى الكون ولكن الجبرية الغربية تخضع المرء لبيئته ووراثته خضوع إذعان لا محيص عنه ولا مفر منه وتجعل إرادة الإنسان بعض مايخضع لبيئته فلا سبيل له ا لك إلى أن يغير نفسه فأما القرآن فيدعو إرادة كل فرد لتتوجه بحكم العقل إلى ناحية الخير ويذكر لهم أنه إذا كان قد قدر لهم الخير فبما كسبت أيديهم وأنهم لا ينالون هذا الخير اعتباطا من غير سعى . »

وقبل البحث فى الموضوع لابد لى أن أقول إن من المقرر فى الإسلام أن الله جل وعلا قد أثبت لذاته العلية فيما أثبت صفة المشيئة وصفة الإرادة وصفة العلم وغير ذلك من الصفات التى جاء بها كتاب الله وسنة رسوله فهويفعل مايشاء ويأمر بما يريد ويعلم كل شىء كان أو سيكون ولقد أدرك سلفنا الصالح مدلول تلك الصفات على حقيقتها فعرفوه حق معرفته وقوى إيمانهم به فاتبعوا أحكامه وساروا فى أعمالهم على ضوء هديه ورجوا ثوابه وخافوا عقابه فسمت أفكارهم ونضجت عقولهم وخلصت نياتهم واتجهت أعمالهم كلها لما يرضى الله ونحن على طريقتهم لا نسلم قطعيا بنسبة الجبرية التى زعموها إلى الإسلام وننفى نفيا باتا أن يجبر الخالق العظيم الناس على أمر ثم يؤاخذهم عليه فهذا ظلم ينطبق عليه قول القائل .

« ماحيلة العبد والأقدار جارية عليه فى كل حال أيها الرائى
ألقاه فى اليم مكتوفا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء »

تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وإن فى إرساله تعالى للرسل وإنزاله الكتب وإنذاره للناس أجمعين بماقضت به مشيئته لدليلا قائما على أنه تعالى لايمكن أبدا أن يعذب الطائعين ولا يضيع أجر المحسنين وليس من حرج فى أن يغفر للمذنبين ولأجل إيضاح الحقيقة نستلهم من الله الهدى ونشرح الأمر ونوضح أساس العقيدة فنقول .

إن المشيئة غير الإرادة[1] وهذه غير العلم وأن مشيئة الله معناها أحكامه التى يحمل

(١) اختار المؤلف أن المشيئة تغاير الإرادة . وذهب الجمهور إلى أنهما بمعنى واحد اه .

المخلوقات عليها حملا يقال فى اللغة أشاءه إلى كذا — ألجأه إليه — وشيئاته على الأمر — حملته عليه وهى تشمل جميع ما يحبه الله وما يكرهه فكلاهما داخل تحت مشيئته وهذه المشيئة هى الدستور الإلهى الذى وضعه الله بما يلائم مع استعداد وقدرة جميع المخلوقات للسير بمقتضاه والذى أذاعه على عباده لينفى عن ذاته صفة الاستبداد والظلم ويمنع بمقتضاه الفوضى والعدوان على الحقوق ويؤاخذ الناس على أعمالهم بحسب مواده وأحكامه . وينقسم هذا الدستور إلى قسمين اثنين . أمر كونى قدرى وأمر دينى شرعى .

١ — الأول : ويسمى القضاء[١] وهو أحكام قاطعة تتعلق أزلا بأشياء موقوته يقدر لها بداية ونهاية كالخلق والتكوين والحياة والموت والتذكير . والتأنيث وما إلى ذلك وقد استأثر الله تعالى بالعلم بهذا القسم ولم يطلع عليه أحدا من خلقه فالله سبحانه إذ يقضى بحياة الإنسان لابد أن يحيا وإلا فلا ولو خلق الولد ميتاً وإلى هذا أشار تعالى بقوله « وخلق كل شىء فقدره تقديرا »[٢] وقوله « ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون »[٣] وقوله « أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون » ، « أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون »[٤] ، وهذا القسم لا يوجب على الإنسان جزاء ولا يتعلق به حساب ولا عقاب .

٢ — الثانى : ويسمى القدر وهو أحكام معلقة ومقدرة بشرط أو بشروط لاتنفذ إلا بتوافرها وهى تتعلق بالأنظمة الكونية والسنن المضطردة والقواعد الكلية والأعمال الإيجابية كالعمل لطلب الرزق ونيل السعادة فى الدنيا والآخرة وقد أعلن الله

---

(١) قوله الأول ويسمى القضاء والثانى ويسمى القدر . عرف علماء الكلام القضاء بأنه إرادة الله تعالى المتعلقة أزلا بالأشياء على ما هى عليه فيما لا يزال والقدر بأنه إيجاد الله تعالى الأشياء على قدر مخصوص وتقدير معين فى ذواتها وأحوالها طبق ما سبق به العلم الأزلى فكل محدث صادر عن علمه وقدرته وإرادته اهـ .

(٢) الفرقان : ٢ (٣) الأعراف : ٣٤

(٤) النمل : ٦٠ — ٦١

هذه الأحكام لخلقه فى كتبه وعن طريق رسله للإحاطة بها والسير بمقتضاها وأشار إليها بقوله « إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون ، فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم ، وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ، وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ، وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون»[١]، « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور »[٢] ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »[٣] ، فهو سبحانه الذى جعل الحب والنوى إذا وضع فى التراب وأروى بالماء أنبت شجراً ونخلاً فذلك من نظام الكون النافذ ، وهو إذ قدر أن مجرد سق الأرض بالماء من شأنه أن ينبت العشب ، وأن الحيوان يوجد من البيضة والنطفة فذلك من سنن الله التى لا محيص عنها ، وهو إذ قدر أن النار تحرق والسم الكثير يقتل فلاراد لهذا القدر ، وهو إذ يجعل من العمل ما يكون وسيلة للرزق وسبيلا للسعادة فلا بد أن يكون لكل مجتهد نصيب من ذلك ، وهو الذى يخبرنا بأن من سلك سبيل الضلال فجزاءه جهنم ومن أحسن فله الجنة فلابد من ذلك فهذه الأحكام الشرطية التى هى بمثابة القوانين العامة تعد قدراً وتنفيذ مقتضاها الذى هو بمثابة الحكم يسمى قضاء أيضاً وسنتكلم عن ذلك بتفصيل فيما بعد .

وأما الإرادة[٤] فإنها اسم يوضع موضع الارتياد ومحلها الرأس أو القلب فهى بمعنى الرغبة المضمرة والخفية فى النفس ، يقال أراد الشىء إذا عزم عليه أو عنى به قبل أن ينفذه . ومتى تجاوزت ذلك إلى حد التعبير عنها بالقول كانت طلباً أو إلى حد التنفيذ

---

(١) الأنعام : ٩٥ — ٩٩ (٢) الملك : ١٥

(٣) الزلزال : ٧ — ٨

(٤) قال المتكلمون إن الإرادة تغاير الأمر فالشىء قد يؤمر به ولا يراد حصوله كإيمان أبى جهل ، وقد يراد ولا يؤمر به كـكفره . إن الله لا يأمر بالفحشاء اهـ

بالفعل كانت مشيئة ، وعلى هذا فإن إرادة الله الحقيقية سر من أسراره الخفية التى لا يعلم بها ولا بأسرارها أحد سواه ، وإنما تنقسم فى ظاهرها إلى قسمين : إرادة كونية قدرية وهى التى سبقت مشيئته تعالى بخلق جميع الكائنات وما سن لها من نظام قضائه وقدره ، وإرادة دينية أمرية وهى تتعلق بما يحبه الله لعباده وما يرضاه منهم من عمل صالح فضله لهم وأرشدهم إلى سبيله وطريق الوصول إليه فى كتبه وعن طريق رسله .

ومتى تعلقت بشىء صدر به أمر خاص فى أى وقت من الأوقات فلا يقف فى طريق تنفيذه شىء وفقاً لقوله تعالى « إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون[1] » وهى فضل من الله يشمل به من يصطفى من عباده بالمعونة وتفريج الكروب والنصر على الأعداء نتيجة لجوء العبد إلى ربه بالقول والعمل وفقاً لقوله تعالى : « وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم[2] » . وقوله تعالى : « أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون ، أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون ، أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين[3] » . وتنفيذ مقتضى الإرادة إما أن يكون خارقاً للنظام والسنن فهى إرادة كونية من باب القضاء كما فى قوله تعالى : « قلنا يانار كونى برداً وسلاما على إبراهيم[4] » . أو متمشياً مع أحكام القدر بحسب ما تنقاد إليه الموجودات بفطرتها وبمباشرتها للأسباب عن قصد وبغير قصد فتكون إرادة دينية من باب القدر ، وسنشرح ذلك أيضاً فيما بعد .

وأما العلم فمعناه الإحاطة بحقائق الأشياء ، وأما علم الله فإنه يطلق على إحاطته تعالى بحقائق جميع مخلوقاته وما تقضى به مشيئته من نظام قضائه وقدره وما يريده تعالى وما لا يريده ، وما ينتهى إليه مصير كل شىء ، وهو مما انفرد به سبحانه ودونه عنده فى لوحه المحفوظ وكل ما كتب فيه لابد أن يكون وينفذ ، وإنما أخبرنا جل وعلا

---

(١) النحل : ٤٠ (٢) يونس : ١٧
(٣) النمل : ٦٢ - ٦٤ (٤) الأنبياء : ٦٩

بأن من حقه تعالى وحده أن يغير ويبدل فى ذلك اللوح مايشاء فلا راد له ولامعارض حيث يقول : « لكل أجل كتاب ، يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب [١] » ولادخل لهذا العلم بالمشيئة أو الإرادة إذ هو لايحد من سلطان الله وقدرته ، ولايعطل إرادته أو يحول دون تنفيذ مايرضيه ، ولايمكن أن يمنع رحمته عمن يريد من عباده ، فالإرادة والرحمة من الصفات الثابتة لذات الله الدائمة بدوامه المرتبطة بما كتبه على نفسه نحو عباده وجعله معلقاً على أعمالهم وأمر رسوله فى القرآن أن يبلغه إليهم بقوله : « وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوء بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم [٢] » . وقال صلى الله عليه وسلم : « لما خلق الله الخلق كتب فى كتابه فهو عنده فوق العرش أن رحمتى تغلب غضبى » فكل ما يحصل من التغيير والتبديل والمحو والإثبات بسبب الإرادة والرحمة ماهو إلا نتيجة لما أخذه الله على نفسه وجرى به قلمه فى أزله وجفت به الصحف وسنفرد الكلام عن هذا أيضاً بالتفصيل فى نهاية البحث ، والله الموفق للصواب .

مَشيئة الله تعالى

توصل الإنسان فى العهد الحديث إلى أن علاقة الأفراد بعضهم ببعض وتصرفاتهم الشخصية لا يمكن أن تنتظم مالم يوجد قانون عام يحتكمون إليه ويسترشدون به ، ويطبقونه على أنفسهم جميعاً دون تفرقة أو تمييز . هذا القانون الأساسى الذى ينظم القواعد العامة التى تقوم عليها القوانين هو مايسمى بالدستور ، وكلما رسخ هذا الدستور فى ضمائر الناس وزاد احترامهم له سهلت عليهم المعاملات وارتفع نظام المعيشة .

ومعلوم أن الدستور الذى يضعه الناس لأنفسهم يسرى على الجميع دون تفرقة لا يحد من سريانه جهل البعض أو تسامى حكمته عن مدارك البعض الآخر بل هو ينفذ إذا ما استكمل شرائط النشر والإعلان المتعارف عليها .

هذا الدستور الذى يضعه الناس لأنفسهم يختلف فى بلد عن بلد آخر حسب اختلاف عادات الناس ونضجهم السياسى وعرفهم الاجتماعى فهو من هذه الناحية دستور ناقص

---

(١) الرعد : ٤١ (٢) الأنعام : ٥٤

قابل للتطور ما تطورت العادات واختلف العرف وارتقت الأفكار بل قد يكون ظالما قاسيا فى بعض البلاد ولكنه مع ذلك واجب التطبيق لأن الشائع بين الناس أن المساواة فى الظلم عدل .

والله سبحانه وتعالى المالك لجميع المخلوقات فاطر السموات والأرض قد علم فى أزله أنه لا يمكن لهذا الكون الدائب فى ملكه أن يستقيم أمره مالم يكن هناك دستور ينظم علاقة الكائنات تنظيما لا تخرج عليه ، ولا يمكن للبشر أن يعيشوا متصلين بالله ومتأثرين بأوامره وسننه مالم يشرع لهم دستورا يتمشى مع الفطرة التى فطرهم عليها ويستقيم مع سر الخليقة التى ذرأهم بمقتضاها — هذا الدستور يتجلى فى أمرين : الإلهام المستقر فى قرار الضمير الإنسانى إذاً لهم كل مخلوق معانى الخير والشر وأنار للنفوس سبيل هديها وفجورها ثم تلكم الرسل والأنبياء سلام الله عليهم بسيرهم وأعمالهم التى أوحى الله بها وكتبهم التى أنزلها عليهم فحدد للناس معالم الإيمان والعمل الصالح وأنار لهم مجاج الحق والباطل وصرح لهم بما لا يدع مجالا لمستزيد ماذا يعملون ليرضى وماذا يدعون ليتجنبوا حبائل الشيطان وأوضح لهم عاقبة كل من الأمرين .

وقد اقتضت مشيئته تعالى سن هذا الدستور المشتمل على قضائه وقدره كما أسلفت وهو دستور أزلى كامل إذ هو من عند الله فلا يقبل التجديد لأن النفس التى خلقها الله هى على فطرة واحدة وقد ركب فيها الغرائز الأساسية فى كل إنسان ، ولا يصدر عن نقص ولا قصور لأنه تعالى أعلم بجميع شئون عباده وما يصلحهم وما يضرهم .

من أجل هذا حق على الناس أجمعين أن يتأملوا هذا الدستور الإلهى وأن يقبلوه طائعين فإن لم يفعلوا سيقوا إلى الجزاء كارهين .

والحق أن الله جل وعلا قد هدانا النجدين ولا مناص لنا من اتباع أيهما ، وقرر فى دستوره الخالد مبدأ العدل المطلق فمن أساء فعليه وزره ومن أحسن فله الحسنى وزيادة . وللمجتمع البشرى أن يختار لنفسه كأفراد وكجماعات متكاملة فإما اتباع لدستور الله وهناك السعادة الموعودة فى الدنيا والآخرة وإما نأى عنها وذلك ظلم الناس أنفسهم مضربهم فى الدارين .

ولا محل للقول أنه ما دام الله قد وضع دستوراً للناس فقد أشاءهم عليه وحملهم على تنفيذه دون الامتناع عنه لأنه قادر على كل شىء فذلك قول ظاهر الاعتساف

بين الخطأ إذ لو كان الأمر كذلك لما وضع الله الدستور الذى بين الخطأ والصواب ، وحقيقة الأمر أنه سبحانه وتعالى أراد للناس أن يحيوا والحياة تقتضى الحركة وهى التى أشاءهم الله عليها وخلقها لهم ومن عليهم بها بقوله « والله خلقكم وما تعملون » وهى من القسم الأول الذى قضى به الله وأخفى أمره عن الناس فلا يؤاخذهم عليه ولكل حركة اتجاه وهذا هو ما ترك الله لعباده حرية الاختيار فيه فإما إلى يمين وخير وبركة وحسن جزاء وإما إلى شمال وشر وضلال وسوء منقلب وهذا من القسم الثانى الذى أنذرهم به سبحانه وسيحاسبهم عليه ، وما وضع الدستور إلا ليختار الناس لأنفسهم إذ هم مفطورون على أن يريدوا لأنفسهم ويختاروا ، وما حدَّد الله طريق الخير والشر إلا لأنه أراد لنا أن نتبع الأول ونتجنب الآخر فإن اخترنا لأنفسنا مالا يحب الله لنا فذلك مرده إلينا ولا شك، إذهو نتيجة للحرية التى قررها الدستور الإلهى وليس نتيجة الدستور نفسه ، ولا شك أن من اهتدى أو عصى فإنما يسير حسب مقتضى الدستور وخضوعا للمشيئة الإلهية العليا إذ يقول تعالى « وهو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن » وذلك أمر الله الذى لامرد لهمنا — الكافر الذى يعصى الله باختياره ومنا المؤمن الذى يلتزم هدى ربه عن رغبة منه من غير إكراه فللأول عقابه وللثانى ثوابه والله عنده حسن الثواب .

ونحن فى الحالين سائرون ضمن دائرة سنن الله التى لا يستطيع أحد بفطرته أن يخرج عنها حيث يقول تعالى « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان[1] » ونحن فى الحالتين لم نسلك طريقاً خارجاً عن مشيئة الله وضمن ما قضاه لنا من حياة وقدره لنا من عمر وهذا هو معنى قوله « وما تشاءون إلا أن يشاء الله[2] » وقوله ولا تقولن لشئ إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله[3] » .

وقد ورد فى السنن أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم (أرأيت أدوية نتداوى بها ورقى نسترقى بها وتقاة نتقى بها هل ترد من قدر الله شيئاً فقال (هى من قدر الله)

---

(١) الرحمن : ٣٣ .
(٢) الدهر : ٣٠ .
(٣) الكهف : ٢٤ .

وكذلك قول عمر لأبى عبيدة عندما قال له أتفر من قدر الله يعنى الطاعون فقال (أفر من قدر الله إلى قدر الله) .

أجل فالله سبحانه وتعالى إذ خلق الإنسان وفضله على كثير من خلقه تفضلا ومنحه ملكة العقل والتميز والعلم بخواص الاشياء لم يحل دونه ودون الاستفادة بكل تلك المواهب وأبى أن يبخل عليه بأعظم نعمة فى الحياة هى نعمة الحرية فى العقيدة والقصد والقول والعمل وقد جعل الله له الحق الكامل فى أن يقرر أمر نفسه فى الحياة ومصيره بعد الممات على ضوء ما وضعه الله تعالى للمخلوقات من سنن وما شرعه لهم من شرائع دعاهم فيها إلى الهدى ومزاولة الأسباب النافعة للدنيا والآخرة حيث يقول تعالى « قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا[١] » ويقول « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى[٢] » ويقول « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره[٣] » .

لا بل إنه تعالى أعطى للإنسان الحق الكامل فى أن يطلب ما يريد لنفسه فى هذه الحياة وبعد الممات ووعد تفضلا منه أن يستجيب له حيث قال « ادعونى أستجب لكم[٤] » وقال لنبيه عليه الصلاة والسلام فى القرآن « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون[٥] » وظاهر أن هذا الوعد الكريم من الله بإجابة الدعاء غير مقيد بحالة خاصة ووقت معين ثم إن الله تبارك وتعالى أخبرنا أنه قد هيأ كل الوسائل فى هذه الحياة لتحقيق مطالب الإنسان وإجابة دعواته وإنالته ما يسأله وما عليه إلا أن يعمل للحصول على ذلك حيث قال تعالى « الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ماسألتموه وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الإنسان لظلوم كفار[٦] » وأشار سبحانه وتعالى إلى ضرورة اتباع الدعاء بالعمل لنيل المقاصد حيث أجاب القائلين « ربنا إننا سمعنا مناديا

---

(١) الإسراء : ١١٤ .
(٢) النجم : ٣٩ — ٤١ .
(٣) الزلزال : ٧ ، ٨
(٤) غافر : ٦
(٥) البقرة : ١٨٦ .
(٦) إبراهيم : ٣٢ — ٣٤

ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لاتخلف الميعاد[١] » .

— بما يشعرهم بما قضت به مشيئته من أن مجرد الإيمان وطلب المغفرة لا يكفى ، بل لابد أن يعملوا مايستحقون عليه المغفرة حيث قال « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب[٢] » .

كما أخبرنا تعالى بما سبق أن تعلقت به إرادته وقضت به مشيئته من أمر لايمكن العدول عنه وهو أن للعمل الصالح بعد الإيمان بالله دخلا كبيرا فى الوصول إلى الجنة حيث يقول تعالى « والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا وعد الله حقا ومن أصدق من الله قيلا ، ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوء يجز به ولا يجد له من دونه وليا ولا نصيرا ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا[٣] » .

ونبهنا الله جل شأنه إلى أن تحقيق المطالب لا يكون طفرة بل بما سنه تعالى من وجوب متابعة السنن ومجاراة الزمن فى التدرج حيث خلق الله الدنيا فى ستة أيام وكان فى إمكانه خلقها فى لحظة واحدة ، وبمقتضى هذا فنحن إذا طلبنا من الله أمراً يجب أن نعمل لإدراكه ونعتقد أن إجابته تعالى لذلك الأمر تتوقف على مضى الوقت الكافى لتهيء الأسباب وملائمة الظروف المناسبة له بحسب نظام الكون وسنة التدرج المقدرة من عند الله .

ولقد رد الله على نبيه موسى عند ما توهم أن هلاك قومه كان بفتنة من الله الذى يضل من يشاء ويهدى من يشاء بما يشعره بخطئه فى هذا التصور إذ الواقع أن العذاب نتيجة اتباع الناس للسنن المودية إلى الهلاك بمقتضى نظام المشيئة وما تقتضيه صفة العدل الإلهى .

---

(١) آل عمران : ٩٤ — ٩٥ (٢) آل عمران : ١٩٦

(٣) النساء : ١٢٢

أما رحمة الله فهى التى وسعت كل شىء ومع ذلك فإنه وعد بأنه سيمنحها لفريق مخصوص من الناس وصفهم بصفات لاغنى عنها لاستحقاق الرحمة حيث قال « واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال ربى لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا أن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين، واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم أصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون[1] » — فمن المعلوم أن موسى اختار سبعين رجلا من قومه وجاء بهم ليستغفروا الله عن عبادتهم للعجل فلما أتوا فى المكان المعين فبدلا من أن يستغفروا قالوا لموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة جزاء على هذا الكفر الذى بدا منهم لا عن مجرد إرادة من الله بتعذيبهم فقال موسى « رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى » فأفهمه الله بأن هلاكهم ما كان يمكن أن يكون لولا ما بدا منهم من الكفر فالهلاك حقا داخل ضمن نظام المشيئة فما يكون له أن يقول عنه إنه من فتنة الله وأما رحمته تعالى فإنها عامة لكل مخلوق واختص منهم بالذكر من يعمل الصالحات ممن لم يكفر بالله .

وأكد الله استقلال الإنسان فى الإرادة ووعده بالإجابة فى حدود الممكنات بقوله : « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين[2] » .

ولقد زادالله الأمر وضوحا وتفريقا بين الإرادة والمشيئة بقوله : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ، كلا نمد

---

(١) الأعراف : ١٥٥ - ١٥٧ (٢) آل عمران : ١٤٦

هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا[١] » ، فهذا صريح فى أن المشيئة غير الإرادة — إذ المشيئة إنما تتعلق بالأحكام العامة من القضاء والقدر ، والإرادة إنما تتعلق بالأحكام الجزئية الخاصة بالجزئيات فمن يرد أمرا من أمور الدنيا فإن الله يعجل له فيه تحقيق ما كان متمشيا مع مشيئته تعالى بحسب قدره وقضائه من ضرورة مزاولة الأسباب ومتابعة السنن لبلوغ الغايات لمن يريد الله استجابة دعائه وحينئذ يحقق الله له ذلك ولو كان عقبى الأمر الاصطلاء بنار جهنم على مسئولية الشخص نفسه . أما من لم يرد الله استجابة دعائه فإنه تعالى يحول بينه وبين ما يريد ويكون فى ذلك خير له وهو لا يشعر وفى هذا روى عن رسول الله قوله صلى الله عليه وسلم (لو اطلعتم على الغيب لا خترتم الواقع) وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم بعض الأسباب التى من شأنها عدم استجابة الله الدعاء بقوله (يستجاب لأحدكم مالم يعجل يقول دعوت فلم يستجب لى) وفى رواية «مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم» . أما من يريد الآخرة فإن الله تبارك وتعالى لم يعلق أمر ما يريده الإنسان فيها بإرادته تعالى لأنها فى الواقع لا تتم إلا وفق إرادة الله الدينية التى أمر بها ومن أجل هذا علق أمر حصول ذلك على إرادة الإنسان وسعيه وقال عن هذا السعى إنه كان مشكورا أى يؤجر عليه الإنسان قطعا . بل لقد وعد الله طالب ثوابه فى الآخرة بزيادة الأجر حتى يبلغ مناه كما أنه تعالى أعطى الراغب فى متع الدنيا فقط عن ما يمكن الحصول عليه منها على أن لا يكون له حظ فى نعيم الآخرة الذى لم يفكر فيه ولم يطمح إليه حيث قال « من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب[٢] » وجعل الله الإنسان مسئولية جميع تصرفاته ومشيئته حيث قال « ولله ما فى السموات وما فى الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم[٣] » إذ الفاعل فى يشاء عائد إلى من : يعنى العبد لا الله كما جرى عليه المفسرون بدليل قوله تعالى بعد ذلك والله غفور رحيم ولم يقل وهو الغفور الرحيم .

أو معناه هذا كما يلوح لنا وكما يقضى به العدل الإلهى أن كل ما فى السموات

---

(١) الإسراء : ١٨ — ٢٠ .
(٢) الشورى : ٢٠ .
(٣) آل عمران : ١٣٠ .

والأرض هو ملك لله فلا يظلم أحداً وإنما الله تعالى يغفر لمن يشاء المغفرة من عباده بطلبها واتباع السنن المؤدية إليها من الإيمان والعمل الصالح أو يعذب من يشاء العذاب من خلقه بسلوك الطرق الموصلة إليه من الإصرار على ما لا يرضى الله وعدم التفكير فى تجنب ذلك الخطر المنتظر الذى أنذر به الله العاصين فى الحياة الآخرة والله من بعد ذلك غفور رحيم — أى من شأنه التجاوز عن سيئات المسيئين ورحمة من يستحق الرحمة منهم بمحض كرمه ولكنه أجل من أن يعذب الطائعين بمحض الرغبة لأن هذا يتنافى مع عدله ولم يكن داخلاً ضمن مشيئته فهو القائل « إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها[١] » .

وقد أيد الله هذا المعنى صراحة فى آية أخرى بقوله « وأن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم[٢] » .

مثل هذا أيضاً قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » أى أن هداية الناس ليست موقوفة على من يحبه الرسول لأن مشيئة الله قد قضت بأنها عائدة لما يشاؤه الإنسان لنفسه فالله يهدى كل من يشاء الهداية من عباده . وأما من لم يردها فقد قال تعالى عنه « كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا[٣] » وقال أيضاً « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا[٤] » وقد وضح الله الأمر تماماً عند ما كان بعض المنافقين فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ينسبون إلى الله كل ما يصيبهم من خير ويقدسونه عما يصيبهم من شر وإنما يحيلون ذلك إلى النبى صلى الله عليه وسلم عن طريق التشاؤم منه أو لعدم دعائه لهم فأنزل الله قوله « إن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا[٥] » ليفهمهم أن الحسنة والسيئة كلاهما من عند الله لوقوعها فى ملكه وعلى مقتضى سننه

---

(١) النساء : ٣٩ .
(٢) يونس : ١٠٧ .
(٣) مريم : ٧٩ .
(٤) النساء : ١١٥ .
(٥) النساء : ٧٨ .

فى نظام الأسباب والمسببات فما بالهم ينسبون السيئة إلى التشاؤم ولا يرجعونها إلى الأسباب الحقيقية لها من أعمالهم ، ولأجل أن لا يخطئوا فينسبوا السيئة إلى الله واضع السنن عاد جل وعلا فوجه الخطاب إلى رسوله وخطاب الله لرسوله خطاب للأمة المرسل لها بقوله « ماأصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك[1] » أى وحتى أنت فكلما أصابك من حسنة فهى من الله ذلك لأن الإنسان إذا اكتسب خيرا فقد أضفى على نفسه من نعمة الله شيئاً جديدا وذلك الشىء هو من ملكوت الله ومن عطائه والله طيب ولا يعطى إلا الطيب وأما من أساء فقد جلب على نفسه بعمل يده شيئاً خبيثاً والخبيث من نفسه نتيجة تفريطه أو إفراطه وعدم اتقائه لأسبابه وبعبارة أخرى إن المسىء يحرم نفسه من الخير بفعل الشر والحرمان أمر سلبى لا يجنى من ورائه الخير بل إنه يستحق عليه العقاب .

ولقد سد الله بكل هذا الطريق فى وجه كل من تراوده نفسه أن يحتج بمشيئة الله فى تقاعسه عن فعل الصالحات أو الإقدام على المعاصى والمنكرات والاعتراض على أمر الحساب والعقاب بل لقد نهانا الرسول صلى الله عليه وسلم عن أن نعلق طلبنا للرحمة والغفران على مشيئة الله تعالى وأمرنا أن نجزم بتحقيقها بالأقدام على مباشرة أسباباً بها حيث قال « إذا دعا أحدكم فلا يقول اللهم اغفرلى إن شئت اللهم ارحمنى إن شئت ولكن ليعزم المسألة فإن الله لا مكره له » ومعنى هذا أن الله قد أخذ على نفسه عهداً بإجابة الدعاء وسن لذلك سنناً وأرشدنا إلى الوسائل التى يجب أن نتخذها لبلوغ ما نريده من غايات فما علينا إلا أن نجزم بأن وعد الله حق ونثق بأن ما طلبناه سيكون فنؤهل أنفسنا لبلوغ ذلك بمباشرة الأسباب والوسائل المؤدية إليه ولا محل لتعليق أمر إجابة الدعاء على مشيئته تعالى والمشيئة إنما تتعلق بالأمور الكلية والسنن المضطردة التى لا تختلف « وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن » وفى ميدان العمل بما يريد الله على وحى هديه وضمن سننه متسع لبلوغ الغايات .

وبهذا يتضح أن كل عمل يؤديه المرء فى الحياة داخل فى نطاق السنن التى وضعها الله ولم يخرج عن كونه بمشيئة الله تعالى ولا حساب ولا عقاب عليه من هذه الناحية وإنما الحساب

---

(١) النساء : ٧٩ .

والعقاب من ناحية ما أعطى له من قدرة وإرادة يباشر بها سائر الأعمال ويرجح بها النافع من الضار فاستعملها فيما نهاه الله عنه مما هو معلوم لديه ولهذا يسأل عن أعماله ويؤاخذ على ما كان مخالفاً منها للأنظمة العامة فى الدنيا كما يؤاخذ فى الآخرة على ما كان مخالفاً منها لأحكام الله . فكما أنه إذا اعتدى إنسان على آخر فى الدنيا لايمكن أن يجحد فى نفسه استحقاقه للجزاء أو أن يدعى سلب المشيئة عنه فكذلك لا يصح أن يعتقد فى نفسه النجاة من عذاب الله على ما قد فرط منه من مخالفات لأحكام الله . أما إرادة الإنسان للخير أو الشر فقد تكون محل مؤاخذة بالنسبة إلى الله العالم بالسرائر حيث يقول صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » كما أنها تكون من أسباب تخفيف الأحكام فى الدنيا أو تشديدها مما يسمى فى العرف بسبق الإصرار . وقد خلق الله الشيطان وشاء سبحانه أن يستجيب له دعوته فسمح له بالتسلط على الإنسان وأنذر آدم وأولاده بهذا وأخبرهم بأنه سيضلهم ويغويهم ثم أخبرهم بما يريده منهم وأمرهم أن يحترسوا منه ولا يصغوا إليه وأن يخالفوه حيث قال تعالى : « فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى[1] » ، « يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ، إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير[2] » .

وقضت مشيئة الله تعالى أن يخلق الإنسان ويجعل له من الحواس الظاهرة والباطنة ما يميز به بين الخير والشر حيث قال تعالى : « ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين[3] » . وقضت مشيئته أن يكون من هذا الإنسان سعيد وشقى ، فأما السعيد فهو الذى يوفق إلى سلوك سبل الهدى باستعمال عقله وحواسه على ضوء إرشاد الله . والشقى هو الذى يندفع بالفطرة ولايفرق بين سنن الكون ولادواعى ماجاء به من إرشاد الله حيث يقول تعالى : « إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا[4] » . وبعبارة أخرى إن مشيئة الله قد قضت بأن السعيد من يراعى فى أعماله الطاعة ويتخذ من الأسباب ما يوصله إلى مرضاته تعالى ، والشقى من يتبع

---

(١) طه : ١١٧ .
(٢) فاطر : ٤ — ٦ .
(٣) البلد : ٨ ، ١٠ .
(٤) الدهر : ٣ .

ما يزينه له الشيطان من مخالفة ما يأمر الله به الإنسان وفى هذا يقول تعالى : « من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون[١] » . ومعنى هذه الآية أن من يهتدى بالقرآن الذى جعله الله هدى للمتقين فهو الذى قضت سننه أن يكون المهتدى أما من حرم نفسه من الهدى ولم يتبع نور القرآن وأطاع وساوس الشيطان فأولئك هم الذين خسروا الصفقة من الأساس بعدم طلبهم الهدى فكان نصيبهم الضلال ، وإلى هذا أشار تعالى بقوله : « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون[٢] » . وهم أخبر الله أنه خلقهم ليكونوا من أصحاب النار ووصفهم لنا سبحانه وتعالى فى الآية التى بعد هذه الآية بقوله : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون[٣] » ومعنى هذا أن الذين قضت مشيئته تعالى أن يكونوا من أهل النار من الجن والإنس هم الذين لا ينتفعون بمواهب العقل والأسماع والأبصار التى هى آلات العلم والعرفان ووسائل الهدى والإيمان ، وقد وصفهم الله بصفات ثلاث .

١ — الذين منحهم الله عقولا توصلوا بها إلى معرفة كثير من الأشياء ولكنهم لم يفقهوا بها أمور الكائنات الروحية ، وسنن الله الاجتماعية ، وتأثير العقائد الدينية إلى غير ذلك من الأشياء التى تهديهم إلى الإيمان بالله خالقها ومدبرها ، وفى هذا يقول تعالى : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون[٤] » .

٢ — الذين منحهم الله عيونا قصروها على مجرد النظر إلى ما حولهم من موجودات دون أن يبصروا منها عظمة الله خالقها ، وفى كل شىء له آية تدل على أنه الخالق ، وفى هذا يقول تعالى : « أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم ، أفلا يبصرون[٥] » .

٣ — الذين منحهم الله آذانا يستمعون بها كلام الله ومافيه من إرشاد وتنبيه

---

(١) الأعراف : ١٧٨ .
(٢) فصلت : ١٧
(٣) الأعراف : ١٧٩ .
(٤) الروم : ٧ .
(٥) السجدة : ٢٧ .

وغير ذلك ، فلا يتدبرون ولا يستفيدون منه ، وفى هذا يقول تعالى : «أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون[١]» .

ومن كانت هذه صفاتهم فهم بلاشك كالأنعام إذ لا حظ لهم من عقولهم ومشاعرهم التى استعملوها فيما يتعلق بمعيشتهم فى هذه الحياة الدنيا بمقتضى الفطرة بل هم أضل سبيلا من الأنعام لأنهم يعقلون وقد أنزلت عليهم كتب تدلهم على ماينفعهم ومايضرهم ومع ذلك لم يهتدوا بها بخلاف الأنعام فإنها لا تعقل ولم يأتها من الله هدى فلم تجن على نفسها بمتابعة سنن الفطرة .

ثم إن الله تعالى زاد الأمر وضوحا فى وصف الخاسرين الذين ذرأهم لجهنم بقوله فى نهاية الآية « أولئك هم الغافلون » أى عن استعمال عقولهم ومشاعرهم فى أفضل ماخلقت له من معرفة الله والغافلون عن آيات الله فى الأنفس والآفاق وما ينفعهم فى هذه الحياة ويوم التلاق وفى هؤلاء يقول تعالى : « إن الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون[٢] » وقد أكد الله فى مواضع كثيرة من القرآن أن العذاب يوم القيامة لا يكون لأشخاص معينين لمجرد مشيئة الله ذلك لهم بل إنه نتيجة طبيعية لمخالفة أوامر الله خصوصاً بما حكاه عن أهل النار يوم القيامة إذ يقول تعالى : « كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ، قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير ، وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ، فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير[٣] » ويقول تعالى : « فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ولله مافى السموات ومافى الأرض ليجزى الذين أساؤوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى[٤] » .

ويحسن بنا فى هذا المقام أن نمثل لذلك برجل حرم عليه القتل فزين له الشيطان قتل أخيه فاستل سيفاً وضربه فمات ، فلا شك أنه مؤاخذ على القتل فى الدنيا والآخرة لأنه فعل أمراً باختياره مخالفاً لإرادة الله ، وإن كان هو فى نفس الوقت مطابقاً لمشيئة

---

(١) السجدة : ٢٦ .
(٢) يونس : ٨ .
(٣) المائدة : ٨، ١١ .
(٤) النجم : ٢٩، ٣١ .

الله التى توجبها سننه من أن الضرب بالسيف من شأنه أن يسبب القتل وموافقاً لمشيئته العامة التى قضت بأن لكل فرد أن يفعل مايشاء فى هذه الحياة بمحض اختياره وضمن سنن الله فى خلقه كما أن موت القتيل كان مطابقاً أيضاً لمشيئة الله التى قد قضت بتحديد عمره فى تلك اللحظة وإنما يؤاخذا القاتل على أن ذلك جرى على يده وبمحض اختياره وبهذا يتضح أن قول المشركين « لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء » لم يكن مطابقا للحق باعتبار أن مشيئة الله دستوره العام الذى لا يتعلق بضلال شخص بعينه وإنما ذلك لأعمالهم المخالفة لإرادة الله الخاصة بهم فما يكون لهم أن يزعموا أن ضلالهم ناشئ عن مشيئة الله ولذلك أمر الله رسوله أن يتحداهم بإبراز مستندهم على ذلك حيث قال تعالى « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون[1] » .

هذا هو دستور المشيئة الذى يعبر عنه بالقضاء والقدر الذى أمر المؤمنون أن يؤمنوا به ويسيروا فى الحياة على ضوئه فأوجد لهم قوة روحية تجعلهم يسترخصون الموت فى سبيل الوصول إلى الغاية ويضحون بكل شىء لنيل رضاء الله وثوابه وبهذا سادوا العالم ونالوا العزة التى وعدهم بها الله فى قوله « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون[2] » لا كما يزعم بعض المستشرقين لجهلهم بحقيقة الإسلام من أن الإسلام يقرر فى تعاليمه مذهب الجبرية وإن فيما أوضحناه من الحقائق تنويراً وتبصرة لمن يعقل من كل من تجرد قلبه من الهوى والتعصب للرأى واتباع ما قاله الناس وما كان عليه الآباء .

وعلى ضوء هذه الحقائق يتضح المعنى المراد مما اتخذه بعض الناس حجة لقوله بأن الإنسان مسير فى الحياة بحسب ما قدر له فى الأزل من سعادة أو شقاء مما ورد فى الصحيحين من قوله صلى الله عليه وسلم (احتج آدم وموسى فقال له موسى يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة قال له آدم يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده أتلومنى على أمر قدره الله على قبل أن يخلقنى بأربعين سنة فحج آدم موسى ثلاثا) ولم أر فى هذا الحديث ما يدل على أن آدم كان مسيرا فى معصيته أو أنه اتخذ من ذلك حجة يدافع بها عن نفسه فالقرآن الكريم قد

(١) الأنعام : ١٤٨ .
(٢) المنافقون : ٨ .

سجل عليه ذنب المعصية حيث قال « وعصى آدم ربه فغوى[١] » كما صرح باعتراف آدم بالمعصية وأنه لم يدافع عن نفسه بأن العصيان أمر قدر عليه بل قال هو وزوجه « قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين[٢] » وانتهى الفصل فى هذه المعصية بغفران الله لهما بل وباجتبائه وهديه حيث قال تعالى « ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى[٣] » ثم أمر الله آدم وإبليس بالهبوط إلى الأرض إذ قال « اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى[٤] » فلما أراد موسى أن يحمل آدم تبعة الهبوط إلى الأرض وما يصيب البشر فيها من الخيبة ويحاول أن يجعل من أكلته المشئومة سبباً لشقائه وأبنائه من بعده رد عليه آدم بما حجه وأخمه من أن ذلك الهبوط إلى الأرض وحياة الإنسان فيها لم يكن جزاء المعصية التى غفرها الله وانتهى أمرها باجتبائه تعالى وإنما ذلك تنفيذا لما قضى به الله من قبل خلق آدم من عمار الكون وأن يكون آدم خليفة له فيه حيث يقول تعالى « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون[٥] » أى إنى الخالق أعلم بإرادتى وأعرف ما أرمى إليه من قضائى ولى فى ذلك حكمة فلولا الظلم لما كان العدل ولولا الخطيئة لما تجلت ثمرة الغفران وهذه المخلوقات جميعها ما خلقت إلا لمصلحة الإنسان ولا يستطيع استخدامها أحد سواه ولأجل أن يبين الله سبحانه وتعالى مزية الإنسان وأهميته فى الوجود ويقنع الملائكة بخطئهم فى مقالهم منّ الله على آدم بنعمة العلم حيث قال « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون[٦] » .

ولقد اقتنع موسى بإجابة آدم فما يكون لنا أن نسوق كلمته دليلا على أنا مسيرون فى هذه الحياة ونحاول أن ننفى بها عن أنفسنا القدرة على تجنب الشرور والآثام .

---

(١) طه : ١٢١ .
(٢) الأعراف : ٢٣ .
(٣) طه : ١٢٢ .
(٤) طه : ١٢٣ .
(٥) البقرة : ٣٠ .
(٦) البقرة : ٣١، ٣٣ .

الأمر الذى لم يجرأ عليه آدم بل استغفر من ذنبه وأناب، ومتى سلمنا بأن الهبوط إلى الأرض لم يكن إلا بمشيئة الله وأردنا أن نطبق الأمر على نظام القضاء والقدر نرى أن الله جل وعلا لم يرد بآدم وأبناءه الإهانة أو الشقاء فى هذه الأرض بل إنه رفع من قدره إذ استخلفه فيها وتعهد له تعالى بأفضل مما تعهد له به يوم كان فى الجنة إذ قال له هنالك « إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » وقال له عند الهبوط إلى الأرض « فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى[1] » .

وشتان بين متع الجسم من المأكل والمشرب والملبس وبين متع النفس والجسم معا من الهدى والسعادة الكاملة الدائمة ، ولئن تجاوز الله عن آدم ونجاه من العقوبة بطلبه الغفران فإن الله لم يضن على أبنائه المهتدين بهديه والمقتفين أثره بوعده لهم بالرحمة والرضوان .

ولئن توعد الله آدم على العصيان بمجرد الإخراج من الجنة فقد توعد أبناءه بالعيش الضنك والعذاب فى الآخرة وعدد لهم نعمه عليهم وحذرهم من الشيطان حيث قال « يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون[2] » فإذا شعر الناس بالشقاء فى هذه الحياة فما ذلك إلا لأنهم انحرفوا عن جادة اتباع هدى الله وإذا ضلوا فإنما ذلك نتيجة افتتانهم بما يزين لهم الشيطان أول من اخترع المعصية والإصرار عليها وعدم التوبة منها والجرأة على الله بنسبة الغواية إليه تعالى حيث « قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين[3] » .

فمن السخف والجهل المطبق أن نسير على طريقة إبليس ونضاهيه فى أعماله وأقواله ونتبع ما يزينه لنا ونعصى الله ثم ننسب غوايتنا وضلالنا وسوء تصرفنا إلى قضاء الله وقدره علينا وهذا القرآن يصور لنا مبلغ حب الله فى هداية فرعون الذى أخبر بطغيانه إذ يقول لموسى وأخيه « اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولاً لينا لعله يتذكر

---

(١) طه : ١٣٣، ١٣٤ .
(٢) الأعراف : ٢٥، ٢٧ .
(٣) الحجر : ٣٩ .

أو يخشى[١] » ويخبرنا جل وعلا بما لقن به موسى من الكلمات لدعوة فرعون وما كان جوابه عليها حتى استحق النكال والعذاب حيث يقول « اذهب إلى فرعون إنه طغى فقل هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى فأراه الآية الكبرى فكذب وعصى ثم أدبر يسعى فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى[٢] » .

إرادة الله تعالى

قلنا إن إرادة الله الحقيقية لا يعلم بها أحد سواه وفقاً لما جاء فى القرآن على لسان عيسى بن مريم عليه السلام من قوله « تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك[٣] » وإنما تنقسم فى ظاهرها إلى قسمين .

الأولى : إرادة كونية قدرية وهى التى سبقت مشيئته بخلق جميع الكائنات وما سنه لها من نظام قضائه وقدره وإليها أشار تعالى بقوله على لسان نوح عليه السلام « ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم[٤] » أى إن كنتم ممن شملتكم إرادة الله السابقة لنظام قضائه وقدره .

والثانية : إرادة دينية أمرية وهى التى تتعلق بما يحبه الله تعالى لعباده ويرضاه منهم وهى لا تنطوى إلا على الخير المطلق وإليها أشار تعالى بقوله « ولا يرضى لعباده الكفر[٥] » وقوله « والله لا يحب الفساد[٦] » وقوله « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر[٧] » . ولهذا تفضل على عباده بتبيان مسالك الخير واليسر وزينه لهم وحضهم عليه وأرشدهم عن طريق رسله وكتبه إلى ما يوصل إليه وهو سبحانه وتعالى إلى جانب هذا عادل ، ومن مقتضى العدل ثواب المحسن وعقاب المسىء ، فلابد له أن يعاقب من يخالف الدستور ويقترف من الأمور ما لا يريده ويحبه لعباده ،

---

(١) طه : ٤٣، ٤٤ .
(٢) النازعات : ١٧، ٢٦ .
(٣) المائدة : ١١٩ .
(٤) هود : ٣٤ .
(٥) الزمر : ٧ .
(٦) البقرة : ٢٠٥ .
(٧) البقرة : ١٨٥ .

ولما كان العذاب ليس من صفاته الأزلية فقد كتب على نفسه الرحمة وجعلها فوق القانون وفتح للناس باب التوبة والرجوع إلى طريق الخير حيث قال « وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم[1] » وسبقت رحمة الله فى كل شيء ووعد بمنحها لمن يتطلبها بالتقوى والإيمان به وما يستلزم ذلك الإيمان من الأعمال الصالحات بل لقد تجاوزت أقصى الحدود إذ قال الرسول صلى الله عليه وسلم (لما خلق الله الخلق كتب فى كتابه فهو عنده فوق العرش إن رحمتى تغلب غضبى » ويسر للناس السبيل إلى نيل السعادة وبلوغ أقصى الغايات فى الحياة وبعد الممات بما قطعه على ذاته العلية من وعد بإجابة الدعاء إذ يقول « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم[2] » ومعنى هذا أن لجوء العبد إلى ربه بالدعاء من شأنه أن يستجلب عطفه رضاه ويجعله يغير ويبدل فيما كتب من قضائه وقدره وقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن صلة الرحم تزيد فى العمر » كما روى الإمام أحمد بمسنده عنه صلى الله عليه وسلم قوله « إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ولا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد فى العمر إلا البر » وروى الترمذى عن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله (من فتح له باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة وما سئل الله تعالى شيئاً أحب إليه من أن يسأل العبد العافية وأن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ولا يرد القضاء إلا الدعاء فعليكم بالدعاء » ولذا كان عمر وابن مسعود يريان أن الله يمحو من الرزق ويزيد فيه ومثله الأجل والسعادة والشقاء والإيمان والكفر وكانا يدعوان الله ويتضرعان إليه فى أن يجعلهم سعداء لا أشقياء ، وهذا ينافى كل المنافاة ما يزعمه المستشرقون من أن الإسلام يقول بمبدأ الجبرية ما دام فى الدعاء والعمل الصالح ميدان للسعادة وزيادة الرزق وطول العمر . فالله سبحانه وتعالى إذ يقضى فى دستوره السماوى بمعاقبة المذنبين يتجاوز جل وعلا بإرادته ورحمته عن كثير من سيئات من يشاء الغفران من عباده المؤمنين حيث يقول تعالى « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا[3] » .

---

(١) الأنعام : ٥٤ .
(٢) المؤمن : ٦٠ .
(٣) النساء : ١١٦ .

وأكثر من هذا فإن هذه الرحمة لترأف بالناس وتتلمس لهم أسباب العفو والغفران بل وتسمو حتى ليمحو الله ذنوب من حسنت نيته وصفا قلبه وأراد لنفسه ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة إذ يقول صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » .

والمهم فى الأمر هوان يريد الناس لأنفسهم الهداية وأن يتبعوا سبلها وينصاعوا لدستورالله الذى ما وضع إلالينجى الناس من الشرويحول دونهم ودون أن يؤخذواعلى غرةومن أجل ذلك بعث الله الرسل وأنزل الكتب وقال فى كتابه الكريم « وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون[1] » فإذا أراد الإنسان لنفسه غير ما أحبه له الله من الخير وسلك سبيلا لا يوصل إلى السعادة فقد أراد غير ما أراد الله واتخذ من نفسه لربه خصيما واستحق بذلك ما أنذر به من عذاب وفى هذا يقول تعالى « إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون[2] » إرادة الله نافذة إذا شاء الله تعالى نفاذها وإرادة العبد باطلة إن شاء الله لها البطلان . والمهم هو أن نؤمن بأن المشيئة غير الإرادة كما بينا آنفاً والإرادة الإلهية واضحة لمن يريد أن يستجيب لها وما كرم الله الإنسان بالعقل والاختيار والإرادة إلا لتكون إرادة المخلوق صدى لإرادة الخالق فإذا هو سعيد أو أن يريد المخلوق لنفسه غير الخير الذى أراده الله له فإذا هو شقى والله بعد ذلك بكل شىء محيط .

والله سبحانه وتعالى إذ أراد بالناس الخير ومنحهم قوة الاختيار فى اتباع ما يرونه من الأديان بين سبحانه حقيقة المهتدين والضالين وأحالهم إلى أنفسهم ليدركوا منها من أى الفريقين هم ؟ حيث قال تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجاً كأنما يصعد فى السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون — وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون[3] » . ومعنى هذا أن المهتدى هو ذلك الذى ينشرح صدره للاسلام فيتقبل دعوته ويتبع أحكامه ، والضال هو ذلك الذى اقتضت سنته أن يكون من الضالين

---

(١) القصص : ٥٩ .
(٢) يونس : ٤٤ .
(٣) الأنعام : ١٢٥ .

إذ يضيق صدره من الاصغاء لدعوة الحق فيرفض قبول الهداية ، وليس معنى ذلك أن الله تعالى يخلق الضلال لمن يشاء إضلاله ويجعله له غريزة وطبعاً ولا أن يلجئه إليه إلجاء أو يكرهه عليه إكراهاً فيكون إعراضه عن الحق والخير وإقباله على الباطل والشر كحركة الدم فى الجسد ، وعمل المعدة فى الهضم . ففى القرآن آيات كثيرة تدل على أن مشيئة الضلال إنما تتعلق بأصحاب الأعمال الكسبية التى هى من أسباب الضلال ومشيئة الهداية تتعلق بما يقابلها ، حيث يقول تعالى : « ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء[١] » ويقول : « ومايضل به إلا الفاسقين[٢] » ويقول : « يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور[٣] » .

ومن أجل هذا ختم الله الآية السابقة بقوله : « كذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون » أى بمثل ماذكر من أسباب ضيق الصدور والحرج بالإسلام جعل الله الرجس على الذين يعرضون عن الإيمان بقلوبهم ويبدون ذلك فى أعمالهم « وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون » فلا محل للاحتجاج فى أمر الهدى والضلال بإرادة الله التى لمح بها لعباده عن طريق انشراح الصدر وتوبيخ الضمير . خصوصاً وأن الله جلت قدرته بما اتصف به من العدل لا يمكن أن يسوى بين المهتدين والضالين حيث يقول : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؛ مالكم كيف تحكمون[٤] » « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ؛ أم نجعل المتقين كالفجار[٥] » . كل هذا الأمر لايمكن أن يكون حيث يقول تعالى : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلا ، ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجزيه ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيرا[٦] » . ولقد بلغ من كمال رحمة الله أن جعل من أعمال العباد مايكون سبباً لهلاك الناس فلا تحل بهم نقمته المباشرة ، بل تأتى كنتيجة طبيعية لسوء أعمالهم حيث يقول تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول

---

(١) ابراهيم : ٢٧ .
(٢) البقرة : ٢٦ .
(٣) المائدة : ١٦ .
(٤) ن : ٤٦ .
(٥) ص : ٢٨
(٦) النساء : ١٢٢، ١٢٣ .

فدمرناها تدميرا[١] » . ومعنى هذا أن الله تعالى إذ يريد أن يطبق نظام المشيئة فى قوم بإهلاكهم يؤمر عليهم من الطبقة الارستقراطية التى يلذ لها الترف واتباع الهوى وإشباع الشهوات فيتبعهم الناس فى هذا الغى حتى يعم الفساد ويحل الخراب ويحق العذاب الذى قد يصاب به من لايستحقه بحسب سنن الكون على حد قوله تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب[٢] » ولقد أبت عليه رحمته تعالى أن يحقق للناس رغبات السوء إلا إذا أصروا عليها حيث يقول تعالى : « وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم مايتقون إن الله بكل شىء عليم[٣] » ومعنى هذه الآية أن الله تعالى ينفى عن ذاته مساعدة مبتغى الضلال على المضى فى ضلاله إلا بعد درجات ثلاث :

١ — أن يكون حائزاً للوسائل التى يستطيع بها إدراك الحقائق والتمييز بين الحق والباطل من السمع والبصر والعقل . بحيث يكون أهلا لتقبل الهداية .

٢ — أن يعلمه تعالى بما يجب أن يتقيه من الأقوال والأعمال التى تضره ولا ترضى ربه .

٣ — أن يكون له كامل الخيار فى أن يسلك مايروق له من الطرق الماثلة أمامه .

فإذا أصر بعد كل هذا على ارتياد سبل الضلال عندئذ يمده الله تعالى فى غيه ويتركه وشأنه ويصدق عليه أن قد أضله الله على علم منه بأنه سائر فى طريق الضلال وفى هذا يقول تعالى « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ![٤] » .

وهكذا مامن موضع فى القرآن تحدث الله فيه عن الرحمة والغفران والعذاب والعقاب إلا ذكر من أعمال العباد ما يستحقون عليه ذلك من الأعمال التى تنشأ عن إيمانهم أو كفرهم بالله واليوم الآخر .

---

(١) الاسراء : ١٦ .
(٢) الأنفال : ٢٥ .
(٣) التوبة : ١١٥ .
(٤) الجاثية : ٢١، ٢٣ .

حقاً أن الله سبحانه وتعالى هو المالك لكل شيء والمالك يفعل فى ملكه ما يشاء ولا يسأل عما يفعل وليس من حق العبد أن يعترض على سيده إذا هو عهد إليه بأعمال شاقة واختص زميلا له بالقرب منه والترفيه عنه غير أن هذا لا يمنع أن يكون فى النفس ما فيها من حزن وأسى لا يمكن إلا أن تعبر عنه إذا وجدت سبيلا إلى ذلك ولو عن طريق العتب اللطيف .

ولقد اقتضت الحكمة الإلهية أن لا يترك للإنسان مجالا لأن تحدثه نفسه بشيء من هذا بما وهبه من ملكة العقل وما منحه من قدرة على العمل وما هداه إليه من سبل وما تفضل به عليه من ثواب حتى على مجرد النية من أعمال القلب فإذا أبى الإنسان أن ينتفع بشيء من هذا فلا يلومن إلا نفسه ، وفى هذا يقول تعالى « الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب[1] » ومعنى هذا أن الله يجتبى إليه كل من يشاء اجتباء الله له أى أن ذلك عائد لما يتعدى حدود الرغبة فى الإنسان إلى حيز المشيئة التى هى العمل بما يجعله أهلا للاجتباء . أما هدايته تعالى الإنسان إلى ما يقربه إليه وينجيه من عذابه فتلك عائدة لمجرد إرادة العبد ومبذولة لكل من أقبل على الله بقلبه تائباً راجياً . ولقد ضرب الله الأمثال بسؤال العباد له يوم القيامة عن الجزاء وحكمته حيث قال « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا — قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى[2] » ولأجل تبسيط الموضوع وتقريبه إلى الأذهان لا نرى بأساً من أن نمثل لذلك ولله المثل الأعلى برجل ارتكب جريمة السرقة ومثل أمام القضاء والقوانين التى أمام القضاة والتى يعرفها الناس تقضى بقطع يده غير أنه لا يمكن أن يقال إنه قضى عليه بقطع اليد إلا بعد صدور الحكم بذلك ، بل يقال إنه فى يد القدر لأنه قد يكون هناك من الأسباب التى حملت السارق على السرقة ما يدعو الحاكم لإصدار حكمه بتخفيف العقوبة ومتى صدر الحكم قيل أنه قد حل القضاء وبقاء الجانى إلى حين تنفيذ الحكم يقال عنه إنه تحت رحمة السلطان .

(١) الشورى : ١٣ .

(٢) طه : ١٢٢ — ١٢٥ .

وعلى ضوء هذا المثال نقول إن الله قدر للناس سبيل الكسب الحلال والكسب الحرام الذى من ضمنه السرقة ونبههم إلى أن من تقديره أن من سرق تقطع يده فمتى ارتكبت السرقة فإنما هى بقدر الله وضمن سننه وحكمها معلوم ، والقضاء به لابد أن يكون إلا إذا أراد الله تخليص الجانى من القطع قبل الحكم فإنه يجعل من عدم حكم القضاة بما أنزل الله مثلا سبباً فى تخفيف العقوبة عنه وإلا فمتى حكم القاضى بالقطع ثم اقتضى فضله تعالى بعد ذلك الخلاص من القطع فى الدنيا هيأ له من الأسباب ما يجعله يفلت منه بتاتاً ، وإذا قضت رحمته تعالى بعد ذلك غفران تلك الخطيئة فى الآخرة أيضاً فرحمته تعالى فوق كل شىء ولقد ضرب الله لنا الأمثال على تعلق إرادته تعالى بشؤن عباده الفردية بما حكاه جل شأنه فى القرآن من قصة اجتماع موسى بالخضر عليهما السلام إذ جعل الله من نسيان فتى موسى للحوت فى مجمع البحرين وعودتهما إليه ثانياً سبباً لتنفيذ إرادة الله بالتقاء موسى بعبد من عباد الله الصالحين الواقفين على بعض أسرار الكون الخفية وهو الخضر عليه السلام وإذ ذاك « قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا قال إنك لن تستطيع معى صبرا وكيف تصبر على مالم تحط به خبراً ، قال ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمرا ، قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا ، فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرا ، قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً ، قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسراً ، فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكرا ، قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا ، قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا ، فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا ، قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا ، أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا ، وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفرا ، فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما ، وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل مالم تسطع

عليه صبرا[١] » وكثيراً ما يمر بنا أمثال هذا فى حياتنا اليومية حيث نخطئ أو ننسى فلا نفعل أمرا ثم يتضح لنا أن الخير فيه وفى هذا يقول تعالى « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون[٢] » وما روى من حديث (لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع) وهذا التسليم لله وعدم الاعتراض على ما يبدو غريباً أو مخالفاً لما يرضى الله فى الظاهر هو الذى أراد الخضر أن يمرن عليه موسى ويربى فيه ملكة القدرة على التأمل والمراقبة للحكم الإلهية الخفية من وراء هذه المظاهر الخارجية فلما لم يستطع الصبر عليها شرحها له « وفوق كل ذى علم عليم[٣] » وقد حث الله على هذا التسليم وأشار إلى ماله جل وعلا فى تصرفاته من حكم عند ما وعد الله نوحاً بأن ينجيه وأهله فى السفينة فرفض ابنه أن يركبها معه وراح يطلب النجاة لنفسه بأن يأوى إلى جبل يعصمه من الماء فغرق « فنادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألنى ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين[٤] » ذلك أن نوحاً لو فطن للأمر وتأمل الحقيقة لعرف أن غرق ابنه كان نتيجة طبيعية لعدم ركوبه السفينة ومخالفته لنظام المشيئة أو لعدم يقينه بوعد الله بالنجاةلمن ركب السفينة وهو أمر يتنافى مع الإيمان الكامل بالله فما كان له أن يحسب أن غرقه مناف لوعد الله له بنجاة أهله ومن هنا كانت معرفة الله الكاملة تقتضى الرضاء بما يقضى به والصبر على ما يبتلى به والتسليم لأحكامه وتصرفاته وهذه المعرفة تنيل صاحبها أرفع الدرجات فى الحياة وبعد الممات .

علم الله تعالى

لئن اختلف علم الناس باختلاف ذواتهم كان طبيعياً أن يختلف علم الخالق جل وعلا عن علم مخلوقيه فعلم الناس مكتسب قاصر وعلم الله أزلى كامل وعلم الناس بالوجود متأخر عن وجوده وعلم الله به سابق على وجوده والله تبارك وتعالى

---

(١) الكهف : ٦٦، ٨٢ .
(٢) البقرة : ٢١٧ .
(٣) يوسف : ٧٦ .
(٤) هود : ٤٥، ٤٧ .

كما يعلم ما هو كائن يعلم ما كان وما سيكون فعلمه علم كامل أما الإنسان فقد يعلم بعض ما كان وقد يخطىء فيه أيضاً ولكنه لا يعلم ما سيكون عن يقين أبدا فعلمه علم ناقص ، والإنسان إذ يوفق إلى اختراع جهاز من مواد أولية معروفة أدرك خواصها وتأثيرها يعلم الحكمة فى وضع كل جزء من أجزائه ومبلغ قوته ومدى صلاحيته للعمل ولكنه لا يعلم ما كتب لاختراعه من توفيق ونجاح ، والله الذى خلق جميع الكائنات من العدم وجعل لكل موجود خواصه وأودع فيه أسراره التى لايعلمها إلا هو لا شك أنه يعلم مبلغ قوته ومدى صلاحيته للعمل وكل ما سيكون من أمره وما يقدر له من نجاح وتوفيق .

على أن العلم بالشىء سواء كان حادثا أم قديما لا يستلزم وجود المعلوم فقد يعلم الإنسان أن الصدق منج ومع ذلك يكذب وأن الاقتصاد مفيد ثم يبذر وكذلك علم الله محجوب عن المخلوقات جميعاً ولا تأثير له فى وجودها فهو ليس صفة تأثير كالقدرة وإنما هو صفة انكشاف واحاطة « أحاط بكل شىء علما » وليس العلم إلا الإحاطة بالشىء دون الجزاء عليه إذ الجزاء لا يترتب إلا على ما يكتب عن الإنسان من عمل فى اللوح المحفوظ بل يتجاوز ذلك إلى ما يعلمه الله مما يبيته الإنسان من قصد حيث يقول تعالى «إن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله» لا بل إلى ما تقتضيه رحمة الله وعفوه عن الإنسان مقابل مايضمره من نية الخير وعفوه عن سيئات من أساء إليه حيث يقول تعالى « إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفواً قديراً [1] » .

فالله سبحانه وتعالى إذ يعلم أن عبده سيذنب يعلم أنه سيؤاخذه أو سيغفر له ويعلم أنه ضل ومع ذلك قد يهديه ويعلم سيئات أعماله وأنه يؤاخذه عليها أو لا يؤاخذه لأسباب خفية لم يطلع عليها الملائكة الكاتبين وقد لا يذكرها الإنسان نفسه ولا يعلم بها حيث يقول صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالا يرفعه الله بها درجات وإن العبد يتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالا يهوى بها فى جهنم » ويقول تعالى « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان [2] » وعلم الله محجوب عنا ولا يتعلق بالأشياء تعلق تأثير وإيجاد وهو غير المشيئة والإرادة

---

(١) النساء : ١٤٩ .

(٢) النحل : ١٠٦ .

فليس هناك معنى لتأثر الإنسان به واتخاذه حجة على أننا مسيرون فى أعمالنا وفق ذلك ولقد جعل الله كتابة الإنسان بالقلم وسيلة لضبط العلم وأصلها فى اللغة النقش بالخط ولكنها تختلف بأشكالها وأوضاعها فالكتابة فى الورق غير الكتابة فى ألواح الحاكى (فونوغراف) غير الكتابة فى شريط تسجيل الأصوات غير الكتابة فى الأثير بواسطة جهاز اللاسلكى ولله المثل الأعلى ليس كمثله شىء . أما كتابته تعالى وما جرى به قلمه فى لوحه المحفوظ لديه فليس كما نفهمه من سائر الكتابات وليست بقصد تحديد معلوماته فمن قدر الأعمار وحتم وقوع الوفاة بعدها قادر على زيادة الأعمار متى أراد وهو سبحانه أعلم بما كتب فى لوحه عنها ، وما كتبه الله عن عباده محجوب عنا فليس لنا إن نقول أننا مسيرون أو مجبورون مسخرون وفق ما هو فى الكتاب مسطور ونحن لا نعلم بكل هذا وسواء سطر الله فى كتابه ما سبق به علمه أو ما يحدث حين وقوعه فإن الحقيقة الواضحة التى أكدها لنا الله جل وعلا هى أننا مخيرون فى أعمالنا وأن الله يعلم بها وما تخفى الصدور وأن علمه هذا لا يمنعنا من أن نتخذ من القرارات ما قد يكون سبباً فى تنفيذ ما يريده الله من أعمال على حد قوله تعالى : « إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر[1] » . وحتى تقرب هذه الحقيقة إلى الأذهان نسوق هذا المثال إذا عرف أستاذ تلميذاً من تلاميذه معرفة قوية جعلته يعتقد تماماً بأنه بليد فى منتهى البلادة حتى أنه سجل فى مفكراته بما له من تمام الخبرة والعلم بأنه يستحيل عليه أن ينجح أبداً لرسوبه رسوباً متناهياً فى جميع الاختبارات الشهرية ثم تقدم ذلك التلميذ البليد للاختبار النهائى فى آخر السنة فهل يكون ما دونه الأستاذ ملزماً للتلميذ على الرسوب والفرق بين هذا المثال وعلم الله أن الله سبحانه وتعالى يعلم علماً دقيقاً لا يخطىء بحالة التلميذ وما ينطبق عليه من نظام المشيئة وما يريده تعالى له وما سيشمله به تعالى من لطف ورحمة لسبب من الأسباب الأخرى التى يعلمها سبحانه وتعالى والتى تكون سبباً لنجاحه فهو سبحانه أعلم بما كتب وليس من حقنا أن نبحث فى موضوع علمه تعالى ولا أن ننسب إليه شيئاً من مساوينا أو نقيد سلطته ونعطل إرادته ورحمته وحسبنا أن نؤمن بما أخبر الله به عن ذلك بقوله « ما أصاب من مصيبة فى الأرض

---

(١) المدثر : ١٩ .

ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير [١] » . وبهذا تضحد جميع فلسفة المتكلمين ويتضح بذلك الإشكال الذى خامر بعض العقول من بعض أحاديث الرسول التى تدل على أنه ما من شىء إلا وقد كتب فى الأزل نقتطف منها مايأتى :

١ — قوله عليه الصلاة والسلام (إن أول ما خلق الله القلم قال له اكتب فقال يا رب ما اكتب قال أكتب مقادير كل شىء حتى تقوم الساعة) .

٢ — قول الرسول لابن عباس (إن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف) .

٣ - (وكل الله بالرحم ملكاً فيقول أى رب نطفة أى رب علقة أى رب مضغة فإذا أراد أن يقضى خلقها قال يا رب أذكر أم أنثى ؟ أشقى أم سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيكتب ذلك فى بطن أمه) .

٤ — (ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة . قالوا يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل قال اعملوا فكل ميسير لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فيصير لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاء فيصير لعمل أهل الشقاء) ثم قرأ « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى [٢] » . فما علينا إلا أن نطبق ما قررناه فى موضوع علمه سبحانه وتعالى وما خطه القلم فى اللوح عن كل هذا .

على أنى ألاحظ فى الحديث الأخير أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقل إنه عين مقعد كل إنسان فى الجنة أو فى النار بل قال إنه كتب مقعده فيهما معاً بسبب ما ييسرون له من عمل فمن عمل بعمل الهداية كان سعيداً ومن عمل بعمل أهل الضلال كان شقياً وأدعم هذا المعنى بالآية الشريفة التى تشير إلى أن حكم القدر هو أن من يصدر منه العطاء والتقوى والتصديق بما أخبر به الله فسيؤدى ذلك

---

(١) الحديد : ٢٢ .

(٢) الليل : ١٠ .

إلى اليسرى والعكس بالعكس وثم حديث آخر هو ما روى عنه صلى الله عليه وسلم من قوله (والذى لا إله إلا هو إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها).

ويلوح لى من هذا الحديث أنه ليس المراد بالكتاب الكتاب الخاص بذات الشخصى من أنه سعيد أو شقى بل المراد بالكتاب ما قضت به مشيئته تعالى من أن العبرة فى الأمور بخواتيمها أو بما فى علم الله من حقيقة الأمور ، وقد وضح الرسول هذا المعنى بقوله فى حديث آخر « إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم عمله بعمل أهل النار وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ثم يختم عمله بعمل أهل الجنة» وفى رواية أخرى «إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة » وهذا هو معنى الكتاب وهذا ما ينبغى أن يؤمن به الناس ليسيروا فى الحياة على هدى ما دعاهم إليه الله من العمل الصالح ليسعدوا وينالوا ثوابه ويتأدبوا معه سبحانه وتعالى فلا ينسبون إليه تقدير ضلالهم فى أزله . وعليهم لم أن لا يبحثوا فى مثل هذه المعلومات التى هى من ضمن الأمور الغيبية التى لا تصل إليها عقولهم المحدودة القوى والتى اختص الله بها ذاته بقوله « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها[1] » ولما كان معنى الغيب هو ما غاب عن الوجود أو الشهود وهو عالم البرزخ وعالم الآخرة وبعض عالم الدنيا مما يتعلق بالنبات الذى لم يوجد والحيوان الذى لم يولد وكسب الأنفس الذى لم يحصل أخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بأن « مفاتيح الغيب خمس » وتلا قوله تعالى « إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير[2] » فالساعة مفتاح عالم الآخرة « والغيث » مفتاح عالم النبات « وما فى الأرحام » مفتاح عالم الحيوان وقوله « وما تدرى نفس ماذا

(١) الأنعام : ٥٩ .
(٢) لقمان : ٣٤ .

تكسب غدا » مفتاح الأعمال وقوله « وما تدرى نفس بأى أرض تموت » مفتاح نهاية العمر وبدء عالم البرزخ وقد قال تعالى أنه إلى جانب ما عنده من مفاتيح الغيب التى لا يعلمها إلا هو أنه يعلم كل صغيرة وكبيرة وحركة وسكون تصدر من جميع مخلوقاته وإن ذلك أيضاً مسجل عنده فى الكتاب حيث قال « ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين[1] » ولا بدع فالخالق لابد وأن يحيط بكل خفايا المخلوق وإلى هذا أشار تعالى بقوله « وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير[2] » فكل ما دون فى اللوح المحفوظ لم يخرج عن كونه من باب ما يعلمه الله مما اقتضته مشيئته تعالى من قضائه وقدره وأحوال عباده وأعمالهم ما فى ذلك شك ولا ريب هدانا الله إلى سواء السبيل .

أركان الإسلام

لئن وجه الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم كل عنايته إلى بث روح الإيمان فى النفوس ليؤهلها لتقبل الهداية والتوجه إلى الله وحسن الخلق فإنه لم يكن يقصد من ذلك إلا أن تصلح أعمال الناس فى الحياة ويعيش الجميع فى جو مشبع بروح المودة والوئام يرفرف عليهم لواء الطمأنينة والسلام العام . ولما كانت العبرة فى الأمور بظواهرها ولا يؤاخذ الناس فى هذه الحياة إلا بأعمالهم قال صلى الله عليه وسلم أمرت أن أحكم بالظواهر والله يتولى السرائر . وعلى هذا أقام النبى محمد الإسلام على أسس تعبر عما فى قلوب الناس من الإيمان بمختلف أقسامه وتمرنهم على طاعة الله والتوجه إليه فى جميع الأوقات وسائر الأحوال فكانت هذه الأسس هى أركان الإسلام الخمسة التى تقوم عليها دعامة الشريعة الإسلامية المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله والتى تكفل للناس السعادة فى حياتهم الفردية والاجتماعية وتوجب عليهم العمل المتواصل لخير الإنسانية والتى سنت من القوانين والتعليمات ما يأمن به الإنسان من ظلم أخيه الإنسان ويجمع القلوب على المحبة والسلام بدل العداوة والانقسام ، وتتلخص هذه الأركان الخمس فى أمر واحد هو الإيمان الثابت فى القلب بوحدانية الله جل وعلا المؤيد ذلك بشهادة اللسان وخضوع

---

(١) الأنعام : ٦٠ .

(٢) الملك : ١٣ — ١٤ .

الجوارح ، فهى وإن تعددت فى الظاهر لكنها وحدة لا تتجزأ فى الواقع ونفس الأمر ، وهى إن دلت على شيء فإنما تدل على وجوب العمل بالقلب واللسان وسائر الأعضاء لطاعة الله واتباع أوامره واجتناب نواهيه وتعبر عن ذلك أصدق تعبير بالقول والفعل فى الليل والنهار والسر والجهر وفى جميع الأيام وسائر الفصول . وقد جعل الله هذه الأركان محكا لاختبار مدى إيمان عباده فمن نقص ركنا من هذه الأركان أو أهمله فكأنما عمل على هدم الإسلام وسعى لتقويض بنائه .

من الناس من يجهل هذه الحقيقة فيزعم أن الإسلام إنما يعتمد فقط على شهادة[1] أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأما باقى أركان الإسلام من الصلاة والزكاة والصيام والحج فتلك أمور تعبدية يمكن التساهل فيها وقد ترتب على هذا الوهم أن ترك الكثير من المسلمين العمل ببعض هذه الأركان حتى أصبحوا مسلمين اسما ولا فارق بينهم وبين غيرهم من الملل الأخرى إلا مجرد التسمية وبذلك انتزع الإيمان الحق من القلوب وفسدت الأخلاق وارتكبت الموبقات وساء حال المجتمع لأنه لم يعد هناك وازع دينى يحتم عليهم الإقلاع عن الشر والإقبال على الخير وبدى التناقض بين القول والعمل وأدى بهم الأمر إلى عكس الغاية التى جاء بها الإسلام من عدة وجوه

١ — أن الإقرار بوحدانية الله باللسان أمر يكذبه العمل إذا لم يقم العبد بتنفيذ ما أوجبه الله من سائر الأركان وقد اعتبر الله جل وعلا ذلك كفراً من إبليس استحق عليه ما استحق من الطرد من رحمة الله عندما أبى السجود لآدم مع أنه كان يعلم أن الله واحد لا شريك له وأمره يجب أن يطاع .

٢ — أن ترك باقى الأركان لا يخلو إما أن يكون عن إنكار لها أو عن تمرد وعصيان أو إهمال وكل ذلك مما يتنافى مع مايقتضيه واجب الإيمان بالله .

٣ — إن هذه الأركان كلها أمور تعبدية أشبه بوصفة طبية لايقصد منها غير علاج النفوس وكبح جماحها وترويضها على الطاعة ومراقبة الله والخضوع لأحكامه فإذا

---

(١) يتوقف وجود الأيمان على الشهادتين وكماله على باقى الأركان التى هى منهما بمنزلة الفرع من الأصل ومن جحد فرضيتها واستحل مخالفتها خرج من ربقة الإسلام بالاجماع ومن تركها غير جاحد لفرضيتها كان من عصاة المؤمنين اهـ .

مانقص عنصر أوأكثر من تركيب العلاج فلا شك أن هذا مما ينقص من قيمته وقد يؤدى إلى سلب منفعته بالمرة .

٤ — إن البناء الذى يقوم على خمس قواعد لا شك أنه يهدم إذا قوضت بعض دعائمه .

٥ — إن الشريعة من حيث هى شريعة لا يمكن أن تكون عبارة عن مجرد إيمان بوجود الله بل لابد أن تكون مشتملة على عبادات وأحكام تتبع .

٦ — إن الشريعة الإسلامية هى بمثابة قانون عام لإصلاح حال المجتمع وثمرة القانون لا تظهر إلا فى حال تطبيقه ولا قيمة له إذا لم يعمل به .

ولذلك . اعتبر الله جل وعلا كل من يقصر فى أمر من الأمور التى دعا إليها الإسلام مكذبا له حيث يقول « أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين [1] »

وهذه الأركان هى :

١ — شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

٢ — إقام الصلاة .

٣ — إيتاء الزكاة .

٤ — صوم رمضان .

٥ — حج البيت من استطاع إليه سبيلا .

وسنتكلم على كل واحد منها مفصلا فيما يلى .

شهادة أن لا إله إلا الله

الشهادة فى اللغة مشتقة من شهد المجلس أى حضره وشهد الشىء إذا عاينه واطلع عليه بنفسه وشهد على الأمر أى أخبر به خبراً قاطعاً عن علم واعتقاد جازم . ومن أجل هذا عند ما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى التصديق برسالته قدم لهم على ثبوتها شهادة الله التى هى أعظم شهادة حيث قال : «قل أى شىء أكبر شهادة ، قل الله شهيد بينى وبينكم وأوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ، أإنكم لتشهدون أن

(١) الماعون : ١ — ٣ .

مع الله آلهة أخرى ، قل لا أشهد ، قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون[١] » وأخبرهم بشهادة الله بوحدانيته والملائكة وأولى العلم بعدله وتدبيره لكل شىء حيث قال: « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم[٢] » ومعنى هذا أن الله تعالى يشهد بخلقه لجميع هذه الموجودات الدالة على اتصافه بصفة الربوبية بأنه وحده المدبر لشئونها والمهيمن على جميع حركاتها وسكناتها لا إله فى الوجود يستحق الحب والإخلاص له فى العبادة إلا هو فهو صاحب الأمر المطاع فى الحياة الدنيا ومالك الجزاء والعقاب فى الآخرة والملائكة بما أوتوا من علم واسع بأحوال المخلوقات العلوية والسفلية المعلومة لنا وغير المعلومة وباعتبارهم من عباده المقربين الواقفين على كثير من الأسرار الكونية ، وأولوا العلم بما وصلوا إليه من نتيجة بحوثهم العلمية فى حقائق المخلوقات وأسرار الكائنات وتصرفات بارئ الأرض والسموات قد شهدوا جميعاً عن يقين وبينة بأنه تعالى فى كل أحكامه وتصرفاته فى جميع مخلوقاته قائم بالقسط ومتصف بصفات الكمال وأنه لا إله إلا هو لا شريك له ولا معبود سواه العزيز فى ملكه وسلطانه الحكيم فى تصرفاته وأحكامه . وعلى أساس هذه الشهادات القائمة من الله والملائكة وأولى العلم طالب الرسول المؤمنين بالنطق بلفظ الشهادة بحيث تكون معبرة عن ثقة ويقين تام فى القلب وإلا فإنها لا تعد شهادة فى الواقع ونفس الأمر .

ولما كان الرسول صلى الله عليه وسلم إنما أمر أن يحكم بالظواهر فقد اكتفى من الناس بمجرد النطق بها وأحال أمر مؤاخذة من لم يكن صادقاً فيها إلى الله العالم بالسرائر . ودعاهم إلى الإقرار بأن « لا إله إلا الله محمد رسول الله » هذه الكلمة الدالة على كمال توحيد الله بحيث لا يكون لمحمد معه غير حق الرسالة فقط وهو الأمر الذى جاءت به جميع الرسل السابقين . وهو الاعتقاد الذى يسلم به العقل ويدعو إليه الوجدان .

فما من شك أن من يتأمل فى هذه الموجودات الظاهرة والخفية لا يسعه إلا أن يؤمن بأنه لا يمكن أن توجد عفواً من تلقاء نفسها بل لا بد أن تكون من صنع إله مدبر حكيم خلق الخلق ووضع لكل شىء نظاماً لا يخطىء وأن مثل هذا الخلق العظيم

(١) الأنعام : ١٩ .
(٢) آل عمران : ١٨ .

وهذا النظام الدقيق لا يمكن أن يصدر إلا من حى قادر قوى مريد سميع بصير اتصف بكل صفة يقتضيها هذا الخلق وهذا الوجود بأسره وأنه لذلك يجب أن يفرد وحده سبحانه وتعالى بالعبادة . ومن الضلال أن يلجأ إلى غيره أو يرتجى الخير من سواه . بل هو الإله الذى تحس النفس بفطرتها بحاجتها إليه فتدعوه عند الشدائد لتفريج الكرب ونيل الغايات .

بل هو الإله الذى يقر بعظمته ويدل عليه كل مخلوق وكائن « يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير[١] ومن أجل هذا كان التوحيد هو الحجر الأساسى من أركان الإسلام الذى بدأ الرسول دعوة أهل الكتاب إلى اجتماع الكلمة حوله بأمر من الله حيث قال تعالى : «قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون[٢] » وإنما خص الله أهل الكتاب بالدعوة فى هذه الآية لأنهم جميعاً متفقون على أنه لا بد لهذا العالم من خالق عظيم ومدبر حكيم هو الله ولذلك طلب منهم جميعاً أن يتفقوا على أمور ثلاثة :

١ — عبادة الله تعالى . ٢ — تجنب الشرك .

٣ — عدم الاعتراف لغير الله بسلطان .

عبادة الله تعالى

القسم الأول : أن لا نعبد إلا الله — وهذا يقتضينا أن نفهم أولا معنى العبادة التى قال الله تعالى عنها : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون[٣] » وهى فى اللغة مشتقة من العبودية بمعنى الاسترقاق ومقتضاه عند العرب أن يسخر العبد كل جهوده وقواه فى العمل بما يرضى الله ويلجأ إليه فى كل ما هو فى حاجة إليه ، ويراد بها فى الشرع فعل العبد ما أمر الله به بقصد التقرب منه ، وطلب العبد من الله وحده كل حاجاته . وحيث أن الله سبحانه وتعالى قد أمر العباد بالعمل فى الحياة لطلب الرزق والنفقة على الأهل وفى أوجه الخير كما أمرهم بالأخذ بأسباب القوة والاستعداد للحرب

---

(١) التغابن : ١ (٢) آل عمران : ٦٥ .

(٣) الذاريات : ٥٦ .

لإعلاء كلمة الله والذود عن بيضة الإسلام ونصرة المسلمين وحماية أوطانهم ، كما أمرهم بالعدل والإحسان وعمل الصالحات والانتهاء عن المنكرات ، كما أمرهم بالصلاة والزكاة والصوم والحج فقد اعتبر الإسلام جميع أعمال الإنسان المشروعة فى الحياة من أكل وشرب وتجارة وزراعة وصناعة واختراع كلها عبادة له يؤجر عليها الله إذا قصد بها طاعة الله والتمتع بنعمه وابتغاء رضاه حتى إن الرسول صلى الله عليه وسلم اعتبر متعة الرجل بزوجه عبادة يؤجر عليها المرء إذ روى عنه قوله : « إن فى بضع أحدكم لأجرا » قيل يارسول الله أيجد الرجل شهوته ويكون له أجر فقال : « ألم يكن عليه وزر إذا هو وضعها فى الحرام» قالوا بلى ؟ قال : « كذلك إذا وضعها فى الحلال له أجر » .

ومن أجل هذا كان خلوص العمل شرطاً أساسياً لاعتباره عبادة وكان طلب العبد من مولاه ما هو فى حاجة إليه من أهم العبادات ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « الدعاء مخ العبادة » وفى رواية : « الدعاء هوالعبادة » وتلا قوله تعالى : « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم » وليس المراد من الدعاء مجرد طلب الأشياء من الله باللسان فحسب ، بل المراد به حقيقته وهو أن يكون صادراً عن القلب معبراً عن الحاجة إلى من يملك إعطاء تلك الحاجة وهو أعم من أن يكون باللسان أو الفعل متى كان يقصد طاعة الله أو التقرب إليه ونيل الأجر منه كالسعى لكسب الرزق والنذر والذبح وأنواع الصدقات وهو بهذا ينطوى على معان سامية هى لب لباب الإسلام وهى :

١ — معرفة الله بوصفه رباً خالقاً لجميع الموجودات متصرفاً فى جميع الكائنات متصفاً بصفات الكمال فلولم تحصل هذه المعرفة لا يمكن أن يوجه إليه الدعاء ؛ لأن الدعاء لا يوجه إلى مجهول .

٢ — العلم واليقين بوحدانية الله وأنه تعالى النافع الضار الذى يملك العطاء والنجدة فلا يصح توجيه الدعاء إلى غيره ولا يستحق العبادة أحد سواه ولولا ذلك لما وجه إليه الدعاء إذ أنه لا يطلب الشىء إلا ممن يملك إعطاءه ، وفى هذا يقول تعالى : « فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم[1] »

---

(١) محمد : ١٩ .

٣ — الشعور الذاتى بالضعف والحاجة والفقر إلى الله سبحانه ولو لم يكن المرء شاعراً بذلك لما تقدم إلى الله تعالى بالدعاء ، وهذا من شأنه إظهار التذلل والتزام الطاعة لما افترض ، والعمل على ما يقرب إليه من البر والإحسان وكل ما يفيد الإنسان . فلا غرو إذا ما كان الدعاء بهذا المعنى هو الركن الأساسى لجميع الديانات وهو الأمر الذى فطرت النفوس عليه ، بل هو الأمر الذى من أجله خلق الله الجن والإنس حيث يقول تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون[١] » أى ليدعونى نتيجة معرفتهم لى ليكونوا على صلة تامة بى ويؤمنوا بى فيطيعوا أمرى ويوقنوا بقدرتى وينتظروا منى تحقيق آمالهم وقد عقب الله تعالى على هذه الآية بقوله : « ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين[٢] » أى أن الله تعالى لم يخلقهم إلا للاتصال به عن طريق معرفته وتوحيده وطاعة أمره واجتناب نواهيه والاعتراف بالحاجة إليه ليمنحهم ما يشاؤون ، والله تعالى لم يرد منهم العمل لإيجاد أساس الرزق فهو الرزاق الذى يسره لعباده وتكفل لهم به وما عليهم إلا السعى لتناوله حيث يقول : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور[٣] » وما يريد منهم أن يقدموا لذاته شيئاً من العبادات ليعود عليه نفعها فهو ذو القوة المتين الذى خلق كل شىء فلا حاجة له إلى شىء منهم « فإن الله غنى عن العالمين[٤] » .

ومما يؤيد أن الدعاء مخ العبادة وأنه ركن أساسى فيها ما يأتى :

١ — أن جميع الأعمال التعبدية قائمة على أساس اللجوء إلى الله بصالح الأقوال والأعمال .

٢ — أن الله قد فسر الدعاء بالعبادة وأنذر المستكبرين عنه بنار جهنم حيث يقول : « ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين[٥] » « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين[٦] » .

---

(١) الذاريات : ٥٦ .
(٢) : . .
(٣) الملك : ١٥ .
(٤) آل عمران : ٩٧ .
(٥) الأعراف : ٥٤ — ٥٥ .
(٦) المؤمن : ٦٠ (داخرين) صاغرين أذلاء .

٣ — أن الله قد أخبرنا أن الدعاء هو السر الذى يربطنا به ولولاه ما اكترث بنا حيث يقول : « قل مايعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم[١] » .

٤ — إن النبى صلى الله عليه وسلم قد حض على الدعاء وبين مزاياه ودعانا إلى الثقة التامة بإجابة الله له حيث يقول « ادع الله وأنت موقن بالإجابة » .

٥ — إن الله قد حث على الدعاء وضمن إجابته فى مواضع كثيرة من القرآن منها قوله : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون[٢] » ومعنى هذا « وإذا سألك » أيها الرسول « عبادى » المعترفون بعبوديتهم لى الخاضعون لعظمتى وجلالى « عنى » أقريب أنا منهم أم بعيد ؟ « فإنى قريب » فأجبهم بأنى قريب منهم بما لى من كمال العلم والسلطان النافذ والهيمنة المطلقة على سائر الموجودات وجميع القوى الظاهرة والباطنة . البارزة والكامنة كالروح وأسرار الأثير والكهرباء « أجيب دعوة الداع » أى وقد أخذت على نفسى أننى أجيب دعوة كل ملتجئ إلى بدعوته ما لم يسأل بأثم أو قطيعة رحم « إذا دعان » أى خصنى بالدعاء مقراً بعجزه معترفا لى بالقدرة على تحقيق المطالب واثقاً من صدق وعدى وأنى لا أبخل بما عندى .

قال صلى الله عليه وسلم : « ادعوا ربكم وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه » « فليستجيبوا لى » فما عليهم إلا أن يبادروا بالدعاء الذى هو روح العبادة لما فيه من الدلالة على الشعور بالحاجة إلى الله تعالى والتعلق به ويطالبوننى بالإجابة ليبرهنوا بذلك على ثقتهم بتحقيق مطالبهم ومعرفتهم بى « وليؤمنوا بى » أى وليبرهنوا على إيمانهم حقاً بى بالإخلاص فى طاعتى والانقياد لأحكامى والتقرب إلىّ بصالح الأعمال « لعلهم » بذلك « يرشدون » يبلغون الرشد إذ يدركون مالى عليهم من حقوق الطاعة والإخلاص فى سائر الأعمال التى أمرتهم بها والتى هى هيكل جميع العبادات مقابل مامنحتهم من النعم وما تعهدت لهم به من إجابة الدعاء وفى هذا يقول تعالى : « وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ، إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم[٣] » .

(١) الفرقان : ٧٧ . (٢) البقرة : ١٨٦ . (٣) الأنفال : ٤١ .

تجنب الشرك

القسم الثانى من الأمور التى يجب أن نتفق عليها هو — ألا نشرك بالله شيئاً — لعدم قدرة غيره على ما يقدر هو عليه فلا نعبد غير الله ولا ندعو سواه فى الملمات ولا نعتقد أن لأحد مع الله أى سلطان أو تأثير حتى ولا ننسب لأنفسنا القدرة على فعل أى شىء أو تنفيذ أى فكرة خارجة عن نطاق سنن الله التى قضت بها المشيئة التى قدرها سبحانه وتعالى فلا نجزم فى سرنا بتحقيق مطالبنا إلا بمعونة الله تعالى بالنسبة لأن أرواحنا بين يديه وقدرتنا على فعل الأشياء محدودة ضمن ما يفسحه لنا من أجل وما يمنحه لنا من سلامة الأعضاء والقوى وفى هذا يقول تعالى : « ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله [١] » . ويقول تعالى : « ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن اشتركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين [٢] » .

لا سلطان إلا لله تعالى

القسم الثالث من الأمور التى يجب أن نجمع كلمتنا عليها هو — أن لا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله — أى لا نجعل لبشر علينا سيادة ولا سلطاناً كسيادة الله وسلطانه بحيث نطيعهم كطاعته ونحبهم مثل محبته أو نؤثر أوامرهم على ما جاءنا من عنده أو أن نسألهم غفران الذنوب أو إصلاح القلوب أو شفاء المرضى أو نطلب منهم مالا يقدر عليه إلا الله من تفريج الكروب وستر العيوب من الأشياء التى لا يستطيعها مخلوق فسؤال هذه الأشياء وطلبها من المخلوقات وطاعتهم فى معصية فاطر السموات والأرض هو من اتخاذها أرباباً من دون الله الذى حرمه وأوضح فى كتابه أنه كفر وشرك . روى عدى ابن حاتم الطائى قال : « جئت النبى صلى الله عليه وسلم وفى عنق صليب من ذهب

---

(١) الكهف : ٢٤ .

(٢) الزمر : ٦٥ .

قال : يا عدى أخرج عنك هذا الوثن « وتلا قوله : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » قلت يا رسول الله ما كنا نعبدهم فقال صلى الله عليه وسلم : « أما كانوا يحللون لكم ويحرمون فتأخذوا بأقوالهم ؟ قلت نعم قال : هو ذاك » أى أن إطاعتهم فيما يحلون ويحرمون هو اتخاذهم أرباباً من دون الله وقد ختم الله الآية الكريمة بقوله (فإن تولوا) عن هذه الدعوة . وأبوا إلا أن يعبدوا غير الله يحبونهم كحب الله ويلجأون إليهم فى الشدائد ويدعونهم لقضاء الحاجات ويطيعونهم من دون الله ويسألونهم غفران الذنوب « فقولوا » لهم : « اشهدوا بأنا مسلمون » نعبد الله وحده مخلصين له الدين لا ندعو غيره ولا نتوجه إلى سواه ولا نعتقد فى غيره النفع أو الضرر ولا نحل إلا ما أحل ولا نحرم إلا ما حرم وأنتم معشر أهل الكتاب كفار إذا أبيتم عن الإجابة إلى عبادة الله وحده وترك الشرك به . وترك اتخاذ الأرباب من دون الله « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين [1] » .

الاحتراس من الشرك

ولا شك أن هذه الأسس ما هى إلا لتقرير توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية بأدق معانيها وهى التى جاء بها جميع الأنبياء والمرسلين من عند الله لتحرير البشر من العبودية ومن الخضوع لغير الله ولتغرس فى قلوبهم روح الشجاعة والعزة وتقضى على ما بينهم من أسباب التخالف والتنازع والتنافر لتحل محلها المحبة والألفة والأخوة الصادقة باتحادهم فى الغاية وسبيل العمل لرضاء الله وحده وابتغاء رحمته ومعونته دون سواه وبالنظر لما ابتدعه القساوسة والرهبان فى الأديان السابقة من تقديس الأنبياء وزعمهم أن الأنبياء أبناء الله وأن لهم معه شيء من السلطان ، أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أنه بشر كسائر البشر وأنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ونهى المؤمنين أن يبالغوا فى

(١) الأنعام : ١٦٢ — ١٦٣ .

مدحه أوجبه بما يرفعه عن درجة العبودية إلى مستوى الإله جل وعلا ، ولذلك أوجب عليهم عند الإقرار بالشهادة بألوهية الله أن يشهدوا أن محمدا رسول الله ليأمن من ضلال اتباعه والوقوع فيما وقع فيه غيرهم من تأليهه والتعلق به من دون الله .

على أن بعض الجهلاء راحوا يقدسون النبي وآله وصلحاءهم الميتين زاعمين أن لهم عند الله من القرب ما يجعلهم قادرين على تحقيق الآمال وتفريج الكربات وأن الله قد منحهم حق التصرف فى الكائنات ومنهم من يقول أن الالتجاء إلى هؤلاء ودعاءهم فى الشدائد والملمات ماهو إلا وسيلة للتقرب إلى الله لأن لهم من المكانة عنده ما يؤهلهم للشفاعة لديه لمن يشاءون ويستطيعون بحكم هذه الصلة مع الله أن يرفعوا العذاب عمن يريدون إلى غير ذلك من الترهات . ويزعمون أن الدعاء ليس بعبادة إذ العبادة فى نظرهم هى الأعمال التعبدية فقط وقد أوضحنا خطأ ذلك فى أول هذا البحث وجاء القرآن صريحاً فى الرد على هذه العقيدة بقوله : « والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم[1] » وهذا يدل على أن الأموات مهما كانت درجتهم عند الله لا يملكون نفعاً ولا ضراً وأن دعاء كل ما عدا الله من غائب أو ميت شرك بالله يكفر به المدعو يوم القيامة ويبرأ منه ومن فعله غير أن ذلك النفر يأبى إلا أن يكابر فى الحق ويأبى إلا أن يحض الناس على دعاء الأنبياء والصالحين بعد مماتهم والاستعانة بهم وفريق من هؤلاء يتدرجون من هذا إلى إلحاق أنفسهم بهم باعتبارهم من العلماء ورثة الأنبياء وخلفاء الأولياء . ويثبتون لأنفسهم تلك المزايا ويتحكمون فى رقاب العباد ويغرسون حبهم من دون الله فى قلوب الناس لينالوا منهم من حطام الدنيا ما يريدون . ويمنحوهم لقاءه شيئاً من المدد والبركة وإن شئت فقل الرحمة والغفران وقضاء الحوائج ومنع العدوان . إما عن طريق الدعاء لهم أو إعطائهم شيئاً من التمائم والآثار .

---

(١) فاطر : ١٣ .

ماينافى التوحيد

ولقد بلغ من تأثير عملهم هذا فى الناس أن أصبح العوام والسذج يذكرون الأنبياء والصالحين فى الملمات والنوازل قبل أن يذكروا اسم الله ويسألونهم المدد والقوة ويضجون حول أضرحتهم بالدعاء وينذرون النذور ويذبحون الذبائح لهم حتى صدق قول الله تعالى : « وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون[١] »

ولئن سألتهم ما الذى حملكم على هذا ؟ قالوا إن هؤلاء وسيلتنا إلى الله وهم الذين يقربوننا إليه تعالى . وهذا ما كان يقوله كفار قريش ومن ضاهاهم فقد اعترفوا بأن الله هو الخالق الرازق النافع الضار المدبر للأمور المنزل للمطر إلى غير ذلك من أفعاله سبحانه وتعالى كما قال تعالى فى محكم التنزيل آمرا نبيه صلى الله عليه وسلم أن يسألهم عن ذلك بقوله : « قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون[٢] » وقال تعالى : « قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون[٣] » بل لقد تمادى هؤلاء الآن فى الضلال إلى حد لم يبلغه كفار قريش من قبل ،ذلك أنهم أصبحوا لا يثقون بالله تعالى أنه هو الذى يجير ولا يجار عليه وأنه تعالى هو المعطى المانع الذى يوزع بين عباده الرزق كما يشاء بل هم يعتمدون على الوسطاء أكثر من اعتمادهم على الله خالقهم ولذلك لم يفكروا فى اللجوء إليه وطلب المعونة منه جل وعلا رغم ما هم فيه من بلاء وما أصابهم من مصائب وويلات .

أما كفار قريش فعلى العكس من ذلك كانوا يثقون بالله وحده وأنه هو الذى يجير ولا يجار عليه وكانوا يلجئون إليه فى الشدائد بالدعاء كما شهد الله بذلك فى القرآن حيث قال : « وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر

---

(١) الزمر : ٤٥ .
(٢) يونس : ٣١ .
(٣) المؤمنون : ٨٨ — ٨٩ .

فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور[١] » إلى أمثال ذلك من الآيات الدالة على اعتراف المشركين فى زمن النبى -لى الله عليه وسلم باستقلال الله بالضر والنفع والخلق والرزق وغير ذلك من أفعال الربوبية ومع ذلك لم يدخلوا الإسلام لشركهم بالله سبحانه وتعالى وذلك باتخاذ الوسائط بينهم وبين الله من الملائكة والأنبياء والصالحين والأشجار والأحجار يدعونهم ويذبحون لهم ويسألونهم قضاء الحوائج وتفريج الكربات زاعمين أنهم وسائط فى ذلك بينهم وبين الله وأنهم يشفعون لهم ويقربونهم لديه زلفى . كما قال الله سبحانه وتعالى حاكياً عنهم .

« ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون[٢] » وقال تعالى « فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار[٣] » وهذه الآيات صريحة فى أن الدعاء لا يكون إلا لله وأن أولئك الذين يلجئون إلى غيره من الأنبياء والمرسلين والأولياء ويقولون أنهم لا يلجئون إليهم إلا ليقربوهم إلى الله زلفى سوف يحكم الله بينهم فيما اختلفوا فيه يوم الدين لأن الله لا يهدى من يفترى عليه الكذب ليضل عن سبيله فيكون بذلك أشد كفراً وقال تعالى فى آية أخرى تعريضاً بأمثال هؤلاء : « أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون[٤] » فالله سبحانه وتعالى يأمر نبيه أن يرد على أولئك الطامعين فى شفاعة معبوداتهم بما معناه : هل تصرون على الأمل فى شفاعتهم ولو كانوا لا يملكون هذه الشفاعة ولا يملكون شيئاً من أمر أنفسهم ، بل إنهم بأنفسهم مفتقرون إلى رحمة الله إذ الشفاعة حق من الحقوق التى اختص الله بها نفسه فلا يمنحها إلا لمن يشاء فى حق من يرضى عنه من عباده وقال تعالى : « وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى[٥] » « يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون[٦] »

---

(١) لقمان : ٣٢ .
(٢) يونس : ١٨ .
(٣) الزمر : ٣ .
(٤) الزمر : ٤٣ .
(٥) النجم : ٢٦ .
(٦) يونس : ٣ .

ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يحرص كل الحرص على أن يربى أمته على الوثوق بالله والتعرف إليه والابتعاد عن كل مايؤدى إلى الشرك به أو يفهم منه إثبات النفع أو الضر لغير الله الواحد القهار ؛ فقد جاءه رجل يوما وقال : « ماشاء الله وشئت » فقال صلى الله عليه وسلم : « أجعلتنى لله ندا ؟.. » .

الاستسلام للأوهام

وكان النبى صلى الله عليه وسلم لايقر البدع والخرافات والتأثر بالأوهام ، ويأبى إلا أن ينتشل المؤمنين من رق العبودية والخضوع لغير الله ، ويبث فى النفوس قوة العزيمة وسمو المقصد ؛ ومن أجل هذا نهى صلى الله عليه وسلم عن الطيرة وهى عبارة عن التشاؤم ببعض الأشياء والحوادث فقال : « من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك » وقال أيضاً : « احرص على ماينفعك واستعن بالله ولاتعجزن وإن أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت كذا وكذا لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وماشاء فعل ؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان » . ورأى رجلا فى يده حلقة من صفر فقال ماهذه ؟ قال من الواهنة ؛ فقال : انزعها عنك فإنها لاتزيدك إلا وهنا وإنك لو مت وهى عليك ما أفلحت أبداً » والواهنة مرض يأخذ بالعضد — وروى عنه صلى الله عليه وسلم : « من علق تميمة فلا أتم الله له ومن علق ودعة فلا أودع الله له » . وفى رواية : « من علق تميمة فقد أشرك » وعن حذيفة أنه رأى رجلا فى يده خيط من الحمى فقطعه وتلا قوله تعالى : « وما يؤمن أكثرهم بالله ألا وهم مشركون[1] » . وقد نهى عليه الصلاة والسلام عن العكوف عند قبور الصالحين بقصد عبادة الله فكيف بمن يوجه الدعاء إلى أصحاب تلك القبور فيعبدهم بذلك من دون الله ؛ فقد روى فى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها « أن أم سلمة ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأتها بالحبشة وما فيها من الصور . فقال : إن أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور ؛ أولئك شر الخلق عند الله » وما كانوا من شرار الخلق إلا لأنهم سنوا لمن بعدهم سنة بناء التوابيت

---

(١) يوسف : ١٠٦ .

عند قبور الصالحين حتى أفضى بهم الأمر إلى عبادتها وها نحن نرى اليوم من حالة المسلمين واقتفائهم لأثر أولئك القوم فى بناء المساجد حول قبور الصالحين واللجوء إليهم فى الملمات ونذر النذور لهم وذبح الذبائح والقرابين قربة إليهم ما يضاهى عمل الجاهلية الذى ينافى الإيمان ويعد شركا والعياذ بالله .

إقامة الصلاة

الصلاة ركن أساسى لعبادة الله فى جميع الديانات التى جاء بها الرسل من عند الله بصور مختلفة الأوضاع فى الظاهر ولكنها متفقة فى جوهرها الذى هو الدعاء من إذعان بالربوبية لإله يملك معونة المستعين ويقدر على قضاء حوائج الراجين ومن أجل هذا كان الدعاء فى ذاته عبادة لله جزاؤها منه سبحانه وتعالى الاستجابة لدعاء كل داع من عباده المؤمنين ما دام قد وجه الدعاء إلى رب معبود ولا رب سواه ، وفى هذا يقول تعالى « قل ادعوا الله أوادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى[١] » وقد استجاب الله دعاء إبليس رأس العصاة حيث قال « انظرنى إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين[٢] » مع أنه سبحانه وتعالى يعلم بمراد إبليس من ذلك الإنظار ويعلم مدى عناده ورغبته فى فتنة عباده التى تجلت فى قوله بعد ذلك قال « فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين[٣] » وأمام هذا التحدى الصارخ من إبليس اللعين أجابه الله تعالى بقوله « قال فاذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا واستفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا[٤] » وقال الله « ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووارى عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أوتكونا من الخالدين وقاسمهما إنى لكما من الناصحين فدلاهما

---

(١) الإسراء : ١١٠ .
(٢) الأعراف : ١١٤ - ١١٥ .
(٣) الأعراف : ١٦ .
(٤) الإسراء : ٦٣ — ٦٥ .

بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين — قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون[1] » .

ومن أجل هذا جعل الله من اعتراف آدم وحواء بالظلم وطلبهما للغفران والرحمة سبيلا إلى الخلاص من الخسران والعذاب وفتح لعباده باب الدعاء على مصراعيه ووعدهم بإجابة الدعاء ليكون وسيلة إلى دوام ذكره والتعلق به والرجوع إليه فى السر والجهر فيكونوا من عباده المطيعين لأوامره فلا يجد الشيطان سبيلا ولا سلطانا له عليهم . فالدعاء بمثابة سلاح فى يد المؤمن يتقى به فتنة الشيطان وعذاب الله وفى هذا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (هل أدلكم على ماينجيكم من عدوكم ويدر عليكم أرزاقكم تدعون الله فى ليلكم ونهاركم فإن الدعاء سلاح المؤمن) ذلك لأن الدعاء معناه الثقة بقدرته على المعونة والإيمان بصدق وعده وهذا ما يحمل المؤمن على العمل فى الحياة واثقاً ببلوغ الغاية ولهذا قال عنه صلى الله عليه وسلم (الدعاء مخ العبادة) ولما كانت العبادة فى الإسلام كما أسلفنا هى كل عمل صالح مشروع أريد به وجه الله قال صلى الله عليه وسلم (الدعاء هو العبادة) وتلا قوله تعالى « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين[2] » ولدوام الصلة بين الله وعباده عن طريق الدعاء فرضه الله عليهم فى الصلاة فى اليوم والليلة خمس مرات بينها لهم الإسلام وجعل الزيادة منه سنة وقربة إليه تعالى لما فيه من الذكر الذى دعا إليه سبحانه بقوله « فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون[3] » وفرض عليهم الصلاة على هيئة خاصة تبدأ بالتكبير وتنتهى بالتسليم ويدل مظهرها على منتهى الخضوع والطاعة وتعبر عن الإحساس بالحاجة إلى المعبود وشعور النفس بعظمة الله وسلطانه وقال صلى الله عليه وسلم (صلوا كما رأيتمونى أصلى) ونبهنا إلى ضرورة ملاحظة أن قيمة هذه الهيئة ليست لذاتها باعتبارها مجرد أقوال وأعمال ظاهرة فحسب بل لابد أن تكون منبعثة

(١) الأعراف : ١٩ — ٢٥ . (٢) المؤمن : ٦٠ .
(٣) البقرة : ١٥٢ .

عن القلب معبرة عما يخالج النفس من إيمان بالله وخوف منه ورجاء لما عنده وحتى تكون عبادة بالمعنى الصحيح روحها الدعاء وشواهدها أعمال الجوارح ولذلك قال تعالى يقيمون الصلاة ولم يقل يصلون والفرق بين التعبيرين أن الصلاة متى أطلقت انصرفت إلى تلك الكيفية المخصوصة فيقال لمن أداها أنه صلى ؛ وإن كان عمله خلوا من المعنى المقصود منها الذى هو قوامها وهو ما يعبر عنه القرآن فى كل موضع بلفظ (الإقامة) وقوام الصلاة الذى يحصل بالإقامة إنما هو روحها وهو التوجه إلى الله تعالى بالنفس والبدن توجها يجعله يشعر بعظمة الله الذى أمره أن يتمثل بين يديه بتلك العبادة فيخشع قلبه وتخضع جوارحه ويتدبر ويفقه معنى ما يوجهه لله من عبارات الحمد والتحيات ويعلم ويقصد مايرفعه من خالص الدعوات ويبادر إلى الصلاة باعتبارها عبادة تفضل الله بها على عباده حيث يقفون بين يديه كل يوم خمس مرات وشرط عليهم أن يتوجهوا إليه بقلوبهم وإلى بيته الحرام بأجسامهم مع حضور القلب وخشوع الجوارح وفى شكل مخصوص وحالة واحدة من الطهارة وستر العورة وأن يرتلوا خلال ذلك بعضا من الآيات والأدعية التى أكد الله لهم سبحانه بأن الاستمرار عليها من شأنه أن يحكم الصلة بينهم وبينه . حيث يقول صلى الله عليه وسلم (إن أحدكم إذا كان فى الصلاة فإن الله قبل وجهه وإن أحدكم إذا كان فى صلاته فإنه يناجى ربه ، وإن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، ولا يزال الله مقبلا على العبد وهو فى صلاته مالم يلتفت فإذا صرف وجهه انصرف عنه) .

ولهذا يبالغ المسلم فى مناجاة ربه والاستمداد من روحانيته وإمداداته ويكتمل وصله ببارى الأرض والسموات وبتكرر هذه العبادة فى اليوم خمس مرات تزيد النفس حباً لله وتعلقاً به وخشية من عقابه ويشعر الإنسان بالخجل يعتريه إذا هو وقف موقفاً لا يرضى الله ولا يسعه إلا أن ينصرف بكليته إلى ما يقربه إلى مولاه فيراقب الله فى سره ويتصوره مطلعا على جميع حركاته وسكناته فيمتنع عن جميع المحرمات ويحرص على الطاعات ويتجلى معنى قوله تعالى « أقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وما وصف به تعالى المصلين بأنهم أولئك الذين سمت نفوسهم عن طبيعتها البشرية إلى حقيقتها الروحية فلم تحفل بما يصيب البدن من آلام ومتع لما تجده من لذة القرب من الله والرضاء بأحكامه والعمل على مرضاته حيث يقول تعالى

(ان الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون[١] » ومعنى هذا أن من حافظ على الصلاة كان شجاعا كريماً قوى الإرادة ماضى العزيمة لا يرضى بالضيم ولا يخاف فى سبيل الحق العذل واللوم لأنه بمراقبة الله واستشعار عظمته وسلطانه فى الصلاة يتغلب عليه حب الله فلا يبالى بما يناله من الشدائد فى سبيله ويسترخص كل ما ينفقه من الأموال من أجل مرضاته ، وتقوى ثقته بالله فتنفر نفسه عن إتيان الفواحش وتستنير بصيرته فيكون أقوى نفاذا فى الحق وأشد بعدا عن الأهواء وعندئذ يبادله الله جل وعلا حباً بحب وقرباً بقرب وفقاً لقوله تعالى فى الحديث القدسى « ما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه وما زال يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها وإن سألنى لأعطينه وإن استعاننى لأعيننه » .

ولقد أمرنا الله بأن نستعين بالصلاة على إرجاع النفوس إلى الله وانتظار الخير منه حيث قال « يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين[٢] » . أما مجرد الصلاة التى تخلو من تلك الروح فإنه لا يصدق على المصلى أنه أقامها ولذلك توعد الله الذين يأتونها مع السهو عن المعنى المقصود منها بقوله « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون[٣] » . ولقد سمى الله هؤلاء مصلين لأنهم أتوا بصورة الصلاة ولكنه بدلا من أن يؤجرهم عليها توعدهم بالويل والعذاب لأنهم كانوا عن حقيقة الصلاة ساهين وقلوبهم منصرفة عما يقولون وما يفعلون فهم إذ يرتلون الآيات ويوجهون الدعوات يسردونها سرداً دون أن يكونوا قاصدين لمعانيها أو متدبرين لما يراد بها فمثلهم فى ذلك كمثل الببغاء يحكى مايسمع ولا يقصد شيئاً مما تحدث به وهم إذ يركعون ويسجدون إنما يفعلون حركات معتادة تشبه الخطوات التى يخطونها فى الطريق دون أن يكونوا قاصدين بها الغاية التى فرضت تلك الحركات من أجلها من الوقوف بين يدى الله بخشوع وخضوع وذل وانكسار .

---

(١) المعارج : ١٩ — ٢٣ .
(٢) البقرة : ١٥٤ .
(٣) الماعون : ٤ — ٧ .

فمثله كمثل ذلك الطفل الذى يقف أمام الملك وهو لا يشعر بمكانته فيأتى من الأعمال ما لا يتفق مع جلال الملك وعلى العموم فإن هذه الصلاة بشكلها الظاهر إذا لم تكن معبرة عن حقيقة ما فى الباطن ولم يكن المصلى مراقباً جلال الله فيها فإنها قد تكون سيئة من السيئات لا حسنة من الحسنات فما يكون لأحد أن يخاطب مليكه وهو لاه عنه متوجه ومنصرف إلى سواه وفى هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (رب مصل لا يناله من صلاته غير التعب والنصب) .

قد يقول قائل : إن حضور القلب فى جميع أجزاء الصلاة واستشعار الخشية من أصعب ماتتجشمه النفس ، بل يكاد يكون مستحيلا لغلبة الخواطر على ذهن المصلى ، وهذا وهم باطل منشؤه عدم الإقدام على الصلاة بما تستحقه من رغبة وعناية وإلا فإن الأمر لا يكلف المصلى إلا أن يستورد فى ذهنه معنى كل لفظ ينطق به وكل حركة يقوم بها ، وبالتكرار يصبح الخشوع عادة وحضور القلب سجية ، والله سبحانه وتعالى لا يؤاخذ على الفلتات والهفوات ولا يكلف نفساً إلا وسعها .

وبهذا يدخل المؤمن ضمن من شهد الله لهم بالفلاح فى قوله : « قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى » وقوله : « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون[1] » .

إيتاء الزكاة

لقد فطرت النفوس على حب المال والتهافت على جمعه والحرص على اكتنازه حتى أطلق عليه معبود الجماهير ، فما من إنسان فى الوجود صغيراً كان أو كبيراً رجلا أو امرأة إلا عشقه وتغالى فى حبه وضحى بالكثير من وقته وجهده فى سبيل الحصول عليه . وما هو فى الواقع إلا نعمة من النعم التى جعلها الله وسيلة لتبادل المصالح وقضاء الحوائج فى هذه الحياة ، وقد شرع الله العمل ليكون وسيلة للتنافس فى كسبه وتنفيذ ماقضت به مشيئته تعالى من تفاوت درجات الناس فى الغنى والفقر فى هذه الحياة حيث يقول تعالى : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا

---

(١) المؤمنون : ١ ٣ .

بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياورحمة ربك خير مما يجمعون[١]» .

أما أساس الرزق الذى به قوام الحياة والذى لاغنى لكل حى عنه كى يعيش المدة المحدودة له ، فذلك ما تكفل الله تعالى به حيث يقول : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين[٢]» ويقول : « وفى السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون[٣] » فإذا أمكن لإنسان أن يشك فى نطقه وهو ناطق فله أن يشك فى رزقه وهو مرزوق ذلك لأن الله تعالى الذى خلق الإنسان قد خلق جميع ما يحتاج إليه من مقومات صلبه وضمان ملذاته وإنما طلب الله منه شيئاً واحداً فقط هو أن يسعى فى الأرض باحثاً عن ذلك الرزق المقرر له لينالة حيث يقول تعالى : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور[٤] » .

هذه حقيقة يأمرنا الإسلام أن نثق بها ونتكل على وعد الله فيها حيث يقول تعالى : « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين[٥] » ومعنى هذا أن نجزم فى سرنا بأن الرزق من عند الله فلا يداخلنا أى شك فيه ولا نيأس من الوصول إليه وعلينا أن نعمل ونعمل بجد للحصول عليه بعزيمة لا تعرف الكلل أو اليأس . إذ القصور فى هذا الباب يتنافى مع الثقة بالله والاتكال عليه ويؤدى إلى الحرمان حيث يقول تعالى « الذى جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلا ونزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى[٦] » .

ولقد فسر لنا الرسول صلى الله عليه وسلم معنى التوكل بعكس مايتصوره بعض الجهلة من البطالة والكسل حيث يقول «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا » أى أن المراد منه العمل اليومى المستمر شأن الإنسان فى ذلك كشأن سائر الطيور التى تخرج من مواضعها كل يوم فى طلب رزقها وهى لاتعلم أين تجده ، فمنها مايهتدى إليه على بعد متر ومنها مالا تجده إلا على بعد مئات الأميال ، وقد روى

---

(١) الزخرف : ٣٢ .
(٢) هود : ٦ .
(٣) الذاريات : ٢٢ — ٢٣ .
(٤) الملك : ٦ (ذلولا) سهلة للمشى فيها .
(٥) المائدة : ٢٦ .
(٦) طه : ٥٣ — ٥٤ .

عن عمر رضى الله عنه أنه قال « لو أوصى رجل بمال للمتوكلين على الله لصرفته إلى الزراع لأنهم المتوكلون حقيقة على ربهم » .

ولقد قضت سنة الله فى خلقه بأن العمل سبيل الرزق ولن تجد لسنة الله تبديلا وجعل الله فى ميدان العمل سبيلا لزيادة الثروة ولقد نبهنا الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم إلى ضرورة استغلال الأرض بشتى الوسائل كإحياء مواتها بالزرع والتعمير واستخراج ما تكنه فى طياتها من المعادن على اختلاف أنواعها كالذهب الأصفر والأسود والملح والرصاص وغير ذلك مما هو دفين فيها من أموال الأمم السابقة وما يسمى فى عرف هذا العصر بالآثار وسماه الرسول صلى الله عليه وسلم بالركاز وواجب فيه الخمس ، ولما كانت الثروة مهما تضخمت وعظمت لا تفيد الإنسان فى الحياة بأكثر مما يحتاج إليه مهما اختلفت الحاجات وتنوعت المطالب ولابد للإنسان أن يموت ويترك ما فضل من أمواله دون انتفاع منها إلى غيره ، فقد أرشدنا الله إلى طرق الاستفادة بهذه الأموال لبلوغ أقصى الدرجات فى الحياة وبعد الممات بما دعانا إليه من عدة أمور نلخص منها ما يأتى :

١ — استثماره فى مصالح العباد وخير الإنسانية وكل مافيه عمار الكون من صناعة وتجارة وزراعة واختراع لما فيه نفع البشر وتسهيل سبل المواصلات والترفية عن عباد الله بشتى الوسائل . فكل ذلك مما يجلب رضاء الله ومحبته حيث يقول تعالى « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله[1] » ويقول أيضاً « ضرب الله مثلا عبداً مملوكا لا يقدر على شىء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون ، الحمد لله بل أكثرهم لايعلمون ، وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لايقدر على شىء وهو كَلّ على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم[2] » .

٢ — الإنفاق منه عن طريق الإحسان والقرض وما أشبه من مساعدة البائسين وتفريج كرب المحتاجين ومعاونة العمال العاطلين إلى غير ذلك من أوجه البر والإحسان حيث يقول « لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف

---

(١) التوبة : ١٢٦ . (٢) النحل ١٧٥ - ١٧٦ . (كل) ثقيل

أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيما[١] » ويقول « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وأتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون[٢] » ويقول « فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم[٣] » .

٣ — عدم الاستئثار بالمال الذى يحصل عليه الإنسان فى دنياه لأنه فى الواقع لم يخرج عن كونه فى الأساس من رزق الله الموجد له والذى لم يكن للمرء فيه إلا مجرد السعى لاكتشافه أو التفكير فى وسائل تحصيله فيجب على الإنسان ألا يبخل به فى المشاريع العامة كالمصحات ودور اليتامى وما أشبه حيث يقول تعالى « آمنوا بالله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير[٤] » .

ولما كان من العزيز على الإنسان أن يخرج المال الذى تعب وكد من أجل الحصول عليه أوجب الله حقوقا معينة على كل ذى مال كثير لأصناف ثمانية ذكرها الله فى القرآن ليكون الصرف فيها صرفا فى المصالح العامة وهذه هى التى تسمى (بالزكاة) وأمر الله رسوله عليه الصلاة والسلام باستحصالها من المسلمين بالقوة حيث قال « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها[٥] » ومعنى هذه الآية أنه يجب على الحاكم أن يستحصل من أرباب الأموال على اختلاف أنواعها شيئاً بقصد التقرب إلى الله لأجل أن يطهرهم من دنس البخل والطمع والدناءة والقسوة على الفقراء والبائسين حتى يستسيغوا الإنفاق ويتعودوا على الإحسان فتزكو نفوسهم وتسمو غايتهم ويجدوا اللذة فى فعل الخيرات ومساعدة ذوى الحاجات ، ودعا الله عباده إلى إخراج هذه الزكاة عن طيب نفس ورغبة فى فعل الخير حيث قال « ياأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات

---

(١) النساء : ١١٤ . (نجواهم) ما يتحدثون به
(٢) البقرة : ١٧٧ . (البأساء) شدة الفقر (الضراء) المرض
(٣) الطلاق : ١٦ — ١٧ .
(٤) الحديد : ٧ .
(٥) التوبة : ١٠٤ .

ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد[١] » وقال « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم[٢] » وقال « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم[٣] » وقال « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير[٤] » وقال « قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال[٥] » إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى تدعو إلى البذل والإحسان إلى الناس بالقرض والبر والصدقة الدائمة والصدقة المؤقتة والهدية وكلما يكون سبباً لتقوية روابط الأخوة بين الأفراد والجماعات .

صوم رمضان

إن من يتأمل فى قصة خلق آدم وحواء وخروجهما من الجنة يجد أن شهوة البطن قد كانت هى أولى الشهوات التى سببت لهما كل ما حاق بهما حيث نهاهما ربهما عن الأكل من الشجرة فغلبتهما شهوة الأكل من الطعام الممنوع فأكلا منه فبدت لهما سوآتهما وتبع ذلك شهوة الجسم وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة .

وهكذا أصبحت شهوة البطن مصدر الشهوات ومبعث الأدواء والآفات ويتبعها شهوة النكاح ثم الرغبة فى المال والجاه ومن هنا تتولد أنواع المفاسد والمنافسات وينشأ الحسد والكبرياء والعداوة والبغضاء إلى غير ذلك من السيئات التى يحركها إبليس فى نفس الإنسان ولا سبيل إلى مقاومته إلا عن طريق الجوع .

ولهذا عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على تربية قومه على التقليل من الأطعمة لأن ذلك من شأنه أن يحدد القوى ويضعف الشهوات التى تنشأ عنها المعاصى . فكان

---

(١) البقرة : ٢٦٧ . (تغمضوا فيه) تتساهلوا وتغضوا البصر عنه
(٢) آل عمران : ٩٢ . (٣) المعارج : ٢٤ — ٢٥ .
(٤) البقرة : ٢٦٥ . (٥) إبراهيم : ٣١ خلال مخالة وصداقة

يقول « بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه » ويقول « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا جعنا لا نشبع » وفى حديث « إن الشيطان ليجرى فى الإنسان مجرى الدم فضيقوا عليه بالجوع » وفى حديث آخر « نور الحكمة الجوع ورأس الدين ترك الدنيا والقربة إلى الله حب المساكين والدنو منهم . والبعد عن الله الذى نقوى به على المعاصى هو الشبع فلا تشبعوا بطونكم فيطفأ نور الحكمة فى صدوركم فإن الحكمة تسطع فى القلب مثل السراج » .

وكان لهذه التعاليم أثرها الفعال فى نفوس المسلمين فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم حيث تغلبوا على الشهوات وانصرفوا إلى الطاعات وأنالهم الله أعلا الدرجات . وقالت عائشة — أول بدعة حدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الشبع فإن القوم لما شبعت بطونهم جمحت نفوسهم إلى هذه الدنيا — .

ولقد فرض الله على عباده الصوم فى جميع الديانات السابقة بطرق مختلفة وشرعه القرآن للمؤمنين بالطريقة التى هو عليها فى رمضان وأخبرنا بالغاية المرجوة منه وهى تقوى الله حيث يقول تعالى « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون [1] » .

وهل من تقوى أعظم من أن يراقب العبد ربه ويردع عن الشهوات نفسه ويحفظها ويخضعها لامتثال أمر مولاه يترك طعامه وشرابه حباً فى رضاه . وفى هذا أعظم معانى الجهاد للنفس بإذلالها وإشعارها بمبلغ ضعفها وشدة حاجتها إلى لقمة من الطعام تقيم أودها وشربة من الماء تتبلغ بها لتسكن إلى ربها وتخضع لعظمته فلا تتكبر عن عبادته وتتصور مقدار فضله عليها فتبالغ فى شكره وتذكر حالة الفقير فيزيد خوفها ويعظم عطفها على عباده فتكثر من الصدقات وتزيد فى الإيثار وتحسن كما أحسن الله إليها . وبذلك تسمو وترتفع وتكون مثلا أعلى للكمال الإنسانى والنفس العالية .

ومن أجل هذا لم يكن الصوم من العبادات الإيجابية التى تشاهد بخلاف غيره من العبادات التى يؤديها الإنسان ويطلع عليها الناس بل هو عمل سلبى فى الظاهر بالإمساك عن الطعام والشراب ولكنه لا يتحقق إلا بعمل إيجابى من ناحية القلب

---

(١) البقرة : ١٨٣ .

بالنية والصبر وكثرة المراقبة والتدبر والاتعاظ . ويصل الإنسان بصومه إلى مجموعة من الفضائل والمكرمات ويحصل على عظيم الأجر وأرفع الدرجات فهو بهذا الاعتبار من أفضل العبادات لبعده عن شائبة الرياء كما ورد فيه قوله عليه الصلاة والسلام « الصيام لا رياء فيه » قال الله « هو لى وأنا أجزى به يدع عبدى طعامه وشرابه من أجلى » .

وهو إلى جانب هذا من العبادات التى تقوم على دعائم الصبر وتشتمل على كل أنواعه فهو صبر على طاعة الله وصبر عن المحارم والشهوات وصبر على آلام الجوع والعطش وضعف النفس والبدن ولهذا كان يسمى الرسول صلى الله عليه وسلم رمضان شهر الصبر وورد عنه أنه قال « الصوم نصف الصبر » .

وقد امتدح الله عباده الصابرين وبشرهم بالثواب العظيم حيث قال « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب[1] » .

وهل من صبر أعظم من أن يمتنع الإنسان عن شىء يشتهيه وهو فى متناول يده ؟

وهل من صبر أجل من الصبر على مقاومة النفس فى أعظم شهواتها وأحبها إليها وهى شهوة البطن وشهوة الفرج ؟

وهل من صبر أشد على النفس من صبر على أمر لا رقيب فيه غير الله ؟

وهل من صبر أحب إلى الله من صبر كان منشؤه والباعث إليه مجرد الخوف من الله ؟

كم هو عظيم أن تتطلع نفس الصائم إلى الشهوات وتهيأ له أسبابها وهو فى خلوة من الأنظار فيعرض عنها لمحض الخشية ويؤثر رضا مولاه عن كل لذة .

ولقد ورد فى الحديث ما يدل على أنه ليس المقصود من الصوم مجرد الإمساك عن الطعام والشراب والجماع بل لابد من الإمساك معه عن الكلام البذىء والعمل القبيح وسائر المحرمات إذ يقول صلى الله عليه وسلم « الصيام جُنَّةٌ (سترة ووقاية) إذا صام أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إنى امرؤ صائم » وفى حديث آخر « الصوم جنة ما لم يخرقه بكذب أو غيبة » وفى حديث آخر « إن الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته ولما تلا قوله تعالى « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها[2] » . وضع يده على سمعه وبصره فقال « السمع أمانة والبصر أمانة » .

---

(١) الزمر : ١٠ .

(٢) النساء : ٥٧ .

ولولا أن السمع والبصر من أمانات الصوم لما قال عليه الصلاة والسلام « فإن امرؤ سابه أو قاتله فليقل إنى امرؤ صائم » أى إنى أودعت لسانى لأحفظه فكيف أطلقه لجوابك . وكذلك أعضاء ابن آدم أمانة عنده يجب أن لايطلقها فى حالة الصوم فيما لا يرضى الله وإذا أمكن للإنسان أن يترك كل هذا فى حالة الصوم فإنه سيتعود لا محالة أن لا يستعمل أعضاءه دواماً فى غير ما خلقت له من الطاعات .

وإذا لم يستطع أن يقهر نفسه على ترك جميع المحرمات فى رمضان فإنه لم يحقق الغاية التى شرع الصوم من أجلها وفى هذا يقول صلى الله عليه وسلم « رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع » وقد وردت أحاديث عديدة بأن الغيبة تفسد الصوم[1] وحملها جمهور الفقهاء على المبالغة فى التحذير منها ومما لاجدال فيه أنها تتنافى مع حالة الصائم الذى يزعم أنه ترك الطعام والشراب خوفاً من الله ثم لا يحفظ جوارحه من الآثام ويقدم على ما يغضبه تعالى من سيء الكلام » .

إن مقاومة النفس إرضاء لله إذا صحت عن يقين كامل من شأنها أن تغرس فى النفس ملكة مراقبة الله فى السر والعلن وفى جميع الأعمال وهذا مما يؤدى إلى الامتناع عن جميع المحرمات والتدرج بتركها فى أيام رمضان إلى الإقلاع عنها بتاتاً فى سائر الأوقات .

وهذه هى درجة الكمال التى ترمى إليها الشريعة الإسلامية من وراء الصوم الذى هو فى الواقع تطهير للنفس من سيء النيات وامتناع للجوارح عن سائر المحرمات .

وقد أثبت العلم الحديث ما فى الصوم من فوائد عظمى فى إخراج الفضلات من الجسم وطرد السموم والمفرزات الضارة من مجارى الدم ليس بواسطة العقاقير والجواهر لكن بطريقة الامتناع عن الأكل والشرب وهو ما يسمونه فى اصطلاحهم (بالعلاج الطبيعى) وهؤلاء فقراء الهند لا يزالون يروضون أنفسهم بالصوم بشكل فظيع ويجدون منه خير مطهر للنفس من أدران الدنس فضلا أنه يذكى العقل ويكسبه خصوبة وخيالاً واسعاً ويقومون بعدة أعمال وأحوال تكاد تكون من خوارق العادات .

---

(١) وإليه ذهب ابن حزم الظاهرية .

حج البيت

لقد بلغ من خوف المؤمنين من قوم عيسى من الله أن ابتدعوا فى ديانتهم الانقطاع عن الدنيا و ملازمة الصوامع والأديرة ترهبا إلى الله فأقرهم الله عليها لأن القصد منها لم يكن إلا ابتغاء مرضاة الله ولكنهم لم يراعوا حقوق هذا الترهب لله بما أدخلوه فى ديانتهم من عقائد تتنافى مع الإيمان بالله حيث قال تعالى « ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون[1] » .

ولما جاء الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم بشريعة الإسلام التى تدعو إلى العمل وتعتبر كل أعمال الإنسان المشروعة فى الحياة عبادة إذا قصد بها الطاعة ورضاء الله وحرم الله على الناس البطالة والكسل والتسول والاستجداء إن كانوا قادرين على العمل أراد سبحانه وتعالى أن لايحرمهم من عمل يحصلون به على الثواب ثواب الرهبانية خلال فترات قصيرة فدعاهم إلى الحج إلى بيته الحرام وصاغه فى قالب يقضى به الإنسان على شهوات النفس ويوجهها إلى طاعة الله ابتغاء مرضاة الله إذ فيه اتعاب للجسم وتقشف فى المظهر وكف عن الزينة وصبر عن الشهوة الجنسية وفيه بذل للمال الذى هو أغلا شىء عند الإنسان فى الحياة بغير مقابل إلا رضاء الله وفيه منتهى الطاعة والانقياد بإقامة شعائر لا يدرك غالبا كنهها ولا تعلم أسرارها بل ربما كان فى اتيانها ما يدعوا إلى الاستغراب لو لم تكن بأمر رب العالمين فالحج بهذا الاعتبار رهبانية حقة لله لأنه يقضى على روح التمرد فى ابن آدم عن تقى وطاعة واذعان لله بالعظمة والسيادة إذ يقف المسلم إلى جانب من هو أرفع منه مقاماً وأكثر مالاً بزى واحد من غير تفريق فى صعيد واحد هو جبل عرفات فى موقف تتجلى فيه العبودية لله بأقصى معانيها يلهجون إليه بالتلبية والدعوات بمختلف اللغات ويسألونه الرحمة والغفران وقضاء الحاجات وينفذون

---

(١) الحديد : ٢٧ . (رهبانية) هى رفض النساء واتخاذ الصوامع والرياضية والتقشف (آمنوا منهم) أى نبينا صلى الله عليه وسلم (وكثير منهم فاسقون وهم الذين لم يؤمنوا به ودامو على الكفر وعقيدة التثليث .

من المناسك مالا يفقهون لفعلها معنى سوى الطاعات وإن كان فى مناسكها من المرامى الاجتماعية والأهداف السامية مالا يخفى على المتأملين إذ هى تهيئ للمسلمين سبل التعارف فى كثير من المواضع وأضيق الجهات وهو مادعا إليه الله بقوله « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا[1] » فاعتكاف دائم بالمسجد الحرام واتصال مستمر عند الطواف بالبيت وعند السعى فيما بين الصفا والمروة واجتماع كلى فى صعيد واحد خال من البناء حول جبل عرفات إلى مثله أيضاً ليلة واحدة فى مزدلفة حيث المشعر الحرام إلى مثله فى منى ثلاثة أيام يلتقون خلالها ذهاباً وإياباً عند رمى الجمار وكل هذا من شأنه أن يوجد الألفة ويحكم روابط الأخوة بين المسلمين ويسر لهم طرق التفاهم فى الرأى والتعاون فى الأعمال الصالحة وتوحيد الثقافة وتبادل المصالح والمنافع وفى هذا يقول تعالى « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير[2] » .

ومن أجل هذا شرع الله الحج وقال عنه صلى الله عليه وسلم « تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة وليس لحجة مبرورة ثواب إلا الجنة » وفى حديث آخر « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه » وقد نظمت فى حقيقة الحج وفضائله مايأتى :

حقيقة الحج

والحج خص بأشهر معلومة ... هو فى صفاء الروح خير أداة
هو فى مكان (ترهب) قد كان مكـ ... ـتربا على من مر فى الحقبات
لرضاء علام الغيوب فما رعو ... ه لما به من شدة الكلفات
والدين إذ هو لم يقر ترهبا ... وتعبداً يفضى إلى العزلات
وأراد منا السعى فى الدنيا وإع ... داد القوى وإقامة الصلوات
لم يحرم المتمسكين به من الأ ... جر الذى فى تلكم الحالات

---

(١) الحجرات .
(٢) الحج : ٢٧ — ٢٩ .

فدعا إلى (حج مناسكه الترهـ ب) إنمـا فى أقصر الساعات
وبه تحقق كل غايات الترهـ ب بل يزيد عليه فى الحسنات
إذ فيه أتعاب وفيـه تقشف والصبر عن متع وعن زينات
مع بذل أموال بغير مقـابل سيعود للحجاج باللـذات
بل انه يقضى على روح التمـ ـرد فى ابن آدم فى تقى وثبات
بوقوفه متجرداً مع غـيره من دون تفريق على عرفات
فى منظر يصف الجميع أمام سـ ـيدهم وهم يرجون للرحمـات
وينفـذون مناسـكا لا يفقهو ن لفعلها معنى سوى الطاعات
لا يرتضى هـذا سوى من قلبه بالله مشغول عن الشهوات
قد غادر الأوطان فى مرضـاته وسـعى إليه بخالص النيـات
وأجاب دعوته ولبى قائلا لبيـك ياذا الجود والمنـات
وأتى إلى البيت العتيق وحوله حط الرحال وأعلن التوبات
ورآه رأى العين ثم دنا إلى الحجر السـعيد وفاز بالقبلات
وهناك عبر عن محبته لـو لاه ونال البشر بالحظـوات
لما غـدا كملائك الرحمن حا فاً حول بيت الله عالى الذات
وغدا يطوف كلاجىء فى ساحة الـ ـقصر المنيف يردد الدعوات
ويريد رضوان المليك وعفوه عن كل ما قد مر من زلات
وعلى إله العرش يعرض أمره وجميع ما يشكوه من أزمات
ويريد منه وحـده تحقيق ما يرجوه فى الدنيـا من الحاجات
من كان هذا شأنه لابد يصـ ـبح عالى الأخلاق والعادات
لا يبتغى رفثـاً ولا فسـقاً ولا جدلا ويخشى الله فى الخلوات
لا بدع أن يعفى له عما مضى من سيىء الأعمال والقولات
ويعود مقضى الحوائج كلهـا ويفوز يوم البعث بالجنـات
إذ أنه ما زار هذا البيت لـو لا أنه من خير النسمات
من قد عنـاهم ربهم بالطائفـ ـين العاكفين المخلصى السجدات

بل أنه ما كان يدعى للوقـو ف ملبياً لله فى عرفـات
لولم يكن قد فاز بالرضوان حتـ ـى أن دعاه لهـذه الحفلات
فلقد دعا مولاه ابراهيم أن يأتى إليه بهـذه البقعات
بقـلوب خلق الله بل وثمـارهم فأجاب دعوته العـلى الذات
وغـداً يمن على البلاد وأهلها أن جاءهم فى كافة الأوقـات
من كل شىء بالثمار فمن يحج يعد فى الإنسـان كالثمرات
أو أنه القلب الذى سبقت له الـ بشرى بإحسـان وبالجنـات
إذ أنهم فازوا بدعوة ربهم ونداء ابراهيم فى الحقبـات
ولأمره لبـوا وجاءوا محرمـ ـين وخاضعين بمنتهى الذلات
وأتوا له متضرعين بكل إخـ ـلاص وإيمـان إلى عرفات
فأضفاهم من فضله بهيمة الـ أنعام ثم بوافـر الرحمات
وبمـا هنالك من منافع جمة وفقاً لمـا قد جاء فى الآيات
فى الحج قد وجدت وإن دليلها فى الناس رغبتهم إلى العودات
للحج ثانيـة برغم جميع ما يلقون من تعب ومن نفقات
ضحوا بها طرا ولم يعنوا بـلذ ة جسمهم والمـال والرفعات
لرضـاء خالقهم وثمت لذة تزرى بمـا فى الكون من لذات
هى لذة الإنسان بالرضوان من ملك المـلوك وموجد النعمات
وسبيلها ذكر الإله بخشية مع توبة وتوقع المنـات
وهناك هم ذكروه من آلائه بل أفردوه بخالص الدعوات
وتأكدوا من غير شك أنه هو وحده من يملك الحاجات
سبحانه هو من حباهم كل شيـ ـىء منه وهو مقدر الخيرات
وهو العليم بحـالهم ومالهم وجميع ما يرجون من طلبات
وهو القـدير على إنالتها لهم فى أقرب الساعات واللحظات
وبذكره تصفوا النفوس وترتقى وتفوز يوم البعث بالجنـات

التقوى

لقد كان من أهم مادعا إليه الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم بعد الدعوة إلى الإيمان والإسلام الدعوة إلى التقوى وجعلها معيار التفاضل بين المسلمين حيث يقول لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى وبقوله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير [١] » وقضى عليه الصلاة والسلام كل أيامه وهو ينصح المؤمنين بالتزامها والتزود منها حيث يقول تعالى « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقونى ياأولى الألباب [٢] » وجاء القران مليئا بالآيات التى تدعو إلى التقوى وأخبرنا جل وعلا بأن جميع الأعمال التعبدية لم تشرع إلا لتكون وسائل إلى التقوى بما تطبعه فى النفس من ملكة مراقبة الله فتكون تقية نقية راضية مرضية ولقد حسبها بعض الناس درجة فى الصلاح لا تنال إلا بالتفرغ للصلوات وملازمة المساجد والانقطاع عن الدنيا والزهد فى كل ما فيها من الملذات مما يكون دليله فى الظاهر الفقر والمسكنة ولبس مرقوع الثياب بل لقد غلا بعضهم فظن من أثرها فى الناس ذلك العته الذى يبدو فى بعض المجاذيب فراحوا يجلونهم ويتلمسون منهم البركات ويطلقون عليهم لقب (الدراويش) وكل هذا خطأ لا يقره الإسلام فالتقوى فى اللغة مشتقة من اتقى فلانا أى حذره وخافه فتقوى الله مخافته وتجنب كل مايغضبه وهى أثر الإيمان الكامل بالله وهى النتيجة الطبيعية التى يصل إليها كل من يؤمن بأن الله الذى خلقه وأبدع كل دقيقة فى جسمه قادر على تعذيبه عاجلا وآجلا إذا هو أقدم على معصيته واستهان بأوامره كما يوقن بعلمه تعالى بكل شىء يصدر منه بحيث يتصوره مشرفاً عليه حتى فى خلواته ورقيباً على جميع حركاته وسكناته فيحمله هذا على محاسبة نفسه عن كل فعل فلا يقدم على أى أمر فيه معصية خالقه أو الإضرار بمصالح عباده وفى هذا يقول تعالى « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون [٣] وذكر الله العصاة بعلمه

---

(١) الحجرات : ١٣ (٢) البقرة : ١٩٧

(٣) الأعراف : ٢٠٠ .

بكل مايصدر منهم وتوعدهم بعذابه حيث قال : «أرأيت إن كذب وتولى ألم يعلم بأن الله يرى كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية[١]» وأمرنا أن نتخير فى أعمالنا ما ينفعنا فى الحياة الأخرى حيث قال « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون[٢] » وأخبرنا الله جل جلاله بأنه قد أعد الجنة فى الآخرة للمتقين ووصفهم لنا بأعمالهم المنبعثة عن قوة إيمانهم بقلوبهم إشارة إلى أن التقوى هى من الأمور التى يشعر بها الإنسان فى نفسه فيدرك مبلغ قربه من ربه ورضائه عنه ولو لم تدل على ذلك مظاهره حيث يقول تعالى « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين[٣] » وهذا صريح فى أن التقوى ليست بكثرة الصلاة والصوم وأمثالها من العبادات الظاهرة وليست هى بالتقشف والدروشة ولا هى بالعصمة من المعاصى التى لا يسلم الإنسان منها وإنما تتحقق بخمس خصال هى :

١ — حب البذل والإنفاق فى سبيل الله فى حالتى الشدة والرخاء .

٢ — ضبط النفس ومقاومة هواها فيما يغضب مولاها .

٣ — الأخذ بمبدأ التسامح والعفو عند المقدرة .

٤ — الإحسان إلى المسىء .

٥ — مراقبة الله ودوام الخوف منه والرجوع إليه أثر المعاصى بالندم والاستغفار وعدم الإصرار على فعل السيات فالتقوى بهذا الاعتبار من الأمور التى لا تمنع المسلم فى هذه الحياة من العمل للدنيا ولا تحرمه من التمتع بملذاتها المشروعة ولا تفرض عليه مقاومة نفسه إلى حد المستحيل من ترك المعاصى كلياً بل إنما تدعوه فقط إلى مراقبة الله والخوف منه والثقة به والرجوع إليه بطلب الرحمة والغفران فى كل وقت . لا سيما عند كل زلة ومعصية ومن أجل هذا حرص الرسول الأعظم صلى الله

---

(١) العلق : ١٣ — ١٥ .
(٢) الحشر : ٨ .
(٣) آل عمران : ١٣٤ — ١٣٧ .

عليه وسلم على أن يمكن فى قلوب اتباعه خوف الله واليقين بقدرته على كل شىء إلى حد ينتفى معه الخوف من غيره تعالى وحصر الأمل فيه جل وعلا دون سواه باعتباره هو وحده صاحب السلطان المطلق القادر على وقاية كل من يريد وقايته من كل مكروه وينصر من يريد نصرته بما يملك من قوى خفية وظاهرة حيث يقول تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون[١] » وحق التقوى هو خوف الله أكثر من كل ما سواه وإلى هذا أشار تعالى بقوله (أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين[٢] » وحق التقوى هو أن يؤثر الإنسان عفو الله وغفرانه وثوابه فى الآخرة عن كل شىء فى الدنيا بل ويتحمل فى سبيل ذلك مر العذاب ولذلك امتداح الله فى كتابه أولئك السحرة الذين آمنوا بالله إيماناً لم يبالوا معه بالجهر بعقيدتهم برغم ما توعدهم به فرعون من أنواع العذاب حيث « قالوا آمنا برب هارون وموسى قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى[٣] » .

وضرب الله الأمثال بمبلغ حمايته لمن لا يبالى بقوة الناس إلى جانب ما يعلمه من قدرة الله حيث قال « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم إنما ذلكم الشيطان يخوف أوليائه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين[٤] » ولقد أشار سبحانه وتعالى إلى مايترتب على التقوى وخوف الله من مجانبة النفس للشهوات الممقوتة وما يكون جزاءها على ذلك فى الآخرة بقوله « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى[٥] » « وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ماتوعدون لكل أواب حفيظ من خشى الرحمن

---

(١) آل عمران : ١٠٣ .
(٢) التوبة : ١٤٠ .
(٣) طه : ٧٠ — ٧٢ .
(٤) آل عمران : ١٧٤ .
(٥) النازعات : ٤٠ — ٤١ .

بالغيب وجاء بقلب منيب[١]» «إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير[٢]» « ولمن خاف مقام ربه جنتان » قال الصحابة عند سماع هذه الآية وإن زنى أو سرق يارسول الله قال صلى الله عليه وسلم وإن زنى أو سرق .

ولم يكتف الله بهذا فى حض الناس على التقوى بل إنه تعالى أكد لهم تخليص المتقين فى الدنيا من كل ما يعترضهم من مشاكل الحياة وتيسير سبيل الرزق لهم من حيث لايؤملون حيث يقول « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا[٣] » ذلك لأن التقوى معناها دوام ذكر الله تعالى ومراقبته فى جميع الأحوال وحصر الأمل فيه وهذا من شأنه أن يمنع الإنسان عن الإقدام على كل أمر يعصى به الله ويضر أحداً من خلقه ويجعله كريم الخلق والعادات وكل هذا مما يسبب عون الله للإنسان وتأييده فى كل موقف وشموله برحمته وحسن رعايته وخوف الله يقتضى تجريد قلب الإنسان من خوف غيره ويعود هذا عليه بأعظم الفوائد فى هذه الحياة وقد عقدت فصلا خاصا فى الخوف والتقوى وآثارها فى حياة الإنسان فى كتابى تائية الخطيب أثبته فيما يأتى :

الخوف والإيمان

والله لايرضى بحال الخوف إلا ... منه حيث دعا لحسن ثبات
ولقد أمرنا أن نخاف الله دو ... ن سواه ممن كان ذا قوات
إذ أن خوف الناس من ضعف اليقي ... ن وخوفه يدنى إلى الجنات
ولذا نفى الإيمان عمن خافهم ... من دونه فى محكم الآيات
وكذاك ندد بالذين لجهلهم ... يخفون جرمهم عن النسمات
والله عالم سرهم معهم فلا ... يخشون فى ساعة الزلات
فكأنهم لا يعلمون بأنه ... حقاً يحيط بكافة الحركات
والله أنبهم (بهل تخشونهم) ... وإلهكم أحرى بذى الخشيات

---

(١) ق ٣١ — ٣٣ .
(٢) الملك : ١٢ .
(٣) الطلاق : ١٣ .

والله روع قلب يعقوب نحو ... ف الذئب فى سر وتصريحات
متناسياً حفظ الإله ليوسف ... بما رواه له من الرؤيات
والله قد مدح الألى لم يعبئوا ... برسائل التهديد بالكثرات
بل إنها زادت يقينهم وقا ... لوا حسبنا المولى العلى الذات
ولذلك انقلبوا بنعمته وفضـ ... ـل منه فى أمن من الهلكات
والله ذو فضل عظيم ليس يد ... سى من له فيه عظيم ثقات
والله جازى أم موسى عند ما ... نبذت مخاوفها بكل ثبات
ثقة بوحى إلهها إن رد مم ... بجتها له من أحسن الطرقات
وكذاك من على ابنها بالنصر لـ ... ـما أن أطاع بخالص النيات
ورمى المخاوف جانباً ومضى إلى ... فرعون يدعوه إلى الخيرات
والله أكرم من تعاطوا السحر لـ ... ـما آمنوا بالله والميقـات
وتجردوا من خوف غير الله إذ ... هم خاطبوا فرعون فى جرءات
قالوا اقض بما تراه فإن ما ... تقضيه فى الدنيا على العضلات
أما حياة الروح والأخرى فما ... لك من يد فيها ولا قوات
لسنا لمثلك مؤثرين على الذى ... قد جاءنا من هذه الآيات
بالله آمنا ليغفر ذنبنا ... مع ما أمرت به من الخدعات
والله بشر من يخاف مقامه ... بالجنتين مقابل الخشيات
والله عدد ضمن أحباب له ... من لا يخاف اللوم فى الطاعات
والله سمى الخائفين مقامه ... علماء إذ هم واسعو النظرات
واختار من أهل العزائم رسله ... ودعاهم للصبر فى الأزمات

خوف الله تعالى

لا بدع فى هذا نخوف الله مما ... يمنع الإنسان عن زلات
ويقوده للخير والتقوى ويجـ ... ـعله كريم الخلق والعادات
يرعى حقوق الغير أرضاء لمو ... لاه ولا يرجو سوى الحسنات

ويخاف مما يغضب المولى فيحـ ـذره ويعرض عنه للخيرات
ويروم عفو الله أو مرضـاته فيغالب الشيطان والشهوات
ويسير فى الدنيا بقلب ثابت وعزيمته فى منتهى الشدات
وشجاعة لا تنثنى إن وجهت للخطب ترخص فيه حلو حياة
وتمكن الإنسان من طلب العلى وبلوغ ما يرجو من الغايات
والسر فى ذا أن خوف الله معـ ـناه التقى وإدامة الطاعات
والبعد عما ليس يرضيه من الأ ضرار بالإنسان والزلات
ولمثل ذا شرعت مخافته ولي ـس لأنه هو يجلب الخيفات
فهو الرحيم ولا يخاف المرسلو ن لديه من بطش ولا سطوات
وهو الذى بالعدل موصوف فلا ظلم لديه يسبب الروعات
والله غفار لمن هو مؤمن قد تاب عما مر من سقطات
ثم استقام وظل يعمل صالحا حتى اهتدى لوسائل المرضاة
وفقا لهدى الله دون زيادة فى الدين أو نقص عن الطاعات
والله خوفنا بنيران الجحـ يم إذا ارتكبنا موجب النقمات
بينا يطمعنا بجنة خلده إن نحن لم نقدم على الحرمات
فالخوف مطلوب إذا منه وليـ ـس من الجحيم ولا من الهلكات
وأحب أنواع العبادة ما غدا عن رغبة لرضاء عالى الذات
ومحبة فيه وليس بدافع ثان ولا للفوز بالجنات

خوف الناس

وبعكس ذا خوف العباد فإنـ ـه مما يثبط عالى الهمات
ويصير الإنسان فى حال التردد عرضة للصد والصفعات
ويحبط من أخلاقه وطباعه فيجامل الباغى على الجرآت
ويقوده للشر والآثام إر ضاء لمن يخشى من النسمات
ويحول دون نهوضه وبلوغه آماله من خشية العثرات

إذ أن معناه الخنوع لكائن ... لا يملك الأضرار والخيرات
يغدو عليه مهيمنا من غير حـ ... ـق بل لمحض الوهم والظنات
فيظل مأسوراً له ولما يرى ... فى نفسه من ضعف أو ذلات
ويكون معوانا له دوما عليـ ... ـها يألف التحقير والخيبات
وبذا تموت لديه عاطفة الطمو ... ح ويفقد التأثير والقوات
ويكون كالعضو الأشل فلا يفيـ ... ـد وليس يعدو حالة الأموات

خوف الفقر

وأهم باب يدخل الشيطان منـ ... ـه لصدنا عن أشرف الغايات
هو ما يهددنا به من فقرنا ... إمَّا بذلنا المال للصـــدقات
ويحضنا دوما على الفحشاء وهـ ... ـى البخل إذ هو أقبح الخصلات
والله نبهنا لهذا فى الكتا ... ب معرضا بجـــلائل النعمات
مما لديه لمن تفكر فى الحقا ... ئق لا الذين استمرؤا الشهوات
من عظم مغفرة وفضل بل وحكـ ... ـمته التى هى أعظم الخيرات
والله واسع رحمة لا شك يعـ ... ـلم ما يفيد المرء من متعات
والله يخلف للعبـاد جميع ما ... هو فى سبيل الله من نفقات
ويسهل الأرزاق للكرماء بل ... ويزيدهم بالحب فى الدرجات
ويعاقب البخلاء بالحرمان من ... أموالهم وبكثرة الحسرات
بل يجعل الأموال نيرانا بهـا ... تكوى جباههم لدى الميقات
ولقد دعانا الله للإنفاق مهـ ... ـما طاب من رزق ومن أقوات
ونهى وحذر أن نؤم خبيث أمـ ... ـوال فنخرج منـه للصدقات
بل لا ينال البر حتى ينفق الإنسـ ... ـان ما يهوى من الثمـرات
وهنـا يسمى الله ثروته فليـ ... ـس يخاف من فقر ولا قلات
ورسولنا قـد قال إن الله يأ ... خذ ما نجـود به ولو تمرات
وتظل تربو عنده حتى تكو ... ن أجل من جبل من الحسنات

والشرع لما أن دعا للبذل خصـ ـصه بما قد زاد عن حاجات
للنفس أو للإبن أو للزوج أو للخـادمين وكل ذى قربات
وأبى علينا أن نجود بكل ما فى ملـكنا ونظل فى فاقات
إذ قال خير الجود ما قد كان عن ظهر الغنى أو زاد عن نفقات
والفضل فى جهد المقل ومن يعـ ـول المرء أولى الناس بالحسنات
ولمعدم ثوبين أعطى المصطفى فأعاد واحدها إلى الصدقات
فقضى عليه بأخذه ونهاه عـ ـن ذا كى يظل بأحسن الهيآت

خوف الموت

والله لا يرضـــيه منا أن نخا ف الموت فى سر وفى الجهرات
إذ أنه مما يثبط همـة السـ ـاعين للعليـا من النسمات
ويحول دون شجاعة الإنسان أو اقدامه لبـلوغة الغـايات
ويكون منه هزيمة فى الحرب قد تقضى على ما كان من عزات
وتقاعس فى الواجبات يسبب الـ ـحرمان أو هو يجلب الذلات
ولذاك جاء الدين يدعونا إلى أن لا نخاف الموت فى الحومات
إذ قال إن العمر محدود ومقـ ـدور لنا باليوم والساعات
والموت ليس يرده حـذر ولا يدنو بأخطار وحد ظبـات
فمتى دنا أجل الفتى يمضى وإن هو قد تحصن فى ذرى الذروات
أو كان ثمة فى الحيـاة بقية لم ينتزعها السيف فى الساحات
ولربما فى الحرب قد سلم الشجا ع ومات فيها صاحب الرعدات
ولربمـا برز الصحيح لحتفه ونجا حليف السقم من هلـكات
ولربمـا قد فاز بالآمال مقـ ـدام وذو التدبير فى حسرات
بل إنما الإسـلام علمنـا بأن حياتنا ليست سـوى لحظات
فيها متـاع زائل ولسوف تـأ تى بعدها الأخرى بخير حيـاة
والناس فى الدنيا نيـام من يمت فلسوف يصحو ثم من غفوات
والنفس تبقى بعد ذلك حيـة فى عـالم قد غاب عن نظرات

يتعارفون ويشعرون ومنهم المر ... زوق عند الله فى الجنـــات
وهناك من يلقى العذاب بقبره ... بطريقـة مجهولة الحـــالات
ولذاك لم تـكن الوفاة تخيف من ... هو مؤمن متوقع الرحمـات
ويخاف منهـا جاهل أو طالح ... لم يخلص الأعمـال والنيـات
بل ليس يرغب فى الخلود بهذه الـ ... ـدنيا سوى من ينـكر الآيات
ويريد فيها فسحة حيث الوجو ... د لديه ليس يدوم بعد ممات
ويرى بأن الموت معناه الفنـا ... ء فيتقيه بمنتهى الخشـيات

خوف الشيطان

والله حذرنا مخافة كل شـيـ ... ـطان مريد واجب اللعنـات
يجرى بنفس المرء مجرى دمه ... ويكون منه مكان (ميكروبات)
ليضـله بالخوف مما قد يكو ... ن وسيلة الإسـعاد والمرضـاة
أو بالأمانى والوعود وليس فى ... إمـكانه تحقيقهـا بالـذات
بل إنما التغرير من حق اللعيـ ... ـن على العباد بمحكم الآيات
من دون سلطان له فيهم ولـ ... ـكن فتنـة لمجرد الخـبرات
والخوف منه يخالف الإيمان بل ... كالشرك ممـا يحبط الحسنات
إذ أنه أعدى العدا يدعو إلى ... نار السعير بأسفل الدركات
والله أودع فى النفوس محبة ... للظلم والطغيـان بالفطرات
ودعا ابن آدم لاتقاء وساوس الشـ ... ـيطان بالإقلاع عن شهوات
وإلى مقاومة الهوى والنفس مع ... بذل الجهود لأفضل الطاعات
وبذاك يندحر اللعين وثم يرـ ... ـجع خائباً فى أقبح الصورات
ومتى استعان المرء بالرحمن منـ ... ـه فلا يبـالى قط بالخدعات
والله أخطره بأن عبـاده ... لم يؤت فيهم أيمـا سلطات
والله نبهنا لهذا فى الـكتا ... ب معرضاً بالقصد والغايات
والله ذكرنا بما قد كان من ... اخراجه الأبوين من جنـات
وبمـا أصابهما نتيجة فعله ... كى لا نصاب بتلـكم الفتنات

خوف العدوى

والمصطفى قد أنكر العدوى لكى ... يقضى على الأوهام والظنات
ويصير الإنسان مقدامًا جريـ ... ـأ لا يبالى قط بالحشرات
ويعيش حاكم نفسه لا خاضعا ... للوهم يخذله لميكروبات
ولئن رأينا الداء يسرى بيننا ... بتوارث الأبناء والخلطات
فمن الضلال بأن نظن لزومه ... أبدا وأن السر فى العدوات
فالحق أن الداء ينقل عادة ... بطريقة التلقيح فى النخلات
ومع النسيم كحالة الأزهار فى ... تكوينها فيحير الفكرات
ويؤثر الأثر المقرر مرة ... ويخيب فى أخرى من المرات
شأن المنى تقر منه نطفة ... فتحال طفلا داخل الظلمات
وتعود نطفات بدون نتيجة ... تدبير ربك خالق النسمات
لتدلنا أن المؤثر فى الأمو ... ر الهنا المولى العلى الذات
لا تلكم النطفات فهى بدونه ... لا تملك التأثير فى الخلقات
لكن من الإسلام ترك مواضع الـ ... ـبلوى وأن نتجنب الشبهات
ولذاك قال المصطفى لا يوردون ... على مصح صاحب العاهات
وأبى الدخول لقرية فيها الوبا ... ء وذاك لا يخلو من الحكمات
هى أن نحاذر كل مامن شأنه ... ان يوجد الأوهام والفكرات
فالوهم قتال إذا ملئت به ... نفس يعرضها إلى النكبات
والوهم يودى بالنفوس إلى الردى ... من غير ما داع إلى الهلكات
فبشرب ماء قد قضى من ظنه ... سما أعد بداخل الكاسات
وروى الثقات بأن آلافا قضوا ... فى (روسيا) من غير ماعلات
لما فشا الطاعون فيما بينهم ... لمجرد الأوهام والظنات
والناس خوف الفقر فى فقر ومن ... خوف المذلة دائمو الذلات
والخوف فى يعقوب كان لحبه ... أبناءه ولشدة الرحمات
لكنه لم يجده شيئًا وقد ... أدى به للحزن والحسرات

وبنوه قـــد جرؤا عليه لخوفه ... منهم فنالوا الفوز بالرغبات
والناس تخشى الأسد من ضعف بها ... وتروضها بالحـــزم والقوات
والعقل فى الإنسان يدعوه إلى ... حـذر يباعده عن الغايات
والمرء ان ماجن يفقد خوفه ... فيزيد فى بأس وفى عزمات
والذعر فى الأجناد يهزمها كما ... بثباتها قد تدرك النصرات
ولذاك لم يرض الإله لفرقة ... ممن بهم شىء من الريبات
إن يخرجوا للحرب مع إخوانهم ... خوف الخبال وخشية الفتنات
وكذا أمرنا أن (نفر من الجذا ... م كما يفر المرء من لبوات)
خوفا علينا من تسلط وهمنا ... فينا بحكم الطبع والعادات
والشرع إذ الغى الكهانة والعرا ... فة مطلقاً والأخذ بالطيرات
والانصياع لقسم أزلام ومن ... يستلهمن الأمر بالسبحات
ما كان إلا قاصداً تحذيرنا ... من سلطة الأوهام والظنات
ومن الخرافات التى تبنى على ... غير الهدى والعقل والحكمات
وتصير الإنسان طوع تشاؤم ... مما يروجه ذوو البدعات

الحجر الصحى

والشرع إذ منع الخروج من القرى ... منيت بطاعون إلى الفلوات
لم يثبت التأثير للعدوى وقد ... ينفى بذلك فكرة العدوات
إذ أنه إن صحت العدوى فلم ... لا يتقيها المرء بالرحلات
من موضع البلوى إلى الصحراء أو ... لأماكن خلت من النسمات
أو ليس ذا خيراً من استمراره ... وسط الوباء مهدداً بوفاة
بل قال أحمد للذين توهموا ... عدوى السليم بأجرب الناقات
فمن الذى أعدى السليم ألا فلا ... عدوى ولا جدوى من الطيرات
وأراد خير الرسل بالحجر الذى ... قد سنه فى تلكم الحالات
ألا يخاف الناس من غير الإلـ ... ـه ولا يبالوا قط بالعادات

حيث الفرار من الوباء دليل إيمـــان بتأثير (لمكروبات)
وهو الذى لم يرضه الهادى ورا م تشجيعاً فى تلكم الساعات
بوثوق من هو مؤمن بالله لا بسواه من جرثوم أو حشرات
حيث اليقين لديه يكسبه المنا عة ضد ما يأتى من الآفات
ويبث فى الجسم المهدم قوة تقضى على ما يجلب الهلكات
ولقد أمات الله آلافا مضوا لخروجهم فرقا إلى الفلوات
حذراً من الطاعون ثم أعادهم أحياء بعد الموت فى لحظات
ليريهم أن المميت الله لا ماقد أخافهم من العدوات
ومن أجل ذا منع الفرار من الوبا ء كذاك ترك مناطق البلوات
والله علمنا بأن الموت محـ توم فلا يثنى عن الغايات
وقضى علينا بالجهاد وأن نبيـ ـع نفوسنا لله فى الحرمات
وبآية أخرى يقول حذار أن تلقوا بأيديكم إلى الهلكات
فكأنما يدعو إلى الأقدام فى أعمالنا والأخذ بالحيطات
فاذا توهمنا الوباء نحيد عنـ ـه ونتقى الجرثوم بالمنعات
وإذا وقعنا فيه فلنصمد له بالجزم أن (لاموت بالعدوات)
وبأن (عمر المرء محدود) فلا يدنو بأخطار ولا عاهات
قل لن يصيب نفوسنا إلا الذى كتب الإله لنا من البلوات
وبمثل ذا تقوى النفوس على مقا ومة البلاء ومعظم الآفات
ويتم إيمان وتكسب راحة وعزيمة فى أحرج الساعات

حقيقة الخوف

ولقد يظن البعض أن الخوف طبـ ـع ثابت فى القلب بالفطرات
لابد منه لمن رأى ما قد يخو فه من الأهوال والآفات
فلقد تكلف بالدفاع مع المخا وف لابنزع الخوف من مهجات
والحق هذا حجة الجبناء حيـ ث الخوف منشأه من العادات

فكما يعود أو يربى الطفل ينـ ـشأ وهو ذو عزم وذو قوات
أو خائف واهى القوى حتى أما م أقل مخلوق من الحشرات
والأمهات أساس هذا الخوف من قلب الصغير بمرعب القولات

علاج الخوف

ويوسع كل الناس تبديل العوا ئد واقتلاع الخوف من شأفات
وفقاً لهدى الله أو طبقاً لما يدعو إليه سيد السادات
ولو ان هذا يستحيل لما دعا المولى له فى محكم الآيات
والأمر لا يحتاج إلا رغبة فيه مع التنفيذ للرغبات
بعزيمة قد لا تكون قوية فالفعل يقلبها إلى قوات
والنفس مثل الطفل إن خوفتها خافت وإلا فهى فى جرآت
وكذاك إن عودتها أمرا مضت فيه ولم ترجع عن العادات
ومتى اخترعت عوائدا أخرى لها وجزمت لم تملك سوى الطاعات
فالطفل أول أمره ذو جرأة والخوف يأتيه من البيئات
والخوف مثل الإثم إن درجت عل يه النفس أنزلها إلى الدركات
وإذا تعز النفس بالتقوى وبالت مرين تبلغ منتهى الرفعات
أو كالغراب إذا أتى فى كوة مهجورة يلقى بها البيضات
لكن إذا طاردته ونبذت منـ ـها ما بنى يمضى بلا رجعات
وكذاك شأن الخوف من قلب الفتى إن شاء أبقاه على الرجبات
أو شاء أخرجه وحل محله ما يرتضى من قوة وثبات

السعيد من لا يخاف

وسعادة الإنسان دائرة على ... مافيه من خوف ومن جرآت
وبمقتضى ثقة الفتى بإلاهه ... تتكيف الأحوال فى النظرات
ويذوق طعم العيش إن حلواً وإن ... مراً وإن سعداً وإن شقوات
وسعادة الدنيا تكون لمن غدا ... مستبشراً بتضخم الثروات
أو ضاحكا لا يعبأن بما يصا ... دفه من الأهوال والشدات
ثقة بأن الرزق مكتوب وأن ... النصر يأتيه بلا مريات
وبعكسه من كان دوما ساخطا ... متبرما يشكو من الأزمات
سيظل فى الدنيا حليف البؤس بل ... هو قد يجر لنفسه الويلات
ويعيش فيها بالهموم كسيف بال ... فاقد الآمال واللذات
ويرى الحياة عليه عبئاً بينما ... هو فى الحقيقة مبعث البلوات
فالضحك مجلبة السرور كذا البكا ... ء مطية للهم والنكبات
والجسم إن شعر التألم بعضه ... يسرى التألم منه للفكرات
وكذلك الأفكار ما يبدو لها ... من موجب الآلام والفرحات
سيعود تالية على الجسم الذى ... تبدو عليه علائم الحالات
وكما يلقن نفسه الإنسان سو ... ف تطيعه فى البشر والحسرات
ولقد يؤثر ذاك فى أعصابه ... وحواسه والطبع والحركات
بل ربما أفضى به وهم إلى ... قتل الشعور وفقده لحياة
والناس تألف من غدا مستبشراً ... فرحا ومن هو دائم البهجات
وتفر ممن للكآبة والهمو ... م ملازم والحزن والعبرات
والله إذ قسم المعيشة بين أفـ ... راد الأنام وميز الدرجات
يرضيه من يرضى بما أوتى ويفـ ... رح بالذى يثنى مع النعمات
ويسره فى الكون دوما أن يرى ... أثرا لنعمته على النعمات
ويصد عمن ليس يرضى بالذى ... أعطاه إذ هو منكر الحسنات
ولذاك آلى أن يزيد الشاكرين ... وهدد الكفار بالنقمات

تأثير الخوف على الإنسان

والخوف أعدى كل أعداء الفتى ... وأشد ما يقضى على السمعات
إذ أنه أصل الهموم ومبعث الآ ... لام وهو السر فى الحيرات
واليأس ينشأ عنه والأمراض قد ... تزداد منه بأغلب الحالات
والخوف من عدم الخلود حدا بآ ... دم أن ينال الحب من شجرات
بالرغم عن نصح الإله له فكا ... ن جزاؤه الإخراج من جنات
والخوف فى الإنسان سر شقائه ... وأشد ما يفضى إلى الخيبات
إذ أن فى خوف السقوط بواعثا ... للاضطراب تسبب السقطات
والخوف من عدم الإجادة قد يجر ... المرء رغما عنه للكبوات
والجبن سيمة كل شخص خائف ... من ضعفه يستمرأ الذلات
والخوف من عدم النجاح يدل عن ... خور بأعصاب وفقد ثقات
بالنفس بل بالله من يهب العبا ... د جميع ما يرجون من خيرات
وهو الذى خلق الأنام وبث فيـ ... ـهم روحه وحباهم القوات
إذ أن معناه التشكك فى عطـ ... ـاء الله أوفى سمعه الدعوات
أوفى استطاعته الإجابة للسؤا ... ل لعظمه فى العرف والعادات

الثقة أو حسن اليقين

وبعكس ذا حسن اليقين فإنه ... مما يمهد للعلى الطرقات
ويوجه الأفكار نحو سعادة الإ ... نسان وهى بداءة الغايات
بل إنها هى سر مسعاه ومنـ ... ـها يحصل التحقيق للرغبات
فمتى تأمل كل شخص فى الحيا ... ة وفى جليل الخلق والخلقات
واستعرض الماضى وكيف تطورت ... أحواله من قطرة النطفات
وكذاك ما أولاه ربى من نعيـ ... ـم السمع والإبصار والكلمات
لاشك يؤمن أن من خلق الوجو ... د وخصه بجلائل النعمات
وبه تكفل من بداءة أمره ... وهو الذى قد عيش الحشرات

قد لا يضيق بما يؤمل فى الحيا ... ة وما يريد بها من المتعات
وهو الذى منح الحياة له وقـ ... ـدر رزقه فيها بلا مريات
وبذاك يقصى اليأس عنه ويرتجى ... مدد الإله محرك السكنات
فيحدد المطلوب مهما كان ثم ... يسير فى تحقيقه بثبات
لكن على أن (لا يظن بأنه ... متعذر) فيكون فى ريبات
فالله مقتدر على ما كان فى ... نظر ابن آدم خارق العادات
ويظل دوما طائعاً متأكداً ... نيل المنى فى أقرب الساعات
من فضل مولاه الذى قد بثه ... شكواه والآمال والحاجات
وهو القدير على إنالته المنى ... فى هذه الدنيا وفى الميقات
وفقاً لما أعطى سواه من الملا ... ما أملوا بالصبر والعزمات
بل بالقياس على عنايته به ... مذكان طفلا فاقد الحيلات
حتى غدا رجلا وكم من موقف ... أعياه يسره العلى الذات
وليجتهد فى سعيه فالأرض لا ... مولى سيورثها من النسمات
من كان فيها صالحاً لعمارها ... وفقاً لسنة موجد الحركات
ولكل مجتهد نصيب إن غدا ... فى سيره متوازن الخطوات
ومتابعاً سنن الحياة على يقيـ ... ـن ثابت ببلوغه الغايات
ولئن تأخر عنه ما يرجو فليـ ... ـس هناك من يأس ولا خيبات
بل لا يفكر كيف يأتى الحل أم ... كيف السبيل لنيله الغايات
وعليه أن يرجو من المولى له ... توفيقه لمحاسن الطرقات
فلكل شىء موعد لا بد للتـ ... ـنفيذ من أدوار أو أوقات
ومتى أتته فكرة مرضية ... يسعى إلى تنفيذها بثبات
ويسير فيها مؤمناً بنجاحها ... بمعونة من ملهم الفكرات
فلسوف تأتيه النتائج وفق ما ... يرجو بقدر العزم والجرآت
وهو الذى قد أوجد الإنسان من ... عدم ولا ينساه فى الأزمات
والله قال بأنه هو عند ظـ ... ـن العبد فليحسن من الظنات
وهو الذى يمحو ويثبت ما يشا ... عند اقتضاء المحو والإثبات

اليأس معناه الفشل

والله قد ضمن استجابة من دعو ... ه مخلصين وأكدوا الرغبات
من غير تحديد عليهم لا ولا ... هو علق التحقيق فى حالات
لكنه لم يرتبط سبحانه ... أيضاً بوقت إنالة الغايات
فعلى الذين دعوه أن لا ييأسوا ... وليطرقوا الأبواب للحاجات
فاليأس معناه العدول عن الذى ... راموه يبطل تلكم الدعوات
واليأس من عفو الغفور أشدمن ... كل الذنوب سيحبط الطاعات
واليأس من روح الإله يعد كف ... راً بالمجيب الواسع الرحمات
واليأس من مدد الإله أساءة ... للظن فيه تسبب الضيعات
والله صرح أن ظن السوء بالـ ... ـولى سيردى العبد فى الهلكات
والله خاطب من عصوه بقوله ... لا تقنطوا من رحمتى وهباتى
والله يغفر سيئات الناس رغـ ... ـم الظلم فى الأعمال والقولات
والله قد وصف ابن آدم أنه ... دوماً تراه راجى الخيرات
لكنه لا يستطيع الصبر حتـ ... ـى يبلغ المقصود بالتؤدات
ومتى أصيب بعارض فى سيره ... قطع الرجاء وغير النيات
وغدا يؤوساً قانطاً من ربه ... بينا يكون اليسر فى خطوات
والله أكد نصره لمناصريـ ... ـه بمنتهى التأكيد فى الآيات
بل من يرجى نصره لا بد ينـ ... ـصره ولو فى آخر اللحظات
ومتى تشكك واحد فى نصره ... فلقد أساء لنفسه بالذات
إذ أنه بالشك يقطع حبل آ ... مال بمولى دائم النعمات
ويظل فى الدنيا بمفرده وليـ ... ـس هناك من يرجوه فى الأزمات
والمرء فى الدنيا يعز برهطه ... أو من يؤمله لدى الشدات
وعليهمُ بذل الجهود لأجله ... عند اقتضاء الأمر للنجدات
والله رب الكل من يعتز فى الد ... نيا به هل يفقد النصرات ؟
فى ساعة الخطب الجسيم وعنده ... من وافر الأجناد والقوات

ما يضمن النصر المبين على العدا ... ويبـدد الأهوال والـكربات
وهو الغيور على الذين لهم به ... ثقـة ومن أولاهم العـزات

الرّكونُ إلى الأسبابْ

وهناك ما أوهى قلوب المسلمي ... ن وأوهن التفـكير والقوات
وقضى عليهم بالخنـوع وذلة ... من بعد ما كانوا على الذروات
هو أنهم تركوا الحقائق جانباً ... ومشوا مع الأوهام والظنات
نظروا إلى الأسباب دون مسبب ... وعزوا لها التأثير فى الحاجات
نقموا عليها أو رجوا نفعاً لهم ... منها ولم تك تملك القـدرات
وتجاهلوا المولى الحكيم مقدر الأ ... سباب واضع سـائر السنات
من كان أودع كل شيء منه سر ... اً غامضاً للضر والخـيرات
فالنار تحرق والسراج يضيء والا ... عشاب تشفى السقم والعاهات
وبإمره لا بد من تأثيرهـا ... فيما يريد الله من حالات
ومتى أراد بما ينافى فعلها ... حكم الظروف وعطل القوات
فالسر أمر الله فيما كان من ... أثر لها يبطله فى لحظـات
والسر أمر الله فى الأسباب ليـ ... س لها قوى بالذات فى الفعلات
لـكنها حكم الإله لقد قضت ... بمقدمات تسـبق الغايات
ولذاك ظن الناس تأثيراً لها ... بالذات فى الحركات والسكنات
ونسوا المسبب والمصرف للشئو ... ن جميعها ومسير الدفات
من قدر الأشياء قبل وقوعها ... وهدى إليها الناس بالفطرات
فتجنب الأسباب ليس بعاصم ... ممـا يريد الله من محنات
والله يفعل مايريد ولم يكن ... متقيداً بالعرف والعادات
ولئن تشابهت الحوادث دائماً ... وتعاقبت فلذاك عن حكمات
منها النظام وفوق هذا قد نرى ... ضرا يجر النفع لا الهلـكات
ولربما كان البلاء وسـيلة ... لسعادة لم تبد للفـكرات

أو لم يكن إلقاء (يوسف) موجبا لعلوه فى الأرض رغم عدات
والسجن والتهم التى نسبت له جلبت له السلطان والحسنات
والوهم يحكم عادة فى مثله بالموت من غرق ومن رميات
ولوان أخوته دروا بمصيره هذا لما لفظوه لفظ نواة
أو أنهم علموا بما سينالهم من فضله لفدوه بالمهجات
لكن هى الأحكام تجرى طبق ما يختاره المولى العلى الذات
والحادثات تسير تلو رفاقها تدبير ربك باعث الأموات
من غير تأثير لها فى بعضها إلا بظاهر هذه الحالات
والله خالقنا وخالق كسبنا ومنظم الحركات والسكنات

علاقة الرزق بالأسباب

ومن الجهالة أن نظن الرزق لا يأتى بغير السعى من آيات
(أن ليس للإنسان إلا ماسعى) والسعى سوف يرى بلا مريات
(هزى إليك بجذع نخل) مريم تتساقط الرطبات من نخلات
فالله أرشدنا إلى سنن الحيا ة وما يوصلنا إلى الغايات
وفق المقدر فى نظام الكون من قول ومن فعل ومن نيات
لا بد للانسان من هذا لإد راك المنى بقضاء عالى الذات
وبفضله لمن ابتغى من خلقه إسعاده من أقصر الطرقات
وتوافق الأشياء يأتى مثلما قد يلتقى الماءان بالقدرات
وهناك (قول الله كن) هومابه قد كان فهو السر فى الحالات
ولكل ساع فى الوجود جزاؤه فيما يقدمه من الفعلات
أو ما يؤدى الغير عنه نيابة فضلا من المولى العلى الذات
ومن البداهة أن (هز النخل) لم يك موجداً فى الأصل للرطبات
بل أنها رزق أعد وطالما سقطت على أرض بلا هزات
بل لم تكن تستطيع مريم أن تهز النخل حتى تسقط التمرات

وأراد خالق مريم من مريم ... أن تحكى الأطيار فى الغدوات
لا ينبغى أن تستدل به على ... أن لا يكون الرزق بالعطلات
فبإذن مولاها تساقط حبها ... وبدونه ما كان من سقطات
وبأمره حملت بعيسى وهى لم ... تمسس بسر خارق العادات

الرزق من عند الله تعالى

والله ربى قد تكفل للورى ... بالرزق دون تقيد بأدات
وقضى علينا بالعبادة دائماً ... بأداء مفروض ومسنونات
والبعد عن فعل المحرم جهدنا ... والسعى فى شتى من المهنات
بحثاً عن الأقوات أو سعياً إلى ... تأييد دين الله بالقوات
من دون تعليق بسعى رزقه ... بل ما يشاء لمن يريد يواتى
ما قال إن (لم تعملوا أحرمكم) ... وأصيبكم بالجوع والهلكات
بل قال يا قوم (اعملوا حتى ترى ... أعمالكم) فالرزق محض هبات
وكذاك قال (لأهلك اؤمر بالصلا ... ة) فلست مسؤلا عن الأقوات
(لا تقتلوا أولادكم من خشية الإ ... ملاق) إن الرزق من مناتى
فلنحن نرزقكم جميعاً دائماً ... ولنا عليكم واجب الطاعات
بل أقسم المولى بأن الرزق قد ... رفى السماء من العلى الذات
وكذاك ما وعد الإله عباده ... من بعثهم والعرض فى الميقات
لابد من تنفيذه حتما كما ... هم ينطقون اليوم بالكلمات
فكلامها حق فإن شك امرؤ ... فى نطقه وخلا من العاهات
فله التشكك فى تحتم رزقه ... أو بعثه والنار والجنات
والله قال (وما بكم من نعمة) ... فمن الإله الواسع الرحمات
وهو الذى أجرى التفاضل بيننا ... فى الرزق والأعمال والدرجات
والمرء ليس يرد من أرزاقه ... شيئاً على المملوك والفلذات

بل كل شخص سوف يأخذ رزقه ... من فضل من هو مصدر النعمات
وجميعهم فيه سواء إنما ... يتفاضلون بمقتضى القسمات
والسعى فى الدنيا سبيل عمارها ... ووسيلة للفوز فى الميقات
ولذا دعا المولى إليه وحثنا ... دوما عليه بمعظم السورات
وقضى علينا أن نسير بأرضه ... ونتال رزقا منه فى الطرقات
فإذا سعينا كان منها السعى شكـ ... ـرانا له عن تلكم المنات
وإطاعة للأمر من جرائها ... قد يرتقى الإنسان فى الدرجات
لا أنه بالسعى يرزق فى الحيا ... ة ويحرم الأرزاق بالعطلات
فالسعى ليس مؤثراً فى الرزق بل ... هو فى الحقيقة موضع الفتنات
والله ربى قدر الأشياء ثم ... هدى إليها الناس بالفطرات
وهو الذى قد أخرج المرعى لهم ... من غير ما جهد لدى الإنبات
فإذا انتهى المقدور صيره غثاء ... ثم عوضهم من الثمرات
والله إذ ضمن المعاش لخلقه ... بصراحة فى محكم الآيات
قد قال إنى عالم بمقرهم ... دوما وما هم فيه من حالات
وكذاك أعلم موطن استيداعهم ... قبل الحياة وبعد فقد حياة
فمن المؤكد أن سيرزقهم ولا ... ينساهم أبداً مدى الأوقات
ومتى انتهت آجالهم (وهو العليم بها) سيوقف عنهم النفقات
فمن الضلال الشك فى هذا الضما ... ن كذاك خوف الموت من فاقات
بل إن من ضعف اليقين وثوقنا ... (بالبنك) عند ضمان مشروعات
والله خالقنا نقابل وعده ... وضمانه للرزق بالريبات
ونعلق الآمال بالمسعى وبالأ ... سباب لا بالله عالى الذات
وأمامنا الحيوان يسعى فى الحيا ... ة ورزقه يأتى بلا كلفات
من دون أن يهتم يوما أو يضيـ ... ـق بعيشه ذرعا من القلات
مع أنه لا عقل يرشده إلى التـ ... ـدبير والإيجاد للأقوات
والمرء أجدى بالوثوق بربه ... ما دام ذا عقل وذا فكرات

لا سيما إن كان يؤمن بالإ ... ه وأنه لا يخلف الوعدات
والله حذرنا مقالة من به ... قد أشركوا الأسباب فى القتلات
بالقول عن إخوانهم لولا خرو ... جهم لما كانوا من الأموات
والله صير مثل هذا الوهم فى ... قلب العباد مطية الحسرات
والله قال هو الذى يحيى الورى ... ويميتهم لا السعى للحرمات
والعمر محدود كذاك الرزق مقسـ ... ـوم فلا تأثير للعلات
لكنه التنظيم فى صنع الإلـ ... ـه لقد أثار الوهم والظنات
فتطلعوا لظواهر الأسباب ثـ ... ـم عزوا لها التأثير فى المنعات
ولقد نهى المختار من قد قال (أم ... طرنا بنوء) كذا من القطرات
ونهى المهيمن أن يقول المرء (إنى ... فاعل) هذا مع الغدوات
من دون تقديم المشيئة حيث أن ... العلم عند الله بالفعلات
والجزم بالأفعال قبل وقوعها ... قد يوهم الإنسان بالقدرات
ويبث فى النفس الغرور وإنه ... هو ما يجر المرء للهلكات

سر التفاضل

والله قد قسم المعايش فى الحيا ... ة وفضل الأفراد فى الدرجات
ليكون فى هذا السبيل تنافس ... وتسابق للفوز بالغايات
إذ أنه لولا التفاضل ما سعى ... أحد لنيل الرزق والرفعات
بل لم يكن لجهوده من لذة ... تنسيه ما يلقى من النكبات
وكذاك لولا أن يكون الناس شـ ... ـعا نائيا عن واجب الطاعات
لأصاب كل الكافرين من الغنى ... ما يوقع العباد فى الفتنات
ويقودهم جهلا إلى متع الحيا ... ة فلن يعودوا ذاكرى الجنات
فمن ادعى بالسعى يرزق نفسه ... وبعقله يهدى إلى الخيرات
فهو الجهول بحكمة الرزاق أو ... هو منكر للفضل والقسمات

أحوال الجاحدين

ولقد جزى المولى الذى نسب الـ ... غنى لعلومه بالخسف والنقمات
وأقام منه عبرة للمبتغين ... من مكانه من قاصرى النظرات
من يفرحون بهذه الدنيا ويغـ ... ـترون بالأموال والرتبات
ناسين مانحها وقاسمها فلا ... يرضون بالحسنى ولا الحسنات
والكانزين المال حبا فيه من ... دون الإله مقسم الثروات
والمنفقين لما لهم فى غير ما ... من أجله نالوه من نفقات
والمانعين المال عن إجرائه ... مجراه من فضل ومن صدقات
والمبتغين به سبيلا ليس ير ... ضى خالق الإبريز والفضات
ظنا بأن المال حق من حقو ... قهم وقد نالوه بالخبرات
لاحق فيه لغيرهم إذ ليس للمـ ... ـولى به شىء من المنات
والله قال بأنه هو باسط الا ... رزاق قاسمها على النسمات
وهو الذى بالشكر سوف يزيدها ... ويزيلها بالكفر بالنعمات
وهو الذى ما عنده خير لمن ... هو مؤمن بالله والميقات
يرجو بفعل الصالحات ثواب مو ... لاه ولا يغتر بالشهوات
بل لا يريد بهذه الدنيا العلو ... ولا الفساد ويرقب الرحمات

العدل الإلهى فى الرزق

والله صير فى العباد طوائفا ... الفقر يفسدها بلا مريات
إذ لا تطيق الصبر فى البلوى وتجـ ... ـهل حكمة الخلاق فى البلوات
وكذاك أخرى بالغنى تطغى وتفـ ... ـسد بل وتنكر بارئ النسمات
وبمقتضى ذا العلم وزع بينهم ... أرزاقهم بالعدل والحكمات
وأنا لهم فى الحالتين بقدر ما ... فيه صلاحهم على الذات

سُنَّة الله في خلقه

والله إن يغلق سبيل الرزق من ... باب ييسره من الكوات
وإليه يرشدنا ويدعونا إلى ... إتيانه بالسعى والحركات
وينيلنا بسلوكه آمالنا ... وفقا لسنة واضع السنات
وهى التى قد طبقت من قبل فى ... أمم خلت فى غابر الحقبات
ليست تبدل دائما إذ أنها ... منه كما نظمه لسير حياة
فإذا أراد الله (رشد جماعة) ... شرح الصدور لأحسن الكلمات
وإذا أراد بها ضلالا يجعل الأ ... بصار والآذان فى غفلات
والصدر فى ضيق من الإيمان وه ... و يصعد الأنفاس والزفرات
وإذا أراد بها (عذابا واقعا) ... جارى مشيئتها إلى الشهوات
كى تستحق عذابه فيصيبها ا ... مولى به كنتيجة الزلات
وبمثل ذا يهب الإله لمن أرا ... د من العباد السعد والخيرات
ولنحن مأمورون دوما بالتآ ... سى واتباع أحاسن الطرقات
والسير فى أعمالنا وفقا لما ... هو شأن طه سيد السادات
من جاءنا بالعلم والأعمال لا ... بترهب وترقب الصدقات
ودعا لبذل الجهد فى كسب وتف ... ويض إلى الرزاق بالنيات
ودعا لإعداد القوى والأخذ بالأ ... سباب فى الدنيا وبالحيطات
فتوافر القوات يرهب خصمنا ... لا أنه هو يكسب النصرات
والنصر عند الله يؤتيه لمن ... يرضاه لا بالجيش والعدات
لكنه بهما يثبت قلب من ... لم يقتنع إلا بمحسوسات
وحنين أضحت عبرة فى حق من ... يغتر بالأسباب والكثرات

وجوب السعي

والسعى مأمور به بل واجب ... وعليه رتب ربنا المنحات
بل إنه شرط مع الإيمان فى ... حسن الأداء لواجب الطاعات
لمن ابتغى يوم الحساب بفعله ... لكنه لا يضمن الجنات
والله أخبرنا بأن مصائب الإ ... نسان كسب يديه لا الصدفات
من عندنا أنفسنا نتيجة تركنا ... للسعى أو عن فعلنا الزلات
والله قد فرض التزود فى الحيا ... ة لهذه الدنيا وللميقات
وأبى علينا أن نظن من التوكـ ... ـل تركه لله بالعزلات
بل قال فيمن حج بيت الله دو ... ن توفر الأموال للنفقات
وغدا هنالك يطلب الإحسان من ... إخوانه لبلوغه الغايات
ظنا بأن صنيعه هذا يعـ ... ـد توكلا يرضى العلى الذات
(وتزودوا) للحج قبل مجيئكم ... يا مبتغين الحج بالصدقات
ولهم أشار بأن (خير الزاد تقـ ... ـواه) وذا بالسمع والطاعات
فمن استطاع الحج فليجب الندا ... ء وغيره فليترك الكلفات
إذ لا يعد من التقى أن تبتغى ... حجاً برغم الفقر والفاقات
لا سيما والله قد حظر التكـ ... ـف والسؤال لغير ما حاجات
ولقد أجاب المصطفى من قال لم ... لا نترك الأعمال والحيطات
متوكلين على المقدر فى الكتا ... ب لنا من الإسعاد والخيبات
أن السعيد هو الميسر فى الحيا ... ة لصالح الأعمال والحسنات
وكذا الشقى فأنه من كان فيـ ... ـها سيء الأعمال والنيات
والله أخبر أن من أعطى وخا ... ف وكان ممن صدق الآيات
فالله يدفعه إلى اليسرى ومن ... يك غير ذا فيقاد للعسرات

وجوب الاحتياط

والناس قد تخشى وقوع حوادث ... فتجانب الأسباب للحيطات
وتظن جهلا أنها قد وفقت ... فى درء ما تخشاه من بلوات
فتصيب أحياناً وقد يأتى البلا ... من حيث لا تدرى من العلات
ولقد تزاول كل أسباب المرا ... د فلا تنال القصد والغايات
إذ أنها جهلت بأن السر تيـ ... ـسير الإله منفذ الرغبات
فلربما حذر يؤدى للوقو ... ع وحيطة قد تجلب الهلكات
ولربما سبب نراه نافعاً ... ويكون منه الضر فى حالات
ولرب رأى ما تظن فساده ... ويكون منه أعظم الخيرات
ولرب أمر يعجز الإنسان عن ... إدراكه سينال بالصدفات
ولرب شح قد يسبب فقر من ... قد ظنه هو يطرد الفاقات
ويفوز دوماً بالغنى من كان ينـ ... ـفق ماله لله فى الصدقات
وفقاً لقول الله أنفق يا ابن آ ... دم لا تشح سأوتك النفقات
والحق أن الإحتياط مناسب ... ومحبذ بالشرع والعادات
لكنه لا ينبغى حسبانه ... سببا له التأثير فى المنعات
بل كل أمر قائم فى ذاته ... والله قسمه على الأوقات
ومراد ربك كائن لم يثنه ... حذر عزاه الله للحاجات
فبرغم ما أوصى به أبناءه ... يعقوب لم يسلم من الفجعات
وأصاب يوسف مع أخيه جميع ما ... قد كان يخشاه من النكبات
وكما توقع قد أتوه بعذرهم ... عن يوسف وتعمدوا الكذبات
أما أخوه فإن يوسف خصه ... بإشارة ورماه بالسرقات
لينفذ المقدور رغم إرادة ... منهم وتصدق رؤية السجدات

والشرع بالأسباب يأخذ فاتبع ما قد أتى فى محكم الآيات
والعزم شرط فى التوكل ثابت معه بأمر الله عالى الذات
(واعقل بعيرك) ثم كن متوكلا قال الرسول بأصرح الكلمات
وبه تبين أن ترك الاحتيا ط مخالف للشرع والحكمات
وكذاك ترك السعى ليس من التوكـ ـل بل يغاير أنبل الغايات

وجوب التسليم

لكنما التسليم للمولى بتر ك الاعتراض خلاصة الطاعات
وبدونه لا يقبل الإيمان من أحد إلهى بارىء النسمات
والله نبهنا إلى أمر به يتسرب الرضوان للمهجات
هو أننا إن نطلع يوماً على ما غاب خلف مواقع النظرات
ما كان يمكن أن نريد سوى الذى هو واقع لا سابق الرغبات
ولقد نحب الشىء وهو مضرة ويكون منا الكره للخيرات
والله يعلم وحده أمر الصلا ح وكافة الحركات والسكنات
ولأجل ذا مدح الإله الصابرين وخصهم بجلائل النعمات
وحكى لنا القرآن عمن كان فكـ ـر ثم قدر كافة الغايات
متأكدا بحصولها وفقا لما قد كان قدره بلا مريات
من دون تسليم لمولاه ولا طلب المعونة منه فى الحاجات
إن القضاء طغى على تقديره فأصيب حيث يؤمل المنعمات
وفقا لما نال ابن نوح حيث ظ ن نجاته بتسنم الذروات
فأصابه الغرق الذى يخشاه قبـ ـل بلوغه ما رام من عصمات
إذ ليس يعصم من قضاء الله أمـ ـر لا وليس يرد بالحيطات

لله تعالى خرق العادات

والرزق قد يأتى بلا سبب كما ... يقضى على الإنسان بالسكتات
فضلا من المولى كما هو شأن من ... يدعو الكريم ووافر المنات
والناس تنسبه لحظ المرء وهْـ ... ـو مقدر فى تلكم اللحظات
أو إنه هو من إرادة ربهم ... مولى الحظوظ ومانح الثروات
والله إذ خلق المسيح بلا أب ... متخطيا فى ذلك العادات
وكذاك أبقى ميتا مائة من الأ ... عوام أعقبها بعود حياة
وكذاك لم يفسد طعاما كان ثم ... ولا شرابا طيلة الأوقات
وكذاك جمع ما تحطم من عظا ... م بعثرت فى تلكم الفلوات
وأعاد سيرتها حمارا مثلما ... كانت فقد أو ما إلى حكمات
هى أنه المتعال غير مقيد ... فى الخلق بالأسباب والعلات
فالرزق رزق الله والأعمال من ... كسب العباد بأمر عالى الذات
وبمقتضى سنن له جعل الخيار ... لخلقه فيها قبيل وفاة
والله أنكر رمى رام حيث قا ... ل بأنه هو من رمى الرميات
إذ أنها وفق المشيئة قد أتت ... وبما حباه له من القوات
ومشيئة المولى الأساس لكل شىء ... وهى فى الأسباب والغايات
ولو أن للأسباب تأثيرا إذا ... لتصادمت لتعارض الوجهات
ولكان ترجيح بغير مرجح ... وهو المحال ومنكر القولات
أو كان ثمت من لزام بينها ... بالفعل فى التأثير والمنعات
لتسلسلت ولدارت الدنيا بها ... وتعطلت لله بعض صفات
وعطاء ربى بالإرادة كائن ... رغم الموانع منه والعقبات
وعطاء ربى لا يؤثر فيه إمسـ ... ـاك ولا إكثار من نفقات

التقوى والرزق

والله أخبرنا بأن مجرد استغفاره سراً مع التوبات
مما يسبب رحمة المولى وغفران الذنوب ووفرة الخيرات
إذ يرسل الغيث العميم من الـ ـسماء ويجعل الفلوات كالجنات
ويمد من يدعوه بالأموال والأ بناء حتى يكمل الزينات
وكذاك أخبرنا بأن مجرد التـ ـقوى وطاعة بارئ النسمات
مما تهيىء مخرجا للمتقى فى حالة الأزمات والكربات
وتيسر الرزق الحلال له بلا تعب ولا نصب ولا كلفات
من حيث لا يدرى ولم يعمل له بطريقة لم تبد للفكرات
وفقاً لما وجدته مريم وهى فى محرابها من وافر الثمرات
حتى لقد كانت مثار تعجب فى قومها من تلكم الحالات
وكذاك يصلح أمره وفعاله وله ينور أظلم الطرقات
ويكون فى كنف الإله فلا يمـ ـس بأى ما سوء ولا فتنات
والنصر مكتوب له حتما بعو ن الله والإمداد فى الحومات
والله بشره بأن سينا له كفلان منه واسع الرحمات
وبأنه المولى سيغفر ذنبه وله سيزلف عالى الجنات
أفبعد هذا نرتجى أرزاقنا من فعلنا لا منه عالى الذات
حاشا فإن الرزق مقدور لنا من محض فضل الله والمنات
(كمرتب) لا بد منه لسد ما نحتاجه من واجب النفقات
والسعى مطلوب كأعمال (الوظا ئف) وهى عائدة إلى الذمات
فهناك من هو عامل ومثابر بالجد مع إخلاصه النيات
وهناك آخر خامل متكاسل بل ربما هو فاقد الهمات
والكل يأخذ فى النتيجة راتبا قد لا يوازى الفعل والخدمات
والله ربى قاسم الأرزاق خا لق هذه الحركات والسكنات
وهو الذى قد وزع الأعمال بيـ ـن عباده بالعدل والحكمات

ولهم تعالى قد تكفل (بالمعا ش) فلا يوقفه مدى الأوقات
وهو الذى قد قال عنه نبيه فيما روى عنه من القولات
من ضعف إيمان الفتى إرضاء مخـ ـلوق بإغضاب العلى الذات
ويخصه بالشكر إن أجرى له رزقاً حباه الله للنسمات
ويذمه إن لم ينله من الذى لم يؤته المولى من النعمات
والله ليس لرزقه من مانع رغم الحريص وكاره الزكوات

حقيقة التوكل

ونبينا امتدح الذين توكلوا ورضوا بحكم الله فى النكبات
ثقة وإيمانا به من غير ما ضجر ولا نظر إلى العلات
وترقبوا منه شفاء سقامهم من غير ما رقيا ولا كيات
إذ عدهم من ضمن من هم يدخلو ن بلا حساب عالى الجنات
فعلى الخبير بأن يزاول ما يرى فيه بلوغ القصد والغايات
ويحيل أمر مصيره لإلـــه يرضيه ما يختار من خيرات
فالله إذ شرع التوكل قد أرا د بنا دوام العيش فى غبطات
حيث السعادة فى رضاء النفس باا لمقدور والتسليم فى الشدات
وكلاهما أثر لمعرفة الإلـــه وأنه الفعال فى الفعلات
وجميع ما يختاره خير وإن لم يستبن ما فيه من حكمات
وبقدر ما يثق الفتى بإلهـه يرضى بما يرضاه من حالات
ويظل يعمل فى الحياة بدون إصـ ـرار على ما رام من شهوات
بل تاركا لله أمر قياده فى حالة الغدوات والروحات
كالطير تغدو خامصات رزقها فى المصر موجود وفى الفلوات
تسعى إليه وما لهـا علم به حتى ترجى موضعاً بالذات
بل ما أراد الله يلهمها به فتروح مشبعة من الثمرات
هذا الذى يدعى التوكل لا كما يتوهم البسطاء من عطلات
وبمثل هذا نعرف الأسباب لا نرجو لنا من فعلها الحاجات

حقيقة التقوى

وحقيقة التقوى التأكد من وجو ... د الله فى سر وفى الجهرات
وكذا الشعور بعلمه بجميع ما ... يأتى الفتى من فعل او نيات
متصوراً مولاه وهو عليه مط ... لع يحاسبه على العثرات
إذ أنه فعلا يراه وإن يكن ... هو لا يراه كسائر النسمات
مما يؤدى لابتعاد المرء عن ... ما يغضب المولى من الزلات
والائتمار بأمره فيما إليـ ... ـه دعا من الأعمال والصلوات
وكذاك إن يك زاهداً والزهد لي ... س كما يراه قاصر النظرات
بتقشف أو لبس مرقوع الثيا ... ب وترك ما قد حل من متعات
فالمصطفى قد قال ليس الزهد فى ... ترك الحلال وضيعة الثروات
بل إنما هو أن تكون بما لدى الر ... زاق أوثق دون ما ريبات
مما يحوزك بل وحتى فى يديـ ... ـك وأن تكون بساعة البلوات
فيها أشد تشوقاً من قبل من ... عظم الوثوق بأجر عالى الذات
وبذاك لا تأسى على ما فات من ... نعم ولا تغتر باللذات

الثقة بالله تعالى

وهناك واسطة بها يتمكن ... الإنسان من إدراكه الغايات
وبها سيبلغ منتهى الإسعاد فى الـ ... ـدارين دون عنا ولا كلفات
بل إنها بيديه أعظم قوة ... لا شىء يغلبها من القوات
إذ أنها سهم تفضل ذو الجلا ... ل بجعله لعبيده النسمات
يتذرعون به لصد السوء عنـ ... ـهم والبلا والفقر والهلكات
ويحققون بسره ما يبتغو ... ن لهم من الآمال والمتعات
فى هذه الدنيا وفى الأخرى من الـ ... ـنعم الجسام وزخرف الجنات
وهى اللجوء إلى المهيمن دائما ... فيما ابتغاه المرء من حاجات

يدعو ويضرع وهو يعلم قدرة الا ... مولى على مارام من رغبات
ولذاك يلحف فى الدعاء مراقباً ... تحقيق ما يرجوه من طلبات
ويكون ثمت قد أصاب بفعله ... مخ العبادة فى تقى وثبات
وأصاب ما يرمى إليه الدين من ... توحيد مولى الفضل والمنات
وأصاب ما من أجله الثقلان قد ... خلقا بأمر الله عالى الأوقات
فالله أعطى للعباد عليه وعـ ... ـدا ليس يخلفه مدى الأوقات
أن يستجيب دعاءهم إن دعو ... ه ويمنح الطلبات والرحمات
إذ قال ربى (إنه هو من يجيـ ... ـب دعاء من يدعو) من النسمات
ودعا العباد إلى استجابتهم له ... بدعائه بالذل والخفيات
وليؤمنوا بوجوده وبقربه ... وبأنه لا يرفض الطلبات
بل إنه سمى الذى لم يدعه ... مستكبراً عن واجب الطاعات
ولسوف يدخله جهنم داخرا ... يهوى بها فى أسفل الدركات
إذ أنه لم يقبل الإحسان من ... رب الأنام برفضه الدعوات
وكذاك أصبح مشركا من كان يد ... عو غيره فى حالة الشدات
والله لما أن دعا إبليس بالإ ... نظار أنظره إلى الميقات
مع علمه بالقصد من ذاك الدعا ... ء وما يراد به من الفتنات
وصدوره فى حالة العصيان بل ... عند الغرور ورفضة السجدات
وكذاك لما إن دعت ذات الوشاح ... وقد رماها القوم بالسرقات
سمع الإله دعاءها وأجابها ... حالا وبرأها من التهمات
بحداءت نقلت وشاحهم وكا ... نت لا توحد بارئ النسمات
من بعد ذلك آمنت وتعلقت ... بالله شكرانا على النعمات
وكذاك لما أن أناب إليه آ ... دم داعيا قد من بالتوبات
وأناله ما قد دعاه به من الـ ... ـغفران والرضوان والرحمات
وجراءة الشيطان فى دعواته ... جعلت له ما رام من سلطات
وكذاك كل الأنبيا والرسل لما ... أن دعوه حقق الدعوات

وأجاب ما طلبوا لأنفسهم وأه ... لميهم وباء القوم بالهلكات
ونبينا لما دعا المولى لأم ... ته هداهم أقوم الطرقات
بل صانهم مما أصاب سواهم ... ممن مضوا فى سابق الحقبات
ولمن دعا فى ساعة الأخطار قد ... نجى وفرج أعظم الشدات
وكذاك ينجى المؤمنين الله إن ... رجعوا إليه ساعة الغمات

الجزم بالدعاء

وكذاك كل الناس من منهم يوج ... ه قلبه لله فى الحاجات
ويرد من الله النجاح فإنه ... سيناله حتما بلا مريات
لكن على أن يعزموا بدعائهم ... ويؤكدوه بشدة وثبات
بل يوقنوا بإجابة المولى الدعا ... ء لأنه لا يخلف الوعدات
ولأنه هو من حباهم كل شـ ... ـىء منه حتى العقل والفكرات
وهدى إليه من ارتضى وأنار بالإ ... يمان قلب المرء والنظرات
لا أن يقول إن تشأ ربى ائتنا ... ذاك الذى نرجو من الرغبات
فالله لم يكره على هذى الإجا ... بة إنما هو مانح النعمات
وعد الأنام بها فليس لنا إحا ... لة أمرها لله فى الدعوات
بل لا يحل لنا التردد فى استجا ... بته لنا بالقول والنيات
إذ أن معناه التشكك فى مدى ... إحسانه أو مبلغ القوات
أو وعده للناس وهو مؤكد ... قد نص عنه بمحكم الآيات
وسقوط أبراج السماء على البسيـ ... ـطة واصطدام الشمس بالنجمات
أدنى وأقرب من تردد ربنا ... فى بره بالوعد للنسمات
فالوعد دين لا يجوز المطل فيـ ... ـه وليس ينكره ذوو القدرات
بل إنه لابد فيه من السدا ... د لمن سيطلبه بكل ثبات
والله أكرم من يفى بالوعد أو ... يقضى الديون ويقبل التوبات
لكن إذا صحت وكانت من صميـ ... ـم القلب أو صدرت عن الحرقات
ولذاك كانت دعوة المظلوم آ ... كد بل وأرجى عند عالى الذات

وإذا دعا المولى امرؤ متوكلا ... يكفيه ما يرجو بلا مريات
فالله بالغ أمـــــره لكنه ... قد قدر الأشياء بالأوقات
والله إذ وعد الورى بإجابة الـ ... ـدعوات لم يقصد به الخدعات
كلا ولم يك هازلا ومجاملا ... فى وعـده للناس فى السورات
وكذاك ليس يحول دون وفائه ... شىء تعالى مالك الميقـــات
حاشا وليس لديه صعب أو عظيـ ... ـم لا ينال بأقرب اللحظات
فبقول كن سيكون ما يدعو به الإ ... نسان مهما كان فى العظمات
لـكنه تأتى الإجابة وفق أن ... ظمة الحياة ومقتضى الحالات
ولبينما تتهيأ الأســباب أو ... تتـلاءم الأوقات للطلبات
فالله إذ خلق السموات العـلى ... والأرض لم يلجأ إلى السرعات
بل كان ذاك بنحو أسبوع وكا ... ن بوســـعه إبداله فترات
والله ربى ما تردد قط فى ... أمر تردده بأمـــر وفاة
فالعبد يكره أن يموت وربه ... يأبى إساءته بفقد حيـــاة
وبه لقد سبق القضا ليـكون منـ ... ـه وســيلة للبعث والجنات

تجنّبُ الشّكّ

ولئن يكن سبب لخيبة أى شخـ ... ـص فى الحياة فذا لفقد ثقات
أو كان ثمت من دعاء لم يجب ... فلأنه ما كان من مهجات
أو شـابه شك يعطل فعله ... ويحول دون تحقق الرغبـات
والله ليس يجيب دعوة غافل ... لاه ولا متردد النيـــات
أو قائل أنى دعوت فلم أجب ... أو من دعا بالإثم والفـرقات
بل إنه المولى ينيل السائلين ... الله ما يرجون من حاجات
فى هذه الدنيـا ولو إصلاحه ... شسع النعـال وأعظم الغايات
وكذاك مايرجون فى الأخرى من الـ ... ـغفران والإحسان والجنات
ويسر بالطلب العظيم لأنه ... لا شىء أعظم منه ذو العظمات
وكذلك يغضب فى الأنام على الذى ... لم يدعه فى ســاعة الأزمات

والله إذ منح العبـاد إجابة الد عوات وهو الواسع الرحمات
قـد قال للشيطان إن عباده لا يستطيع عليهم السلطات
فبسر دعوتهم سيحبط سعيه ويرده ندماً من الخيبـــات
وكذاك سوف يعمهم بمراحم لم تبد للإنسان فى الخطرات

تكرار الدعاء

والله حض على الدعاء وسنه فى كافة الأوقات والصلوات
كى ما يكون سجية ويفيدنا تكراره للجزم بالرغبات
وأبى وحذر أن نكون بغفلة عما نقول بتلكم اللحظات
بل إنه منع الصلاة بحال سكـ ـر فيه ينفى العلم بالقولات
وإذا دعاه جاحد فى شـــدة إن شاء بددها من الرحمات
أو شاء أهمله جزاء الكفر فى ما قد مضى من سابق الأوقات
ومن اكتفى فى العيش بالمقدور دو ن تطلب التعديل فى الدرجات
بدعائه والسعى سوف يظل حـ تى الموت وهو بتلكم الحالات
بل ربما يهوى إلى ما دونها متدهوراً فى الرزق والنعمات
بل ربما هو يخسر الأخرى إذا ترك الدعا والسعى للجنات
إذ أنه رفض استجابة مانح الأ رزاق من لا يرفض الدعوات
وكذاك قد رفض البقاء بحاله وبأن يعيش كعيشة السلعات
لا يطلب المولى بإيمان ولا يرجو إجابته بكل ثقات
بل ليس يجزم بالرضا من ربه إذ أنه لم يخلص النيـــات
أو لم يتب حقاً ولم يعمل ليو م البعث أو يترقب الرحمات
بينا ينادى الله فى الأسحار (هل من سائل) فأنيله الغايات
أو (تائب مستغفر) فأحوطه بالعفو والغفـــران والتوبات
وأنا الإله (وكل شىء رحمتى وسعته) فى الدنيا وفى الميقات
وجزاء من ذا شأنه سيكون نسـ ـياناً لدى التوزيع للنعمات
يوم الحساب لأنه نسى الدعا ء بما يريد بتلكم الأوقات

بل إنه نسى المعاد وأنكر الأ خرى وأغفل جانب الحسنات
وتعمد العصيان فى ترك الدعا ء وفى تقاعسه عن الطاعات
لا غرو أن ينسى ولا يلقى سوى نار الجحيم ومنتهى القسوات
وهناك يحصد زرعه ويرى جزا ء الكفر بالمولى العلى الذات
ونتيجة الإهمال فى الدنيا وكيـ ـف تكون عقبى اللهو والغفلات
بل ما استحق من العذاب لرفضه حسن التعرف بل وحسن صلات
بالله خالقه ومطعمه وسا قيه وكاسيه من الحليات
ومسخر الثقلين فيما يبتغى ومحقق الآمال والدعوات

ترتب الإجابة

والله صير أفضل الأعمال فى الد نيا انتظار اليسر فى الشدات
حيث الدعاء يعد كالمفتاح فى باب الرجاء ييسر الغايات
فى وجه من رام التقدم والوصو ل بسعيه للقصد والذروات
أوكا الطليعة يرتجى فى إثرها ما يبتغيه المرء من رغبات
أو كالوسيلة لاتقاء الضر فى الد نيا وكسح الصعب والعقبات
والفوز فى الأخرى بأنعم مالك لا يرتضى لعبيده الهلكات
إذ أنه هو فى يمين المؤمنيـ ـن سلاحهم فى أحرج الساعات
وهو العماد لدينهم مخ العبا دة وهو نور الله فى الظلمات
فالله لم يعبأ بنا لولا الدعا ء لأنه هو يمنع النكبات
وهو الذى لا بد ينفعنا إذا نزل القضا متماسك الحلقات
فيفكها ويردها بإرادة منه تعالى مالك الميقات
(ولرب أشعث أغبر إن قال قو لا بره) المعطى بلا منات
والله يرزق من يشاء بلا حسا ب باعتبارهم من النسمات
ولقد تكفل ذو الجلال برزقهم وبرزق ما فى الكون من حشرات
وكذاك يرزق من دعاه كما ير يد بأفضل الأسباب والأوقات
إذ أنه المولى العليم بما سيص لح أمرهم وبأحسن الحالات

حاشا يجاريهم على رغباتهم ... إن لم تكن مضمونة الثمرات
وله تعالى ان يعجل ما يرى ... تعجيله من ألزم الحاجات
ويؤخر الباقى ليوم قيامة ... أو بالدعاء يكفر الزلات
ولذاك قد وعد الإله الصابري ... ن على القضاء بأرفع الدرجات
إذ أنهم قد سلموا لله ثم ... رضوا بما يرضى من الفعلات
والله من على العباد بأنه ... آتاهم من كافة الطلبات
وبأنه يعطى الثواب لمن يري ... د بهذه الدنيا وبالميقات
ولو أن أهل كتابه قد آمنوا ... ثم اتقوا ومشوا على الخطات
فإذا لنالوا رزقهم (من فوقهم ... أو تحت أرجلهم) وكل جهات
فلنرتقب نحن الإجابة للدعا ... ء بدون ما شك ولا ريبات

بذل الجهود

ومن المهم بأن نسير مع الدعا ... ء على الطريق ونقصد الغايات
ونجد فى المسعى لنبلغ ما نري ... د من الحياة بأقرب الساعات
أما الدعاء بدون سعى إنه ... شأن الضعيف الفاقد الهمات
يأتى إلى الأبواب يفتحها ولا ... يرضى الصعود لأرفع الدرجات
ويظل يرقب من سيرقاها ولا ... يبدى سوى الآلام والحسرات
فيبوء بالحرمان مما يبتغى ... ويفوز بالآلام ذو العزمات
من يفتح الآمال بالدعوات ثـ ... ـم يسير بالأعمال للذروات
وإذا عرته فى الطريق مصاعب ... بالصبر ذللها وبالحكمات
وبما لديه من اليقين بربه ... وبما يؤمله من النصرات
بل ما سيمنحه الإله له من الـ ... ـتوفيق والتأييد والقوات
فالله إذ شرع الدعاء دعا إلى ... الأعمال والأقدام والعدات
وأبى الخمول وأن نراقب رزقنا ... يأتى بمحض الجود والمنات
بل أنه جعل الثواب مرتبا ... د وما على الأعمال والنيات

حضور القلب

أما الدعاء بغير قصد أو بلا اسـ ـتحضار رب العرش فى الدعوات
(كوظيفة) تتلى بشكل الببغا ـء فذاك قد لاينتج الثمـرات
أولا يكون وسـيلة لتحقق المـأمول فى وقت من الأوقات
إذ أنه كاللغو إن قلنـا بأن لا إثم فى الأعراض والغفلات
عمن نخاطبه وندعوه بألسـ ـنة ونخبره عن الطلبـات
بينا يكون القلب منشغلا بغـيـ ـر الله من خلق ومن خطرات
وكذاك حال الذكر والتسبيح واسـ ـتغفارنا والحمـد بالميـات
لـكنما التـكرار فى هذا يذكـ ـر غالـباً بالله عـالى الذات
ومتى ذكرنا الله حـقاً مرة بتبتـل مع خالص النيـات
فالله يذكرنا كذكرانا له ولنـا يحقق كافة الرغبـات
والذكر يوقظ كل قلب غافل وينبـه الإنسـان للخيرات
وينيل رضوان الإله فلا يضل ويتقيـه فيجتنب الحرمـات

الاعتراف بالنعم

والله سـخر لابن آدم كل ما فى الـكون من جسم ومن قوات
ودعاهم أن يبحثوا وينقبوا لتفهـم الأسرار والحـكمات
ودعاهم أن يبحثوا فى ذاتهم من بدء خلقتهم من النطفات
وتطور التـكوين فى الأرحام ثـ ـم خروجهم من داخل الظلمات
وحياتهم ونموهم فى هـذه الـ ـدنيا وما هم فيـه من حالات
وتفاوت الأفـكار والآمال بل والعمـر والأرزاق والدرجات
فلـكل فرد آلة قد أوجدتـ ـه مغايراً لأخيه فى الخلقات
وجميعها متشـابهات فى النظا م وكلهم من واحـد الذرات

وجميعهم من صنعه وفعالهم منه بقدرته على الحركات
وتعدد الأطوار يثبت قدرة لله خالق تلكم الآلات
فجميع ذا مما يعرفهم به ويقودهم للخير والطاعات
إذ لاسبيل إلى الوصول لكل ذا إلا من الخلاق عالى الذات
وكذاك حضهم على الأعمال كى ما يبلغوا الآمال والغايات
وأنالهم من فضله عزما ومقـ ـدرة على إبراز مخترعات
مستخدمين جميع مافى الكون فى أغراضهم بالعلم والفكرات
ومسخرين قوى الوجود وماحوت (وأشعة) ودخائل الذرات
فيما ابتغوا فى هذه الدنيا من الـ متع الجسام وكامل الزينات
حتى لقد ظنوا بها لنفوسهم شيئاً من التأثير والقدرات
بينا تدل على الإله جميعها ولبأسه أضحت من الآيات
فمن المهم بأن نقر بأنه سبحانه هو موجد النعمات
وهو الذى وهب العباد جميع ما هم فيه من نور ومن ظلمات
ومن الهوا والماء بل كل القوى والعقل والحركات والسكنات

تأكيد الصلة بالله تعالى

والله أخبر أنه معنا وأة رب ما يكون لمرتجى الرحمات
بل إنه أدنى لمن يرجوه (من حبل الوريد) وأقرب القوات
إذ منه نكتسب الحياة لجسمنا وبدونه لا نملك الحركات
بل إنه سر الحياة وموجد الآـ ـلاء وهو محرك السكنات
وقواه كامنة (بذرات الوجو د وفى الأثير) وموضع النبضات
وهو العليم بكل مافى الكون من خلق ومن أعمال أو نيات
فإذا سعينا إنما نسعى بقو ته وما أولاه من عضلات
بل بالحياة وقد حبانا الروح منـ ـه فكلنا فى الكون كالآلات
بل نحن من ضمن القوى وجميعنا جند نسير بمقتضى الحكمات

فمن ابتغى فى الكون شيئا فلينا ج الله فى ذل وفى إخبات
ويبثه آماله من قلبه ويؤكد الرغبات بالدعوات
ويراقب الإلهام من نفس الطري ق لما سيوصله إلى الغايات
إذ أنه لا بد أن يهدى الفؤا د إلى الصواب وأحسن الطرقات
فمن اتقى مولاه يهدى منـ ـه إليه بل ولمنتهى الخيرات
و(القلب) بيت الرب وهو محل أنـ ـظار الإله وموضع النجوات
وهو (المحطة) لاتصال الروح بالـ ـولى بها الأفكار (كالموجات)
تعطى وتأخذ بل وتملى ما ترى ولها يدين الجسم بالطاعات
وبقدر ما تخلو من الأغيار تشـ ـمل بالمجيب فتسمع الهمسات
وجميع ما يأتى إليها داعياً للخير فهو من العلى الذات
أو داعياً للشر فهو وساوس جاءت من الشيطان والشهوات
والمرء يمسى ملهما وموفقا فى سعيه لا يعرف الخيبات
وهناك أعظم قوة فى الكون تد فعه إلى الإصلاح والحسنات
وتقوده من حيث لا يدرى إلى ما يبتغى من غير ما كلفات
وتيسر الرزق الحلال له فلا يجد الصعوبة قط فى النفقات
بل يجعل المولى له من كل ضيـ ـق مخرجا فيعيش فى غبطات
والنفس منه طروبة والجسم يسـ ـعى وفق أمر الله فى الطاعات
ويظل فى الدنيا يعيش كزهرة لا تعرف الآلام بالهلكات
الله أنبتها وأرواها فلم تذكر سوى من منّ بالإنبات
أو كاليعاسيب التى قد أخضع المو لى لها عدداً من النحلات
من غير سلطان لها أو ميزة إلا إرادة رافع الدرجات
فغدت تدين له تعالى وحده ولغيره لم تذكر المنات
والمرء فى الدنيا بما أوتى من التميـ ـيز والتفكير والحكمات
أحرى بمعرفة الإله فلا يد ين لغيره فى كافة الحالات
وبأن يكون على اتصال دائم بفؤاده بالله عالى الذات

تسليم العقل

والله عدد فى الكتاب مآثرا ... عظمى تدل عليه كالآيات
ودعا العباد إلى تأملها بإم ... عان لتعرف بارئ النسمات
والخالق المبدى لما فى الكون من ... نعم المياه وأول الشجرات
وجميع ما قد كان أو هو كائن ... مما سيكشف عنه بالفكرات
والله كرمنا وفضلنا على ... خلق كثير ساعة الخلقات
ولقد حبانا سلطة عظمى على ... ما بين أيدينا من الأدوات
بل ما يحار الفكر فيه من القوى ... مثل البخار وقوة الذرات
والله سلمنا لعقل يملك التـ ... ـميز بين الشر والخيرات
بإرادة منه وأرسل مرسلا ... بين لهديه لأحسن الطرقات
فإذا اهتدى هذا أطاعته الجوا ... رح ثم سارت تبتغى الحسنات
أولا فسوف يقودها للشر و ... هى بذلك لم تخرج عن الطاعات
وإذا تأمل فى حقيقة أمره ... لا يستطيع لشدة الخشيات
أن يصنع الممنوع من قبل الإ ... له وما يقود الجسم للهلكات
ما دام يعلم أنه تحت الرقا ... بة دائما حتى لدى الخلوات
والله مطلع عليه وكل ما ... يأتيه منطبع على صفحات
بل إن واجب شكره لمن ارتضا ... ه حاكما فى الجسم والحركات
يقضى عليه بأن يزج بنفسه ... فى بحر فيض المانح القوات
مستلهما منه الهدى مستسلما ... لقضائه فى ساعة الشدات
لا يبتغى أمرا ولا ينكف عنـ ... ـه لغير ما يرضى العلى الذات

صفاء النفس

فهناك تنكشف الحقائق للورى ... وهناك تفنى النفس بالآيات
بصفائها مما يسبب همها ... ووثوقها بالله والحكمات
والنفس إذ تصفو وتعرف ربها ... تسمو عن المحسوس من لذات
وتسير فى بحر المعارف والهدى ... دوما فلا تصبو إلى الشهوات
بل إنها تجـــد الملذة فى غذا ... ء النفس بالإحسان والصلوات
والاتصال بمالك الدنيا وما ... فيها ومن هو موجد النعمات
وبذاك لا تخشى البلاء ولا تخا ... ف الناس فى ما كان من طاعات
بل قد تغالب حزنها لتنال بالصـ ... ـبر الرضا من مالك الميقات
لا بل لفرط صفائها ويقينها ... بالله تبصره مدى الأوقات
فى كل ما هو خلقه أو فعله ... فتظل راضية على الحالات
وتظل تنعم فى الحياة بغير ما ... هو قد يسر الجسم من متعات
وترى الحياة لها كسجن مظلم ... وخلاصها للغـــور إثر وفاة
هذا لعمر الحق شأن العارفـ ... ـين بربهم من خالصى النيات

وحدة الأمة

لقد كان من أهم ما دعا إليه الرسول صلى الله عليه وسلم اتحاد البشر وإزالة كل ما يدعو إلى التفرقة فيما بينهم ليعيشوا إخوة متحابين لا يفصل بعضهم عن بعض شىء من المقاصد والشهوات ولا الأعمال والعادات ، ولقد كان الحجر الأساسى لبناء هذه الوحدة هو مادعا إليه الناس جميعاً من الإذعان بوحدانية الله ، ثم تلا عليهم قوله تعالى : « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون[1] » . هذه حقيقة لامراء فيها ، فالناس كلهم أبناء آدم ، فهم أبناء رجل واحد وأم واحدة وهم من أصل واحد وعائلة واحدة ، فما الداعى لتفرقتهم ؟ كذلك الخالق للجميع واحد فمن واجبهم

(١) الأنبياء : ٩٢ .

أن يتحدوا فى عبادته ، وليأخذوا من تعاليمه ما يعيدهم إلى أصلهم الأول ، ويحقق لهم وحدتهم الكاملة وأخوتهم العامة . وعمل عليه الصلاة والسلام بكل قواه وبما جاء به من الشريعة السمحة لإحكام روابط الأخوة بين كل من آمن به واتبع هداه ، وبين للناس أن الله الذى خلق هذه الكائنات ووضع لها نظاماً خاصاً بها وسن السنن وسبب الأسباب قد جعل للسعادة والشقاء والنصر والخذلان سنناً معنوية خفية إلى جانب ماهو ظاهر لهم من الأسباب المادية ودعاهم إلى متابعتها وعدم تجاهلها . ومن تلك السنن التى وضعها الله وقدرها فى أزله أن الاتحاد سبيل العزة والرفعة ، وأن التنازع فى الأمور من شأنه أن يؤدى إلى الفشل والهوان ، ومن أجل هذا أمرهم جميعاً بطاعة الله والرسول ، ونهاهم عن التنازع بقوله تعالى : « وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين[1] » فسعادة الأمة ورفعتها لاتكون إلا عن طريق وحدتها والتئام شمل أبنائها ، كما أن شقاءها وتلاشى عظمتها إنما ينشأ عن اختلاف الكلمة وتضارب الأفكار وتباين المقاصد ، ومن أجل هذا أراد الرسول صلى الله عليه وسلم من المسلمين أن يقيموا وحدتهم الإسلامية على أساس يجعلهم متحدين متوافقين فى كل شىء ، فى العقيدة والعبادة فى الاتجاه والقصد فى اللغة والوطن فى الأخلاق والثقافة فى الزى والعادات فى السياسة العامة والدفاع المشترك حتى تصبح الأمة الإسلامية أمة متضامنة فى السعى متجانسة فى الطبائع متماسكة الحلقات ، لاشىء يفصل بينها أو يقتضى تبعيضها . وللوصول إلى هذا أودع الشارع الحكيم فى كل أمر دعا إليه فكرة ترمى إلى تلك الوحدة وتحض على التآخى والتضامن والمساواة والعمل للسمو والعزة والكرامة كما سنفصل ذلك فيما بعد .

١ — لما كانت العقيدة إنما تتعلق بالقلب الذى هو الأصل فى الإنسان ، والجوارح إنما تعمل لخدمته وتحقيق رغباته ، جعل الرسول صلى الله عليه وسلم وحدة العقيدة الحجر الأساسى فى بناء الوحدة الإسلامية حيث دعا الناس إلى الإيمان وجعل كلمة الشهادة هى الرابطة الأولى لجميع المسلمين على اختلاف أجناسهم وألوانهم ، وربى صحبه على الإيمان الراسخ والاعتقاد الجازم بوحدانية الله تعالى ، وأنه وحده الذى يجب أن يُحب ويُخشى بأسه .

(١) الأنفال : ٤٧ .

٢ — ولما كان الاعتزاز بالجنس أول مفسدة سنها إبليس للخلق ؛ إذ سولت له نفسه أن عنصره أشرف من عنصر الإنسان ، فأدى به ذلك إلى التكبر عليه ومخالفة أمر الله بالسجود « إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس أستكبر وكان من الكافرين ، قال يا إبليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى استكبرت أم كنت من العالين ، قال أنا خير منه خلقتى من نار وخلقته من طين ، قال فاخرج منها فإنك رجيم ، وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين[1] » .

وكانت العرب فى الجاهلية تعتز بهذه العصبية الجنسية وتفاخر بالأنساب والأصول. فعمل الرسول صلى الله عليه وسلم على محاربة تلك العصبية التى تقف فى طريق الوحدة العامة التى يدعو إليها وأعلن إلغاء نظام الطبقات وأرشد الناس إلى ما يكون وسيلة لاقتلاع أثره من النفوس والقضاء عليه بتاتاً بقوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولاتلمزوا أنفسكم ولا تنابذوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون — يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم . يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير[2] » وبدأ الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه فى تطبيق هذا الحكم حيث صاحب الفقراء وتودد إليهم ، وأمر بلالا الحبشى أن يؤذن فى الناس ويدعوهم إلى الصلاة وقربه منه فولاه شئون أموال الدولة وعلى يده تجرى الجوائز للوفود من كبار القوم . وأتى بزيد ابن حارثة أحد مواليه فضرب به عصبية قومه فى الصميم ، إذ اختاره صهراً له وزوجه بابنة عمته زينب بنت جحش ثم ولاه قيادة جيش كان فيه الكثير من أكابر الصحابة وفحول العرب ، ثم ولى ابنه أسامة من بعده قيادة الجيش إلى فلسطين وهو شاب لم يتجاوز العشرين من عمره ، وكان من ضمن ذلك الجيش أبو بكر وعمر اللذين وليا الخلافة بعده عليه الصلاة والسلام .

---

(١) ص : ٧١ - ٧٨ .

(٢) الحجرات : ١١ - ١٣ .

٣ — ثم إنه دعا المسلمين إلى عبادات موقوتة فى أزمان مختلفة من الصلاة والزكاة والصوم والحج ، وطلب من جميع المسلمين أداء هذه العبادات فى أوقاتها ليشعروا بأنهم جميعاً إنما يعملون فى طاعة إله واحد ، فليتعاونوا جميعاً فى هذا السبيل لنيل رضائه حيث قال تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه[١] » .

٤ — وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين بالتوجه كل يوم خمس مرات إلى البيت الحرام ليكون لهم بذلك اتجاه واحد يزيدهم إيماناً وقوة حيث يقول تعالى « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره[٢] » .

٥ — واعتبر الرسول صلى الله عليه وسلم البلاد الإسلامية كلها وطناً واحداً فأوجب على المسلمين أجمعين حمايتها والدفاع عنها والعمل على إسعاد أهلها ومنع الجور والظلم عنهم حتى إنه لم ينه عن البر بالأمم غير الإسلامية إذا لم يقاتلوا المسلمين الموجودين فى بلادهم ولم يسيئوا إليهم ليحملوهم على الهجرة من بينهم حيث يقول تعالى « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون[٣] » .

وحرم الله على غير المسلمين دخول المسجد الحرام ليذكرهم دائماً بالعمل لما يرضى الله الذى يعبدونه ويتصلون به بقلوبهم ويتوجهون إليه فى صلواتهم .

وأوجب على المستطيع من المسلمين الحج إلى بيته فى العمر مرة ليتخذوا من أم القرى عاصمة لملكتهم الإسلامية لايفتنهم فيها أحد ولا يتأثرون بأى نفوذ أجنبى ودعاهم إلى عقد مؤتمر سنوى لهم هناك للتفاهم والتشاور والتعاون وتبادل الرأى والثقافة وكل مامن شأنه أن يحكم روابط الأخوة بين المسلمين ويعزز وحدتهم حيث يقول تعالى « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين[٤] » وشرع لهم من مناسك الحج مايضطرهم إلى التعارف فى عدة أماكن لتحقيق الغرض المذكور .

---

(١) الشورى : ١٣ .
(٢) البقرة : ١٥١ .
(٣) الممتحنة : ٨ — ٩ .
(٤) آل عمران : ٩٨ .

٦ — ودعا الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين أن يتحدوا فى القصد وهو أن تكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين حيث يقول تعالى « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين[١] » ومن أجل هذا شرع لهم الجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال حيث يقول تعالى « أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ذلك هو الفوز العظيم[٢] » ويقول « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم[٣] » .

٧ — وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين أن يتحدوا فى اللغة التى هى سبيل التفاهم ومن أقوى الروابط بين الناس حيث جاءهم بالقرآن بلغة عربية فصحى وأمرهم بتلاوته والإصغاء إليه وتدبر معانيه حيث يقول تعالى « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون[٤] » « فاقرءوا ما تيسر من القرآن[٥] » « وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون[٦] » « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب[٧] » وهذا صريح فى وجوب تعلم اللغة العربية وجعلها اللغة الرسمية للتخاطب بين المسلمين لتحكم بذلك وحدتهم وإلا فما فائدة الإصغاء إليه وكيف يكن لهم تدبر معانيه .

٨ — وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم الناس بحسن الخلق وقال أنه ما بعث إلا ليتمم مكارم الأخلاق وأرشدهم إليها بأقواله وأعماله ليجعل منهم أمة متحدة فى الأخلاق ومثلا أعلا للفضائل والمكرمات لا تفاضل بينهم إلا فيما يبدونه من أعمال صالحات .

٩ — وعمل الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم على الدعوة إلى العلم ومحاربة الجهل الذى اعتبره من أسوء السبات فى الحياة وأراد أن يهىء العقول إلى التفوق والنضوج للوصول إلى أرفع درجات الكمال الإنسانى فدعاهم إلى الأخذ بما جاء فى القرآن من

---

(١) المنافقون : ٨ .
(٢) التوبة : ١١١ .
(٣) محمد : ٨ .
(٤) يوسف : ٢ .
(٥) المزمل : ٢٠ .
(٦) الأعراف : ٢٠٣
(٧) ص : ٢٩ .

تعاليم وعلم من شأنه أن يوصلهم إلى أقوم الطرق فى الحياة حيث يقول تعالى « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات إن لهم أجراً كبيرا[1] » ليكون لهم بذلك وحدة ثقافية تدعوهم إلى التفكير فى حقائق الأشياء والعمل لاستخدامها فى صالح الإنسان والتأمل فى جميع قوى هذا الوجود وتسخيرها لأفضل ما خلقت له من خير وإحسان بل للتسيطر فى الأمور بما أراهم الله من علم وحكمة تحملهم على العمل وفق ما يريده الله من نظام واحد فى جميع المعاملات الخاصة والعامة .

١٠ — وأمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم باتباعه ومتابعته فيما شرعه من الأحكام حيث قال « صلوا كما رأيتمونى أصلى » ويقول « إنى تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما أن تمسكتم بهما كتاب الله وسنتى » ويقول تعالى « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم[2] » .

١١ — وشرع الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم توحيد الزى بين المسلمين بما أوجبه عليهم من التجرد عن المخيط والتزيى بزى الإحرام فى الحج وقد لفت بذلك النظر إلى ما فى توحيد الزى من المزايا التى تشعر بعظمة الأمة وتمام وحدتها وعمل على تثبيت هذه الفكرة فى نفوس المؤمنين بما دعاهم إليه من لبس العمامة ومن قص الشوارب وإعفاء اللحى وندب ترجيل الشعور ودهنها والتحذير من التشبه بغيرهم من الأمم حيث يقول صلى الله عليه وسلم « من تشبه بقوم فهو منهم » لما فى التشبه بهم من معنى احتقار الإنسان لزيه الأصلى وإعجابه بالزى الآخر وهذا ما لا يرضاه الرسول لقومه بل لعن الرسول صلى الله عليه وسلم الرجل الذى يلبس لبسة المرأة والمرأة التى تلبس لبسة الرجل .

١٢ — وأمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يتحدوا سياسياً حيث أمرهم بالخضوع جميعاً إلى قانون واحد هو القرآن وما ورد فى السنة من شرحه وتفصيله مع إقراره عليه الصلاة والسلام الملوك والأمراء فى سلطانهم وحكمهم والشعوب على عوائدها وتقاليدها السابقة التى لا تتعارض مع أحكام الله بحيث يتعاقلون معاقلهم

---

(١) الإسراء : ٩ . (٢) آل عمران : ٣١ .

ويفدون أسيرهم ولتقوية هذه الوحدة سن نصب خليفة عنه يختاره أولوا الحل والعقد من بينهم بشرط أن يكون كفأ للقيام بأعباء الخلافة وتتوفر فيه صفات الزعامة من الدين والأخلاق والحرص على تنفيذ أوامر الله وإقامة العدل وجمع شمل الأمة بحيث يكون رمزاً للوحدة ومرجعاً للحكام فى حال التخالف وحارساً أميناً على حماية بلاد المسلمين وقائداً أعلى لرسم الخطط وقيادة الجيوش فى الحروب .

١٣ — وفرض على جميع البلاد الإسلامية تأسيس بيت مال عام تؤدى كل حكومة له نصيباً من وارداتها من الزكاة وأموال الغنائم والخراج والفىء والعشور والجزية للإنفاق منه على مصالحهم العامة والدفاع المشترك حتى لقد كان الخلفاء يشرفون على ذلك الخراج ويحاسبون الحكام عليه حساباً دقيقاً .

١٤ — وأراد الرسول صلى الله عليه وسلم من المسلمين أن يكونوا أمة حربية متحدة فى القوى حتى تخشى سائر الأمم بأسها وتحترم عهودها ولا تتعرض لها بسوء ولا تطمع فى الاعتداء على جانب من أراضيها ولذلك أمرهم بالأخذ بأسباب القوة وكل ما من شأنه أن يرهب خصومهم حيث قال تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم[١] » وأمرهم بالاحتفاظ بتلك القوة لمجرد الدفاع عن حقوق المسلمين وصد كل من تسول له نفسه الاعتداء على حقوقهم ونهاهم نهياً باتاً عن استعمالها فى الاعتداء على حقوق الغير حيث يقول تعالى « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا أن الله لا يحب المعتدين[٢] » .

وضمن لهم سبحانه وتعالى النصر إذا هم حافظوا على هذه المبادىء وجعلوا غايتهم فى الحياة هى مجرد نصر دين الله وفى حدود ما أمرهم به دون إرادة الظلم والعدوان أو إكراه الناس على الدخول فى الإسلام حيث يقول تعالى « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم[٣] » ويقول « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى[٤] » ويقول « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين[٥] » .

---

(١) الأنفال : ٦١ .
(٢) البقرة : ١٩٠ .
(٣) محمد : ٧ .
(٤) البقرة : ١٥٧ .
(٥) البقرة : ٩٩ .

١٥ — وعمل الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم على غرس بذور الحب المتبادل فى قلوب المسلمين وأحكام روابط الأخوة العامة فيما بينهم ونهاهم عن كل ما من شأنه أن يولد الضغائن والعداء فى النفوس أو يدعو إلى التحاسد وإرادة السوء حيث يقول صلى الله عليه وسلم « لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ولا يكذبه بحسب امرىء من الشران يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » ويقول « مثل المؤمنين فى توادهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » ويقول « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » ويقول « سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر ليس المؤمن بطعان ولا لعان ولا فحاش ولا بذىء » ويقول « يا معشر من آمن بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عورات المسلمين يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله » ويقول « ألا أخبركم بشراركم قالوا بلى قال هم المشاؤن بالنميمة المفرقون بين الأحبة الباغون للبراء العيب » ويقول « من غشنا فليس منا » ويقول « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ويقول « ثلاث من الإيمان الإنفاق من الإقتار وبذل السلام للعالم والإنصاف من نفسك » ويقول « ثلاث من كن فيه استوجب الثواب واستكمل الإيمان خلق يعيش به فى الدنيا وورع يحجزه عن محارم الله وحلم يرده عن جهل الجاهل » ويقول « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم » ويقول « من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان »

وقد أمتن الله على المسلمين بأن جعل لهم من تعاليم الإسلام ما يحملهم على هذه الأخوة الصادقة ودعاهم إلى الاحتفاظ بها بممارسة أسبابها حيث يقول تعالى « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً[1] » وقوله « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى

---

(١) آل عمران : ١٠٤ .

تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون[1] » .

بمثل هذه التعاليم السامية انتشل الرسول صلى الله عليه وسلم الناس من حضيض الذل والهوان إلى أعلا درجات العزة والسلطان فساد الأمن ورفرفت على العالم ألوية السلام العام وعاش الجميع فى رغد من العيش وراحة فى الضمير وهذا ما يتطلبه العالم اليوم ولا سبيل إليه إلا باقتفاء سيرة ذلك الرسول واتباع أحكامه وقد ورد فى الأثر أنه « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها » .

دين الفطرة

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » هذه حقيقة لا مراء فيها فالطفل أول أمره يولد حرا طليقا لا يبالى بأحد ولا يهمه من الحياة إلا أن ينعم بما لذ وطاب ولا يعرف الخبث واللؤم ولا المكر والخداع ولا يفهم شيئاً من الأديان إلا ما يلقنه له أبواه منذ حداثة سنه فينشأ على ما عوداه من أعمال وما غرساه فى نفسه من أخلاق ومعتقدات صحيحة كانت أو فاسدة ولذلك يقولون « المرء ثمرة بيئته » .

وكان من نعم الله على نبيه محمد أن ولد يتيما وتربى فى البادية حرا طليقا بعيدا عن قيود المدنية وسلطة الوالدين الذين يفرضان عليه طاعتهما وطاعة من أرادا فنشأ محبا للحرية وعدم الخضوع لأحد من الناس . وعندما عاد لأمه وكان وحيدها لم تشأ أن تعكر عليه صفوه أو تملى إرادتها عليه قط وهكذا كانت معاملة جده عبد المطلب له ، ذلك الرجل الذى كان عظيم قومه وكان يوضع له فراش خاص فى ظل الكعبة لا يجلس عليه أحد حتى من بنيه إجلالا له . ولكن محمدا كان هو الوحيد الذى يجرأ على احتلال مركزه من ذلك الفراش فيحاول أعمامه أن يؤخروه عنه فيقول عبد المطلب إذا رأى منهم ذلك (دعوه فوالله إن له لشأنا) ثم يجلسه معه ولا يعارضه فى كل ما يصنع .

وعندما نشأ وترعرع ورأى خضوع قومه لتلك الأصنام المنحوتة من الأحجار

---

(١) الحجرات : ٩ ، ١٠ .

لم تهضم نفسه بفطرته السليمة هذا العمل فلم يخضع لها معهم ولم يستسغ ما كانوا يذيعونه من الخرافات وزائف الأقوال بل ظل يخلو بنفسه يطيل التفكير ويقلب الطرف فيما حوله من الموجودات فلا يسعه إلا أن يوقن بأنه لابد لها من خالق فيعجب بعظمته وقدرته وجليل صنعه ويدين له بالحب من أعماق قلبه ويأبى أن يخضع لغيره أو يرجو المدد من سواه ولم يحاول أحد من قومه أن يخضعه لآلهتهم أو يَدْعُوهُ لالتماس البركة منها بل إنهم على العكس من ذلك كانوا يتناقلون أخبارا عن مشاهدات مرضعته حليمة يوم كان لديها تشعر بأن له من الكرامات والبركات مالا يستطيعون تعليله ، الأمر الذى أوجد عند عمه أبى طالب شيئاً من العقيدة فيه حتى أنه كان إذا أجدبت السماء يأتى به وهو طفل فيلصق ظهره بالكعبة ويستجدى به الغيث فيقبل السحاب وتجود السماء بالماء الزلال ومن أجل هذا قال فى مديحه .

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عنده فى نعمة وفواضل

ومن أجل هذا لم يشأ أن يعارضه فى أفكاره أو يصادمه فى معتقداته بل أخذ على نفسه حمايته من اعتداء قومه عليه عندما قام بالدعوه إلى دين الله ولما أن أصر المشركون عليه أن يضع حدا لتلك الدعوة لم يزد على أن جاء إليه وأعلمه بما تقول قريش وقال له ابق على نفسك وعلىّ ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق فلما أجابه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله (ياعماه والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته) قال له أبو طالب (اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشىء أبدا) .

وهكذا اعتنق محمد مبدأ الحرية بفطرته ولم يحاول أحد أن يغير رأيه أو يخضعه لغير ما هداه إليه عقله وضميره من عدم الاستسلام للخرافات والنقمة لما عليه قومه من فاسد العبادات والشعور بالحب لإله غيبى لا يعرف كنهه ولكنه يؤمن بوجوده وعظيم قدرته ويحس بآلائه عليه من خلقه له وما منحه له من نعمة الحياة والسمع والبصر والعقل والتدبير ويجد فى نفسه الحاجة إلى اللجوء إليه فى كل وقت وحين لتفريج كربه وقضاء حوائجه وتحقيق غاياته ، ولقد كان هذا الإيمان فى نفس محمد بن عبد الله هو إيمان فطرة وهو أساس الدين الذى أوحى به إليه الله فيما بعد (الإسلام) .

وهو الدين الذى تنصاع إليه كل نفس بفطرتها إذا سلمت من المؤثرات الخارجية من وحى الوالدين أو تحكم البيئة الفاسدة أو تسلط العادات والتقاليد ، ولذلك قال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولـكن أكثر الناس لايعلمون[1] » .

ولا غرو فالنفس البشرية بطبعها وفطرتها تشعر شعوراً وجدانيا بسلطان غيبى قوى فوق قوى الـكون وسنن الوجود وتحس بحاجتها إلى الاتصال به واستمداد المعونة منه بالدعاء ومصدر هذا السلطان الغيبى هو (رب العالمين) وهو الذى يجب على الناس إفراده بالدعاء والطاعة وإخلاص العبادة . أما تصوره فى خلق من المخلوقات كالنجوم أو النار وما إلى ذلك فهو الـكفر الذى لادليل عليه . وأما تعيينه فى شخص معروف من عبيد الله والتوجه إليه بالدعاء واتخاذه وثنا وعبادة تمـاثيله أو قبره فذلك مايعد شركا وأمراً منافياً لأساس الفطرة ولا يتفق مع منطق العقل السليم نبرأ إلى الله من ذلك .

دين الإسلام

لقد آمن محمد بن عبد الله إيمان الفطرة ولجأ إليه بقلبه وظل يعبده عن طريق التأمل فى عظمة مخلوقاته وجليل آلائه حتى أتاه اليقين من ربه فصدع بأمره ودعا الناس إلى الإيمان بجميع من سبقه من الأنبياء والرسل الذين أخبره الله عنهم ولخص له سيرتهم وما كان من أمرهم مع أقوامهم حيث يقول تعالى « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما[2] » . وشرح له تعالى ماجاؤ به من الشرائع وفرض على المسلمين الإيمان بكتبهم ولم يعترض عليها أو يعيب حكما من أحكامها قط وإنما أمر أن يصحح ماداخلها من تحريف وتبديل يتنافى مع أساس دعوة أولئك الرسل رضوان الله عليهم .

ولقد نهى عليه الصلاة والسلام المسلمين عن أن يتعرضوا لمن خالفهم فى الدين بالطعن

(١) الروم : ٣٠ .
(٢) النساء : ١٦٣ — ١٦٤

فيما يعتقدون فيهم النفع والضر ويعبدونهم من دون الله حيث قال « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبؤهم بما كانوا يعملون[١] » ورسم لهم سبحانه سبيل الدعوة إلى الإسلام بقوله : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون[٢] » بل إنه تعالى لم ينه المسلمين عن البر بمن يخالفهم فى الدين حيث قال « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون[٣] » .

وكان عليه الصلاة والسلام يدعو لمخالفيه بالهداية حيث يقول : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » . ويكتفى فى إسلام الناس بمجرد النطق بالشهادتين وفقاً لقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلم لست مؤمناً[٤] » كذلك لم يشأ أن يغير شيئاً مما كان عليه قومه مما هو من أساس ملة إبراهيم حرصاً على عدم تفرق الكلمة واختلاف الرأى إذ أنه علم أن بناء البيت الحرام لم يكن على قواعد إبراهيم تماماً بل أنه قصر عنه قليلا بفعل بناته السابقين فأبى أن يقوم بإصلاحه وإرجاعه إلى أصله حيث قال لزوجه « يا عائشة لولا أن قومك حديثو عهد بجاهليه لا مرت بالبيت فهدم فأدخلت فيه ما أخرج منه » .

وأمر عليه الصلاة والسلام المسلم بأن يحب لأخيه مايحب لنفسه وأن يفشى السلام لمن يعرف ولمن لا يعرف وعرف المسلم بأنه « من سلم الناس من لسانه ويده » وإن أشر خلق الله من تجنبه الناس اتقاء أذاه » وظل يدعو إلى ما أوحى إليه ربه من دين سماوى سمح يدعو إلى السلم ويمقت الحرب حيث يقول تعالى : « يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين[٥] » والسلم ضد الحرب ولا يزكى نار الحرب إلا ما يولده الشيطان فى النفوس من تشاحن وبغضاء ورغبة فى العدوان .

---

(١) الأنعام : ١٠٨ .
(٢) العنكبوت : ٤٦ .
(٣) الممتحنة : ٨ — ٩ .
(٤) النساء : ٩٤ .
(٥) البقرة : ٧ ٢ .

ومن أجل هذا أمر الله المسلمين أن يكفوا عن الحرب فى حالة ما إذا جنح خصومهم إلى السلم وعدلوا عن إرادة السوء حيث قال تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم[1] » .

وبمقتضى هذه التعاليم عاهد الرسول اليهود فى المدينة على السلم والتعاون فخانوا وغدروا ونقضوا عهودهم وعاهد المشركين يوم الحديبية على السلم والأمان عشر سنين بشروط تساهل فيها منتهى التساهل عن قوة وعزة لا عن ضعف وذلة ولكن حبا فى السلم ونشر دينه بالإقناع والحجة فنقضوا عهدهم فكان ذلك سبباً لعودته للحرب وفتحه لمكة المكرمة .

ومن خطبه صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب قوله « يأيها الناس لا تحنو إلى لقاء العدو وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » .

وعمل الرسول صلى الله عليه وسلم على نشر هذا الدين الذى لا يتعارض مع أساس الفطرة التى فطر الله الناس عليها بل إنه الدين الوحيد الذى يضمن إقرار السلام فى العالم بما اشتمل عليه من مبادىء سامية وحكم غالية وغايات نبيلة من شأنها أن ترتفع بالنفس البشرية إلى الكمال الإنسانى وتنتزع من النفوس بذور الحقد والحسد والبغضاء وتحل محله روح المحبة الصادقة والود المتبادل ليعيش الناس إخوانا متساوين فى الحس والشعور والحقوق والواجبات لا تفاضل بينهم إلا بقدر ما يؤدونه فى الحياة من أعمال صالحات . فلا غر وإذا ما صادفت دعوة ذلك النبى الكريم قبولاً منقطع النظير ودان للإسلام عدة شعوب لم تكن تربطهم بالعرب أية رابطة وأذعن له كل من تجرد قلبه عن الهوى وتحررت نفسه من قيود الاستسلام للوهم أوماجرى عليه الآباء من التقاليد والعادات .

هذا الدين الذى يدعو الناس إلى مراقبة الله فى السر والعلن والإحسان إلى المسيء فى سبيل نيل ثوابه والأحجام عن ضر الناس خوفاً من عقابه .

هذا الدين الذى يدعو إلى إنكار الذات ومحاربة الكبرياء والصلف ويحض على التواضع والزهد وإيثار مصلحة المجموع على مصلحة الفرد .

هذا الدين الذى يحث على التناصح وتضامن الأفراد والجماعات .

---

(١) الأنفال : ٦٢ .

هذا الدين الذى : يأمر بالصراحة فى القول مع مراعاة واجب الأدب وعدم الإساءة إلى الغير حتى ولا بمجرد الإشارة أو التلميح .

هذا الدين الذى يقضى على كل ما يولد الخلاف والعداء بين الناس بتحريمه الكذب والغيبة والنميمة والإصغاء لوشاية الواشين أو إفساد المفسدين بل يأمر بالعمل لإصلاح ذات البين وتقريب وجهة النظر بين المتخاصمين وإقامة العدل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

هذا الدين الذى يحرم على اتباعه البطالة ويوجب عليهم العمل ويعتبر الإخلاص فيه من أعظم القربات إلى الله وقد ورد فى هذا الباب عدة آيات فى القرآن وأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نكتفى بذكر جانب مما جاء فى القرآن فيما يلى ففيه كل الكفاية لبيان حقيقة الإسلام لقوم يعقلون .

يقول تعالى :

١ — « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما[١] » .

٢ — « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية[٢] » .

٣ — « واحسنوا إن الله يحب المحسنين[٣] » .

٤ — « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم[٤] »

٥ — « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب إليم[٥] » .

٦ — « لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نوتيه أجراً عظيما[٦] » .

٧ — « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا[٧] » .

٨ — « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان[٨] »

---

(١) الأحزاب : ٧٠ — ٧١ .
(٢) البينة : ٧ .
(٣) البقرة : ١٩٥ .
(٤) فصلت : ٣٤ .
(٥) آل عمران : ١٨٨ .
(٦) النساء : ١١٤ .
(٧) النساء : ١٢٤ .
(٨) المائدة : ٢ .

٩ — « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون . وافوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا[١] » .

١٠ — « الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين[٢] » .

١١ — « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وأتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون[٣] » .

١٢ — « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم[٤] » .

١٣ — « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون[٥] » .

١٤ — « اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان[٦] » .

١٥ — « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون[٧] » .

١٦ — « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شى حسيبا[٨] » .

---

(١) النحل : ٩٣ — ٩٤ .
(٢) آل عمران : ١٣٤ .
(٣) البقرة : ١٧٧ .
(٤) البقرة : ٢٦٣
(٥) الحجرات : ١١ .
(٦) المائدة : ٥ .
(٧) المؤمنون : ٣٠
(٨) النساء : ٨٦ .

١٧ — « وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن أن الشيطان ينزغ بينهما إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا[١] » .

١٨ — « ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور — واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير[٢] » .

١٩ — « فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى أوتمن أمانته وليتق الله ربه[٣] » .

٢٠ — « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا[٤] » .

٢١ — « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير الصابرين[٥] » .

٢٣ — « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين[٦] » .

٢٣ — « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعلمون[٧] » .

٢٤ — « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت[٨] » .

٢٥ — « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما[٩] » .

٢٦ — « ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين[١٠] » .

٢٧ — « فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون[١١] » .

---

(١) الإسراء : ٥٣ .
(٢) لقمان : ١٨ — ١٠ .
(٣) البقرة : ٢٨٣ .
(٤) النساء : ٥٨ .
(٥) النحل : ١٢٦
(٦) الأعراف : ١٩٩ .
(٧) المائدة : ٨ .
(٨) البقره : ٢٨٦
(٩) الفرقان : ٦٣ .
(١٠) الشعراء : ١٨٣ .
(١١) الروم : ٣٨

دين السياسة

السياسة فى اللغة استصلاح الخَلْقِ بإرشاردهم إلى الطريق المنجى فى العاجل والآجل وهى فى اصطلاح الناس النظر فى الشئون العامة التى تعود على البلاد بالخير والسعادة وتنظم علاقة الأمم بعضها ببعض ليعيش الجميع فى أمن وسلام . ومن أجل هذا حصروها فى طبقة خاصة من رجال الدولة والزعماء والكتاب ومن إليهم وحرموا على غيرهم الأشغال بها بل ربما عاقبوه على مزاولتها فى بعض الأحيان . والإسلام الذى جاء بمساواة الناس فى الحقوق والواجبات لم يشأ أن ينزع من أحد هذا الحق بما أعطى لكل فرد فى الحياة من ذكر أو أنثى كامل الحرية فى التعبير عن رأيه فى سائر الشئون العامة لا بل جعل من واجبه أسدا. النصح لمن عرف ومن لم يعرف وللحاكم قبل المحكوم حيث قال صلى الله عليه وسلم - الدين النصيحة — قال الصحابة لمن يا رسول الله ؟ قال : — لله ولكتابه ولرسوله وللأئمة المسلمين وعامتهم — ورسم الرسول عليه الصلاة والسلام الأهداف التى يجب أن يرى إليها المسلم والوسائل التى يجب أن يتذرع بها للوصول إلى غاياته . أما الأهداف فإنها تتلخص فيما يأتى :

١ — تحرير الإنسان من نير العبودية لغير الله الإله الواحد القهار خالق الجميع والمسيطر الحقيق على سائر الموجودات .

٢ — محاربة الاستبداد أو بعبارة أخرى حكم الفرد وإخضاع الجميع للدستور الذى وضعه رب العزة لإدارة شئون عباده .

٣ — طاعة أولى الأمر فيما يضعونه من أنظمة وتعليمات ولوائح خاصة لا تتعارض مع نصوص الدستور الإلهى على شرط أن تقيد سلطة والى الأمر بما يأتى :

(ا) باستشارة أهل الحل والعقد فى كل حكم يتعلق بالعموم حيث يقول تعالى : « وأمرهم شورى بينهم[1] » .

(ب) باستفتاء أهل الخبرة كل فى دائرة علمه واختصاصه حيث يقول تعالى : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون[2] » .

---

(١) الشورى : ٣٨ . (٢) الأنبياء : ٧ .

(ج) أن يكون من حق ولى الأمر أو السلطان أن يرجح مايراه صوابا من الآراء حيث يقول تعالى : « وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله[١] » .

أما الوسائل المودية إلى ذلك فقد رسمها الرسول صلى الله عليه وسلم للناس بسيرته وتصرفاته وأمر الناس باتباعه ومتابعته وهى تتلخص فيما يأتى :

١ — اجتذاب النفوس بالحسنى واللين ومكارم الأخلاق حيث قال صلى الله عليه وسلم — إنكم لا تسعون الناس بأموالكم — ولكن ليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق .

٢ — العمل على تأليف الخصوم وإرضائهم بشتى الوسائل وفى مقدمتها بذل المال لهم حتى أنه صلى الله عليه وسلم أعطى بهذا القصد أموالاً تفوق حد التصور وحتى قيل أن محمداً يعطى عطاء من لا يخشى الفقر وجعل الإنفاق فى هذا الباب من ضمن مصارف الزكاة حيث قال تعالى « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم[٢] » .

٣ — حفظ كرامة الفرد ولو كان على غير دينه . فقد روى عن رسول الله صلى وسلم قوله — أنزلوا الناس منازلهم ، وإذا أتاكم كريم قوم فاكرموه ، وارحموا عزيز قوم ذل وغنى افتقر ، ومن إجلال الله إكرام ذى الشيبة المسلم ، ولقد بسط رسول الله صلى الله عليه وسلم رداءه لوفد نجران حين زاروه وهم نصارى ولما زاره عدى بن حاتم الطائى وهو مشرك أكرمه ووضع له وسادة أجلسه عليها من دونه واستأذنه رجل فقال أأذن نواله بئس الرجل أخو العشيرة فلما دخل عليه حياه وأكرم مثواه فقيل له فى ذلك فقال أنا لنهش فى وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم ، وفى حديث آخر أن من شرار الناس من ترك اتقاء أذاه .

٤ — العمل على حل المشاكل وتسوية الأمور بل ونشر هذا الدين عن طريق التفاهم والإقناع بدلاً من الغلظة والعنف واحتقار رأى المعارضين وفرض الإسلام فرضاً على المخالفين فقد قال تعالى « لا إكراه فى الدين[٣] » وقال صلى الله عليه وسلم — أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم — وكان من وسائله عليه الصلاة

---

(١) آل عمران : ١٥٩ .
(٢) التوبة : ٦٠ .
(٣) البقرة : ٢٥٧ .

والسلام فى الدعوة إلى الإسلام أن جاءه رجل من كبار المصارعين فى عصره يدعى « ركانه » واشترط لإسلامه أن يصارعه رسول الله صلى الله عليه فلم يتردد الرسول فى قبول طلبه فإنه لم يكن مصارعا وإنما هو واثق بقدرة الله على تمكينه من خصمه فلما تبارزا غلب الرسول « ركانه » مرات فما وسعه إلا أن يؤمن برسالته ، وعاد عليه الصلاة والسلام خادماً يهودياً أثناء مرضه ففرح به وأعجب من طيبة نفسه وتواضعه وشهد برسالته عن ربه وآمن به ، وهذا قليل من كثير من الوسائل التى كان يتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم فى استمالة قومه إلى الإسلام وحملهم على العمل بما يرضى الله أتينا به على سبيل المثال ليفهم الناس حقيقة السياسة التى دعا إليها الإسلام وأنها ليست كما يتوهمها ذوو الشأن فى عصرنا هذا بأنها الخداع والمكر وأنه لاحق للجمهور فى التدخل فى الأحكام العامة وأن فى سيرة عمر الخليفة الثانى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما ينافى هذا القول إذ قام يدعوا إلى عدم المغالاة فى المهور فانبرت له امرأة من آحاد الناس وقالت له ما بالك تحدد لنا شيئاً لم يحدده الله إذ قال « وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً[1] » وأنه ليس ما قالته المرأة دليلا على جواز المغالاة فى المهور وأن ذلك القنطار قد أعطى لهن باسم المهر فإن عمر رضى الله عنه لم يغضب ولم يشأ أن يفند قول المرأة ويدخل معها فى جدال بل قال أخطا عمر وأصابت امرأة ودل بذلك على أن للمرأة أن تبدى رأيها فى المصالح العامة ولا حرج على الحاكم أن ينزل على رأيها فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها التقطها .

دين العقل

لئن جاء الرسل السابقون بمعجزات من خوارق العادات لإثبات رسالتهم عن الله فى عصور تفشى فيها الجهل وعدم تصور الحقائق كما هى وكان الناس كالأطفال لا يؤمنون إلا بالأمور المادية ولا يرتدعون عن غيهم وضلالهم إلا عن طريق قهرهم وتخويفهم بأشياء محسوسة فلقد جاء الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم بدين يقوم على أساس متين يسلم به العقل ويرضاه الضمير ولا يتصادم مع أساس الفطرة التى فطر الله الناس

---

(١) النساء : ١٩ .

عليها فكان بذلك هو الدين الوحيد الذى يجب أن يؤمن به كل عاقل تجرد قلبه عن الميل مع العاطفة والهوى وناقش حقائقه الخالصة مما ألصق بها من البدع والخرافات والمفتريات بفعل أناس لا يعقلون لم يسلم من أمثالهم دين من الأديان السابقة والإسلام برئ من كل ذلك براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

أجل جاء الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى تحكيم عقولهم فيما يدعوا إليه ويأبى عليهم أن يتقبلوا دعوته ويسلموا بها تسليما أعمى دون أن تقتنع بها ونصحتها عقولهم وتؤمن بثمرتها قلوبهم وقال عليه الصلاة والسلام « أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم » .

ولقد كانت القاعدة الأولى من قواعد دينه عليه الصلاة والسلام قول الله تعالى : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع العليم[1] » وكانت مهمة الرسول محصورة فى توجيه العقول إلى تدبر ما أوحى إليه من القرآن وتطبيق ما فيه على ما حولهم من هذه الموجودات الماثلة للعيان وكلها آيات قائمة تثبت وجود الله الذى يدعوهم إلى طاعته وإفراده وحده بالعبادة حيث يقول تعالى : « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم يوقنون[2] » ويقول : « وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون[3] » .

ويقول « قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين[4] » أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شىء بصير[5] » ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله قل الحمد

---

(١) البقرة : ٢٥٧ .
(٢) الرعد : ٢ .
(٣) الرعد : ٣ — ٤ .
(٤) الملك : ٣٠ .
(٥) الملك : ١٩ .

لله بل أكثرهم لا يعقلون[١] » « قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد ، سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد[٢] » .

إنه عليه الصلاة والسلام لم يدع الربوبية ولم يزعم لنفسه أى سلطان ولم يطلب منهم عبادته والخضوع لشخصه بل كان يقول « قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك أن اتبع إلا ما يوحى إلى قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون[٣] » .

ولم يكلف الناس بالإيمان بإله يزعم القدرة على ضرهم ونفعهم بغير دليل بل إنه طلب إليهم جميعاً الإيمان بالإله الخالق لهم ولجميع الكائنات والقريب منهم قريبا يجعله يسمع النداء ويستجيب للدعوات ، وأقام على ذلك الأدلة العقلية القاطعة وما عليهم إلا أن يؤمنوا بالله ويتصلوا به ليتأكدوا من صحة رسالته وعظيم فضله وإحسانه حيث يقول تعالى : «قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين . قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون . قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض . أنظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون[٤] » وأثبت لهم بالقرآن وحدانية الله بأدلة فطرية وعقلية وطالبهم بالإتيان بأدلة تنقضها إن استطاعوا حيث يقول تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون[٥] » ، « فإلهكم إله واحد فله أسلموا[٦] » ، « أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معى وذكر من قبلى بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون[٧] » ، « أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون[٨] » ، « أمن يبدء الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض ، أإله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم

---

(١) العنكبوت : ٦٣ .
(٢) السجدة : ٥٢ — ٥٣ .
(٣) الأنعام : ٥٠ .
(٤) الأنعام : ٦٣ — ٦٥ .
(٥) الأنبياء : ٢٢ .
(٦) الحج : ٣٤
(٧) الحج : ٣٤ .
(٨) النمل : ٦٣

صادقين . قل لايعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ، وما يشعرون أيان يبعثون[١] » ، « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة ، من إله غير الله يأتيكم بضياء ؟ أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة . من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ؟ أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون[٢] » ، « ولا تجعلوا مع الله إلها آخر إنى لكم منه نذير مبين[٣] » ، « لا إله إلا هو يحيى ويميت ، ربكم ورب آبائكم الأولين[٤] » .

ولأجل أن يعطى الله لعباده الحرية الكاملة فى التفكير والتدبر ، وينفى عن رسوله تهمة استعمال القوة لفرض دينه على الناس فرضاً ، أمره جل وعلا فى القرآن أن يقول : « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى[٥] » وجعل الإسلام أساس الإيمان الذى يجزى عليه الإنسان ويحاسب بمقتضاه إنما هو التصديق والإذعان واليقين بالقلب لا ما يبدو فى الظاهر من الأقوال والأعمال فقط .

فالإيمان عقيدة ، وهى لا تكون إلا قناعة الوجدان وتسليم العقل والخضوع للحق الذى لامرية فيه وقد دعا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان بالله وأقام على ذلك الأدلة العقلية الدالة على افتراضه على كل إنسان وأيده الله تعالى للدلالة على صدقه فى رسالته بالمعجزات الباهرة الكثيرة وأهمها القرآن الكريم كما أسلفنا .

دين الحب

لاشك أن الحب من الصفات التى يمتاز بها الحيوان عن الجماد ، لأن الحب وليد الحسّ والإدراك العقلى ، والجماد لا يتصور منه حس ولا إدراك عقلى ، ومادام الحب دليل الحس والإدراك ، فكل ما فى إدراكه لذة وراحة فهو محبوب عند المدرك ، وما فى إدراكه ألم فهو مبغوض عند المبغض ، وكل ما خلا عن اللذة والألم لا يسمى

---

(١) النمل : ٦٤ — ٦٥ .
(٢) القصص : ٧١ — ٧٣ .
(٣) الذاريات : ٥١ .
(٤) الدخان : ٨ .
(٥) يوسف : ١٠٧ .

محبوبا ولامبغوضا والإنسان والحيوان وإن اشتركا فى الحب الناشئ عن استعمال إحدى الحواس الخمس ، إلا أن الإنسان يمتاز عن الحيوان بدرجة فى الحب تأتى عن طريق حس سادس قد لا يتأثر بإحساس الجوارح ويتعارض معها أحيانا ، ذلك هو مايعبر عنه بالقلب أو العقل .

ولا شك أن هذه الدرجة فى الحب هى أعظم الدرجات وأن المحبوب بواسطة هذا الحس أبلغ من المحبوب بغيره ، والحب على العموم أمر ضرورى لا بد منه بالفطرة عند كل أحد ولا يكاد يخلو منه قلب إنسان فى الوجود إلا أن كبت هوى النفس أمر صعب وجهاد عنيف ويختلف الحب باختلاف النـاس وتتفاوت درجته بتفاوت الأسباب والبواعث والـكلام فيه يتفرع إلى عدة نواح ولذلك أرى من واجبى أن أتحدث عن حقيقته وأركانه ومعنى اللذة وأقسامها ودرجات الحب وفضائله وأحكامه .

فأما حقيقته فميل القلب إلى شىء يلذ له ويقوم على أركان ثلاثة :

(الأول) وجود صفة فى المحبوب تدعو إلى محبته .

(الثانى) توفر الشعور والميل فى المحب إلى تلك الصفة .

(الثالث) حصول توافق وتناسب بين المحب والمحبوب .

وبتـكامل هذه الأركان الثلاثة تستحكم عرى المحبة وتضعف بمقدار ما بها من نقص فإذا كان المحبوب جميلا وكان المحب من عشاق الجمال وحصل التوافق الروحى بينهما فقد ضمن لهذا الحب الدوام والاستمرار وإلا فإن كان هناك نقص فى شىء من هذه الأركان فإن الحب معرض للضعف والاضمحلال .

وأما إن كان الحب مبنياً على مجرد العاطفة أو لغاية شهوانية فحسب فهو حب كاذب لا شك أن مصيره إلى الزوال .

ومعلوم أن الركن الأول من هذه الأركان الثلاثة وهو « وجود صفة فى المحبوب تدعو إلى محبته » أمر يختلف باختلاف نظر المحب إليها فقد يكون الجمال فى نفسه ناقصاً ولـكنه فى عين المحب كاملا فتـكون قوة محبته على نسبة ذلك على حد قولهم « حبك الشىء يعمى ويصم » وفى هذا يقول الحـكم بن معمر .

فوالله ما أدرى أزيدت ملاحة — وحسنا على النسوان أم ليس بى عقل .

وكذلك الركن الثانى من هذه الأركان وهو « توفر الشعور والميل فى المحب إلى تلك الصفة » يتوقف على مبلغ ظهور تلك الصفة ومقدار استعداد المحب لتلقيها فقد يكون الحسن متوفراً والخلق جميلا ولكنه محجوب بستر فى الظاهر أوسقم فى الباطن على حد قول الشاعر :

قدتنكر العين ضوء الشمس من رمد ويجحد الفم طعم الماء من سقم

ولهذا تظهر حكمة الشارع فى أمر النساء بستر وجوههن عن الرجال لئلا يزول المانع عن ظهور كمال الحسن فيقع الإفتتان .

وأما الركن الثالث الذى هو « حصول التوافق والتناسب بين المحب والمحجوب » فهو أكبر عامل من عوامل الحب وأقوى سبب فى توثيق روابطه فقد قيل «شيبة الشىء منجذب إليه» وأحوال الباطن خفية ولها أسباب دقيقة ليس فى مقدور البشر الاطلاع عليها وحسبنا فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » والتناكر نتيجة التباين كما أن الائتلاف وليد التناسب الذى عبر عنه بالتعارف ، ويكفينا فى التصديق بهذا ما أثبتته التجارب والمشاهدة حتى قال بعضهم أن التناسب وحده هو السبب المباشر للحب وفيه يقول الشاعر :

وما الحب عن حسن ولاعن ملاحة ولكنه شىء به الروح تكلف

والمناسبة إنما تكون باتفاق الأخلاق وتشاكل الأرواح ، وشوق كل نفس إلى ما يماثلها ، وقد روى فى هذا أن امرأة كانت بمكة تدخل على قريش فتضحكهم ، فلما أقبلت إلى المدينة نزلت على امرأة تضحك الناس أيضاً فقال النبى صلى الله عليه وسلم : على من نزلت فلانة ؟ فقيل : على فلانة المضحكة . فقال : الأرواح جنود مجندة .. الخ . وذكر لبقراط أن رجلا من أهل النقص يحبه ، فاغتم لذلك وقال : ما أحبنى إلا وقد وافقته فى بعض أخلاقه . وأخذ المتنبى هذا المعنى وقلبه فقال :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل

وقال مالك بن دينار : لايتفق اثنان فى عشرة إلا وفى أحدهما وصف من الآخر ، وأن أجناس الناس كأجناس الطير فلا يجتمع نوعان من الطير إلا وبينهما مناسبة .

قال : فرآى يوما غرابا مع حمامة فعجب من ذلك ، ثم طارا فإذ هما أعرجان . فقال : من هاهنا اتفقا .

وقال بعض الأطباء : العشق امتزاج الروح لما بينهما من التناسب ، فإذا امتزج الماء بالماء امتنع تخليص بعضه من بعض . ولذلك فقد تبلغ المحبة بين الشخصين إلى حد أن يتألم أحدهما بتألم الآخر ويسقم بسقمه ، وهو لايشعر . وفى هذا يقول الشاعر :

إنى حممت ولم أشعر بحماكى ... حتى تحدث عوادى بشكواك
فقلت ما كانت الحمى لتطرقنى ... من غير ما سبب إلا لحماك
وخصلة كنت فيها غير متهم ... عافانى الله منها حين عافاك
حتى إذا اتفقت نفسى ونفسك فى ... هذا وذاك وفى هذا وفى ذاك

وحقاً أنه إذا حصلت المشاكلة أوالاتفاق فى الأحوال والمقاصد والأوصاف يحصل التحابب ، وإذا تباينت الأحوال والمقاصد والأوصاف لم يكن هناك إلا النفرة والجفاء ، واللذة فى الحب ، قد حسبها قوم فى الوصل ، ولم يتصوروا للحب لذة بدون الوصل . وقال آخرون : إنها تتحقق فى ذات الحب لأن الحب موجب لحركة النفس وشدة طلبها ، والنفس خلقت متحركة بالطبع كحركة النار ، والحب هو حركتها الطبيعة ، فكل من أحب شيئاً من الأشياء وجد فى حبه لذة ، فإذا خلا عن الحب تعطلت النفس عن حركتها وثقلت وفارقتها خفة النشاط . ولهذا تجد الكسالى أكثر الناس هماً وغما ، وأبعدهم عن الحب بخلاف أرباب النشاط والجد ، فهم أكثر الناس سروراً بعملهم وحباً له ، ومن أجل هذا رغب الناس فى الحب وأنس به المحبون ، وقال فيه الشاعر :

تشكى المحبون الصبابة ليتنى ... تحملت ما يلقون من بينهم وحدى
فكانت لقلبى لذة الحب كلها ... فلم يلقها قبلى محب ولا بعدى

وقلت مدللا على أن طلب الوصل ينافى لذة الحب

أتحسب الحب متعات تلذ بها ... بلا اصطبار على الأهوال والقحم
وتذرف الدمع لاستجداء مرحمة ... من الحب هذا منتهى الوهم

إذا البكاء دليل منك عن خور ... وذا ينافى صفات الصب ذى الشمم
وكذبت شهود الحال قائلة ... من يبتغى الوصل لم يعشق ولم يهم
فكيف تبغى انتسابا للأولى عشقوا ... وأنت تجهل ما فى الهجر من حكم
لولا الصدود لما أدركت طعم هوى ... يا مدعى العشق أقصر فيه واحتشم

ويحسن بنا فى هذا المقام أن نبين حقيقة اللذة وأقسامها لنوفى الموضوع حقه . فأما حقيقتها فإدراك الغاية وبعكسها الألم فهو فى عدم بلوغ الغاية ، ولذلك فإن اللذة تنقسم باعتبار الغايات إلى ثلاثة أقسام : لذة جسمانية حيوانية ، ولذة نفسية شيطانية ، ولذة روحية ملائكية . فأما اللذة الجسمانية وهى التى تكون عن إشباع شهوة عضو من الأعضاء كالأكل والشرب والوقاع فهذه أحط درجات اللذة ، لأنه يشترك فيها الإنسان والحيوان .

ولو لم تكن حقيرة ومنحطة لكان أفضل الناس أكثرهم أكلا وشربا والأمر بالعكس . فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم : « أفضلكم عند الله منزلة يوم القيامة أطولكم جوعا وتفكيرا فى الله سبحانه ، وأبغضكم عند الله يوم القيامة كل نؤوم أكول شروب » وفى حديث آخر : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، وإن كان لابد فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه » .

وأما اللذة النفسية الشيطانية وهى التى تتولد عن إرضاء هوى النفس كالعظمة والاستطالة والكبرياء ، فهذه اللذة أسوأ من الأولى ، لأن فيها مطاولة للشيطان واتباعا لشهوة النفس الأمارة ، وهى سلبية أكثرمنها إيجابية ، فلايراد بها إلادفع آلام النفس البشرية . فكما أنه يجد الإنسان لذته فى الأكل والشرب لدفع آلام الجوع والعطش كذلك يجد لذته فى الجاه والعظمة لدفع ألم الخمول والمهانة بين الناس ، ولما كانت هذه اللذة غير محسوسة اعتبرها البعض لذة خيالية وهمية ، ويرجع تاريخ وجود هذه اللذة إلى إبليس عليه اللعنة ، فإنه هو الذى خيل إليه أنه خير من آدم ووجد فى نفسه شيئاً من الخيلاء والعظمة فطاوعها وامتنع عن الخضوع لأمر ربه بالسجود لآدم قائلا : « أأسجد لمن خلقت طينا ؟ أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » فكان

جزاؤه أن غضب الله عليه . وقال : « فاخرج منها فإنك رجيم ، وأن عليك اللعنة إلى يوم الدين » .

ومن هذا يخشى على من يأخذ بهذه اللذة أن يكون مصيره كمصير إبليس والعياذ بالله ، وعلى العموم فإن هاتين اللذتين كثيراً ما تجران إلى مفاسد وأضرار لا تدخل تحت الحصر والتقدير .

وأما اللذة الروحية الملائكية وهى التى توجد فى القلب عن نتيجة تدبر وتفكير فهى التى يلمسها العقل وتتغذى منها الروح وتنعم بها النفس العالية ولا تعقب أى ألم ، ويكون من ورائها السعادة فى الدارين ، وهذه اللذة هى التى وجد فيها الملائكة كمال سرورهم وراحتهم ، إذ عرفوا حقائق الأشياء فشغلوا أوقاتهم بعبادة رب الأرض والسماء . وهكذا فإن من يقول بأن لذة الحب لا تتحقق إلا بالوصال فهو ممن انحطت نفسه ، فلم ترتفع عن دائرة الشهوة واتباع الشيطان ، ولذلك لم يجد لذته فى غير اللذتين الأوليين .

وأما من وجد اللذة فى ذات الحب فهو الذى سمت مداركه وعلت نفسه واستطاع أن يحكم العقل والمنطق فشعر بحلاوة اللذة فى كل ماهو جميل وحسن من المعانى والمحسوسات .

والحب عند هؤلاء على ثلاث درجات : الأولى حب الإنسان لنفسه وذلك بأن يجد فى طبعه ميلا إلى دوام وجوده ونفوراً من عدمه ، وأى شىء أحب إلى قلب الإنسان من حياته ؟ وأى شىء أبغض إليه من موته ؟ وليس حب الحياة معلقا على مافيها من لذات ؛ فالحياة محبوبة عند الإنسان ولو كانت مشوبة بالهموم والأكدار والأمراض والآلام وما ذلك إلا لتمام التوافق والالتئام بين الروح والنفس ، وكذلك الموت ليس مبغوضا للخوف من سكرات الموت وما بعد الموت فقط ، بل لأن فيه نهاية الحياة وكما أن الحياة محبوبة فكل مايوجب سعادتها وكما لها محبوب أيضاً ولذلك يحب الإنسان سلامة أعضائه لأن بها تتوفر ملذاته ، ثم يحب ماله لأنه وسيلة سعادته وهنائه ، ويحب ولده وإن لم يجن من بقائه لذة ولا يناله منه حظ وما ذلك إلا لأنه لما كان واثقاً من عدم استمراره فى الحياة أحب ولده ليخلفه فيها بعد موته فيكون فى بقاء نسله

نوع بقاء له باعتباره جزءا متفرعا عنه ، وكذلك حبه لأقاربه وعشيرته يرجع إلى حبه لكمال نفسه باعتبارهم كالجناح الذى يكتنفه ويشد أزره .

والثانية من هذه الدرجات (حب القلوب كل من أحسن إليها) وذلك بالنظر لما يهيئه المحسن لها من وسائل الحياة وأسباب السعادة وهذا أمر فطرى لقوله صلى الله عليه وسلم « جبلت القلوب على حب من أحسن إليها » .

وتتفاوت درجة هذه المحبة بقدر نوع الإحسان وزيادته ونقصانه ، وإذا كان هناك بعض نفوس لا تحب المحسن إليها وتسعى إلى الإساءة إليه فما ذلك إلا لوجود سبب آخر هو أن تلك النفوس قد غلب عليها حب الشر فلم تتأثر بذلك الإحسان وهم المعنيون بما قيل « اتق شر من أحسنت إليه » .

والثالثة من هذه الدرجات (حب صفات الكمال) وهذا من أقدس درجات العشق لأنه يكون بالمناسبة بين الروح وتلك الصفات ومتى كانت المحبة بالمناسبة والمشاكلة ثبتت وتمكنت وإلاَّ فإنها محبة لغرض تزول عند انقضائه ومن أجل هذا أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بزواج ذات الدين وعده غنيمةوظفرا حيث قال « تنكح المرأة لمالها وجمالها ودينها فأظفر بذات الدين تربت يداك »

وهانحن أولاء نرى الطباع السليمة مجبولة على حب الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم وعلى حب الصحابة وأرباب المذاهب حتى إن الرجل ليبلغ به الحب إلى حد أن ينفق جميع أمواله فى نصرة دينه ومذهبه ويخاطر بروحه فى قتال من يطعن فى رسوله وإمامه ، ولا شك أن هذا الحب لم يكن مبنياً على مشاهدة الصور الظاهرة لأولئك الرجال العظام ، وقد عفت واندثرت شخصياتهم وإنما هو حب من أجل صفاتهم الباطنة التى هى مصدر السير الحميدة والأعمال المجيدة ولذا بقى الحب ببقاء تلك الصفات مع زوال سواها من المدركات ونحن إذا أردنا أن نحبب إنسانا إلى آخر ولو كان طفلا صغيراً فما علينا إلا أن نشيد بذكر أخلاقه ومآثره أمامه فإنه لا يملك إلا أن يحبه ويفتتن به .

وكم للدعاية من أثر كبير فى هذا الباب فلولاها لما أحب الناس الأنبياء والصالحين وكرهوا إبليس وأشباهه — وهل الدعاية إلا مجرد الإشادة بذكر المحامد والمساوئ دون أن يكون فيها نظر إلى صورة محسوسة أو حظ مباشر ينال المتأثرين بتلك الدعاية

واختلفوا فى هل صدور الأذى من المحبوب سبب فى تقلص ظل حبه من قلب المحب ؟؟ فقال قوم إن الأذى يزيل الحب فإن الطباع مجبولة على كراهية من يؤذيها وحب من أحسن إليها ، وفى هذا يقول الشاعر :

خذى العفو منى تستديمى مودتى ولا تنطقى فى سورتى حين أغضب
فإنى رأيت الحب فى القلب والأذى إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

وقال آخرون ليس بحب صحيح ما يزيله الأذى ، بل إن علامة الحب الصحيح أنه لاينقصه الجفاء ولا يذهبه الأذى وربما التذ المحب بأذى محبوبه وفى هذا يقول الشاعر :

من لم يذق ظُلم الحبيب كَظلمه حلوا فقد جهل المحبة وادعى

والقول الحق أن وجود الحب فى قلب المحب لاينافى كراهيته لأذى محبوبه ، وفيه يقول الشاعر :

ولو قلت طفى النار أعلم أنه رضا لك أو مدن لنا من وصالك
لقدمت رجلى نحوها ورطئتها هدى منك لى أو ضلة من ضلالك
وإن سائنى أن نلتنى بمساءة فقد سرنى أنى خطرت ببالك

هذه حقيقة الحب وأركانه ودرجاته بسطناها بالنظر لما للحب من مكانة عظيمة فى الدين حيث اعتبره الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم عبادة من أعظم العبادات التى تقرب إلى الله وشرع لهم حب الله والحب فى الله ودعاهم إليه وقال إنه واجب من أهم الواجبات بما ورد عنه من قوله صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا ألا أخبركم بشىء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم » وقوله « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما — وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار » وقوله « إن الله يقول يوم القيامة أين المتحابون لجلالى اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى » وقوله « لا يتم إيمان أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله وولده ومن نفسه التى بين جنبيه » .

وقديما ألّه الناس بعض الموجودات لما توسموا فيها من الخير لهم فأحبوها ونسبوا لها

القدرة على جلب المنافع وكشف المضار فعكفوا على عبادتها والالتجاء إليها فى الشدائد وجاء الإسلام مدللا على بطلان تلك العقائد الفاسدة فى تلك الآلهة التى لاتنفع ولاتضر ولا تسمع ولا تبصر ولا تملك من أمر نفسها شيئا بل هى مخلوقة من ضمن مخلوقات الله سامع النداء ومجيب الدعوات كاشف الضر ومحقق الرغبات وأنه لذلك لايستحق الحب والعبادة أحد سواه فآمن بهذا من آمن وكفر من كفر وقال تعالى « ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله[1] » . وكيف لا يحب الذين آمنوا الله حبا لا مزيد عليه وهم يعتقدون أنه تعالى هو الذى خلقهم من العدم وأجزل عليهم وافر النعم التى فى مقدمتها ما أودعه تعالى لهم من حب فى قلوب آبائهم وأهلهم ومحبيهم والناس أجمعين وما سخره لهم من جميع المخلوقات وما آتاهم من الفضائل والمكرمات ومن أجلها هذا الإحسان الذى يعجز عنه البشر وهو هداية الإسلام إلى فهم الحقائق الصحيحة التى تنير للناس سبيل الهدى وتخلصهم من ظلمات الوثنية وترشدهم إلى ما يهذب نفوسهم ويرفعهم عن مستوى البهيمية إلى أقصى درجات الكمال الإنسانى فى هذه الحياة الدنيا ويضمن لهم السعادة الحقة فى الحياة الأخرى . وقد أمر الله رسوله فى القرآن أن يطالب المؤمنين بأن يقيمو البرهان العملى على حبهم لله باتباع ما يدعوهم إليه من أعمال صالحات حيث قال « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم[2] » ثم إنه تعالى اعتبر الأعراض عن طاعة الرسول فيما أمره به الله دليلا على الكفر حيث قال « قل أطيعوا الله والرسول فإن تولو فإن الله لا يحب الكافرين[3] » .

وأنذر سبحانه وتعالى من يؤثر حب غيره على حبه وطاعة غيره على طاعته بعظيم عقابه حيث قال « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسقين[4] » وحب الله ينجى من عذابه كما قال تعالى ردا على قول اليهود والنصارى نحن أبناء

---

(١) البقرة : ١٦٥ (٢) آل عمران : ١٣٠
(٣) آل عمران : ١٣١ (٤) التوبة : ٢٥ .

الله وأحباؤه « قل فلم يعذبكم بذنوبكم[١] » وفى الحديث « والله لا يعذب حبيبه ولكن يبتليه فى الدنيا) ولقد يظن الكثير من الناس أن حب الله درجة لا يبلغها الإنسان إلا بعد جهد جهيد وعمر طويل وقد يتطرق إلى ذهن بعضهم أن حب الله معناه التقشف والدروشة أو الانقطاع عن العمل فى هذه الدنيا والتوجه فقط إلى العبادة وأعمال الآخرة .

ولعل فى هذا ماقد يكون سببا فى صرف الأنظار عن هذا السبيل فى وقتنا الحاضر الذى جبلت فيه النفوس على حب الدنيا والرغبة فى لذائذ الحياة ولكن هذا ظن خاطئ ورأى غير صحيح فحب الله أمر ميسور ولا يتنافى مع طيب العيش ونعيم الحياة بل هو خير وسيلة لنيل السعادة فى الدنيا قبل الآخرة ولا يشترط فيه غير اتباع سيد الخلق وليس فى شريعته عليه الصلاة والسلام ما يحرم العمل وينفر من الكسب والأخذ بمباهج الحياة بل أنه ليدعو إلى إظهار النعمة والتمتع بأنواع الزينة ولذائذ الحياة ضمن حدودها المشروعة وإنما المهم أن يستعمل الإنسان فى حبه ذلك الحس الذى يسمى العقل والقلب ليستطيع أن يحلق بتفكيره فى ميدان فسيح يحوى أنواعا من الجمال يتخيل منها ما يستحق الحب وما يجب أن يحب وهنالك يتذوق الإنسان لذة الحب الملائكى وينعم بحقيقة الجمال ولما كانت اللذة وليدة الحس فهى بلا شك تختلف باختلاف المدركات وكما أن الإنسان يلتذ بتمتع حواسه فيما خلقت له كذلك يلتذ بإدراك ما فيه من قوى وغرائز لما يقتضيه طبعها الذى خلقت له فغريزة الغضب ترتاح إلى التشفى والانتقام كما ينعم البصر بالإبصار وهكذا تتم لذة العقل باكتشاف الحقائق وينعم القلب بنور يقذفه الله فيه فتتكشف له الأسرار الباطنة ويتعرف حقائق الأمور المستترة ويسمى ذلك (البصيرة الباطنة) قال تعالى « فمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه[٢] » وقال أيضا « إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور[٣] » وعمؤها بحرمانها من ذلك النور الذى يقذفه الله فى قلوب المؤمنين .

نحن بلا شك مسلمون نعرف الله بأسمائه وصفاته فقد تلقينا ذلك عن آبائنا

---

(١) المائدة : ٢٠ .
(٢) الزمر : ٢٢ .
(٣) الحج : ٤٦ .

وأجدادنا منذ الطفولة فمعرفتنا الله معرفة وراثية وإيماننا فى الغالب إيمان بالتبيعة والتقليد أكثر مما هو إيمان بالبرهان والدليل وأنه ينقصنا أن نعرف الله معرفة تقوم على أساس التدبر والتفكير وترتكز على العقل والنطق والعمل لأن هذا هو الإيمان الذى لايقف أمامه زيغ ولا يزعزعه تضليل وهذا هو الايمان بالقلب الذى يزيد وينقص بقدر ما يحصل عليه العقل من معرفة وما يقذفه الله فى القلب من نور ، ولما كان المرء بطبيعة الحال لا يميل إلى تصديق كل ما يلقى إليه مالم يكن قائما على برهان ودليل وهو فى النظريات الدينية أكثر تحفظا وأشد عنتا وجب أن يستخدم الإنسان عقله فى سبيل تأييد دينه وعلى هذا الأساس جاء الدين الإسلامى مؤيدا بالقرآن الجامع للحجج والأدلة العقلية والمنطقية باعتباره أكمل الأديان وختام الشرائع .

ولما كان العقل هو أداة المعرفة للأمور غير المحرمة جعله الله مدار التكليف وموضع النيات ورتب على فعله حقيقة الإيمان فلا إيمان لمن لا عقل له ولا قيمة لعقل لا يثمر إيمانا « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم كالأنعام بل هم أضل سبيلا[1] » لقد مضى ذلك العهد الذى كان الناس فيه يعتمدون على أجسامهم القوية وعضلاتهم المفتولة وجاء الدور الذى نعتمد فيه على ما ينتجه العقل من اختراع وما يوحى به الفكر من تدبير فى كافة شؤوننا الدنيوية . فما أحرانا أيضا أن نلجأ إلى هذا العقل فنوجهه إلى الناحية الدينية ونستفيد منه فى حياتنا الأخرى .

لقد كان الناس إلى عهد قريب لايؤمنون إلا بالأمور المادية التى يشاهدونها بأعينهم ويلمسونها بأيديهم وكانوا يسفهون كل ما يقال عن العلوم الروحية والعالم غير المنظور ، ثم توصل الناس إلى معرفة علم النفس والوسائل العلمية المؤثرة فى تدريب النفس وطرق الاستفادة من القوة العاقلة فينا حيث قالوا إن الإنسان يرى الشىء فيشعر بميل إليه . أو نفور منه فيدفعه ذلك إلى الدنو منه أو الابتعاد عنه فيسير فى تنفيذ ما يريد تحت تأثير ناحية من نواحى القوة العاقلة فيه وهو لا يشعر ، والرجل قد يكون مسروراً فيعلم بموت والده فتضطرب أعصابه ويتغير لونه وقد يغمى عليه نتيجة وجود فكرة موت الوالد وهى التى أثرت فى أعصابه وأحدثت ذلك الانقلاب

---

(١) الفرقان : ٤٢ .

فى أجزاء جسمه ومثل ذلك أيضاً قد يقع عند ما تتولد فى المرء أفكار سيئة وقد يصاب بدوار فى رأسه إذا نظر من شاهق إلى مكان سحيق .

ومما يقرره علم النفس أن التركيب المادى هو أمر ثانوى إلى جانب التركيب الفكرى وإن كل ما فى الوجود لا يمكن تحقيقه إلا إذ تم أولا فى عالم الفكر وهذا ماقضت به سنة الله فى خلقه حيث سبقت إرادته بخلق الإنسان قبل أن يبرزه للعيان فقال تعالى للملائكته « إنى جاعل فى الأرض خليفة » .

وأقوى مثل لذلك أن الرجل إذا وضعت له لوحة على الأرض وأمر بالسير عليها فإنه يستطيع أن يجرى فوقها بكل طمأنينة ومتى رفعت عن الأرض نحو ذراع أمكن السير عليها بتؤدة وتحفظ ولكنها إذا ارتفعت إلى خمسة أمتار لايمكن أن يمشى عليها بضع خطوات دون أن يكون نصيبه السقوط تحت تأثير الخوف الذى تملك أفكاره وتشككه فى القدرة على السير فوق اللوحة مما يخل توازنه ويربك أعصابه فتزل قدمه لا محالة والخوف أكبر عامل من عوامل الفشل وأعظم عدو للإنسانية لما ينطوى تحته من عدة مشاعر ضارة منها الهم والبغض والغيرة وسرعة الغضب والحيرة والاضطراب وعدم الثقة بالنفس وضعف الأعصاب ، بل إن تسعين فى المائة من الأمراض يرجع السبب فى وجودها أو مضاعفة آلامها إلى الخوف الذى يفسد مفعول العلاج ويحول دون الاستفادة منه ، وكثير من الناس من يفشل فى الحياة وهو لا يعلم أن السبب فى فشله إنما يرجع إلى الخوف لأنه يخشى أن يقدم على الأمر الجلل . أو يخشى من عدم الظهور بالمظهر اللائق به أمام الناس فيتردد ويحجم ويسبقه صاحب الإرادة القوية

ومن المقرر عند علماء النفس أن فى إمكان كل أحد أن يعالج حالة الخوف فى نفسه إذا هو استطاع أن يبعد عن ذهنه بالتدريج كل فكرة سيئة تجئ إليه ويطارد الخوف من بين ثنايا نفسه حتى تصبح تلك عادة له فلا يعود يكترث بصروف الدهر وحوادث الأيام ومثله فى هذا كمثل ذلك الرجل الذى يأتى بالغراب إلى نافذة غرفته فإن تركه عشش وفرخ وإذا طارده كلما جاء لايلبث أن يذهب إلى غير رجعة .

وقد أجمع علماء النفس على أن أعظم سلاح ماض لقطع دابر الخوف من النفوس هو أن تجلب إليها الأفكار المسرة وتملأها بالآراء المفيدة التى تنشط الهمم وتقوى العزائم وذلك عن طريق الاستهواء الذاتى وهو نوع مما يسمونه بالإيحاء وللإيحاء

قيمة كبيرة فى حياتنا العامة فهانحن نرى جميع آرائنا ومعتقداتنا لاتقوم فى الغالب على تفكيرنا الخاص ، بل على مانتأثر به من أحاديث الناس وما ينشر فى الصحف والرسائل وبين أيدينا قوة عجيبة نستطيع أن نعتمد عليها بعد الله تعالى فى توجيه أفكارنا إلى الناحية التى نريدها ونستفيد منها فى تصحيح نفوسنا وأجسامنا والوصول إلى مانصبر إليه من سعادة الدنيا والآخرة وتلك هى قوة (الاستهواء الذاتى) .

وفى إمكان كل إنسان أن يستهوى نفسه ويؤثر فيها إذا ماظل يردد لنفسه مايريد كل يوم عشرات المرات فإنه يستطيع التغلب على مايحيط به من موقف صعب وسيحمله هذا لامحالة على الاعتقاد بقدرته على الغلبة لأن من القوانين الهامة عند علماء النفس (أن كل فكرة تثبت فى الذهن لا تلبث أن تتحول إلى عمل والعمل إذا تكرر يتحول إلى عادة ثابتة) ولا يقصدون بهذا أن كل ما يريده الإنسان فى الحياة لابد أن يكون ، بل إن الاعتقاد بإمكان حصول الشىء مما يضاعف الجهود فى سبيل تحقيقه ولكنه لايمكن حصوله إلا إذا كان متمشياً مع نظام القضاء والقدر وفق مشيئة الله قال الله تعالى « وما تشاؤن إلا أن يشاء الله » بخلاف التردد والخوف فإنهما يضعفان الهمة فلا تتوجه المساعى إلى ذلك الهدف ، وللاستهواء عند علماء النفس شروط لابد منها وهى مطابقة لما جاء به الدين الإسلامى وهى :

١ — أن يكون الاستهواء موجباً لانافياً ، وذلك بأن يؤكد من يريد الصحة لنفسه أنه صحيح لأنه ليس به مرض .

٢ — أن يكون الاستهواء مشرباً بثقة تامة فى النجاح لاأن يتشكك فيه .

٣ — أن يكون الاستهواء مما يتقبله الشعور ولا يصطدم مع الحس فلا يقول المتألم أنه غير متألم ، بل يقول إنه سيشفى بأمر الله .

٤ — أن يستمر الاستهواء مدة طويلة بلا تعب أو ملل .

٥ — أن يكون الاستهواء من طريق القلب ومع اللسان أفضل .

٦ — أن يكون الاستهواء قبل النوم وعند اليقظة وفى كل فرصة أثناء الليل والنهار .

٧ — أن لاتتغير الفكرة الواحدة مابين ليلة وأخرى . بل لابد من استمرارها .

٨ — أن يبتدىء الاستهواء بالأشياء الممكنة ثم يتدرج إلى ماهو أبعد تناولا منها .

٩ — أن يحرص المستهوى على حسن الخلق ومحاربة الرذائل .

وعلى ضوء هذه المعلومات نقول أن الإسلام يأمرنا إذا كنا جادين فى حبنا لله أن نسعى إلى ذلك متذرعين بالوسائل الآتية :

(أولا) الاستهواء الذاتى .

(ثانياً) التفكير الصحيح .

(ثالثاً) تحديد الغرض .

(رابعاً) الثقة والإيمان .

(خامساً) الشجاعة وعدم الخوف .

(سادساً) قوة الإرادة .

(سابعاً) اختيار العمل الصالح .

والاستهواء هو الركن الأساسى فى الموضوع باعتباره هو الشرارة التى نقذفها فى محيط الفكر لتكون أساسا لشعلة التفكير ونواة للعمل فى مستقبل الحياة .

وأما التفكير فقد درج أكثر العلماء على أن يعلمونا كتب الفقه ويبينوا لنا الحلال والحرام ، ولكنهم لم يوجهوا قط أنظارنا بصورة علمية إلى التأمل فيما يحيط بنا من عظمة الكائنات وبدائع المخلوقات ، ولم يوقظوا شعورنا وتفكيرنا نحو صنع الله وجليل قدرته فى كل صغيرة وكبيرة مما نراه بأعيننا ونلمسه بأيدينا ومايمر علينا من حوادث الأيام . ولقد فاتهم أنهم بعملهم هذا إنما يكبتون الفكر ويعطلون عمله . ويحولون دون الاستفادة منه .

والله سبحانه وتعالى قد أمرنا بالتدبر والتفكير فى كثير من المواضع فى القرآن الكريم وأثنى على المفكرين حيث قال : « الذين يذكروا الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار[1] » وأرشدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى طريق التفكير حيث قال : « تفكروا فى آلاء الله ولاتفكروا فى ذاته فتهلكوا » . وهذا هو مايجب علينا عمله ، لأن التفكير فى الآلاء وسيلة إلى معرفتها والإحساس بها والشعور بالإحسان

(١) آل عمران : ١٩٢ .

والفضل ، وهذا مما يحتم حب المنعم المتفضل ، فمن المشاهد أن الإنسان إذا تعود من آخر إحسانا تجده يحبه ويثنى عليه الثناء العاطر ويتمنى بقاءه حرصا على المصلحة التى تعود عليه منه . والله سبحانه وتعالى هو مصدر جميع النعم فهو المستحق للحب من كل إنسان وقد قال تعالى فى كتابه الكريم : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون[١] » فلو تفكر الإنسان فى حقيقة نفسه وذكر مبدأ خلقه وما طرأ عليه من تطورات كلها من فضل الله ولا تأثير فيها لغيره سبحانه وتعالى لا شك أنه يقدر فى دخيلة نفسه لله تلك المنن ويبالغ فى حبه والإخلاص له على ضوء قوله تعالى « قتل الإنسان ما أكفره من أى شىء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره[٢] » وقوله فى آية أخرى « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين[٣] » كل هذه منن وكل هذه حسنات لو تدبرها الإنسان لعرف أنه لا يستطيع أن يوفى الله حق شكره عليها ولما أمكن له إلا أن يكون محبا لله بكل معنى الكلمة ، ولكن عدم العناية بالتفكير فى آيات الله ومننه أدى بنا إلى الإعراض عن الحب الصحيح قال الإمام الغزالى فى هذا الباب ما نصه « أن المدركات كلها التى هى شاهدة على وجود الله إنما يدركها الإنسان فى الصبا عند فقد العقل ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلا قليلا وهو مستغرق الهم بشهواته وقد أنس بمدركاته ومحسوساته وألفها فسقط وقعها عن قلبه بطول الأنس ولذلك إذا رأى على سبيل الفجأة حيوانا أو نباتا غريبا أوفعلا من أفعال الله خارقاً للعادة عجيباً انطلق لسانه بالمعرفة طبعاً فيقول عند ذلك فقط (سبحان الله) مع أنه يرى طول النهار نفسه وأعضاءه وسائر الحيوانات المألوفة وكلها شواهد قاطعة على وجود الله ولكنه لا يحس بشهادتها لطول الأنس بها ولو فرض أن أكمه بلغ عاقلا ثم انقشعت غشاوة عينيه فامتد بصره إلى السماء والأرض والأشجار والنبات دفعة واحدة على سبيل الفجأة لخيف على عقله أن يبهر لعظم تعجبه من شهادة هذه العجائب لخالقها » ، ونحن إذ نفكر فى هذا الراديو لنعجب جدا كيف تسنى للانسان

---

(١) الذاريات : ٢١ .
(٢) عبس ١٧ — ٢٢ .
(٣) المؤمنون ١٢ — ١٤ .

أن يتكلم فى جهة معينة فيسمعه الناس فى كل مكان ، الأمر الذى يكاد يشبه المعجزات وخوارق العادات ولكن يجب أن يمتد تفكيرنا إلى أن المخترع له لم يوجد عنصرا من العناصر التى تكون منها اختراعه وإنما هو قد استعمل تفكيره فى استخدام أشياء من مخلوقات الله كالخشب والحديد والهواء وما إلى ذلك بطريقة علمية فحصل على هذه النتيجة التى هى فى الواقع من إلهام الله أيضا .

ويجب أن نتخذ من ذلك درسا لنا فنتصور أنه إذا أمكن للمخلوق أن يستعمل هذه العناصر ليصل بصوته إلى أقصى المعمورة فلا يصعب على الأذهان أن تتصور مبلغ قدرته سبحانه وتعالى على العلم بكل عمل من أعمالنا الظاهرة والباطنة وهو القائل « وهو معكم أينما كنتم وما تسقط من ورقة إلا يعلمها[1] » .

والتفكير فى هذا مما يزيد الإنسان معرفة لله ومراقبة له خصوصا فى حالة ارتكاب المعاصى والقصور عن أداء الواجب .

ونحن إذ نفكر فى الحياة الأخرى ونصدق بصحة ما وعد الله فيها من نعيم للطائعين وعذاب للعاصين وأنه لابد من البعث والحساب والعقاب ودخول الجنة أو النار نستطيع أن نفكر فيما وصل إليه العلم الحديث من اختراع (التلفزيون) لنقل الصور باللاسلكى وشريط ماركونى لحبس الصوت لنتخذ من ذلك أمثلة لما يقع فى الآخرة ونتصور كيف يكون حالنا فيما إذا عرضت أعمالنا وأقوالنا كذلك فى الآخرة وهذا مما يشعر الإنسان بخطئه ويحمله على طلب الرحمة والغفران .

ونحن إذ نفكر فى قوة الله يجب أن نفهم أن القوة التى نتمتع بها نحن ما هى إلا نتيجة الحياة والحياة التى فينا هى من عند الله فنحن مدينون لله سبحانه وتعالى بالقدرة على الحركة والسكون وهذا ما يحملنا على التخلى عن كل حول وقوة لله وحده .

ونحن إذ نفكر فى وحدانية الله وانفراده بالخلق والتكوين يجب أن يمتد تفكيرنا فى معنى كلمة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » إلى نفى التأثير عن كل من سواه حتى فكرة الوساطة أو الشفاعة فإنها لا تكون إلا فى حدود ما رسمه الله حيث لا تنفع عنده إلا بإذنه فيؤدى بنا هذا إلى أن نخصه تعالى بالعبادة ونقضى على فكرة الاستمرار فى المعاصى على أمل أن ننجو من العذاب بشفاعة الواسطة .

(١) الأنعام : ٥٩ .

ونحن إذ نفكر فى حوادث الأيام التى تمر بنا وما لله من تصرفات فى خلقه لاشك نحصل على قسط من المعرفة كبير لأن النفس تكون قد أشبعت بفكرة قوية عن الله تؤدى بنا حتما إلى التفانى فى حبه والمبادرة إلى أداء فرائضه وابتغاء مرضاته والرضاء بأحكامه والشكر على نعمائه وعندئذ نشعر بلذة العيش ونعيم الحياة ونجد اللذة فى الرضاء بما يرضاه فلم نعد نهتم بصروف الدهر وتقلبات الحياة على حد قول من قال :

إذا ما رأيت الله للكل صانعا رأيت جميع العالمين ملاحا

وفى هذا منتهى السعادة وغاية الإيمان لأن السعادة الحقيقية ليست فى الجاه والمال بقدر ما هى فى الطمأنينة والرضاء .

أما تحديد الغرض فقد قرر علماء النفس أنه لابد لنجاح الإنسان وسعادته أن يكون له غرض أو غاية مقصودة فى الحياة يسعى إليها وإلا فإنه لاينتفع بحياته كما ينبغى فيكون كمن يسير فى الطريق على غير هدى . قالوا ولابد فى ذلك من أن يكون الغرض واضحا ومحدودا وأنه فى حاجة إليه بحيث تتجه إلى الحصول عليه كل القوى وتشترك فى العمل على نيله جميع الجوارح ومن المهم ألا يكون الغرض مطمحا بعيدا إذ الغرض الصحيح فى الغالب ما كان أكثر تواضعا .

وأهميته تقع فى مدة لزومه أكثر مما تقع فى علوه . وإن استطاع أن يبلغ غايته القريبة فمن السهل عليه أن يصل إلى ماهو أبعد منها .

وأما من كان غرضه من الأساس بعيدا فكثيرا ما يمنى بالفشل والخيبة ، والرغبة فى الشىء عامل مهم فى تحقيقه ولكنها ليست كل شىء بل لابد أن تكون صادقة ملحة فيصحبها العمل المتواصل ، ولهذا شرع الله لعباده الصلاة فى اليوم خمس مرات ولقنهم فيها تلاوة توضح غرضا أساسياهم أحوج إليه من كل شئ ألا وهو (الهداية إلى الصراط المستقيم) وأجاز للمصلين أن يزيدوا فى الطلب ما يشاؤن من رحمة وغفران وغير ذلك أثناء ركوعهم وسجودهم وجعل الله الطلب وسيلة العطاء والدعاء سبيل الإجابة ، وقد اقتضت رحمة الله بعباده أن يخلق لهم ماهم فى حاجة إليه أو مايتوجهون به فى حرارة وإيمان ولذلك من الله عليهم بهذه المنة حيث قال (الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار

وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها[1] » وقال تعالى « أدعونى أستجب لكم » وهذا وعد صريح بالإجابة بمجرد الدعاء من غير تعليق على شئ آخر والله لا يخلف وعده ، وقد ورد أن الله لا يرد دعوة داع فإما أن يعجل له الإجابة أو يرد الله به بلاء كان نازلا عليه أو يدخر له أجره فى الآخرة ، وإذا كان منا من دعا الله فلم يجب له فإن التعليل العلمى لذلك هو أن الدعاء ما كان لغاية محدودة أو لم يتوفر فيه من الشروط ما يجعله فى درجة التنفيذ وبعبارة أخرى لم نكن مجدين فى طلباتنا واثقين من إجابتها بل نحن نرسل الدعوات جزافاً بطريقة أشبه بالآلية دون أن تكون منبعثة من القلب بخشوع وإنابة ، ودون أن نراعى فى ذلك ما نحن فى حاجة إليه .

وفيما نحن بصدده فإذا كنا نريد الوصول إلى درجة المحبين لله فمن المهم أن يكون ذلك هو غرضنا الأول من الحياة وأن تكون لنا رغبة صادقة يصحبها العمل المتواصل لكل ما يمهد السبيل إلى ذلك .

وفكرة الحب متى وجدت فى النفس فمن شأنها القضاء على الأثرة وحب الذات وتشمل التضحية بالصحة والراحة عندما تدعو الحاجة إلى ذلك وهى تقتضى تحمل كل شئ فى سبيل رضاء المحبوب وهو ما يعبر عنه بالجهاد الأكبر أو جهاد النفس .

ويجب أن لا يداخلنا الوهم فى أن هذا الذى نطمع فيه هو مطلب صعب أو بعيد المنال بل إنه بالعكس أقرب ما يكون تناولا وسبيله من أبسط الأشياء وهو الثقة ونعنى بها التأكد والجزم بصحة العقيدة فى الله ومشروعية الطلب وضرورة حصوله وغير ذلك من الشروط فذلك من أهم الأركان التى يبنى عليها استجابة الله للدعاء . لقد اقتضت إرادة الله أن يكون الدعاء مفتاحا لكل أمل يريده الإنسان والثقة فى حصوله مما تحتم تحقيقه ولو تدبر هؤلاء القوم لا فردوا الله وحده بالسؤال فهو القائل « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى » « أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون » وبهذا يحصل المرء على بغيته من صاحب الأمر رأسا لا عن طريق غير مباشر ولا عن طريق غير مشروع مما يؤدى به إلى عاقبة

(١) إبراهيم : ٣٢ — ٣٤ .

وخيمة خصوصا أن الله سبحانه وتعالى يأمرنا بالرجوع إليه فى كل حاجاتنا الدنيوية والأخروية ويؤكد لنا الإجابة حيث يقول « ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين » .

ومما يؤيد ضرورة الثقة والجزم فى الطلب قوله صلى الله عليه وسلم « وإذا دعا أحدكم فليعزم المسألة ولا يقل اللهم إن شئت فأعطنى فإن الله لا مستكره له » .

وإن ذرة من الثقة والإيمان الصحيح لتكفى لبلوغ أرفع الدرجات عند الله وأقصى ماتصبو إليه النفس فى الحياة . وهذا القرآن يصورلنا مثلا من قوة الثقة وثمرتها بموقف السحرة من قوم فرعون إذ قالوا له « لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر[1] » وما يحكيه فى قصة أيوب « إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له وكشفنا ما به ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين[2] » وما حكاه تعالى عن ذى النون « إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين[3] » .

وقياسا على هذا فإنه لايمكن لأى إنسان أن يخيب فى حياته إذا كان قوى الإيمان بربه واثقا كل الثقة بأنه ليس فى الوجود قوة خلاف قوته سبحانه وتعالى منها يستمد القوة والسعادة والنجاح . تلك القوة التى بلغ من عظمتها وقوتها أن تنشىء من العدم هذا النظام الكونى العجيب فلايعجزها أن تشبع مطامعه وتحقق له آماله وأنهامهما بلغت من العظم لاتساوى شيئا فى جانب عظمة خلقة ولايعجزها أن تنصره فى كل موقف والله سبحانه وتعالى يقول فى حديث قدسى «أنا عند حسن ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى» وفى القرآن « من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ[4] » ومعنى هذا من كان لا يثق بنصر الله فى الدنيا والآخرة فيكون مثله كمثل من مد حبلا إلى أعلا ثم قطعه فهل فى ذلك ما يشفى غليله أم هل يترتب عليه غير إضراره لنفسه بنفسه .

---

(١) طه : ٧٣ .
(٢) الأنبياء : ٨٤ .
(٣) الأنبياء : ٨٨ .
(٤) الحج : ١٥ .

وأما الشجاعة وعدم الخوف فهما من أهم الصفات التى يجب أن تتوفر فى راغب الوصول إلى الله ، ونقصد بالشجاعة القدرة على النفس وتمرينها على مواجهة ما يعترضها من مصاعب ومشاكل بصدر رحب وقدم ثابتة بحيث يستطيع المرء أن يثبت وراء الحق والواجب حتى إذا ماأخطأ خطأ وشعر به لايتردد فى أن يعترف به ويتحمل تبعته مهما كانت ومهما قاسى فى سبيل ذلك من آلام ، ولسنا نقصد بعدم الخوف أن يظهر الإنسان بمظهر الشراسة وعدم المبالاة لا يهمه غضب الخالق ولا يحاذر طائلة القانون وإنما نعنى بالخوف الشعور بضعف النفس عن بلوغ الغاية والخضوع لحكم العاطفة فهذا النوع من الخوف مما يفسد على الإنسان حياته ويحمله على التقاعس عن أداء الواجب أو العمل عما لايرضى الله ، وقد أوضحنا ما يقوله علماء النفس عنه .

ولأجل أن يقضى الإنسان على هذا النوع من الخوف ويحصل على الشجاعة الكاملة يحسن بى أن أصف مايشير به علماء النفس فى هذا الباب[1] وهو أن يتعرف كل واحد حقيقة نفسه ويتبين مواطن الضعف فيها ويلم بأسباب هذا النقص فيعمل على إزالتها وذلك بأن يخلو بنفسه على حدة كل يوم برهة من الزمن يحاسبها فى أمانة وإخلاص على كل ماصدر منه من مساوئ نحو الآخرين وما يشعر به من عيوب شخصية قد يواريها عن الناس ثم يبدأ بالقضاء عليها واحدة بعد واحدة ، قال سيدنا عمر رضى الله عنه « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا » ولما كان مصدر العيوب الخوف فيجمل بالإنسان أن يحرر كشفاً بالأشياء التى تثير خوفه ثم يفحصها ويناقشها بدقة فيها ويقف عند كل واحدة من تلك العوامل ويسائل نفسه عما يخفيه منها وهل هو محق فى خوفه أم لا وإذا لم يكن محقا فلماذا لا يتخلص من ذلك الخوف وإن كان محقا فهل يعدم وسيلة للتخلص منه ، وبهذه الطريقة يستطيع أن يسمو بنفسه عما يغمرها من الوهم ونضرب لذلك مثلا رجلاً صارح نفسه فظهر له أنه احتقر شخصاً أو أساء إليه فيجب أن لايتردد فى الذهاب إليه معتذرا ولا يرى فى ذلك غضاضة أو ألما ، بل بالعكس فإن عليه أن يقدم على ذلك فى غبطة وفرح لهذا الخلق الكريم الذى تحلى به والشعور بالمرح هنا عنصر لازم لكسب المعركة ضد النفس الأمارة بالسوء .

---

(١) وقد أفاض فى ذلك علماء السنة والأخلاق والصوفية ولمحاسبة النفس فى أسفارهم أبواب واسعة ومنها استمد علماء النفس المحدثون كل ماقالوه اه مخلوف .

وأما قوة الإرادة فقد يظن البعض أن الإرادة شيء قائم بذاته يكون ضعيفاً عند قوم قويا عند آخرين ، ولا يملك المرء القدرة على إجراء أى تعديل فيه ولهذا يقول ذلك البعض (أنى لى بإرادة قوية) والحقيقة أن الإرادة لم تخرج عن كونها من الصفات التى تتصل بقوة العقل ورجحان كفته ، كما يتصل ضعف الإرادة بتغلب النفس وميلها إلى إشباع شهوتها فمن حكم عقله ملك نفسه وسيطر على جسمه وهيمن على كافة أعماله واستحق أن يسمو على غيره . وسيطرة العقل على الجسم سهلة ميسورة وإنما تفتقر إلى رغبة قوية فى أن يتمتع الإنسان بنعمة الصحة فى بدنه ، ووجود هذه الرغبة إذا صحت كاف لإيجاد حياة جسمية طيبة لأنها تولد فى نفس صاحبها كره المرض وما يؤدى إليه فيحمله ذلك على الابتعاد عن كل خلق أو عمل يخل بالصحة ويهدد بالمرض .

كما أن سيطرة العقل على النفس وهو مايسمى (ضبط النفس) ليست بالأمر العسير وإن بدا للناس أنها صعبة لما فيها من اصطدام ميول النفس الأمارة برغبات العقل المتزنة ، والواقع أن الأمر لا يحتاج إلى شيء من الجرأة والإقدام لمناصرة العقل وتأييده على قهر النفس ، وإنما ينبغى أن يستطلع الإنسان دخيلة نفسه ويتخير عادة من العادات التى يعتقد بعدم إمكانه التخلى عنها لشدة تمسك النفس بها فيهاجمها فيها ويعمد إلى تحطيمها فى كبير من الثقة والزهو أثناء خوضه للمعركة ، ومن المؤكد أنه سيكسب النصر إن شاء الله وستكون هذه الخطوة الأولى الشاقة فى حرب النفس التى سيعقبها خضوع واستسلام على طول الخط من غير مشقة أو عناء ، ومن المهم بعد ذلك الاستمرار على نفس الخطة بحيث تصبح تلك من العادات التى إن تراجع عنها مدة ضاعت مجهوداته الأولى واحتاج إلى حملة أخرى ربما كانت أشد من سابقتها .

وأما اختيار العمل الصالح فقد كانت الديانات السابقة تدعو إلى الرهبنة والانقطاع إلى العبادة ، ثم جاءت الديانة الإسلامية ناسخة لتلك الطريقة بل بالعكس فإنها حتمت على الإنسان أن يعمل فى الحياة لصالح نفسه وأهله ووطنه وأمته ورتبت له الثواب على كل ذلك ، ولم ترد منه أن يخص العبادة إلا بمقدار بسيط من أوقات راحته ، ويقتضى هذا فنحن إذ نأكل ونشرب لنقوى على أعمالنا ونؤدى ماهو مطلوب منا نثاب لأننا فى طاعة الله ، ونحن إذ نعمل ونكد فى الحياة لكسب مانقوم به أودنا ونروح به عن أنفسنا وأولادنا نثاب لأنا نعمل لما يرضى الله ، ونحن إذ ننفق الأموال ونقضى الأوقات

فى سبيل خدمة البلاد والدفاع عن الوطن وإعزاز الأمة نثاب لأننا نجاهد فى سبيل الله ونحن إذ نصلى ونصوم ونزكى ونحج نثاب لأنا نؤدى واجبا لله ، وإنما يلزمنا فى كل هذا الإخلاص فى النية وحسن القصد فالإخلاص من العبادة « وإنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى » .

ونحن إذ نريد أن نبالغ فى العبادة نقصد القرب من الله فإن البشر مهما حرصوا على ابتكار الوسائل المؤدية إلى حب الله والقرب منه لايمكن أن يصلوا إلى معرفة مايوجب مرضاته سبحانه وتعالى أكثر مما وصفه جل قدره بنفسه لنفسه من الإكثار من النوافل التى من نوع ماافترضه علينا من صوم وصلاة وحج وزكاة ؛ فقد صح فى حديث قدسى عن الله عز وجل أنه قال « وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه وما زال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ، وإن سألنى لأعطينه وإن استعاذنى لأعيذنه » هذا وإن فيما ذكرته من التمرينات العملية والأعمال الإيجابية لخير وسيلة لتربية النفس وترويضها على التخلق بالأخلاق المرضية والعمل بما يأمرنا به الله بنفس مطمئنة رضية .

ولقد جعل الله لنا فى الحب فى الله ميداناً فسيحا لنيل الثواب وتكفير السيئات ومن ذلك ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن رجلا خرج من بيته لزيارة أخ له فى قرية أخرى فأرصد الله له ملكا على مدرجته ؛ فلما أتى عليه قال أين تريد ؟ فقال أريد أخا لى فى هذه القرية ، فقال هل لك عليه من نعمة تربها ؟ قال لا غير أنى أحببته فى الله ، قال فإنى رسول الله إليك فإن الله قد أحبك كما أحببته »[1] .

وكم للحب فى ذاته من فضائل وأحكام كثيرة لانرى بأساً من ذكر شىء منها لنوفى الموضوع حقه من البحث ؛ فقد أجمع ذوو العلم على أنه متعة النفوس وأنه يبهج القلوب ويصفى العقل ويذهب الهم ويبعث على حسن الهندام وطيب الكلام ومكارم الأخلاق ويعلى الهمة ويحمل على طيب الرائحة وكرم العشرة وحفظ الأدب والمروءة وهو بلاء الصالحين ومحنة العابدين وهوميزان العقول وجلاء الأذهان وهو خُلق الكرام كما قيل :

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه (مدرجته) طريقه (تربها) بفتح المثناة أى تقوم باصلاحها وتنهض إليه بسبب ذلك اهـ مخلوف .

وما أحببتها فحشاً ولكن رأيت الحب أخلاق الكرام

قالوا وأرواح العشاق عطرة لطيفة وأبدانهم رقيقة ضعيفة وأزواجهم بطيئة الإيقاد لمن قادها حاشا سكنها الذى سكنت إليه وعقدت حبها عليه وكلامهم ومناد متهم تزيد فى العقول وتحرك النفوس وتطرب الأرواح وتلهو بأخبارهم أولو الألباب قال الشاعر :

لحى الله قلباً بات خلواً من الهوى وعينا على ذكر الهوى ليس تذرف
وإنى لأهوى كل من قيل عاشق ويزداد فى عينى جلالا ويشرف
وما العشق فى الإنسان إلا فضيلة تدمث من أخلاقه وتظرف
يعظم من يهوى ويطلب قربه فتزداد آداب له وتلطف

وقد وصفه بعض البلغاء فقال أنه يشجع الجبان ويسخى البخيل ويصفى ذهن البليد ويفصح لسان الى ويبعث عزم العاجز ويذل له عز الملوك وتصدع له صولة الشجاع وهو داعيه الأدب وأول باب تفتق فيه الأذهان والفطن وتستخرج به دقائق المكائد والحيل وإليه تستروح الهمم وتسكن نوافر الأخلاق والشيم يمتع جليسه ويؤنس أليفه وله سرور يجول فى النفوس وفرح يسكن فى القلوب ، وقيل لبعض الرؤساء إن ابنك قد عشق فقال الحمد لله الآن رقت حواشيه ولطفت معانيه وملحت إشاراته وظرفت حركاته وحسنت عبادته وجادت رسائله وحلت شمائله فواظب على المليح واجتنب القبيح قال الشاعر :

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوى ولا خير فيمن لا يحب ويعشق
وما تلفت إلا من العشق مهجتى وما طاب عيش لامرئ غير عاشق

وقال آخر :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فكن حجراً صلداً يدق بة النوى

وسئل أبو نوفل هل يسلم أحد من العشق فقال نعم الجلف الجافى الذى ليس له فضل ولا عنده فهم فأما من فى طبعه أدنى ظرف أو معه دمائة أهل الحجاز وظرف أهل العراق فهيهات هيهات .

وقال على بن عبده لا يخلو أحد من صبوة إلا إذ يكون ناقص الخلقة أو منقوص الهمة أو على خلاف تركيب الاعتدال ومما قلت فيه :

يا من جهلت الهوى ما الحب عاطفة نفسية يرتجيها كل ذى نهم

وإنما الحب معنى ليس يعرفه غير المحب سليم الذوق والشيم
والحب يحلو بتعذيب وفرط جوى ولو تهدمت الأجسام بالسقم
والحب سعد لمن يدرى حقيقته ويملك الصبر رغم الهد والألم
والحب يشهد بالعليا — لصاحبه ويحسن الحال والأخلاق فى الأمم
والحب غير علاج النفس يصلحها عند التمرد يصليها فيستقم

وأما حكمه فبا لنظر لما للحب من مكانة سامية وما هو محفوف به من أخطار وما يتعرض له المحبون من آلام وسيئات قد عنيت به الشريعة الإسلامية وبينت ما فيه من مساوئ وآثام وما له من محاسن وثمرات .

ولما كان الحب إذا أطلق لا ينصرف إلا إلى حب الأشخاص فقد بين الله لنا ما ينبغى عمله فى هذا الباب فقال « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ماظهر منها[1] » .

فالله سبحانه وتعالى يعلمنا فى كتابه العزيز كيف يجب أن نحافظ على طهارة الحب فلا نلوثه بفعل مابشين مما يخدش الشرف ويثلم العرض ويهدم بنيان العائلة ويقضى على النسب بذلك « الوقاع غير المشروع » الذى حرمه الله فى قوله « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا » وقال فيه صلى الله عليه وسلم « يامعشر المسلمين إياكم والزنا فإن فيه ست خصال ، ثلاث فى الدنيا ، وثلاث فى الآخرة فأما اللواتى فى الدنيا فذهاب البهاء ودوام الفقر وقصر العمر وأما اللواتى فى الآخرة فسخط الله وسوء الحساب ودخول النار » .

والله سبحانه وتعالى يعلمنا كيف يجب أن نحذر مما هو داعية لهذه الفاحشة وسبيل إلى الوقوع فيها وهو النظر ومعلوم أن البصر فضل من الله وليس من الممكن تحديد مداه ولذلك اكتفى الشارع بطلب الغض منه ومعنى غض النظر عدم إطالته وتكراره وما ذلك إلا لخوف الفتنة والوقوع فى تلك الفاحشة ، يدل على هذا ماثبت فى الصحيح أن الفضل بن عباس رضى الله عنهما كان رديف رسول الله يوم النحر من مزدلفة إلى منى فمرت ظعن يجرين فطفق الفضل ينظر إليهن فحول رسول الله رأسه

(١) النور : ٣٠ .

إلى الشق الآخر ولم يؤنبه على ما صدر منه ولم يأمره بالاستغفار وهذا دليل على أن المقصود بالمنع إلا طاله ، ويفسره أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم « ياعلى لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليست لك الثانية » وقول جرير بن عبد الله رضى الله عنهما سألت رسول الله عن نظرة الفجأة فأمرنى أن أصرف بصرى ، وفى حديث آخر : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمد الرجل النظر إلى الغلام الأمرد » وحقاً أن تعمد النظر بالتكرار معناه الاستعداد لتق ما يوجب الفتنة والوقوع فيما لا يحل وفى هذا يقول الشاعر :

كل المصائب مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فتكت فى قلب صاحبها فتك السهام بلا قوس ولا وتر
والمرء ما دام ذاعين يقلبها فى أعين الغيد موقوف على الخطر

وقد أباح رسول الله صلى الله عليه للخاطب النظر إلى مخطوبته حيث قال « إذا أراد أحدكم خطبة امرأة فلينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فإنه أحرى أن يؤدم بينهما » وقد جعل الله لترك هذه المقدمة من مقدمات الحب ثوابا عظيما عنده حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فمن غض نظره عن محاسن امرأة أورث الله قلبه نوراً » .

كما اعتبر سبحانه وتعالى فلاحا أن يجتاز المرء هذا المعترك ويخرج منه سالما من تلك النتيجة الحيوانية السافلة « الوقاع غير المشروع » حيث قال فى كتابه الكريم « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون[1] » كما جعل الله فى العفة ثوابا لا يقل عن ثواب باقى العبادات وحسبنا فى ذلك أن عد رسول الله صلى الله عليه وسلم المتصف بالعفة ضمن السبعة الذين يظلهم الله تحت ظل عرشه حيث قال « ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله رب العالمين » ، وروى من عشق فعف فمات فهو شهيد .

ومتى سلم الحب من نظرة السوء « الوقاع غير المشروع » فإنه حب طاهر شريف وهوالذى نرمى إليه فى بحثنا هذا ، وهوالحب المشروع الذى دعا إليه الإسلام ، وهو من

---

(١) المؤمنون : ١٠ .

أعظم الأعمال وأفضل القربات الذى يقول فيه صلى الله عليه وسلم « ما تحابا اثنان فى الله إلا كان أحبهما إلى الله أشدهما حباً لصاحبه » .

ثم أن التزاور والوصل فى هذا الحب محمود فقد قال صلى الله عليه وسلم « يقول الله حقت محبتى للذين يتزاورون من أجلى . وفى حديث آخر « ما زار رجل رجلا فى الله شوقا إليه ورغبة فى لقائه إلا ناداه ملك من خلفه طبت وطاب ممشاك وطابت لك الجنة » .

واللذة مع هذا الحب من أعظم اللذات التى يثاب عليها المؤمن إذا قصد بها التمتع بنعمة الله والإعانة على طاعته ومرضاته كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « وفى بضع أحدكم أجر فقالوا يا رسول الله أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر قال أرأيتم لو وضعها فى الحرام أ كان عليه وزر قالوا نعم قال فكذلك إذا وضعها فى الحلال يكون له أجر » .

من الناس من يقول أن هذا الحب قد أصبح أسطورة من الأساطير أو هو من رابع المستحيلات . ولكن نريد أن نتساءل عن السر فى تقلص هذا الحب الشريف هل تجردت النفوس بالمرة عن تلك العاطفة السامية والدرجة العالية من درجات الحب وهى « حب صفات الكمال » هذا مالا نظنه واقعا ولكنا نعتقد أن تسيطر المادة على النفوس وتمكن حبها من القلوب قد ران عليها فأصبحت لا تتعشق الأخلاق ولا تكبر الأعمال ، ومن هنا ضاع الدين وفترت قوة أنصاره ولم نعد نجد فى الأمة الإسلامية تلك الحماسة التى كانت عند سلفنا الصالح لنصرة الإسلام والغيرة على الدين وقد تضاءل لهذا أيضاً حب الله المتصف بجميع صفات الكمال .

لذلك فإنه يجب أن نعمل لمقاومة المادة ونرفع نفوسنا عن مستوى الظاهر إلى درجة الحقائق التى وراء المحسوسات ، نريد أن نتساءل هل حرم الناس نعمة العقل وانحطوا عن المستوى الإنسانى فأصبحوا لا يحبون من أحسن إليهم كلا ثم كلا ولكنهم لما فسدت الأخلاق وطغت فكرة الشر ساءت الظنون وعدمت الثقة والتبس الأمر على الناس فلم يعرفوا أن يميزوا بين الخير والشر أو الصالح من الطالح أو المخلص من المنافق واستفحل الخطب فأنكروا الملموس وكابروا فى المحسوس وقلبوا الحقائق وحسبوا الباطل حقاً والإحسان ضراً فلم يقدروا نعمة الله عليهم وما خصهم

به من فضل وآلاء ولا سبيل إلى الخلاص من هذا الداء الوبيل إلا بالتعود على التفكير فى حقائق الأشياء ومسببات الأمور ليعم النور القلوب وتتفتح به عين البصيرة .

نريد أن نتساءل هل قصرت مدارك الناس حتى أصبحوا لا يشعرون بقيمة ما هم مغمورون فيه من نعم ؟؟ كلا ولا هذا أيضاً وإنما هو تعود النظر إلى الأشياء يفقدها كثيراً من الأهمية والاعتبار فالإنسان الذى يأنس بالشىء حيناً لا يلبث أن يفقد الشعور به إذا استمر عليه ، وها نحن أولاء نرى المرء إذا حانت منه التفاتة إلى أمر غريب لا تملك نفسه أن يقول : « سبحان الله » مع أنه لا ينظر بعين الاعتبار إلى ما هو أعظم من ذلك مما هو ملتصق به كذرات جسمه وسائر أعضائه ، ولذلك أصبحت جميع الأشياء فى العالم غير ذات أهمية لديه فلا غرو إذا لم يتأثر بها الناس ولم يخلصوا الحب لموجدها ومانحها وإنى لا لقى اللوم فى هذا على كثير من رجال الدين الذين حصروا جهودهم فى تبيان الحلال والحرام والواجب والمسنون دون أن يعملوا على إيقاظ الوجدان وتنبيه الشعور إلى ما حولنا من جمال وبهاء وحسن وكمال فى بدائع المخلوقات ومحاسن الموجودات ولو أنهم فعلوا ذلك لعظمت فى أعين الناس وأغرقوا فى حبها وحب من سخرها وأوجدها . لقد كانوا يخوفوننا من الحب حتى أماتوا الشعور وأخمدوا العاطفة وقضوا على الروحيات وأدخلوا فى روعنا أن حب الله لن يصل إليه إلا الأولياء والصديقون .

وبذلك انصرفت القلوب عن الله وتوجهت إلى ما سواه ونحن واثقون بأن الحب ضرورى لسعادة البشر لأنه خير مهذب للنفوس ومقوم للأخلاق ومحيى للشعور ومقاوم لقسوة القلوب وهو أعظم باعث على الرحمة والبر بالإنسانية .

ونحن واثقون بأن محبة الله وقف على الجميع وفى متناول كل راغب فيها وعامل لها وأنه إذا حكم العقل فى الحب انحصر حب الجميع فى الله وحده باعتباره هو المستحق للمحبة وهو الذى توفرت فى حبه جميع أسباب المحبة فمنه نستمد الحياة ونرجو سلامة الأجسام والأموال والأولاد وهو المحسن الحقيقى والمصدر الأول والفعال المطلق فى كل شىء وهو الذى اتصف بجميع صفات الكمال وبيده سعادة الدنيا والآخرة .

ومن هنا ينشأ الحب الشريف وبمحبته سبحانه وتعالى تتم محبة جميع مخلوقاته وسائر تصرفاته وتنعم النفوس بلذة حبه وتطمئن فى ساحة قربه ، ونحن واثقون بأن النفوس إذا سمت عن دائرة المادة وحلقت فى سماء الفكر وجعلت هدفها الأعلى

هو تدبر آيات الله وعظمة صنعه لا بد أن يغمرها نور الحق وقوة اليقين فلا تعود تفكر فى غير الحقائق الثابتة من وراء هذه المظاهر الفانية بل لا تجد لذتها فى شىء من هذه الأشباح إلا باعتبارها أثراً من آثار بارى الأرض والسماء وعندئذ يشعر الإنسان بلذة فى طاعته ويكون الله ورسوله أحب إليه من ولده وماله ونفسه التى بين جنبيه لذلك يجب أن نغذى القلوب بالحب ونعلم الناس كيف يكون الحب ومن هو المستحق للحب .

لقد أخذ الشيوخ على عاتقهم تعليم الدين وواجباته فهل من شباب مثقف يأخذ على عاتقه أيضاً نشر مبادىء الحب الشريف الطاهر حب الله والحب فى الله ومتى أحب الناس الله أحبو من أجله كل شىء ينبغى أن يحب .

دين الحرية

الحرية من أجل النعم التى من الله بها على الإنسان بحسب نظام المشيئة الذى يجعل الإنسان حراً فى عقيدته وقصده وقوله وعمله وأن له وحده أن يقرر أمر نفسه فى الحياة ومصيره بعد الممات على ضوء ما وضعه الله تعالى للمخلوقات من سنن وما شرعه لهم من شرائع كما أسلفنا ، وقد أرسل الله رسوله محمد بن عبد الله لينير طريق الناس فى الحياة ويفتح أعينهم لتبين الحقائق ومعرفة الطيب من الخبيث ويرفع عن كاهلهم تلك القيود التى فرضت عليهم فى الأزمان السابقة عند ما كانوا كالأطفال فى عقولهم ومداركهم والإغلال التى طوقها بهم بعض رجال الأديان باسم الدين ليملوا عليهم إرادتهم وسلطانهم والدين منها براء حيث يقول تعالى فى وصف المؤمنين : « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم أصرهم والأغلال التى كانت عليهم — ١٥٧ — الأعراف » وقد حدد الله مهمة الرسول بقوله : « فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر[1] » .

أجل لقد جاء الإسلام بشريعة لا تصادر حرية الناس فى الأقوال والأفعال

---

(١) الغاشية : ٢١ .

وإنما تأمرهم بكل ما تعترف العقول السليمة بحسنه وترتاح القلوب الطاهرة إليه ولا يتعارض مع أساس الفطرة مع ما يكون فيه من مصلحة عامة ولا تنهاهم إلا عن كل ما ينكره العقل السليم وينفر منه الضمير الحى والوجدان النزيه أو يعود بالضرر على أحد من عباد الله .

شريعة تحل لهم من الأطعمة ما يستطيب الذوق السليم ويتغذى به الجسم وينتفع منه ومن الأموال ما أخذ بحق وتراض فى المعاملة ولا تحرم عليهم من الأطعمة إلا :

(١) الخبيث الذى تمجه الطباع السليمة وتستقذره ذوقا كالميتة والدم المسفوح .

(٢) وكل ما يضر الجسم كلحم الخنزير الذى تتولد من أكله بعض الأمراض كالدودة الوحيدة بحسب ما اكتشفه علم الطب أخيراً .

(٣) وما يؤثر فى عقيدة الإنسان ويحد من حريته ويجعله منقاداً إلى خرافات لا حقيقة لها كالذى يذبح للتقرب إلى غير الله على سبيل العبادة دون ما يذبح لتكريم الضيوف وفى هذا يقول تعالى : « قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم[١] » .

كذلك لم تحرم عليهم الشريعة من الأموال إلا ما يؤخذ بغير حق أو بطريق غير مشروع كالسرقة والخيانة والغصب والسحت والرشوة والربا حيث يقول تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون[٢] » وسنفرد للربا بحثاً مستقلا فيما بعد . والمهم أن يفهم الناس أن الدين الإسلامى إنما جاء لتحريرهم من الخضوع لمخلوق مثلهم سواء كان إنساناً أو جماداً وسواء كان نبياً أو وليا أو قسيساً أو راهباً فلا سلطان لمخلوق على مخلوق إلا فى حدود ما جعل الله له من حق فى كتبه لا ينبغى أن يتخطاه إذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

بل إن الإسلام ليوجب على الإنسان أن يكون صريحاً فى آرائه صادقا فى أقواله ومخلصاً فى أعماله لا يخاف المرض ولا الموت ولا يتأثر بالوهم وفاسد المعتقدات ولا ينقاد

---

(١) الأنعام : ١٤٥ .

(٢) البقرة : ١٨٩ .

لحكم التقاليد والعادات ولا يذل لسلطان الهوى والشهوات وليس بعد هذا من حرية دعا إليها الإسلام ولم ترد فى سائر الديانات . وقد قال تعالى : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى[١] » وقال أيضاً « ولو شاء ربك لآمن فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين[٢] » .

دين العلم

لقد كان العلم من أجل الخصال التى فضل الله بها الإنسان على الملائكة إذ قال : « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون[٣] » وبالعلم امتاز الإنسان عن باقى الحيوان حيث قال تعالى : « علم الإنسان ما لم يعلم[٤] » وهو فضل من الله يكرم به من يشاء من عباده بطلبه والسعى إليه وهو منحة من الله يختص به من يصطفى من محبيه حيث يقول تعالى : « وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً[٥] » ويقول : « وعلمناه من لدنا علماً[٦] » .

ولما كان العلم بالتعلم وأول درجاته القراءة التى تنتفى بها الأمية عهد الله إلى جبريل أن يأمر محمد بن عبد الله قبل كل شىء بالقراءة حيث قال له « اقرأ باسم ربك الذى خلق[٧] » وكان أول شىء أمره بالعلم به هو وحدانية الله حيث قال « فاعلم أنه لاإله إلا الله[٨] » وقدر الإسلام للعلماء مكانتهم حيث قال تعالى « قل هو يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب[٩] » ورفع الله درجة العلماء على الأغنياء وجعل الزيادة من العلم من الأمور التى يستحق بها الإنسان الملك والسلطان حيث قال تعالى « وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا

---

(١) البقرة : ٢٥٦ .
(٢) يونس : ٩٩ .
(٣) البقرة : ٣٢ — ٣٤ .
(٤) العلق : ٥ .
(٥) النساء : ١١٢ .
(٦) الكهف : ٦٦ .
(٧) العلق : ١ .
(٨) محمد ١٩ .
(٩) الزمر : ٩ .

أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم[1] » وجعله تعالى معجزة من أعظم المعجزات التى أقامها دليلا على صحة رسالة خاتم رسله وأنبيائه ذلك النبى الأمى الذى بعثه الله ليعلم الناس الكتاب والحكمة ويعلمهم مالم يكونوا يعلمون .

وقد صدع الرسول بأمر ربه فحارب الأمية وحض على العلم بمختلف الوسائل وقال « طلب العلم فريضة على كل مسلم » ورفع مقامه فى كل شىء حيث قال « فضل العلم خير من فضل العبادة وخير دينكم الورع » وذكر له عليه الصلاة والسلام رجلان عالم وعابد فقال فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة فى جحرها والحيتان فى البحر يصلون على معلم الناس الخير » وقال « من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك به طريقا من طرق الجنة وأن الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم ، وأن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض والحيتان فى جوف الماء وأن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وأن العلماء ورثة الأنبياء وأن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ولكن ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر » والعلم عام يشمل كل علم من علوم الدنيا والآخرة بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : « مثل العالم فى الأرض كمثل النجوم فى السماء يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الناس » وقوله « اطلبوا العلم ولو فى الصين » ومعلوم أن العلم الذى يراد طلبه فى الصين إنما هو علوم الدنيا وإنما علم الدين من أجل العلوم التى يهدى الله بها من يريد حيث يقول صلى الله عليه وسلم : « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » .

وقد وصف الرسول لنا الفقيه بقوله « أن الفقيه حق الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ولا يؤمنهم من عذاب الله ولا يرخص لهم فى معاصى الله إنه لا خير فى عبادة لا علم فيها ولا خير فى قراءة لا تدبر فيها » فمهمة العالم فى الحياة هداية الناس إلى ما ينفعهم فى الدنيا والآخرة ولذا قال صلى الله عليه وسلم « والله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم » .

---

(١) البقرة : ٢٤٨ .

وقد أمر الله رسوله عليه الصلاة والسلام أن يدعو الناس إلى اتباع الدين بالحكمة والموعظة الحسنة حيث قال له تعالى « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن[1] » وسن الرسول للناس طرق التعليم بفعله صلى الله عليه وسلم حيث دخل عليه فتى من قريش فقال يا رسول الله أتأذن لى فى الزنا فأقبل عليه القوم يزجرونه فقال ادنه فدنا فقال أتحبه لأمك قال لا والله جعلنى الله فداك قال ولا الناس يحبونه لأمهاتهم ثم قال له مثل ذلك فى ابنته وأخته وعمته وخالته فى كل ذلك يقول أتحبه لكذا فيقول لا والله جعلنى الله فداك فيقول صلى الله عليه وسلم ولا الناس يحبونه ثم وضع يده عليه وقال اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه فلم يكن بعد ذلك يلتفت إلى شىء » .

وعند ما وقع فى الأسر عنده جماعة ممن يعرفون الكتابة أطلق سراحهم مقابل تعليمهم أصحابه شيئاً من الكتابة ... وأمر زيد بن ثابت الأنصارى النجارى أن يتعلم اللغة الاسرائيلية ليتولى الترجمة له وكان هو ترجمانه بالفارسية والروسية والحبشية تعلم ذلك بالمدينة من أهل هذه الألسن وقال « من علم لسان قوم أمن من شرهم » ودعا إلى تعلم السباحة والرماية ومما يروى عنه قوله « استودعوا العلم الشباب » وقوله « اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد » وعمل بما يعلمه سلمان الفارسى من شئون الاستعداد للحرب فى بناء الخندق حول المدينة وقال لمن استفتاه فى تأبير النخل « أنتم أدرى بشئون دنياكم » .

دينُ العَمَلِ

خلق الله الإنسان ومنحه من فضله الحياة والحياة تقتضى الحركة والعمل ، وألهم سبحانه النفس بفطرتها ملكة التمييز بين العمل الصالح والعمل السيىء وجاء الرسول صلى الله عليه وسلم يكشف للاذهان عن بعض الحقائق الخفية ليدركوا منها ما ينفعهم وما يضرهم ، وأمرهم بالعمل بما توحيه إليهم ضمائرهم بعد ذلك من الخير حيث يقول تعالى « وقل اعملو فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنين وستردون إلى

(١) النحل : ١٢٥ .

عالم الغيب والشهادة فينبؤكم بما كنتم تعملون[١] » ودعاهم إلى العمل الصالح وحضهم عليه وأخبرهم أن مستقبلهم فى هذه الحياة وبعد الممات منوط بما يقدمونه من أعمال صالحات لخير الإنسانية والصالح العام حتى أنه لا يكاد يدعو الله الناس إلى الإيمان بالله فى موضع من القرآن إلا طالبهم فيه بالعمل الصالح ولا ذكر المؤمنين إلاووصفهم بما كانوا عليه من أعمال الصالحات ، وقد أخبرنا الله جل جلاله فى مواضع كثيرة من القرآن بأن عمل الخير من حيث هو إذا كان صادراً عن إيمان بأنه خير لأن الله قد دعا إليه وعن إخلاص فيه لله بقصد طاعته فلا بد أن يجزى عليه خيرا سواء فى الدنيا أو فى الآخرة . حيث يقول تعالى « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون[٢] » ويقول « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما[٣] » ويقول : « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا[٤] » ، وصالح العمل هو ما كان فيه طاعة الله وعدم إضرار أحد من عباده ، ولما كانت طاعة الله هى فى أمتثال ما أمر به فى كتابه وعلى لسان رسوله اعتبر الإسلام جميع أعمال المسلم الخالية من الشرور والآثام عبادة الله تستجلب إنعامه ومعونته فى الدنيا والآخرة حيث يقول تعالى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون[٥] » ، والله سبحانه وتعالى إذ أمر الناس بالصلاة والصيام والزكاة والحج فإنما أمرهم بعمل تعبدى يراد به التهيؤ والتمرن على العمل لعمارة الكون وسعادة الإنسان والتعاون على الخير العام والإنفاق فى سبيله حيث يقول تعالى : « يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا إن الله غنى حميد[٦] » وهو جل جلاله إذا أمر الناس بالإيمان به أمرهم بالعمل لكسب عيشهم وتأمين كل وسائل سعادتهم ورفاهيتهم وعزهم وسؤددهم حيث يقول تعالى : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه

---

(١) التوبة : ١٠٥ .
(٢) الأنبياء : ٩٤ .
(٣) طه : ١١٢ .
(٤) النساء : ١٢٤ .
(٥) النحل : ٩٧ .
(٦) البقرة : ٢٢٨ .

وإليه النشور[١] » ويقول : « وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله[٢] » ويقول « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعملون قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعملون[٣] » ويقول : « يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان أنه لكم عدو مبين[٤] » ويقول : « وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره إذ أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ومن الأنعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين[٥] » .

الأعمال الحرة

لقد كان أول عبادة أداها الرسول فى صباه مزاولة العمل لرعى الأغنام فى البادية لمرضعته حليمة السعدية أولا ثم لقومه مقابل أجر يتقاضاه منهم ودلل على ذلك بعد الرسالة بقوله (ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم وأنا كنت أرعاها لأهل مكة بالقراريط) . وأخذ يحارب البطالة والكسل ويأبى على الناس التسول وأن يأخذوا الصدقة إذا لم يكونوا عجزة وكان يقول « اليد العليا خير من اليد السفلى » وجاءه رجل فقير يوماً يسأله صدقة فقال له : هلا ببيتك شىء ذو قيمة ؟ قال كلا ماعدا حلسا وقصعة أنا فى حاجة إليهما ، قال ائتنى بهما فأتاه بهما فتولى الرسول بيعهما له بدرهمين وقال : دونك واحدا منهما فاحفظه للنفقة واشتر بالآخر قدوما وامض إلى الجبل فاحتطب به ثم أصدقنى بما يأتيك ، فمضى الرجل ثم عاد إليه بعد مدة وقال : إنى ربحت من كسبى عشرة دراهم كسوت منها أهلى وابتعت طعاما لهم فقال : هذا خير وما عند الله خير وأبقى ، وكان عليه الصلاة والسلام

---

(١) الملك : ١٥ .
(٢) هود : ٣ .
(٣) الأعراف : ٣٢ — ٣٣ .
(٤) الأنعام : ١٦٨ .
(٥) الأنعام : ١٤٢ .

كثيراً مايحض على الصناعة ويضرب للناس الأمثال بنبي الله زكريا إذ يقول : إنه كان نجاراً ويقول : « ما أكل أحد طعاما قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده » ويقول : « من أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفوراً له » وقيل له يوما : أى الكسب أطيب ؟ قال : « عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور » وفى رواية : « أفضل الكسب كسب الصانع بيده إذا صحح » .

ولقد تدرج الرسول صلى الله عليه وسلم من رعى الغنم إلى التجارة عن طريق الشركة مع رجل يدعى (سائبا) ثم مقابل أجر مقرر على عمله فى مال خديجة بنت خويلد وكان يقول : « إن الله يحب العبد المؤمن المحترف » ويقول : « إن أطيب ما أكلتم من كسبكم وأولادكم من كسبكم » ويقول : « تسعة أعشار الرزق التجارة » وبالغ فى مدحها حتى لقد روى عنه قوله : « التاجر الأمين الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء) وسئل عن أحب الأعمال إلى الله قال (كسب الحلال وأن تموت ولسانك رطب من ذكر الله) ومن وصايا لقمان الحكيم لابنه استغن بالكسب الحلال فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاثة خصال رقة فى دينه وضعف فى عقله وذهاب مروءته وأعظم من ذلك استخفاف الناس به .

وكان عمر بن الخطاب يقول : « ما خلق الله موتة أموتها بعد القتل فى سبيل الله أحب إلى من أن أموت بين شعبتى جبل أضرب فى الأرض ابتغى من فضل الله .

وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم التجار عن الغش والكذب والحلف لأجل ترويج السلع حيث يقول صلى الله عليه وسلم (الحلف منفقة للسلعة ممحقة للبركة) .

أما الزراعة فبالنظر لأن مكة لم تكن بلداً زراعياً لم يعمل الرسول صلى الله عليه وسلم فى الزراعة ولكنه قدر لها قيمتها وحض الناس عليها حيث قال (ما من مسلم يغرس غرسا إلا كان من أكل منه صدقة وما أكل السبع فهو صدقة وما أكلت الطير فهو له صدقة ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة) وليس بعد هذا من حض على الزراعة وترغيب فيها دليل قائم على أن الإسلام إنما جاء بوجوب العمل ومحاربة الخمول والكسل .

دين المثابرة

المثابرة على العمل وسيلة من أعظم الوسائل لبلوغ الغايات ، بل هى ركن أساسى من أركان النجاح وعامل من أهم العوامل للاستفادة من الوقت والمحافظة عليه من الضياع ، بل هى منشأ التنظيم والتوزيع للأعمال والأوقات ، ولذا أوجب الإسلام الصلاة فى عدة أوقات وأمرنا بالمثابرة على أدائها فى أوقاتها وحذرنا من تركها أو التكاسل فى إتيانها فى مواعيدها ولم يرض بتركها لأى عذر من الأعذار ، بل لابد للمرء من إتيانها قائما وإن لم يستطع فقاعداً وإن لم يستطع فمضطجعا أو مستلقيا وإن لم يمكن بعمل الجوارح فبالإشارة بالعين أو بالقلب ، ويقول صلى الله عليه وسلم : « من حافظ على الصلوات الخمس وركوعهن وسجودهن ومواقيتهن وعلم أننى حق من عند الله دخل الجنة» ويقول أيضاً : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » إلى هذا الحد يحث النبى صلى الله عليه وسلم على الصلاة ويبين فضلها ولقد حتم الله على عباده الحرص على أداء ماأوجبه عليهم من صلاة ليعلمهم بذلك كيف يجب أن يحرصوا على أداء سائر الواجبات . سواء لله أو للناس ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إن لنفسك عليه حقا وإن لزوجك عليك حقا » .

ولما أن بالغ الرسول صلى الله عليه وسلم فى قيام الليل والإطالة من تلاوة القرآن فيه أنزل عليه قوله تعالى : « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله فاقرءوا ماتيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم[1] » .

ومعنى هذا أن الاقتصار على أداء الواجبات مع المحافظة عليها خير من الزيادة

---

(١) المزمل : ٢٠ .

عنها بدون استمرار ، وفى هذا يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » ويقول : « أحب الأعمال إلى الله الصلاة لوقتها ثم بر الوالدين ثم الجهاد فى سبيل الله وأحب الصيام إلى الله صيام داود كان يصوم يوماً ويفطر يوما وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه » ولأجل أن يحض الله على المثابرة على عمل الواجب بقدر المستطاع وفى حدود الإمكان لم يقبل من عباده أى عذر فى ترك الصلاة أو التهاون فى أدائها فى مواعيدها حتى فى حالة السفر وحالة الحرب ، وإنما رخص لهم بالقصر والجمع وعدم الاتجاه للقبلة مع مزاولة أعمال الحرب حيث قال : « وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح إن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبينا ، وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ، ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ، ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذاباً مهينا ، فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا[1] » .

يمثل هذه الآية الكريمة يعلم الله المسلمين المواظبة على فعل الواجبات ويدعوهم إلى إقامة شعائر الإسلام إلى جانب الأخذ بأسباب القوة والحذر من مكائد الأعداء وينهاهم عن التكاسل فى الأعمال والتهاون فى بعض الأمور مما يسبب فقدانها والتحسر عليها فيما بعد إذ التقاعس عن طلب الشىء مما يبعد الإنسان عن بلوغ الغاية وإدراك رفيع الدرجات . ولأجل أن لا يترك الله لعباده سبيلا إلى الأخلال بشرط المواظبة والمثابرة على العمل ضرب لذلك مثلا بالصلاة التى أمرهم بالطهارة بالماء قبل إتيانها فأباح لهم فى حال فقد الماء أو فى حالة المرض الذى فيه ضرر بالجسم من استعمال الماء أن يلجئوا إلى التيمم بالتراب الذى هو من أبسط الأشياء والذى هو موجود فى كل

---

(١) النساء : ١٠١ — ١٠٣ .

مكان ووصف لهم طريقة أسهل من طريقة استعمال الماء فى الوضوء حيث قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون ولا جنبا إلا عابرى سبيل حتى تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفوا غفورا[1] » .

فإذا ما عود الإنسان نفسه على المحافظة على أداء واجبات الله فى أوقاتها دون أن يلتمس لتركها الأعذار استطاع أن يحافظ على مواعيده وعهوده وأن يثابر على أعماله وواجباته نحو خالقه والناس أجمعين وينال بهذا رضاء الله ورضاء الناس ، بل ورضاء نفسه وضميره بأداء ماعليه من حقوق وواجبات .

دين الطاعة

لقد أرسل الله الرسل وأنزل الكتب لهداية الناس إلى ماينفعهم فى دينهم ودنياهم وأمرهم بالطاعة باعتبارها الشطر العملى للإيمان بالله بمعنى الانقياد التام للأوامر دون تقاعس أو تردد ، وليس المراد بالطاعة مجرد الإذعان بها باللسان دون القلب حتى ولو صحبها إعطاء العهد بأغلظ الإيمان .

فالطاعة الحقة لا تخفى والطاعة المزيفة لا تلبث أن تنهار ولذا قال تعالى « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لاتقسموا طاعة معروفة إن الله خبير بما تعملون[2] » فهذه طاعة نفاق لا يرضى بها الله العليم بالحقائق وما تخفى الصدور ، ولذلك قال تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام : « ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا[3] » أى فلا تغرنك الأقوال ولا تثق بالناس ثقة تجعلك تعتمد على معونتهم من دون الله ، بل اجعل يقينك بالله المهيمن على القلوب والذى وعدك بنصره وتأييده .

---

(١) النساء : ٤٣ .
(٢) النور : ٥٣ .
(٣) النساء : ٨١ .

ولقد جاء الرسول صلى الله عليه وسلم بتعاليم سامية من شأنها أن تروض النفوس على الطاعة الصحيحة والانقياد التام لله ولكل من يوجب له سبحانه الطاعة من ذوى السلطان وأشعر الناس بما تقتضيه هذه الطاعة من تكاليف بالنسبة للطائع والمطاع وحدد لهم مدى هذه الطاعة بما يتفق مع المصلحة العامة ليعرف كل فرد ماله وما عليه وينتظم حال المجموع على أساس قوى .

ولما كانت النفوس بفطرتها لا تخضع إلا للقوى دعاها الله سبحانه وتعالى إلى طاعته إذ هو وحده الخالق للجميع المهيمن على أرواحهم وأعمالهم والقادر على نفعهم وضرهم ولم يكلفهم فى هذه الطاعة بما ليس فى حدود الطاقة حيث قال : « فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا[1] » وجعل جلا وعلا مظهر هذه الطاعة فى الخارج امتثال ما فرضه تعالى من أركان الإسلام الخمس بالنية والقول والعمل وما يستلزم ذلك من خشوع وذلة وتمسكن يبدو جليا فى ساعة الصلاة باستقبال القبلة والوقوف فيها بكل أدب وخشوع وإظهار منتهى الخضوع بالركوع والسجود وفى حال أداء واجب الزكاة بالخروج عن جانب من ماله الذى كد فى جمعه ابتغاء مرضاة ربه عن طيب نفس وفى حالة الصوم بالإمساك عن الشهوات طوعاً لأمر عالى الذات .

وكذلك الحال فى حج بيت الله بما هنالك من مناسك وشعائر تعبر أصدق تعبير عن منتهى الخضوع والطاعة بالتجرد من لبس المخيط وترك الزينة والتساوى مع الآخرين فى الزى والمقام بتبتل وتقشف على جبل عرفات وفى سائر الأعمال كرمى الجمار والطواف بالبيت الحرام الذى يمثل الحراس وهم يحيطون به ويطوفون من حوله راجين عفوه وغفرانه ويعملون على ترسم خطى رسوله والإصغاء لأوامره واقتفاء آثاره باعتباره رسول الله الأمين الذى لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى وقد أمره رب العزة أن يوجه إلى الناس قوله : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين[2] » وقوله : « من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً[3] » .

---

(١) التغابن : ١ .
(٢) آل عمران : ٣١ .
(٣) النساء : ٨٠ .

ولما كان السلطان وعماله هم السلطة التنفيذية لأوامر الله أوجب الله على العباد طاعتهم بعد طاعته وطاعة رسوله . حيث قال : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ولأجل أن يشعر الناس بأن هذه الطاعة مفروضة لكل من ولى الحكم دون نظر إلى جنسيته وشخصيته وإنما هى مقيدة فقط بما لا يخرج عن تنفيذ ما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله اللذين هما الأساس ختم الله الآية الكريمة بقوله : « فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا[1] » وقال النبى صلى الله عليه وسلم « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كان رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله » وقال أيضاً « من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ومن يطع الأمير فقد أطاعنى ومن يعص الأمير فقد عصانى » وقال أيضاً « إياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » والمراد بمحدثات الأمور ما يسن من أحكام وأنظمة تتنافى مع الشرع حيث يقول صلى الله عليه وسلم « من أحدث فى أمرنا هذا ماليس منه فهو رد » .

ولما كان لبعض الناس على بعضهم حقوق لا تنكر أوجب الله على الإنسان مراعاتها وتقديرها بتقديم الطاعة لهم وفى مقدمتهم الوالدان والأقربون حيث دعا إلى البر بهم وجعل هذا من أهم الطاعات وأفضل القربات بل أنه قرن هذا الواجب بواجب توحيده تعالى حيث قال : « واعبدو الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت إيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً[2] » وجعل الله شكر الوالدين من شكر الله بالنظر لما لهما على الإنسان من فضل عظيم حيث قال : « ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن أشكر لى ولوالديك إلىَّ المصير[3] » وأوضح الله معنى البر بهما بقوله « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما

---

(١) النساء : ٥٩ .
(٢) النساء : ٣٦ .
(٣) لقمان : ١٤ .

كما ربياني صغيرا[١] » وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أبر فقال : « أمك وأباك وأختك وأخاك ومولاك الذى يلى ذلك حق واجب ورحم موصولة » وقال آخر لرسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لى مالاً وولداً وإن أبى يحتاج إلى مالى فقال : « أنت ومالك لوالدك إن أولادكم من أطيب كسبكم فكلوا من كسب أولادكم » وجاءه آخر وقال أريد أن أغزو وقد جئت استشيرك فقال هل لك من أم قال نعم قال : « ألزمها فإن الجنة عند رجليها » وجاءه آخر ومعه شيخ هرم فقال له الرسول يا فلان من هذا الذى معك قال أبى قال : « فلا تمش أمامه ولا تجلس قبله ولا تدعه باسمه بروا تبر أبناؤكم وعفوا تعف نساؤكم . ويلى حقوق الله وحقوق الوالدين فى البر والطاعة حقوق الأزواج على زوجاتهم وفى هذا يقول صلى الله عليه وسلم « لو كنت آمرا أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها والذى نفس محمد بيده لا تؤدى المرأة حق ربها حتى تؤدى حق زوجها ، وقال أيضاً « أيما امرأة ماتت وزوجها راض عنها دخلت الجنة » ومع كل هذا فقد حصر الله طاعة المخلوق فى حد من الأعمال الجسدية أما العقائد وما يتعلق بالأمور التعبدية فلا حيث قال تعالى : « وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلىّ ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون[٢] » .

دين الإشتراكية

لقد خلق الله آدم وخلق من آدم زوجه حواء وأكثر نسلهما حتى تكونت منها هذه الشعوب التى وإن تعددت فى الظاهر إلا أنها لم تخرج عن كونها من أصل واحد ، فهى أمة واحدة تدين بوجودها لإله واحد ، خلقها ومنحها كل أسباب الحياة والسعادة ، فيجب أن تؤمن بهذه الحقيقة وتسعى لرضا الله تعالى وإخلاص العبادة له وقد أشار إلى هذا سبحانه وتعالى بقوله : « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون[٣] » ولم يرسل الله الرسل وينزل الكتب إلا لدعوة الناس أجمعين إلى إفراد

---

(١) الإسراء : ٢٤ .
(٢) لقمان : ١٥ .
(٣) الأنبياء : ٩٢ .

الله بالعبادة باعتباره هو وحده الخالق لهم والمحسن إليهم حيث يقول نبى الله عيسى كما فى القرآن الكريم : « ن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم[١] » .

ويقول تعالى : « وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون ، بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم ، ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل[٢] » ولقد أخبر الله عباده بأن هذه العبادة التى يدعوهم إليها هى فى الواقع الغاية الأساسية التى خلقهم وأوجدهم من العدم من أجلها فى هذه الحياة الدنيا حيث قال تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون[٣] » .

ومادام الله هو الخالق للناس فهو سيدهم وهم جميعاً عبيد له جل شأنه ، ومن حق العبد على سيده أن يتكفل له بجميع ما هو فى حاجة إليه من رزق ليؤمن مأكله ومشربه وملبسه ومنكحه ، ومن واجب السيد على عبده أن يكرس جميع أوقاته فى خدمته وتقديم كل ما هو فى حاجة إليه مقابل ما له عليه من فضل وما ينتظره منه من عطف وحسن جزاء ، ولهذا أخبر الله عباده بأنه قد تكفل لهم بأساس الرزق فى الحياة حيث قال : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين[٤] » ثم أنه تعالى أخبرهم بأنه مهد لهم سبل العيش وأسباب السعادة فى الحياة الدنيا وما عليهم إلا أن يكلفوا أنفسهم بالعمل لاكتشاف مواضع ذلك الرزق لنيله بطرقه المشروعة وفق سننه وبما يقضى به نظام قضاءه وقدره إذ يقول تعالى : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور[٥] » ويقول : « وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم[٦] » ويقول : « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون[٧] » .

---

(١) آل عمرن : ٥٢ .
(٢) الأنعام : ١٠٠ — ١٠٣
(٣) الذاريات : ٥٦ .
(٤) هود : ٦ .
(٥) الملك : ١٥
(٦) البقرة : ٥٨ .
(٧) البقرة : ١٧٣ .

وقد أثبت الله لعباده فى القرآن الكريم أن كل ما هم فيه من نعم إنما هو من محض كرم الله وفضله حيث يقول : « وما بكم من نعمة فمن الله[١] » ووعدهم بإجابة دعواتهم وتحقيق كل ما يطلبونه لأنفسهم من ثروة وعز وكرامة وخير بسلوك السبل المؤدية إليها وفق ما سنه من سنن ووضحه لهم من طرق حيث قال تعالى : « الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه ، وأن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار[٢] » كما أخبرهم أنه تعالى الخالق للناس وأنه هو الذى سن لهم بمشيئته من السنن ووضع لهم من النظم ما يمكن كل فرد من تسنم ذروة المجد وارتقاء أعلا الدرجات إذ يقول : « نرفع درجات من نشاء إن ربك عليم حكيم[٣] » وبهذا أثبت الله لعباده أنه أعطى السيادة حقها وأدى لعبيده جميع ما هم فى حاجة إليه من كل مايرغبونه من مال وجاه فلم يبق إلا أن يأمرهم بما يريد ليطيعوه . وهنا أخبرهم جل وعلا أنه ليس فى حاجة إلى شىء منهم يمكن أن يعود على ذاته العلية بالنفع أو الفائدة حيث قال : « يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد ، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز[٤] » فمن خلق الخلق وهو قادر على هلاكهم وخلق سواهم لايتصور أن يكون محتاجا لهم فى شىء ما .

وقد نفى الله سبحانه وتعالى أن يكون مايريده منهم هو من باب الرزق أومقومات الحياة حيث قال : « ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين[٥] » .

وإذا كان الأمر كذلك فما هى إذاً تلك العبادة التى يطالب الله بها عباده والتى من أجلها خلقهم ؟ لم يترك الله الناس فى حيرة من الأمر ، بل أرسل إليهم الرسل ليخبروهم أن العبادة التى يطلبها هى نوع آخر غير ما تواضع الناس عليه من استعباد

---

(١) النحل : ٥٣ .
(٢) إبراهيم : ٣٤ .
(٣) الأنعام : ٨٣ .
(٤) فاطر : ١٥ — ١٧ .
(٥) الذاريات : ٥٧ — ٥٨ .

بعضهم بعضاً وتسخير العبد لمصالح سيده ، وإنما هى لجوء العبد إلى مولاه ليلهمه مافيه خيره وهداه ، وأن يعينه على إدراك ماتطمح إليه نفسه وتهواه . وأن يوفقه إلى العمل الذى به تحسن عقباه ، وروح هذه العبادة إنما هو الإيمان الصادق بوجود الله وقدرته على النفع والضر والعطاء والمنع ، فإذا مارسخت هذه العقيدة فى الإنسان دعته إلى محبته واللجوء إليه وإخلاص العمل لما يرضيه .

وقد جاء الإسلام موضحاً للناس كل ما يرضى الله من عبيده ، فإذا هو محصور فيما فيه مصلحة الناس ، وما يمنع الضرر عنهم فى الحياة وبعد الممات ، وليس فيه ما يعود على الله بأى ثمرة فى الدنيا والآخرة . إذ هو يدعو لعمل الخير للإنسانية وصلاح المجتمع البشرى من جميع الوجوه حتى أن الأمور التعبدية التى أمر الله بها لم تكن إلا بقصد تهذيب النفوس وتقويم الأخلاق وتمرين الناس على فعل الخيرات واحترام الإنسان لحقوق أخيه الإنسان ولم ينه الله الناس عن أمر إلا لما فيه من ضرر بالنفس وفساد للمجتمع . وقد أخبر الله عباده بأنه رقيب على أعمالهم فإن أحسنوا إلى أنفسهم وإلى الناس نالوا ثوابه وإن أساءوا إليهم استحقوا عقابه .

ولما كان العمل فى الدنيا من ضروريات الحياة فقد أراد الله من الناس أن يجعلوا أعمالهم كلها خالصة لوجه الله وأن ينتظروا منه سبحانه حسن الجزاء عليها بمعنى أن يحرص كل فرد على أن يراعى فى أعماله ما يرضى الله من الخير العام ويتجنب كل ما يغضب الله مما فيه أى ضرر بالغير أيا كان .

ومتى اتحد الناس فى الغاية أصبحوا بحكم الضرورة مشتركين فى الأعمال المؤدية إليها وشعروا بحاجتهم إلى التعاون لبلوغ الهدف المقصود فلم يعد هناك داع لأن يحاول البعض منهم عرقلة سبيل شريكه وزميله فيما إليه يسعى ويكد ، وعلى هذا الأساس حث الإسلام المسلمين على اقتلاع جذور التحاسد والتباغض من القلوب ووضع محلها أصول التآخى والتحابب والتعاون الصحيح وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

وتحقيقاً لهـذا المبدء أمر الناس أن يعملوا فى الحياة بمختلف الوسائل كل فى دائرة اختصاصـه وحقله السياسى أو الاجتماعى أو الزراعى أو الصناعى

أو التجارى أو غير ذلك بما ينفع المجتمع ويرفع مستواه مراقبا فى ذلك مولاه المطلع على عمله والعالم بخفايا نفسه والذى يرجو منه فى الآخرة حسن الثواب حيث يقول تعالى « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون[١] » « يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون[٢] » .

والله الذى خلق الخلق أجمعين وجعلهم متساوين فى الحقوق والواجبات لم يجعلهم على صفة واحدة ولون واحد بل لقد قضت مشيئته أن يكونوا متفاوتين فى الطبائع مختلفين فى الأشكال والصفات لتجلى عظمته ودقة صنعه فهو إذ خلق الشجر جعل منه فاكهة لذيذة الطعم ومنه ما هو مر شديد المرارة كالحنظل لا بل إن من ثمرة الشجرة الواحدة ما هو حلو وحامض ومرمع أن الجميع يظهر من منبت واحد ويسقى بماء واحد وفى هذا يقول تعالى « وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون[٣] » وكذلك الإنسان خلقه الله وفضله على كثير من خلقه إذ يقول « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا[٤] » بل إنه جعل التفاضل بين الناس ذكورهم وإناثهم بل بين أبناء الرجل الواحد الذين يكونون فى رحم واحد فمنهم الطويل والقصير والأبيض والأسمر والكل عبيد الله يعملون فى أرضه ويجدون فى البحث عن مواضع فضله واكتشاف منابع رزقه فلابد أن يتفاوتوا فى سعادة الجاه والمال بحسب ما يحصلون عليه من معلومات وما يقدمون للإنسانية من أعمال صالحات ولذا قال تعالى « لايستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما[٥] » .

---

(١) التوبة : ١٠٥ .
(٢) النحل : ١١١ .
(٣) الرعد : ٤ .
(٤) الإسراء : ٧٠ .
(٥) النساء : ٩٥ — ٩٦ .

وما دام أساس الرزق هو من محض فضل الله وكرمه وليس للعباد فيه إلا مجرد اكتشافه والحصول عليه فالجميع إنما يأكلون ويشربون ويلبسون من حق الله خالقهم رغم تعدد الأيدى العاملة لاستخراج هذا الرزق والاستفادة منه وما التفاوت فى درجات الغنى والفقر والسعادة والهناء إلا نتيجة طبيعية وجزاء مقدر للانسان على قدر إنتاجه الفكرى والعملى .

وإلى هذا أشار تعالى بقوله « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون[1] » وما دام الأمر كذلك فلا محل لتحاسد الناس على ما نالوه بجدهم واجتهادهم وليس من حق أحد أن يسلبه منهم ومن واجبهم أن يسعوا سعيهم ويعملوا فى الحياة لبلوغ ما يريدون لأنفسهم من درجات عند الله والناس ، وفى هذا يقول تعالى : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شىء عليما[2] » وقد جرت سنة الله فى خلقه أن جعل الإنسان فى أول أطوار حياته عاجزاً عن كل شىء جاهلا بكل شىء ولكنه مستعد بخلقته وفطرته للحركة الإرادية والعلم والعمل فوهبه من الحواس الظاهرة والباطنة ما يمكنه من السعى لطلب العلم وسلوك أفضل الطرق الموصلة إلى ما يطمح إليه من هناء وسعادة . وإلى هذا أشار تعالى بقوله « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون[3] » وأمره تعالى بالسعى وأخبره أن قد هيأ له جميع المواد الأولية التى يحتاج إليها لتحقيق رغباته وبلوغ غاياته وما عليه إلا أن يفكر ويخترع ويزرع ليحصد ويعمل ليستفيد ويزيد فى رزقه وينال أجره على كل ذلك حيث قال تعالى : « والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً

---

(١) النحل : ٧١ — ٧٢ .
(٢) النساء : ٣٢ .
(٣) النحل : ٧٨ .

إلى حين والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون[١] » .

وأعلن الله جل وعلا أن التساوى فى الأمور الكسبية أمر لا يتفق مع العدل ويخالف أساس الفطرة وما سنة الله من نظام قضائه وقدره فكما أنه تعالى خلق الخلق متفاوتا فى الحسن والقبح والشكل والوصف فكذلك ينبغى أن يكون متفاوتا فى نواياه وتصرفاته فلا بد أن ينال جزاءه على هذا الأساس حيث قال تعالى : « قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون[٢] » وقال : « قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور[٣] » وقال « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب[٤] » .

وقد مثل الله لذلك بقوله : « ضرب الله مثلا عبداً مملوكا لا يقدر على شىء ومن رزقناه منا رزقاً حسنا فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون وضر الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم[٥] » .

ولتحقيق مبدأ الاشتراكية مع أحكام روابط التضامن والتعاون بين العباد جاءت الشريعة الإسلامية بعدة أحكام من شأنها أن تشعر الناس بالمسئولية الملقاة على عاتقهم فى الحياة وتحضهم جميعاً على العمل المستمر وتقضى على ما يكون سبباً فى عرقلة سير العاملين أو يقف سداً فى سبيل إنتاجهم الفكرى أو يؤدى إلى تعطيل جهود الأيدى العاملة .

وسنأتى فيما بعد على سبيل المثال بذكر بعض تلك الأحكام وسنفرد لكل موضوع بحثاً خاصاً به ونعترف أنا لا نستطيع الإحاطة بجميع الأحكام الواردة فى الكتاب والسنة ولكنا نؤكد أنه ما من مشكلة اجتماعية إلا وقد عالجها الإسلام ونوه بما ينبغى

---

(١) النحل : ٨٠ — ٨١ .
(٢) المائدة : ١٠٠ .
(٣) الرعد : ١٦ .
(٤) الزمر : ٩ .
(٥) النحل : ٧٥ - ٧٦ .

اتخاذه حيالها حيث يقول تعالى : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء[١] » وليس فى استطاعة بشر أن يحصى ذلك إذ يقول تعالى « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً[٢] » وإنما أمر ذلك عائد إلى العلماء الذين يستخرجون الأحكام من كتاب الله سواء ما كان منها منصوصاً عليه أو مأخوذاً عن طريق القياس والاستنباط حيث يقول تعالى « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعو به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطوه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا[٣] » .

نظام التعاون

لقد شرع الله لعباده مبدأ التعاون وحصره فى أمرين إثنين الأول التعاون على كل أمر فيه بر وإحسان واكتساب لمحبة عباد الله — الثانى . التعاون على كل أمر يراعى فيه اتقاء غضب الله بالانتهاء عما عنه نهى ، وحرم سبحانه وتعالى بصورة قاطعة التعاون فى أمرين إثنين .

الأول — كل أمر يكون فيه مخالفة لأوامر الله .

الثانى — كل أمر يكون فيه اعتداء على حقوق الغير حيث قال تعالى « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب[٤] » .

هذا هو أساس التعاون الذى رسمه الله لعباده وترك لهم الحرية فى أن يطلقوا لأفكارهم العنان فى تخير ما يرونه صالحاً ومفيدا أو أصلح فى العمل من سواه وجههم نحو ما يراه تعالى من خير ما ينبغى أن يفكروا فيه من الشئون التعاونية حيث قال : « لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيما[٥] » .

ومعلوم أن المراد بالنجوى مايتحدث الناس به فى سرهم أو يتفقون عليه ويبيتونه

---

(١) الأنعام : ٣٨ .
(٢) الكهف : ١٠٩ .
(٣) النساء : ٨٢ .
(٤) المائدة : ٣ .
(٥) النساء : ١١٤ .

من مقاصدهم ليعملوا على تحقيقه ، وقد أخبرنا جل وعلا أن الخير فى ذلك محصور فى أمور ثلاثة :

١ — الأمر بالصدقة وهى تشمل جميع أوجه الخير من بذل المال للفقير ومعونة من يحتاج إلى العون بكل الوسائل وتفريج كربة كل صاحب كربة كما سنفصل ذلك فيما بعد .

٢ — الأمر بالمعروف أى مافيه خير للناس ومنع للضرر عنهم وقد فسره الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» وهذا داخل فى معنى الصدقة .

٣ — الأمر بالإصلاح بين المتخاصمين بإزالة أسباب الشقاق والتنازع وتقريب وجهتى النظر للتراضى على مايقنع الجميع بالخير المشترك والمصلحة العامة . وهو داخل أيضاً فى حكم الصدقة .

ولما كانت الصدقة من أهم أعمال الخير قدمها الله تعالى فى الذكر ، ولما كانت فى ذاتها مما تؤذى المتصدق عليه وتضع من كرامته ، وقد يكون الجهر بالأمر بها والحث عليها أشد إيذاء وإهانة للفقير من إيتائه إياها جهراً ولو كان ذلك ابتغاء مرضاة الله جعل الله النجوى بالتعاون على إيتائها خفية للمستحقين من أهل الحياء والكرامة من أهم مايتناجى به الناس وأخبرهم أن الصدقة الخفية أفضل من الصدقة العلنية حيث قال : « إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم[1] » وأخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن الصدقة فى الواقع ماهى إلا باب من أبواب فعل الخير الذى يشمل كل أمر فيه قضاء حوائج الناس وتفريج كربهم وعونهم على تحقيق غاياتهم كالهبة والهدية والقرض والعارية وغير ذلك من أعمال البر والحض عليه بقوله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة » وقوله : « ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » وقوله : « كل معروف صدقة » وقد اعتبر الله جل وعلا الصدقة والمساهمة فى المشاريع العامة كدور الأيتام والعجزة والمؤسسات والمستشفيات الخيرية التى لايرجو عليها الإنسان جزاء من ذات

---

(١) البقرة : ٢٧١ .

المتصدق عليه قرضاً له تعالى تعهد برده بأضعاف قيمته حيث قال : « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسنا فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون[1] » . وقال صلى الله عليه وسلم : « الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله أو كالذى يصوم النهار ويقوم الليل » وقال أيضاً : « على كل مسلم صدقة قيل : أرأيت إن لم يجد ، قال : يعتمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق ، قال : أرأيت إن لم يستطع قال يعين ذا الحاجة الملهوف قيل له : أرأيت إن لم يستطع ؟ قال : يأمر بالمعروف أو الخير . قيل : أرأيت إن لم يفعل ؟ قال : يمسك عن الشر فإنه له صدقة » وقال كل سُلامَى من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس قال : تعدل بين الاثنين صدقة ، وتعين الرجل فى دابته فتحمله عليها صدقة ، أو ترفع له عليها متاعه صدقة . قال : والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة » .

ودعا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى إشاعة الرحمة بين العباد حيث قال : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » ومما روى عنه قوله : « إن الله قد خلق خلقاً من رحمته لرحمته ، وهم الذين يقضون الحوائج للناس ، فمن استطاع أن يكون منهم فليكن » .

وحث الشارع الحكيم على البذل والانفاق فى سبيل الله كثيراً فى القرآن الكريم وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولم يترك الناس وشأنهم فى هذا الباب إن شاءوا تصدقوا وإن شاءوا ضنوا ، بل أنه تعالى قرر حق الفقير على الغنى فى جميع ما يملكه وما يحصل عليه من ثروة سواء كانت تلك الثروة ذهباً أو فضة أو عروضاً تجارية أو مناجم معدنية أو أنعاما سائمة أو زرعا وأثماراً يانعة . كل هذه أوجب الله لذى الحاجة فيها حقاً معيناً باسم الزكاة أوجب على الحاكم جبايته كضريبة سنوية تحصل من أرباب الأموال على الثروة حيث قال تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها[2] » وأمر بتوزيعها على أصناف ثمانية من الناس عينهم الله سبحانه وتعالى بقوله : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم

---

(١) البقرة : ٢٤٥ .

(٢) التوبة : ١٠٣ .

وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم[1]» .

هذه الضريبة التى فرضها الله على رؤس الأموال وجعلها حقاً شرعيا فى أساس الثروة يشترك فيه الضعفاء لا شك أنها لم تكن إلا لسد حاجة كل ذى حاجة من الطبقات الفقيرة المعدمة والعمال العاطلين وهى كفيلة بإزالة أسباب الحقد والحسد من قلوبهم نحو الرأسمالية بل ربما كانت وسيلة من أكبر وسائل التفاهم وتبادل المحبة والألفة وتوفر الثقة بين الناس التى من شأنها أن تؤدى إلى تشغيل الأيادى العاملة وتنتج أعظم الخيرات بل أنها دليل قائم على أن الأموال كلها لله وجميع العباد مشتركون فيها فإذا وفق أحد إلى اكتشاف معدن أو نجح آخر فى نيل رزق واسع فليس معنى هذا أن يستأثر به وحده بل لا بد أن يؤدى منه حق الله للمستضعفين من عباده والذين حرموا من نيله لسبب من الأسباب الظاهرة والخفية ، أجل لقد فرض الله الزكاة على الأموال وجعلها حقاً مشتركا للفقراء ولم يكتف بهذا بل فرض زكاة الفطر على الناس وهى أشبه بضريبة شخصية على كل فرد أن يؤديها فى يوم عيد الفطر عن نفسه وأولاده وكل من تجب عليه نفقته بحيث لا يلوح فجر ذلك اليوم السعيد إلا وتكون تلك الضريبة قد صرفت لمستحقيها وشبع الناس أجمعون واستقبلوا يومهم فرحين مستبشرين .

ثم إن الله تبارك وتعالى جعل يوم عيد الأضحى وأيام التشريق الثلاثة يوماً مشهوداً يوم ضيافة عامة أمر كل مقتدر فيها أن يضحى لله من الأنعام ما يقدمه لعبيده الفقراء المستحقين ويتساوى الجميع فى أكل مالذ وطاب فى يوم يتعارف فيه الإخوان والأحباب . وأبى الله جل وعلا أن يحصر المال فى أيدى الأغنياء فقط بل دعا إلى توزيعه بين ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والمهاجرين والأنصار وبالغ فى الحض على البذل والإنفاق فى سبيله إلى درجة إيثار الإنسان أخاه على نفسه وامتدح من كان هذا شأنهم فى معاملتهم مع الناس حيث قال : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب ، للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا

---

(١) التوبة : ٦١ . (دولة) بضم الدال أى متداولا وجمعه دول مثل غرفة وغرف ه مخلوف

من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ، والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون[١] » .

وعدَّ سبحانه وتعالى من أبرز صفات المحسنين أنهم « الذين هم على صلاتهم دائمون والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم[٢] » وسماهم المتقين ووعدهم بجنات النعيم حيث قال « إن المتقين فى جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون وفى أموالهم حق للسائل والمحروم[٣] » ، وحث الرسول صلى الله عليه وسلم على البذل والإحسان حيث قال « السخى قريب من الجنة بعيد من النار والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار والجاهل السخى أحب إلى الله من عابد بخيل » ، وقال « لو كان عندى مثل أُحد ذهبا لسرنى أن لا يمر على ثلاث ليال وعندى منه شىء إلا شيئاً أرصده لدَيْنٍ » ، وقال أنس ماسئل النبى صلى الله عليه وسلم على الإسلام شيئاً إلا أعطاه ، ولقد جاءه رجل فأعطاه غنما بين جبلين فرجع إلى قومه فقال يا قوم إن محمدا يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة وإن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا فما يلبث إلا يسيرا حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها » ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بعد صلاة العصر مسرعا إلى بعض حجر نسائه ففزع الناس من سرعته فخرج عليهم فرأى أنهم عجبوا من سرعته فقال « لقد ذكرت شيئا من تبر عندنا فكرهت أن يبيت عندنا فأمرت بقسمته » ، وقال بلال إن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا أتاه الإنسان مسلما ورآه عارياً يأمرنى فأنطلق فأستقرض فأشترى له البردة فأكسوه وأطعمه » ، وأعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم حرباً عواناً على البخل والبخلاء حيث قال « إياكم والشح فإنما هلك من كان قبلكم بالشح أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالفجور ففجروا » وقال خصلتان لا تجتمعان فى مؤمن : البخل وسوء الخلق » وقال « يقول العبد مالى مالى وإنما ماله ثلاث ما أكل فأفنى وما لبس فأبلى

---

(١) الحشر : ٧ — ٩ .
(٢) المعارج : ٢٥
(٣) الذاريات : ١٥ - ١٩ .

وما أعطى فاقتنى ، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس » والمراد بقوله وما أعطى فاقتنى أى فاقتنى لنفسه شيئاً ادخره عند الله ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن احتكار الأرزاق ورفع ثمنها عن الحد المعقول حيث قال « من احتكر طعاماً أربعين يوما يريد به الغلاء برئ الله منه » وقال « بئس العبد المحتكر إن أرخص الله الأسعار حزن وإن أغلاها فرح » وقال « يحشر الحاكرون وقتلة الأنفس فى درجة . ومن دخل فى شئ من سعر المسلمين يغليه عليهم كان حقا على الله أن يعذبه فى معظم النار يوم القيامة » وعندما تشتد الأزمة وتستحكم المجاعة وتقضى الضرورة الملحة أباح الله للناس أكل الميتة وارتكاب ما كان أخف ضررا من سواه من المحرمات وفى ميدان رحمته تعالى متسع للجميع . فقد روى فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا فنزل فيها فشرب منها ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى بلغ بى فنزل فملأ خفه ماء ثم أمسك بفيه ثم رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له فى كل ذات كبد رطبة أجر وقال أيضا « بينما كلب يطيف بركية كاد يقتله العطش إذ رأته بغية من بغايا بنى إسرائيل فنزعت موقها فاستقت له فسقته فغفر الله لها .

الأمر الثانى من الأمور التى دعا الإسلام المؤمن إلى المناجاة بها سرا فى الخلوات لإحكام روابط التعاون المشترك بين الجميع هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وذلك لأن لكل إنسان فى نفسه كرامة يحافظ عليها ويأبى أن تمتهن فإذا ما نبه إلى خطئه وأمر بالإقلاع عنه على ملأ من الناس ربما وجد فى هذا غضاضة عليه قد تحمله على الإصرار على خطئه وتعمد المخالفة ومن أجل هذا جعل الله من الخير للناس أن يتناجوا بالأمر بالمعروف . وعلم الله رسوله صلى الله عليه وسلم الوسائل الفعالة لنجاح دعوته فأمره باستعمال الحكمة وحسن الأسلوب فى الدعوة إلى الحق وإذا اقتضى الحال المجادلة والمخاصمة فلتكن أيضاً بوسيلة أفضل وأحسن من وسائل الخصم بل وحتى فى حال استعمال القوة يجب أن يكون مدافعاً وأن لا يتجاوز حد المقابلة بالمثل ، على أن من الخير أن يصبر الإنسان على الأذى ويتجاوز عن إساءة

المسئ ويحتملها عن طيب نفس وبسعة صدر إذ يقول تعالى « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ، وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ، واصبر وماصبرك إلا بالله ولاتحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون[1] » « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم[2] » .

كما نبه الله رسوله إلى أمر مهم فى الأمر بالمعروف هو أن يكون الآمر عاملا بما يأمر به ليكون لكلامه أثره الفعال فى القلوب حيث يقول : « لذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم » وصرح سبحانه وتعالى بمقت من يعمل بخلاف ما يأمر به حيث يقول : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله إن تقولوا مالا تفعلون[3] » وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مررت ليلة أسرى بى بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار . قلت : من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : خطباء أمتك الذين يقولون مالا يفعلون » . ولقد أوجب الإسلام على كل مسلم بذل النصح لمن يعرفه ولمن لايعرفه حيث قال صلى الله عليه وسلم : « إن الدين النصيحة قال الصحابة : لمن يارسول الله ؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » وقال جرير بن عبد الله : « أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت أبايعك على الإسلام فشرط على النصح لكل مسلم » وقال صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » وروى عنه قوله صلى الله عليه وسلم : « إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول هذا اتق الله ودع ماتصنع فإنه لايحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ضرب الله القلوب بعضهم على بعض ثم تلى : « لعن الله الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن

---

(١) النحل : ١٢٥ .
(٢) فصلت : ٣٤ .
(٣) الصف : ٢ .

منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون[١] » . ثم قال صلى الله عليه وسلم : « والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا ولتقصرنه على الحق قصرا أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم » وروى عنه قوله : « إن الناس إذا رأو الظالم فلم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله بعقاب » وقوله : « مامن رجل يكون فى قوم يعمل فيهم بالمعاصى يقدرون على أن يغيروا عليه ولايغيرون عليه إلا أصابهم الله منه بعقاب قبل أن يموتوا » وقوله : « إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » ، ودعا الله المؤمنين إلى التغرب فى سبيل نيل العلم لتعميمه فى ديارهم إذا رجعوا إليها والاستفادة بكل ما علموه مما ينفع الناس ويسهل لهم أداء فرائضهم وما هم مطالبون به من تيسير سبل العيش ووسائل الراحة وحماية الأوطان والاستعداد للحرب الذى من شأنه أن يمنع الحرب إذ يقول تعالى : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون[٢] » .

الأمر الثالث من الأمور التى دعا الإسلام المؤمن إلى المناجاة بها سراً فى الخلوات الإصلاح بين الناس ، وفى هذا إشارة إلى مايحتاج إليه المصلحون من بذل جهود حكيمة لتقريب وجهة النظر بين المتخاصمين وإقناع كل منهما على انفراد بما له وما عليه وما تقتضيه المصلحة من توفر حسن النية والتضحية لتصفية القلوب وبناء صرح الود على أساس صحيح .

وأول ماينبغى الاتجاه إليه إصلاح مابين نفس الإنسان وربه ؛ فالنفس مخلوقة جاهلة مفطورة على الإباحية المطلقة والله خالقها العليم بما يصلحها يريدها سامية زكية ولذلك دعا إلى كبح جماحها وتنظيم شهوتها وهدايتها إلى ما فيه خيرها وسعادتها ، ولهذا دعا المؤمنين إلى إخضاع نفوسهم لطاعة أوامره واجتناب نواهيه حيث قال : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون[٣] » ولذا اعتبر الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم جهاد النفس هو الجهاد الأكبر وهو أعظم درجة من الجهاد فى ميدان

---

(١) المائدة : ٧٨ .
(٢) التوبة : ١٢٢ .
(٣) المائدة : ١٠٥ .

القتال لأنه الركن الأساسى له ولما يترتب على إصلاح الباطن من إصلاح الظاهر ، ولأن من قدر على إصلاح نفسه قد يستطيع أن يصلح غيره ، ومن عجز عن إصلاح نفسه فهو عن إصلاح غيره أعجز .

ومن أجل هذا حمل الله كل إنسان تبعة مايصدر عنه من سيئات وجعل مهمة الرسل محصورة فى مجرد التبليغ حيث قال تعالى : « وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن أمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون[١] » وجعل الله إصلاح ذات البين مساويا لتقوى الله وطاعته فى الأجر والثواب ودليلا قائما على صحة الإيمان بالله حيث قال : « فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين[٢] » .

ولما كانت علاقة الرجل بالمرأة فى مقدمة العلاقات التى لابد منها والتى يجب أن تقوم على أساس قوى من الود والإخلاص باعتبارها حجر الزاوية فى بناء صرح الحياة الاجتماعية شرع الله لعباده أمر التحكيم فى ذلك حيث قال : « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا[٣] » وقال أيضاً : « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضا فلا جناح عليهما إن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير[٤] » .

ولقد فرض الله الأخوة العامة بين المسلمين وأمرهم بالعمل لإزالة أسباب العداوة والبغضاء فيما بينهم وأوجب عليهم القيام بواجب الإصلاح بمختلف الوسائل ولو أدى الأمر إلى امتشاق الحسام لِرَجْع الباغى عن غيه وإخضاعه للعدل والإنصاف وإعطائه الحق من نفسه حيث يقول تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيئ إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين — إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون[٥] » .

---

(١) الأنعام : ٤٨ .
(٢) الأنفال : ١ .
(٣) النساء : ٣٥ .
(٤) النساء : ١٢٨ .
(٥) الحجرات : ٩ .

نظام الحياة الاجتماعية

يعمل الناس فى هذه الحياة فى طلب السعادة ويتبارون فى الوسائل المؤدية إليها ، بل ويتنافسون ويتقاتلون من أجلها ويحسبون أنها إنما تأتى عن طريق جمع المال وتضخم الأرصدة فى المصارف أو فى البيوت أو أنها بسعة الأعمال وتعدد المصانع والمنشآت . ويظنها آخرون بأنها هبة من الله يغدقها سبحانه وتعالى على من يصطفى من عبيده ويحرم منها من يغضب عليه من عباده فيتخذ من نعم الله فى الحياة معياراً لحب الله للخلق الذى يتجلى فى مبلغ عزهم فى الحياة ، ولقد أخبرنا الله جل وعلا فى القرآن أن كل هذا خطأ فى الفهم فليس مايمنحه الله للناس من ثروة وإكرام ونعيم دليلا على رضائه وليس اكتناز المال والتفانى فى الحصول عليه هو سبيل السعادة الحقيقية ، بل إن هناك من الأنظمة الاجتماعية الخفية ماجعله الله أسباباً حقيقية للسعادة والهناء فى الدنيا قبل الآخرة ، وتعد هذه الأسباب فى مقدمة الأسس العمرانية فى نظام الحياة الاجتماعية إذ يقول : « فأما الإنسان إذا ماابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمنى وأما إذا ماابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهاننى . كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حباً جما[1] » ومعنى هذا أن توالى النعم على الإنسان ليس دليلا على إكرام الله له بالسعادة ، كما أن حرمانه منها ليس دليلا على إهانة الله له والحكم عليه بالشقاء ، بل إن كلا الأمرين ماهو إلا ابتلاء واختبار من الله للعبد أو هو سبيل للوصول إلى السعادة الحقيقية للإنسان وهى إنما تتحقق بقواعد عليا إذا ماطبقت نالت الأمم سعادتها وهناءها وشعرت بلذة عيشها ورفاهيتها وزال عنها كل أسباب الشقاء وما يولد لها المتاعب والأزمات ، فبها يقدم كل شخص مااستطاع لخدمة المجموع عن رغبة ورضاء ، وبها تتوفر الثقة التى من شأنها أن تغرس الحب فى النفوس وتؤدى إلى تداول الثروة بين الناس فيعمل الجميع فى جو مشبع بالود والإخلاص حتى ينمو المال ويستفيض ويغمر جميع الطبقات ، فلم يعد متركزا فى طائفة دون أخرى ، ولم

---

(١) الفجر : ١٩ — ٢٠ .

يبق فارق بين الرأسماليين والعمال حيث يقضى على ما بينهم من روح البغض والشحناء وينتزع من صدورهم غريزة القسوة والاستبداد وتحل حلها رحمة الإنسان بأخيه الإنسان ، هذه القواعد العليا التى ربط الله بها السعادة والشقاء فى الحياة الدنيا وجعل تفاوت الأفراد فى تطبيقها سبيلا إلى الثروة وعلو الدرجات بين الشعوب تنقسم إلى أربعة أقسام : اثنان موجبان واثنان سالبان ؛ فأما الأولان فهما إكرام اليتامى وعون من هو فى حاجة إلى العون ، وقد أشار إليهما القرآن بقوله : « بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين » وأما الثانيان فهما منع الحقوق عن أصحابها وحبس الأموال عن التداول فيما خلقت له ، وقد أشار إليها القرآن بقوله : « وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حباً جما » .

فالرزق لا يكثر والسعادة لا تتم إلا عند إكرام اليتامى وعون المساكين ولا يقل المال وتنتفى السعادة الحقة إلا باغتصاب حقوق الغير والتكالب على جمع المال واكتنازه ، ولتحقيق الغرض الأول عنى الإسلام فى مواضع كثيرة بأمر اليتامى ، وأوضح سبيل إكرامهم بإصلاح أمورهم وعدم التعالى عليهم حيث قال تعالى : « ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم[٢] » .

وخوف الناس من التعدى على حقوقهم وامتهانهم حيث قال تعالى : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله[١] » وقال : « أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين ؟[٢] » .

ولا شك أن العمل بهذا المبدأ أكبر دعامة فى رقى الأمة لأنه ينطوى على روح المساواة فى الحقوق والعمل على إنهاض الطبقة المستضعفة فى الأمة وتبادل التقدير والمحبة بين الجميع ، وليس من إكرام اليتامى فى شئ أن نتصدق عليهم ونعودهم على الكسل والاعتماد على الغير أو ننبذهم ولا نعتنى بشئونهم وما يؤهلهم لأن يكونوا عضوا عاملا فى المجتمع الإنسانى .

بل إن الخير كل الخير فى تثقيفهم وتعليمهم ما يحتاجون إليه من مختلف الصنائع

---

(١) البقرة : ٢٢٠ .
(٢) النساء : ٨ .
(٣) الماعون : ٢ .

والأعمال التى يستطيعون بها خدمة بلادهم وأمتهم وتأمينُ عيشهم بجدهم واجتهادهم من أفضل الطرق المشروعة .

وقد قال صلى الله عليه وسلم « أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة » وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى وكفالة اليتيم أن يسويه المرء بابنه ويؤهله لما يحب لنفسه وقد أخاف الله من الاعتداء على أموالهم حيث قال « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا[1] » .

ولتحقيق الغرض الثانى حض الله جل وعلا فى مواضع كثيرة من القرآن على إطعام المساكين وتوعد المقصر فى هذا الواجب بسوء المصير كما يشير إليه قول الله تعالى يوم الحساب « خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين فليس له اليوم ههنا حميم ولا طعام إلا من غسلين لا يأكله إلا الخاطئون[2] » والمسكين هو من لا قدرة له على الكسب أو سدت فى وجهه أبواب العمل فأصبح من طائفة العاطلين الذين وصفهم الله بقوله « للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا[3] » .

وعرفه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله « ليس المسكين الذى يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن به فيتصدق عليه ولا يقوم يسأل الناس » وقد فرض الله لهم قسطا فى أموال الأغنياء وحض على إطعامهم ومعاونتهم حتى لا تضطرهم الفاقة إلى إراقة ماء الوجه ولا يستفزهم الفقر إلى الإجرام والإخلال بالأمن ، والإطعام أعم من أن يكون بطريق الصدقة أو إيجاد وسائل العمل الشريف لهم أو إقراضهم مالاً يكون منه رأس مال يرتزقون منه بما ينتشلهم من ذل الفاقة والحاجة ولا شك أن العمل بهذا المبدأ التعاونى مما يؤدى إلى تضافر الجهود وكثرة الأيدى العاملة ووفرة الإنتاج وتبادل الإخلاص والود بين الجميع خصوصا وقد حث الله الإنسان على الإنفاق من أحب شئ

---

(١) النساء : ٩ .
(٢) الحاقة : ٣٠ — ٣٦ .
(٣) البقرة : ٢٧٤ .

لديه حيث يقول : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شئ فإن الله به عليم[1] » .

ولتحقيق الغرض الثالث نهى الله الناس عن الاعتداء على حقوق الغير وأكل أموالهم بغير حق ولا رضى منهم ، ولما كان من أبسط شئ فى هذا الباب تسلط بعض ورثة الميت على التركة وهضم حقوق باقى المستحقين خصوصا إذا كانوا غائبين ، خصهم الله بالذكر فى قوله « وتأكلون التراث أكلا لما » أى ولا تراعون ما للآخرين من حقوق . ويدخل فى هذا الباب كل استيلاء على حق الغير بدون علم منه ورضى به كالنصب والاحتيال والغش والخداع والتضليل والاعتداء والحيف فى أمر الوصية وتجنب العدل بين الأولاد والزوجات وما إلى ذلك من الطرق غير المشروعة فقد قال صلى الله عليه وسلم « لا تتلقوا الركبان للبيع ولا يبع بعضكم على بيع بعض ولا تناجشوا ولا يبع حاضر لباد ولا تصروا الإبل والغنم » والمراد بتلقى الركبان شراء السلع من أصحابها بأثمان بخسة قبل نزولها إلى السوق تغريرا بهم ، والمراد ببيع البعض على بيع الآخر عرض السلعة على مشتر قد اشترى مثلها — بثمن أرخص ليفسد على البائع الأول صفقته » والتناجش معناه مدح السلعة بغير حقيقتها مخادعة للمشترى أو أن يدفع فيها ثمنا أكثر من قيمتها وليس فى نفسه شراؤها ، وبيع الحاضر للبادى معناه أن يأخذ الحاضر من البدوى السلعة ويطلب منه أن يتركها عنده لئلا يكثر العرض فترخص الأسعار للناس . وقد سئل ابن عباس عن معنى هذا فقال أى لا يكون الحضرى للبدوى سمساراً ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسوق على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا فقال : ما هذا يا صاحب الطعام ؟ قال يا رسول الله أصابته السماء . قال : أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ، وقال : من غشنا فليس منا » .

وروى أن رجلا أقام سلعة فى السوق فحلف بالله لقد أعطى بها مالم يعط ليوقع فيها رجلا من المسلمين فنزل قوله تعالى : « إن الذين يشترون بعهد الله وإيمانهم ثمناً قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة

---

(١) آل عمران : ٩٢ .

ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم[١] » . وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يحل لامرئ مسلم أن يبيع سلعة يعلم أن بها داء إلا أخبر به » . وقال أيضا : « لا تصروا الإبل والغنم فمن ابتاعها فهو بخير النظرين بعد أن يحلبها إن شاء أمسك وإن شاء ردها وصاعا من تمر » . وفى رواية : « من اشترى معزاة فهو فيها بالخيار ثلاثة أيام إن شاء أمسك وإن شاء ردها ومعها صاع من تمر » .

ولتحقيق الغرض الرابع نهى الله الناس عن التكالب على حب المادة حبا يبلغ بهم درجة العبادة فيرتكب الإنسان فى سبيل جمع المال مختلف الجرائم مما يؤدى إلى الشح به حتى على نفسه فيكون فى الواقع فقيرا وإن كان فى نظر الناس من الأغنياء وفى مثل هذا يقول تعالى : « الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون[٢] » .

ومن أجل هذا جاء الإسلام داعيا إلى عدم اتخاذ المال غاية فى الحياة بل لابد من اعتباره وسيلة لاستجلاب رضاء الله ومحبة عباده فى هذه الحياة وسبباً لنهوض الأمة ورفعة شأنها وقد دلتنا التجارب على أن التغالى فى جمع المال واكتناز الثروة قد أدى بالناس إلى التحاسد والتقاطع وكل شر وفتنة وكثيرا ما كان عاملا قوياً من عوامل الإجرام وإيصاد أبواب الخير فى وجوه العباد وسبباً رئيسيا من أسباب عرقلة المشاريع النافعة والمصالح العامة وتزايد عدد العاطلين فى العالم ونقمتهم من الرأسمالية فى جميع الأنحاء بل ربما كان هو الدافع الأول لاعتناق البسطاء للمذهب الشيوعى فى عصرنا الحاضر ، ولهذا أنذر الله بشر المصير الذين يحبون المادة أكثر من حبهم لله ولا يوجهونها إلى ما شرعت له من الأعمال الصالحات إذ يقول تعالى : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره[٣] » وأخبرنا الله جل وعلا أن من أكبر مضار الغنى إفساد النفوس وحملها على الطغيان

---

(١) آل عمران : ٧٨ .
(٢) التوبة : ٣٥ — ٣٦ .
(٣) التوبة : ٢ .

واحتقار الإنسان لأخيه الإنسان إذ يقول : « كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى[١] » وأمرنا تعالى بالإنفاق فى مواضع كثيرة فى القرآن وبين ماله من شأن عظيم عند الله إذ يقول تعالى « يأيها الذين آمنوا انفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون[٢] » ، « يأيها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد[٣] » ويقول : « وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وانفقوا لهم أجر كبير[٤] » ويقول : « فاتقوا الله ما استطعتم واسمعو وأطيعوا وانفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون[٥] » وقد اشتد الله فى توعد البخلاء بالويل والثبور وعظائم الأمور حيث يقول تعالى « ولا يحسبن الذين يبخلون بما أتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة[٦] » ذلك لأن البخلاء قوم كتب الله عليهم الشقاء فى الدنيا والأخرة فهم فى هذه الحياة يكدون ويتألمون فى جمع المال من حلال ومن حرام لا يتمتعون بنعمة الغنى ولا ينعمون بطيب العيش ولذات الحياة كما هو شأن غيرهم من عباد الله كلا ولا ينفقون أموالهم فى أوجه الخير وأبواب الإحسان ليكون لهم بذلك قربى عند الله وحسن مآب وقد روى فى حقهم عدة أحاديث منها قوله صلى الله عليه وسلم «لا يدخل الجنة بخيل ولا خب ولا خائن».

ويرجع السر فى شدة بغض الله للبخل إلى سببين «أولهما» كفران النعم ومقابلتها بالجحود «وثانيهما» تصديق إبليس فى قوله من دون الله فأما الأول فلأنه أنعم الله عليه بنعمة الغنى وقال له « أحسن كما أحسن الله إليك[٧] » فأبى وترك الإحسان وحرص على كنز الأموال . وأما الثانى فلأنه سبحانه وتعالى شرع الإحسان واحتسبه قرضاً له تعهد برده أضعافاً كثيرة حيث قال : « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسنا فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط إليه ترجعون[٨] » وإبليس اللعين قد صد الناس

---

(١) العلق : ٦ .
(٢) البقرة : ١٥٤ .
(٣) البقرة ٢٦٧ .
(٤) الحديد : ٧ .
(٥) التغابن : ١٦ .
(٦) آل عمران : ١٨٠ .
(٧) القصص : ٧٧ .
(٨) البقرة : ٢٤٥ .

عنه بما يدخله فى روعهم من أن الإحسان سيؤدى بهم إلى الفقر والحاجة . كما جاء فى قوله تعالى : « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم[١] » فأبى البخيل إلا أن يصدق وعيد إبليس ويضن بماله خشية الفقر بالرغم عن وعد الله له بمضاعفة ما ينفق . ولا جل أن يكره الله المؤمنين على الاستفادة من أموالهم فيما ينفع الناس حرم سبحانه وتعالى الربا وتعاطيه وقطع دابره فى المجتمع الإسلامى لحماية الطبقة الفقيرة من استغلال الرأسماليين واضطرارهم إلى التعامل مع الناس بما شرعه تعالى من تأليف الشركات التجارية والصناعية والزراعية والمساهمة فى المؤسسات الخيرية والجمعيات التعاونية الخيرية حيث قال تعالى يمحق الله الربا ويربى الصدقات[٢] » وقال : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون[٣] » .

ومعنى هذه الآية أن الذين يأكلون الربا ويؤكلونه (لا يقومون) فى المجتمع (إلا كما يقوم) المجنون « الذى يتخبطه الشيطان » ويسيره على غير وعى وبدون هدى (من المس) الذى أصابه بجامع عدم الرشد فى كل (ذلك) الذى أصابهم (بـ) سبب (أنهم) اعتمدوا على عقولهم القاصرة وأفكارهم الضيقة وآمنوا بما توحيه إليهم تاركين حكم الله فى ذلك مستحلين ما حرم الله ، حيث (قالوا إنما البيع مثل الربا) لا فرق بينهما ولا معنى لتحريم الربا دون البيع (و) هم يعملون عند قولهم هذا أنه قد « أحل الله البيع وحرم الربا » ولا يمكن أن يحرم الله شيئا إذا لم يكن فيه ضرر فقولهم هذا يعد معارضة وتكذيبا لله لا يصدر ممن كان سليم العقل صائب التفكير خصوصا وأن الفرق بينهما واضح جلى كالشمس فى رائعة النهار فالبيع والمراد به استثمار المرء أمواله بنفسه أو بواسطة شركات تجارية مما يستلزم الاستعانة بالأيدى العاملة ويؤدى إلى منافع أمة شاملة وأرباح طائلة . وأما الربا فإن الزيادة التى تأتى منه محدودة وينفرد بها صاحب ورأس المال والربا يثقل

---

(١) البقرة : ٢٦٨ .
(٢) البقرة ٢٧٦ .
(٣) البقرة : ٢٥٧ .

هل كا المدين مما يؤدى إلى التحاسد والتخاصم والتقاطع « فمن جاءه موعظة » القرآن بالكف عن الربا « من ربه » فخضع وسلم بضرورة وجود فارق بين البيع والربا وآمن بضرر الربا « فانتهى » عن أكل الربا امتثالا لأمر الله وتاب عن فعله « فله ما سلف » ما أكل من ربا قبل ذلك ولا يكلف من الحاكم برد ما أخذه من ربا من قبل « وأمره إلى الله » إن شاء عذبه على ما أخذه من ربا قبل التوبة وإن شاء تحمل عنه وأرضى أصحاب الحقوق من عنده وتغمده برحمته ورضوانه إذا كان صادقاً فى توبته ولم يعد إلى تعاطى الربا أبدا « ومن عاد » إلى تعاطيه مستحلا له « فأولئك أصحاب النار » يجزونها ما فرط منهم قبل التوبة وبعدها « وهم فيها خالدون » دائمون دواما أبديا لإصرارهم على مخالفة أوامر الله واستحلالهم ما حرم بعد ما تبين لهم الحق .

وتدل هذه الآية على ما يأتى :

١ — أن المرابين محكوم عليهم بالجنون وإن حسبوا لأنفسهم قوة فى العقل لأنهم استحلوا ما حرم الله إذ جحدوا الحق ولم يصدقوا أصدق القائلين بقولهم بعدم وجود فارق بين البيع والربا فى حين أن الله قد أثبت وجود هذا الفارق بتمييزه بينهما فى الحكم ومن أدلة ذلك ما يأتى :

(١) أنهم يؤثرون البطالة على العمل . تواكلا على الزيادة الضئيلة على رؤس أموالهم .

(٢) أنهم رضوا بالخمول والكسل وأن تكون أرزاقهم بفضل مجهود غيرهم وبغير كد ولا نصب .

(٣) أنهم يعملون على أكل أموال الناس بالباطل .

٢ — أن فى تعاطى الربا مضار اجتماعية منها :

(١) أنه يؤدى إلى التقاطع والعداء بين الناس ويحملهم على دوام الخصومات .

(٢) أنه يوجب القسوة وينزع الرحمة من القلوب .

(٣) أنه يولد الحقد فى نفوس الفقراء من الأغنياء لما يجدون فيهم من شدة الشح والحرص .

(٤) أنه يسبب تعطيل المروءة والقرض الحسن ويؤدى إلى التجاء المعوزين إلى ارتكاب الجرائم المخلة بالامن وانتحار المدينين عند تصفية ما يملكون .

(٥) أن الله قد جعله وسيلة المحق ونذير الخراب .

٣ — أن توظيف الأموال فى المشاريع الحرة كالتجارة والصناعة والزراعة على النهج الشرعى له من المزايا والفضائل الخاصة والعامة ما يأتى :

(١) أن فى الربح الذى يأتى عن طريقه من اللذة مالا يوجد فى سواه .

(٢) أنه السبيل المشروع لزيادة الثروة الخاصة والعامة وموجد البركة .

(٣) أنه يحتم تشغيل الأيدى العاطلة :

(٤) أنه يفسح ميدان العمل للعاملين فيعم النفع بدوام حركة دواليب الأعمال .

(٥) أن فيه من معنى الكرامة والعزة مالا يوجد فى الربا .

(٦) أنه يغرس المحبة والألفة بين العمال وأصحاب الأموال .

(٧) أن الله يكتب لصاحب المال ثواب كل خير ينتج منه .

نظام الملكية

يقوم نظام الملكية فى الإسلام على أساس صحيح معقول هو أنه لا يملك الشئ إلا من قدر عليه واستطاع أن يستبد بالتصرف فيه ، والإنسان فى هذه الحياة بما أوتى من قوى متعددة لا يملك أن يهيمن أو يستبد بتصرفه فى أى عضو من أعضائه بنفع أو ضر أو حركة أو سكون إلا بالقدر الذى سمح له به وأعطى له الحق فى إستخدامه فيه إذ أن جميع أعضائه فى الواقع ملك لخالقها وواهبها الحياة والقدرة على أداء وظائفها ، ومن كان لا يملك من أمر نفسه وأعضائه الملتصقة به شيئا فهو أبعد ما يكون عن تملك ماسواه وإنما المالك للجميع هو الله ، ولتقرير هذه الحقيقة يقول تعالى : « قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعملون سيقولون لله قل أفلا تتقون ، قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ، سيقولون الله قل فأنى تسحرون[1] » وما دام الله هو الخالق للناس أجمعين فهو مالكهم وسيدهم وقد تكفل لهم بالرزق وأمرهم بالسعى لاكتشاف مواضع ذلك الرزق لنيله وفق سننه فهل يملكونه ويستبدون فيه بمحض رغبتهم واختيارهم ؟ هذا ما لا يسلم به العقل والمنطق بل لابد من معرفة رأى المالك

---

(١) المؤمنون : ٨٤ — ٨٩

الأصلى للرزق ومدى ما يأذن به من تصرف فى ذلك الملك هل هو على سبيل الاستفادة الدائمة ؟ أم المؤقتة ؟ وإلى أى حد ووقت ؟

أما الملكية الدائمة فهى مما لا يسلم بها العقل لأن الإنسان بذاته غير دائم فلا يعقل أن يملك تملكا دائما وإنما الملك الدائم سيعود لله القائل : « إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون[1] » .

وأما الملكية المؤقتة فهى ملكية الفرد الذاتية التى يجد الناس من أجلها فى الحياة وقد أخذت عليهم كل أوقاتهم كما قال عنها سبحانه وتعالى : « ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر » مع أنها لا تستدعى كل هذا الاهتمام وهى لا تتجاوز ما يجد الإنسان فى الحياة من لذة إبان عمره المقدر له ، وقد أشار إلى هذا الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : « يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت » .

ثم يموت الإنسان فإذا هو لا يسيطر على ما تركه من مال يرجع الأمر فيه لواهبه الأصلى وهو الله ويوزع بحسب أمره على المستحقين له من بعده ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : « أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله قالوا يا رسول الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه . قال : فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر » . ولذا شرع الحجر على السفيه ومنع الرجل من التصدق بجميع أمواله عند عدم الورثة .

إذاً فلم تكن يد الإنسان على الأموال إلا يد استخلاف ، يأخذ باليمين ماحصل عليه ، وينتفع به انتفاعا مؤقتاً ، ثم يسلمه بالشمال لمن بعده ، وهكذا دواليك .

وقد نبه الله الناس إلى هذه الحقيقة بقوله : « عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون[2] » وقوله : « وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه[3] » فما كان من عمل الإنسان وإيجاده واستطاع أن يسيطر عليه ويستبد فيه بما وسعته قدرته وسلطانه ، فهو الذى يعد ملكا له لامعارض فيه ، ولكن إلى أمد مخصوص أما ماليس من عمل الإنسان وإيجاده ، فلا يملكه ولا حق له فى التصرف فيه

---

(١) مريم : ٤٠ .
(٢) الأعراف : ١٢٩ .
(٣) الحديد : ٧ .

إلا بالقدر الذى خوله له صاحب الحق الأول وصرح له بالتصرف فيه ، فإن تجاوزه عد معتديا سئ التصرف يستحق المؤاخذة ، ولهذا قال تعالى : « ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ، أفرأيتم ما تحرثون ، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون ، إنا لمغرمون ، بل نحن محرومون ، أفرأيتم الماء الذى تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون ، أفرأيتم النار التى تورون ، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ، نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين ، فسبح باسم ربك العظيم[1] » .

وإذا كان الزرع الذى ينبت من الأرض بعمل الإنسان وحرثه لم يكن طلوعه وازدهاره من خلقه ،وإذا كان الماء الذى يسقى به الزرع والإنسان لم يكن من خلقه أيضاً ، وإذا كانت الأشجار التى تنبت بغرس الإنسان لم يكن إنشاؤها ونموها بقدرته . وسلطانه ، فلاحق له فى شىء من ذلك إلا بقدر مجهوده وسعيه فى ذلك .

وعلى هذا تكون ملكية الأرض عائدة لله وحده وفقاً لما جاء فى القرآن من قوله : « قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده[2] » ومعنى هذا أن الأرض كلها ملك لله ، ولكنه تعالى يمنحها ويورثها لمن يعمل لاستخراج ثمراتها من عباده وأيد الله هذا بقوله : «ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر إن الأرض يرثها عبادى الصالحون[3] » أى الصالحون لإحيائها وعمارها واستخراج كنوزها لا الصالحون للعبادة ، فكل الناس يصلح لها ، أما عمار الأرض وإحيائها فلا يصلح لها إلا الإخصائيون فيها ، وفى المقدار الذى يستطيعون الاستفادة منه حيث روى النسائى وأبو داود عن عروة عن رسول الله : « من أحيا أرضاً ميتة فهى له وليس لعرق ظالم حق ، ومن عمر أرضاً ليست لأحد فهو أحق بها . وأن رجلين اختصما إليه صلى الله عليه وسلم غرس أحدهما نخلا فى أرض الآخر فقضى أن الأرض أرض الله والعباد عباد الله فمن أحيا مواتها فهو أحق بها ، وأمر لصاحب الأرض بأرضه وأمر صاحب النخل أن يخرج نخله ، فضربت أصولها بالفئوس حتى أخرجت .

وقد جعل الشارع الحكيم هذه الملكية تستمر لمحيى الأرض ويتوارثها أبناؤه من بعده

---

(١) الواقعة : ٦٣ — ٧٤ .
(٢) الأعراف : ١٢٨ .
(٣) الأنبياء : ١٠٥ .

ما استطاعوا إحياءها وزراعتها بأنفسهم ، ومتى عجزوا عن ذلك فلا يحق لهم أن يؤجروها إلى الغير ، لما روى الشيخان عن جابر وأبى هريرة قوله صلى الله عليه وسلم : « من كانت له أرض فليزرعها فإن لم يستطع أن يزرعها وعجز عنها فليمنحها أخاه المسلم ولا يؤجرها ، فإن لم يفعل فليمسك أرضه » . وأجمعت كتب الصحاح على نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المحاقلة وفسرها البخارى ومسلم بكراء الأرض وقال مالك فى كراء المواطئ أنها كراء الأرض بالحنطة . وقال رافع أن كراء الأرض بالذهب والورق لم يكن يومئذ فلم ينه عنه ، وقد يكون له فى هذه الحالة أن يتنازل عن حقه فى إحيائها لمن يستطيع الاستمرار فى زرعها بما يعوضه ما أنفق فى سبيل إحيائها وزرعها فإن لم يفعل فقد سقط حقه فيها . فإذا جاء آخر فأحياها من جديد فهى له ، لما رواه سعيد بن زبير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أحيا أرضاً قد عجز صاحبها عنها وتركها بمهلكة فهى له » . ومعنى هذا أن الله قد جعل الأرض مشاعة للجميع ولم يبح لأحد احتكار جانب منها إلا متى بذل جهوداً عملية فى إحيائها واستخراج ثمراتها لمصلحة الجمهور ، فإن توقف عن بذل ذلك المجهود لم يعد له الحق فى استمرار التملك حيث تكون الأرض قد رجعت إلى حالتها الأولى من الشيوع للجميع .

والرسول صلى الله عليه وسلم إذ يشترط عمل الإنسان بنفسه فى إحياء الأرض ويمنع كراءها على الغير ، إنما يرمى إلى تحقيق المبدء السامى الذى جاء به الإسلام وهو مبدأ الاشتراكية العامة بين العباد وتساويهم فى الحقوق والواجبات وتفرغ كل لعمله فى دائرة اختصاصه ليكون الانتاج قوياً ومضمون الفائدة من جهة وليحول دون تسيطر فريق على آخر عن طريق المادة أو أن يعيش المرء عالة على سواه ، بل يجب أن يعمل ليساهم بمجهوده فى الحياة العامة المشتركة « وأن ليس للإنسان إلا ماسعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى[1] » .

ولاشك أن كراء الأرض بأجر من النقد للغير لأجل أن يحييها ويستغلها معناه أخذ مال بغير حق ما ، إذ الأرض لله مشاعة للجميع ، وصاحب الحق فيها هو الزارع لها ، وموقف المؤجر فى هذه الحالة أشبه بموقف المغتصب للأرض المحتكر لها ،

---

(١) النجم : ٣٩ - ٤١ .

فلا يحل له أخذ الأجر عليها ، أو هو بعبارة أخرى أشبه بمن يقف فى طريق الناس ليحول دونهم ودون مزاولة أعمالهم إلا أن يدفعوا إتاوة على تمكينهم من القيام بواجباتهم . الأمر الذى لايقره الإسلام والذى بسببه نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن كراء الأرض بالنقد بما روى مسلم عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأن يمنح أحدكم أخاه أرضه خير له من أن يأخذ عليها خراجا معلوما » .

ويلحق بالأرض بعض أشياء من هبات الله للناس أجمعين أباح الشارع تملكها ولكنه نهى عن استئثار أحد بها ، ومنع الناس عنها ، إذ سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشىء الذى لا يحل منعه قال : الماء . فقال السائل ثم ماذا ؟ قال: الملح . فقال السائل : ثم ماذا ؟ قال : النار . فقال السائل: يانبى الله ، ماالشىء الذى لايحل منعه ؟ قال أن تفعل الخير خير لك » وقال صلى الله عليه وسلم : « المسلمون شركاء فى ثلاث : الماء ، والكلأ ، والنار » وقال أيضاً : « لا تمنعوا فضل الماء لتمنعوا به الكلأ » وفى رواية : « لايباع فضل الماء ليباع به الكلأ » وقال أيضاً : « لايمنع نفع البئر » أى ما يخرج من مائها ويزيد عن حاجة صاحبها وإذا كان كراء الأرض بالنقد ممنوعا فى الإسلام بنص الأحاديث الصحيحة عن رسول الله فقد جنح المسلمون إلى إباحة تأجيرها للغير بطريق المزارعة على أن يكون لمالك الأرض جزء من المحصول وللزراع مثله أو أقل أو أكثر بحسب التراضى لما فى ذلك من تحقيق معانى الاشتراكية التى دعا إليها الإسلام مستدلين على جواز ذلك بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه عندما فتح خيبر سأله اليهود أن يقرهم فيها وأن يسمح لهم بالعمل فى مزارعهم التى آلت لله وله بحكم الفتح على أن يدفعوا له نصف ما يخرج منها من الثمر والزرع ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أقركم على ذلك ماشئنا » وكان التمر يقسم على سهمين ، وروى الإمام أحمد عن ابن عمر أنه قال « دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يهود خيبر نخلها وأرضها على أن يستعملوها من أموالهم وللنبى شطر ثمرها » ، وجرى على مثل هذا كثير من الصحابة فكانوا يزارعون على الثلث والربع وعامل عمر الناس على أنه إن جاء بالبذر من عنده فله الشطر وإن جاءوا بالبذر فلهم كذا ، أى زيادة غير أنه ثبت للشيخين والنسائى عن رافع بن خديج وهو من أكابر الصحابة قوله : « كنا أكثر الأنصار حقلا فكنا نكرى الأرض على أن لنا هذه ولهم هذه فربما

خرجت هذه ولم تخرج هذه فنهانا عن ذلك فأما الذهب والورق فلم يكن يومئذ » وقوله : « نهانا صلى الله عليه وسلم عن أمر كان نافعا لنا وطاعة الله ورسوله أنفع لنا نهانا أن نحاقل الأرض فنكريها على الثلث والربع والطعام المسمى وأمر رب الأرض أن يزرعها أو يدعها » وقوله : « إنه زرع أرضاً فمر به النبي صلى الله عليه وسلم وهو يسقيها فسأله لمن الزرع ولمن الأرض ؟ فقال زرعى بذرى وعملى لى الشطر ولبنى فلان الشطر ، فقال أربيتما فرد الأرض على أهلها وخذ نفقتك » وعند ما اتصلت هذه الأخبار بمسامع عبد الله بن عمر فى آخر خلافة معاوية ذهب إليه فسأله عن ذلك فقال له : كان النبي صلى الله عليه وسلم ينهى عن كراء المزارع ، فلم يسع ابن عمر إلا أن يتركها وهو يقول : « ما كنا نرى بالمزارعة بأساً حتى سمعت رافع بن خديج يقول نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها » وقال جابر : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المخابرة . والمخابرة هى المزارعة أو هى معاملة أهل خيبر . وروى أبوداود عن زيد بن ثابت قال : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المخابرة . قلت : وما المخابرة ؟ قال : أن تأخذ الأرض بنصف أو ثلث أو ربع » ولهذه الأحاديث كرهها عكرمة ومجاهد ومالك وأبو حنيفة وأجازها الشافعى فى الأرض بين النخيل إذا كان بياض الأرض أقل ومنعها فى الأرض البيضاء ، ونحن إذا نظرنا إلى الموضوع على ضوء هذه الحقائق يلوح لنا ما يأتى :

١ — أن إقرار الرسول صلى الله عليه وسلم ليهود خيبر لا يصلح أن يكون دليلا على جواز كراء الأرض بالمزارعة بل إنه ربما كان دليلا على حرصه عليه الصلاة والسلام على إحياء الأرض عن طريق الأيدى التى تستطيع استثمارها والاستفادة منها ، ولما كان عليه الصلاة والسلام يعلم أن قومه لا يفهمون الزراعة إذ ذاك سمح لليهود بالبقاء فى البلاد وأباح لهم العمل فى الأرض حسبما طلبوا على أن يدفعوا له نصف ما يخرج منها من الثمر والزرع وقال (أقركم على ذلك ما شئنا) ومعنى هذا أن هذا الإقرار لم يكن مطلقا بل موقوتا وموقوفاً على مشيئته صلى الله عليه وسلم إلى أن يتسنى لقومه أن يعملوا فى الزرع ويتمكنوا من الاستمرار فى إحياء الأرض أو إلى أن يفرغ رجاله من أعمال الجهاد فى سبيل الله التى أخذت عليهم جميع أوقاتهم خصوصا لما روى عن جابر بن ثابت من النهى عن المخابرة .

٢ — أن الأحايث الواردة عن قرار النبي أهل خيبر لم تقل أنه أخذ منهم فعلا شطر ما خرج من الأرض من زرع وثمر بل إنها تقول أن التمر كان يقسم على السهمين ومعنى هذا أن ما أخذه الرسول لم يكن عن مزارعة الأرض بل عن مساقاة النخل وهى حاصلة منهم تبعا للزرع المبذور تحتها يؤيد هذا قول ابن عمر دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يهود خيبر نخلها وأرضها على أن يعملوها من أموالهم ولرسول الله صلى الله عليه وسلم شطر ثمرها .

٣ — إذا كان دليل القائلين بجواز المزارعة هو عمل الرسول فى خيبر فإن فى حديث جابر وزيد بن ثابت من نهى الرسول عن (المخابرة) ما يشير إلى أبطاله صلى الله عليه وسلم ما أقره فى خيبر للضرورة . خصوصا وقد فسرها زيد نفسه بذات العمل الذى أقر فى خيبر .

٤ — ولئن احتج القائلون بجواز المزارعة بإقرار النبي لهـا فى خيبر وعمل الصحابة بها حتى خلافة معاوية فهذا لا يطعن فى صحة أحاديث رافع بن خديج وهو من ثقات الصحابة بدليل أن ابن عمر قد صدقه وأذعن له وانتهى عن المزارعة وقال ما كنا نرى بالمزارعة بأسا حتى سمعنا بحديث رافع بن خديج .

٥ — إن ما رواه رافع بن خديج عن رسول الله حجة قاطعة وقول صريح واضح فى منع كراء عين الأرض بجانب من محصولها ولذلك لم يتردد ابن عمر فى العمل به ومن القواعد المقررة فى الشريعة الإسلامية أن من حفظ حجة على من لم يحفظ .

٦ — أن تأجير الأرض بالمزارعة لا يعطى معنى الاشتراك فى الجهد والعمل بل قد يكون استمتاعا بغنم دون غرم اللهم إلا أن يساهم صاحب الأرض بشىء من ماله فى زراعة الأرض كثمن البذر والسباخ والآلات وما إلى ذلك مما يتكافأ مع مجهود العامل ويكون له من المحصول نظير ما يكون للعامل وصاحب المال من ربح فى أموال التجارة ، وكذلك الحال فى الأراضى التى تقام عليها العمارات للاستغلال فإن المالك إنما أحياها بما أنفق فى عمارها من مال سابق يستثمره بما قسمه الله له من أجر لاحق مقابل إسكان المستأجر فى العمار الذى أقامه والذى لا يزال ينفق على صيانته وترميمه وحفظه من التلف الذى لابد منه ولو بعد أمد طويل بدليل أن هذا الإيجار سينتهى

ويتوقف المستأجر عن دفع الأجر عند خراب البناء أو عدم صلاحه للسكن . أما الأرض فإنها مشاعة للجميع وهى لا تملك إلا بالإحياء والتعمير ، وإذا دفع فيها ثمن فإنه لا خير فيه ولذا قال صلى الله عليه وسلم : « إن المسلم يؤجر فى كل شىء ينفقه إلا فى شىء يجعله فى هذا التراب » .

٧ — وإذا اعتبرنا الأرض ملكا وقلنا لماذا لا يحق للمالك أن يجعلها كرأس المال فى التجارة نجد هنا فارقا بين الحالتين فرأس المال الذى يوضع فى التجارة قد يثمر وقد يفنى فيضيع حظ مالك المال كما يضيع عمل العامل بخلاف الزراعة فإنه لا يضيع فيها غير عمل الزراع وأما الأرض التى اعتبرت رأس المال فإنها باقية ولم يتأثر صاحبها بشىء كليا . وفى هذه الحالة ربما كانت المزارعة أكثر شبها وانطباقا على الاقتراض بالربا إذ يعطى المقرض رأس ماله للتاجر على أن يدفع له حصة ولو لم تكن معينة من الربح على أن لا ينقص من رأس ماله شئ مهما بلغت خسائر التاجر . وهذا ما صرح به الرسول صلى الله عليه وسلم عندما مر برافع بن خديج فرآه يسقى الأرض وقال الزرع لى من بذرى وعملى لى الشطر ولبنى فلان الشطر الآخر فرد عليه صلى الله عليه وسلم بقوله : « لقد أربيتما فرد الأرض على أهلها وخذ نفقتك » اللهم إذا ساهم مالك الأرض فى زراعتها بما يتكافأ مع أجره الزارع أو كان توزيع الثمر على هذه النسبة .

٨ — وقد أثبتت الأيام ودلتنا التجارب على أن تأجير الأراضى بالمزارعة مما سبب تكاسل ملاكها عن العمل باستثمارها بأنفسهم وحرموا أنفسهم مما تدره الزراعة على المزارعين من أموال وخيرات كثيرة وأدى الأمر إلى وجود طبقة عاطلة عن العمل تعيش فى الحياة على مجهود غيرها من الأيدى العاملة لعلها هى المعينة بقول بعض الحكماء (رجال الأعمال فى الدنيا ثلاثة التاجر فى متجره والزارع فى مزرعته والصانع فى مصنعه ومن عداهم عالة عليهم كشجر اللبلاب) .

٩ — والقول الفصل فى هذا ما ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد أقطع بلالا مؤذنه وادى العقيق فلما كانت خلافة عمر بن الخطاب عارضه فى هذا الإقطاع لأنه عجز عن زراعته والاستفادة منه فقال له بلال أتأخذ منى شيئا أعطانيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له عمر نعم سأفعل هذا لأنك عجزت عن القيام

بواجب أحياء هذه الأرض والمسلمون فى حاجة ماسة إليها نخذ منها ما تستطيع استثماره واترك الباقى لغيرك وفعلا كان كذلك[1] .

---

(١) من الخير إيراد بحثنا الآتى :

« احترم الإسلام حق الملكية فأتاح لكل فرد أن يتملك بالأسباب المشروعة مايهاه ، وأباح له استثمار ملكه والانتفاع به فى نطاق الحدود التى رسمها ، وخوله حق الدفاع عنه كالدفاع عن النفس والعرض . وأوجب عليه صيانته ونهاه عن إضاعته ، وصرفه فى غير المشروع من وجوه الصرف استكمالا لوسائل العمران .

وفى الحديث : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » وفى حديث آخر : « من قتل دون ماله فهو شهيد » .

وقد أضاف القرآن الأموال إلى أصحابها إضافة التمليك فقال تعالى : « وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » وقال : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » وشرع أسباب الملكية وطرائق انتقالها من مالك إلى آخر ، وأقام للتعامل بين الناس نظما وحدوداً تكفل صيانة حق الملكية ، وليس فى ذلك منافاة لكون الأرض ومن فيها ملكا لله تعالى حيث خلقها وأوجدها من عدم ، فإنه تعالى خلقها لمنافع عباده ولعمارة الدنيا التى استخلف فيها النوع الإنسانى منذ هبط آدم من الجنة ، فالأرض مملوكة للعباد بتمليك الله تعالى .

وقد أجازت الشريعة لمالك الأرض أن يتصرف فيها كيف يشاء ، فله أن يزرعها كلها أو بعضها بنفسه ، وله أن يؤجرها لغيره بطريق المزارعة أو بالنقد بلا تحديد بالطاقة وعيش الكفاف ، وله أن يمنحها أو يمنح منها للغير غنياً أو فقيراً .

فأما استغلال الأرض بطريق المزارعة فهو نوع من التأجير مشروع ، وأصله أن أهل المدينة كانوا أكثر الناس حقولا ومزارع ، وكانوا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغلون الأرض بطريق المزارعة ، وتسمى أيضاً المخابرة مشتقة من الخبير ، وهو الفلاح . (وهى عقد بين المالك والعامل على كراء الأرض ببعض مايخرج منها) فتارة كانوا يحددون نصيب المالك بالشطر أو الثلث أو الربع . وتارة يحددونه بما ينبت على حافة الأنهر أو الجداول أو السواقى أو أن له ثمرة معينة من الأرض ، وللعامل ثمرة قطعة أخرى ونحو ذلك مما شأنه أن يفضى إلى التنازع والتشاحن وأكل الأموال بالباطل لما فيه من الجهالة والغرر . وتارة يجمعون بين التحديدين فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النوعين الأخيرين من الكراء لما فيهما من المخاطرة المفضية إلى النزاع .

وعن حنظلة بن قيس الأنصارى . قال : سألت رافع بن خديج عن كراء الأرض بالذهب والفضة فقال : لابأس به . إنما كان الناس يؤاجرون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بما على الماذيانات (لفظة معربة معناها حافة النهر ومسايل الماء) وأقبال الجداول (رءوس الأنهر الصغيرة) وأشياء من الزرع فيهلك هذا ويسلم هذا ، ويسلم هذا ويهلك هذا ، ولم يكن للناس كراء إلا هذا ، فلذلك زجر عنه . فأما شىء معلوم مضمون فلا بأس به (رواه مسلم وأبو داود والنسائى) .

وفى رواية عن رافع . قال : حدثنى عماى أنهما كانا يكتريان الأرض على عهد رسول الله =

نظم التعامل

لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم رسولا من عند الله مبلغا لأوامره فحسب بل أنه كان حاكما من قبله جل وعلا منفذا للشريعة التى جاء بها حيث خاطبه الله تعالى

= صلى الله عليه وسلم بماينبت على الأربعاء (جمع ربيع وهو النهر الصغير) وبشيء يستثنيه صاحب الأرض ، فنهى النبي عن ذلك (رواه البخارى واحمد والنسائى) .

وفى رواية عنه : « كنا أكثر أهل المدينة مزدرعا . كنا نكرى الأرض بالناحية منها تسمى لسيد الأرض ، فما يصاب ذلك وتسلم الأرض ومما تصاب الأرض ويسلم ذلك فنهينا فأما الذهب والورق « الفضة » فلم يكن يومئذ - رواه البخارى » .

وفى رواية عنه : « كنا أكثر الأنصار حقلا ، فكنا نكترى الأرض على أن لنا هذه ولهم هذه فربما خرجت هذه ولم تخرج هذه فنهانا عن ذلك ، فأما الورق فلم ينهنا — أخرجه البخارى ومسلم » .

وعن أسيد بن ظهير : كان أحدنا إذا استغنى عن أرضه أو افتقر إليها أعطاها بالنصف والثلث والربع ويشترط ثلاث جداول والقصارة (إبضم القاف وهى الحب فى السنبل بعد ما يداس) وما يسقى الربيع . وكان يعمل فيها عملا شديداً ، ويصيب منها منفعة ، فأتانا رافع بن خديج فقال : فنهى النبى صلى الله عليه وسلم عن أمر كان بكم رافقاً وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم خير لكم نهاكم عن الحقل (الزرع) — رواه أحمد وابن ماجه .

فهذه الروايات صريحة فى أنه عليه السلام إنما نهى عن كراء الأرض ببعض مايخرج منها إذا اشتملت على مايؤدى إلى المخاطرة والغرر من مثل هذه الشروط الفاسدة ، فأما إذا خلت منها فيجوز كراؤها به مثل كرائها على النصف أو الربع مما يخرج منها .

وهذا هو الذى فهمه ابن عمر حيث رد على رافع فى قوله : « نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن كراء المزارع بقوله : قد علمت أنا كنا نكرى مزارعنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بما على الأربعاء وشيء من التبن » أخرجه فى الصحيح .

وحاصل رده كما ذكره القسطلانى . أنه ينكر على رافع إطلاقه النهى عن كراء الأرض ويقول : إن الذى نهى عنه النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى كانوا يدخلون فيه الشرط الفاسد وهو أنهم يشترطون ما على الأربعاء وطائفة من التبن وهو مجهول ، وقد يسلم هذا ويصيب غيره آفة أو بالعكس فتقع المزارعة ويبقى الزارع أو رب الأرض بلا شيء . اهـ .

وهو مافهمه أيضاً ابن عباس رضى الله عنهما حيث قال كما فى الصحيح أنه عليه السلام لم ينه عنه ، أى عن كراء الأرض بشطر مايخرج منها ، ولكن قال : لأن يمنح أحدكم أخاه خير له من أن يأخذ شيئاً معلوما . اهـ .

قال الخطابى : وقد عقل ابن عباس المعنى من الخبر وأن ليس المراد به تحريم المزارعة بشطر مايخرج من الأرض ، وإنما أراد بذلك أن يتمانحوا أراضيهم ، وأن يرفق بعضهم ببعض . وقد ذكر رافع فى رواية عنه فى هذا الباب (باب المزارعة) النوع الذى حرم منه ، والعلة التى من أجلها نهى عنها ، وذلك قوله : كان الناس يؤاجرون . الخ . =

بقوله : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن

= فأفاد أن المنهى عنه هو المجهول منه دون المعلوم وأنه كان من عادتهم أن يشترطوا فيها الشروط الفاسدة ، وأن يستثنوا من الزرع لرب الأرض ما على السواقى والجداول . والمزارعة وحصة الشريك لايجوز أن تكون مجهولة . وقد يسلم ماعلى السواقى والجداول ويهلك سائر الزرع فيبقى العامل لاشىء له ، وهذا خطر ، اهـ ملخصاً .

وقال الليث بن سعد : وكان الذى نهى عنه من ذلك ما لو نظر فيه ذوو الفهم بالحلال والحرام لم يجيزوه لما فيه من المخاطرة . اهـ .

وهو موافق لما عليه الجمهور من حمل النهى عن كراء الأرض بما يخرج منها على الوجه المفضى إلى الغرر والجهالة .

قال فى الفتح ونيل الأوطار : وعليه تحمل الأحاديث المطلقة الواردة فى النهى عن المزارعة والمخابرة كما هو شأن حمل المطلق على المقيد . اهـ .

وفى منتقى الأخبار : إن حديث حنظلة بن قيس ببيان لما أجمل فى المتفق عليه من إطلاق النهى عن كراء الأرض . اهـ .

وممن حمل النهى على ذلك وأجاز كراء الأرض بجزء مما يخرج منها كالنصف والثلث والربع دون أن يقارنه شرط مفسد للعقد الخلفاء الراشدون وابن عمر وابن عباس وابن مسعود وسعد ابن مالك وحذيفة ومعاذ بن جبل وأسامة وخباب وعمار بن ياسر ، وهو قول ابن المسيب وطاوس وابن أبى ليلى والأوزاعى والثورى والقاضى أبى يوسف ومحمد بن الحسن وابن المنذر وأحمد ابن حنبل استناداً لما ثبت فى الصحيح أن الرسول صلى الله عليه وسلم عامل يهود خيبر بعد أن ظهر عليهم على أن يزرعوا له أرضها ولهم نصف ما تخرجه من ثمر أو زرع ، واستمر اليهود على ذلك إلى صدر من خلافة عمر حتى أجلاهم عنها إلى تماء وأريحاء .

وعن أبى جعفر قال : ما بالمدينة أهل بيت هجرة إلا يزرعون على الثلث والربع وزارع عمر وعلى وسعد بن مالك وابن مسعود ومعاذ وعمر بن عبد العزيز والقاسم بن محمد وعروة ابن الزبير وكثير غيرهم .

وقال ابن القيم فى زاد المعاد فى قصة خيبر : دليل على جواز المساقاة والمزارعة بجزء من الغلة من ثمر أو زرع فإن النبى صلى الله عليه وسلم عامل أهل خيبر على ذلك واستمر إلى حين وفاته ، ولم ينسخ البتة ، ودرج عليه الخلفاء الراشدون . اهـ .

وجملة القول أنه يجوز استغلال الأرض بكرائها بجزء من الخارج منها على الوجه الذى لا يفضى إلى المنازعة والتخاصم ، وهو قول الجمهور والقول المفتى به عند الحنفية والمختار عند الشافعية كما ذكره النووى خلافا لما ذهب إليه أبو حنيفة ومالك والشافعى من عدم جواز كرائها به استناداً إلى أحاديث النهى المطلقة ، وقد علمت أنها محمولة على مافيه شروط مفسدة .

على أنه قد روى عن زيد بن ثابت أنه قال : « يغفر الله لرافع إنا والله أعلم بالحديث منه . إنما أتى النبى عليه السلام رجلان من الأنصار قد اقتتلا فقال : إن كان هذا شأنكم فلا تكروا المزارع . اهـ .

ومقصوده كما فى سبل السلام : أن رافعاً اقتطع الحديث فروى النهى ولم يرو أوله فأخل بالمقصود . اهـ . =

للخائنين خصيما » ولهذا لم يقتصر عليه الصلاة السلام على مجرد العبادات أو الفصل

= أما تأجير الأرض بالذهب أو الفضة أو بما جرى به التعامل من النقود والأوراق المالية . فلا شك فى جوازه . ويقاس على ماذكر التأجير بغيره من سائر الأشياء المعلومة المتقومة كما فى سبل السلام ونيل الأوطار . ويدل عليه حديث حنظلة بن قيس السابق .

وعن ابن عباس قال : « إن أمثل ما أنتم صانعون أن تستأجروا الأرض البيضاء ليس فيها شجر من السنة إلى السنة » رواه البخارى .

وعن سعد بن أبى وقاص : أن أصحاب المزارع فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم كانوا يكرون مزارعهم بما يكون على السواقى وما سعد بالماء (ماجاء من الماء من غير طلب) مما حول النبت ، فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاختصموا فى بعض ذلك فنهاهم أن يكروا بذلك وقال : اكروا بالذهب والفضة (رواه أحمد وأبو داود والنسائى) .

وقال ابن المنذر : إن الصحابة أجمعوا على جواز كراء الأرض بالذهب والفضة . ونقل ابن بطال اتفاق فقهاء الأمصار عليه . وقد تبين من ذلك أنه يجوز استغلال الأرض المملوكة بطريق المزارعة المستوفية شرائط الصحة ، وهى نوع من التأجير وبطريق التأجير بالنقد وما يقاس عليه . ولاشك أن فى هذا رفقاً عظيما بالناس . فإن الملاك قد يعجزون عن العمل بأنفسهم فلا يستطيعون الانتفاع بأرضهم إلا بتأجيرها للغير ، والمستأجرون قد لا يملكون الأرض مع استطاعة الزراعة فلا يتيسر عيشهم إلا بالاستئجار من الملاك ، فرعاية للمصلحتين أجازت الشريعة استغلال الأرض بهاتين الطريقتين .

وكثيراً ما كان حظ المستأجر أوفر من حظ المالك وبخاصة إذا اتقى الله فى عمله وعزم على الوفاء بدينه وإعطاء المالك حقه فإن الله يعينه ويربحه ويبارك له فى رزقه .

فأما حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كانت له أرض فليزعها أو ليحرثها أخاه فإن أبى فليمسك أرضه — أخرجه البخارى ومسلم . فأصله ما رواه جابر رضى الله عنه قال « كنا نخابر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فنصيب من القصرى (القصرى كبشرى بقية الحب فى السنبل بعد الدياس) ومن كذا فقال رسول الله : من كانت له أرض فليزعها أو فليحرثها أخاه وإلا فليدعها — رواه مسلم وأحمد .

وفى رواية عنه : كنا فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم نأخذ الأرض بالثلث أو بالربع بالماذيانات فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك فقال : من كانت له أرض فليزرعها فإن لم يزرعوها فليمنحها أخاه فإن لم يمنحها أخاه فليمسكها . وما رواه رافع بن خديج عن عمه ظهير بن رافع قال ظهير : لقد نهانا رسول الله عن أمر كان بنا رافقاً قلت ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو حق قال : دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما تصنعون بحقولكم ؟ قلت نؤاجرها على الربيع يشترطون لأنفسهم ما ينبت على النهر وعلى الاوسق من التمر والشعير . قال عليه السلام لا تفعلوا ازرعوها أو ازرعوها أو امسكوها . قال رافع . قلت سمعاً وطاعة رواه مسلم .

وهذه الروايات يفسر بعضها بعضاً وتدل على أنه عليه السلام لما وجدهم فى المدينة يكرون الأرض بعقود مزارعة تشتمل على شروط فاسدة نهاهم عنها لإفضائها إلى التنازع والتقاتل كما صرح به فى حديث سعد بن أبى وقاص وحديث زيد بن ثابت وأرشدهم إلى ما ينبغى أن يفعلوه فى استغلال مزارعهم فقال مرة فى رواية سعد : اكروا بالذهب والفضة وهو جائز بالإجماع لأن الكراء بهما =

فى الأحوال الشخصية بل كان داعيا وواعظا وإماما وقدوة فى كل شىء ، وكان حاكما إداريا فى السلم وقائدا حربيا فى ساحة الحرب فوضع بتعاليمه القواعد الأساسية للتعامل والوسائل التى من شأنها أن تؤدى إلى حفظ الحقوق وتوفر الثقة بين الناس ونشر الوية السلم والطمأنينة فى العالم .

وقد جاء القرآن مليئا بالآيات التى توجب على كل فرد من الناس أن ينصف الآخر من نفسه وأن يصدقهم القول ولا يخلفهم الوعد وأن يحذرمن غشهم وخداعهم وأكل أموالهم بالباطل ، ولم يكتف بهذا بل أنه سن نظاما للدين والرهن والبيع والشراء بقوله : « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله

= وبما فى معناهما لامخاطرة فيه وقال مرة كما فى رواية ابن عباس: لأن يمنح أحدكم أخاه خير له من أن يأخذ عليها أجراً معلوماً . وفى رواية : من كانت له أرض فإنه إن يمنحها أخاه حير له . وهو صريح فى عدم إيجاب منح الأرض بدون أجر . وفى جواز أخذ الأجرة لأن الخيرية والأولوية ظاهرة فى الجواز . فيكون المراد مجرد استحباب المنح والترغيب فيه مواساة ورفقاً كما صرح به ابن عباس . وخيرهم مرة ثالثة بين هذا الأمر المستحب . وهو إعطاء الأرض منحة بدون أجر وبين أن يزرعوها بأنفسهم أو يتركوها بدون زرع . والأمر فى الثالثة للندب لا للوجوب بقرينة جواز تأجير الأرض بالذهب أو الفضة بالإجماع . وجواز تأجيرها بالنصف أو الثلث أو الربع على طريق المزارعة كما فعل الرسول فى أرض خيبر مستمراً على ذلك إلى وفاته وكما فعل أصحابه فى حياته وبعد وفاته كما سبق وقد انعقد الإجماع على عدم وجوب الإعارة بلا فرق بين المزارعة وغيرها فوجب حمل هذا الحديث على الاستحباب والندب كما أوضحه صاحب منتقى الأخبار .

على أن الإمام الصنعانى قال فى سبل السلام : بعد رواية حديث النهى عن المزارعة أنه كان فى أول الأمر لحاجة الناس و بون المهاجرين ليس لهم أرض فأمر الأنصار بالتكرم والمواساة ويدل عليه ما أخرجه مسلم من حديث جابر قال كان لرجال من الأنصار فضول أرض وكانوا يكرونها بالثلث والربع فقال النبى صلى الله عليه وسلم « من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه . فإن أبى فليمسكها » وهذا كما نهوا أول الأمر عن ادخار لحوم الأضاحى ليتصدقوا بها ثم بعد أن اتسع حال المسلمين زال الاحتياج فأبيح لهم المزارعة وتصرف المالك فى ملكه بما يشاء من إجارة وغيرها ويدل على ذلك ما وقع من المزارعة فى عهده صلى الله عليه وسلم وفى عهد الخلفاء من بعده ومن البعيد غفلتهم عن النهى وترك إشاعة رافع له فى هذه المدة وذكره فى آخر خلافة معاوية اهـ

وسواء أقلنا أن أحاديث النهى عن المزارعة إنما وردت فى المزارعة الفاسدة أم أن النهى عنها كان عاماً أول الأمر للحاجة ثم زال بزوال سببه فإن الذى استقر عليه الأمر فى حكم الشريعة الإسلامية أن المالك حر يتصرف فى ملكه بما يشاء من زرع ومزارعة وتأجير لاحجر عليه فى شىء ولا إيجاب . اهـ حسنين محمد مخلوف

فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا فإن كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى إلا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها واشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن لم تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم ، وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى أوتمن أمانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم[1] » ، « يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم[2] » ، « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم روس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون[3] » ووضع عليه الصلاة والسلام عدة تعليمات تفصيلية فيما يجوز بيعه ومالا يجوز بيعه وما يشترط توافره لصحة البيع من التعاقد والقبض وغير ذلك من حق الخيار وما يدعو إلى فسخ البيع ورد البيع وحق الجار والشريك فى الأخذ بالشفعة ، وشرع عليه الصلاة والسلام الكفالة والضمان والإجارة والوكالة والوديعة والوصية وبين ما ينبغى لها من أحكام .

وفصل عليه الصلاة والسلام طريقة التقاضى والإصغاء لأقوال الخصوم وسماع شهادة الشهود وتزكيتهم أو الطعن فيهم وبين الشروط التى يجب توافرها فى القضاة وما يجب أن يتحلوا به من النزاهة وقول الحق وعدم المحاباة أو التحيز إلى فريق دون آخر كما نهى المحامين عن إقامة الدعاوى الباطلة ووكل الناس إلى ذممهم حيث قال : « هاأنتم جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا[4] » وقال صلى الله عليه وسلم : « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور

---

(١) البقرة : ٢٨٤ .
(٢) البقرة : ٢٧٦ .
(٣) البقرة : ٢٧٨ .
(٤) النساء : ١٠٨ .

مشتبهة ؛ فمن ترك ماشبه عليه من الإثم كان لما استبان اترك ، ومن اجترأ على مايشك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان ، والمعاصى حمى الله من يرتع حول الحمى أوشك أن يواقعه » وقال أيضاً : « إنما أنا بشر وأنه يأتينى الخصم فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من نار فليأخذها أو فليتركها » وقال أيضاً : « اتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب » وحرم عليه الصلاة والسلام على الرجال التحلى بالذهب والفضة لما لهما من قيمة ذاتية تجعلهما خير واسطة لتقويم كافة السلع ومحل اعتبار دائم صالح للتعامل بين الناس فى جميع الأوقات ، وقد حرم على الناس اكتنازها وحبسها مما خلقا لأجله من قضاء مصالح العباد إذ لاغنى للناس عنهما .

وهانحن أولاء نرى العالم اليوم وقد اعتاض عنهما بالتعامل بالأوراق المالية نراه وقد أصبح تحت رحمة الرأسماليين وحكم البورصة ، وقد أصبحت ثروة الناس مهددة بالضياع بين عشية وضحاها متأثرة بسعر القطع وتبدل الحكومات .

العقوبات

إن من أهم دعائم الشريعة الإسلامية قيامها على أساس العدل المطلق فى المعاملات والمساواة الكاملة بين الناس فى الحقوق والواجبات ، وأن الجزاء الصارم الذى لايمكن أن يفلت منه أحد إنما يكون فى يوم القيامة من قبل الله العالم بالحقائق وما تخفى الصدور ؛ فمن واجب كل فرد أن يراقبه جل وعلا فى جميع الأحوال ، وأن يحاسب نفسه عليها قبل يوم الحساب ، ولأجل أن يتقى الإنسان عقوبة الله فى الآخرة جعل الله للإنسان من نفسه على نفسه رقيباً . ولأجل أن ينتقم له من خصمه فى الدنيا ويحط عنه عقوبة الآخرة جاءت الشريعة الإسلامية بأحكام صارمة وعقوبات رادعة من شأنها أن تحمل الناس على الطاعة وتصدهم عن العصيان وهى تتلخص فيما يأتى :

أولا : القصاص : وهو خير عقوبة رادعة لأنه جزاء من جنس العمل ؛ فمن علم بأن من قتل يقتل امتنع عن القتل وحفظت الأرواح من الاعتداء ، ولذا قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من

ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم . ولكم فى القصاص حياة ياأولى الألباب لعلكم تتقون[١] » ، « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ؛ فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون[٢] » وإنما يترتب هذا الحكم فى حال القتل العمد على أن يكون تنفيذ الحكم بيد صاحب الحق المطالب بالقصاص على ملأ من الناس ، وبشرط مراعاة واجب المماثلة وتجنب التعذيب أو التمثيل بالمقتص منه ، على أن الله قد خص على العفو والعدول عن القصاص إلى الدية ، أما القتل الخطأ فلا قصاص فيه وإنما كفارة حق الله العام هو عتق رقبة مؤمنة على أن يكون لأهل الميت الحق فى أخذ الدية إلا أن يصدقوا بها ويعفوا عن القاتل حيث قال تعالى : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما حكيما ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاءه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما[٣] » .

ثانياً : الإعدام لحق من حقوق الله :

ويطبق هذا الحكم فيمن يأتى :

١ — من تعمد ترك فروض الله جاحداً لها أو منكرا لما ورد فيها من الآيات .

٢ — من يأتى أحد محارمه .

٣ — من تتكرر منه جريمة اللواط .

٤ — المرتد عن إيمانه مالم يعلن توبته .

٥ — كل من يقوم بأعمال عدوانية يحارب بها الله ورسوله ويفسد فى الأرض ويشعل نار الفتنة بين المسلمين ، على أنه يجوز فى هذه الحالة إبدال الحكم بقطع اليد والرجل أو النفى من البلاد لقوله تعالى : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم[٤] » .

(١) البقرة : ١٧٨ .
(٢) المائدة : ٤٥ .
(٣) النساء : ٩٢ .
(٤) المائدة : ٣٣ .

ثالثاً : قطع اليد : وهو عقوبة على السرقة حيث يقول تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم ، فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم[1] » .

رابعاً : الجلد : وهو عقوبة تأديبية توقع على ملأ من الناس فيمن يأتى :

١ — الزانى والزانية يجلد كل واحد منهما مائة جلدة مالم يكن محصنا فإن جزاءه الرجم .

٢ — من يرمى أحداً بالإفك ولم يقدر على إثبات ماقال ويجلد ثمانين جلدة .

٣ — شارب المسكرات على أن يقدر ولى الأمر عدد الجلدات بشرط أن لايتجاوز قدرها مقدار جلدات الحدود المقررة وأن لايؤدى إلى الموت .

خامساً : التعزير : وهو عقوبة جزائية رادعة يقررها الحاكم برأيه على كل من يقدم على فعل أمر منهى عنه على أن الجلد فوق العشر لا يكون إلا فى حد من حدود الله .

سادساً : أعطى الإسلام للحاكم الحق فى الاجتهاد فى المسائل الإدارية والسياسية والحربية وجعله مسئولا عن ذلك ومؤاخذا على مايصدر منه من أحكام أمام الله بحسب مايعلمه تعالى من دخيلة أمره ونواياه .

سابعاً : جعل الله العقل مدار التكليف فلم يرتب شيئاً من العقوبات السابقة على المجانين ولا الأطفال حتى يبلغوا سن الرشد ، ولم يؤاخذ سبحانه وتعالى على حق من حقوقه المخطئ والناسى ومن استكره على أمر وقلبه غير راض به .

أما حقوق الأفراد فإنها مضمونة بالغرم وتسلسل التبعات حيث يضمن الوالى ماكان بأمره أو ناشئا عن تقصيره وكذلك يؤاخذ الآمر بالشىء أو المحرض عليه والداعى إليه أو المنفذ له إلى حد ما .

العدل والإحسان

لما كان الظلم من شيم النفوس البشرية وكان هو أساس البلاء وأعظم باعث على الشقاق والانتقام والتحاسد والعداء جاء الإسلام داعياً إلى استئصال بذوره من نفوس المؤمنين وموجبا عليهم مراعاة واجب العدل فى كل شئ ومع كل أحد ليتسنى بذلك

(١) المائدة : ٣٨ .

تحقيق مبدأ الاشتراكية الإسلامية وغرس روح المحبة بين الجميع فنبه الرسول صلى الله عليه وسلم الناس إلى أن العدل من خير العبادات عند الله حيث قال : « عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة » ذلك لأنه إذا اتخذ كل إنسان فى الوجود العدل مبدأه واقتلع من نفسه فكرة الظلم ارتاح وأراح وعم الأمن وساد الصفاء ولم تعد هناك حاجة إلى حكم القضاة .

من أجل هذا جاء القرآن مليئا بالآيات الداعية إلى العدل والمحببة فيه والمحذرة من الظلم وعواقبه فى الدنيا والآخرة بل إن لله جل وعلا لم يتخذ يوما للحساب والعقاب ولم يعد النار فى يوم القيامة إلا لمعاقبة الظالمين أنفسهم وأهليهم والناس أجمعين .

وقد أمر الله نبيه أن يعلن ما يريده منهم من أعمال صالحات كان فى مقدمتها العدل وكل ما عداه داخل ضمنه حيث قال : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاءذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون[1] » . وفضل الله للناس ما حرم عليهم وجميعه لم يخرج عن كونه أثرا من آثار ظلم الإنسان لنفسه بعدم إذعانه إلى الحق وجحوده لما عليه من حقوق لله والوالدين أو حرمان نفسه من بعض متعها أو تعريضها لما يضرها ويجلب عليها الويلات ، وظلم الإنسان لغيره بالاعتداء على حقوق الغير حيث قال تعالى « قل تعالوا اتلوا ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشدة وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون[2] » وقال أيضاً « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل أن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيرا[3] » .

وعرف الله سبحانه للناس معنى العدل وحضهم على ما هو أعظم درجة منه من

---

(١) النحل : ٩٠ .
(٢) الأنعام : ١٥١ — ١٥٣ .
(٣) النساء : ٥٨ .

التجاوز عن السيئات بالعفو والإحسان وأعرب عن مبلغ نقمته على الظالمين حيث قال : « وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفى وأصلح فاجره على الله أنه لا يحب الظالمين ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ماعليهم من سبيل إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم[١] » وتوعد سبحانه وتعالى الظالمين بأشد العذاب بقوله « ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً[٢] » وقوله « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون[٣] » وأخبرهم جل وعلا بما كان من نتيجة ظلم الناس إذ أهلكهم فى الدنيا عند ما تمادوا فيه وجعل من مهلكم عبرة لمن بعدهم حيث قال « ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزى القوم المجرمين ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون[٤] » وضرب الأمثال وأنذر الناس بقاعدة من قواعد سننه تعالى فى خلقه لينتبهوا لها ويعملوا فى الحياة على هديها وهى أن الخير يخص والشر يعم ، وأن عمل الظالمين قد يتجاوز شره وضرره إلى الغافلين الآمنين حيث قال : « واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب[٥] » وأخبرهم سبحانه بأن الظلم من السيئات التى لا يقرها عاقل ولا يناصرها مناصر ولا يقبل الله فيها شفاعة حيث قال : « وما للظالمين من نصير[٦] » وقال لنبيه نوح : « ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون[٧] » وأمر الله المؤمنين بالعدل مع كل أحد حتى أشد الناس خصومة وعداوة لهم حيث قال : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون[٨] » وتوعد المتجافين عن العدل فى الكيل والميزان بقوله : « ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين[٩] » .

وأمر بعدم كتمان الشهادة أو التزوير فيها بقوله : « ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ، والله بما تعملون عليم[١٠] » واعتبر شهادة الزور من أكبر

(١) الشورى : ٤ — ٤٢ .
(٢) الفرقان : ١٩ .
(٣) الشعراء : ٢٢٧ .
(٤) يونس : ١٣ — ١٤ .
(٥) الأنفال : ٢٥ .
(٦) الحج : ٧١ .
(٧) هود : ٣٧ .
(٨) المائدة : ٨ .
(٩) المطففين : ١ — ٦ .
(١٠) البقرة : ٢٨٤ .

الكبائر ، وقرنها بالشرك بالله حيث قال : فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور[١] » وامتدح سبحانه الذين سمت نفوسهم عن شهادة الزور والاصغاء إلى لغو الكلام وأدخلهم فى عداد ملازمى الطاعات إذ يقول : « والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما[٢] » وجعل الله اعتراف الإنسان بظلمه سبيلا لنجاته من عذابه وشموله بالرحمة والغفران إذ يقول حكاية عن موسى عندما أقدم على قتل رجل من أعدائه انتصاراً لآخر من شيعته : « قال ربى إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم . قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيراً للمجرمين[٣] » ولا غرو فقد كان الاعتراف بالجرم أول سنة سنها آدم وحواء فى الجنة عندما أقدما على عصيان الله حيث قالا : « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين[٤] » وكان جوابهما على ذلك الغفران .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن عبداً أصاب ذنباً فقال : رب أذنبت فاغفر لى فقال ربه : علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، غفرت لعبدى . ثم مكث ماشاء الله ثم أصاب ذنباً فقال : رب أذنبت آخر فاغفر لى ، قال : علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، غفرت لعبدى . ثم أصاب ذنباً فقال : رب أذنبت آخر فاغفر لى قال : علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، قد غفرت لعبدى فليفعل ما شاء » .

ولقد بلغ من حب المسلمين فى الصدر الأول لغفران الله وخوفهم من عقابه لهم أن كانوا يحرصون على الجهر بالحق والاعتراف بالجرم مهما صادفهم فى سبيل ذلك من ضرر ، بل لايعبئون بعذاب الجسم فى الدنيا ويتقدمون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلبون منه إقامة الحد فى الدنيا إذا ما ارتكبوا جريمة الزنا ليتأكدوا من غفران الله لهم والنجاة من العذاب يوم القيامة . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم إذا ما قضى فى أمر بشىء بحسب الظاهر يحيلهم إلى مراجعة ضمائرهم وخوف عذاب الله فى الباطن ليجعل لهم من أنفسهم رقيباً عليهم فيتحروا العدل ويمتنعوا عن الظلم من تلقاء أنفسهم ، وأمر الله سبحانه وتعالى بالعدل بين الزوجات والعدل بين الأبناء فى كل شىء حتى فى أمر الوصية حيث نهى عن الحيف فيها وجعل لكل نوع من

---

(١) الحج : ٣٠ .
(٢) الفرقان : ٧٢ .
(٣) القصص : ١٧ .
(٤) الأعراف : ٢٢ .

أنواع التعامل أحكاماً خاصة به تبين للناس أوجه الحق والصواب وما يقتضيه واجب العدل فيها كالبايعات والمداينات والرهون والكفالة والضمانة وطرق التقاضي والدعاوى والبينات وأحكام القضاة وشهادة الشهود والمحامين والمشاكل القضائية إلى غير ذلك من الفروع التي فصلتها كتب الفقه .

وبلغ من حرص النبي صلى الله عليه وسلم على إقامة العدل والخوف من الله أن جاءه يهودي يوما وأخذ بتلابيبه وهو يطالبه بدين له عليه وقال : إنكم لمطل آل عبد المطلب ، فهم عمر بسيفه ليضربه على هذه الجرأة فقال له الرسول : « مه عمر ! فإني كنت أحوج ما يكون إلى غير هذا منك أن تأمرني بحسن الأداء وتأمره بحسن الطلب » ثم قال : « إن لصاحب الحق مقالا »

وكان عليه الصلاة والسلام يسوي صفوف جنده في يوم بدر ، فدق بطن رجل كان مقدما عن الصف فقال الرجل : لقد أوجعتني فانصفني فقال الرسول : دونك بطني فاقتص مني ، فأبى وقبل بطنه وصار يقول : اليوم أفدي المصطفى بحياتي ، وعكاشة قد رام يوماً أن يرى ما فوق كاهل الرسول صلى الله عليه وسلم من شامة فاحتال على ذلك بأن قال للنبي صلى الله عليه وسلم أنت ضربتني من غير حق في ظهري منذ زمن حتى كدت تدميني ، وإني أريد أن تكشف لي عن ظهرك لأقتص منك ، فقال الرسول : إني لا أذكر هذا ومع ذلك فهاك ظهري فاقتص كما تشاء وكشف له عن ظهره فأنكب عكاشة يقبل تلك الشامة ويكبر الله ويقول لقد ظفرت بأمنيتي وهو يردد قول الله تعالى « وإنك لعلى خلق عظيم » وبمثل هذا أقام صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى للعدل بين الناس وربى صحبه على التقوى وخوف الله والتمسك بهذا العدل وإنصاف المؤمن الناس من نفسه قبل أن ينصفه من غيره .

ولقد بين الله مزايا العدل والأمر به حيث قال « وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم[1] » .

وأشار سبحانه إلى ما للاعتراف بالذنب من مزية عظمى عنده سبحانه وتعالى

---

(١) النحل : ٧٦ .

بما وعد العاصين اللاجئين إليه بطلب الغفران بشمولهم بغفرانه حيث قال : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون[1] » وبلغ من فرط رحمته تعالى بعباده وحبه للغفران أن قال صلى الله عليه وسلم « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » وقال أيضا : « والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا وتستغفروا لذهب الله بكم وأتى بقوم غيركم يذنبون فيستغفرون فيغفر الله لهم » ومما قلت فى هذا :

يا من وسعت برحمة كل الورى ... إنا أحوج الأشياء للرحمات
أنت الرحيم وهل يريد مراحما ... إلا ضعيف خائر القوات
أنت العفو وهل لعفوك موضع ... غير العصاة ودائمى العثرات
بك قط لم أشرك فكل إساءة ... لى رهن عفوك غافر الزلات
وذنوبنا مهما علت وتكاثرت ... فى جنب عفوك ذرة الذرات
سبحانك اللهم لولا جرمنا ... ما كان للغفران من ثمرات
فمُنَّ يا منان منك بنظرة ... لا تبق لى نظراً إلى الفتنات

نظام الحكم

حقاً لقد خلق الله الناس متساوين فى الحقوق والواجبات وإن كانوا مختلفين فى الطبائع والصفات ورفع بعضهم فوق بعض درجات بحسب ما يقدمونه من عمل وما يضمرونه من نيات .

غير أن رفع الدرجات عند الله ليس معناه تجاوز العبد الذى رفعت درجته حدود العبودية أو تساميه عن أقرانه فى الإنسانية . ولذا قال صلى الله عليه وسلم : « لا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى » وحتى هذه التقوى التى ينال بها الإنسان التفضيل عند الله لا تسوغ له الاستبداد فى الحكم والتسلط على رقاب العباد أو الشعور بالعظمة والكبرياء عليهم بشىء من الأشياء حيث يقول تعالى لنبيه وأفضل

(١) الزمر : ٥٤ .

عباده من القرآن الكريم : « ولا تقف ما ليس لك به علم أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها[١] » ولكل فرد من المجتمع الإنسانى فضيلة يشترك بها مع أخيه فى التعاون للصالح العام فللعامل فضيلة مجهوده الفعلى كما أن للمفكر فضيلة اختراعه وانتاج فكره ، وللجندى فى ساحة الوغى فضيلة المقارعة بالسيف ، كما للكاتب فضيلة الذب عن الوطن بالقلم ، ولقد انفرد الله جل وعلا له بفضيلة الحكم فى كل شىء فهو الخالق لجميع العوالم وهو الحاكم الوحيد النافذ أمره فى سمائه وأرضه « إن الحكم إلا الله[٢] » ، « لا إله إلا هو كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون[٣] » ومن شأن الحاكم المطلق أن يكون مستبدا فى أحكامه حرا فى تصرفاته يعذب من يريد وكيف شاء وليس لأحد حق الاعتراض عليه .

ولكن الله جل وعلا القادر على كل شىء والمتصف بصفة العدل الكامل أبى إلا أن يحكم عباده بحكم دستورى بكل معنى الكلمة فأعلن العالم بما قضت به مشيته من نظام قضائه وقدره وأنزل الكتب للناس تبيانا لكل شىء وأرسل الرسل مبلغين للناس هذه المنحة الإلهية وأنه لا سلطان لأحد على أحد ولا حكم إلا لما جاء من عند الله أحكم الحاكمين حيث يقول تعالى : « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما احتفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل فأولئك هم الكافرون ، وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ، وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين ، وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون[٤] » وأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالحكم بين الناس بمقتضى ذلك الدستور الإلهى وما أنزل عليه من الآيات

---

(١) الإسراء : ٣٦ — ٣٨ .
(٢) يوسف : ٦٧ .
(٣) القصص : ٨٨ .
(٤) المائدة : ٤٤ — ٤٧ .

البينات وهى القرآن حيث قال تعالى « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق[٥] » وحذر الله ورسوله عن العدول عن شيء من تلك الأحكام الإلهية مجاراة لبعض الناس الذين يقيمون الحجج والبراهين من زخرف القول على أن هناك من الأحكام ما هو أفضل من أحكام الله التى لا تتفق مع روح العصر فهذا من الغش الذى يتذرع بها قصار النظر وإلا فكيف يعقل أن يكون علم المخلوق بما هو أصلح للناس أفضل من علم الله خالقهم وحاكمهم فى حاضرهم ومستقبلهم. ولهذا قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : « وإن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون[١] » وأقام سبحانه وتعالى شاهداً على فساد الحكم الفردى أو الاستبداد بالرأى بما كان عليه الناس فى الماضى القريب من حكم العرب قبل الإسلام حيث الفوضى الضاربة أطنابها وتسيطر الجهل على العلم واستقلال كل برأيه واعتزازه بقومه وعشيرته وكثرة العدوان ووأد البنات إلى غير ذلك مما ذاقوا وباله واكتووا بناره إذ يقول تعالى « أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون[٢] » فمن صدق بأن هذا القرآن من عند الله فلا يمكن أن يتردد فى أنه واجب الطاعة وأنه خير دستور فيه صلاح الناس فى حياتهم الدنيا والآخرة.

ولقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالخضوع لأوامر الله وتلقيها من القرآن ورسم السبيل إلى ذلك بقوله « عليكم بهذا القرآن فإنه مأدبة الله فمن استطاع منكم أن يأخذ مأدبة الله فليفعل فإنما العلم بالتعلم » وقوله « اعملو بالقرآن وأحلوا حلاله وحرموا حرامه واقتدوا به ولا تكفروا بشيء منه وما تشابه عليكم فردوه إلى الله وإلى أولى الأمر منكم من بعدى كما يخبركم به وآمنوا بالتوراة والإنجيل والزبور وما أوتى النبيون » ومن هذا يعلم أن الإسلام لا يقر حكم الفرد الظالم ويأبى الاستبداد ويأمر بالاحتكام إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله حيث يقول صلى الله عليه وسلم « تركت

---

(١) المائدة : ٤٨ .
(٢) المائدة : ٤٩ .
(٣) المائدة : ٥٠ .

فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم » وقوله « أحسن الحديث كتاب الله وأحسن الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها وإن كل ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين » ولأجل هذا حصر الله مهمة الحكام فى الحياة فى تنفيذ أوامر الله ومراعاة واجب العدل بين الناس وأمر المؤمنين بطاعتهم ما أطاعو الله والرجوع إليهم فيما تشابه عليهم من كتاب الله إذ المفروض فيهم أن يكونوا من أعلم الناس وأتقاهم وأصلحهم للرياسة وسياسة البلاد ولا عبرة فى هذه الحالة أن يكونوا من كبار القوم أو من عامة الشعب حيث يقول صلى الله عليه وسلم فى مرض موته « أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبداً حبشيا فإنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » ومعنى محدثات الأمور أى الأحكام التشريعية الزائدة عما جاء بها الرسول وجرى عليها خلفاؤه إذا لم يشهد لها أصل شرعى كما يشير إلى ذلك رسول الله بقوله « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهورد » وقوله « ما ابتدع قوم بدعة فى دينهم إلا نزع الله من سنتهم مثلها ثم لا يعيدها إليهم إلى يوم القيامة » حتى أنه عليه الصلاة والسلام لم يرض من الناس المبالغة فى العبادة إذ علم أن من الناس من يقوم الليل كله ومنهم من يصوم الدهر ومنهم من يعتزل النساء فجمعهم وقال : « أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ولكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء من رغب عن سنتى فليس منى » ورخص الرسول يوما فى شىء فتنزه عنه قوم فبلغه ذلك فخطب فقال ما بال أقوام يتنزهون عن الشىء أصنعه فوالله أنى لاعلمهم بالله وأشدهم له خشية ، وليس من محدثات الأمور ما يخترعه المخترعون من وسائل الإصلاح وتسهيل سبل العيش الهنى وأنواع الزينة والمتاع فكل ذلك وأمثاله من الأمور التى دعا إليها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : « من سن سنة خير فاتبع عليها فله أجره ومثل أجور من اتبعه غير منقوص من أجورهم شىء ومن سن سنة شر فاتبع عليها كان عليه وزره ومثل أوزار من اتبعه غير منقوص من وزارهم شىء » .

والله سبحانه وتعالى إذ يأمر الناس بطاعة أولى الأمر والرجوع إليهم فيما لم ينص عنه صراحة أو فيما تذر فهمه من كتاب الله لم يطلق لهم الحرية فى الحكم بما يرونه

بل أوجب عليهم مشاورة ذوى الرأى والعلماء كل فى دائرة اختصاصة ومعلوماته حيث يقول تعالى : « فسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون[١] » ، وصرح القرآن بأن النظام الإسلامى قائم على أساس الشورى فيقول : « وأمرهم شورى بينهم[٢] » بل إن الله جل وعلا ليعلم رسوله بما ينبغى أن يكون عليه من الصفات التى يجب توفرها فى كل من يعهد إليه بأمر الولاية العامة والحكم بين الناس إذ يقول : « فبما رحمة من الله لِنْتَ لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين[٣] » . ومعنى هذا أن الله تعالى يخبر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن الرحمة من أهم الصفات التى تؤهل صاحبها للحكم وتجعله يملك بها قلوب الرعية ولولاها لنفروا منه وانفضوا من حوله فيجب أن يتسامح معهم ولا يعاملهم بالقسوة والغطرسة أو يستبد بالأمر من دونهم بل عليه أن يشاور ذوى الرأى والعلم منهم فى كافة شئون الأمة فى الحرب والسلم وأن لا يتخذ من سوء تصرفهم سبيلا إلى عدم الاعتداد برأيهم فزلة الإنسان لا تكون دليلا على فساد رأيه وحسن مشورته فإذا ما عرضت عليه الآراء ووضحت المسائل فمن واجب الحاكم أن يكون حازما وصارما فى تنفيذ ما يراه أصوب الآراء وأحكم الخطط وأن يراقب الله فيما يصدره من الأحكام فقد قال صلى الله عليه وسلم : « صنفان من أمتى إذا اصلحا صلح الناس الأمراء والعلماء وقال كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالإمام الذى على الناس راع وهو مسئول عنهم » وروى عنه قوله : « يوم من إمام عادل أفضل من مطر أربعين صباحا أحوج ما تكون الأرض إليه » ، وفى الصحيحين أن سبعة يظلهم الله فى ظله يوم القيامة وذكر منهم الإمام العادل وقال صلى الله عليه وسلم : « المقسطون يوم القيامة عند الله عز وجل على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا » ، وقال أيضا : « ما من رجل يلى أمر عشرة فما فوق ذلك إلا أتى الله عز وجل يوم القيامة يده مغلولة إلى فكه بره وأوثقه اثمه أولها ملامه وأوسطها ندامه وآخرها خزى يوم القيامة » ، ولقد عمل الصحابة رضى الله عنهم بكل هذا فخافوا الله وحكموا بالشورى وطلبوا

---

(١) الأنبياء : ٧ .
(٢) الشورى : ٣٨ .
(٣) آل عمران : ١٦٠ .

الناس أن ينصحوهم حتى أن عمر بن الخطاب لما يوبع بالخلافة خطب فى الناس فقال أطيعونى ما أطعت الله فإن حدت عن ذلك فلا طاعة لى عليكم فقام إليه أحد الحاضرين وقال والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا فقال عمر الحمد لله الذى أوجد من المسلمين من يقوم إعجاج عمر بسيفه ، وقال كعب لعمر بن الخطاب ويل لسلطان الأرض من سلطان السماء فقالى عمر الآن حاسب نفسه فقال كعب والذى نفسى بيده إنها لكذلك إلا من حاسب نفسه ، ولم يغير الله حال المسلمين وما كانوا عليه من عز وسؤدد إلا عند ما انحرفوا عن هذا السبيل وتركوا العمل بكتاب الله واستبدوا بالحكم وأهملوا الشورى بل لم يفسد حال الناس فى العالم أجمع إلا بما أحدثه الغربيون من قولهم بأن الأمة مصدر السلطات وأن الملك يسود ولا يحكم فى حين أن السيادة لله والحكم لا يكون إلا لذى سلطان والحاكم بأمر الله هو خليفة الرسول فى تنفيذ دستوره .

أما من لا يكون لديه نفوذ أو سلطان فلا معنى لأن يطلق عليه اسم الملك والأمة تابعة وهى محل الطاعة فمن أين لها أن تكون مصدر السلطات ، ولعمرى أن احتكام الناس فيما بينهم للرأى وحكم الأغلبية لمخالف للشرع أو هو معطل حق الأمة مظهر الشركة وما هو إلا وسيلة لانقسام الآراء وتحزب الأحزاب ، ولا شك أن تغير الربابنة فى سير المراكب مما يعرضها للغرق عند تنازع السلطة كما أن تضارب الأفكار حول مشروع نافع مما يعرضه للضياع عند سنوح الفرص ، وتواكل الأفراد والهيآت على بعضها مما يدعو إلى تقصير الجميع ، وإذا خلت الحكومة من رأس حكيم حازم ضاعت مصالح الناس وسهل الاعتداء على الحقوق ، ومن المأثور عن الخلفاء فى صدر الإسلام رضوان الله عنهم أجمعين فى هذا الباب قول أبى بكر الصديق (لا يصلح الأمر إلا شدة فى غير عنف ولين فى غير ضعف) وقول عمر بن الخطاب (لا يقيم أمر الناس إلا امرؤ بعيد الغور لا يطلع الناس منه على عورة ولا يخاف فى الله لومة لائم) وقوله أيضا (لا يقيم أمر الله فى الناس إلا رجل يتكلم بلسانه كلمة يخاف الله فى الناس ولا يخاف الناس فى الله) وقول على بن أبى طالب فى أول كتاب كتبه أما بعد فإنه أهلك من كان قبلكم أنهم منعوا الحق حتى اشترى وبسطوا الجور حتى افتدى) وقوله أيضا الملك والدين أخوان لاغنى لأحدهما عن الآخر فالدين أسس الملك والملك حارس فما لم يكن له أسس فمهدوم وما لم يكن له حارس فضائع) ، وقال

أبو بكر الصديق أيضا : (من الملوك من إذا ملك زهد فيما فى يده ورغب فيما فى يد غيره واشرب قلبه الإشفاق على من عنده فهو يحسد على القليل ويسخط على الكثير) ولما أراد عمرو بن العاص السفر إلى مصر قال لمعاوية يا أمير المؤمنين إنى أريد أن أوصيك فقال أجل أوصنى قال انتظر فاقة الأحرار فاعمل فى سدها وطغيان السفلة فاعمل فى قمعها واشتوحش من الكريم الجائع واللئيم الشبعان فإنما يصول الكريم إذا جاع واللئيم إذا شبع) وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أحد عماله يقول : « حصن مدينتك بالعدل ونق طرقها من المظالم » وطلب عمر بن عبد العزيز من محمد بن كعب القرظى النصيحة فقال له : « كن لصغير الناس أبا ولكبيرهم ابنا وللمثل منهم أخا وللنساء كذلك وعاقب الناس بقدر ذنوبهم على قدر احتمالهم ولا تضربن لغضبك سوطا واحدا فتكون من العادين » ومن أقوال بعض حكماء المسلمين فى السلطان « إذا رغب الملك عن العدل رغبت الرعية عن الطاعة ، ولا صلاح للخاصة مع فساد العامة ، ولا نظام للدهماء مع دولة الطغيان ، الملك عقيم ، والملك يبقى على الكفر ولا يبقى الظلم ، سكر السلطان أشد من سكر الشراب وقد قلت فى الأحكام الإلهية والقوانين الوضعية بعض إثبات أثبتها فيما يأتى .

الأحكام الإلهية

ولقد توخى فى الكتاب العدل بـ ـين الناس والتغليب للرحمات
وصرامة الأحكام والتنفيذ مع أمر التساوى دون ما ميزات
ودعاهم أن ينصفوا من نفسهم ويراقبوا المولى العلى الذات
فى كل ما يأتون من عمل وما يرجون من أجر على الحسنات
ولقد أشار إلى العقوبات التى لابد منها ساعة الزلات
وإلى الثبوت وما يعد وسائلا للحكم عند الخلف والإثبات
وأبى على القاضى القضاء بعلمه وعليه درء الحد بالشبهات
وأبى التجسس أو تتبع ما عليـ ـه الناس فى سر من العورات
ليخيفهم مما وراء الحد فى الدنـ ـيا من الأهوال فى الميقات

وبما هنا لك من عذاب دائم يشوى الجلود ويحرق الجبهات
وبذاك خاف المؤمنون وجانبوا الآ ثام وانصرفوا إلى الطاعات
حتى لقد كان الجناة يسلمو ن نفوسهم طوعا بلا خشيات
لولى أمر كى ينفذ حكمه فيهم كأمر الله على الذات
فى هذه الدنيا اتقاء النار فى الأ خرى مع الإخلاص والتوبات
وبمثل ذا ساد الأمان وقد تلا شى الظلم بين الناس بالعادات
والكل قد وضع النظام أمام نا ظره وطبقه مع الرهبات
فى نفسه ومع العباد ورام عف و الله والرضوان والجنات

القوانين الوضعية

أما الذى قد سن من نظم تخا لف شرعنا وتعارض الآيات
من وضع جمع قد يكونوا مخطئي ن الرأى أو هم قاصرو النظرات
مما توهم أن فى تنفيذه إصلاح أمر الناس والنيات
أو أنه كاف لمنع الشر أو هو رادع عن منكر الفعلات
فضلاله وقصوره باد لكل مفكر قد أمعن الفكرات
فالناس مهما دبروا أو قرروا لا يدركون حقائق الخيرات
ووسائل الإصلاح أم كيف السبيل إلى النجاح بأقرب الطرقات
وإذا فرضنا أنهم علموا فكي ف تطبق الأحكام بالدقات
بين الأنام وكلها محصورة فى ظاهر الأعمال والكلمات
أما الخفاء وما يدبر فيه من أمر يخالف مقتضى المادات
فلسوف يفلت من قضائهم وكـ ـل الشر منبعث من الخفيات
أنى لهم برقابة كرقابة المـ ـولى على الإنسان فى الخلوات
وعقوبة كعقوبة الخلاق ينذرهم بها من بعد فقد حيات
فتخيفهم ويحاذرون الله خا لقهم ومنزل تلكم الآيات
فيطبقون الأمر فيما بينهم ويجانبون الإثم والحرمات

ويلاحظون العدل فى كل الأمـ ... ـور فيلفظون الظـلم لفظ نواة
ومتى استقام الناس أو هم أنصفوا ... لم يبق من معنى لحـكم قضاة
أفبعد هـذا نؤثر الأحكام من ... وضع الورى عن وضع عالى الذات
ونريد إصـلاحا ولم نرجع لحـ ... ـكم الهنـا طوعا بلا أنفات
ونبينا أوصى وأخبرنا بأن ... صلاحنا فى مقبـل الأوقات
لا يرتجى إلا بمـا قد أصلح الأ ... سلاف فى الماضى من السنوات

شريعة الإسلام

لئن أرسل الرسل من عند الله بشرائع خاصة إلى أمم متعددة بحسب ماتقتضيه أحوالها فى تلك العصور الغابرة ، فلقد أرسل الله محمد بن عبد الله إلى كافة الأمم « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم أصرهم والأغلال التى كانت عليهم[1] » . ومن أجل هذا عنيت الشريعة الإسلامية بسائر شئون الناس فى الحياة الدنيا ، وأصدرت أحكامها فى كل شىء بما يصلح حال المجتمع وينفع الإنسان ويمنع عنه الضر والأذى ، وجعلت من اتباعه لتلك الأحكام عبادة يؤجر عليها ومن مخالفتها معاصىَ يؤاخذ عليها فى الدنيا والآخرة ، بل إن ما نسميه بالعبادات من الصـلاة والصيام وما إليها لم تـكن فى الواقع إلا وسائل لتهذيب النفوس وترويضها على عمل الخير باتباع أوامر الله .

وقد جاءت الشريعة الإسلامية بتعاليم سمحة واضحة لا خفاء فيها ولا تعقيد ، تتمشى مع العقل والمنطق ، ولايتردد فى قبولها كل ذى ذوق سليم ، إذ أنها تحل للناس كل شىء طيب ولا تحرم عليهم إلا ما كان مضراً بالنفس أو الجسم أو العقل أو المال أو العرض سواء كان ذلك خاصاً بذات الشخص أم بغيره من الأفراد والجماعات حيث يقول تعالى : «يسألونك ماذا أحل لهم ؟ قل أحل لـكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الـكتاب حل لـكم وطعامكم حل لهم[2] » ، « قل لاأجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل

(١) الأعراف : ١٥٧ .
(٢) المائدة : ٥ .

لغير الله به[١] » ، « قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لانكلف نفساً إلاوسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ، وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون[٢] » .

ولم يجعل الله لأحد من خلقه حق تحريم شىء لم يحرمه أو استحلال شىء مما حرم حيث قال : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين ، وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون[٣] » بل وأمر الله الإنسان بالأخذ بوسائل الزينة وما يجمله بين الناس ويدفع عنه ما يشينه ويقبح منظره ، خصوصاً فى المجتمعات العامة حيث قال : « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولاتسرفوا ، إنه لايحب المسرفين[٤] » .

واشتد سبحانه وتعالى فى الغضب على من يجرأ على تحريم متع الحياة على نفسه حيث قال : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون[٥] » وروى أبو داود عن أبى الأحوص عن أبيه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثوب دون ، فقال ألك مال ؟ قلت نعم ، قال أى المال ؟ قال قد أتانى الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق ، قال فإذا آتاك الله أظهر أثر نعمة الله عليك وكرامته » وأخرج الترمذى قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » ولبس ابن العباس مرة حلة من أحسن حلل اليمن ، فقال الناس : أتلبس مثل هذه الثياب وأنت ابن عباس ؟ فقال ما تعيبون على لقد رأيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن مايكون من الحلل ، وفى رواية قوله : « إن أول ماخاصمكم الله به قوله :

---

(١) الأنعام : ١٤٥ .
(٢) الأنعام : ١٥١ .
(٣) المائدة : ٨٧ .
(٤) الأعراف ٣١ .
(٥) الأعراف : ٣٢ .

« قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده » « وخذوا زينتكم عند كل مسجد » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس فى العيدين بردى حبرة .

ولأجل أن لا يلتبس على الناس الحلال من الحرام نتيجة عدم إدراكهم حقيقة النافع أو الضار حصر الله ماحرم من الأعمال الضارة التى لا تباح بحال من الأحوال فى خمسة أنواع حيث قال : « قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها ومابطن والإثم والبغى بغير الحق وإن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وإن تقولوا على الله مالا تعلمون[1] » وفصل ذلك بقوله : « إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون[2] » « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأ كبيرا ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا . ولا تقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا . ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا كل ذلك كان سيئة عندربك مكروها[3] » ، « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ماقد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نساءكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نساءكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ماقد سلف إن الله كان غفوراً رحيما[4] » .

وتؤخذ جميع الأحكام الشرعية من أوامر الله التى ورد بها نص صريح فى القرآن أو بينها الرسول عليه الصلاة والسلام بسنته أو بطريق إجماع علماء المسلمين أو باستنباط

---

(١) الأعراف : ٣٣ .
(٢) النحل : ١١٥ .
(٣) الإسراء : ٣١ .
(٤) النساء : ٢٢ .

الفقها المجتهدين فى جميع الأوقات من دلائل نصوص الكتاب والسنة وقواعد الشريعة ومقاصدها ، ولتبويب هذه الأحكام وتفصيلها قسمها علماء المسلمين إلى ستة أقسام :

١ — العبادات : وهى المسائل التى تتعلق بما بين العبد وربه من صلاة وصيام وزكاة وحج إلى بيت الله الحرام .

٢ — الأحوال الشخصية : وهى المسائل المتعلقة بالأسرة من نكاح وطلاق ونسب ونفقة وما إلى ذلك .

٣ — المعاملات : وهى المسائل المتعلقة بتعامل الناس بعضهم مع بعض فى الأموال والحقوق وفصل المنازعات .

٤ — العقوبات : وهى المسائل المتعلقة بضبط النظام الداخلى وإيقاع الجزاء بالمجرمين أو المخالفين لأوامر الله .

٥ — الجهاد : وهى المسائل التى تتعلق بسيادة الأمة وضمان استقلالها وحريتها وحفظ كرامتها والدفاع عن حوزتها .

٦ — الآداب : وهى المسائل التى تتعلق بتقويم الأخلاق والتمسك بالفضيلة ، وبهذا لم يفرق الإسلام بين الدنيا والدين بل جاء نظاما روحيا ومدنيا فى وقت واحد .

ولقد استخلص العارفون بأصول الدين من أحكام الرسول وأعماله عدة نظريات فقهية تعتبر أساساً لمبانى الأحكام وذلك كفكرة الملكية وأسبابها وفكرة العقد ونتائجه وفكرة الأهليات ومراحلها وعوارضها وفكرة البطلان . وفكرة النيابة وأقسامها وفكرة البطلان والفساد والتوقف وفكرة التعليق والتقييد والإضافة فى التصرف القولى وفكرة الضمان وأسبابه وأنواعه وفكرة العرف وسلطانه على الالتزامات إلى غير ذلك من النظريات الكبرى التى يقوم على أساسها صرح الفقه بكامله ويصادف الإنسان أثر سلطانه فى حلول جميع المسائل والحوادث الفقهية ، وقد أصدر فضيلة الأستاذ الجليل مصطفى أحمد الزرقاء أستاذ الحقوق المدنية والشريعة الإسلامية فى كلية الحقوق بدمشق كتاباً عظيما سماه (الفقه الإسلامى فى ثوبه الجديد) كما دون الفقهاء لهذه الشريعة جملة قواعد مكونة من أصول ومبادئ كلية فى نصوص

موجزة تتضمن أحكاما وضوابط فقهية عامة تصور الفكرة الفقهية المبدئية التى تعبر عن المنهاج القياسى العام فى حلول القضايا وترتيب أحكامها .

وفى مقدمة هذه القواعد ما سماها الشافعى بالقواعد الخمس[1] وهى .

١ — الأمور بمقاصدها .

٢ — الضرر يزال .

٣ — العادة محكمة .

٤ — اليقين لايزول بالشك .

٥ — المشقة تجلب التيسير .

وقد أوصلها الأستاذ الزرقا فى كتابه سالف الذكر إلى أربعين قاعدة أساسية بحسب موضوعاتها وألحق بها تسعاً وخمسين قاعده متفرعة عنها مع شرح مستفيض وأمثلة واضحة لها . يحسن بكل راغب أن يرجع إليها ؛ فقد أعيد طبعه للمرة الثالثة فى دمشق الشام سنة ١٣٧١ — ١٩٥٢ .

ونحن إتماماً للفائدة نلخصها فيما يلى :

القاعدة الأولى : الأمور بمقاصدها ويتفرع عنها من القواعد .

(ا) العبرة فى العقود بالمقاصد والمعانى لا للألفاظ والمبانى .

القاعدة الثانية : اليقين لايزول بالشك ويتفرع عنها من القواعد .

(ا) الأصل بقاء ما كان على ما كان .

(ب) ماثبت بزمان يحكم ببقائه مالم يوجد دليل على خلافه .

(ج) الأصل فى الأمور العارضة العدم .

(د) الأصل براءة الذمة .

(هـ) الأصل إضافة الحادث إلى أقرب أوقاته .

(و) لاعبرة للدلالة فى مقابلة الصريح .

(ز) لا ينسب إلى ساكت قول ولكن السكوت فى معرض الحاجة إلى البيان بيان .

(ح) لاعبرة للتوهم .

---

(١) راجع الأشباه والنظائر لابن نجيم الحنفى . وللسيوطى الشافعى ا هـ مخلوف .

(ط) لاحجة مع الأحتمال الناشىء عن دليل .

(ى) لاعبرة بالظن البين خطؤه .

(ك) الممتنع عادة كالممتنع حقيقة .

القاعدة الثالثة : (لا ضرر ولا ضرار) ويتفرع عنها من القواعد :

(ا) الضرر يدفع بقدر الإمكان .

(ب) الضرر يزال .

(ح) الضرر لا يزال بمثله .

(د) الضرر الأشد يدفع بالضرر الأخف .

(ه) يختار أهون الشرين .

(و) إذا تعارض مفسدتان روعى أعظمهما ضرراً بارتكاب أخفهما .

(ز) يتحمل الضرر الخاص لدفع ضرر عام

(ح) درء المفاسد أولى من جلب المنافع .

(ط) إذا تعارض المانع والمقتضى يقدم المانع .

(ى) القديم يترك على قدمه .

(ك) الضرر لا يكون قديما .

القاعدة الرابعة : المشقة تجلب التيسر . ويتفرع عنها من القواعد :

(ا) إذا ضاق الأمر اتسع .

(ب) الضرورات تبيح المحظورات .

(ج) الضرورات تقدر بقدرها .

(د) الاضطرار لا يبطل حق الغير .

(ه) الحاجة تنزل منزلة الضرورة عامة كانت أو خاصة .

القاعدة الخامسة : العادة محكمة . وينفرع عنها من القواعد .

(ا) استعمال الناس حجة يجب العمل بها .

(ب) إنما تعتبر العادة إذا اطردت أو غلبت .

(ج) العبرة للغالب الشائع لا للنادر .

(د) الحقيقة تشترك بدلالة العادة .

(هـ) الكتاب كالخطاب .

(و) الإشارة المعهودة للأخرس كالبيان باللسان .

(ز) المعروف عرفاً كالمشروط شرطا .

(ح) التعيين بالعرف كالتعيين بالنص .

(ط) المعروف بين التجار كالمشروط بينهم .

(ى) لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان .

القاعدة السادسة : إعمال الكلام أولى من إهماله . ويتفرع عنها من القواعد

(ا) الأصل فى الكلام الحقيقة .

(ب) إذا تعذرت الحقيقة يصار إلى المجاز .

(ج) المطلق يجرى على إطلاقه مالم يقم دليل التقييد نصا أو دلالة .

(د) ذكر بعض مالا يتجزأ كذكر كله .

(هـ) الوصف فى الحاضر لغو وفى الغائب معتبر .

(و) السؤال معاد فى الجواب .

(ز) إذا تعذر إعمال الكلام يهمل .

القاعدة السابعة : لا مساغ للاجتهاد فى مورد النص .

القاعدة الثامنة : الاجتهاد لا ينقض بمثله .

القاعدة التاسعة : ما ثبت على خلاف القياس لا يقاس عليه . أو ما ثبت على خلاف القياس فغيره عليه لا يقاس .

القاعدة العاشرة . إذا ما زال المانع عاد الممنوع . ويتفرع عنها من القواعد :

(ا) ما جاز لعذر بطل بزواله .

القاعدة الحادية عشر : ماحرم أخذه حرم إعطاؤه . ويتفرع عنها من القواعد :

(ا) ما حرم فعله حرم طلبه .

القاعدة الثانية عشرة : من استعجل الشئ قبل أوانه عوقب بحرمانه .

القاعدة الثالثة عشرة : من سعى فى نقض ماتم من جهته فسعيه مردود عليه .

القاعدة الرابعة عشرة : البقاء أسهل من الابتداء . ويتفرع عنها من القواعد .

(ا) يغتفر فى البقاء مالا يغتفر فى الابتداء .

القاعدة الخامسة عشرة : التابع تابع . ويتفرع عنها من القواعد :

(ا) من ملك شيئا ملك ما هو من ضروراته .

(ب) التابع لا يفرد بالحكم .

(ج) يغتفر فى التوابع مالا يغتفر فى غيرها .

(د) إذا سقط الأصل سقط الفرع .

(هـ) قد يثبت الفرع دون الأصل .

(و) إذا بطل الشئ بطل ما فى ضمنه .

القاعدة السادسة عشرة إذا تعذر الأصل يصار إلى البدل .

القاعدة السابعة عشرة : الساقط لا يعود .

القاعدة الثامنة عشره : لا يتم التبرع إلا بالقبض .

القاعدة التاسعة عشرة : تبدل سبب الملك كتبدل سبب الذات .

القاعدة العشرون : المعلق بالشرط يجب ثبوته عند ثبوت الشرط . ويتفرع عنها من القواعد .

(ا) المواعيد بصورة التعاليق تكون لازمة .

القاعدة الحادية والعشرون : يلزم مراعاة الشرط بقدر الإمكان .

القاعدة الثانية والعشرون : الجواز الشرعى ينافى الضمان .

القاعدة الثالثة والعشرون الخراج بالضمان .

القاعدة الرابعة والشرون : الغرم بالغنم .

القاعدة الخامسة والعشرون : النعمة بقدر النقمة والنقمة بقدر النعمة .

القاعدة السادسة والعشرون : الأجر والضمان لا يجتمعان .

القاعدة السابعة والعشرون : لا يجوز لأحد أن يتصرف فى ملك الغير بلا إذن . ويتفرع منها من القواعد :

(ا) الأمر بالتصرف فى ملك الغير باطل .

(ب) لا يجوز لأحد أن يأخذ مال أحد بلا سبب شرعى .

القاعدة الثامنة والعشرين : يضاف الفعل إلى الفاعل لا الآمر مالم يكن مجبرا أو مغرورا .

القاعدة التاسعة والعشرون : المباشر ضامن وإن لم يتعمد .

القاعدة الثلاثون : المتسبب لا يضمن إلا بالتعمد .

القاعدة الحادية والثلاثون : إذا اجتمع المباشر والمتسبب يضاف الحكم إلى المباشر .

القاعدة الثانية والثلاثون : جناية العجماء جبار .

القاعدة الثالثة والثلاثون : الولاية الخاصة أقوى من الولاية العامة .

القاعدة الرابعة والثلاثون : التصرف على الرعية منوط بالمصلحة .

القاعدة الخامسة والثلاثون : يقبل قول المترجم مطلقا .

القاعدة السادسة والثلاثون : دليل الشئ فى الأمور الباطنة يقوم مقامه .

القاعدة السابعة والثلاثون : المرء مؤاخذ بإقراره .

القاعدة الثامنة والثلاثون : الثابت بالبرهان كالثابت بالعيان . ويتفرع عنها من القواعد .

البينة حجة متعدية والإقرار حجة قاصره .

القاعدة التاسعة والثلاثون : البينة لإثبات خلاف الظاهر واليمين لإبقاء الأصل . ويتفرع عنها من القواعد :

(ا) البينة على المدعى واليمين على من أنكر .

القاعدة الأربعون : لا حجة مع التناقض لكن لا يختل معه حكم الحاكم .

الجهاد فى سبيل الله

لقد فرض الله على المؤمنين الجهاد فى سبيل الله وقال العلماء أن المراد به الحرب على أن الناظر فى كتب اللغة يرى أن كلمة جهاد إنما هى مصدر جاهد يجاهد مجاهدة وجهاداً بمعنى استفراغ الوسع فى مدافعة العدوّ والآيات القرآنية الواردة فى الأمر بالجهاد إنما تعنى أن يبذل المؤمن كل ما فى وسعه فى سبيل قهر أعداء الله حيث يقول تعالى « وجاهدوا فى الله حق جهاده[1] » وبالنظر لما طبعت عليه النفس البشرية من

---

(١) الحج : ٧٨ .

الاستسلام لشهوتها وعدم الخضوع لإرادة غيرها كانت هى أعدى أعداء الله وجعل الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم جهادها من أعظم درجات الجهاد فيما روى من قوله « أفضل الجهاد أن يجاهد الرجل نفسه وهواه » وفى رواية « أن تجاهد نفسك وهواك فى ذات الله » وفى حديث آخر للترمذى «المجاهد من جاهد نفسه» بل لقد سمى الرسول صلى الله عليه وسلم جهاد الكفار جهاداً أصغر فى جانب جهاد النفس حيث قال «قدمتم خير مقدم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر مجاهدة العبد هواه» وأوضح حقيقة ذلك بقوله « الجهاد أربع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصدق فى مواطن الصبر وشنآن الفاسق » وليس فى هذه الأقسام الأربع للجهاد ما يشير إلى معنى الحرب الظالمة الباغية كما يفهمه الناس باعتبارها مصلحة من مصالح الدولة العامة التى تستعمل أداة للبغى والعدوان وسفك الدماء وتخريب البلدان أو لغرض الانتقام أو حب التوسع وبسط النفوذ والسلطان أو من أجل الطمع فى المال واستعباد البشر وإرهاقهم باسم الاستعمار .

كل هذا لم يكن يرمى إليه الإسلام بالجهاد بل أن الحرب من أجل شىء من ذلك محرم فى شريعة محمد بن عبد الله وكل ما فى الأمر هو أن الإسلام لا يريد من أبنائه أن يكونوا كسالى خاملين بل يأمرهم بالعمل المتواصل لهداية الناس إلى الحق وإصلاح أحوالهم بإشاعة تعاليم القرآن وبذل المستطاع لتأييد هذا الدين ونشر دعوته بالطرق السليمة المشروعة وعدم استعمال العنف والشدة قط فى هذا السبيل حيث يقول تعالى « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن[١] » « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى[٢] » ، « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين[٣] » ، « قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل[٤] » ولأجل أن يكون لهذه الدعوة أثرها فى النفوس دعا الله المؤمنين إلى التسلح والأخذ بوسائل القوة لا ليكونوا فاتحين مستعمرين ولكن ليكونوا أصحاب دولة قوية موفورة الكرامة منيعة الجانب تخشى المهالك بأسها ولا يطمع أحد فى الاعتداء على كرامتها أو مس

---

(١) الشورى : ١٢٥ .
(٢) البقرة : ٢٥٦ .
(٣) يونس : ٩٩ .
(٤) يونس : ١٠٨ .

استقلالها وحريتها حيث قال تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوا الله وعدوكم[١] » وهذا صريح فى أن الإسلام بعيد كل البعد عن إرادة القتال الباغى حتى أنه وهو يأمر بالأخذ بوسائل القوة يصرح بأن القصد منها إنما هو مجرد إرهاب العدو ليس إلا على حد قولهم « الاستعداد للحرب يمنع الحرب » ولذا قال صلى الله عليه وسلم من حرس ليلة على ساحل البحر كان أفضل من عبادته فى أهله ألف سنة » وإنما يراد بعدو الله كل من يقاوم دينهم ويمنع نشره ويضطهد أهله وعدو المسلمين من يعاديهم ولو لغير دينهم كالطمع فى موارد رزقهم وإلحاق الأذى بهم واستعمار بلادهم ووضع العراقيل فى سبيل رقيهم وتقدمهم أو الحد من سلطانهم وعظمتهم أو لغرض الانتقام أو حب التوسع . ويأمر الله نبيه بأن يجعل المسلم غايته من الحرب والحد الفاصل الذى يجب أن تنتهى عنده حيث يقول « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله[٢] » وهو إذ يأمر بالجهاد فى جميع الآيات يقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس ويدعو إلى العمل لما يقر السلام والطمأنينة فى العالم حيث يقول تعالى « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة[٣] » ولذا كان النبى صلى الله عليه وسلم ينهى الناس عن حب الحرب ويقول « لا تتمنوا لقاء العدو وإذا لقيتموه فاصبروا — وهو سبحانه إذ يأذن للمؤمنين بامتشاق الحسام وخوض غمار الحرب يبين لهم الأسباب التى تحملهم على الاصطلاء بسعيرها والاكتواء بنارها وهى رد الظلم عن أنفسهم حيث يقول تعالى « إذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير[٤] » ولقد منعهم الله من التجاوز على الحقوق والاعتداء على الغير إلا بالقدر الذى يرد الأذى عنهم حيث يقول تعالى « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين[٥] » « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة

(١) الأنفال : ٦١ .
(٢) الأنفال : ٦٢ .
(٣) البقرة : ٢٠٨ .
(٤) الحج : ٣٩ .
(٥) البقرة : ١٩٠ .

وأحسنوا أن الله يحب المحسنين[١] » ونهى الله المؤمنين عن قتل أحد بلا سبب ظاهر أو حجة شرعية حيث قال « يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة . كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا أن الله كان بما تعملون خبيرا[٢] » وحض الله المؤمنين على الجهاد فى سبيله بالنفس والمال لينالوا العزة التى كتبها لهم بقوله « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين[٣] » ودعاهم إلى الهجرة من بلد تصادر حريتهم فيها ولا يقام لرأيهم وزن فى مصيرها وليس فى إمكانهم إصلاح مفاسدها حيث قال تعالى « فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعدالله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيما أن الذين توفاهم الملائكة ظالمين أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفورا ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيما[٤] » وأنذر سبحانه وتعالى المتقاعدين عن الجهاد فى سبيله من أجل حبهم لأهليهم وخوفهم على أموالهم بسوء المصير حيث قال « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين[٥] » وأوصى سبحانه وتعالى بالثبات فى ساحة الوعى حيث قال « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم أن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون وكان الله عليما حكيما[٦] » ولقد أطرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل الشهادة فى سبيل الله وحث الناس على نيلها

---

(١) البقرة : ١٩٠ .
(٢) النساء : ٩٤ .
(٣) المنافقون : ٨ .
(٤) النساء : ٩٠ .
(٥) التوبة : ٢٤ .
(٦) النساء : ١٠٤ .

وحدثنا عن حقيقتها بقوله « من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون دمه فهو شهيد ومن قتل دون دينه فهو شهيد ومن قتل دون أهله فهو شهيد ومن قتل دون مظلمة فهو شهيد » وسئل عليه الصلاة والسلام عن الرجل يقاتل شجاعة وحمية ويقاتل رياء أى يقال أنه مجاهد فى سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله . وجاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر ماله فقال لا شىء له فأعادها ثلاث مرات يقول لا شىء له ثم قال أن الله تعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً وابتغى به وجهه . وكان صلى الله عليه وسلم إذا بعث جيشاً يقول « انطلق باسم الله ولا تقتلوا شيخا فانياً ولا طفلا صغيراً ولا امرأة ولا تغلوا وضموا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الأبرياء وكل منعزل بصومعته ومن لم يشترك فى الحرب فعلياً كما نهى أن يمثل بالقتلى والجرحى ولم يرض من المؤمنين قطع الأشجار أو حرق النخل أو هدم البيوت فى البلاد التى يدخلونها وكل ما يؤدى إلى خراب الديار وانتشار المجاعة بين أهليها . وأوجب الله على المؤمنين الوفاء بالعهد حيث قال : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » ، « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ماتفعلون[1] » وألزمهم بمعاملة الأعداء بمثل مايعاملونهم به حيث قال تعالى : « فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين[2] » وعاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الذمة وأوجب لهم الوفاء بعهدهم ونهى عن ظلمهم وانتقاص حقوقهم حيث قال : « من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة — اللهم إلا إذا كانوا هم البادئين بالخيانة وعدم مراعاة واجب الوفاء بالعهد من جانبهم فحينئذ لاعهد لهم ولا ذمة ، وفيهم يقول تعالى : « الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون[3] » على أنه إذا بدا منهم مايدل على أنهم ينوون شرا للمسلمين وتقوم الأدلة والبراهين على سوء نيتهم نحوهم

---

(١) النحل : ٩٤ .
(٢) التوبة : ٦ .
(٣) الأنفال : ٥٨ .

فقد أباح الإسلام نقض عهدهم على شرط إنذارهم من قبل بفسخ العهد وعدم التقيد به على طريق واضح لا خداع فيه ولا ظلم ولا خيانة وفقا لقوله تعالى : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء أن الله لا يحب الخائنين[١] » ولقد بلغ من حرص المسلمين على الوفاء بالعهد « أن مسلما دعا نصرانيا إلى الإسلام فرفع الأمر إلى عمرو بن العاص فقال قد أعطيناهم العهد فقال عرفة بن الحارث « معاذ الله أن نكون قد أعطيناهم العهود والمواثيق على أن يؤذونا فى الله ورسوله إنما أعطيناهم العهد على أن نخلى بينهم وبين كنائسهم يقولون فيها ما بدا لهم ولا نحملهم مالا طاقة لهم به وأن نقاتل من ورائهم وأن نخلى بينهم وبين حكامهم إلا أن يأتونا فنحكم بينهم بما أنزل الله » فقال عمرو صدقت .

وحذر الله المؤمنين من أن يتخذوا من عهودهم خديعة ومكراً فى حالة الضعف حتى إذا آنسوا من أنفسهم قوة ومنعة غدروا بحلفائهم وفى هذا يقول تعالى « ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون[٢] » ، كما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغلو فى شروط الصلح مع العدو وهى تتلخص فى شرطين اثنين إما أن يدخلوا فى ديننا فيصبحوا منا وإما أن يعاهدونا على عدم خيانتنا فيكون لهم ما لنا وعليهم ما علينا إلا أنهم لا يشتركون فى صفوفنا فى الحرب لأنا لا نأمن منهم ونتعهد بحمايتهم على أن يدفعوا الجزية لنا وهى عبارة عن ضريبة يتفق عليها مقابل هذه الحماية ولقاء تمتعهم بخيرات البلاد دون الدفاع عنها وهى تختلف باختلاف الأزمنة والأحوال .

الإسلام واليهود

لقد أرسل الله النبى محمداً صلى الله عليه وسلم للناس كافة ، فدعا الجميع إلى الإسلام باعتباره خاتمة الشرائع المنزلة من عند الله وحثهم على الاتحاد الكامل فى كل شىء ، فآمن به من آمن من الشعوب ، وكفر به من كفر ممن حكم الهوى والعاطفة

---

(١) الأنفال : ٥٩ .

(٢) النحل : ٩٢ .

وتعصب للرأى والجنسية ، وأبى إلا أن يتمسك بما كان عليه آباؤه من عادات جاهلية أو شرائع سابقة منسوخة ، ولما كانت شريعة الإسلام لا تقوم إلا على أساس التفاهم والاقناع « لكم دينكم ولى دين » بذل الرسول صلى الله عليه وسلم قصارى جهده لدعوة الناس لدين الله بالحكمة والموعظة الحسنة ومختلف الوسائل التى من شأنها أن تغرس العقيدة فى النفوس وتملأ القلوب حباً وإخلاصاً حتى تم له ماأراد الله تعالى ، وآمن به الكثير عن هدى ويقين ، لم يشذ منهم ممن خالطهم غير شعب بنى إسرائيل ، ذلك الشعب الذى رأى من أبنائه ما لم يره من غيرهم من الشعوب على العموم ، فقد أظهروا له الود والولاء ، ولم يظهروا له شيئاً من العداء ، فعاهدهم وعاهدوه ، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم واشترط عليهم ، وطمع فى أن يعيش معهم على وفاق ووئام إلى أن يهديهم الله إلى الإيمان عن عقيدة وبرهان ، غير أنه مالبث أن رأى كثيراً منهم يعلن إسلامه ويظهر وده واحترامه ، ويؤكد للرسول أنهم كانوا يتوقعون بعثته ويرجون صحبته ، الأمر الذى جعله يحسن الظن فيهم ويسعى كثيراً إلى هدايتهم حتى تكشف له من أعمالهم العجب العجاب ، ومن طبائعهم مايحير ذوى الألباب حيث كانوا يظهرون له الحب ويخفون الحقد ويزعمون الإيمان بالله ويكيدون لدينه الحق حتى عيل صبر النبى صلى الله عليه وسلم فى أمرهم ، فلا هم بالأعداء فيتقيهم ، ولا هم بالأصدقاء فيدنيهم ، ولا هم بالضالين فيقنعهم بالإيمان ويهديهم ، ولم يشأ الله جل وعلا أن يترك الرسول صلى الله عليه وسلم على جهل بحقيقة أمرهم ، فإنه ما كاد يقص على رسوله فى القرآن خبر إبليس وماسبق منه من المجاهرة بالعصيان التى كانت سبباً فى حلول لعنة الله عليه وعلى أتباعه حتى أنزل سبحانه على خاتم أنبيائه من الآيات ما هو موجه إلى بنى إسرائيل ، وفيها يذكرهم بمبلغ كفرهم وعنادهم وما جبلوا عليه من سوء نية ونفاق ومكر وشقاق أدى بهم إلى حلول نقم الله عليهم وإسقاطهم عن درجة الكمال الإنسانى إلى مستوى القردة الذين فقدوا صفات النبل والشهامة ومعنى الكرامة حتى عبدوا المادة وتجردوا عن الفضيلة وانغمسوا فى الشهوات البهيمية ، وانسلخوا عن عواطفهم الإنسانية ، ولقد بلغ من كفرهم بالله أن عمدوا إلى الاحتيال عليه فأنزل الله قوله : « ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا

قردة خاسئين[١] » أى كونوا بحسب سنة الله فى خلقه فى الطبع والأخلاق كالقردة المستذلة الحقيرة فى أعين الناس ، فلا يراكم كرام الناس أهلا لمجالستهم وينفروا من معاملتكم . فقد روى ابن جرير عن مجاهد أنه قال : مامسخت صورهم ولكن مسخت قلوبهم فمثلوا بالقردة ، كما مثلوا بالحمار فى قوله تعالى : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا[٢] » ولهذا أكد الله جل وعلا أن لاسبيل إلى هدايتهم بقوله : « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون[٣] » ولقد حدثنا القرآن الكريم فى عدة مواضع بمبلغ عنتهم وعدد لنا مساويهم من عبادة العجل واستبدالهم الأدنى بالأعلى وطلبهم المستحيل وتبديلهم لكلام الله وتعمدهم تحريفه وترددهم فى تنفيذ أوامره ، وعدم تمسكهم بشريعتهم إلى غير ذلك مما جبلوا عليه من الطبائع والأخلاق الدنية كالحسد والكبرياء والتناقض بين الأقوال والأفعال والمواربة والمغالطة والعناد والكذب واللجاج وخصومة كل داع إلى الحق ، وعدم التورع عن إتيان الطرق غير المشروعة فى سبيل تحقيق شهواتهم وطعنهم فى الله وآياته وقتلهم لأنبيائهم حتى توعدهم الله بما لم يتوعد بمثله الكفار والمشركين من العذاب فى الدنيا قبل الآخرة فى جميع الأوقات حيث قال تعالى : « وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم[٤] » .

وانتزع منهم أعظم سبيل للقوة وهو الاتحاد وفرقهم بعد أن كانوا متحدين إلى فرق حيث قال « وقطعناهم فى الأرض أمما[٥] » بعد أن كانوا أمة متحدة وكتب عليهم الجبن والضعة والهوان حيث قال للمؤمنين « لن يضروكم إلا أذى وأن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله

---

(١) البقرة : ٦٥ .
(٢) الجمعة : ٥ .
(٣) البقرة : ٧٥ .
(٤) الأعراف : ١٦٧ .
(٥) الأعراف : ١٦٨ .

ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » ومعنى هذا أن الله قد تعهد للمؤمنين بالنسبة لليهود بأمور ثلاثة :

(الأول) أنهم لن يستطيعوا إضرارهم فى دينهم ولن يزعزعوا من إيمانهم ما داموا متمسكين به إلا باللسان كإلقاء الشبهة فى الإسلام والتعريض به مما قد يسىء المسلم الصادق ولكنه لا يغير شيئاً من إيمانه .

(الثانى) أن اليهود إذا اشتبكوا مع المسلمين المحافظين على دينهم حقاً فلا يمكن إلا أن ينهزموا أمامهم .

(الثالث) أنهم سوف لا يكتب لهم النصر عليهم أبدا وعلل للأخير وهو عدم النصر بأنه تعالى أوجب عليهم الذلة وهى حالة تعترى الشخص من سلب غيره حقه قهراً أى أن يكونوا مقهورين مسلوبين الحقوق مغلوبين على أمرهم على الدوام فى كل مكان وزمان فلن ينالوا شيئاً من الحقوق قوة واقتداراً وإذا قدر لهم أن ينالوا شيئاً فإنما ينالونه بإحدى حالتين لا ثالث لهما « الأولى » أن يرجعوا إلى الله ويتوبوا إليه مما كانوا عليه من الأخلاق الذميمة «والثانية» أن يمكنهم الناس من ذلك أما بواسطة ما يعقدون معهم من معاهدات ويسنونه من الأنظمة والقوانين التى تسوى بينهم فى الحقوق وتعطى لهم شيئاً من الامتياز أو بإخلال المسلمين بواجبات دينهم وترك الجهاد فى سبيل نصرته فلم تعد لهم تلك العزة التى يقهرون بها أعداء الله وأعداءهم وعلل الله تعالى للأمر الثانى — وهو الهزيمة فى الحرب — بأنهم قوم مغضوب عليهم والمغضوب عليه دائم الخوف شديد الجبن قليل الثقة بالنفس فلا يستطيع الصمود فى ميدان القتال وعلل سبحانه وتعالى للأمر الأول — وهو ضآلة ضررهم — بأنه تعالى طبعهم بطابع المسكنة وهى حالة تعترى الشخص تشعره باستصغاره لنفسه وضعف إيمانه ومن كان حقيراً فى نفسه فهو فى نظر الناس أحقرهما حاول الكبرياء والعظمة ومن كان ضعيف الإيمان بدينه فهو لا يعمل لنشر دعوته ولا يكون لكلامه أثر فى غيره وكل هذا ناشىء عن كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق إذ الكفر بآيات الله كفر بالله وقتل الرسل اعتداء صارخ على مقام المرسل ولقد حذر الله المؤمنين من مكرهم وفسادهم وأخطرهم بأنهم أشد الناس عداوة لهم كما أن الشيطان أعدى عدو للبشر حيث قال « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا

اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون[1] » فمن واجب كل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر ورسالة خاتم النبيين وصدق ما جاء به فى كتابه أن يحذر اليهود ومكايدهم كما يحذر الشيطان ووساوسه ويعتقد اعتقاداً جاز ما بأنهم مصدر النفاق كما كان إبليس مصدر العصيان وأنهم من أعدى أعداء الله الذين غضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم سعيراً وأن من يؤيدهم أو يواليهم فإنما يحارب الله بمناصرة أعدائه ومحاولة إعزاز من أذله الله سبحانه وتعالى .

والرسول صلى الله عليه وسلم الذى أمرنا بأتباعه عند ما أيقن بحلول غضب الله على اليهود وعداوتهم للمسلمين وخذلانهم إياه فى القتال لم يحاول تقتيلهم بل إنه صبر على أذاهم وأخذهم بجرائمهم ثم أجلاهم من جواره دون أن يأمر بتعقبهم وقتالهم ولكنه عليه الصلاة والسلام أخبرنا بأنه لا بد لنا من موقعة فاصلة بيننا وبينهم يكون فيها النصر المبين لنا عليهم بما يشبه المعجزات وخوارق العادات حيث قال صلى الله عليه وسلم « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبىء اليهودى من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودى خلفى فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود » والغرقد هذا شجر له شوك فى فلسطين . والمسلمون على ما هم عليه من ضعف اليوم ليؤمنون إيماناً جازما بصحة ما جاء فى القرآن عن اليهود من أنه لا يمكن أن تكون لهم قائمة ولا ينالون حقا من حقوقهم السياسية قوة واقتداراً وأنه لا بد لهم أن ينساقوا إلى قتالهم فى وقعة فاصلة تكون بينهم .

أما كيف ذلك ومتى يكون واليهود لا وطن لهم وهم مفرقون مشتتون فى جميع الآفاق هذا ما بدأت تكشفه لنا الأيام وتؤيده الحوادث فقد سلط الله ألمانيا وعلى رأسها هتلر عليهم وأسامهم سوء العذاب حتى أجلاهم عن دياره واحتضنتهم انجلترا وسهلت لهم سبيل الهجرة إلى فلسطين تنفيذاً لوعد بلفور السابق وأسكنتهم فيها فنالها من عقاب الله ما نالها بتفسخها وفقدانها الكثير من مستعمراتها وظهورها بمظهر الهوان حتى كان اليهود أول من هزأ بضعفها واستعملوا الشدة فى معاملة

---

(١) المائدة : ٨٥ .

ضاطها حيث كانوا يوثقونهم على الشجر ويضربونهم كما يضرب العبيد الأمر الذى ضج منه الشعب البريطانى وأصبح ينقم من اليهود الموجودين فى انجلترا ومع هذا لم تتعظ الحكومة الانجليزية ولجأت إلى صديقتها أمريكا لتأخذ بيدها من السقوط وتساعدها على البر بوعدها لهم بالاعتراف بدولة إسرائيل التى أقاموها بمواثيقهم وأيدوها بعتادهم وحسبوا بذلك أنهم انتصروا على المسلمين واستطاعوا أن يحاربوا رب العالمين . وما دروا أن هذا لم يكن إلا وفق ما أخبرنا به القرآن وأن جمعهم فى فلسطين ما هو إلا مقدمة لتحقيق ما أخبر به الرسول من قتلهم وإبادتهم فيها بقدرة السميع العليم .

والليالى من الزمان حبالى مثقلات يلدن كل عجيب

أن بريطانيا اليوم بنجاحها فى إقناع أمريكا بتأييد سياستها الغاشمة نحو اليهود إنما تقودها إلى محاربة الله بمناصرة أعدائه وسوف لا تكون نتيجتها إلا مثل ما آلت إليه نتيجة بريطانيا بلا شك ولا ريب فمن كان دليله البوم فمأواه الخراب . أجل لقد كان من نتائج تلك السياسة الانجليزية الغاشمة التى أيدتها أمريكا وحملت هيئة الأمم المتحدة على إقرارها أن يسلط الله عليهم جميعاً عدواً من أعداء الله الذين أشركوا أنفسهم مع الله فى قسمة الأرزاق وتوزيع الثروة بين العباد وهم البلاشفة الذين أخبرنا الله بأنهم من أشد أعداء الإسلام مع اليهود وسلطهم الله عليهم يناوؤونهم ويعدون العدة لسحقهم وتدميرهم ويعملون على نشر مبادئهم الهدامة بين أقوامهم بعد أن كانوا بالأمس القريب من أعظم حلفائهم وقد أدت بهم الأمر إلى إشعال نار الحرب فى كوريا التى لا يعلم مداها وما ينشأ عنها إلا الله علام الغيوب وكأنما شعرت أمريكا بما جلبته على العرب من ويلات من جراء مناصرة اليهود وما قد يؤدى إليه الأمر من اضطراب الأمن وعدم إقرار السلام فى العالم فعملت على التقرب من الشرق بشتى الوسائل والأساليب التى إن رضى بها بعض الناس فى الظاهر فأنها سوف لا تصد عنهم نقمة الله التى ستحل باليهود وكل من والاهم وكل آت قريب ولتعلمن نبأه بعد حين .

ولما كان الإسلام يدعونا إلى تذكير الناس بالقرآن وما فيه رأينا واجباً علينا إزاء سائر شعوب العالم المسيحية الذى أخبرنا القرآن بأنهم من أقرب الناس مودة

لنا أن نبسط لهم ما نعلمه عن هؤلاء اليهود وماضيهم وحاضرهم وما يكون من نتائج موالاتهم وتأييدهم بحسب تعاليم ديننا ومن أنذر فقد أعذروا الله سبحانه وتعالى يقول « قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا[1] » ولئن أحست الدول الغربية اليوم بخطر الشيوعية وعملت على محاربتها فلقد دعا الله أنصارها من قبل بالمشركين وتوعدهم بأشد العذاب ونبه المؤمنين إلى أنهم واليهود من أشد الناس عداوة لهم وثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك صغار الأعين حمر الوجوه ذلف الأنوف كان وجوههم المجان المطرقة يلبسون الشعر ويمشون فى الشعر » وذلف الأنف قصره والمجان جمع مجن وهو الترس والمطرقة طاق على طاق وفى حديث آخر « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا خوزا وكرمان من الأعاجم حمر الوجوه فطس الأنوف صغار الأعين وجوههم المجان المطرقة نعالهم الشعر » وقد أثبت الحوادث عداوة البلاشفة للإسلام والمسلمين فى بلادهم وثبت لدينا من الأوصاف التى وصفهم بها رسول الله صلى الله عليهم وسلم أنهم هم أعداء الله المعينون بما رويناه من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم والله المسؤل أن يؤيد أنصاره ويخذل أعداءه ويجعل كلمته هى العليا .

الإسلام والحرب

قلنا أن الجهاد فى الإسلام لا يقصد منه الحرب الظالمة وإنما يراد به أن يبذل المؤمن كل ما فى وسعه فى سبيل قهر أعداء الله حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينهى الناس عن حب الحرب أو تمنيهما غير أنه بالنظر لأن الحرب من ضمن الوسائل التى قد يلجأ المؤمن إليها مضطراً فى سبيل تحقيق مقاصد الإسلام السامية أكثر الله تبارك وتعالى من ذكر الآيات التى من شأنها أن تقوى الروح المعنوية فى قلوب المؤمنين وتجعلهم لا يهابون الموت لأنهم يرونه أمرا لا بد منه ولذلك فمن الخير لهم أن يموتوا فى ساحة الشرف من أن يموتوا حتف أنوفهم وعلى فراشهم حيث يقول تعالى :

---

(١) الإسراء : ٤ ، ٨

« وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا[١] » ، « كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور[٢] » ، « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزا لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير[٣] » ، « أينما تكونوا يدركم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة[٤] » .

أضف إلى هذا ما جاء به القرآن من الآيات الدالة على علو مرتبة المستشهدين فى سبيل الله وما أعده لهم عنده فى الآخرة من الأجر العظيم وفى الدنيا من الحفظ والثبات حيث يقول تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما أتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمة الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم الذين قال لهم الناس أن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم[٥] » .

وفوق هذا فقد وعد الله عباده المؤمنين بالنصر على أعدائهم ما أجابوا داعى الحرب عند الحاجة إليه لإعلاء كلمة الله وأقام لهم الأدلة وضرب الأمثلة على نصره لما قاتل فى سبيله واسترخص الحياة الدنيا رغبة فى رضائه جل وعلا حيث قال : « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم[٦] » ، « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز[٧] » ، « إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون[٨] » ، « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم[٩] » ،

---

(١) آل عمران : ١٤٥ .
(٢) آل عمران : ١٨٥ .
(٣) آل عمران : ١٥٦ .
(٤) النساء : ٧٧ .
(٥) آل عمران : ١٦٩ .
(٦) محمد : ٧ .
(٧) الحج : ٤٠ .
(٨) آل عمران : ١٦٠ .
(٩) آل عمران : ١٢٦ .

« ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين[1] » ، « يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون[2] » وتحت تأثير هذه العقيدة استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يغرس روح الشجاعة والتضحية فى قلوب المؤمنين ، وانتزع من نفوسهم خوف الموت وحب الحياة ومتاعها الزائف ، بل وأخبرهم عليه الصلاة والسلام بأن عزهم وسؤددهم موقوف على وجود هذه الروح السامية فى نفوسهم ، فإذا ضعفت أو زالت زالت معها سيادتهم وشوكتهم ، وطمع فيهم أعداؤهم ، واستعمروا أوطانهم حيث يقول : يوشك أن تداعى الأمم عليكم كما تداعى على القصعة أكلتها — قال الصحابة : أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله : قال — لا بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم ويلقى فى قلوبكم الوهن — قالوا وما الوهن يا رسول الله . قال : — حب الحياة وكراهة الموت — وقد كان وصدق رسول الله فيما أخبر به فهل من متعظ والرسول الأعظم الذى عنى بأمر القوى المعنوية فى نفوس الأمة الإسلامية لم يرد منها أن يكتفى بذلك ، وتعتمد فى هذا السبيل على مجرد نصر الله بل أنه علق نصره جل وعلا على نصرهم له بمباشرتهم للأسباب والوسائل المؤدية للنصر بحسب ما سنه تعالى من سنن وما شرعه من أنظمة للقتال كان فى مقدمتها الاستعداد للحرب بأقصى ما توصل إليه العلم من المعدات الحربية وهو ما يعبر عنه فى لغة العصر بوجوب التسلح لحفظ التوازن فى القوى حيث يقول تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم[3] » . وثانيها تنظيم الجيوش وجعلها بحيث تكون متساندة كالجبال الرواسى حيث يقول تعالى : « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله

---

(١) آل عمران : ١٢٤ .

(٢) الأنفال : ٦٤ .

(٣) الأنفال : ١١ .

صفاً كأنهم بنيان مرصوص[1] » وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يتولى بنفسه صف الجنود وتنظيمها وتعيين مواقعها فى ميدان القتال إلى جانب قيامه بمهمة القيادة العليا وله من التدابير العسكرية والخطط الحربية ما شهد له بالمهارة التامة فى هذا الباب حيث كان من أهم مايعنى به أمر الاستخبارات السرية واستطلاع أحوال العدو ومدى قوته ومواقع استحكاماته ومواضع الضعف فيه وربما اعتمد كثيرا على جهود بعض المخلصين للإسلام فى إلقاء الرعب فى قلوب أعدائه للتسليم من غير حرب حرصا على تجنب سفك الدماء ما استطاع إلى ذلك سبيلا . إذ الرعب من ضمن الأسلحة التى جعلها الله وسيلة للنصر حيث قال : « إذ يوحى ربك إلى الملائكة إنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان[2] » وقد استعان الرسول صلى الله عليه وسلم بمعبد الخزاعى فى إلقاء الرعب فى قلوب المشركين بعد وقعة بدر كما استعان بأبى سفيان فى لقاء الرعب فى قلوب قريش حتى فتح مكة من غير حرب . كما أنه كان من عادته عليه الصلاة والسلام فى الحرب أن يفاجئ أعداءه إذا ما أحس بالغدر منهم فيهاجمهم قبل استكمال أهبتهم ويعمل على تحطيم قوتهم وكان لا يهمه فتح البلاد وإنما يضرب الحصار عليهم لاستدراج أهلها لنزاله فى الميدان حرصاً على عدم تخريب المدن والإبقاء على الأطفال والنساء والعجزة ، أو بعبارة أخرى حصر القتال ضمن دائرة القادرين عليه ، أو المتصدين له والمصرين عليه . كذلك كان يهمه عليه الصلاة والسلام فى الحرب أن لا يشترك فيها إلا من كان راغباً فى القتال مؤمنا بثمرته عاملا لتحقيق غاياته ابتغاء مرضاة الله ، وأنه لا يكون مكرها على القتال ، أو طامعاً فى الغنيمة من عرض الدنيا الفانية ، ولذلك لم يسمح بإشراك غير المؤمنين مع المؤمنين فى القتال لاختلاف الغاية ، وأبى الله على المنافقين الانخراط فى صفوف المسلمين الصادقين نظرا لاختلافهما فى الثقة بالله ونصره حيث قال تعالى : « لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن

---

(١) الصف : ٤ .

(٢) الأنفال : ١١ .

كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولاوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين[1]» .

وكان من سياسته عليه الصلاة والسلام التكتم الشديد فى الشئون الحربية ، بل ربما أخفى عن قائد الجيش المهمة التى انتدب من أجلها كما حدث عند ما بعث عبد الله ابن جحش فى سرية إلى (نخلة) ليرصد قريشاً ونهاه أن يستكره أحدا على الخروج معه كما كان من أهم فضائله عليه الصلاة والسلاة استشارة ذوى الرأى فى أمر الإقدام على القتال من عدمه وماينبغى أن يتخذ له من الأسباب والتدابير العسكرية كما حصل فى استشارته لقومه فى وقعة أحد وعمله برأى الحباب بن المنذر فى اختيار مواقع القتال وعند تحزب الأحزاب وقد عمل إذ ذلك برأى سلمان الفارسى فى حفر الخندق ونال النصر وغير هذا من الشئون الحربية التى زاولها عليه السلاة والسلام وأبدى فيها منتهى الحكمة وأصالة الرأى ودعا الناس إلى أن يكونوا جميعاً جنودا لله فى سبيل نصرة الحق ، وبذل النفس والنفيس دفاعا عن العقيدة التى هى أغلى شئ عند الإنسان ، ولم يهمل عليه الصلاة والسلام أمر العناية بالجرحى فكان يصحب الجيش بعض النسوة المتطوعات لإسعاف وتضميد الجراح وسقى الماء وكان ممن اشتهر بالطب فى عهده امرأة تدعى (رفيدة) وكانت لها خيمة فى مسجد الرسول تداوى فيها الجرحى وتنقل إليها سعد بن معاذ عندما أصيب بسهم فى وقعة الخندق وكانت خيمتها أول مستشفى أقيم فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . . .

نظام الرق

فسر علماء الإسلام الرق بمعنى استعباد الإنسان لفريق من إخوانه فى الإنسانية وبينوا أحكامه ولم يتعرضوا لحقيقة ذلك والغاية منه فاتخذ الغربيون من ذلك سبيلا للطعن فى الإسلام وفاتهم أن الإسلام الذى جاء لتحرير الإنسان من رق العبودية لغير الله لايمكن أن يقر استعباد شخص لآخر . وقد قال سيدنا عمر «متى استعبدتم الناس وقد خلقهم الله أحرارا» والإسلام الذى قام على احترام الحقوق وإقامة العدل لايتصور

---

(١) التوبة : ٤٣ .

أن يقر الظلم بأى حال من الأحوال خصوصا إذا علمنا أن تملك الإنسان لأخيه الإنسان أمر كان شائعاً فى العصور الأولى وكان فى الأمم المتوحشة أناس يسرقون بعض الناس من الأمم المستضعفة ويتملكونهم بهذه السرقة ويبيعونهم فى الأسواق حتى كان المصريون والبابليون والفرس والهنود واليونان والروم والعرب يتخذون المماليك ويستخدمونهم فى أشق الأعمال وكان من عادة بعض الأمم الفقيرة أن يبيع الرجل بعض أبنائه ليشترى بثمنه ما ينفق به على نفسه فجاء الإسلام محرما كل هذا .

هذه حقيقة إذا سلمنا بها وجب أن نبحث عن السر فيما يسمونه الرق فى الإسلام وقبل أن نبحث فى هذا الموضوع نريد أن نشرح كلمة الرق فى لغة العرب فالرق مشتق من رق الشئ ضد غلظ وثخن يقال رق له قلبه أى رحمه وعطف عليه ومعنى نظام الرقيق نظام الرحمة أو شفقة الإنسان على أخيه الإنسان أما كيف ذلك فهذا ما ينجلى من إيضاح حقيقة الرق وما يجب أن يعامل به الأرقاء .

لقد جاء الإسلام يدعو إلى الحرية ولكنه منى بجماعة تصدوا لمقاومته وحربه ، فأمر الله نبيه بحربهم حتى يلقوا سلاحهم وعندئذ يؤخذون أسرى حرب ، والحرية بعد ذلك أن يعفو عنهم من القتل أو يطلقوا سراحهم مقابل أخذ الفداء منهم حيث قال تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإمَّا منًّا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها[1] » وتنفيذا لهذا الأمر الإلهى جمع الرسول الأسرى وشد وثاقهم ووزعهم على المسلمين ليطعموهم ويأووهم لديهم إلى ما بعد انتهاء المعركة — وجمع الرسول صحبه واستشارهم فأشار عليه فى أمرهم سيدنا عمر بقتلهم أجمعين ليأمن المسلمون من شرهم وكيدهم وقال أبو بكر بل نمن عليهم فنتركهم أحياء ونستبقيهم ونطالبهم بفداء أنفسهم بالمال مقابل تعويضات الحرب المشروعة حيث أن المسلمين فى أشد الحاجة إلى المال ونكون بهذا قد أحسنا إليهم بالإبقاء على حياتهم التى هى أغلا شئ عندهم ولربما أسلموا فكانوا جنوداً للإسلام وأعوانا للمسلمين فارتضى عليه الصلاة والسلام هذا الرأى ولما لم يكن هنالك خزينة للدولة ينفق منها على الأسرى ولم يكن هنالك حكومات تفدى أسراها أو تقوم

---

(١) محمد : ٤ .

بتعويضات الحرب لم ير النبي بدا من توزيع الأسرى على رجاله وأن يملكهم رقابهم على أن يقوموا بجميع نفقاتهم ويستخدموهم فى أعمالهم الخاصة إلى أن يتسنى لهم دفع الفدية المطلوبة منهم أو يرق قلب مخدوميهم فيحرروهم من الأسر .

فسر الأسرى بهذا الحكم وفدى كثير منهم نفسه بالمال حتى أنه كان من ضمن الأسرى زوج ابنته فأرسلت زوجته للرسول بفدائه فأطلق سراحه وأمر بفك أسر ابنة حاتم الطائى نظرا لما كان عليه أبوها من مكارم الأخلاق . وعاد صلى الله عليه وسلم فلم تقبل نفسه الشريفة أن يسوى بين ذوى العلم والجهلاء من الأسرى فأمر بفك أسر العلماء على أن يعلم كل أسير عشرة من المسلمين مما علمه الله وكان من أهم العلوم لديه القراءة والكتابة لكى يقضى على الأمية بين قومه ثم عاد فقدر ضعف المرأة وحاجتها إلى الرحمة فأباح للرجل الاستمتاع بها بدون عقد ليكون من هذا وسيلة لتبادل الألفة والمحبة وأحكام روابط القربى والرحم والأخوة وجعل من استيلادهن سبيلا لتحريرهن من رقة الأسر وأخذ يدعو إلى تحرير من بقى من الأسرى بمختلف الوسائل فشرع مكاتبتهم على شىء معين يتحررون بأدائه من حالة الأسر وحض على معونتهم عليه حتى أن جويرية بنت الحارث وقعت فى الأسر وكانت من نصيب ثابت بن قيس ابن شماس فكاتبها على نفسها فذهبت إلى النبى تسأله أن يعينها بما يمكنها من دفع ما تعاقدت عليه من فداء فأجابها رسول الله إلى طلبها وقال لها بل لك ما هو خير من هذا فقالت وما هو يا رسول الله قال أقضى عنك كتابك وأتزوجك فقالت نعم فقال لقد فعلت ودفع عنها ما عليها وتزوجها فلما علم الناس بهذا قالوا لقد أصبح بنو المصطلق أصهار النبى وسارعوا إلى تحريرهم من الأسر وفى هذا يقول تعالى « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذى آتاكم[1] » ولم يكتف بهذا بل أخبر الناس بأن الإحسان إليهم بالعتق من أهم القربات إلى الله المنجية من عذابه حيث قال « فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام فى يوم ذى مسغبه[2] » وجعله تعالى كفارة لكثير من الجرائم والآثام وقال صلى الله عليه وسلم « أيما رجل أعتق امرأ مسلماً

---

(١) النور : ٣٣ .

(٢) البلد : ١١ — ١٤ .

استنقذ الله بكل عضو منه عضواً منه من النار » وأخذ يوضح للناس معنى الرق وما يجب أن يعامل به الأرقاء حيث قال « من يلائمكم من مملوكيكم فاطعموه مما تأكلون واكسوه مما تكتسون ومن لا يلائمكم فبيعوه ولا تعذبوا خلق الله » وقال « إذا صنع لأحدكم خادمه طعاماً ثم جاءه به وقد ولى حره ودخانه فليقعده معه فليأكل » وأمر بعدم تكليفهم بما ليس فى طاقتهم حيث قال « هم إخوانكم وعونكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولاتكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه » ونهى عن أن يلقبوا بالعبيد حيث قال صلى الله عليه وسلم « لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى ولا يقولن المملوك ربى وربتى وليقل المالك فتاى وفتاتى وليقل المملوك سيدى وسيدتى فإنكم المملوكون والرب الله تعالى » وأمر بالعفو عنهم فى حالة ما إذا بدا منهم قصور فى عملهم يوجب المواخذة إذ جاء رجل وقال يا رسول الله كم اعفو عن الخادم فصمت ثم قال اعف عنه كل يوم سبعين مرة ونهى عن ضربهم وقال من لطم مملوكا أو ضربه فكفارته أن يعتقه وروى ابن مسعود قال كنت أضرب غلاماً لى بسوط فسمعت صوتاً من خلفى يقول أعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام فالتفت فوجدت القائل رسول الله فحرمت أن أضرب مملوكا بعد ذلك أبداً وقال أيضاً « من قذف مملوكه وهو برىء مما قال أقام الله عليه الحد يوم القيامة » ولقد أقام الرسول صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى فى معاملة الموالى إذ قرب إليه زيداً عتيقه وزوجه بابنة عمته وولاه قيادة جيش الشام . ولما بلغه خبر موته بكى عليه وعطف على ابنه أسامة وقال « من أحبنى فليحب أسامة » ثم ولاه قيادة الجيش مكان والده وهو فتى فى العشرين من عمره وجعل أكابر الصحابة من جنده ولقد سمى الله أولئك الأرقاء باسمهم الحقيق وهو (الأسرى) وأمر رسوله أن يطيب خواطرهم حيث قال « يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم[1] » والمعنى أنكم إن تؤمنوا بقلوبكم بالله يثبكم على الإيمان والرضاء بقضاء الله أكثر مما انتزع منكم من الحرية التى كنتم فيها مع التردى

(١) الأنفال : ٧٠ .

فى الضلال : هذه هى حقيقة الرق فى الإسلام وتلك هى تعاليمه فى معاملتهم أين منها ما نراه اليوم من معاملة الأسرى لدى الأمم التى تدعى الحضارة والمدنية وتمقت الرق وتحاربه من أنواع التعسف والاضطهاد والتنكيل بهم واستخدامهم فى الأعمال الشاقة دون رحمة أو شفقة لا بل أين هذا مما تقدم عليه الدول المستعمرة من استعباد الشعوب الضعيفة وامتصاص دمائهم والتحكم فى مقدراتهم بما يتنافى مع حق الإنسان على أخيه الإنسان .

أما استرقاق العبيد والجوارى فى عصرنا هذا عن غير طريق الجهاد بوسائل أخرى غير مشروعة وبواسطة القرانصة فهذا مالا يقره الإسلام ولا تنطبق عليه أحكامه خصوصاً فيما يتعلق بالاستمتاع بالجوارى منهن فلا يكون عمل المسلمين فيه حجة على الإسلام ، شأنهم فى ذلك كشأنهم فى جميع تعاليم الإسلام التى أهملوا اتباعها وأتوا بضدها نتيجة تقليدهم لأقوال بعض العلماء دون الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله » .

نظام الأسرة

ولقد كانت المرأه موضع ازدراء ومهانة فى جميع الأمم وكانت تعتبر عند العرب من سقط المتاع فكانوا يستعبدونها ويسخرونها فى كثير من الأعمال الشاقة التى لا طاقة لها على تحملها « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألاساء ما يحكمون » فكانوا لا يتحاشون عن وأدها بمعنى دفنها فى التراب وهى حية حتى جاء الإسلام يحاسبهم على فعلهم هذا ويسألهم عن ذنبها ويطالبهم بدمها حيث يقول « وإذا الموءدة سئلت بأى ذنب قتلت[1] » .

وأخذ يفهم الله الرجال قيمة المرأة فى الهيئة الاجتماعية ومدى التصاقها بالرجل وحاجة كل منهما للآخر حيث يقول تعالى « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن[2] »

---

(١) الإسراء : ٢٦ - ٢٧ . (٢) الإسراء : ٢٩ .

ولا غنى للإنسان فى الحياة عن لباس يستر به عورته البدنية والخلقية فالمرأة موضع سر الرجل كما أن الرجل موضع سرها وهما فى السر يتفاهمان ويفكران ويقرران تحقيق ما هما فى حاجة إليه ويقوم كل بدوره فى تنفيذ ما يكون من اختصاصه وطاقته ليقوم التعاون بينهما على أساس متين .

بل لقد أمتن الله على الرجال بخلقه للمرأة وأشعرهم بعظم حاجتهم إليها وأنها هى سبيل سعادتهم وهنائهم فى الحياة حيث قال « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم إنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين[1] » ومعنى هذا أن النساء للرجال بمثابة الأرض المعدة الصالحة للزرع فهن موضع الإنتاج وكل ما يضعه الرجل فيهن من بذر ينتج وكل ما يبذل من مجهود فى سبيل صلاحها وتحسين مستواها العقلى والعلمى والدينى يعود نفعه على المجموع بالخير العميم ولذلك قال تعالى « وقدموا لأنفسكم » وكل إهمال للمرأة واحتقار لها أو نبذلها من المجتمع الإنسانى يعد قتلا لها من شأنه أن يستوجب سخط الله ولذلك قال تعالى « واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه » أى فيحاسبكم على كل ذلك وختم الآية بقوله « وبشر المؤمنين » أن الذين يحترمون حقوق المرأة التى منحها الله لها والمنزلة التى وضعها تعالى فيها وهذه الحقوق لا تختلف عن حقوق الرجل بل أنها متساوية معه فى كل شىء إلاَّ شيئاً واحداً فقط هو حق الرياسة بمعنى أن يكون هو صاحب الحق الأول فى ربط عقد الزوجية وفسخه ويشمل ذلك من باب أولى الحكم بين الناس والفصل فى جميع العقود وكل أمر يتعلق بالرجال والنساء حيث يقول تعالى « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة[2] » أما الشئون الخاصة بالنساء فلم يجعل الله للرجل الحق فى التسلط عليها إذ جعل للمرأة الحق الكامل فى التصرف فى أملاكها وأوجب تعليمها حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » وبالنظر لما أعطى الله للرجل على المرأة من حق الولاية جعل لها من الأجر على طاعته اكتساب راض فوق ما تؤمل وتنتظر إذ قال صلى الله عليه وسلم « أيما امرأة ماتت وزوجها راضى عنها دخلت الجنة » وقال أيضاً « لو كنت آمراً

---

(١) النساء : ٤ .

(٢) البقرة : ٢١٦ .

أحداً أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها والذى نفسى محمد بيده لا تؤدى المرأة حق ربها حتى تؤدى حق زوجها ولو سألها نفسها وهى على قتب لم تمنعه » وقال أيضاً « ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سرته وإن أقسم عليها أبرته وإن غاب عنها نصحته فى نفسها وماله » والإسلام إذ يوجب على المرأة الطاعة للرجل لم ينقص من قدرها فى نظر الرجل بل أنه ذكر الإنسان بفضل أمه عليه وأمره برد جميلها حيث قال « ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن أشكر لى ولوالديك إلى المصير[1] » وفى هذه الآية الكريمة ما يشعر الرجل بمبلغ فضل المرأة عليه إذ هى التى أنشأته فى بطنها وأظهرته إلى الوجود من جسمها وعملت على تغذيته من لبنها والسهر على راحته وتربيته والتضحية بصحتها وكل ما تملك فى سبيل هنائه ورفاهيته ولهذا أوجب الله عليه طاعتها وقال صلى الله عليه وسلم « الجنة تحت أقدام الأمهات » وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله صلى الله عليه وسلم من أحق الناس بحسن صحبتى ؟ قال أمك ، فقال ثم من ؟ قال ثم أمك ، قال ثم من ؟ قال ثم أمك ، قال ثم من ؟ قال ثم أبوك » ولم يزل الرسول صلى الله عليه وسلم يوصى بالنساء خيراً حتى آخر عهده بالحياة إذ يقول : رفقا بالقوارير ، بل أنه ليعلم الرجال أن فى النساء بعض شذوذ خلق فيجب الصبر عليهن وتحمل آذاهن والتغاضى عن كثير مما يبدو منهن حيث يقول صلى الله عليه وسلم : « استوصوا بالنساء خيرا ، فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقومه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيرا » .

ولقد فسر الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الاعوجاج الخلق فى المرأة بما وصفها من صفات لاتستطيع المرأة أن تنكرها من نفسها وهى أنها عاطفية إلى درجة متناهية بحيث تنسى الجميل وتكفر الإحسان وتبكى وتندب حظها حتى تخدع الناس وتحملهم على تصديقها وتقول للرجل إذا أغضبها يوما مارأيت منك خيرا قط ، عدا هذا فإنها

---

(١) لقمان : ١٤

لاتفكر فى العواقب ولا تحكم العقل فى أمر نفسها حيث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهن : « عزامات ندامات يتظلمن وهن الظالمات » ولما كانت هذه الطبائع والأخلاق فى النساء من شأنها أن تثير حفيظة الغضب فى الرجل وقد تحمله على مقاطعتها لما اقترفت من أمر لا يتفق مع حقوق الصحبة والمشاركة فى شئون الحياة لم يتردد الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذكر هذه الحقيقة المرة عنهن وينصح المؤمنين بالتغاضى عنها والصبر عليها باعتبارها من الصفات الفطرية فيهن ولا سبيل إلى تخليهن عنها ولا يستطيع الرجل تقويمها مهما أوتى من قوة حيث قال : « لاخير فيهن ولا غنى عنهن يغلبن كل كريم ويغلبهن اللئيم وإنى أحب أن أكون كريما مغلوبا من أن أكون لئيما غالبا » وقال أيضاً : « خيركم خيركم بأهله وإنى خيركم بأهله » .

ولهذه الصفات التى جبلت المرأة عليها لم تكن أهلا لولاية الأحكام ولم يجعل الله الحق لها فى فسخ عقد النكاح لئلا تستعمله لأبسط الأسباب ثم تندم بعد فوات الأوان وهدم كيان العائلة بخلاف الرجل فإنه أحفظ للجميل وأكثر تدبيراً وتفكيراً فى العواقب فهو يفضلها خلقيا من هذه الناحية الفطرية التى جعلها الله من أهم الأسباب التى تجعل له حق القاومة على المرأة وصرح بذلك فى القرآن وذكر إلى جانبه سبباً آخر كسبيا يدعم السبب الفطرى ويجعل للرجل الحق الكامل فى الإشراف على ما كان له من مال إذ الرجل هو الذى يدفع المهر للمرأة ويتولى النفقة عليها فهو الجانب الرأسمالى الممول فلابد أن يكون له شىء من الضمانات على دوام الارتباط العائلى وصيانة مستقبله وهذا حق طبيعى لا يمكن أن يجادل فيه عاقل ولهذا قال تعالى : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم[1] » ومعلوم أن الرجل إنما حصل على المال الذى يقدمه للمرأة بجده واجتهاده وعمله الدائم الشاق ، فلا يعقل أن يجعل مصيره فى يد غيره ممن لم يشترك معه فى الحصول عليه ويجعله عرضة للتلف فى ساعة غضب المرأة .

على أن الشارع الحكيم عند ما أعطى للرجل حق القوامة وجعل أمر الطلاق فى يده لم يقصد بهذا اضطهاد المرأة أو سلب شىء من حقوقها ، بل إنه أمر باستفتائها فى أمر الزواج وأخذ موافقتها عليه بمن تحب وترضى وأوصى بحسن

(١) النساء : ٣٤ .

عشرتها ؛ فإذا لاحظت ذلك فعليها أن تعمل لإصلاح الأمر بحكمتها وحسن سياستها للوصول إلى تفاهم يرضى حيث قال تعالى : « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضا فلا جناح عليهما إن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير[٢] » فإذا لم يجد ذلك فلا يجوز أن تظل علاقتها فى فتور وتنافر مستمر ، بل يصبح واجبا على كل منهما أن يحتكما فى أمر الخلاف الذى بينهما إلى اثنين ممن يرتضيان ليصلح بينهما حيث قال تعالى : « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا » فإن امتنع الوصول إلى حل يضمن السعادة والهناء فقد قال تعالى : « وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعاً حكيما » .

ولقد بلغ من حرص الإسلام على بناء صرح العائلة على أساس قوى إن شرع الزواج وحض عليه وبين ماينبغى أن يراعى فيه من الأسباب الداعية لدوام الألفة حيث يقول صلى الله عليه وسلم : « النكاح من سنتى ومن لم يعمل بسنتى فليس منى » ويقول : « الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة » ويقول أيضاً : « تزوجوا النساء يأتينكم بالأموال » ويقول أيضاً : « مسكين مسكين رجل ليست له امرأة ، قالوا وإن كان كثير المال ؟ قال وإن كان كثير المال ، مسكينة مسكينة امرأة ليست لها زوج ، قالوا وإن كانت كثيرة المال ؟ قال وإن كانت كثيرة المال » ويقول أيضاً : « لاتتزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يردهن ولا تتزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن ولكن تزوجوهن على الدين ولأمة خرماء سوداء ذات دين أفضل » ونهى الرجال عن أن يجعلوا من المادة أساساً فى خطبة النساء حيث قال تعالى : « وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإماءكم أن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم » وضيق على الناس سبيل الاتصال الجنسى بغير الزواج حيث حرم الزنا واللواط واستعمال العادة السرية ونهاهم عن عضل النساء طمعاً فى زيادة المهر وتكاليف الزواج لما فى ذلك من كبت لحق المرأة فى الاتصال الجنسى قد يؤثر على صحتها ويودى بها إلى الانفجار ويحملها على أن تسعى إليه بطريق غير

---

(١) النساء : ١٢٨ .

مشروع فيكون ذلك بمثابة إكراه لها على البغاء إذ يقول تعالى : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم[1] » ولقد أحاط الإسلام المرأة بشيء كبير من القداسة إذ جعلها فى مستوى الملوك المتربعين على عروشهم بما شرعه لها من حجاب تترفع به عن أعين الناظرين حتى يسعى الرجل إلى بذل الجهد فى سبيل رؤيتها والفوز منها بنظرة الرضوان ، والرضاء به شريكا لها فى الحياة . حتى لقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم الرجل الذى يريد مخاطبة امرأة لا تمت إليه بصلة أن لا يكون ذلك إلا من وراء حجاب ، وفى هذا مافيه من عصمة لها عن أن تسمع شيئاً لا يرضيها أو يمس شرفها أو يؤذيها ويغويها ويعرضها لخداع ذوى النفوس الضعيفة من الرجال ولله در من قال : « كل المصائب مبدأها من النظر » وليس فى هذا أى مساس بكرامة المرأة أو اتهام لها وإنما هو إبعاد لها عن مواطن السوء وإشفاق عليها من التبذل الذى لا يتفق وسموها وعزتها ، ولذا أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام أن يحدث نساءه اللاتى هن أشرف نساء العالم وهن أمهات المؤمنين بالغاية من الحجاب وما يراد منه والخطاب لهن موجه إلى سائر بنى جنسهن حيث قال تعالى : « يانساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا ، ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين واعتدنا لها رزقا كريما ، يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا ، وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيرا ، إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما[2] » وختم الله هذه الآية القاضية بالحجاب وعدم الاختلاط

---

(١) النور : ٣٢ .

(٢) الأحزاب : ٣٠ — ٣٥ .

بالتحذير من مخالفة ذلك بقوله : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا[١] » .

هذا هو رأى الإسلام فى موضوع تحجب المرأة الذى لم يقصد منه إلا احترامها ورفع منزلتها فى أعين الناس وهو إذ جعل شهادتها بنصف شهادة الرجل لم يكن إلا مراعيا ما عرفت به من كثرة النسيان لتعرضها دواما لآلام الولادة وما يبلبل أفكارها من متاعب تربية الأطفال وقد صرح الله بهذا فى القرآن إذ يقول تعالى : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى[٢] » ، وهو إذ يقضى بأن يكون للرجل ضعفا نصيب المرأة فى الميراث فما ذلك إلا لأن الكسب عادة من عمل الرجل وولده وهو وارث الاسم وهو المكلف بالنفقة على المرأة والأيتام أما هى فلا تكلف إلا نفسها .

ولست أدرى ما هى تلك الحرية التى تتطلبها المرأة اليوم ولا تجدها فى الإسلام وتريد أن تتساوى مع الرجل فيها أهى حرية فى الأشغال الشاقة التى يزاولها الرجل لإسعادها وتوفير أسباب السعادة لها وقد رأت بعينها ما تعانى المرأة الأوربية من المشاق فى سبيل كسب العيش والمساهمة فى أعمال الدفاع فى السلم والحرب مما أعفاها الإسلام منه ؟ أم حرية السفور والاختلاط بالرجال وهى ترى بعينها ما أصاب الأخلاق من تدهور وانحطاط وما أصاب العائلة من تفكك وانقسام نتيجة ذلك الاختلاط الذى أباحه الغرب فنشأ عنه إضراب الشباب عن الزواج وترجيحهم مرافقة النساء بصورة غير مشروعة وكثرة الأبناء غير الشرعيين إلى غير ذلك من المساوى التى سببت انهيار صرح المرأة وتفاقم الخطب وذهبت المرأة ضحية ذلك على الخصوص .

أم حرية الرأى فلم يحرم الإسلام عليها ذلك إنما منعها أن يكون ذلك عن طريق الاختلاط بالرجال ؟ أم أنها تقصد من ذلك الاعتداء على حق الرجل فى الولاية وتحاول أن تصل إلى ذلك بطرق ملتوية وأساليب مختلفة مستعملة فى ذلك مالا يرضى به الله من رفع الحجاب وكثرة الاختلاط بالرجال ؟ إذا فلتفصح عن هذه الحقيقة ولتجاهر

---

(١) الأحزاب : ٣٦ . (٢) البقرة : ٢٣٨ .

بعدم رضائها بذلك الحق الذى خوله الله للرجل ولتقل أنها تريد الظلم والتحرر من قيود الدين فلتأذن بحرب من الله ولتعرب عن عدم حاجتها لمعونة الرجل لها واستغنائها عن خدماته ونفقاته .

بل تتجرد عن أنوثتها وعاطفتها الجنسية حتى يمكن لها أن تعلو على الرجل وتملى إرادتها وسلطانها عليه .

أما الرجل المسلم فإنه وإن استطاع أن يكظم غيظه ويدوس على شهوته فإنه لا يستطيع أن يغالب ما جبل عليه من شرف وشهامة ونبل فلا يمكن أن تسمح له نفسه بأن يترك المرأة تكد فى طلب العيش وهو قادر على كفايتها من النفقة ولا يسمح له وجدانه أن يقبع فى البيت ويدع المرأة تدافع عنه بل أنه ليرى من الظلم الصارخ أن يحملها على السعى لجمع المال لتدفع له (دوطة) تبلغ بها لذتها فى الحياة بدل المهر أو أن يعف عن إحصانها وهو قادر على ذلك .

حُرّية المرأة

أما الذين يطالبون لشخصها ... حرية الأعمال والقولات
إذ يبتغون لها السفور وإن تشـ ... ـارك بعلها فى السعى للنفقات
ويزينون لها اقتحام الصعب أو ... نيل المنى بالجد والعزمات
لتفوز بالتحرير من أسر الرجا ... ل وتستقل بكامل السلطات
وتكون كالأنثى لدى الأفرنج من ... قد سلموا بالحق للفتيات
فى أن تزاول ما يزاوله الفتى ... حتى بأخذ الرأى والأصوات
فى (البرلمان) وقد قضوا بشقائها ... إذ حملوها أعظم الكلفات
ثمنا لذاك وامعنوا فى الجور والإ ... يذاء والتنكيل والقسوات
إذ أنهم ضنوا عليها بالزوا ... ج بها إذ لم يقبضوا (الدوطات)
منها فاضحت شغلها لتنال منهـ ... ـم حقها من أشرف المتعات
حتى إذا فشلت فتاة فى الزوا ... ج ترهبت لله طول حياة
أو أنها ظلت تكد لعيشها ... محرومة من أحسن اللذات

فالله يشهد أنهم لم ينصفوا الأ ... نثى وقد راموا لها الفتنات
وتعمدوا بصنيعهم إيذاءها ... وسقوطها مع أرفع الدرجات
إذ عرضوها للتبذل والسقو ... ط وحملوها وافر التبعات
من غير أن يتحملوا عنها من الـ ... ـعبء الذى خصت به بالذات . .
شيئا وقد سلبت كثيرا من هنـ ... ـاء العيش والإسعاد واللذات
بل إنها شقيت كثيرا فى الحيـ ... ـاة نتيجة الإغراء والخدعات
من ساقط الأخلاق من لا ينشدو ... ن بهذه الدنيا سوى الشهوات
من كل من يسعى لصيد الغا ... نيات بزائف الآمال والقولات
ومتى علقن به فليس لهن غيـ ... ـر الصد والإيذاء واللعنات
حتى لقد عم الفساد وذاقت الأ ... نثى الشقاء ولوعة الحسرات
وغدا شباب اليوم يزهد فى الزوا ... ج بهن ابقاء على السمعات
وغدا الذين دعوا إلى تحريرهـ ... ـن يصوبون اللوم للفتيات
ولو أنهم راموا النصيحة للنسا ... ء لاحجموا عن هذه البدعات
ولكنوا الأنثى من استخدامها ... قلب الرجال لأشرف الغايات
ولعلموها كيف تأسرهم بحسـ ... ـن الخلق والتدبير والرحمات
وتحملوا عنها المشاق وأخلصوا ... فى حبها الأعمال والنيات
ولأفهموها أنها لا تستطيـ ... ـع الصبر عن زوج بلا مريات
ويهمها منه الرضاء لكى تسخـ ... ـره لها بالقلب والعضلات
ويظل معوانا لها فى كل معـ ... ـترك ومنقذها من الهلكات
بل خادما لقضاء ما تحتاجه ... أو حارسا للطهر والعفات
لا أن تشير لرغبة استغنائها ... عن ما يقدمه من الخدمات
باسم العدالة والعدالة لا تؤ ... يدها وتمقت هذه القالات
إذ أنها هى فى انصراف الناس كلٌّ ... نحو ما يختار من مهنات
حيث التساوى لا يكون بأن تحا ... ول أن تقاوم مقتضى الفطرات
أو أن تغير سنة المولى التى ... هى قد قضت بتفاوت الدرجات
فى كل شىء فى الوجود وصيرت ... من ذا عمار الكون واللذات

بل وانتظام السير فى الدنيا على أسس تحقق صالح النسمات
وهى التى قد خصصت أمر القوا مة فى الرجال لوفرة الميزات
ولبعضهم قد أسندت أمر التحكـ ـم فى عبـــاد الله بالآيات
وعلى البقية طاعة وجبت وأن أجلهـا هى طاعة الزوجات
هى سـنة المولى وليس من المعيـ ـب خضوعهن لصاحب السلطات
بل لا يعد من الحقـارة أن تقو م فتاتنـا فى البيت بالخدمات
والظلم كل الظلم أن ندعوا النساء إلى السفور بكامل الزينـات
ونعف عن أحصانهن إذا وقعـ ـن بمـا نعد لهن من شبكات
ومن النذالة أن تخادعهن إذ نرضى لهن السعى للنفقـات
فى هـذه الدنيـا ونحن مكافو ن بهـا من المولى العلى الذات
أو أن تمـكنهن من أمر الدفا ع ونحن موصوفون بالقوات
أو أن نقر نفوذهن وقد وهبـ ـنـا بسطة فى العلم والعضلات
والله أعطانا عليهـا سـلطة وقوامة بالشرع والفطـرات

نظام الزواج

العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة قديمة يرجع تاريخها إلى أصل الإنسان حيث خلق الله آدم وخلق منه زوجه حواء وقال تعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء[1] » . ومن أجل هذا كان السر فى خلق نوعى الرجل والمرأة إنما هو الوصول إلى تكاثر النسل حيث جعل الله من اجتماع ماء الرجل بماء الأنثى مادة أساسية لخلق الإنسان حيث قال تعالى : « فلينظر الإنسان مما خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب[2] » ، وللوصول إلى هذه الغاية أوجد الله فى النفوس الشهوة والميل إلى الاجتماع الجنسى وجعل بين كل من الرجل والمرأة مودة ورحمة وحنينا إلى اتصالهما فى خلوة وحبب إليهما معا كل ما يصادفهما فى هذا السبيل وما ينشأ عنه ويترتب عليه

(١) النساء : ١ .
(٢) الطارق : ٥ — ٧ .

من متاعب وآلام وتكاليف جسام ولأجل اشباع هذه الشهوة الطبيعية فى الإنسان وتنظيم هذه العلاقة تنظيما صحيحا يتمشى مع العقل والمنطق ، شرع الإسلام الزواج حيث قال صلى الله عليه وسلم : « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر واحفظ للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » وسن الله للزواج نظاما وأعطى لكل من الرجل والمرأة ماله من حقوق كاملة غير منقوصة ونبهه إلى ما عليه من واجبات لابد أن يؤديها بما يتلاءم مع تكوينه واستعداده لتقوم الشركة بينهما فى الأعمال على أساس متين حيث قال تعالى : « لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما أتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما أتاها[1] » . فليس من المعقول أن يكلف الرجل بأمر لا يمكن أداؤه كما أنه لا يمكن أن تحمل المرأة بأعباء تنوء عن حملها .

ولما كانت المرأة ضعيفة فى تكوينها رقيقة فى شعورها معرضة دواما لآلام الحيض والحمل والولادة والرضاعة عهد إليها بإدارة البيت الذى هو موطن الراحة وموضع السرور والرفاهية ، بل عاصمة ملك الرجل الذى يشرف منه على جميع شئونه حيث جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها من كل مافيه بما فى ذلك الرجل نفسه حيث تشرف على طعامه وشرابه وتعنى بصحته وجميع شئونه البيتية . وكلفها بمهمة شاقة تتوقف عليها سعادة الأمة ومستقبلها هى تربية البنين والعناية بصحتهم ونظافتهم وتقويم أخلاقهم وتصحيح معتقداتهم وتثقيفهم بمختلف الوسائل وجعل لها سبحانه تعالى من المنزلة الرفيعة فى قلوب الرجال مايحملهم على العمل لاسترضائها والتقدم لخطوبتها وتقديم المهر لها وبذل الجهود للحصول على إيجاد النفقة لها وأولادها بما يوفر لهم جميعاً أسباب السعادة والهناء ويحول دون ما يعكر صفوهم وأن يكونوا جنوداً أوفياء يجاهدون بأموالهم وأنفسهم فى سبيل صد كل عدوان يوجه إليها أو يجرح إحساسها وكرامتها بالقول أو العمل من أى أحد كان . فكأنما خلق الرجل ليكون أداة مسخرة لسعادة المرأة يسعى ويكد ويجاهد ويناضل بكل ماوهبه الله من قوى وصلابة فى الأعضاء من أجل نعيمها وتحقيق غايتها ، وبالنظر لما أودع الله فى جنس الذكر من الحيوان مطلقا من الشيافة

(١) الطلاق : ٧ .

والميل الطبيعى لكثرة الوقاع ، الأمر الذى قد لا تسد المرأة الواحدة حاجته إليه خصوصاً فى أيام الحيض والنفاس ولما كان عنصر المرأة اللطيف أكثر احتياجا إلى معين يحمل عنها تكاليف النفقة والدفاع لتشعر بلذة الحياة أباح الله للرجل القادر على العمل تعدد الزوجات حسب استطاعته وأن يعول امرأتين فأكثر إلى أربع ليؤدى واجبه لإسعاد أكبر عدد ممكن من النساء وأداء ما لهن من حقوق على الرجال بينما يكون بذلك قد ضمن لنفسه العفة وصان نسله من السفاح وعصم نفسه وأهله وولده من مضار البغاء بل وحفظ ماله أن يذهب هدراً على مذبح الشهوات غير المشروعة حيث قال تعالى « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا[1] » وإنما خير الله الرجل فى حالة الخوف من عدم العدل بين الزوجة الواحدة أو ملك اليمين إشارة إلى ضرورة مراعاة واجب العدل حتى مع الزوجة الواحدة بأن يحسن عشرتها ولا يهجرها وحرم عليه العزل[2] فى الجماع لأشباع شهوتها الجنسية ولئلا يحرمها مما تتوق إليه من النسل فإن عرف من نفسه أنه لا يستطيع ذلك فليعدل عن الزواج بالحرائر إلى ملك اليمين لأن حق ملك اليمين فى العدل قائم بوجوب الرفق وحسن المعاملة فقط .

وقد طبق الرسول هذا بنفسه فتزوج بعشر نساء بعد الرسالة مع أنه كان مكتفياً فى صباه بزوجة واحدة هى السيدة خديجة قبل ذلك وكان من أحب نسائه العشرة إليه السيدة عائشة بنت الصديق وكانت أصغرهن وكانت هى البنت الوحيدة البكر التى تزوجها مما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن فى حاجة إلى تعدد النساء لولا أنه أمر بذلك ليبين للناس هذه السنة ويروض نفوس سائر النساء على ترك الغيرة التى لا معنى لها والتى تتعارض مع أوامر الله وصلاح المجتمع الإنسانى وعنصر المرأة بصورة خاصة . وكم فى التعدد من مزايا عظيمة لو تأملها العقلاء المنصفون لما عابوا على الإسلام ما جاء به من تشريع فى هذا الخصوص بل لو أدركت المرأة حقيقة الأمر ونظرت إلى مصلحتها

---

(١) النساء : ٣ . (٢) اختار القول بالتحريم الإمام ابن حزم وذهب عشرة من الصحابة وآخرون إلى جواز العزل مطلقا والأكثرون على جوازه بإذن الزوجة الحرة وحرمته بدون إذنها كما أوضحه الإمام ابن القيم فى زاد المعاد وغيره من الفقهاء . اهـ مخلوف .

الحقيقية بعين مجردة من الغرض والرغبة فى الاستئثار بالنفع لشخصها فقط دون باقى أبناء جنسها لما ترددت فى الخضوع لأوامر الله وقبول التعدد عن طيب نفس ولهم فى زوجات النبى أمهات المؤمنين أسوة حسنة ونستطيع أن نلخص جانباً من تلك الفوائد التى رمى إليها الإسلام فى إباحة التعدد فيما يأتى .

١ — إحكام روابط الألفة بين المسلمين عن طريق توسيع دوائر المصاهرة ووشيجة النسب وربما كان هذا من الأسباب التى من أجلها أكثر النبى صلى الله عليه وسلم من الزواج .

٢ — إكثار النسل لما يترتب على ذلك من زيادة عدد الأيدى العاملة لعمار الكون وخير المجتمع حيث يقول صلى الله عليه وسلم « تناكحوا تناسلوا فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة » .

٣ — ضمان عفة الرجل وعدم تطلعه إلى الزنا خصوصاً فى حال قيام مانع من ناحية المرأة كالحيض والنفاس أو وجود عاهة بها قال صلى الله عليه وسلم « عفوا تعف نساؤكم »

٤ — صيانة المرأة عن التبذل والفساد ومحاربة الرذيلة وضمان صحة الأنساب ذلك لأن النساء أكثر عدداً من الرجال وهن بحكم أنوثتهن فى حاجة إلى من يشبع شهوتهن ويحميهن ويقوم بواجب نفقتهن ، الأمر الذى يحملهن على البحث عن رجل ولو أدى بهن الأمر إلى الفساد وما يترتب عليه من كثرة أولاد الزنا ، والرجالُ من القلة بحيث لا يوازى عددهم نصف عدد النساء لما يتعرضون له من القتل فى الحروب ، ومن الموت فى السلم من كثرة الإجهاد وتحمل مشاق الحياة ولا سبيل إلى إيجاد حل لهذه المشكلة إلا عن طريق تعدد الزوجات وقد نظمت فى إباحة التعدد ما يأتى .

تعدد الزوجات

والدين فى أحكامه جارى الطبا ... ئع والشعور ومقتضى الحالات
فأبى التنطع أو مصادمة الطبيعـ ... ـة أو نظام الكون ذى السنات
فدعا الرجال إلى الزواج بما يطيـ ... ـب وما يروق لهم من الزوجات
وأقله مثنى وأكثره ربا ... ع دون ما نظر إلى الثروات

بل قال أحمد إنهن وسيلة لتزايد الأموال والخيرات
فالله سوف يعين عائلهن فى الد نيا ويؤتيه من البركات
نظرا لما ينجبن من نسل يو حد ربه فى السر والجهرات
وبه يباهى المصطفى يوم الزحا م وذا لعمرى أشرف الغايات
وبنفسه رسم السبيل إلى التعد د حيث أمسى أعظم القدوات
والله إذ ندب التعدد لم يرد شططاً فقيد هذه المتعات
فى ضمن دائرة أهم حدودها العدل فى قسم وفى النفقات
من ثم قال بأنكم لن تعدلوا بالرغم عن حرص مع الزوجات
فتعدد الزوجات أمر لازم لابد منه بمقتضى الفطرات[1]
جريا على تقديم ما قد خف من ضرر على ما بجلب الويلات
وكما يباح مع الضرورة كل ما قد كان ممنوعا من الحالات
والعدل مطلوب بقدر المستطا ع وما يطيق المرء من فعلات
وحدوده أن لا يميل المرء كل الميل نحو مليكة الحظوات
ويصير الأخرى تضيق بنفسها ذرعا لما تلقى من الجفوات
وتظل تندب حظها لصدوده عنها وسوء العيش والعثرات
أما فوائده فتعداد النسا ء يزيد مضطردا مع السنوات
والحرب تحصد فى الرجال وينتهى بوقوعهن بأحرج الأزمات
إذ هن أحوج ما يكون إلى امرئ يقضى مآربهن والطلبات
والله أودع فى الرجال شباقة وقوى تميزهم عن الفتيات
بدليل ما هو ثابت ومشاهد من متعة الحيوان بالفطرات
والميل للاكثار من نسل به يقوى الضعيف بكثرة العصبات
ولذاك يصعب صبرهم ورضاؤهم بقرينة لا تشبع الشهوات
نظراً لما ينتابها من عارض بالسقم والميلاد والحيضات
والعقم فى بعض النساء وكل ما قد لا يسر المرء من عاهات

---

(١) هذا اللزوم إنما هو بالنسبة لمن لا تعفهم واحدة ويستطيعون التعدد مع العدل فى القسم والنفقات اه مخلوف .

فى مثل هذا يستطاب تعدد الز ... وجات إبقاء لحسن صـــلات
إذ أنه حـل بحق عادل ... ما فيه من حرج ولا فرقات
بل إنه يدعو إلى الإقلال من ... أمر السـفاح ورفقة المتعات
وتصح أنساب البنين ويكثرو ... ن فيملأون البيت بالزينات
مرحى بتشريع ينظم لذة الـ ... إنسان يعصمه من الزلات
ويصونه عما يشين من الدعا ... رة والخنى وتغلب الشهوات
ويكون فيه ضمان مصلحة النسـا ... ء وما يراد لهن من طلبـات
معقولة لاما يؤمن من رغبـة ... فيهن قد بنيت على الغـيرات
إذ هن لا يرعين صالحهن جم ... عا بل يملن لجانب الأثرات
فى ميلهن إلى التخصص بالرجا ... ل وإن أسأن بذ إلى الفتيـات
أو كان هـذا يستحيل نفاذه ... أو فيه أنواع من الآفات
أو كان فيه تصادم بنظام ذى الد ... نيـا وما يحتاج من فلذات
لعمارها وفقـا لسـنة بارئ الأ ... كوان فى الحيـوان والثمـرات
ولئن شهدنا فى التعدد ما يعـكـ ... ـر صفـونا ويسبب الفرقات
ما بين إخـوان فذلك عائد ... للأمهات مصـادر الثـورات
العـاملات على التحكم فى مصـ ... ـير النـاس والإفساد للبيئـات
المليـات شروطهن على الرجا ... ل بمـا يعزز أسخف الغـايات
إذ فى صحـائفهن يكتب كل أسـ ... ـباب الفراق لهذه الخصـلات
بل وانتشار الفسق بين الناس والآ ... ثام والإجـرام للغـيرات
إذ فى تبرجهن ما قد يوقظ الشهـوات والأحقـاد والفتنـات
ولذاك قال لنـا النبى بأنهـ ... ـن يفقن أهل النار فى الكثرات
والله نسأله لهن هـداية ... لخضوعهن لحكم عالى الذات

وفعل الرسول صلى الله عليه وسلم وأحاديثه شاهدة على ذلك ، وأن مما يؤسف له أن جماعة من المتأخرين قد عكسوا الأمر فقالوا أن الإسلام لا ينظر بعين الرضا إلى تعدد الزوجات وأن التعدد لا يجوز إلا بشرط العدل وقد حكم الله باستحالته

فى قوله تعالى فى آية أخرى : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » وهذا قول ظاهر البطلان لأسباب :

أولا : لأن التعدد أمر دعا إليه الله جل وعلا والله لا يأمر بالمحال ولا بما فيه فساد .

ثانيا : لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد فعله وفعله سنة وحاشاه أن يقدم على أمر لا ينظر إليه الشرع بعين الرضا .

ثالثا : والواقع أن القائلين بهذا إنما قاسوا طبائع البشر بما يجدونه فى نفوسهم من ضعف فقالوا إن الله قد أحاط التعدد بقيد منيع من وجوب العدل الذى حكم باستحالته . وفاتهم أن الله الذى حكم باستحالة العدل بمفهومه العام قد وضح المراد منه أو ما ينبغى مراعاته مع الزوجات بقوله فى نهاية الآية « فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » أى أنه تعالى عندما دعا إلى التعدد وأباح العدول عنه فى حال الخوف من عدم العدل عاد فنبههم إلى أنه لا يراد من العدل ما يرضى النساء فهن لا يرضيهن شىء وليس المراد بالعدل المساواة بينهن فى كل شىء حتى فى الحب فذلك من أعمال القلب التى لا قدرة للإنسان عليها وإنما المراد شىء آخر يستطيع كل أحد أن يعرفه من نفسه

ذلك هو أن يكون المرء المؤمن يملك نفسه ويهيمن على عاطفته فلا يندفع مع من يحب من النساء إلى حد لا يمكنه من مجاملة الأخرى بشىء من اللطف وحسن العشرة الأمر الذى يجعلها فى وضع لا تعرف معه نفسها إن كانت زوجة أو مطلقة[1] .

ولقد أرسل إلى صاحب مجلة العرب التى تصدر فى كراتشى بيتين يداعبنى فيهما لزواجى باثنتين فشطرتهما وذيلتهما وأعدتهما إليه كما يلى :

(البيتان) :

يا من تزوج باثنتين ألا اتعظ ألقيت نفسك ظالماً فى الهاويه

ما العدل بين الاثنتين بممكن لو كنت تعدل ما أخذت الثانيه

التشطير :

(يا من تزوج باثنتين ألا اتعظ) وعظ العباد بما ترى من فائده

واهتف بمن يلحاك زوج الواحده (ألقيت نفسك ظالماً فى الهاويه)

---

(١) العدل فى قوله تعالى (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) مراد منه العدل فيما يمكن الإنسان وهو القسم والنفقه ويدخل فيه المقدور من مظاهر حسن العشرة والعدل فى (ولن تستطيعوا أن تعدلوا) هو العدل فى المحبة وميل القلب (ولكل كلمة مع صاحبتها مقام) مخلوف .

(ما العدل بين الاثنتين بممكن) حقاً ولكن الضرورة قاضيه
بتعدد الزوجات مع قول الأولى (لو كنت تعدل ماأخذت الثانيه)
فمع امتناع العدل قال لنا انكحوا ما طاب من لم تخف عنه خافيه
بل إنه شرع التعدد أولا مثنى ثلاثاً والختام الرابعه
وبحال خوف المرء من عدم اتبا ع العدل جاز الاكتفاء بواحده
أولا ففى ملك اليمين مجال من هو لا يراعى غير نفس عابثه
ويود إحصانا وذا فى الحق أد نى ما يعول فتى بدنيا فاتنه
والله قال بأنكم لن تعدلوا بين النساء فليس ثمة فائده
إلا تحرى العدل قدر المستطا ع وحسبه معهن ضبط العاطفه
فالعدل فى نظر الشريعة (لا تمل) ميلا يصير أختها كالناشزه
والشرع جارى فى التعدد سنة لله فى حال الخلائق غالبه
وقضى بتحديد التعدد إذ به تمتاز عن طبع الدواب السائمه
والله يسر بالتعدد شرعه منعاً لأضرار هنالك باديه
ولأن فيه عصمة للنفس عن فعل الحرام ومتعة ورفاهيه
بل فيه إبعاد النساء عن الخنى والنشء أن يغدوا لأم زانيه
ورسولنا قد سنه لتكاثر النس ل الذى منه عمار الفانيه
وبه يباهى المصطفى الأقوام فى يوم الزحام وذاك جل مراديه
فاحرص عليه إن استطعت ولا ترم ظلما تنل دنيا بحق غاليه
هذى نصيحة مخلص لله لم يعبأ بما تمليه غيرة غانيه
ثم الصلاة على النبى محمد من فى اتباع هداه حسن العاقبه

السنة فى تعدد الزوجات

قلنا أن الإسلام لم يوجب على الرجال تعدد الزوجات وإنما هناك حالات يجب فيها التعدد للصالح العام ،وأن الرسول صلى الله عليه وسلم بدأ بنفسه فى تطبيق هذا الواجب، حيث تزوج بعشر نساء بعد أن جاوز الأربعين ، مع أنه كان مكتفياً بزوجة واحدة

قبلها وبعدها إلى أن توفيت السيدة خديجة، وأن مما يؤسف له ، أن لا يفهم الناس هذه الحقيقة ويتخذ منها عباد الملذات سبيلا للطعن فى الإسلام وفى شخص الرسول عليه الصلاة والسلام، فيقولون عنه أنه كان شهوانياً وما ذلك إلا لأن القائلين بهذا لم يشعروا فى أنفسهم بالحاجة إلى الزواج إلا لمجرد الشهوة البهيمية . فنظروا إلى الموضوع بمنظارهم وقاسوا الرسول صلى الله عليه وسلم فى شعوره بأنفسهم فحكموا عليه بما حكموا وهو قياس فاسد وهم فيه مغرضون وأين هم من مقام الرسالة ؟! وأنى لهم أن يصلوا إلى درجة تجعلهم يفهمون من أنفسهم حقيقته عليه الصلاة والسلام ، ويدركون مدى ما كان يقاسيه عليه الصلاة والسلام من آلام نفسية تحملها بكل ارتياح ، ورضى فى سبيل امتثاله أمر ربه بتعدد الزوجات ، وأن ذلك كان لحكم بالغة لا يدركها إلا الباحثون المنصفون . وأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان آية من آيات الله فى مغالبة الشهوة وضبط العاطفة وأن ذلك له معجزة من المعجزات التى خص الله بها نبيه عليه الصلاة والسلام .

حقاً إن الرجال قد فطروا على حب المرأة لقضاء الشهوة الجنسية ، شأنهم فى هذا كشأن سائر الحيوان : ولذلك نظروا إليها كأنها لم تخلق إلا لتكون متعة للرجل ، ومن أجل هذا حبب إليهم الزنا ، وراموا التحرر من قيود الزواج وتكاليفه ، وجاء الإسلام بما هو أسمى من ذلك ، إذ جعل المرأة جزءاً متمماً للرجل ، وعدد فضائلها عليه بحملها إياه فى بطنها وتكوينه فى أحشائها وإخراجه من بطنها إلى هذا الوجود ، ثم تعهدها له بكل ما هو فى حاجة إليه من رضاعة وحضانة وتعليم وثقافة ، وقدر الرسول صلى الله عليه وسلم للمرأة هذا الفضل ، وحض المسلمين على إجلالها حيث قال — الجنة تحت أقدام الأمهات — وأشار إلى الغاية التى يجب أن تلاحظ فى اختيار المرأة عند إرادة الزواج ، وهى أن تسمو عن الشهرة أو المادة وتتجه دائماً إلى الكمال الخلقى وما يوصل إليه من دين . حيث قال صلى الله عليه وسلم — تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين ترتب يداك — وقال أيضاً : لا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن ، ولا تزوجوهن لأموالهن ، فعسى أموالهن أن تطغيهن ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة خرساء سوداء ذات دين أفضل» إذاً فالرسول الذى يزعمون أنه كان شهوانياً كان يأمر المسلمين بأن لا يكونوا فى أمر الزواج شهوانيين ولا ماديين ؛ بل عليهم أن يراعوا فى ذلك ما يأمر به الدين من

تزوج المرأة بقصد كثرة النسل ونشر الفضيلة ومحاربة الرذيلة ، ليعمر الكون برجال صالحين يعملون لخير الإنسانية . ولذا حبب فى زواج المرأة الولود وقال — تناكحوا تناسلوا فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة — وإذا كان المراد من الزواج هو مجرد الشهوة فمن الطبيعى أن لا يتخير الرجل من النساء إلا الجميلات الصغيرات الأبكار دون الثيبات وإذا أراد أن يتجاوز عن ذلك فلا أقل من أن يكون هناك ما يعوضه عن ذلك بما يطمع فيه من الأمور المادية كالمال والجاه ، أما الدين الذى يدعو إليه الإسلام فهو أبعد ما يخطر على قلب الرجل العادى فى هذه الحياة . ولذا كان من الصعب جداً إقناع الناس بجعله غرضاً أساسياً فى الزواج .

ومن أجل هذا عمل الرسول صلى الله عليه وسلم على حمل الناس على تحقيق مرامى الإسلام وبدأ بنفسه ، فلم يتزوج امرأة إلا لدينها ليقتدى به الناس فى تجريد أنفسهم عن فكرة الشهوة وتوجيهها لإسعاد المرأة من غير نظر إلى جمالها أو مالها أو حاجتهم إليها لمجرد العاطفة ؛ بل لتعف ولتكون أما صالحة لتربية النشء ، وبث روح الدين والخلق الكريم فى نفوس أولادها لإصلاح حال المجتمع .

ومن أجل هذا عندما ماتت السيدة خديجة رضى الله عنها وعلمت خولة بنت حكيم زوجة عثمان بن مظعون بحاجة الرسول إلى الزواج وإيثاره الزواج بصاحبة الدين جاءت إليه وقالت : «أى رسول الله ألا تتزوج ؟» . فقال — من — قالت «إن شئت بكراً وإن شئت ثيباً ؟ » قال :— فمن البكر ومن الثيب — فقالت : « أما البكر فبنت أحب الناس إليك عائشة بنت أبى بكر ، وأما الثيب فسودة بنت زمعة آمنت بك واتبعتك . فقال — حسن — ولما كانت سودة بنت زمعة وزوجها الأول ابن عمها من أسبق الناس للاسلام الذين هاجروا إلى الحبشة ثم رجعا ومات زوجها وبقيت منبوذة من أهلها ولا عائل لها فضلها الرسول صلى الله عليه وسلم على كل أحد رغم كبر سنها وتزوجها ولكنه فى ذات الوقت رأى من الدين الوفاء لأحب الناس إليه فى الله ، فخطب ابنته عائشة وكانت صغيرة لا تشتهى . ولذلك لم يدخل بها إلا بعد خمس سنوات فى العام الثانى من الهجرة . وقد أحبها الرسول صلى الله عليه وسلم لصغر سنها ولأنها البكر الوحيدة التى تزوجها وبلغ من إعجابه بها وتقديره لحداثة سنها أنه كان يأتى بالبنات ليلعبن معها وكان من حقه أن يكتفى بها ولا يقدم على الزواج بغيرها لئلا يجرح إحساسها ولا

يسيء إليها إن كان فى التعدد إساءة لها ، ومع هذا فإنه عندما بلغه أن حفصة بنت عمر ابن الخطاب قد ترملت وأن أباها قد عرضها على أبى بكر ليتزوجها فسكت فعرضها على عثمان فسكت كبر ذلك على رسول الله صلى الله عليه وعز عليه أن تعرض امرأة مؤمنة هى ابنة صديقه عمر بن الخطاب فلا يقبل الزواج بها أكابر الصحابة فقال يتزوج حفصة من هو خير من أبى بكر وعثمان وتزوجها فى العام الثالث من الهجرة واستشهد فى نفس السنة عبد الله بن جحش وترملت زوجته زينب بنت خزيمة ولم تجد من يعولها فبادر الرسول بزواجها ليحسن عزاءها فلم تلبث عنده غير شهرين ، ثم ماتت قريرة العين . وعندما مات عبد الله المخزومى من جرح فى غزوة أحد ذهبت زوجته هند أم سلمة إلى الرسول كسيفة البال حزينة الفؤاد وقد بدا عليها كبر السن وهول المصيبة فلما أبصرها واساها عليه الصلاة والسلام قائلا — سلى الله أن يخلفك خيرا — فقالت له ومن يكون خيرا من أبى سلمة — فلم يكن منه إلا أن يوجب على نفسه زواجها فخطبها ودخل بها فى العام الرابع من الهجرة ، وقد حدث أن لأميمة بنت عبد المطلب عمة الرسول صلى الله عليه وسلم ابنة اسمها برة بنت جحش خطبها الرسول صلى الله عليه وسلم من قبل لعتيقه زيد فرفضت ورفض أخوها ذلك لما فى ذلك من عار يلحق بهما بحسب ما كان لهما من العادات والتقاليد الجاهلية وربما حنقا عليه فى سرهما لأنه لم يخطبها لنفسه بدلا من عتيقه مع أنها كانت جميلة وصغيرة ولكنه عليه الصلاة والسلام أصر على زواجها من زيد وزوجها له فعلا ليقضى على ما كان للعرب من التقاليد التى لا يقرها الإسلام فلم تلتئم معه ولم يسعد هو بزواجها وجاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يعرض عليه الرغبة فى طلاقها فنصحه بالاحتفاظ بها رغم ما كان يعلمه من الله أنها ستكون زوجة له فلما أصر على الطلاق وقد تحققت الغاية التى كان يرمى إليها من مصاهرته له أذن له بطلاقها وتزوجها عليه الصلاة والسلام فى السنة الخامسة من الهجرة وسماها زينب إرضاء لها ولذويها من جهة ومن الأخرى ليبطل عادة أخرى من عادات الجاهلية هى عدم الزواج بمن كانت مزوجة بزوج لم يكن من طائفة الأشراف المنسبين أو المنتسبين لغير آبائهم بالتبنى ، وفى نفس العام حارب النبى صلى الله عليه وسلم بنى المصطلق ونكل بهم ووقعت فى الأسر جويرية ابنة الحارث بن ضرار سيد قومه وكانت فى السهم لثابت بن قيس بن شماس

فكاتبته على نفسها وجاءت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم تستعينه على كتابتها فأراد الرسول أن يحررها وقومها فوعدها بسداد ما عليها وعرض عليها أمر زواجه بها فرحبت بذلك فلما شاع الخبر قال الناس أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأسر وأرسلوا ما بأيديهم وأعتق مائة أهل بيت من بنى المصطلق فلما علم أبوها بذلك جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأسلم وزوجه إياها وعلم الرسول صلى الله عليه وسلم بأن أم حبيبة بنت أبى سفيان ألد أعدائه (إذ ذاك) التى أسلمت وهاجرت مع زوجها عبيدالله ابن أبى جحش قد تنصر زوجها ومات على النصرانية وبقيت ثابتة على إسلامها دون أن تستطيع العودة إلى أبيها احتفاظاً بدينها فقدر لها ذلك وأرسل إلى النجاشى يطلب إليه أن يخطبها له فخطبها وقبل زواجها نيابة عنه وأرسلها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة ودخل بها ، وفى نفس العام عند ما جىء بالسبى من يهود خيبر مررن بالقتلى من رجالهن فجعلن يولولن ويحثن التراب على رؤوسهن إلا صفية بنت حى بن أخطب سيد قومه كانت زوجة سلام بن مشكم اليهودى ثم خلفه عليها كنانة بن الربيع صاحب خيبر فأنها كانت رابطة الجاش عظيمة الجلد فتفرس فيها الرسول خيراً فأدناها منه وأعتقها وعرض عليها الإسلام فأسلمت وتزوجها ليحفظ كرامتها وأقامت على الإسلام بل أنها حدثته بأنها كانت تتوقع ذلك من قبل لرؤيا رأتها فى المنام وقصتها على زوجها فكره ذلك منها ، وكانت صفية من أجمل النساء وعمرها إذ ذاك سبعة عشر عاما ومع ذلك فإنه لم يمض على زواجها غير قليل حتى أرسل له المقوقس عظيم القبط فى نفس العام جارتين من الحسان الفاتنات ليتمتع بهما ويشبع غريزته — بحسب مايظن — ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم أبى أن يستأثر بهما بل تسرى بإحداهما وهى مارية القبطية رغبة فى النسل وأنجب منه ولده إبراهيم ووهب الأخرى لشاعره حسان ، ولما زار البيت الحرام فى نهاية العام السابع أيضاً وعلم أن برة بنت الحارث الهلالية ممن لقين عناء كبيراً من سفهاء مكة وأذاهم رغب إلى عمه العباس ابن عبد المطلب أن يزوجه بها مع أنها كانت امرأة مسنة تجاوز عمرها الخمسين فزوجها له وأصدقها عمه العباس بن عبد المطلب أربعماية درهم وسماها الرسول صلى الله عليه وسلم ميمونة لأنه كان يرى فى اسم (بره) تزكية للنفس ولذا قال لها بل أنت ميمونة وهى آخر نسائه وكان زواجه بها سبباً فى إسلام ابن أختها خالد بن الوليد الذى كان حربا على الإسلام ثم أصبح من أكبر قواد المسلمين بعد ذلك .

وهكذا نرى السبب فى زواج النبى صلى الله عليه وسلم واضحاً جلياً وهو أن يسن لأمته سنة حسنة فى العمل لأحصان النساء المسلمات وتخير ذوات الدين منهن دون نظر إلى الجمال أو المال وأنه عليه الصلاة والسلام لم يقدم على الإكثار من الزوجات إلا لمحاربة ذلك الطبع الذميم الذى يستوى فيه الإنسان مع سائر الحيوان وهو الميل للأنثى لمجرد الشهوة ولولا ذلك لكان فى إمكان الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتخير الأبكار الجميلات ولا يتزوج بغيرهن وهو الذى يدعو صحبه إلى ترجيح زواج الأبكار بقوله — عليكم بالأبكار فإنهن أعذب أفواها وأنقى أرحاما وأرضى باليسير بل إنه كان فى غنى أن يتزوج العجائز ويلزم نفسه بالقسم لهن وعنده من الجميلات ما يشبع الشهوة ويسر القلب :

ما أجلها من عزيمة قوية تلك التى من الله بها على رسوله فمكنته من ضبط نفسه والتغلب على عاطفته والقضاء على شهوته فى سبيل إرضاء ربه بأن يعول تسع نساء يرضى كل واحدة منهن بحسن عشرته بينما يكون أكثر ميله لأصغرهن وأحبهن إليه وكان فى إمكانه أن لا يتزوج بمن لا تصلح له وأن يتخلص منها استجابة لعاطفته فى رضاء من يحب فلم يفعل ولكنه عندما شعرت سودة بنت زمعة بمبلغ حبه عليه الصلاة والسلام لعائشة وأن مبيته عندها وهى عجوز شمطاء لم يكن إلا وفاء لها تنازلت لعائشة عن يومها فسر النبى بذلك وصار يقسم لعائشة يومين يومها ويوم سودة وقد كان فى الإمكان أن يقتصر عليها وحدها ويطلق الباقيين لو كان ممن يتبعون العاطفة .

يقول أعداء الإسلام أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحب النساء وكان كثير الشبق ولذلك تزوج بأكبر عدد منهن ونحن لا نعارض فى هذا ولا نرى فيه أى سبة أو عار بل ربما رأينا فيه مثلا عالياً فى الكمال الخلقى والفطرى . فالنبى صلى الله عليه وسلم لم ينكر أنه بشر كسائر البشر يرضى كما يرضى البشر ويتأثر بعاطفته كما يتأثر البشر وكان يعلن حبه للمرأة ويقول — حبب إلى من دنياكم ثلاث النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة — وكثيراً ما كان يوصى بهن خيراً وليس فى هذا ما ينقص من شرفه أو يحط من قدره بل أنه لدليل قائم على الرحمة والعطف على المستضعفين ، وقد قلنا أن الإسلام لم يشرع التعدد إلا ليساهم الرجل بقسط وافر من جهوده فى سبيل خدمة النساء والترفيه عنهن بشتى الوسائل ، وفعل النبى شاهد على أداء هذا الواجب خصوصاً بالنسبة للأرامل اللاتى لا عائل لهن ، وإذا صح أن النبى

صلى الله عليه وسلم كان ذا شبق ألجأه إلى التعدد كما يزعمون وهذا مالا نقره لأنه عليه الصلاة والسلام كان مكتفياً فى صباه بزوجة واحدة فقط هى أم المؤمنين السيدة خديجة فهذا لا يعد سبة أيضاً بل دليلا قائماً على أنه كان من القوة الجنسية والغريزة الفطرية فى أعلى مكان وأنه بلغ من الرحمة درجة جعلته يشفق على نسائه فلا يأتى الواحدة منهن إلا بعد عشر ليال . وإنما يعيب الرجل أن ينغمس فى شهواته ويندفع وراء ملذاته فيقصر فى واجباته ويتراخى عن أعماله ويحتجب عن إخوانه وهذا مالم يقل به أحد من ألد خصومه فقد أدى الرسالة وقام بأعبائها وقام معظم الليل وصام أكثر مما يصوم العباد وحكم بين الناس وقاد الجيوش وخاض المعارك وصاحب الناس فأحسن صحبتهم وكان إماماً وخطيباً وواعظاً ونذيراً ولم يشغله كل هذا عن واجبه نحو المرأة بل كان يقول إن لنفسك عليك حقاً وأن لربك عليك حقاً وأن لزوجك عليك حقاً .

إنما يعيب الرجل أن يخضع لعاطفته ويحكم المرأة فى أمره ويبذل ما فى وسعه وما وصلت إليه يده فى سبيل إرضائها وتحقيق ما تصبو إليه من وسائل الزينة ومتع الدنيا وهذا مالا يستطيع أحد أن يرمى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كان يعيش هو وزوجاته عيشة البساطة التى يألفها من قبل فى المأكل والملبس والمسكن ، وكم من أيام مرت دون أن يوقد فى دار من دوره نار بل كان غذاؤه وغذاء زوجاته التمر والماء ولم يكن هناك مايمنعه من أن يرغد نساءه بشهى الطعام ويسكنهن أفضل السكن ويغمرهن بمختلف الحلى ليزيد من جمالهن فى نظره وليس هذا بالعسير عليه فلديه الكثير الوفير من أموال الغنائم والفىء التى كان يجود بها بلا حساب على ذوى الحاجة ، الأمر الذى أطمع نساءه فى تحسين حالتهن المعاشية وتقدمن إليه يطلبن زيادة المقرر لنفقتهن فلم يكن منه عليه الصلاة والسلام إلا أن غضب وسكت فلم يرد على نسائه فدخل أبو بكر وعمر عليه فوجداه على تلك الحالة وحوله نساؤه فأحسا بالأمر وقال أبو بكر يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة (يعنى زوجته) سألتنى النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها فضحك الرسول وقال هن حولى كما ترى يسألننى النفقة فقام أبو بكر لعائشة يجأ عنقها وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها ويقولان « تسألن رسول الله ما ليس عنده » فقلن « والله لا نسأل رسول الله شيئاً أبداً ليس عنده » أى أن الذى يسألنه رسول الله هو جانب بسيط مما عنده . فلم يرض الرسول هذا منهن إذ أنه لم يجمعهن إلا باسم

الدين وحده وقد أردن المتعة ولذلك اعتزلهن شهراً لا يريد أن يستجيب لرغباتهن ولا هو يرضى بطلاقهن حتى أنزل الله عليه قوله « يأيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا وإن كنتم تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما[1] » عندئذ بدا الرسول صلى الله عليه وسلم بأحب النساء إليه فقال لها — يا عائشة إنى أردت أن أعرض عليك أمراً أحب أن لا تتعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك قالت وما هو يارسول الله فتلا عليها الآية قالت أفيك يارسول الله أستشير أبوى بل اختار الله ورسوله والدار الآخرة ثم خير نساءه كلهن فأجبن كما أجابت عائشة وقنعن بما هن فيه من شظف العيش . ولعل فى هذا ما يشير إلى أنه يجب على المرأة أن تؤثر من الرجال صاحب الدين عن غيره ولا تجعل من المادة سبباً لمعاشرة الرجل نظير ما شرعه للرجال من تفضيل ذات الدين عند إرادة الزواج .

وإن فى نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بزواج البكر واقتصاره على واحدة من الأبكار وإكثاره من زواج الثيبات لما يشير إلى أن من السنة أن يتزوج الرجل بكراً لإحصان نفسه ، وأن لا ينسى أن عليه واجباً آخر أمام الله هو أن يجعل من التعدد وسيلة لإحصان النساء الثيبات .

بقى شىء آخر هو مايرمى به الأغبياء الرسول صلى الله عليه وسلم من أنه أباح لنفسه من النساء فى حالة التعدد ما حرمه على أمته من زواج مازاد عن الأربع ، ولو عقل أمثال هؤلاء لأدركوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما أرسل مشرعا وهو لا يجهل ما كان يجده من آلام نفسية من جراء تحكمه فى عاطفته أثناء جمعه لمن تزوج بهن من النساء وهو لا يجهل عدم قدرة الرجال على القيام بواجب العدل بينهن ولذلك حدد لهم أقصى درجات الاستطاعة التى يمكن للرجل القوى الشجاع أن يحتملها بأربع نسوة وهذا رحمة بالرجال وشفقة عليهم لا استئثاراً عنهم بشىء ، وهذا نظير نهيه عليه الصلاة والسلام الناس عن الوصال فى الصوم مع أنه كان يواصل صومه ، فقال الصحابة له : إنك تواصل ، فقال إنى لست كهيئتكم إنى أطعم وأسقى .

وكان يصلى التراويح جماعة فى المسجد ثم انقطع عنها خشية أن تكتب عليهم ، وكان يطيل الصلاة ويقول : من أم بالناس فليخفف هدانا الله إلى سواء السبيل .

(١) الأحزاب : ٢٨ ، ٢٩ .

الطلاق وزواج المتعة

من المطاعن التى يوجهها ذوو الأهواء المغرضة إلى الإسلام قولهم إنه الدين الوحيد الذى أباح الطلاق . وأباح الزواج إلى وقت محدود كيوم أو شهر . الأمر الذى من شأنه أن يساعد على عدم إقامة صرح الأسرة على أساس متين ويجعله عرضة للانهيار فى كل حين . وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على جهل قائليه أو تعمدهم إنكار الحق وإشاعة الباطل .

ذلك أن الإسلام أقام الزواج على أساس قوى من الرغبة المتبادلة بين الزوجين وكامل الاختيار فيه حيث أباح لكل منهما النظر لمن يريد العشرة معه ، وقال صلى الله عليه وسلم : إنه أحرى أن يؤدم بينهما وإحاطه بسياج من التكاليف التى لابد منها كضرورة العقد بإيجاب وقبول وشاهدين وولى ودفع المهر . وسن إعلانه وإشهاره خشية التجاحد وأن يؤخذ إذن الزوجة فيه ولو كانت صغيرة وجعل لها حق الخيار فى حالة ماإذا زوجها وليها بغير إذنها وأوجب على كل من الزوجين حقوقا والتزامات لابد من أدائها . ودعا إلى التحكيم فيما يكون بينهما من خلاف ودعاهما إلى حسن المعاشرة بالمعروف .

ولما كانت الطباع قد تختلف والألفة قد لا تدوم والمحبة قد تتبدل والمصالح قد تتصادم شرع الإسلام الطلاق رعاية لهذه الظروف وإلا كانت المعيشة مع ذلك بلاء لايطاق وجحيما لايحتمل وأفضى الأمر إلى فساد عظيم ، إلا أنه نهى عن التسرع فيه وقال إنه أبغض الحلال إلى الله وأنه مما يهتز له عرش الرحمن . وما ذلك إلا لضمان سعادة الأسرة ودوام الوفاق والهناء حتى لا يكره الرجل على البقاء مع من كره طبعها أو ساء خلقها . واستعصت عشرتها .

ولأجل أن يترك للرجل فرصة كافية للتروى والتدبر فى أمر نفسه ومصير زوجته وأولاده نتيجة لذلك الطلاق جعله على ثلاث مرات حيث قال : « الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان[1] » فإذا ندم على الطلاق أو زالت أسبابه وسعه

---

(١) البقرة : ٢٢٩ .

أن يراجعها إلى عصمته ويعودا إلى ظل الزوجية الظليل حتى إذا عزم الأمر وطلقها الطلقة الثالثة لم يعد فى وسعه مراجعتها وحرمت عليه حرمة كبرى فلا يجوز أن يعود إليها إلا إذا تزوجت غيره بعد انقضاء عدتها من الأول ثم طلقت منه وانقضت عدتها وكان الزواج زواج رغبة ودوام واستقرار فعندئذ يجوز له أن يتزوجها وذلك قوله تعالى « فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره[1] » .

ولا يخفى مافى هذا الحكم من الحمل على التروى الكثير والحذر الشديد فى إيقاع الطلاق ، وأمر الرجال فى هذه الحالة أن لا يأخذوا من النساء شيئاً مما ملكوه لهن حيث قال تعالى « ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا » بل إنه نهى عن مضايقتهن أو عدم تطليقهن فى حال كرههم لهن ليحملوهن على التنازل لهم عن شىء من أموالهن بدون حق حيث قال « ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة[2] » .

هذا من جانب الرجل أما من جانب المرأة فإن الإسلام لم يحرمها إيضاً من مثل هذا الحق . وجعل لها من طلب الخلع وسيلة إلى التخلص من الرجل الذى لا تريده على أن ترد إليه شيئاً مما أخذته منه إذا هى لم تلتئم معه أو أبغضته لسبب من الأسباب . فقد وردت عدة أحاديث بطرق متعددة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أخت عبد الله بن أبىّ ابن سلول كانت زوجة لثابت بن قيس بن شماس وكان رجلا ذميما فجاءت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم شاكية تقول : « والله لولا مخافة الله لبصقت فى وجهه . يارسول الله لايجمع رأسى ورأسه شىء أبداً ، إنى رفعت جانب الخباء فرأيته قد أقبل فى عدة فإذا هو أشدهم سواداً وأقصرهم قامة وأقبحهم وجها . فقال زوجها : يارسول الله إنى قد أعطيتها أفضل مال لى « حديقة » فقال الرسول : أتردين عليه حديقته ؟ قالت : نعم . ففرق الرسول بينهما وردت عليه حديقته . وكان هذا أول خلع فى الإسلام .

على أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يغفل واجب تحذير المرأة من مغبة التسرع فى طلب الطلاق لأنفه الأسباب فأشعرها بفظاعة هذا الأمر حيث قال : « أيما امرأة

---

(١) البقرة : ٢٣١ .

(٢) النساء : ١٩ .

سألت زوجها الطلاق من غير بأس حرم الله عليها رائحة الجنة » — فهل من حرص على إقامة صرح الأسرة فى دين من الأديان كهذا الحرص القائم على أساس الود الصحيح . والحرية الكاملة .

وهانحن أولاء نرى ما يعانيه الناس فى الغرب من ضروب العسف بإرغام كلا الزوجين على معاشرة الآخر دون أن يكون لهما حق الافتراق . الأمر الذى أدى إلى انتشار الفسق ومصاحبة الرفقاء والرفيقات ، وفساد الأخلاق وكثرة أولاد الزنا ممن تعج بهم الملاجئ فى كل مكان .

نكاح المتعة

وقد بنى النكاح فى الإسلام على الدوام والبقاء والقصد إلى الولد والتناسل لا إلى مجرد قضاء الشهوة . ولذلك استقر الحكم فى الإسلام على بطلان نكاح المتعة الذى لا يقصد للدوام والاستمرار ولا للولد والنسل ولا يشترط فيه الشهود بل هو نوع من الزنا .

وقد أبيح فى صدر الإسلام للضرورة ثم حرم تحريما مؤبدا كما أبيحت الخمر فى غير الصلاة ثم حرمت تحريماً مؤبداً ، والتدرج فى التحريم كان لحكمة سامية يفقهها أهل البصر بالدين .

وثبت فى الصحيحين عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أنه قال : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر » وفى صحيح مسلم قال صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة « يا أيها الناس إنى كنت أذنت لكم فى الاستمتاع بالنساء وإن الله حرم ذلك إلى يوم القيامة فمن كان عنده منهن شىء فليخل سبيله ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئا » .

غير أن الشيعة قد اتخذوا لهم من قوله تعالى : « فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة إن الله كان عليما حكيما[1] » دليلا من القرآن على مشروعية المتعة وطعنوا فى الأحاديث الوارد فى هذا الباب بدون حق .

---

(١) النساء . ٢٤ .

وكان مما حملهم على التمادى فى هذا الوهم أخذ المعنى من لفظ الاستمتاع وما جرى عليه المفسرون لهذه الآية من حمل الاستمتاع على الجماع والأجور على المهور وقولهم إن التراضى هو أن يوفيها صداقها ثم يخيرها بين المقام أو الفراق ، ويلوح لى أن صدر الآية صريح فى تحريم المتعة التى لا يراد بها إلا مجرد إشباع الشهوة وسفح الماء حيث يقول تعالى : وأحل لكم ماوراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين » ومعنى الآية (ما قبلها وما بعدها) كما يقتضيه المنطق السليم وينطبق على تعاليم الدين ما أوضحته فى كتابى (تفسير الخطيب المكى) حيث قلت فى تفسير قوله تعالى :

« والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأحل لكم ماوراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم مُحْصِنينَ غير مسافِحِين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة إن الله كان عليما حكيما ، ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف مُحصنات غير مُسافِحَات ولا متخذات أخدان فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشى العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم[1] » .

بعد أن بين الله فى الآية السابقة الأسباب التى من أجلها يحرم الزواج بين الرجل والمرأة وقسمها إلى ثلاثة أقسام — الأول — صلة النسب ، والثانى وجود الرضاع ، والثالث قيام المصاهرة أخذ يبين سبحانه وتعالى قسما رابعاً يقضى بتحريم الزواج من جانب المرأة فقط دون الرجل ولذلك قال (والمحصَنات) اللاتى أحصن أنفسهن بالزواج « من النساء » بحيث يحرم زواجهن بخلاف المحصنين من الرجال فلا يحرم على النساء الزواج بهم فالإحصان علة للتحريم من جانبهن فيحرم زواج أى امرأة كانت فى عصمة رجل آخر سواء كان حراً أو مملوكا مؤمنا أو كافراً « إلا ما ملكت أيمانكم » أى إلا أن يطرأ ملك اليمين على عقد الزوجية فإنه يبطل مفعوله ويسقط ما كان مترتبا عليه من حقوق بين الزوجين ، ويحل نكاحها عندئذ وإنما يطرأ الملك على العقد فى حالة واحدة وهى المتزوجات من السبى فى حرب دينية وأزواجهن كفار فى دار الحرب ،

(١) النساء : ٢٤ و ٢٥ .

أما المملوكة التى يتزوجها سيدها فالزواج فيها هو الذى طرأ على الملك بجعل المالك ماله من حق الإستمتاع للزوج ، فإذا أخرجها من ملكه بنحو بيع أو هبة كان بائعا لما يملكه ما عدا الإستمتاع الذى صار حقا للزوج . وتتلخص الأسباب لإبطال عقد الزوجية بملك اليمين فيما يأتى :

١ — أن ملك اليمين لم يقم إلا على أساس مصلحة عامة هى أن الإسلام الذى حرم على الإنسان أن يستعبد أخاه الإنسان قد أباح للدولة أن توزع أسرى الحرب المشروعة لإعلاء كلمة الله على المقاتلين من ضمن الغنائم ليقوموا بواجب الإنفاق عليهم وملكهم واستخدامهم إلى أن يفتدوا أنفسهم من الأسرى بشىء يتفقون عليه أو إلى أن يمنوا عليهم بالعتق ابتغاء مرضاة الله فمن واجب المملوك أن يطيع سيده ولا يعصى له أمراً وهذا يتعارض مع حق الزوج على زوجته ولذا سقط حكم العقد الأول بما طرأ عليه من وجوب الطاعة بملك اليمين .

٢ — أن المشرك بقتاله المسلمين فى حرب دينية قد خرج على الحق وأبى الخضوع لأحكام الله فاهدر دمه وسقط حقه على زوجته المسبية وأصبح من حق سيدها الإستمتاع بها بعد استبرائها .

٣ — أن عقد الزوجية إنما يقوم على تبادل المصالح بين الزوجين وحسن العشرة بحيث يقوم الرجل بواجب إحصان زوجته وهى تعمل على إحصانه وطاعته فى كل شىء فإذا انتفى هذا وحال ملك اليمين دون قيام كل من الزوجين بواجبه نحو زوجه بطل مفعوله ولم يبق محل للتمسك به وأصبح من حق صاحب الملك أن ينتفع بملكه من جميع الجهات ويستمتع به كامل الإستمتاع فى حدود الشرع ومن واجب المملوكة أن تسلم نفسها إلى من يقوم بواجب الإنفاق عليها بقدر ما تستطيع .

٤ — أن استيلاد الرجل لما ملكت يمينه موجب لتحرير المرأة من الإسترقاق فلا ينبغى أن يقف عقد الزوجية السابق عقبة فى سبيل الحرية « كتاب الله عليكم » أى هذا ما كتبه عليكم من تحريم هذه الأنواع من النساء لمصلحة ثابتة لكم « وأحل لكم » نكاح « ما وراء ذلكم » من الأقسام الأربعة المحرمة من النساء « أن تبتغوا بأموالكم » التى تدفعونها مهوراً للنساء « محصنين » أنفسكم عن التطلع إلى

غيرهن والرغبة فى الزنا « غير مُسافِحِين » أى غير مبتغين بأموالكم مجرد السفاح وهو سفح الماء الذى تفرزه الفطرة لمجرد إشباع الشهوة الموقتة بل ليكن هدفكم الذى ترمون إليه من الزواج إنما هو عمار الكون وإصلاح حال المجتمع بتبادل الألفة وبناء صرح الأسرة على أساس الود والرحمة والتعاون على تربية البنين وسعادة الأمة .

ولما كان المهر الذى يدفع أو الأموال التى تنفق فى الزواج إنما يراد بها مجرد الإحصان فلا ينبغى أن تتعداه إلى استحلال أموال الزوجة والإستمتاع بما تملكه من متاع وأثاث قال تعالى : « فما استمتعتم » انتفعتم « به منهن » أى من متاعهن وأموالهن دون أجسامهن فذلك حق ينال بمجرد العقد إذ الرجل مكلف بأن يمتعهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره لا أن يستمع هو بمالهن ولو لا ذلك لقال فإذا استمتعتم بهن . والمهر أسمى من أن يكون عوضاً عن البضع أو أجراً على الاستمتاع بالجسم فذلك حاصل من الجانبين وقد قال تعالى — هن لباس لكم وأنتم لباس لهن[1]، بل هو دليل على الحب وعربون لما تعهد به الزوج لزوجته من النفقات ولهذا لا يرد إلا نصفه فى حال فسخ العقد قبل الدخول ولا يرد شىء منه بعد الدخول « فآتوهن أجورهن » عليه كما لو كان ملكا لغيرهن من الناس (فريضة) اى حسب مايفرض له ويقدر « ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة » من تأجيل دفع تلك الأجور أو تنازل المرأة عنها وتمليكها للرجل فكل ذلك حق من حقوقها التى تملك وحدها التصرف فيه « إن الله كان عليما » بما قد تخفى الصدور من زواج المرأة بقصد الإستيلاء على أموالها بغير حق « حكيما » إذ بين ما يحل للرجل من المرأة فى مقابل المهر من جسم المرأة بقصد الإحصان دون أمتعتها بقصد الاستغلال « ومن لم يستطع منكم طولا » أى من لم يكن ذا مال يمكنه من « أن ينكح المحصنات المؤمنات » أى من الحرائر اللاتى أحصن أنفسهن بالإيمان عن الاستسلام لشهواتهن . لغلو مهورهن أو كثرة طلباتهن « فما ملكت أيمانكم » فلا حرج عليه أن يتزوج بمملوكة الغير « من فتياتكم » جمع فتاة وهى الجارية لقوله صلى الله عليه وسلم « لايقولن أحدكم عبدى وجاريتى ولكن يقل فتاى وفتاتى » فى النسبة « والله أعلم بأيمانكم بعضكم من بعض »

---

(١) البقرة : ١٨٧ .

أى وحسبكم شرفا أن تكونوا جميعاً مشتركين فى الإيمان والإيمان أعظم الفضائل ؛ فإذا حصل الاشتراك فيه فلا عبرة بالتفاوت فى غيره من المميزات « فانكحوهن » أى استحلوا فروجهن « بإذن أهلهن » أى الموالى المالكين لهن « وآتوهن » الفتيات المؤمنات « أجورهن » التى تتفقون على دفعها مهراً لهن ماهو فى الواقع إلا بمثابة أجر على ماتنازل عنه المالك من حقوق فى سائر أنواع الخدمات ، ولذا قال أجورهن ولم يقل أجرهن وتكون تلك الأجور حقاً من حقوق المالك إذ المملوكة لا تملك شيئاً لقوله تعالى : « ضرب الله مثلا عبداً مملوكا لايقدر على شىء[1] » وقوله صلى الله عليه وسلم : « العبد وما فى يده لمولاه » والمهر عوض عن منافع مملوكة للسيد الذى أجرها للزوج بعقد النكاح فوجب أن يكون هو المستحق له وليس فى قوله تعالى فآتوهن أجورهن مايتنافى مع ذلك أو يوجب أن يكون المهر ملكا لهن . وقد قال تعالى : « بالمعروف » أى بحسب المتعارف بين الناس ؛ فمنهم من يزوج فتاته بعوض بسيط ومنهم من يزوجها بغير عوض مالى مكتفياً بامتلاكه لذريتها منه ولذا لم يقل عنه — فريضة — « محصنات » هذا حال من قوله فانكحوهن أى بقصد الإحصان « غير مسافحات » أى لامستأجرات لمجرد سفح الماء يعنى البغاء العلنى « ولا متخذات أخدان » أى ولا لأجل تبادل عواطف الحب فقط وهو مايدعى بلغة هذا العصر بالبغاء السرى فذلك أيضاً لايجوز لما يترتب لهن بعقد النكاح من حق فى إشباع شهوتهن وإحصانهن أيضاً « فإذا أحصن » بزواجكم بهن « فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ماعلى المحصنات » الحرائر « من العذاب » لأن الأمة قد تعودت الاستسلام لمواليها مهما تعددوا فهن أقل احتفاظاً على العرض من الحرة « وذلك » أى نكاح الإماء إنما أبيح للضرورة « لمن خشى العنت » الضرر العظيم بالخوف من عدم التزام العفة ومقاومة الفطرة والوقوع فى الفساد « منكم » فإن لم يخف من ذلك فالأفضل له عدم الإقدام عليه « وإن تصبروا » بالتعفف عنه « خير لكم » لما فى ذلك من قوة الإرادة وتحكيم العقل على العاطفة وعدم تعريض الولد للرق وفساد الأخلاق « والله غفور » بعد ذلك لمن وقع فى الزنا ثم تاب وندم « رحيم » بعباده يقدر ضعفهم وسطوة إبليس عليهم .

---

(١) النحل : ٧٥ .

نظام الاقتصاد

لقد أباح الإسلام الملكية الفردية بلاحد ولاقصر وحض الناس على العمل ليتبوؤا أعلا الدرجات فى الغنى لا ليأكلوا أو ينعموا فى الحياة فحسب بل ليمهدوا لأولادهم من بعدهم سبل السعادة والعيش الهنىء إذ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن يرصد المسلم أكثر من ثلث ماله فى أوجه الخير وقال : « إن تذر ورثتك أغنياء خير لك من أن تذرهم عالة يتكففون الناس » ونبهنا عليه الصلاة والسلام إلى أن أكبر عامل من عوامل حفظ الثروة ودوام سعادة الغنى إنما هو الاقتصاد حيث قال : « الاقتصاد نصف المعيشة » وقال : « ماعال قط من اقتصد » بل جاء القرآن مليئاً بالآيات التى تحض على الاقتصاد والاعتدال فى كل شىء والتزام حال الوسط فى جميع الأحوال حيث يقول تعالى : « ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا إن الله لايحب كل مختال فخور . واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير[1] » ونهى سبحانه وتعالى عن التبذير وهو صرف المال فيما هو زائد عن الحاجة من البذخ والإمعان فى الترف واعتبره بمثابة كفران لنعمة الله حيث قال : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا . إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا[2] » وليس معنى هذا أن يقتر الإنسان على نفسه ويحرمها من لذائذ الحياة المشروعة ، بل المقصود أن يراعى واجب الاعتدال وأن يحسب للمستقبل حسابه فيدخر ويوفر من ريعه ما يقيه ذل الحاجة إلى الغير فيما بعد ، وقد أوضح الله هذا المعنى بقوله : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا[3] » .

ونحن نرى اليوم أن علة فساد المجتمع وتدهور الأخلاق والتقاتل على جمع المال إنما يرجع إلى سبب واحد فقط هو إمعان المتمولين فى البذخ والتغالى فى اقتناء الكماليات إلى الحد الذى يحز فى نفوس الفقراء من طبقة العمال ويحفزهم إلى العمل

---

(١) لقمان : ١٨ — ١٩ .
(٢) الإسراء : ٢٦ — ٢٧ .
(٣) الإسراء : ٢٩ .

لكسب المال ولو بطرق غير مشروعة ليصلوا إلى ما وصل إليه المتمولون من سعادة زائفة ومظاهر خلابة حاربها الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم من أول الأمر بما دعا إليه من الاقتصاد وما حض عليه من التقشف بأعماله وأقواله التى منها قوله : « اخشوشنوا فإن النعم لاتدوم » بل إن الإسلام ليعتبر الثروة وديعة من الله فى يد صاحبها من واجبه المحافظة عليها فإذا قصر فى ذلك وبدا منه ما ينذر بتبديده لها فإنه يعد سفيها يحجر عليه شرعا حيث يقول تعالى : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا[1] » وإنما يراد بكل هذا أن يستعمل الإنسان عقله فى إدارة شئونه المالية فيراعى الاقتصاد أولا وقبل كل شىء ثم يتحاشى الإفراط والتفريط والشح والتبذير فى النفقة .

وقد بين الله أوجه صرفها بقوله : « يسألونك ماذا ينفقون ؟ قل ما أنفقتم من حير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم[2] ».

ولأجل أن لا يتجاوز الناس الحد فى النفقة حتى فى أوجه البر حددها الله بما زاد عن حاجة الإنسان وما يفضل عن نفقته ومن هو مكلف بالنفقة عليه من أهل وولد حيث قال تعالى فى الآية التى بعد هذه : « ويسألونك ماذا ينفقون ؟ قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون[3] » والمراد بالعفو الزائد والمعنى إذا كان الله لم يأذن بتبديد الثروة فى أوجه الخير بل جعلها فيما زاد عن الحاجة فما بالك بمن ينفق ماله سفها وتبذيرا فى سبل إشباع الشهوات زائداً عن ضروريات الحياة وفى البلاد من المشاريع العمرانية ما يمكن المساهمة به فيها لإصلاح حال المجتمع الإنسانى لمنع ضائقة الفقر والجوع عن كثير من العمال العاطلين والفقراء البائسين .

نظام حفظ الصحة

لم تقتصر دعوة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم إلى الاقتصاد على مجرد ماينفقه الإنسان من مال بل دعاه إلى الاقتصاد حتى فيما يدخله فى جوفه من طعام وشراب مراعاة لصحة البدن التى تترتب عليها سائر أعمال الإنسان فى الحياة حيث يقول صلى

---

(١) النساء : ٤ .
(٢) البقرة : ٢١٦ .
(٣) البقرة : ٢٢٠ .

الله عليه وسلم (ما ملأ آدمى وعاء شرا من بطن حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه) وكان ينهى عن أن ينام الإنسان وبطنه خالية إذ يقول : (تعشوا ولو بكف من حشف فإن ترك العشاء مهرمه) وكان لا يأكل من الطعام إلا ما قبلته نفسه ولم يعب عليه السلاة والسلام طعاما قدم له قط بل إن اشتهاه أكله وألا تركه وأعرض عنه ، وكان ينهى أن يأكل الإنسان أو يشرب وهو منبطح على بطنه أو أن يشرب الماء دفعة واحدة كشرب البعير بل ينبغى أن يتنفس خلال ذلك ثلاث مرات ولكن فى غير الإناء ويقول أنه أروى وأبرأ وامرأ ، وكان يأمر بتغطية الأوانى خوفا عليها من التلوث بالأقذار ويحض على التأكد من نظافة ما يشرب الإنسان حتى أنه نهى أن يشرب المرء بفيه من فم القربة لأنه لا يدرى ماذا يكون حال الماء الذى فيها ، وكان يوصى بأن لا يقدم للمرضى إلا ما خف وسهل هضمه وأن لا يكرهوا على تناول الطعام وأن ينفس لهم فى العمر حتى تقوى معنوياتهم فيقاوموا آلام المرض .

ودعا إلى التداوى وإحضار الطبيب وأن يتخير الحاذق منهم والقدير على تشخيص المرض وأمر بمجازاة الطبيب فى حالة الخطأ فى إعطاء العلاج أو تشخيص الداء ، ولكم تداوى عليه الصلاة والسلام ببعض مجربات طبيه من زائريه كما أنه أحيانا كان يصف للمرضى علاجا من الأعشاب والثمرات ويروى عنه قوله : « داووا الأجساد بما تعتاد » وأخبر عليه الصلاة والسلام أن بعض الأمراض قد يكون من السحر أو أعين الحساد واستعاذ من ذلك وقال أن علاجها قد يكون بالرقيات وعالج ذلك بتلاوة شىء من كتاب الله وفقا لقوله تعالى « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين[1] » .

الحضارة الغربية والإسلامية

لقد خلق الإنسان بفطرته قاصر النظر محدود التصور ضمن ما يتراءى له من الأشياء المادية والأمور المحسوسة فلا غرو إذا ما أخذ عليه حب المادة كل مشاعره وجعله لا يعمل إلا من أجلها وفى سبيل الحصول على أعظم قسط منها ثم هداه عقله

(١) الإسراء : ٨٢ .

بواسطة العلم إلى أفضل الطرق للاستفادة من تلك الماديات واستخدامها لنيل ما تصبو إليه نفسه من زيادة الثروة واحتكار وسائل الإنتاج فأصبح يعتقد أن العلم فى الحياة هو كل شىء باعتباره الوسيلة الوحيدة للسيطرة على كل ما هو مادى فى هذا الوجود وصار الناس يفرقون بين عقل الإنسان وشعوره ويؤمنون بالنظريات العلمية أكثر من إيمانهم بالله خالق الأكوان ومؤتى العلم من يشاء ويجزمون بأن الاقتصاد هو أساس أنظمة الحياة وكلها قائمة على الماديات . لا دخل فى ذلك للعقيدة أو الحياة الروحية فالإنسان بثروته والفرد الذى يعمل ويكد فى الحياة لجمع المال هو المالك الوحيد له ولا حق لغيره فيه وله أن يتصرف فى أمواله كيف يشاء ومن حقه أن لا يصرف شيئا منها إلا إذا كان مقابل منفعة ترجع إليه وعلى هذا الأساس قامت الحضارة الغربية بعيدة عن الدين متجردة عن الأخلاق والفضائل ، تعتبر الدين والأخلاق فى نظرها من الأمور الشخصية التى لا علاقة لها بسعادة الفرد أو الجماعة وإنما هى تتعلق فقط بالإنسان وربه فى ساعة خلوته ، ومن أجل هذا فصلوا الدين عن الدولة واستعاضوا بحكم الخالق حكم المخلوقين وأخذ بهذا المبدأ جماعة الرأسماليين من الأمم المسيحية واليهودية ومن جاراهم من الأمم الأخرى ، وعمل كل فرد فى الحياة بوسائله الذاتية للوصول إلى عيشه الخاص بأى طريقة ممكنه ، وكان من ثمرة هذه الحضارة أن انحصرت الثروة فى جيوب الرأسماليين من أصحاب المعامل وملاك الأراضى والمرابين الذين أمنعوا فى الشهوات والتغالى فى الكماليات وأقاموا صرح نظام الطبقات والارستقراطيات وامحت من المجتمع روح التعاطف والتكافل والمساواة ، الأمر الذى حمل الطبقة الفقيرة على الإجرام وغرس فى نفوس المزارعين والعمال بذور الحقد من أصحاب الأموال حتى أخذوا يفكرون فى وضع نظام للحياة يصلح ما بدا فى الحضارة الغربية من عيوب وآثام فوصلوا إليه من إحداث نظام جديد سموه النظام الشيوعى وهو يقضى بتحطيم الملكية الشخصية ويجعل من حق الدولة وحدها أن تهيمن على جميع وسائل الإنتاج وتهيىء للناس مرافق الحياة وتلزمهم بالعمل الدائم والإنتاج المستمر على أن تصرف لهم المكافأة اللازمة على ما يقومون به من الخدمات للصالح العام . وهو نظام فاسد جائر لا ينصف الفقير بل يزيد فى بلواه لعدة أسباب .

أولا : لأنه وإن قضى على أصحاب رؤوس الأموال الباذخين وأذلهم بالاستيلاء

على أموالهم فقد وضعها فى يد متمول واحد مجرد من المشاعر الإنسانية الرقيقة والعواطف النسلية فلا رأفة عنده ولا مواساة ولا تقدير ولا استثناء .

هذا المتمول هو الحكومة الشيوعية التى تستخدم الأفراد الحية بمثل ما يستخدم الإنسان الآلات الماكينية الصماء وتوزع بينهم أسباب المعيشة بغاية من القسوة والاستبداد وفق ما تسنه من نظم نافذة المفعول على العموم فى حد سواء وهم أمام ذلك مسلوبو الحرية فى الرأى والعمل وقد تعطلت فيهم ملكة التفكير فلا يملكون غير السمع والطاعة والخضوع لما يلقى إليهم من أوامر لا ترد .

ثانيا : لأنه قضى على روح الطموح فى نفوس عموم الطبقات وجعلها تظل تشعر بأنه حكم عليها أن تظل أجيرة مستعبدة إلى الأبد .

ثالثا : لأنه يقتل فى الإنسان روح الجد والاجتهاد والرغبة فى العمل ويؤدى إلى تقاعس الأفراد فى أداء الواجبات لأن الرجل فى الحياة لا يبذل قواه العقلية والجسمية كلها إلا فى عمل يجد فى نفسه ميلا إليه ورغبة فيه لمصلحته الذاتية أو ما يعود عليه بنفع يميزه عن أترابه فإذا فقد من نفسه هذه الرغبة وعلم أنه مهما بذل من جهد فسوف لا يتميز عن أترابه بشىء ولم يحصل إلا على ما حدد له من المنافع والفوائد فإنه لم يعد يفكر ولم يمارس عمله إلا بالقدر الذى به يحاول الأجير أن يتخلص فقط من المسئولية الملقاة على عاتقه لقاء الأجر الذى تقاضاه .

رابعاً : لأن هذا النظام من شأنه أن يصطدم مع أساس الفطرة التى فطر الله الناس عليها ويخالف السنن الكونية التى وضعها الله للحياة ، ومن أجلها سَنَّ التفاضل فى جميع مخلوقاته لا فى الحيوان فقط ، بل وحتى فى الثمار التى تخرج من شجرة واحدة وتسقى من ماء واحد ، فمنها ما يكون حلواً ومنها ما يكون حامضا ومنها ما يكون كبيراً ومنها ما يكون صغيرا . وكذلك الأخوة الذين يخرجون من بطن واحدة ومن أب واحد ، منهم من يكون طويلا ومنهم من يكون قصيرا ومنهم من يكون أبيض ومنهم من يكون أسمر ومنهم من يكون زكيا ومنهم من يكون بليدا . فكيف يمكن توحيدهم فى العمل والرزق .

خامساً : لأنه من شأنه أيضاً أن يكبت فى النفوس عواطف الحب ويقلم أظافرها ويقضى على أسبابها ودواعيها ، ذلك لأن الله تعالى الذى وضع فى النفوس محبة الأهل

والأولاد والزوجات جعل من المادة وسيلة لتقوية هذه العواطف وزيادة الألفة والاحترام بما يبذله الرجل فى هذا السبيل من الأموال التى إن حرم منها ووجدها الأولاد والزوجة من غيره ضعفت محبتهم له ، بل وفقد معها ما له عندهم من مكانة وتقدير .

سادساً : لأن من شأنه أيضاً أن يقف سداً فى وجه الإحسان الذى هو وسيلة التعاون والتوادد بين الناس فلا محل لأن أحسن إليك أو تحسن إلىّ ، ولا فضل لأحد على أحد حتى يراعاه ويخلص له من أجله .

سابعاً : لأنه سوى بين الناس تسوية لا يقرها العقل ولا يسلم بها الضمير ، حيث جعل الخامل متهدم القوى مساوياً ومماثلا لصاحب الهمة العالية والنفس الوثابة إلى الخير والسعادة .

وهذا ما يحملنا على الاعتقاد الجازم بأن النظام (الشيوعى) نظام جائر جداً ، وأن الدول التى تأخذ به إنما تبطش برعاياها بطشاً لا حد له ولا نظير له فى العالم ، ويؤيد لنا هذا ما طوقتهم به من أسوار حديدية جعلتهم فى معزل عن العالم بتاتاً ، وفصمت ما بينهم من روابط سابقة كانت تقوم على أساس الود والأخاء والتعاون المشترك .

ولو رجع الجميع إلى تعاليم الله لوجدوا أن فى الإسلام ما يحل لهم كل مشكلة من هذه المشاكل الاقتصادية لأنها تقوم على أسس ترضى الجميع وتضمن للعالم سلامه واطمئنانه .

ذلك أن الإسلام فى نظمه وتعاليمه لم يصادم فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وقد أعطى لكل فرد فى الحياة كامل حقوقه فى الملكية الشخصية ، وأطلق له الحرية فى التصرف فى أمواله كيف يشاء بطريقة لا يختل بها التوازن فى توزيع الثروة بين الناس ، ولا يجعلها محصورة فى الرأسماليين فقط ، بل دولة بين عموم الطبقات . فهو إذ يمنح الفرد كامل حقوقه ولم يمنعه من جميع التصرفات ، اشترط عليه شروطاً معقولة ، أوجب عليه مراعاتها ، وفرض عليه حقوقاً نحو المجموع لابد له أن يؤديها ويعطى كل ذى حق حقه ، وجعل الإنسان على نفسه بصيرا ، ومن أخلاقه وآدابه وازعاً ورقيبا ، ومن الحكومة سلطاناً وأمينا .

فأما الشروط فإنها تتلخص فى أن يراعى فى الحصول على الثروة ما يأتى :

١ — اتباع الطرق المشروعة فى الحصول عليها .

٢ — مراعاة واجب العدل وعدم الاعتداء أو هضم حقوق الغير فى سبيلها .

وأما الحقوق فكلها أحكام خاصة تعود على الفرد بالخير والإسعاد ، فالأمة بأفرادها ومصلحة المجموع متوقفة على مصلحة الفرد ، وبعمل الفرد يصلح شأن الأمة ، إلا أن الحقوق تنقسم إلى :

١ — حق نفس الإنسان عليه ، بأن يحافظ على صحتها ويعمل لسعادتها واجتناب مايضرها أو يؤذيها على ضوء ما أخبر به الله العليم بحقيقتها والعارف بدائها وأدوائها ليستقيم أمرها وتزكو فى حياتها .

٢ — حق القربى على الإنسان ، وهم كل من يلوذ به من الزوج والوالد والولد والأهل وحاشيته من عمال وأتباع ونحوهم ، عليه أن يؤدى لهم كل مايستحقون من عطف ورعاية وتقدير حسن جزاء وفق مايأمر به الله ومايوحى إليه الضمير والإحساس ليكثر أنصاره ويعز جانبه وتعظم عشيرته .

٣ — حق الجماعة على الفرد بأن يطعم جائعهم ويكسو عاريهم ويواسى فقيرهم ويساعد مريضهم وعاطلهم ويعين ذوى الحاجة منهم بقدر ماتسمح أحواله وتساعد عليه ظروفه ، وأن لا يكذبهم ولايخدعهم ولا يغشهم ، ويخلص لهم النصيحة ، ويحب لهم مايحب لنفسه ليكسب بذلك ثقتهم وينعم بحبهم ، فيعيش قرير العين مرتاح الضمير بينهم .

٤ — حق الحكومة على الفرد بأن يطيعها فيما تأمره به من خير ، وينتهى عما تنهاه عنه من شر ، وأن يعمل على تأييدها ، ويجاهد تحت رايتها بالنفس والمال لتضمن له العزة والكرامة والمنعة والسيادة ، وترد عنه وعن بلاده عادية الطامعين فيه المعتدين عليه .

وعلى هذا الأساس جاءت تعاليم الإسلام داعية إلى حب النفس حباً يحمل الإنسان على العمل لما ينفعها ويضمن سعادتها وهناءها ، ويمنع عنها كل مايؤدى إلى ضررها أو إلحاق الأذى بها .

وقامت الحضارة الإسلامية على أسس تغاير الحضارة الغربية تماما لأنها تقوم على

أساس الأخلاق والدين الذى يراهما الغربيون من الأمور التى لاعلاقة لها بالمجموع ويراها الإسلام أساساً للسعادة الحقة فى هذه الحياة .

فبالأخلاق الحسنة يستطيع أن يملك الإنسان عواطف إخوانه فى الإنسانية ، وبالأخلاق الحسنة يستطيع أن يحسن إدارة شئونه الخاصة والعامة ، وباتباع أحكام الدين يمكن للإنسان أن يتأكد من مجانبته للخطأ فى كل شىء باعتبارها وحياً من قبل الله العالم بحقائق الأمور وصوابها ، وأما النظريات العلمية التى تقوم على الحجج العقلية المجردة أو العلوم الكونية المضطردة ، فإنها قد لا تكون صائبة فى بعض الأوقات ، لأنها مبنية على مجرد التجارب وتحكيم العادة فى ظواهر الأمور التى لاتنطبق على الواقع ومافى علم الله . ولاشك أن علم الإنسان مقصور على بعض نواحى العلم أو العلوم الدنيوية دون جميعها ودون الأسرار الكونية ، وفى هذا يقول تعالى : « فاعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ، ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى[1] » ويثبت الله جل وعلا جهل الإنسان بحقيقة كل شىء وقصر نظره عن إدراك ماوراء هذه الموجودات من مخلوقات خفية بجهله حقيقة الروح الملتصقة به والتى بها يحصل على الحياة بقوله : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا[2] » وقد أمر الله العباد بأن لايعتمدوا على مايلقنه لهم الآباء من علوم وأن لايأخذوا من العلوم إلا ما كان ناشئاً عن تعليم الله عن طريق نبيه صلى الله عليه وسلم . حيث يقول : « قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال إنما العلم عند الله ، وأبلغكم ما أرسلت به إليكم ولكنى أراكم قوما تجهلون[3] » وحسب هذه الحضارة الإسلامية سموا أنها تريد من المسلم أن يكون كما يأتى :

١ - أن يعمل الخير لمحض الرغبة فيه وأن يكون هو المقصد الأساسى لجميع أعماله فى الحياة وأن لا يريد به إلا ابتغاء مرضاة الله لا طمعاً فيما يجر وراءه من مادة فانية وعرض رخيص وفق ما وصفهم به سبحانه وتعالى فى كتابه بقوله : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء

---

(١) النجم : ٢٩ .
(٢) الإسراء : ٨٥ .
(٣) الأحقاف : ٢٢ .

ولا شكورا[١] » فالله إذ يأمر بالإحسان إلى الفقراء والمعوزين إنما يعتبر سبحانه ذلك قرضاً عليه يتعهد برده أضعافاً مضاعفة دون أن يعنى برد ذلك الجميل من قبل من ناله ذلك الإحسان إذ يقول : « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون[٢] » ، « قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين[٣] » ولأجل أن يبالغ الإنسان فى حصر الأمل فى الله دون غيره من العباد قيل : « اتق شر من أحسنت إليه » بمعنى أنه ينبغى أن لا ينتظر الإنسان الخير ممن أحسن إليه فربما سولت له نفسه الإساءة إليه فليحذره .

٢ — أن يثق بأن الرزق كله من الله الذى خلق ما فى الدنيا جميعها من أجله وأمره بالعمل بمختلف الوسائل والأسباب لاكتشاف مواضع ذلك الرزق ولذلك فإنه إذا عمل فإنما يؤدى لله واجباً فعليه أن يخلص فيه وينتظر ثوابه من مولاه القائل « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور[٤] » .

٣ — أن لا يحصر أمله فى الحياة على جده وسعيه لنيل الرزق فلا يهمه أن يكون حلا لا أم حراماً ولا يتورع فى هذا السبيل عن ارتكاب أحط أنواع الغش والمكر والخداع والاحتيال وأكل أموال الناس بالباطل وقد نهى الله عن ذلك بقوله « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون[٥] » .

٤ — إن لا يجعل همه قاصراً على منفعته الشخصية وثوابه العاجل فى هذه الحياة الفانية بل عليه أن يؤمن بالعودة فى الحياة الأخرى الدائمة حيث الجزاء العدل والثواب العظيم وليثق بقوله تعالى : « من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعاً بصيرا[٦] » .

٥ — إن لا يحصر فكره فى دائرة المادية الضيقة بل يتجه بكليته إلى الاتصال

---

(١) الدهر : ٨ .
(٢) البقرة : ٢٤٦ .
(٣) سبأ : ٣٩ .
(٤) الملك : ١٥ .
(٥) البقرة : ١٨٩ .
(٦) النساء : ١٣٣ .

بالله خالق الأكوان ليستمد منه الهدى إلى أقوم الطرق الموصلة إلى حقيقة الكمال فى كل شىء .

٦ — أن يستخدم عقله فى العمل على تزكية نفسه وصدها عن السيآت والهوى والشهوات وتهذيب أخلاقه بتحليها بفضائل الصفات والمكرمات وإراحة الضمير فى سائر المشكلات وقناعة وجدانه بالحقائق فى جميع الحالات بحيث يطابق ظاهره باطنه وأعماله الجسدية نواياه القلبية ويحاسب نفسه على كل ذلك حساباً دقيقاً قبل يوم الحساب فالله الذى منع التجسس على الناس أخبرهم بأنه الرقيب عليهم وهو أعلم بما تكن صدورهم وإليه المرجع والمآب .

٧ — أن يقنع نفسه بالتلازم التام بين مصلحة الفرد الشخصية ومصلحة الأفراد الجماعية ففى رفاهة الأفراد رفاهة الجماعة ، وفى رفاهة الجماعة رفاهة الفرد ، ورفاهة الأفراد والجماعة لا يمكن أن تكون إلا بالقضاء على فكرة الاستئثار من النفوس وعمل الجميع للمصلحة العامة فمن الأفراد تتكون الجماعة ولا يسعد الفرد فى وسط من الأشقياء والإنسان ضعيف بمفرده قوى بدولته وإخوانه .

٨ — أن يؤمن بأنه لا صلاح للأمة إلا إذا اتبع أفرادها قانوناً واحداً ينظم طريقة اكتساب المال واستهلاكه تنظيماً صحيحاً لا يبيح للفرد أن يجمع ثروته بطرق تلحق الضرر بآخرين أو تجعلها مكنوزة فى موضع لا يستفاد منها فى وجه من أوجه الإصلاح العام بل يجب أن توزع ويتداولها الناس فيما أحل الله من طرق الاستثمار المشروعة لتنمو وتفيض ويباركها الله وهذا القانون هو ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وهو واجب الاتباع .

هذه بعض أسس الحضارة الإسلامية ومزايا التعاليم الإسلامية الإلهية نعرضها على الناس عرضاً لعل فيها ذكرى للذاكرين وتنبيهاً للغافلين وتبصرة لقوم يعقلون .

خاتمة

إلى هنا انتهيت مما يسر الله كتابته عن رسالة « أسمى الرسالات » خاتم النبيين عليه أفضل الصلاة والتسليم ولا أزعم أنى أحطت بكل شيء مما ينبغى معرفته عن رسالته فذلك بحر واسع متعدد النواحى لم يصل إليه حتى أكابر العلماء والمؤلفين على ضخامة كتبهم وإنما أردت تلخيص بعض المواضيع التى يحتاج إلى فهمها شباب هذا العصر المثقل بدراسة مختلف العلوم وعظائم الأعمال لعلهم يجدون فيما كتبت بعض الفائدة .

وقد رأيت أن أذيل هذه الرسالة بقصيدة لى ختمت بها منظومتى « تائية الخطيب » التى نفد طبعها الآن لما فيها من دعاء وضراعة وأسأله تعالى حسن القبول .

الاستغاثة الكبرى

الحمـــد لله الذى قد خصنا ... بالانتماء لســـيد السادات
وأنالنا الشرف الرفيع إذ ارتضا ... نا مسلمين فأجزل المنـــات
ولأجلنـا قد أكمل الدين الحنيـ ... ـف وتمم الأفضـال والنعمات
وإليـه نلجأ ثم نسأله الرضى ... والعفو والغفران للزلات
إذ قد غرقنا فى الذنوب وضيعت ... أوقاتنـــا فى اللهو واللذات
ولطاعـة المولى نضن بلحظة ... نخلى النفوس بها عن الشهوات
بل لا نوجـه قلبنا لإلهنـا ... حتى ولا فى ساعة الصلوات
فنرودها دوما بقلب شـارد ... والجسم مغلوب على الحركات
وبحـالة أدنى إلى الآثام منـ ... ـها للتقى والـــبر والحسنات
ونصيبنا قد لا يكون سوى المتا ... عب دون ما أجر على الفعلات
لسـنا وأيم الله أهلا بعـد ذا ... أن نستحق ترادف الخيرات
بل إن يكن أمل ففى فضل الإ ... له وإنه هو واسـع الرحمـات
فمتى اقترفنا الذنب ليس بوسعنا ... تبـــديله بالخير والطاعات
بل ليس فى الإمكان توجيه النفو ... س لصالح الأعمـال والنيات
إلا بتوفيـق الإله وعطفـه ... وعظيم رحمتـه علىّ الذات
لا يعصم المخـلوق إلا ربه ... من بأسـه وينيـله الحسنات
ومتى ارتضاه حباه من توفيقه ... وجزاه يوم البعث بالجنـــات
والـكل منا يرتجى رحماك يا ... رب الورى ومقـدر الخيرات
وإليك أشكو من تضعضع قوتى ... ومذلتى مع قلة الحيـــلات
فلمن تكلنى يا رحيم إلى عدو ... أم قريب فاقـــد النصـفات
إن لم أبؤ بالسخط منك فلا أبا ... لى رب من ضعفى ولا زلاتى
وسعادتى هى أن تعافينى وتر ... ضى عن فعالى مالك الميقات

إنى أعوذ بنـــور وجهك أن تحـل على من غضب ومن نقمات
ولك الرضى حتى تمن على بالر ضوان ياذا الجود والمنـــات
ولقد برأت إليك من حولى ومن طـولى وتدبيرى ومن قواتى
وبدرع حفظك أتقى شر العـدا وبفضـل جودك أبلغ الغايات
أنا من منت على بالإيمـان يا ربى فمـا أشركت فى دنيـاتى
ولقـد وثقت بك الوثوق جميعه ولغير ذاتك لم تـكن دعواتى
ولئن سألت سواك يوما حاجة ما كنت أقصـد شخصه بالذات
بل أنت مقصودى وذلك مظهر لقضاء ما قدرت فى رغبـاتى
فالـكل منك قد استمد نفوذه وفؤاده لك دائم الطـــاعات
وأنا بهـــذا مؤمن ومروض نفسى على الشكران فى الحالات
لولاك لم آخـذ بأسـباب ولم أقبل جميل الناس فى حاجاتى
بل لست أعبـأ بالأنام ومنهم من قد عهدت إليه بالسلطات
وكذاك لم أطلب لدائى من دوا أودعتـه فى العشب والثمرات
لـكننى وأنا الذى أدرى بمـا نال اللعين لرفضـه السجدات
لا أرفض الإحسان منك إذا أتى عن أى واسـطة من النسمات
بل إننى أسعى لديهم باحثـاً عن كل ما قـدرت فى طلباتى
فإذا وجدت منای عندهم شكر ت الله ثم منفـذ الرغبـات
أو لم أجده فلست يوما ناقما منهم وما بالقلب من حسرات
بل إننى أرثى على حرمانهم من نعمة التوفيق للحسنـات
وأراقب التحقيق للآمال مـــما لست أعلمـه من الطرقات
هـذا يقينى فيك ياباری الورى يا من علمت حقيقـة النيـات
يامن لآدم لقن الـكلمات لمـا أن أراد لذنبـه التوبات
أنى لمثـــلى أن يقدم عـذره إن لم يلقن منـك بالحجـات
ويـكون مقبولا لديك كلامه وتحـــوطه بالعفو والرحمات
يا من علمت بحـال إبراهيم فى نيرانه فأحلتهـا روضـات
حول بحولك حالتى فى كل ما لا أرتضيـــه لأحسن الحالات

يا من فدى إسماعيل بالذبح العظـ ـيم نتيجة التسليم للرئيات
سلمت أمرى فافدنى يا رب مـا كان مقدورا من المحنات
يا من للوط قد حفظت وأهله مما أصاب القوم من هلكات
احفظ بفضلك من عليك تكاله وارأف به فى ساعة الشدات
يامن بفضل منه أنجى يونساً من شدة الأهوال والكربات
لما غدا فى جوف حوت قابعا والعرف يحسبه من الأموات
أنقذته من همه ورزقته وبعثته هاد إلى فرقات
إنى بما أنا فيه من نعم الحيا ة أحس بالتضييق والأزمات
وأرى الوجود ومن به لا يملكو ن سعادتى فى النفس والثروات
وأرى نعيمى فى رضائك سيدى وسعادتى التوفيق للحسنات
ولأنت وحدك يا إلهى المرتجى من يكشف الأسواء والبلوات
راعى الأنام ومن لهم يعطى إذا سألوا الكثير وأصغر الحاجات
أنت الذى ألهمت نوحاً صنعه للفلك حيث الناس فى غفلات
حتى إذا حم القضاء جعلته حصنا له ووسيلة لنجاة
ألهمنىَ الإحسان فى عملى وفى قصدى وجنبنى عن الآفات
وأفض علىّ من القبول سحائبا أسمو بها فى الأرض للذروات
يا من إليه قد اشتكى يعقوب من بلوائه والحزن والفجعات
فأزلت عنه بثه وأعدت نا ظره بجمع الشمل بالفلذات
أشكو إليك جميع ما ينتابنى ويسيئنى ويسبب الحسرات
فأزل همومى وأقض لى ما أبتغى واجمع إلى الأهل والقربات
يا من نظرت ليوسف إذ كان يجـ ـهل ما يحاك له من الشبكات
من إخوة ومن النساء وكيدهـ ـن وما حوين له من الفتنات
فرعيته وصرفت عنه السوء ثـ ـم جعلته فى أرفع الدرجات
أنظر إلى عبد حكمت بجهله وبعجزه وبقلة الحيلات
واعطف عليه ولا تكله لنفسه وامض به فضلا إلى الخيرات
واحفظه من كيد النساء وفتنة الد نيا وظلم الناس والشهوات

ومن الحماقة والغرور وسيء الأ خلاق والعدوان والغفلات
وأنر له سبل الرشاد فلا يضـ ـل وجد عليه بمنتهى الغايات
يا من إلى أيوب قد أصغيت إذ ناداك وهو يناشد الرحمات
فأجبته وكشفت عنه ضره وجمعته بالأهل فى غبطات
ماذا ترى فيمن ينادى دائماً (رباه) فى الغدوات والروحات
إن لم أكن للفضل أهلا أنت يا مولاى أهل الجود والمنات
والجود ليس يكون إلا أن تنيـ ـل البائسين الفضل بالكثرات
حتى ولو لم يلحفوا بسؤالهم ما دمت تعلم منهم الحاجات
يا من رددت لأم موسى نجلها من بعد ما ألقته فى الموجات
أردد على جميع ما قد كان لى وفقدته فى غابر السنوات
يا من لمريم قد حبى عيسى على كره بشكل خارق العادات
جد لى برزق من لدنك يكون لى عونا على الإنفاق فى الخيرات
يا من رعى موسى وخلصه من التـ ـقتيل والإيذاء فى مرات
وجعلت حارسه مقرر قتله وعلى يديه تفيأ النعمات
إذ نال عطف الأم دون تكلف منها بما يحتاج من نفقات
وبعثته من بعد ذلك منذراً فرعون شر الكفر والأعنات
من غير أنصار سوى صنو له وأمامه رهط على قوات
ومسكت قلب عدوه عن قتله عما مضى منه وما هو آتى
حتى إذا اجتمع الشهود بمشهد هموا به أن يدحضوا الحجات
ببراعة فى السحر أوجس خيفة منها النبى وصار فى ريبات
ثبته فى السر منك وقلت لا تخش فأنت أجل فى الدرجات
ونصرته وجعلت من راموا له الـ ـخذلان خير مؤيد الآيات
ولقد نجا من حكم فرعون عليـ ـه وفاز بالتبليغ للدعوات
ومضى بأمر الله يصدع ظافراً ومؤيدا بخوارق العادات
هب لى بفضلك يا حليم رعاية أنجو بها دوما من الويلات
وأنال ما أرجو وأبلغ منتهى ما تمنح الإنسان من حسنات

يا من على داود أغدق فضله ... وأناه من وافر النعمات
وألان فى يده الحديد تفضلا ... منه ونال الملك والحكمات
وكذا الجبال بأمره قد سبحت ... والطير أوّابون فى الفلوات
وحبى سليمان ابنه من بعده ... ما قد حباه وزاد فى المنحات
إذ أخضعت أنس وجن والطيو ... ر لأمره تقضى له الطلبات
والريح تجرى حيث شاء وكل شى ... ء ناله من فضل عالى الذات
لين بفضلك لى قلوبا قد قست ... ربى ووفقها إلى مرضاتى
وامنن وسخر لى عبادك سيدى ... فى كل ما أرجوه من غايات
وافض من النعم الجسام على يا ... ربى سريعاً عالى النظرات
وامنن على بشكرها لتزيدها ... وتزيد بالشكران فى حسناتى
يا من منحت الخضر علما واسعا ... بحقائق الأفعال والملكات
فغدا لأمرك حيث كان منفذا ... وموفقا أبداً إلى الطاعات
جد لى بعلم منك ينفعنى ويهـ ... ـدينى سبيل الرشد والخيرات
وأنر بنورك يا قدير بصيرتى ... وأعذنى ربى موجب الهلكات
وقنى هموم النفس بالتسليم يا ... ربى وجنبنى عن الزلات
ولنيتى أصلح وصير فى رضا ... ك منای لاحظى ولا شهواتى
وتفضلا جد لى بغفران وهب ... لى ما أرجى سامع الدعوات
يا من بفضل منه ثبت قلب ط ... ه حيث لم يركن إلى الفتنات
ثبت على الإيمان قلبى واكفنى ... شر اللعين وسلطة اللذات
واغفر إلهى ما مضى منى وما ... يأتى من الآثام والحرمات
وأنلنى لطفاً منك يغنينى عن الأ ... غيار يحفظنى من السقطات
واجعل لسانى ذاكراً لك دائماً ... والقلب منطبعاً على الخشيات
والجسم لا يسعى لغير رضاك يا ... ربى وليس يجانب الطاعات
وأعذنى يا مولاى من شر الهوى ... وتسلط الشيطان فى نياتى
مولاى ملكك واسع وبه لقد ... أصبحت مغتبطاً بخير حياة
الله أكبر لا إله سواك يا ... من لا شريك له ولا فلذات

لا حـــول لى كلا ولا من قوة إلا بقـــوة مالك الميقات
سبحان ربى قد ظلمت النفس يا مولاى سامحها عن الزلات
أنت الذى تهب الحيـاة وتمحها وتقدر الأســـواء والخيرات
فلك المحامد من جميع جوارحى ولك الثناء على جليل هبـات
أرجو رضاءك ثم إرضاء العبـا د على حتى آمن الجفوات
وأعيذ نفسى باسم ربى دائماً من سخطه والنـار والهلـكات
يا من تحب العفو جـد بالعفو عن عبـد يرجى العفو والرحمات
سمع النداء بيا عباداً أسرفوا لا تقنطوا من كثرة الزلات
فالله غفـار الذنوب جميعها وهو الغفور وواسـع الرحمات
فغدا يسائل نفسه هو قول من [لا تقنطوا] فى هـذه الآيات
فإذا بصوت الحق يهتف قائلاً هو قول رب مالك الميقات
هو قول رب قال أدعونى أجب فأنا القريب وسامع الأصوات
هو قول رب لا يؤاخذ من لغا فى قوله ويضاعف الحسـنات
هو قول رب لو يعجل بأسه لم يبق فى الدنيا من النسمات
هو قول رب ليس يقبل مشركاً ويثيب من يرضاه بالجنات
هو قول رب كان من ألطافه أن أمهل الشيطان وهو العاتى
هو قول رب قد عفى عن سحرة لسجودهم فى لحظة بثبـات
هو قول رب ليس يبغض مثل من هو يائس من رحمـة ونجـاة
هو قول رب لا يريد تشفيـاً كلا ومستغن عن الطاعات
هو قول رب كلمـا زاد الورى فى بغضـه يدنو لهم بصـلات
هو قول رب قال فى تـنزيله إن ينتهوا ينجوا من الهلـكات
هو قول رب لا يزال مرددا هل من يتوب فاقبـل التوبات
فسكت أذيال الرجال وقلت يا رباه عبـدك دائم العـثرات
قد جاء منـكسراً بكل تواضع يرجو رضـاك ويسكب العبرات
ما كان قط ببائس بل محسن للظن فيـك وواثق بنجاة
قد لاذ بالمولى الـكريم فلم يعـد يخشى من التنكيل والعـثرات

حاشا يداخله القنوط وأنت يا ربى المجيب وسامع الدعوات
كلا ولا أخشى افتضاح مساوئى مادمت ستاراً على العورات
تمحو الذنوب جميعها كرما ولم تعظم لديك كبيرة الزلات
ولئن غدا الغفران منك معلقاً بمشيئة يا مصدر النعمات
فلقد كتبت على جلالك رحمة تسع الورى من غير ما ميزات
أطمعتنا فيها بأنك سوف تكتبها لمن سميتهم بتقاة
وغرست جزءاً فى القلوب فأشفقت ولسوف تبدى الكل فى الميقات
وكتبت قبل الخلق عندك فى الذرى سبقت مراحم عزتى غضباتى
والكل لم يعدوا إرادتك التى هى سر ما يرجون من خيرات
إذ أنهم وثقوا بأنك خير من يحنو ولست تسر بالنقمات
ولأنت أكرم من عفا عن مجرم وأجل من يغضى عن الوصمات
أوصيتنا بالصفح عن ظلامنا ووعدتنا بالأجر والجنات
وطلبت منا أن نجود بعتق من ملكت أيادينا من الرقبات
ولأنت أولى بالتفضل سيدى وأحق بالإحسان والرحمات
والعبد لا يرجو وليس له سوى مولاه يطمع منه بالحسنات
بيديك عتق من ذنوبى كلها بيديك تحرسنى من العثرات
بيديك حفظى من لظى وسعيرها وتمدنى بلطائف النظرات
بيديك توجيهى إلى حيث التقى بيديك توصلنى إلى الغايات
بيديك تحقيق الظنون جميعها بيديك أبلغ منتهى النعمات
فى هذه الدنيا ويوم لقاك يا سندى سأظفر منك بالرؤيات
ولئن تزود بالصلاح جماعة قصدوا النجاة به من الهلكات
فأنا الذى لازاد لى من صالح فى القول والأعمال والنيات
وأنا الفقير ولا أظنك ترتضى طرد الفقير يحل بالساحات
وأنا الفقير وأنت أكرم ماجد يغنى الفقير بوابل المنحنات
لم أقصد العصيان قط وإنما هى دعوة الشيطان للشهوات
لبيتها وأنا ابن آدم سيمتى أن لا يقينى النصح عن زلاتى

ولكثرة النسيان أخدع دائماً وعن الحرام تخوننى قواتى
يا رب إبليس عصاك وقال أنظرنى ليوم البعث والميقات
فقبلت دعوته لأنك محسن فطغى عليك وزاد فى الإعنات
آلى ليكتنفن من كرمتهم ويضلهم بالمكر والخدعات
فأجبته لك ذاك إلا أننى سأقى عبادى منك بالعصمات
وأمن بالغفران عمن جاءنى مستغفراً وأعم بالرحمات
ولقد تلقى آدم لما غوى منك الكلام ففاز بالتوبات
وأنا ابنه ومن العباد وسقطتى تفرحُ عدوك مهبط اللعنات
وتضر من بك يا إلهى واثق وتسىء عبدك سيد السادات
من قلت إنك سوف ترضيه ولا يرضيه غير دخولنا الجنات
فامنن علىّ أيا غفور بتوبة أنجو بها فى البعث من نقمات
مع من لهم أنعمت بالرضوان يا ربى لتخزى قاصد الفتنات
لا تبسطن على من سلطانه وتول أنت قيادتى ونجاتى
يا من تصل على العباد برحمة تخرجهمو للنور من ظلمات
حاشاك تعصى دون علمك سيدى وبلا قضاء سابق الزلات
أو أن تطاع بدون إذنك والرضا والجود والإحسان بالطاعات
والأمر أمرك والجميع ميسر كل لما قدرت فى الصفحات
والملك ملكك لست تُسأل خالقى عما به تقضى من الفعلات
لو شئت عم هداك كل جموعنا ولما تردى الناس فى الهلكات
ولما غدت نار ولولا كلمة سبقت لكان الكل فى الجنات
ولقد رضينا بالقضاء وإنما نرجوك لطفاً يمنع السقطات
نرجوك أن تمحو ذنوباً قدرت وتخص فعل الخير بالإثبات
أنت الذى تمحو وتثبت ما تشا وتقر ما يرضيك فى الورقات
وتقول كن فيكون ما تختاره لعمار هذا الكون من خطات
ما من شريك تستشير وتتقى فى سائر الحركات والسكنات
كلا وما الأعمال غير مظاهر للخير أو للشر والنقمات

ومسبب الأسباب أنت ومالنا ... فى دفع ما قدرت من قوات
ودخول جنات النعيم معلق ... برضاك لا بالصوم والصلوات
والسر فى التوفيق أنت فمن ترد ... وفقته وقبلت بالمنات
ومن ارتضيت عذابه لم يجده ... شىء من الأعمال والصدقات
والخوف والتقوى فمنك كلاهما ... والقلب أنت تمد بالنيات
والحب تودعه فؤاداً ترتضى ... وتخص من تختار بالنظرات
والسعد معقود لمن أحببته ... فى هذه الدنيا وفى الميقات
ولقد شهدت مواقفاً لك جمة ... أدركت فيها مبلغ الحكمات
وعرفت منها قدر لطفك بى وما ... تولى العباد به من النعمات
وعليك فضلك دلنى وإليك أر ... شدنى العطاء وكثرة الخيرات
وبك استجرت وما التجأت بغير من ... هو مصدر الغفران والحسنات
هو أنت أرحم راحم وأجل من ... قال العثار ودارك العثرات
فيك الرجاء ومنك أنتظر الرضا ... وأؤمل التوفيق فى الحالات
حاشاك أن أشقى ومنك سعادتى ... وأزل والتأييد منك يواتى
وأضام فى الدنيا وأنت ذخيرتى ... وأخاف من مكر ومنك نجاتى
أنا من وكلت إليك كل مصالحى ... وحصرت فيك محبتى وثقاتى
وجعلت معتمدى عليك فلم أخب ... وذكرت مالك من يد وهبات
وحملت ما يأتى على ما قد مضى ... وطفقت أطرى الحمد فى الخلوات
فأدم على الفضل واحفظنى وخذ ... بيدى وآمنى من الغدرات
يا قائلا للظالمين نفوسهم ... والعاملين السوء والسوءات
إن تطلبوا الغفران إنى غافر ... تجدون منى منتهى الرحمات
أنا واحد من هؤلاء أتيت يا ... مولاى أرجو العفو عن زلاتى
يا قاهراً فوق العباد يخيفهم ... بالموت وهو النور من ظلمات
ما العيش إلا ظلمة وتحجبٌ ... عن نور وجهك داخل المشكاة
فالجسم منا آلة فى خلقها ... وضعت على قدر من القوات
والروح تحييها إلى أجل لها ... فإذا انتهى وقفت عن الحركات

والسر فيها أنت حيث نفختها ... فينا فكنت مسبب النبضات
والنفس أشبه بالسجين شقاؤه ... فى أسره والسعد فى الإفلات
والموت إطلاق لها من قيدها ... وكذاك فيه إراحة العضلات
والناس عن ذا أغفيت أبصارهم ... فاستبدلوا الدنيا بخير آت
انا لا أخاف الموت بل هو غايتى ... ووسيلتى لتحقق الرغبات
فيه يتاح لى اللقاء وتزدهى ... نفسى بصحبة سيد السادات
أهلا بذاك اليوم رغم خطيئتى ... وتلذذى بالعيش فى دنياتى
أو لست محتفظاً بقربك سيدى ... والقرب فيه حصانة للعاتى
أفهل يظللنى حماك وأنت لى ... كهف وأخشى النار فى الميقات
حاشا فأنت أحن من أم على ... أطفالها وأشد فى الرأفات
يا من وسعت برحمة كل الورى ... أنا أحوج الأشياء للرحمات
أنت الرحيم وهل يريد مراحماً ... إلا ضعيف خائر القوات
أنت العفو وهل لعفوك موضع ... غير العصاة ودائمى العثرات
بك قط لم أشرك فكل إساءة ... لى رهن عفوك غافر الزلات
وذنوبنا مهما علت وتكاثرت ... فى جنب عفوك ذرة الذرات
سبحانك اللهم لولا جرمنا ... ما كان للغفران من ثمرات
فامنن أيا منان منك بنظرة ... لا تبق لى نظراً إلى الفتنات
يا صاحب اللطف الخفى ومن إذا ... حم القضاء أتيت بالنجدات
عودتنى صنع الجميل فما غدا ... لليأس سلطان على خطراتى
وغمرتنى بالفضل منك كأننى ... ما كنت إلا مهبط المنات
فعجزت عن إحصاء مالك من يد ... عندى وما سترت من عوراتى
أنت الكريم تزيد خيراً من تشا ... وتمن بالتقتير عن حكمات
فبدون عسرك لم يكن من لذة ... لليسر فهو السر فى اللذات
وبضدها تتميز الأشيا لنا ... وهناك تظهر قيمة النعمات
والملح يفضل فى الطعام نقيضه ... وكذا الحياة تلذ بالصدمات
ومصائب الدنيا تعرفنا بمن ... فيها وترفعنا إلى الذورات

وتدلنا أن العباد جميعهم لا يملكون وقاية النكبات
فالله خير حافظاً لعباده باللطف ينجيهم من المحنات
والفوز مكفول لمن هو صابر والصبح حتما يعقب الظلمات
من كان يحسب أن نصر الله لن يأتى إليه فقاطع لصلات
واليأس عنوان الشقاء وأسه والسعد رهن عقيدة وثبات
وبمقتضى ظن الفتى فى ربه يأتى الجواب له عن الطلبات
ولقد عرفتك من فعالك سيدى فى خلقك المملوء بالآيات
وغدا جلالك ماثلا فى ناظرى وأراه فى نفسى وفى حركاتى
وشعرت أنك بى حفى راحم فوضعت بين يديك كل ثقاتى
ورضيت بالعيش الذى ترضاه لى عن رغبة فى السر والجهرات
وتجلت الألطاف لى فشكرتها ورقصت من فرح ومن نشوات
ووجدت فى حبى لذاتك بغيتى وطربت من ذكراك فى خلواتى
والشوق يدفعنى إليك وجنتى بالقرب منك وسلوتى أناتى
ووسيلتى ضعفى وحلمك جنتى ولبحر جودك أسرعت خطواتى
مولاى إنى تحت عفوك خائف من قبح أفعالى وسوء صفاتى
ويزيد فى رعبى تصور حالتى يوم القيامة إذ أرى ورقاتى
فبأى وجه ألتقى بك يا ترى والجسم مضطرب من الزلات
والنفس يقرعها الضمير بشدة والقلب منفطر من الروعات
فأذوب من خجلى لسود صحائفى ويزيد بى ندمى مع الحسرات
وأظل فى هذا العذاب مؤنباً نفسى على التفريط فى الطاعات
وعذاب نفس المرء أسوأ عنده من حرق هذا الجسم بالجمرات
ما حيلتى إذ ذاك هبك غفرت لى من منقذى من هذه اللذعات
أنا لا أرى أملا يزيل مخاوفى إلا رضاك به أروم نجاتى
فبدونه لم تلق حبك فى الحشا بل لم ترح عن قلبى الغفلات
وجعلتنى من أمة المختار يا ربى وتلك بوادر النفحات
ومنحتنى منك الهداية عندما ألهمت هذا القدر من أبياتى

وإذا الكريم ينيل عبداً منحة ... لا يسترد الفضل والمنحات
أنا لا أطيعك طامعاً فى جنة ... كلا ولا خوف الجحيم الآتى
فلذائذ الأجسام أو آلامها ... لم تدعنى يوما إلى الصلوات
بل لا أرانى أستطيع أداء ما ... أوجبته من سائر الطاعات
لكننى أجد المحبة فى الفؤا ... د تقودنى لمواضع الخيرات
وألاحظ الإحسان منك يحوطنى ... والنفس تعشق صاحب الحسنات
فإذا عشقت عشقت مصدر نعمتى ... وإذا عبدت عبدت سر حياتى
وإذا شكرت فذاك أبسط واجب ... وإذا كفرت فمنتهى الخسات
وإذا ابتغت نفسى الثواب أجبتها ... لا أجر للمملوك عن خدمات
من كان لا يرعى جميلا حاضراً ... لا يستحق الفوز بالجنات
مولاى عفواً لست أملك ما به ... أوفيك حق الشكر عن منات
فالنفس والجسم الذى قد ضمها ... والقلب ملكك ليس فى قبضاتى
عملى خلقت وفى يديك هدايتى ... والفضل منك على فى الطاعات
روحى بأمرك إن أردت منحتها ... لى أو قضيت نزعت فى لحظات
بك قد وثقت وليس غيرك موئلى ... وسواك لا أرجوه فى الأزمات
فإذا رضيت فذاك شأنك سيدى ... وإذا أثبت فذا من المنحات
وإذا قضيت بأن أعذب فى لظى ... فإطاعتى لك منتهى لذاتى
لكن لى وعدا أريد وفاءه ... فالوعد منك أحق من سندات
أن تكثر الإحسان منك لشاكر ... وتجيب قطعاً صاحب الدعوات
وأراك قد وفقتنى للشكر يا ... ربى وقد أكثرت من طلباتى
قد حق لى منك الوفاء فجد به ... حاشا تخيب يا كريم ثقاتى
وبما منحت على بالإيمان صنـ ... ـه وزد بفضلك خشيتى وتقاتى
واسمح بوصلك لى ورق لذلتى ... واغمر بإكسير المحبة ذاتى
لتكون سمعى واللسان وناظرى ... وتكون شغل القلب طول حياتى
وأكون طوعك فى شئونى كلها ... ما دق من سكنى ومن حركاتى
يارب أهلنى لحبك والتقى ... واجعل رضاءك منتهى رغباتى
واملأ فؤادى باليقين وكن معى ... دوماً وسلمنى من الآفات

وأدم غناك على واجعلنى به ... ممن يريد رضاك بالحسنات
فوضت أمرى مخلصاً لك نيتى ... فاكبت بقهرك حسّدى وعداتى
وتولنى فى الواجبات جميعها ... واصفح عن التقصير والزلات
واصلح لى الأعمال واقبلها وجد ... بالعفو واختم بالرضى صفحاتى
واحسن لى الأخرى ومتعنى بها ... بشفاعة المختار فى الميقات
وامنن علىّ بخير ما أعددته ... للمتقين ومخلصى النيات
واشمل بعفوك والدى وجارهم ... ومشايخى بالخير والجنات
وارحم جميع المسلمين فإنهم ... يرجون منك العفو والرحمات
يا من كتبت على جلالك رحمة ... للمردفين الذنب بالتوبات
جهلا أسأت وقد أتيتك تائباً ... مستغفرا يا سامع الدعوات
يا خالق الأكوان مبدعها ومن ... قد جل عن ولد وعن زوجات
وأحاط علما بالعباد فعمهم ... باللطف والتيسير فى الشدات
حقا علينا أن نطيعك دائماً ... فيما أمرت به من الطاعات
فامنن وقدرنا عليها إننا ... بالعجز موصوفون والعثرات
يا مستعان فليس غيرك من يعي ... ن على صروف الدهر والكربات
أنا عاجز عن دفع ما قد مسنى ... لا عون لى إلاك فى النكبات
إنى أجلك أن تكون خلقتنى ... لأنال منك مجرد الشقوات
مولاى إن الناس إن ينزل بهم ... ضيف تلقوه على الرحبات
أو يدعهم ذو حاجة فى شدة ... حرصوا على إعطائه الحاجات
أو يستجار بهم يجيروا جهدهم ... أو يستشاروا يخلصوا القولات
ولأنت رب الناس مصدر كل خيـ ... ـر عالم بحقائق النيات
ولقد نزلت لديك أكرم ساحة ... وقصدت وجهك يا عظيم الذات
ووكلت أمرى كله لك سيدى ... وقد استخرتك فيه بالخيرات
ورضيت ما ترضاه لى وشكرت ما ... قدرت لى من أنعم وهبات
ورجوت فضلك دائما وبك استجر ... ت من العدا والنفس والشهوات
حاشا تخيبنى وتخلف ما به ... عودتنى من سرعة النجدات

ومن التفضل بالعطاء لكل ما أملته من غير ما كلفات
وفقا لقولك إن رزقك كائن دون احتساب بل من المنات
رب احينى ما دام خيرى فى الحيا ة فإن وفت جد لى بخير وفاة
واختم حياتى ناطقاً بشهادة أنجو بها فى الحشر من ويلات
واجعل إلهى خير يوم فى حيا تى يوم أحظى منك بالرؤيات
يا مصدر النعماء جد لى منك فى دنياى والأخرى من الحسنات
وقنى عذاب النار وامح خطيئتى وامنن على لديك بالجنات
يا ملهماً للنفس تقواها ومن إن شاء زكاها بمحض هبات
لا تقطع الإلهام عن قلبى إلى ا تقوى وزكى النفس بالطاعات
وبما قضيت على ربى رضنى وأفض على رزقى من البركات
كى لا أعجل ما ترى تأخيره عنى ولا التأخير فى حالات
واجعل شعارى البشر إن أحسنت فى عملى والاستغفار فى الزلات
وبرحمة منك اهد قلبى يا رحيـ م وآتنى من وافر النعمات
يا رب يا نور السما والأرض هب لى النور فى سمعى وفى نظراتى
وأنر سبيلى فى الحياة وجد بنو ر لى بقبرى يذهب الوحشات
يامن ترانى حيث كنت وتسمع النجـوى وتعلم كافة الحركات
لا شئ يخفى عنك من أمرى ولي س يضيرك الغفران فى السقطات
ما دمت تعلم أننى لم أقصد الـ معصيان فيما كان من عثراتى
وأنا الضعيف فإن عصيت فإنما يرثى لجهلى أو على غفلات
والطفل إن يخطئ يضر بنفسه وعليه تحنو الأم بالشفقات
ولنحن بين يديك أجهل منه يا ربى وإنك مصـدر الرأفات
فاعطف على ولا تؤاخذنى بما أسلفت فى الماضى وما هو آت
وكفى بأنك عالم بجهـالتى والضعف من شأنى ومن فطراتى
يا رب هب لى منك قلباً مخبتا متضرعاً لك دائم الخشيات
واجعل لسانى مشغلا بالذكر والتـ سبيح والتمجيـد والآيات
وافضى على قلبى المحبة منك يا ربى وقدرنى على الطاعات

واجزم يقينى فيك حتى لا أساء ... بما قضيت وتزدهى أوقاتى
يا من له الصلوات مع نسكى ويا ... من منه محياى ومنه مماتى
وله مآبى والتراث وفيه آمالى وما ... لى عنه من غُنيات
وبه أعوذ من الوساوس والهمو ... م ومن شتات الأمر والفتنات
انزع بفضلك من فؤادى كل ما ... يشغله عنك أيا على الذات
يا من بيمناك النواصى والقلو ... ب ادفع بها للخير والحسنات
واجعل إلهى حب ذاتك راجحا ... عندى على الأموال والفلذات
ومن الفؤاد أقلع مخافة من سوا ... ك وصد عنى السوء والآفات
حتى أرى يمناك تعمل دائماً ... فى صالحى يا قاضى الحاجات
وامنن علىّ بصحة وبعفة ... وأمانة وإقامة الصلوات
وبحسن ظنى فيك قوّ توكلى ... ربى وحقق أعظم الرغبات
واجعل لقاءك منتهى أملى ولا ... تصرف لغيرك خالقى نظراتى
وتول يا مولاى إسعادى وجنـ ... ـبنى الشقاء وقدر الخيرات
وصن الفؤاد من النفاق كذا اللسـ ... ـان من الخنى والكذب والغيبات
والعين من شر الخيانة والفحـ ... ـشا من الرياء وموجب الريبات
يا من علمت الخائنات من العيو ... ن وما يكن الصدر من نيات
جد لى بعلم منك يكسبنى التقى ... والحلم والإخلاص والتوبات
وأعوذ بالرحمن من شر اللئيـ ... ـم ومفسد وملازم الخدعات
ومن الحسود ومن تغلب دائن ... أو ظالم يبغى به الهلكات
ومن الرجيم وساحر وجميع ما ... فى الكون من إنس وحيوانات
وأعوذ بالرحمن من بطر الغنى ... ومذلة للناس من فاقات
وأعوذ بالرحمن مما قد يجو ... ل بخاطرى من سيئ الفكرات
يا من يسر بطاعتى من دون أن ... يؤذيه منى كثرة الزلات
هب لى بفضلك مايسرك واعف عن ... ما لا يضرك مصدر المنات
وأعنى يا مولاى بالدنيا على ... دينى وبالتقوى لدى الميقات
رب اكفنى من كل أمر همنى ... وتولنى فى حالك الأوقات

فلأنت حسبى يا حفيظ ومن تكن ... أنت الحفيظ له ففى عصمات
مولاى لولا ما عرفت به من الأ ... فضال والألطاف والرأفات
لم تمهل العاصين أو تسترهم ... وتقابل العدوان بالحسنات
بل لم تجبهم إذ دعوك وتدعهم ... للتوب ثم تمن بالتوبات
كلا ولم يك فى استطاعة مجرم ... أن يطلب الغفران بالصلوات
أو يرتجى منك القبول وإنه ... هو من عصاك وأكثر الحرمات
لكن حلمك جرأ العاصين فى اس ... تمرارهم فى اللهو واللذات
والعطف أطمعهم وجودك باعث ... لهم على أمل مع الزلات
إذ ليس من شك بأنك لم تكن ... تدعو للاستغفار والدعوات
لو لم ترد عفواً عن الماضى وإء ... طاء لما يرجون من خيرات
بل لم تلقن من عصاك العذر إن لم ... ترضه وتقدر الإفلات
فلأنت مبتدئ دواماً بالنوا ... ل وأنت معطى الخير بالكثرات
والكل لا يرجو سوى الغفران منـ ... ـك أيا غفور ويرقب الرحمات
وبحسن ظنى قد دعوتك لا بأعـ ... ـمالى فما لى قط من حسنات
بل ليس من حق عليك أريده ... باسم العدالة منك والنصفات
أفهل ترانى مخطئاً فى الفهم ... أم فى حسن ظنى مصدر المنات ؟
حاشا فإنى جازم بإصابتى ... فيما أقول وواثق بنجاة
ولأنت تقضى يا قدير بما تري ... د وتملك التعديل فى الصفحات
يا من علمت بما عليه الناس من ... جهل وضعف العقل والقوات
ولو أنهم قدروا على نيل الكما ... ل لأصبحوا فى أرفع الدرجات
ولأنت وحدك من يعلمهم ويهـ ... ـديهم لخير الفعل والنيات
أنا واحد منهم ولولا الجهل لم ... أجرؤ على التقصير فى الطاعات
ولو أننى سخرت كل قواى فى ... ما ترتضى لم أحسن الخدمات
أفهل تؤاخذنى على جهل قضيـ ... ـت به ومالى فيه من خيرات ؟
أم هل تعذبنى لضعف العقل أم ... للعجز عما ليس فى طاقاتى ؟
حاشا فإنك عادل ولأنت فو ... ق العدل ستار على العورات

ولأنت غفار الذنوب وإن غدت ... عظمى لأنك واسع الرحمات
فتغاض عما كان منى يا كري ... م ولا تحاسبنى على السقطات
ولئن علمت بأمر تقصيرى وما ... يستوجب التعذيب من زلاتى
وإطاعتى إبليس رغم إرادتى ... فيما يزينه من اللذات
فلأنت تعلم أننى ما رمت عص ... يانا ولا الكفران بالنعمات
ولئن ندمت على ذنوبى مرة ... فلقد رجوت رضاك فى مرات
ولأنت تعلم ما بقلبى من هوى ... ومحبة نطقت بها أبياتى
وأعوذ من إبليس جهدى بل وأبـ ... ـغضه وأكثر فيه من لعناتى
فاغفر حبيبى ما أسأت به إلي ... ك لما بقلبى فيك من لوعات
واصفح إلهى عن مطاوعتى له ... فيما جعلت له من السلطات
نظراً لما أودعت من كره له ... فى القلب فالأعمال بالنيات
وامنن بوصل منك لى أحيا به ... فى منتهى الإسعاد والغبطات
نالصبر يجمل دائماً لكنه ... عن مثل وصلك يوجب الحسرات
واجعل يقينى فيك أكبر هادم ... للسيئات مبشراً بنجاة
وفقا لما قدرته فى الكفر إن ... يك هادما للخير والحسنات
فلقد عبدتك طائعاً متأكداً ... من أنك المولى العلى الذات
وعصيت أمرك مكرها إذ أننى ... عبد ضعيف فاقد القدرات
والخوف منك أعادنى طوعا إليك ... مؤملا فى العفو عن زلاتى
ولقد دعوتك والخطايا أثقلت ... عنقى وهدت منى القوات
وأنخت حول البيت معترفا بما ... قصرت فيه وسيئ الفعلات
ولساحل الغفران قد يممت ملـ ... ـتمساً قبول العذر والرحمات
أفهل تجنبنى الذنوب عن السؤا ... ل وليس لى بد من الطلبات ؟
أم هل تضن على فقيرك يا غنـ ... ـى بوافر الإحسان والخيرات ؟
حاشاك ربى ما علمت بسائل ... يوما دعاك وعاد بالخيبات
أو عاشق هجر الخلائق فيك إلا ... كنت مؤنسه من الوحشات
كلا ولم يشغل بطاعتك امرؤ ... إلا اكتفى بك يا عظيم الذات

وغمرته بالفضل منك مع الرضى ... وحبوته بجلائل النعمات
يا من له حنت قلوب المخلصين ... وضجت الأصوات بالدعوات
لا تخل قلبي من محبتك التي ... هي منتهى سعدى ونور حياتي
يا ملجأ اللاجين يا سند الورى ... وملاذهم في ساعة الشدات
أفترتضى إحراق جسمي في الجحـ ... ـيم وكان وجهي دائم السجدات ؟
والقلب مني عارف بك والله ... ان يردد الآلاء في الخلوات
يا من كساني خلعة من حبه ... ومن اليقين بمالك الميقات
أفبعد أن أعطيتني الإيمان تأ ... خذه وتسلب مني الخلعات ؟
حاشاك ربي فالكريم متى تفضـ ... ـل ليس يرجع قط في المنحات
ولأنت رب الأكرمين أجل من ... هذا وأرأف بي من النسمات
وأنا الذي لسواك لم أخضع بشخـ ... ـصي بل لمن ملكته السلطات
وجعلته سببا لما قد نالني ... أو ما سألقاه من الخيرات
فالفضل منك وأنت من خضعت له ... نفسي ودنت له بكل حياتي
وسواك لم أقصد بقلبي قط بل ... لم أدعه بالسر في حاجاتي
ولأنت محبوبي وقد أحببت من ... أحببته وجميع ذي النسمات
إذ أنها خلق وحب الخلق من ... حب الإله مكون النطفات
وأحب أن أخلو بذكرك عنهم ... وأرى مديحك منتهى لذاتي
أفهل تقدر لي الغنى عمن سوا ... ك لأبلغ المقصود من خلواتي ؟
يا من جذبت إليك من ترضاهم ... ودعوتهم بالرفق للحسنات
ومنحتهم منك الهداية فاهتدوا ... وتبوؤا بك أرفع الدرجات
وغدا لهم أنس بذكرك دائما ... لا سيما في حالة الصلوات
ولقد نظرت لهم بأحسن نظرة ... أنستهم الدنيا مع اللذات
بينا تردى الناس في بحر من الآ ... ثام حيث مضوا مع الشهوات
أنا قد أتيت من الذنوب أجلها ... وحجبتها خجلا عن الحدقات
ونسيت أنك ناظر لي عندها ... رغم التستر ساعة السقطات
ولو أنني أدركت كنت تركتها ... من عظم خوفي منك عالي الذات

ونفضلا أمهلتنى وسترتها وجعلتنى فى أحسن الحالات
فامنن وأتمم لى جميلك بالرضى والعفو والغفران والرحمات
أنت الذى تهب الكثير وتجبر ال قلب الكسير وتغفر الزلات
وتقول هل من تائب مستغفر أو سائل أفضى له الطلبات
ولقد دعوتك يا إلهى تارة وسكت فى أخرى من الهيبات
لكن حالى ناطق بحوائجى وكفى بعلمك قاضى الحاجات
فامنن وعاملنى بعفوك لا بعد لك يا كريم وساتر العورات
وعليك يا مولاى فضلا دلنى واشفق على ضعفى كذا ذلاتى
واجعل إلهى رغبتى فيما لديـ ـك ولا تحاسبنى على العثرات
فلأنت من عرفتنا بك سابقا وغمرتنا فى أبحر النعمات
ودعوتنا للقرب ثم هديتنا للذكر والإحسان والصلوات
وجعلتنا لا نستطيع الصبر عند ـك لما عهدنا منك من منات
إذ لم تقابل جرمنا بقطيعة بل زدتنا من وافر الخيرات
حتى كأن الذنب إحسان وأنا لم نجىء شيئا من الحرمات
وكذاك شأنك لا تقابل من عصا ك بمثل ما يأتى من الفعلات
وأنا الذى إن ما خلا عن ذكره يوما فؤادى أظلمت أوقاتى
إذ لم أسر بغير وصلك سيدى ولغير ذاتك لم تكن وجهاتى
حتى ولو قصرت فى عملى ولم أرع شروط العهد والذمات
فالسعد كل السعد إن ما جدت لى بالحب منك وصالح النيات
ورضيت عن عملى وإن لم يستقم وشملتـه بالعطف والرحمات
فلئن عصيتك جاهلا فالعقل أر شدنى إليك وأرسل الدعوات
لما علمت بأن لى ربا يسر بمن يسىء ويخلص التوبات
وعلمت أنك عالم بجميع آ ثامى وما قد كان من سقطاتى
وبرغم هذا أنت غفار الذنو ب وإن غدت كالطود فى العظمات
وعلمت أنك لا تضن بنجدتى عند اقتضاء الأمر للنجدات
كلا ولم تمسك يداك عن الورى فى حالة الإمعان فى الزلات

حتى ولو لم ينزلوا بك سؤلهم ... ودعوا سواك ويموا الدميات
ولأنت وحدك من يفرج كربهم ... ويحقق الآمال والغايات
ولقد علمت بحالتى وحقيقتى ... وبما أرجيه من الغايات
وسعادة الدارين يا رب الورى ... فامنن وحقق كامل الرغبات
يا من يجير ولا يجار عليه يا ... من لطفه فى ساعة الشدات
أنت الذى إن أحكمت حلقات عسـ ... ـر جاء يسرك ينقض الحلقات
ولقد أحطت العسر فى التنزيل بال ... ـيسرين كيما تطرد الأزمات
وقضت إرادتك الحكيمة أن يكـ ... ـون الضيق باب اليسر والفرجات
حتى إذا ما استيأس الإنسان من ... هول البلاء أتيت بالنصرات
فالأمر أن يشتد يوما جاءه ... فرج يبدد أعظم الكربات
ولقد دعوتك والهموم تكاثرت ... عندى ومالى عنك من غنيات
فتول يا مولاى تصريف الشئو ... ن وجد بيسر يذهب الخيفات
واغمر فؤادى بالسكينة والرضا ... ودوام شكرك سامع الأصوات
يا من عوائدك الجميل ودأبك الأ ... حسان والتفضيل فى الدرجات
لا تخل عنى الستر فى الدارين واجـ ... ـلنى بفضل منك فى رفعات
يا جابراً كسر الضعيف ومنقذ الـ ... ـغرق وهادى الناس فى الظلمات
أجبر بفضلك قلب عبد غارق ... فى اليم يستهديك للطرقات
وأنر له المسعى ويسر أمره ... وادفع به بيديك للخيرات
يا آمراً بالاعتصام بحبلك الأ ... قوى وبالتكلان فى الحالات
هيىء لذا قلبى وأعضائى وجد ... واجعله يا مولاى من عاداتى
لأرى لذيذ العيش فيما كان لى ... وسواك ليس بمالك النعمات
كلا ولا يستطيع جلب الضر لى ... إلا بإذن منك عالى الذات
وقنى أيا جبار شر المفسديـ ... ـن ومكثرى التضليل والهمزات
واختم على بصر الذى يبغى على ... وسمعه والقلب بالغشيات
واقطع بسيفك دابراً للظالميـ ... ـن وصدهم عنى وعن قرباتى
وابعث إلى من الأمان كتائبا ... تقنى من الأعداء والفتنات

وأعزّنى بك يا إلهى واكسنى ... ثوب الجلال وخلعة الهيبات
وافض على محبة ومودة ... تدنى القلوب إلى بالفطرات
واشرح أيا رباه صدرى للتقى ... ولما تعسر يسر الطرقات
واكلأ بحسن عناية قلبى فلا ... يرتاع للبلوى ولا الكربات
وأزل همومى يا مغيث ونجنى ... من حاسد ومعاند وبغات
وانصب سياج الحفظ من حولى فلا ... أخشى سواك ووقنى الهلكات
وتول جلب الرزق لى من حيث لا ... أدرى وآمنى من الغدرات
يا من قربت من العباد وقلت أنـ ... ـك تستجيب لمرسل الدعوات
أنا قد وثقت بما تقول وقد دعو ... تك سيدى ياسامع الأصوات
وبسطت ما أرجو وبت مؤملا ... تحقيق ما قدمت من طلباتى
فامنن ولا تبخل على بها فإن ... الجود يؤخذ عنك والرحمات
والكل فى الدنيا يعيش على ندا ... ك ولن تضيق بأعظم الرغبات
وجميع ما أملته لا شىء عنـ ... ـد قياسه بجلائل النعمات
بل لا يوازى ذرة فى جنب ما ... أبدعت من خلق ومن خلقات
ولقد خلقت الكائنات وما عييـ ... ـت بخلقها وبكل مخلوقات
أفهل ترى تعييك ربى نصرتى ... أم هل تهمك كثرة الحاجات
حاشا فإنك إن تقل للشىء كن ... سيكن بدون عنا ولا كلفات
يا من أخذت على جلالك أن تزيـ ... ـد الشاكرين بمقتضى الآيات
من غير تعليق لذاك بغير شكـ ... ـران على ما كان من خيرات
أنا شاكر لك من صميم القلب يا ... ربى على الآلاء فى خلوات
ولقد علمت بذاك منى يا علىـ ... ـم فزد إلهى الفضل والحسنات
ولسوف أبقى ما حييت مردداً ... للحمد والشكران فى الحالات
إذ لم أجد غير الجميل وحسن تد ... بير وألطاف لدى الأزمات
والله أرجو أن يديم على هـ ... ـذا سرمداً بالخير والبركات
يا من خلقت الكائنات جميعها ... لقضاء ما للناس من حاجات
ولأجلهم سخرت أفلاك السما ... وجميع مافى الأرض من ذرات

وتخذتنى عبداً لذاتك يا حمي ... د وكان هذا منتهى رغباتى
فالعبد ينعم فى الحياة برقه ... نظراً لما يكفى من النفقات
ويعز أن أضحى رقيقاً للملي ... ك ولا يبالى قط بالأزمات
أفهل لمثلى أن يفكر فى الحيا ... ة وأن يضيق بها من العسرات
ويؤم باب سواك فى حاجاته ... أو يستجير بغير ذى قدرات
ما دام يعلم أنه عبد لمن ... ملك الملوك وأخضع الهامات
وعلا على العرش العظيم جلاله ... مع قربه حقاً من النسمات
حاشا فإنى لست أذكر قط أن ... خيبتنى فى أحرج الساعات
وتركتنى يوماً أعانى شدة ... من دون نور يوضح الطرقات
وتمدنى بالحل منك وتعطنى ... ما لم يكن يجرى على خطراتى
ولذاك لم تترك مجال تخبط ... لى فى ابتغاء العيش والنصرات
بل قدتنى من حيث لا أدرى إلى ... ما فيه إصلاحى ومنه نجاتى
ورزقتنى من محض جودك أنعما ... ليست بمجهودى ولا قواتى
فتولنى بعناية ورعاية ... صمدية فى أحرج الأوقات
وانظر إلى بنظرة الرضوان يا ... ربى ولا تنظر إلى عوراتى
واجذب إليك النفس حتى تطمئن ... وتبلغ المقصود والجنات
يا من أبيت على تكليفى بما ... هو ليس فى وسعى ولا طاقاتى
ورضيت منى فى العبادة دون ما ... أسطيعه من أبسط الطاعات
ووعدتنى أجراً عليها فائقاً ... وغمرتنى بالفضل والمنات
أنت الذى لم تخلق الثقلين إلا ... للعبادة مالك الميقات
وخصصتنى مع من خصصت بنعمة الإ ... سلام ثم الشكر فى الحالات
ووهبتنى الإيمان وهو أجل ما ... تؤتيه من نعم ومن منحات
ونسبتنى لك عند ما سميتنى ... « عبد الحميد » فزدت فى غبطاتى
ولقد جعلت «الحمد» من إسمى ومن ... طبعى وخير مبادئى وصفاتى
وهديتنى للحمد حتى بت أر ... جو أن أفوز بأرفع الدرجات
فأكون ضمن الشاكرين وهم قلي ... ل من عبادك واهب الحظوات
ورضيت بى (جاراً لبيتك) حيث قد ... أسكنتنى فى أشرف البقعات

والجار محمول على عـــلاته ... لا يؤخذ الجـــيران بالزلات
وتفضلا عرفتنى بك إذ هدي ... ت إليك كل الحس والفكرات
وجعلتنى بك (شاعراً) وأجل شع ... رى فيك يا ذا الجود والمنـــات
وجوائزى لا أرتجيها من ســوا ... ك أيا كريم ومانح الثروات
ومن (الخطيب) قد انحدرت وأنه ... هو من قضى الأيام فى الدعوات
لله أوقف نفســه يسعى إلى الت ... عليم والتأليف والصـــلوات
وهل (الخطيب) سوى الخطيب بمنبر ... يدعو إلى الإصلاح والخشيات
فارحمـــه يا ربى وألحقنى به ... وامنن علينا منك بالجنـــات
واعطف على ولا تـكلنى سيدى ... لسواك واهدينى إلى الطاعات
واكتب ثوابى مثل ما وفقتنى ... لرضاك والشكران والحسنات
واقبل (مناجاتى) وما أمليته ... شعراً به وفقت فى غاياتى
من نصر دينك يا كريم وقد ربا ... عن سبع آلاف من الأبيات
وفقتنى فى منتهـــاها أن أجيـ ... ـء لمسجد المختار فى إخبات
وهناك بشرنى غـــلام أحمد ... أن قد رآنى خارج الحجرات
أتلو القصيدة واقفاً وأمرت بالتـ ... ـكرار فاستبشرت بالرؤيات
وصدعت بالأمر الذى قد جاءنى ... كدليل رضوان عن الـكلمات
ورجعت نحو قصيدتى فتلوتها ... فى (روضة) نسبت إلى الجنات
ورجوت من ربى القبول وأن يـ ... ـمن بطبعها فى أقرب الأوقات
مع شرحها وبها يعم النفع فى ... هـذا الزمان وأبلغ الغايات
ونظمت هـــذا فى محبة أحمد ... من بعد أن أديت فرض صلاة
فامنن على أيا كريم بلذة النجـ ... ـوى بقولك فزت بالرغبات
وتوفنى كرماً على الإيمان والتقـ ... ـوى وخير الفعل والنيات
وإذا نزلت القـــبر لقنى به ... ربى بفضلك أحسن الـكلمات
وبيوم حشر جد وأحسن لى الحسا ... ب لأبلغ الآمال بالرحمات
وعلى نبيك صـل يا رب ووفـ ... ـقنى لإكثار من الصلوات
وعلى بنيـــه وآله وصحابة ... والتابعين لهم إلى الميقـــات
وارحم إلهى كل من شرفتهم ... بالانتساب لسيد الســادات

فهرست

الصفحة	الموضوع	مشتملاته
ج	إهداء .	
هـ	تقريظ .	
ط	تصدير لسماحة العلامة الشيخ محمد عبد العزيز بن مانع .	
ل	كلمة فضيلة العلامة الجليل الشيخ حسنين محمد مخلوف .	
ع	كلمة سماحة الزعيم الإسلامى الكبير السيد محمد أمين الحسينى .	
ص	كلمة سماحه الشيخ عمر بن حسن آل الشيخ .	
ق	كلمة سعادة الشيخ احمد ابراهيم الغزاوى .	
ث	كلمة سعادة الأستاذ محمد محمود الزبيدى .	
خ	كلمة فضيلة العلامة الشيخ حسن ابن شيخنا الشيخ سعيد اليمنى .	
ذ	كلمة فضيلة الشيخ سليمان الندوى .	
ض	كلمة فضيلة الشيخ داود إبراهيم فطانى .	
ظ	كلمة العلامة الشيخ محمد عادل القدوسى .	
١	المقدمة	القرآن أصح الكتب — إتباع الرسول .
٦	تمهيد	تاريخ الشريعة الإسلامية . إبراهيم وقومه . هجرته بدينه . بناؤه البيت الحرام . متى وضعت الإصنام فيه . محمد يتبع جده إبراهيم . الإسلام ملة إبراهيم .
١٧	محمد بن عبد الله	أثر حبه فى قلب عمر . العلو فى حبه .
١٩	خاتم النبيين	عدم تميزه عن غيره . كراهيته أطرائه . وصفه بحقيقته . نزول الوحى عليه . تكذيب مدعى النبوة . كونه معجزة الله الخالدة .
٢٣	مقامه وفضله	بحث فى معنى العبودية . عبوديته لمولاه . هدايته للناس . فضائله الخلقية والعلمية والروحية والدينية والعملية والشخصية ومزاياه المتعددة وشفاعته وحوضه .
٣٤	أسماؤه	

الصفحة	الموضـــوع	مشتملاته
٣٤	نسبه وأصـــوله	قصة الفيل وطير الأبابيل . تخلى عبد المطلب عن حماية البيت .
٣٨	مولده ورضاعه	
٣٨	حضانته وكفالته	نشأته فى البادية وزيارته لقبر أبيه وفاة أمـــه . وفاة جده عبد المطلب .
٣٩	حياته فى صباه	رعيه الأغنام . اشتراكه فى التجارة .
٤٠	زواجه بخديجة	سفره للشام بأموالها . عقده عليها .
٤١	بعد الزواج	اعتكافه بغار حراء . تحكيم قريش له . وضعه الحجر الأسود بيده .
٤٢	علمه وشهادته	نقمته على الأوثان . إيمانه بربه . نزول الوحى عليه . بشارة ورقة بن نوفل له . نيله شهادة العلم وإجازة التعليم .
٤٧	أدبه وخلقـــه	تأدبه بأدب القرآن . نيله شهادة بحسن الخلق .
٥٠	دعوته لربه	انقطاع الوحى عنه . أمره بالدعوة لربه . تبليغه الدعوة . موقف أبى لهب منه . نقمة قريش منه . عدائهم له . محاربته الأصنام . موقف أبى طالب منه مناصرة عمه حمزة له .
٥٨	الهجرة إلى الحبشة	أول من هاجر إلى الحبشـــة . مقاطعة قريش لبنى هاشم . وفد قريش للنجاشى . حماية النجاشى للمهاجرين . انتشار الإسلام فى الحبشة .
٦٣	إسلام عمر	كيف أسلم وأعلن إســـلامه . خلقه قبل الإسلام وبعده .
٦٧	مقاطعة قريش	انحياز بنى هاشم للشعب . ما أصابهم من مجاعة . إلغاء الصحيفة .
٦٨	ذل أبى جهل	سطوة النبى عليه وخوفه منه .
٦٩	طلب قريش الصلح	تمسك النبى بالدعوة إلى الإسلام . موت أبى طالب وموت خديجة . سفره إلى الطائف . عودته إلى مكة .
٧٠	بدأ الدعوة العامة	لم يطلب حماية أحد له البيعة الأولى عند العقبة . انتشار الإسلام فى المدينة . بيعة العقبة الثانية . قرار الهجرة .

الصفحة	الموضـــوع	مشتملاته
٧٣	الإسراء والمعراج	بحث فى صحة الإسراء والمعراج وإنه بالجسم لا بالرؤيا .
٧٩	الهجرة إلى المدينة	الرســـول آخر من هاجر . التآمر على قتله . نصر الله له . اعتكافه بغار ثور . وصوله المدينة .
٨٢	تـكوينه للأمة	وضعه الحجر الأساسى للوحـــدة . أول خطبه بالمدينة . مؤاخاته بين المهاجرين والأنصار نص البلاغ الصادر منه .
٨٧	بطانته وعماله	توليه الحـكم بالدستور . نوابه وقضاته . وزرائه . ترجمانه . رفقائه . الحائزون لألقاب الشرف . مدير الأموال . مدير الخاصة . كتابه . حامل الأختام . أمراء المقاطعات . المحتسب . صاحب الشرطة . الحرس الخاص .
٩١	مواقفه مع اليهود	إســـلام الحصين بن سلام . سعى اليهود فى التفرقة بين المسلمين . دعوة الرسول لليهود ومجادلتهم .
٩٤	تأديب بنى قينقاع	فتنة بسبب امرأة أدت بهم إلى الجلاء .
٩٥	غدر بنى النضير	محاولتهم قتل الرسول . حصارهم حتى طلبوا الجلاء .
٩٦	الأحزاب والخندق	تأليب اليهود القبائل على الرسول خروج قريش لحربه . تحصين المدينة بالخندق .
٩٧	نقض بنى قريظة العهد	حصار النبى لهم . طلبهم الأمان والجلاء . تحـكيم الرسول سعد بن معاذ فى أمرهم . حكمه فيهم وفق التوراة .
١٠٠	فتح خيبر	تحصن اليهود بها مهاجمة الرســـول لهم ودك حصونهم . زواجه بصفية . دس السم له . استيلائه على بعض القرى وبسط نفوذه على جميع القبائل اليهودية .
١٠٣	غزواته وسراياه	بحث تحليلى لتصرفات الرسول فى هذا الباب .
١٠٦	اتجاهه للـكعبة	متى كان ولماذا عدل عنها وماالسبب فى رجوعه إليها .
١٠٧	وقعة بدر الـكبرى	تفـكيره فى تطهير البيت من الأصنام . حصاره مكة . مصادرة أموال قريش . تجمع قريش لحربه . تحصن الرسول فى بدر . استعداد الرسول لقائهم . ونصره عليهم . أول معركه نشبت مع قريش .
١١١	غزوة أحد	مصادرة زيد بن حارثة أموال قريش . تجمع قريش لحرب الرسول . خروج النبى لقتالهم . تخلى المنافقين عنه . نصر الله له .

الصفحة	الموضـــوع	مشتملاته
١١٦	مناوشـات وغزوات	فى الرجيع . فى بئر معونة . ذات الرقاع . بدر . دومة الجندل . بنى المصطلق .
١٢٠	حديث الأفك	اتهام السيدة عائشة . تبرئة الله لها . إقامة الحد على المفترين .
١٢٥	بيعة الرضوان	
١٢٦	معاهد الحديبية	بحث تحليلى لها . أوجه الاعتراض عليها . احترام النهى لما جاء فيها قبل توقيعها ما ترتب عليها من نصر للمؤمنين .
١٣٣	توثيق العلاقة مع الحبشة	كتاب الرسول للنجاشى . جوابه عليه .
١٣٦	كتبه السياسية	كتابه إلى هرقل . هرقل وأبو سفيان . هرقل وقومه . هرقل والنجاشى .
١٣٩	كتابه إلى الحارث الغسانى	
١٤٠	كتابه إلى كسرى	
١٤١	كتابه إلى المقوقس	
١٤٢	كتابه إلى صاحب اليمامة	
١٤٣	كتابه لأمير البحرين	
١٤٣	كتابه إلى ملكى عمان	
١٤٤	زيارة البيت الحرام	طوافه بالبيت زواجه بميمونة . عودته إلى المدينة . إسلام خالد بن الوليد .
١٤٦	إلى الشام	قتل سفير الرسول . تجهيز الرسول الحملة . قتل ثلاث قواد من المسلمين . تولى خالد القيادة . رجوعه بالجيش . تجهيز جيش بقيادة عمر بن العاص لتأديب العصاة من قضاعة .
١٤٩	إلى مكة	نقض قريش للمعاهدة . خروج النبى لحربهم . خوف أبى سفيان . إسلامه . فتح مكة .
١٥٣	نصر عزيز	بحث فى وسائل النصر . فتح مكة وتحطيم الأصنام . استسلام قريش . رد الأمانات . بيعة الرجال والنساء .
١٥٨	هوازن وثقيف	نتيجة الغرور . الاعتماد على الكثرة . قوة الإيمان . بين النبى والأنصار . شفاعة الشيماء . رجل يحمل قبيلة على التسليم . خضوع أهل الطائف .

الصفحة	الموضـــوع	مشتملاته
١٦٤	التصدى لحرب الروم	فرض الزكاة . تجهيز الجيش . التنكيل بالمنافقين . دخول الرسول الى تبوك . فرضه الجزية على بعض أمراء النصارى .
١٦٧	موقفه مع المخلفين	هـدم مسجد المنافقين . مجاملة عبد الله بن أبى بن سلول . تأديب المخلصين .
١٧١	حدث خطير	لا يدخل الجنة كافر . لا يحج بعد هذا العام مشرك . لا يطوف بالبيت عريان . تحديد وقت لإنهاء مدة المعاهدات . الأسباب الداعية لذلك .
١٧٥	براءة من الله ورسوله	القصد منها . شرحها وبيان مقاصدها . ما اشتملت عليه من نصائح . ما اختلف فيه المسلمون والنصارى .
١٩٢	تعليق على براءة	تحليل بيان الرسول . تبرير ما جاء فى براءة . لاعصبية فى الإسلام . الإسلام يحارب المبادىء الهدامة ويحمى الآداب ويحارب الرذيلة . وما يؤدى إليها ويدعو إلى التراحم .
١٩٨	عام الوفود	وفد بنى تميم . وفد بنى عامر . وفد بنى سـعد . وفد طى . إسـلام عدى بن حاتم بن الطائى وفد كندة . رسول ملوك بنى حمير . وفد بنى الحارث . ما كتب الرسول إلى بعض الأمراء .
٢٠٥	حجـة الوداع	خروج الرسول بمائة ألف حاج . خطبته التاريخية بعرفات .
٢٠٨	بعث أسامة	التنكيل بالقرية التى كانت مصدر الأصنام . خطاب النبى فى تأييد أسامة .
٢١٠	مرض الرسول ومونه	مداعبته لعائشة . اختيارها لتمريضه . وصـيته لقومه . استخلاف أبى بكر . نعيه للناس .
٢١٥	من يخلف الرسول	الترشيح للامامة . بيعة أبى بكر . وخطابه للناس .
٢١٧	جهاز النبى ودفنه	من غسله وكفنه وصلى عليه . أين دفن ؟ . أيفاد جيش أسامة .
٢١٨	رثاء أبى بكر	
٢١٩	رثاء حسان بن ثابت	
٢٢١	أحوال النبى الشخصية	

الصفحة	الموضـــوع	مشتملاته
٢٢١	أوصافه	« قصيدة »
٢٢٢	طبائعه وعاداته	»
٢٢٣	خطابته	»
٢٢٤	كلامه . ضحكه . بكاؤه	»
٢٢٥	جده ومزاحه	»
٢٢٥	نومـه	»
٢٢٦	طعامه وشرابه	»
٢٢٧	لباســـه	»
٢٢٧	أثاثه	»
٢٢٨	فسطاطه	»
٢٢٨	راياته	»
٢٢٨	سلاحه	»
٢٢٩	دوابه	»
٢٢٩	صفة ركوبه	»
٢٢٩	ثروته	»
٢٢٩	أولاده	»
٢٣٠	نساؤه	»
٢٣١	سراريه	»
٢٣١	عشرته لا زواجه	»
٢٣٢	رسالته	الأخلاق . بحث فى حقيقتها وكمالها . دعوة النبي إليها . أمثلة من أخلاقه عليه الصلاة والسلام .
٢٣٩	تقويمه الأخلاق	بحث فى الجسم والنفس والروح السمو عن المادة . الإيمان بالغيب .
٢٤١	أركان الإيمان	
٢٤٢	الإيمان بالله	تضارب الأفكار فى حقيقته اختلاف أساليب الرسل فى الدعوة إليه إقامة الحجج على وجوده وقدرته وغير ذلك ما اتصف به تعالى . بحث للغزالى فى الموضوع . التفكير فى آلائه . بعض معانى أسمائه .
٢٥١	أسماء الله تعالى	

الصفحة	الموضـــوع	مشتملاته
٢٥٣	صفات الله تعالى	اختلاف السلف وغيرهم فى فهم معاني بعض الصفات .
٢٥٥	الإيمان بالملائكة	بحث فى حقيقتهم . حقيقة الجن والعفاريت . نماذج من تصرفاتهم . بحث فى الذرة وما وراء هذا العالم من العوالم غير المنظور . طرق استخدام ذلك سابقا ولاحقا . الميكروبات وحقيقتها .
٢٦١	القوى الخفية وكلام الله	« قصيدة »
٢٦٣	الإيمان بالكتب السماوية	القرآن يقرر جميع الكتب ويأتى بخلاصة وافية عنها . بعض ما اشتمل عليه القرآن .
٢٦٥	حقيقة القرآن ومعجزاته	« قصيدة »
٢٦٦	القرآن كلام الله تعالى	»
٢٦٧	وسيلة النطق بكلام الله تعالى	»
٢٦٧	العقيدة فى كلام الله تعالى	»
٢٦٨	الاستواء فى كلام الله تعالى	»
٢٦٨	العلو فى كلام الله تعالى	»
٢٦٩	الصفات فى كلام الله تعالى	»
٢٧٠	السنة وكلام الله تعالى	»
٢٧١	هدى القرآن	»
٢٧١	دروس العلم فى كلام الله تعالى	»
٢٧٢	الآيات الكونية فى كلام الله تعالى	»
٢٧٢	المخترعون فى كلام الله تعالى	»
٢٧٤	التفكير فى آيات الله تعالى	»
٢٧٥	القوى الفعالة فى كلام الله تعالى	»
٢٧٥	صلة العبد بالله تعالى	»
٢٧٦	محبة العبد بالله تعالى	»
٢٧٨	الإيمان بالرسل	هداية العقل لا تكفى لحل المشاكل النفسية . ضرورة بعث الرسل من الناس . قصيدة فى الرسل وخاتمهم .

الصفحة	الموضـــوع	مشتملاته
٢٨٢	الإيمان باليوم الآخر	الأدلة على صحة البعث والحياة الأخرى — قصة خلق آدم وعدم شعوره بالكيان الحادى .
٢٨٧	الحياة الدنيا	« قصيدة »
٢٨٩	الحياة والموت	العلاقة بين الروح والنفس والبدن . الأدوار الثلاثة . دار الدنيا ودار البرزخ ودار القـرار . التنويم المغناطيسى .
٢٩٢	الجنة والنار	ماهية الحياة الأخرى . ملاذها . بعض صفاتها . السعادة فيها .
٢٩٦	الحساب والعقاب	إنذار الرسل . طوق التقاضى وسائل الإثبات . الاعتراف بالجرم . أثر ما ذكر . الفداء عنـد المشركين والنصارى . خطأ بعض المفسرين فى فهم بعض الآيات نفى الاستبداد عن الله . بدعة الاعتماد على الشفاعة . سوء فهم حقيقة الشفاعة .
٣٠٤	الساعة	بعض أشراطها .
٣٠٥	الإيمان بالقضاء والقدر	اختلاف الجبرية والقدرية والمعتزلة وجمهور المسلمين فى ذلك ومنشأ الخلاف . مزاعم المستشرقين . تعليق الدكتور هيـكل على ذلك . رأى المؤلف فى الموضوع — الإنسان مخير لامسير — دليل ذلك من الكتاب بالسنة
٣١٥	مشيئة الله	دستوره الإلهى — الجانب الجبرى والجانب الاختيارى من أعمال الناس — للانسان كامل الحرية فى أن يقدر أمر نفسه فى الحياة ومصيره بعد الممات — المشيئة غير الإرادة في كلام الله . أسباب عدم استجابة الدعاء . معنى غفران الله لمن يشاء — من هم أهل النار — إيضاح معنى بعض الأحاديث . محاجة آدم لموسى .
٣٣٠	إرادة الله	معنى الإرادة الدعاء وزياده الرزق وطول العمر تسيطر الطبقة الاستقراطية متى يساعد الله مبتغى الضلال قصة موسى والخفر .
٣٣٧	علم الله	اختلاف مفهوم العلم تصحيح بعض النظريات القديمة عن السعيد والشقى . تفسير الأحاديث ببعضها . مفاتح عالم الغيب .

الصفحة	الموضـــوع	مشتملاته
٣٤٢	أركان الإسلام	رجوعها جميعا إلى أصل واحد .
٣٤٤	شهادة أن لا إله إلا الله	معنى الشهادة شهادة الله ومخلوقاته .
٣٤٦	عبادة الله	بحث فى معنى العباده . الدعاء هو العباده .
٣٥٠	تجنب الشرك	
٣٥٠	لا سلطان إلا الله	
٣٥٠	الاحتراس من الشرك	تقديس الأنبياء والصالحين والتقرب إلى الله بهم .
٣٥٣	ما ينافى التوحيـد	قول العامة بأن الأنبياء والأولياء هم الوسيله إلى الله وندأؤهم فى الشدائد والاعتقاد فهم بقضاء الحوائج .
٣٥٥	الاستسلام للأوهام	محاربة النبى للبدع والخرافات والأوهام .
٣٥٦	إقامة الصلاة	الأصل فى الصلاة الدعاء معنى الإقامة والغاية منها .
٣٦٠	إيتاء الزكاة	أساس الرزق والتفاضل فيـه معنى التوكل وجوب العمل . طرق الاستفادة من الأموال .
٣٦٤	حوم رمضان	شهوة البطن . العبادة السلبية . الصبر ودرجاته .
٣٦٨	حج بيت الله	الترهب فى الاسلام المؤتمر السنوى للمسلمين .
٣٦٩	حقيقة الحج	« قصيدة »
٣٧٢	التقوى	بحث فى حقيقة التقوى ومايراد منها .
٣٧٥	الخوف والإيمان	« قصيدة »
٣٧٦	خوف الله	»
٣٧٧	خوف النـاس	»
٣٧٨	خوف الفقر	»
٣٧٩	خوف الموت	»
٣٨٠	خوف الشيطان	»
٣٨١	خوف العدوى	»
٣٨٢	الحجر الصحى	»
٣٨٣	حقيقة الخوف	»
٣٨٤	علاج الخوف	»
٣٨٥	السعيد من لا يخاف	»

الصفحة	الموضـــوع	مشتملاته
٣٨٦	تأثير الخوف على الإنسان	« قصيدة »
٣٨٦	الثقة أو حسن اليقين	»
٣٨٨	اليأس معناه الفشل	»
٣٨٩	الركون إلى الأسباب	»
٣٩٠	علاقة الرزق بالأسباب	»
٣٩١	الرزق من عند الله	»
٣٩٣	سر التفاضـــل	»
٣٩٤	أحوال الجاحدين	»
٣٩٤	العدل الإلهى فى الرزق	»
٣٩٥	ســـنة الله فى خلقه	»
٣٩٦	وجوب السعى	»
٣٩٧	وجوب الاحتياط	»
٣٩٨	وجوب التسليم	»
٣٩٩	لله خرق العادات	»
٤٠٠	التقوى والرزق	»
٤٠١	حقيقة التوكل	»
٤٠٢	حقيقة التقوى	»
٤٠٢	الثقـة بالله	»
٤٠٤	الجزم بالدعاء	»
٤٠٥	تجنب الشك	»
٤٠٦	تـكرار الدعاء	»
٤٠٧	ترقب الإجابة	»
٤٠٨	بذل الجهود	»
٤٠٩	حضور القلب	»
٤١٩	الاعتراف بالنعم	»
٤١٠	تأكد الصلة بالله	»
٤١٢	تسليم العقـل	»

الصفحة	الموضوع	مشتملاته
٤١٣	صفاء النفس . وحدة الأمة	الحجر الأساسى فيها السنن والأسباب الخفية فى كل شىء وحدة العقيدة القضاء على العصبية الجاهلة (ونظام الطبقات) . وحدة العبادة وحدة الاتجاه وحدة الوطن حماية الوطن الحر وحدة القصد وحدة اللغة وحدة الأخلاق وحدة الثقافة وحدة النظم وحدة الزى الوحدة السياسية الوحدة المالية الوحدة العسكرية الوحدة الروحية الأخوة الإسلامية .
٤٢١	دين الفطرة	كيف نشأ الرسول ولاى شىء جاهد .
٤٢٣	دين السلام	الاعتراف بجميع الرسل حرية الرأى عدم التعرض للمخالفين الحرص على مبادىء السلم وعدم إرادة الحرب بعض ما يدعو إليه الدين .
٤٢٩	دين السياسة	الأهداف التى يرمى إليها الإسلام . الوسائل التى يجب أن يتذرع بها المسلم فى دعوته .
٣٤١	دين العقل	القواعد التى يقوم عليها الإسلام العقيدة وقناعة الوجدان .
٤٣٤	دين الحب	بحث تحليلى لحقيقة الحب ودرجاته وأركانه حقيقة اللذة واقسامها والحب الذى يترتب عليها حب الله كيف يحصل هذا الحب وما يترتب عليه من ثمرات وما يداخله من عوارض وما انتهى إليه أمره الآن وكيف نسمو به .
٤٦١	دين الحرية	حرية العقيدة والقصد والصراحة فى القول .
٤٦٣	دين العلم	تعليم آدم وتعليم النبى القراءة محاربته الأمية .
٤٦٥	دين العمل	العمل الصالح أعمال الخير .
٤٦٧	الأعمال الحرة	الصناعة التجارة الزراعة .
٤٦٩	دين المثابرة	فى الصلاة فى الأعمال فى الواجبات .
٤٧١	دين الطاعة	طاعة الله طاعة الرسول طاعة الوالدين طاعة الأزواج .
٤٧٤	دين الاشتراكية	بحث فى معنى الاشتراكية الإسلامية وما تقتضيها — التساوى فى الحقوق والواجبات لا يقتضى التساوى فى الرزق والأعمال والمميزات .
٤٨١	نظام التعاون	أساس التعاون إشاعة الرحمة البذل والإنفاق الزكاة الضيافة منع الاحتكار الرفق بالحيوان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الإصلاح بين المتخاصمين جهاد النفس .

الصفحة	الموضـــوع	مشتملاته
٤٩٠	نظام الحياة الاجتماعية	بحث فى حقيقة السعادة وبأى شىء تنال حرمة الربا وأسبابها .
٤٩٨	نظام الملكية	الأراضى لا تملك ولا تؤجر ما هو مشاع بين الناس بحث فى المزارعة .
٥٠٧	نظام التعامل	كتاب العدل القضاة وطرق التقاضى .
٥١٢	العقوبات	الإنسان رقيب على نفسه القصاص الأعدام القطع الجلد التعزير .
٥١٤	العدل والإحسان	ثواب العدل العفو الإحسان أداء الشهادة الاعتراف بالجرم إنصاف الإنسان من نفسه .
٥١٩	نظام الحكم	الدستور الإلهى طاعة أولى الأمر الشورى عاقبة الاستبداد .
٥٢٥	الأحكام الإلهية	« قصيدة »
٥٢٦	القوانين الوضعية	«
٥٢٧	شريعة الإسلام	ما يحل وما يحرم مآخذ الأحكام الشرعيه — الفقه الإسلامى .
٥٣٥	الجهاد فى سبيل الله	بحث فى حقيقته ومعناه .
٥٤٠	الإسلام واليهود	مواقفهم نحو أنبياء الله ودعاة الإصلاح إعلان الله الحرب عليهم وعلى من يواليهم وأنزل سخطه بهم وما تعهد به للمؤمنين حيالهم . مساواتهم للبلاشفة .
٥٤٦	الإسلام والحرب	القوى المعنوية أسباب ضعف المسلمين القوى المادية التدابير السياسية .
٥٥٠	نظام الرق	أسرى الحرب وكيف يعاملون .
٥٥٤	نظام الأسرة	وأد البنات الوصية بالمرأة أسباب ولاية الرجل عليها وعدم ولايتها للأحكام بناء صرح العائلة قداسة المرأة فى نظر الإسلام تحجب المرأة شهادتها الإفصاح عن رغبتها موقف الرجل حيالها .
٥٦١	حرية المرأة	« قصيدة »
٥٦٢	نظام الزواج	المودة والرحمة . وظائف المرأة والرجل . مراعاة واجب العدل القيام بحقوق المرأة .

الصفحة	الموضـــوع	مشتملاته
٥٦٦	تعدد الزوجات	التعدد . دعاية شعرية .
٥٧٠	السنة فى تعدد الزوجات	مكانة المرأة فى الإسلام نـكاح المرأة لدينها ضبط النبى للنفس مغالبته للشهوة حبه النساء وتخسيره لهن الحـكمة فى منع التعدد بأكثر من أربع .
٥٧٨	الطلاق وزواج المتعة	إيضاح الحقيقة فى ذلك النهى عن الطلاق معنى المحصنات من النساء معنى قوله تعالى : فما استمتعتم منهن . المهر ليس هو ثمن البضع .
٥٨٤	نظام الاقتصاد	بحث فى علة فساد المجتمع .
٥٨٦	نظام حفظ الصحة	وسائل الوقاية واتخاذ أسباب المعالجة .
٥٨٧	الحضارة الغربية والإسلامية	الرأسماليين عبدة المادية الشيوعية ونظامها الفاسد . نظم الإسلام وتعاليمه كيف تجمع الثروة وفيم تنفق . الأسس التى تقوم عليها الحضارة الإسلامية .
٥٩٥	خاتمـة	
٥٩٦	الاستغاثة الـكبرى	

اعتذار

حصل سقط بعض الكلمات وأشكل على مصحح المطبعة تبيين بعض العبارات فأجرى وضعها بمالايخل بالمعنى وهى لا تخفى على القارئ الكريم من سياق البحث كما أنه حصل غلط فى الأرقام مابين الصفحة ٤٦٥ و ٤٩٧ حيث كتب رقم خمسمايه بدلا من أربعمايه فنعتذر عن ذلك .

DATE DUE

DATE DUE

02789701

INSERT

BOOK CARD

PLEASE DO NOT REMOVE
A TWO DOLLAR FINE WILL
BE CHARGED FOR THE LOSS
OR MUTILATION OF THIS CARD

LOC CALL NUMBER / MAIN ENTRY

BP 161 .A2

Columbia University
in the City of New York

IN LUMINE TUO VIDEBIMUS LUMEN

THE LIBRARIES

PRINTED IN U.S.A.

JTC 2693

02789701

BP 161
.A2

FEB 25 1970

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU55326560
BP161 .A2
Asma al-risalat.